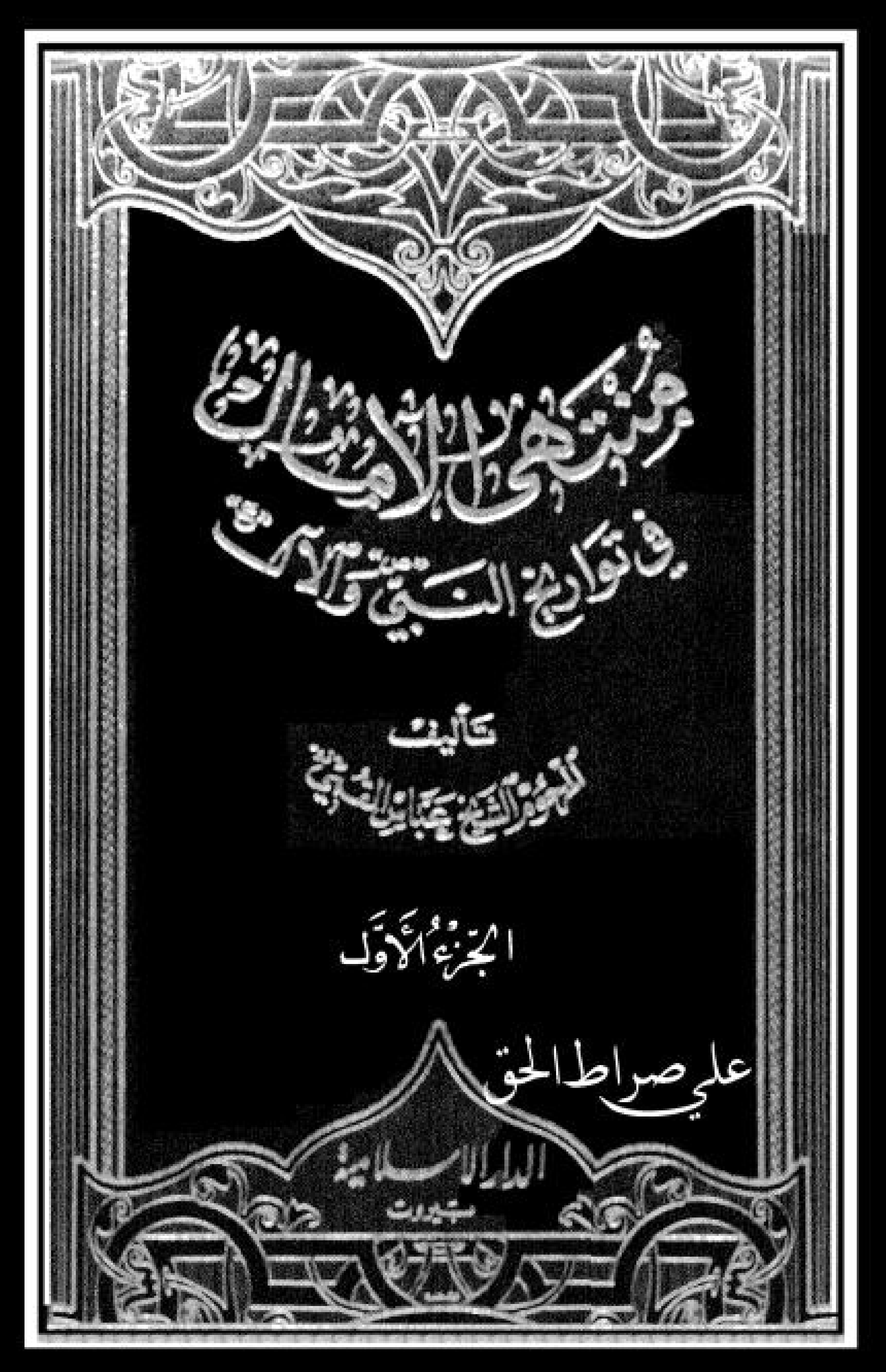

منتهى الآمال
في تواريخ النبي والآل
تأليف
المحدث الشيخ عباس القمي
الجزء الأول
علي صراط الحق
الدار الإسلامية
بيروت


منتهی الآمال
في تواريخ النبي والآل
۱



كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر الطابق الثاني
هاتف: 816627. ص ب: 14/5680
المكاتب والمستودعات - حارة حريك شارع دكاش
هاتف: 820704 - 835670. ص ب: 25/209



تأليف

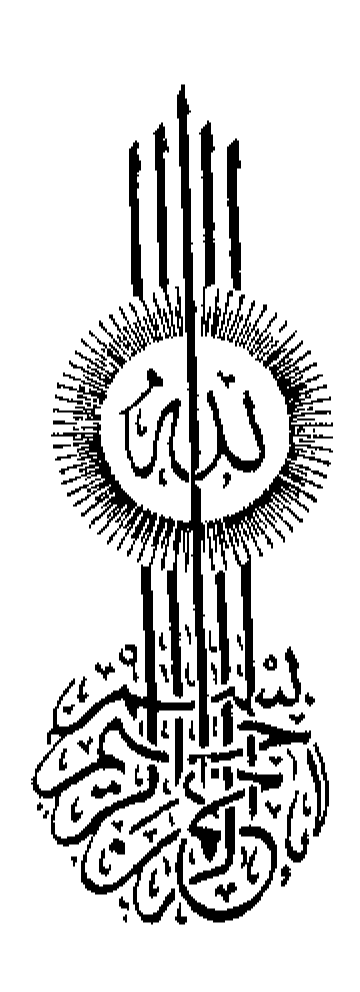
المرحوم الشيخ عباس القمي

تعريب

الأستاذ نادر التقي

الجزء الأول

الدار الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلوات وأتم التسليمات على سيد الخلق حبيب الخالق ورسوله محمد بن عبد الله وآله الطيبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وبعد،

هذا هو كتاب **(منتهى الآمال في معرفة النبي والآل)** لمؤلفه المعروف العلم العلامة المرحوم الشيخ عباس القمي(ره)، وهو في مجلدين مفصلة ومبوبة بطريقة علمية ممنهجة، بحيث جاءت شاملة لسيرة سيد المرسلين والأئمة المعصومين المطهرين من آل بيته (عليهم صلوات الله وسلامه) كما تضمنت المجلدات بالترتيب بعضاً من كرامات النبي والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم.

والدار الإسلامية، وقد أخذت على عاتقها نبش الكنوز الإسلامية الثقافية الدفينة، لتقدمها للمسلمين في كل مكان، ارتأت أن تقوم بطبع هذا الكتاب، نظراً للقيمة الجليلة التي يمثلها، في وقت ترى فيه أن الأمة بأمسّ الحاجة إلى مراجعة تاريخها، والإقتداء بنبيها وأوصيائه عليهم صلوات الله وسلامه، بعد الضياع والتخبط الذين باتت هذه الأمة تعيشهما، خصوصاً وأن الناس قد انحرفوا، إلا من رحم ربي، عن الصراط المستقيم الذي رسمه لهم الخالق سبحانه، بأيدي هؤلاء الأئمة الأطهار.

والكتاب، كما لا يخفى، مؤلف باللغة الفارسية، فكلّفت الدار **الأستاذ محمد نادر**

التقـي بنقلـه إلـى اللغـة العربيـة، لتعـم الفائـدة، فجـزاه الله عـن الأمـة أفضل الجزاء، وكان سعيه مشكوراً.

نسـأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، إنه هو السميع العليم، وهو نعم المولى ونعم المعين.

الدار الإسلامية

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .

يقول الفقير إلى الزاد ، المتمسّك بأذيال أهل بيت الرسالة ، عباس بن محمد رضا القمي ، ختم الله لهما بالحسنى والسعادة :

حيث غدا ثابتاً بمقتضى الأخبار الكثيرة أنّ أعظم الطاعات وأشرف القربات إنما هو إحياء أحاديث أئمة الدين والمقربين إلى ذي الجلال ربّ العالمين ، والبكاء على محن أولئك السادة المظلومين .

كما يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه سأل الفضيل بن يسار :

« هل تجلسون ـ أنتم الشيعة ـ إلى بعضكم في المجالس ، وتذكرون أحاديثنا ؟ » .

قال : « أجل ، جعلت فداك » .

قال (عليه السلام) : « ألا إني أحب تلك المجالس ، فأحيوا ـ أي فضيل ـ أمرنا ، ورحم الله أمرءاً ذكر أحاديثنا وأحيا أمرنا .

«أي فضيل ، مَن ذكرنا ، أو ذُكرنا عنده ، فنزل من عينه دمع بقدر جناح ذبابة ، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر» .

ويروى ـ بأسانيد معتبرة ـ عن مولانا الإمام زين العابدين (عليه السلام) :

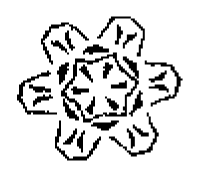
ألا كل مؤمن نزلت من عينه قطرة دمع ، حزناً على قتل الحسين بن عليّ

(عليهما السلام)، فجرت على وجهه، أمر الحق تعالى بغرف الكرامة فبنيت له في الجنة؛ ألا كلّ مؤمن نزلت من عينه دمعة فجرت على وجهه، للعذاب الذي أنزله بنا الأعداء في الدنيا، هيأ الله له مكاناً طيباً في الجنة؛ ألا كلّ مؤمن أصابه أذىً في ولايتنا ومحبتنا، فجرى الدمع من عينه على وجهه من شدّة تلك المصيبة وحرقتها، رفع الحق تعالى عنه كل عذاب، وحفظه في القيامة من غضبه، ومن نار جهنم.

لهذا، جرى في خاطري العزم على تأليف كتاب في ذكر مواليد ومصائب سيد المرسلين وعترته الطيبين، صلوات الله عليهم أجمعين؛ مع ذكر طرف من فضائل أولئك العظام ومناقبهم وأخلاقهم، كي يفوز المؤمنون ـ بقراءتها وسماعهم لها ـ بثواب إحياء أحاديثهم؛ وكي يبلغوا ـ بالحزن والبكاء على مصائبهم العظيمة ـ درجات المقرّبين.

لذا قمت بجمع هذا الكتاب الشريف بأكمل إيجاز واختصار وأسميته: «منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل» وجعلته مرتّباً على أربعة عشر من الأبواب، بعدد المقربين من ربّ الأرباب.

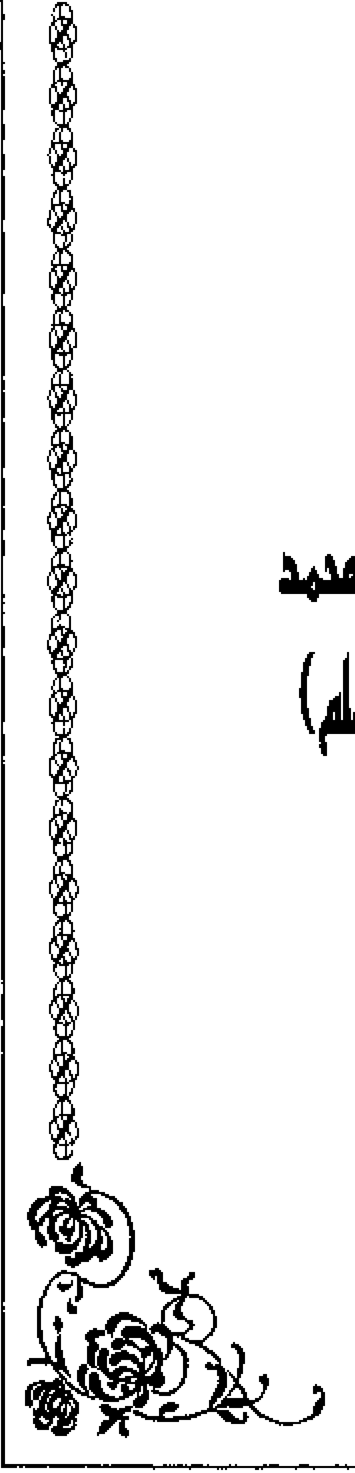
* * *





الباب الأول

في تاريخ خاتم الأنبياء محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم)



الفصل الأول

في النسب الشريف لحضرة الرسول (صلى الله عليه وآله)

هو أبو القاسم محمد (صلّى الله عليه وآله) ، بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

روي عن النبي(صلّى الله عليه وآله) أنه قال : « إذا بلغ نسبي إلى عدنان فامسكوا » . ولهذا أمسكنا عن ذكر ما فوق عدنان .

وقبل الشروع بالحديث عن أحوال هذه الجماعة ، ننقل كلاماً للعلاّمة المجلسي ، قال :

اعلم إنّ إجماع علماء الإمامية معقود على أن أبا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأمّه ، وجميع أجداده وجدّاته حتى آدم (عليه السلام) كانوا كلّهم مسلمين ، وأن نوره (صلّى الله عليه وآله) لم يستقرّ في صلب ورحم مشركين ، وليست هناك شبهة في نسبه (صلّى الله عليه وآله) ونسب آبائه وأمّهاته ، وللأحاديث المتواترة عن الخاصة والعامة دلالتها على هذه المضامين .

بل يتّضح من الأحاديث المتواترة أن أجداده (صلّى الله عليه وآله) كانوا كلّهم انبياء وأوصياء وحملة لشريعة الله ، وأن أبناء إسماعيل ـ وهم أجداده (صلّى الله عليه وآله) ـ كانوا أوصياء لإبراهيم (عليه السلام) . وسادة لمكّة ، وسدنة لبيت الكعبة ، وكان ترميمها وإعمارها موكولاً إليهم ، كما كانوا مرجعاً للخلق عامّة ، وفيهم كانت ملّة إبراهيم (عليه السلام) ، وكانوا حفظة لتلك الشريعة ، يوصي بها بعضهم بعضاً ، كما يودع احدهم الآخر آثار الأنبياء حتى وصلت إلى عبد المطّلب ، الذي جعل أبا طالب وصيّاً له ، وقام ابو طالب بتسليم آثار الأنبياء وودائعهم (عليهم السلام) إلى حافظ الرسالة (صلّى الله عليه وآله) . انتهى .

ونشرع الآن بالحديث عن أحوال أولئك العظام :

عدنان المذكور بن « اُدد » واسم اُمّه « بلهاء » ، وفي أيام طفولته كانت بوارق الرشد والشهامة تلتمع على جبينه المبارك ، وكان كهنة ذلك العهد ومنجّمو تلك الأيام يقولون بأنّه سيظهر من نسله شخص يطيعه الإنس والجانّ ، ولهذا السبب برز له أعداء كثيرون .

ولما بلغ عدنان الرشد غدا سيّد قومه وقبيلة العرب ، كما أن ساكني البطحاء وسكّان يثرب وقبائل البرّ كانوا منقادين مطيعين لحكمه .

ولمّا فرغ « بختنصّر » من فتح بيت المقدس صمّم على قهر بلاد العرب وأهلها ، فتصدى له عدنان حرباً وقتالاً ، وقضى على الكثير من أعوانه ، غير أنه تغلّب على عدنان في النهاية ، وقتل عدداً من رجاله ، الأمر الذي لم يبق معه مجال لإقامة عدنان ورجاله حيث هم ، وغدوا لا مندوحة لهم عن أن يتفرّق كلٌّ منهم في اتجاه ، وتوجّه عدنان مع أبنائه إلى اليمن ، حيث تحوّل هذا الملاذ وطناً له ، بقي فيه حتى وافته منيّته .

وكان لعدنان عشرة من الأبناء ، منهم معدّ وعكّ وعدن واُدّ وغنى ، وذلك النور الذي كان قد أشرق في جبين عدنان تلألأ في طلعة ابنه معدّ ، كما أن هذا النور المبارك في وجود نبي آخر الزمان هو الدليل الواضح على انتقاله من صلب إلى صلب ، ولأن ذلك النور الطاهر قد انتقل إلى معدّ ، واتفق أن « بختنصّر » قد فارق الدنيا وأصبح الناس في أمان من شرّه ، فقد أرسل نفر في طلب معدّ ، واستقدموه إليهم في جماعة من العرب ، وأصبح نقيباً للذريّة ، ومن صلبه خرج أربعة أبناء ، وانتقل نور جماله إلى ابنه نزار ، وكانت أمه مُعانة بنت خَوْشَم من قبيلة جرهم ، وحين قدم نزار إلى الدنيا ، ورأى أبوه نور النبوة يلتمع بين عينيه ، سر سروراً عظيماً ، وقدّم الإبل للذبح قرباناً ، ودعا الناس إلى الطعام وهو يقول :

« إنّ هذا كلّه نزر في حقّ هذا المولود » .

ويقال إنه قرّب ألفاً من الابل ، وحيث إن نزراً تعني القلّة فقد سمّي الطفل نزاراً ؛ وحين بلغ رشده ، وتوفّي أبوه ، ترأس نزار قبيلته ، وأصبح سيداً للعرب ، وأنجب أربعة أبناء ؛ وحين شعر بدنّو الأجل المحتوم يمّم من البادية شطر مكّة المعظّمة ، ووافاه الأجل هناك .

أما أبناؤه الأربعة فأوّلهم ؛ ربيعة ، والثاني إنمار ، والثالث مُضَر ، والرابع إياد ؛ وتروى عنهم قصة لطيفة معروفة في صدد تقاسمهم لأموال أبيهم ، ورجوعهم في ذلك إلى حكم « أفعى الجرهمي » ، وكان بارعاً في علم الكهانة ، كما كان مرجعاً للأعاظم والأشراف في نجران .

ومن إنمار خرجت قبيلتان : خَثعَم وبجيلة ، وكانتا تستوطنان اليمن ؛ وإلى إياد يُنسب قسّ بن ساعدة الإيادي ، الذي كان من حكماء العرب وفصحائهم ، كذلك تفرعت عن ربيعة ومُضر قبائل كثيرة أيضاً ، كما أن نصف العرب ينسبون إليهما ، وقد أصبحوا مضرباً للمثل من حيث كثرة أعدادهم .

وفي فضل ربيعة ومضر يكفي ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال : « لا تسبّوا مضر وربيعة فإنهما مسلمان » .

ومُضَر (بضمّ الميم وفتح الضاد المعجمة) معدّلة عن ماضر ، وتعني الحليب قبل أن يصبح لبناً .[١] واسم مضر : عمرو ، وأمّه سَوْدة بنت عكّ ؛ وقد انتقل نور النبوة إليه من نزار ، ويواصل نسل السادة امتداده .

وكان العرب يولونه الطاعة والإنقياد ، مما سهّل الترويج لدين إبراهيم (عليه السلام) ، وتمضي الأيام وينجو الناس نحو طريق الإيمان ؛ ويقال إن صوته فاق أصوات جميع الناس حسناً ، وكان أول حادٍ للإبل ، ومنه أتى إلى الوجود ولدان ، أحدهما : عيلان (بفتح العين المهملة وسكون الياء) ومنه أتت قبائل كثيرة .

وثانيهما : إلياس الذي انتقل إليه نور النبوّة ، فلا غرو أن عظم شأنه بين القبائل بعد أبيه ، وقد لُقّب بسيّد العشيرة ؛ وكان يدير شؤون القبائل وأمورها بالصلاح وسداد الرأي ، وغدا فيصلاً في تلك الأمور .

وحتى ذلك اليوم الذي انتقل فيه النور المحمديّ من صلبه كانت تسمع أحياناً هينمات التسبيح ، وكان العرب يعظّمونه على الدوام ويعدّونه من الكبراء كلقمان وأشباهه .

أمّه واسمها رباب ، وزوجه ليلى بنت جلوان ، قضاعيّة يمنيّة ، ويقال لها خِنْدِف ، رزقت منه بثلاثة أبناء : عمرو وعامر وعمير ، ويروى أن الأبناء حين بلغوا سنّ الرشد ، رافق عمرو وعامر أمّهما ليلى إلى الصحراء ، وهناك لاح لهم أرنب يتحرك عن بعد ، ثم يفرّ في أحد الاتجاهات ، فنفرت منه الإبل خوفاً ، لكن عمراً وعامراً انطلقا في أثره ، وكان عمرو الأول في الوصول إليه وتبعه عامر ، فاصطاده ثم شواه .

غمر ليلى السرور والزهو مما فعل ولداها ، ثم عادت مسرعة إلى إلياس ، ولما رأى ما هي

---

(١) وفي المنجد : اللبن الماضر : الحامض . وسمّي مضر . بذلك لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر (المعرّب) .

عليه من تبختر ، سألها « أين تخندفين ؟» (يقال لمن يتبختر ويزهو بنفسه : خندفة) قالت ليلى :

« أنا دائماً بك أزهو وافتخر » .

ولهذا السبب لقّبها إلياس بخندف ، ومن هنا يقال للقبائل التي تنتمي بالنسب إلى إلياس : بني خندف[1] (بكسر الخاء والدال المهملة المكسورة ، على وزن زبرج) ، ومن هنا أيضاً أن إلياس لقّب عمراً بـ« مُدركة » ، لأنه كان أول من أدرك الأرنب ، كما لقّب عامراً بـ« طابخة » لأنه اصطاده وشواه ، ولأن عميراً كان أثناء هذه الواقعة منقمعاً في الخباء ، منصرفاً عن القيام بشيء فقد لُقّب بـ« قَمَعَة » (محرّكه)

وإجمالاً ، فقد كانت خندف مغرمة بإلياس كثيراً ، ويقال إنها حزنت عليه حزناً شديداً عند موته ، فلم تفارق قبره ؛ بعد أن شيدت فوقه سقفاً يظلله ، حتى وافتها المنية على ذلك .

ثم انتقل نور النبوّة من إلياس إلى مدركة (بضم الميم وكسر الراء) ، ويقال إن هذا هو السبب في تلقيبه بمدركة ، إذ نال وأدرك كل الشرف الذي كان يحوزه آباؤه ؛ كما كان يكنّى بـ« أبي الهُذَيْل » ، وزوجه تدعى سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار ، وقد رزق منها بولدين أحدهما خُزيمة والآخر هُذَيل ، وهو أبو قبائل كثيرة .

ثم انتقل نور النبوّة إلى خزيمة (بضم الخاء وفتح الزاي المعجمتين) ، الذي حكم قبائل العرب بعد أبيه ، ورزق بأبناء ثلاثة : كنانة ، وبنون ، وأسد . وكنانة (بكسر الكاف) أمّه عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان بن مضر ، وكنيته أبو النضر ، وحين كان يترأس قبائل العرب قيل له في نومه : تزوّج من برّة بنت مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس ، ترزقْ منها بولد يكون أوحد زمانه ؛ فتزوج برّة ورزق منها بأولاد ثلاثة : النضر ، وملك ، وملكان . كما تزوج من هالة وكانت قبيلة الأزد ورزق منها بولد يدعى بعبد مناة ؛ ومن بين جميع أبنائه فقد سطع نور النبوة من جبين النضر ، وسبب تسميته بالنضر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) يعود إلى نضارة وجهه ، كما يدعونه بـ« قريش » أيضاً ، وكانت كل قبيلة يعود نسبها إلى النضر تدعى قرشيّة ؛ وتتضارب الأقوال في سبب تسمية النضر بقريش ، ولعل أقربها إلى الصحة هو أن النضر إذ كان رجلاً عظيم القدر ذا حصافة ، وكان سيّد قومه ، فقد عمل على لمّ شمل من

---

(١) ولهذا السبب فإن يزيد حين حمل إليه الرأس الشريف للحسين (عليه السلام) راح ينشد : لست من خندف إن لم أنتقم الخ . فردت عليه زينب (عليه السلام) : وكيف يرتجى من لفظ فوه أكباد الأزكياء الخ . . . فنسبته إلى أكلة الأكباد .

تفـرّق من قبيلته ، فكـانوا ـ يجتمعـون كل صبـاح حول خـوانه المبسـوط ، ومن هنا نـال لقب قريش ؛ ذلك أن التقرّش يعني التجمّع .

وكان النضر أباً لوالدين هما مالك ويَخْلُد ، وكان النبوة نور في جبين مالك ؛ وأمّه عـاتكة بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ؛ وكان لمـالك ابن يـدعى فهراً (بكسر الفاء وسكون الهاء) ، وأمّه جندلة بنت الحارث ، الجرهميّة .

وكان فهر رئيس الناس بمكة في زمانه ، ويقـال له جمّـاع قريش ، وكـان له من ليلى بنت سعد بن هذيـل أربعة أبنـاء : غالب ، ومحـارب ، والحارث ، وأسـد ؛ ومن بينهم انتقل نـور النبوّة إلى غالبٍ .

وكـان لغالب إبنـان من سلمى بنت عمرو بن ربيعـة ، الخـزاعيّـة ، همـا : لؤيّ وتيم ؛ وانتقل نور النبوّة الشريف إلى لؤي ، ولؤي (بضم اللام وفتح الهمزة وتشـديد اليـاء) تصغير اللأي ويعني النور ؛ وكان له أربعة أبناءٍ هم : كعب ، وعامر ، وسامة ، وعـوف ؛ ومن بين جميعهم انتقل نور النبوّة إلى كعب ، وأمه مارية بنت كعب القضاعيّة ، وكان كعب بن لؤي من صناديد العرب ، عظيم القدر في قريش يفوق من عداه ، وكـان بيته ملجـأ وملاذاً لـلآئذين ؛ وكان من عادة العرب أن يؤرخوا لعظمائهم بواقعـة كبيرة تقـع لهم ، فلا جـرم أنّهم أرّخوا عـام وفاته وكان بعد هبوط آدم بـ ٥٦٤٤ عاماً ، إلى عام الفيل .

وكـان كعب أباً لثـلاثـة أبنـاء ، هم : مُرّة (بضم الميم وتشـديـد الـراء) ، وعُـديّ ، وهُصيص (بمهمـلات كزبـير) ؛ وكان هصيص أكـبر إخوتـه ، وكـان لـه ابن بـاسم عمـرو ؛ ولعمرو ابنان هما سهم وجُمَح (بضم الجيم وفتح الميم) ، وإلى سهم يُنسب عمرو بن العاص ؛ وإلى جمح يُنسب عثمان بن مـظعـون ، وصفـوان بن أميّـة ، وأبـو محـذورة مؤذّن رســول الله (صلّى الله عليه وآله) ؛ وإلى عديّ بن كعب يُنسب عمر بن الخطاب .

ومرّة بن كعب هو من انتقل إليه النور المحمّدي من أبيـه ، وكان لـه ثلاثـة أبناء : الأول كلاب ، وأمه هند بنت سُرَيْر بن ثعلبة ؛ والثاني تَيمْ (بفتح التاء وسكون الياء) وثالثهم يَقَـظة (بفتح الياء والقاف) ؛ وأمّ الأخيرين البارقيّة ، وإلى تيم تنسب قبيلة أبي بكر وطلحة ؛ وكـان ليقظة ابن اسمه مخـزوم ، وإليه يتنسب بنو مخزوم ومنهم أم سَلمـة ، وخالـد بن الوليـد ، وأبو جهل ؛ وكان لكلاب بن مرّة ولدان ، أحدهما زهرة وتنسب إليـه آمنة أمّ رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله) ، وسعـد بن أبي وقّاص ، وعبـد الرحمن بن عـوف ؛ والثـاني قُصيّ (بضم القـاف وفتح الصـاد المهملة ويـاء مشدّدة) واسمـه زيد ، وإنّما سمّي قصياً لأن أمّـه فاطمـة بنت سعد تزوجت بعد وفاة زوجها كـلاب من ربيعة بن حـرام القضاعي ، وكـان أخوه الأكـبر زهرة قـد

تخلّف في مكة ، وقصيّ طفل ، فاحتمله زوج أمّه إلى قومه بني قضاعة مع أمّه ، فسمّي قصيّاً لأنّه أقصي عن مكّة ، وحين بلغ مبلغ الرجال رافق أمّه وأخاه لأمّه رزّاح بن ربيعة[1] إلى مكّة في موسم الحج ، مع لفيف من حجّاج بني قضاعة ، حيث بقي هناك إلى جانب شقيقه زهرة ، حتى تسنّم ذروة الملك .

كان كبير مكة في ذلك العهد هو حُلَيْل بن حُبْشيّة (بحاء وسين مهملتين على وزن وحشيّة)[2] وكان قد استولى على مكة مع قومه بني خزاعة ، بعد حكم الجرهميين ؛ وكان ذا بنين وبنات منهم ابنته حُبّى (بضمّ الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة) ، وقد اتخذها قصي زوجة له ، وحدث أن ظهر وباء في مكة فغادرها حُليل وقومه ، حيث وافته المنيّة وهو خارج مكّة ، وكان قد أوصى بأن تؤول حجابة البيت بعده إلى ابنته حُبّى على أن يشركها في ذلك أبو غبشان الملكاني ، واستقرّ الأمر على هذه الحال زمناً رزق فيه قصيّ من زوجته بأربعة بنين وهم : عبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبد قصيّ ، وعبد الدار .

وقال قصيّ لزوجته : إن ابنك عبد الدار أولى بتسلّم ولاية الكعبة ، كي لا تخرج ولايتها عن أبناء إسماعيل (عليه السلام) .

قالت : لا مانع لديّ أبداً من جهة ولدك ، ولكن . . . ما العمل مع أبي غبشان ، وهو ـ بحكم وصية أبي ـ شريك لي ؟ .

قال قصيّ : دعي علاج هذا الأمر لي ، فهو عليّ هيّن .

هكذا تنازلت حبّى عن حقّها في حجابة الكعبة لابنها عبد الدار ، وبعد أيام قصد قصيّ الطائف حيث يقيم أبو غبشان .

وفي إحدى الليالي ، وأبو غبشان مشغول في مجلس شرابه ، حضر قصيّ إلى المجلس ، وتريّث ريثما بلغ السكر من أبي غبشان مبلغه ، فاشترى منه ولاية البيت بزق خمر ، وأحكم صفقته بشهادة الشهود ، وتسلم منه مفتاح البيت ، ثم عجّل بالعودة إلى مكّة حيث سلّم المفتاح إلى ولده عبد الدار في محفل من أهل مكّة جمعه لهذا الغرض .

أما أبو غبشان ، فإنه لمّا استفاق ندم أشدّ الندم على فعلته ، بعد أن أسقط في يده ، وغدا مضرب المثل في الحمق بين الأعراب ، حتى كان يقال : أحمق من أبي غبشان ، أندم من أبي غبشان ، أخسر صفقة من أبي غبشان .

---

(١) في تاريخ الطبري : رزاح بن ربيعة (المعرّب) .
(٢) في تاريخ الطبري : حُلَيْل بن حبشيّة . (المعرب) .

وهكذا استتبّ الأمر لقصيّ ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ؛ فالحجابة هي الاحتفاظ بمفتاح البيت ، والقيام بفتحه أمام الحجيج وإغلاقه ؛ والسقاية والرفادة تعنيان تقديم الماء والطعام لضيوف البيت ، وقد ابتاع قصيّ أرضاً في جوار بيت الله فابتنى فيها داراً للندوة حيث كان سادة قريش يجتمعون للشورى ، وجعل بابها إلى المسجد ، كما كان يعقد ألوية الحروب العامة لأمراء الجيش .

واستقرّ هذا الأمر في أبناء قصيّ حتى عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

وإجمالاً فإن قصيّاً جمع الناس وقال لهم :

يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإن الحجاج ضيوف الله وزوّاره ، وهم أحقّ الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام هذا الحج ، حتى يصدروا عنكم .

ففعلوا ، فكانوا يُخرجون لذلك كلّ عام من أموالهم ، فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس ، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الإسلام .

ثم قسّم قصيّ مكّة أربعة أقسام ، أسكن فيها قريشاً ، ولما رأى بنو خزاعة وبنو بكر غلبة قصيّ على مكّة جمعوا جيشاً لحربه ، فهزم أمامهم في بادىء الأمر ، لكنه استنجد بأخيه لأمّه رزّاح بن ربيعة ، فأقبل إليه رزّاح وفي إخوة له آخرينَ من أبيه ربيعة ، ومعهم قوم من قضاعة ، ومع قصيّ قومه من بني النضر ، فمالت كفّة الحرب لمصلحته ، فأجلى خزاعة عن البيت ، واستقرّ له أمر قريش والعرب ، ثم جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة ، فسمّي «مجمّعاً» ، وفي هذا يقول الشاعر :

أبوكم قصيّ كان يدعى مجمّعاً ... به جمع الله القبائل من فهْرِ

وهكذا عظم شأن قصيّ ، فكان لا يُقضى أمر دون إذن منه ، ولا تُنكح امرأة ولا يعقد لواء إلّا في داره ، وكانت أحكامه في قومه كالدين المتّبع ، في حياته وبعد مماته .

فوّض قصيّ أمر السقاية والرفادة والحجابة واللواء ودار الندوة إلى ولده عبد الدار ، وورث ذلك عنه أولاده من بني شيبة .

وبعد أن أتمّ قصيّ واجباته وافته المنية ، فدفن في الحَجون (بفتح الحاء المهملة وضم الجيم وسكون الواو) وهي مقبرة تقع عند مشارف مكة .

وبعد وفاة قصيّ انتقل النور المحمّدي إلى عبد مناف ، واسمه المغيرة ، وكان يُلقّب بقمر البطحاء لجماله ، وكنيته أبو عبد شمس ؛ تزوج عاتكة بنت مرّة بن هلال السلميّة ، ورزق منها

بولدين توأمين ، ولدا وإصبع أحدهما ملتصقة بجبهة أخيه ، فتم فصلهما بالسيف ، وسمّي أحدهما هاشماً ، والآخر عبد شمس .

قال أحد العارفين العرب حين سمع بهذه الواقعة : لن يكون بين أبناء هذين إلّا السيف فيصلا ؛ وهكذا كان ، فقد كان عبد شمس أباً لأميّة ، وكان أولاد أميّة في خصام دائم مع أبناء هاشم ، واستلّت السيوف بينهم .

وكان لعبد مناف ولدان غير هذين ، أحدهما : المطّلب ، ومن قبيلته عبيدة بن الحارث ، والشافعي ؛ والآخر نوفل ، وإليه ينتسب جبير بن مطعم .

وهاشم بن عبد مناف واسمه عمرو ، وكان يقال له لعلوّ شأنه : عمرو العلى ، كما كان هو والمطّلب يدعيان بالبدرين لحسنهما ؛ وكانت بينهما علاقة حميمة ، وكذلك بين نوفل وعبد شمس .

لما بلغ هاشم الرشد بدت عليه مخايل الفتوّة والمروءة ، واستظل أهل مكة بظل حمايته ؛ حين أصابهم القحط وعمّ الغلاء ، فرحل إلى الشام ، وأوسق إبله بالدقيق ، وقدم به مكة ، فكان يأمر بالجزور فيذبح ، وبالدقيق فيطبخ بلحومها ومرقها ، ثم يدعو أهل مكة إلى ثريده كل صباح ومساء ، ومن هنا جاءت تسميته بهاشم ، لأنه أول من هشم الثريد لقومه ، يقول الشاعر :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه قوم بمكّة مسنتين عجاف

وذكر أن هاشماً هو أول من سنّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف :

نسبت إليه الرحلتان كليهما سير الشتاء ورحلة الأصياف

علا شأن هاشم ، وقويت شوكة بني عبد مناف حتى كان لهم السبق على بني عبد الدار ، وفاقوهم رفعة وشرفاً ، فلا غرو أنهم تطلّعوا إلى الفوز بالسقاية والرفادة والحجابة واللواء ودار الندوة من بني عبد الدار ، وكان الإخوة الأربعة هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل على اتفاق ووئام فيما بينهم .

في ذلك الوقت كان رأس بني عبد الدار هو عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان على معرفة بنوايا عبد مناف ، فراح يجمع أعوانه وأنصاره ، كما جمع بنو عبد مناف أنصارهم وأعوانهم .

في هذا الحين كان بنو أسد بن عبد العزّى بن قصيّ ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تميم بن مرّة ، وبنو الحرث بن فهر ، قد تحوّلوا إلى نصرة بني عبد مناف .

أحضر هاشم وإخوته إلى المجلس وعاء ملأوه بالطيب والروائح الزكية ، وبعد أن مسح القوم أيديهم بذلك الطيب وضعوها بأيدي بني عبد مناف ، يداً بيد ، وأقسموا ألاّ يستريحوا قبل أن ينجزوا ما أرادو ، ومن أجل إحكام اتفاقهم يمّموا شطر البيت الحرام ، وأكدّوا أقسامهم بعد تناول الكعبة بأيديهم على أن يأخذوا المناصب الخمسة كلّها من بني عبد الدار . ومن هنا جاءت تسميتهم بـ « المطيّبين » كونهم مسحوا أيديهم بالطيب .

ومن جانب آخر تداعى بنو مخزوم ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص ، وبنو عديّ بن كعب لنصرة بني عبد الدار ، ويمّموا مع محالفيهم شطر البيت الحرام ، وأقسموا أن لا يسمحوا لبني عبد مناف بالتدخل بشؤونهم ، وقد سُمّوا بـ « الأحلاف » .

ولما اشتدت العداوة غلياناً بين المطيبين والأحلاف ، ولجأوا إلى إعداد السلاح وأدوات القتال ، تداعى العقلاء من الجانبين وتوسّطوا بين الفريقين المتنازعين ، وأقنعوهما بأن في القتال خسراناً للجميع ، ولن ينجم عنه سوى سفك الدماء وضعف قريش ، والإساءة إلى سمعتها بين الأعراب ، وأنّ من الأفضل للفريقين اللجوء إلى الصلح .

وهكذا قعدوا للصلح ، وتوصّلوا إلى إقرار اتفاق تكون السقاية والرفادة بموجبه لبني عبد مناف ، بينما تكون الحجابة واللواء ودار الندوة لبني عبد الدار ؛ ولما انحسر النزاع عاد التحفظ ليذرّ بقرنه بينهم ، فاقترع بنو عبد مناف فيما بينهم على المنصبين اللذين كانا من نصيبهم ، فوقعت القرعة بالمنصبين على هاشم ؛ وهكذا أضحت المناصب الخمسة بين بني عبد مناف وبني عبد الدار يتوارثونها حتى عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، حيث كان مفتاح البيت في حوزة عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار ، وحتى فتح مكة ، وحين هاجر عثمان المذكور إلى المدينة سلّم المفتاح لابن عمه شيبة ، حيث انتقل إلى أولاده .

أما اللواء فقد بقي مع بني عبد الدار حتى زمان فتح مكة ، فتقدموا من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قائلين : اجعل اللواء فينا . فأجابهم بقوله (صلّى الله عليه وآله) : « الإسلام أوسع من ذلك » ، كناية عن أن الإسلام أكبر من أن تكون رايات الفتح مقصورة على عائلة واحدة .

وأما دار الندوة فاستقرّ أمرها على حاله حتى عهد معاوية ، حيث ابتاعها من بني عبد الدار وجعلها داراً للإمارة .

وأما السقاية والرفادة فقد انتقلتا من هاشم إلى أخيه المطّلب ، ومنه إلى عبد المطّلب بن هاشم ، ومنه إلى ابنه أبي طالب ؛ ونظراً لقلّة ذات يده ، وعجزه عن تلبية مطالب الرفادة ، فقد اقترض من أخيه العبّاس مقداراً من الذهب أنفقه على إطعام الحجاج ، ثم عجز عن وفاء

دينه ، فنقل السقاية والرفادة إلى العبّاس مقابل دَينه ؛ ومن العباس انتقلتا إلى ولده عبد الله ومنه إلى ابنه علي وهكذا حتى وصلتا إلى خلفاء بني العباس .

هـذا ، وبعد أن ذاع صيت هاشم في الآفاق ، راح السلاطين والعظماء يبعثون إليه بالهدايا ، ويتطلّع كلّ منهم إلى أن يتخذه له صهراً ، لعلّ النور المحمدّي الذي يسطع من جبينه ينتقل إلى زوجه ، لكن هاشماً كان يرفض ، فميوله كانت عند بنت من نجباء قومه ، رُزق منها بأبناء ذكور وإناث ، منهم أسد أبو فاطمة ، أم أمير المؤمنين (عليه السلام) ؛ غير أن النور بقي في جبينه .

وذات ليلة وبينما كان يطوف حول الكعبة راح يتضرع ويبتهل إلى الحقّ تعالى أن يهبه ابناً يحمل عنه هذا النور الطاهر ، فأتاه الأمر في منامه أن تقدّم لطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد من بني النجار في المدينة ، زوجة لك .

عزم هاشم على التوجه إلى الشام ، فسلك طريق المدينة إليها ، فلما قدم المدينة قصد بيت عمرو فخطب ابنته سلمى إليه ، فأنكحه إيّاها شرط الا تلد ولداً إلّا في أهلها ، ويبقى الولد في المدينة ، فلا يغادرها إلى مكة ، ورضي هاشم بهذا الشرط ، ثم مضى لوجهته قبل أن يبني بها . ولما انصرف راجعاً إلى المدينة حمل سلمى معه إلى مكة وبنى بها هناك ، وحملت ، فلمّا أثقلت أتى بها إلى دار قومها بيثرب وفاء لعهده الذي قطعه لأبيها ، ثم مضى في طريقه إلى الشام ؛ وفي غزّة (بفتح المعجمتين) ، وهي مدينة في أقصى الشام بينها وبين عسقلان فرسخان ، وافاه الأجل ، ودفن فيها .

وفي يثرب ، وضعت سلمى وليدها عبد المطّلب وأسمته عامراً ، وكانوا يدعونه بـ« شيبة » لأنه كان في رأسه شيبة عند ولادته ، وقامت على رعايته وتربيته حتى غدا بإمكانه التمييز بين يمين وشمال ، ولاحت عليه مخايل الحسن في الخصال ، والحمد في الفعال ، فلقّب بـ« شيبة الحمد » .

في ذلك الوقت كان عمّه المطّلب سيّد قومه في مكة ، وكانت إليه السقاية والرفادة ، كما كانت عنده قوس إسماعيل وعلم نزار ، ولما علم بابن أخيه قدم إلى يثرب وأخذه ، وأردفه على عجز ناقته وسار به إلى مكة ؛ فقدمها ضحوة والناس في مجالسهم ، فجعلوا يقولون : من وراءك ؟ فيقول : هذا عبدي ، حتى أدخله منزله . ثم خرج به العشيّ إلى مجلس بني عبد مناف ، فأعلمهم أنه ابن أخيه ، فكان بعد ذلك يطوف بمكة ، ويقال : هذا عبد المطلب ، وغلب هذا الإسم عليه .

راح عبد المطلب من هنا فصاعداً يلبس لبوس المجد فيتألّق بين بني عبد مناف ، وتظهر

ملكاته الحميدة بين الناس يوماً بعد يوم ، وشأنه يسمو ؛ واستمرت حياته على ذلك حتى وفاة عمّه ، فتحوّلت إليه الرفادة والسقاية وغيرهما ، وزاد شأنه علوّاً واشتهاراً حتى صارت التحف والهدايا تتقاطر إليه من البلاد والأمصار البعيدة ، وشرُف في قومه وعظم فيهم خطره ، فمن آمّنه منهم أمِن ، ولما ألمّت بالعرب نازلة ، صعدوا به إلى جبل ثبير ، وقدموا القرابين ، وسألوا تلبية الحاجات ببركة عظمته ، ومسحوا وجوه أصنامهم بدماء القرابين ، أما عبد المطّلب فلم يكن يرفع الحمد سوى لله الواحد الأحد .

كان الحارث بكر عبد المطلب ، فكنّي بأبي الحارث ، ولما بلغ الحارث الرشد ، أُمر عبد المطّلب في منامه بحفر بئر زمزم .

ومما يجدر ذكره أن عمراً بن الحارث ، وكان كبير الجراهمة في مكّة في عهد قصيّ ، كان قد اشتبك في قتال مع حليل بن الحبسية الخزاعي ، الذي تغلب عليه وأمره بالرحيل عن مكّة ، فعزم عمرو فعلاً على الرحيل ، وراح يعدّ لرحيله في مهلة بضعة أيام كانت لديه ، وفي سورة غضبه انتزع الحجر الأسود من الركن المخصّص له ، كما حمل غزالين ذهبيّين صغيرين كان اسفنديار بن كشتاسب قد بعث بهما إلى مكّة كهدية ، مع عدد من الدروع والسيوف ، وهي أشياء تعود ملكيّتها لمكة ، ثم رماها جميعاً في بئر زمزم بعد أن غشّاها بالتراب ، ثم أخذ قومه وانطلق بهم هارباً إلى اليمن .

كان هذا إلى زمان عبد المطّلب ، حيث قام هذا الرجل الكبير مع ابنه الحارث بحفر البئر وإخراج الأشياء المذكورة منها ، فطلبت منه قريش أن يعطيها نصف ما وجده بحجة أنها أشياء تعود إلى أسلافهم ؛ فأحالهم إلى حكم القرعة فرضوا ، فعمد إلى تقسيم الأشياء قسمين ، وأمر صاحب القداح بأن يقرع باسم الكعبة واسم عبد المطلب واسم قريش ففعل ، فخرج الغزالان الذهبيّان باسم الكعبة ، والدروع والسيوف باسم عبد المطّلب ، ولم ينل قريشاً شيء ؛ فباع عبد المطّلب نصيبه ، وصنع بثمنه باباً للكعبة ، أما الغزالان الذهبيّان فعلّقهما على باب الكعبة ، فصارا يعرفان بغزالي الكعبة ، وقد ذُكر أنّ أبا لهب سرقهما وباعهما ، وأنفق ثمنهما في الشراب والميسر .

يذكر ابن أبي الحديد ، وآخرون أنه بعد أن أجرى عبد المطلب ماء زمزم ، اشتعلت نار الحسد في صدور قريش كافّة ، فقالوا له : هذه البئر تعود إلى جدّنا إسماعيل ، ولنا فيها حقّ ، ونحن لك فيها شركاء ؛ فأجابهم : إنها كرامة خصّنا الحق تعالى بها ، وليس لكم فيها نصيب ؛ وبعد خصام شديد تراضوا على أن تحكم بينهم كاهنة من بني سعد ، وكانت في أطراف الشام ، ثم توجه عبد المطّلب مع لفيف من بني عبد مناف إلى الشام ، يرافقهم من كل قبيلة من قبائل قريش بضعة أنفار .

وفي طريقهم في الصحراء نفد الماء من بني عبد مناف ، فمنعهم أفراد قريش ما كان معهم من الماء ، ولما غلبهم العطش ، أشار عليهم عبد المطّلب بأن يحفر كل منهم قبراً له ، حتى إذا هلك من العطش دفنه الآخرون ، فأن يبقى واحد منهم دون دفن خير من أن يبقوا جميعاً ؛ ولما حفروا القبور ، وجلسوا في انتظار الموت ، قال عبد المطلب : إن جلوسنا هكذا دون سعي حتى الموت لعجزٌ ، وإن اليأس من رحمة الله هو من ضعف اليقين ، قوموا بنا نضرب الأرض لعلّ الله يرزقنا ماء .

ثم إنهم حمّلوا متاعهم ، والقرشيون ينظرون إليهم ما هم صانعون ، ولما ركب عبد المطلب راحلته ، انفجرت من تحت خفّها عين تجري بماء صاف عذب ، فقال عبد المطلب : الله أكبر ، وكبّر أصحابه بعده ، ثم نزل وشرب مع أصحابه ، وملأوا بالماء قربهم ، ثم دعوا القرشيينّ أن هلمّوا إلى الماء ، فقد أكرمنا الله به ، فاشربوا منه واحملوا .

ولما رأى القرشيّون هذه المكرمة العظمى لعبد المطّلب قالوا : لقد حكم الله بيننا وبينك ، فليست بنا إلى حكم الكاهنة حاجة ، ولن ترى منّا في أمر زمزم أيّ معارضة ، إن الذي سقاك الماء بهذه المفازة هو الذي سقاك زمزم . ثم انصرفوا عائدين ، وخلّوا بينه وبين زمزم .

وقد زاد حفر زمزم من علّو شأن عبد المطّلب ، وتقاطرت عليه الألقاب من قبيل سيد البطحاء ، وساقي الحجيج ، وحافر زمزم ؛ وكان الناس عند وقوع المصائب يلوذون بكنفه ، وإذا حلّت داهية أو عمّ قحط توسّلوا بنور جماله ، حتى يرفع الحق تعالى الشدائد عنهم ؛ وقد رزق هذا الرجل الكبير عشرة بنين وست بنات ، وسيأتي ذكرهم في عداد قرابة الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) ، وكان عبد الله آثر أبنائه عنده ، وهو وأبو طالب والزبير أمّهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ؛ وحين ولدته أمه عرف أكثر أحبار اليهود والقسيسين النصارى والكهنة والسحرة أنّ أباً لنبيّ آخر الزمان (صلّى الله عليه وآله) قد ولدته أمّه ؛ ذلك أن طائفة من أنبياء بني إسرائيل قد بشّروا ببعث الرسول (صلّى الله عليه وآله) وأن طائفة من اليهود القاطنين في أراضي الشام كانت عندهم قطعة نسيج من الصوف ملوّنة بدم النبي يحيى (عليه السلام) ، وكان كبار الأحبار قد أنبأوا بأن هذا الدم إذا انقلب طرياً فتلك علامة على أن أبا نبيّ آخر الزمان قد ولد ، وأنّ دماً طرياً سيفور ليلة مولده من هذا النسيج ، الذي هو من الصوف الأبيض .

وإجمالاً ، لمّا ولد عبد الله فإن ـ النور النبوي ـ الذي كان يُرى عند كلّ من أجداد النبيّ ـ سطع من جبينه ، وكان يزداد يوماً فيوماً حتى في مسيره وحديثه ، وكان بعد ذلك يلحظ آثاراً غريبة وعلامات عجيبة ؛ فقد صارح أباه يوماً قائلاً : كنت لمّا سرت إلى جانب البطحاء وجبل

ثير رأيت نوراً خرج من ظهري ، ثم استطال إلى فرعين الجه أحدهما ناحية المشرق ، والآخر ناحية المغرب ، ثم اتّصل رأساهما فشكّلا دائرة خرج منها ما يشبه السحاب وانتشر قسم منه فوق رأسي فأظلّني ؛ وهنا تفتحت أبواب السماء فاخترق ذلك النور الفلك ، ثم عاد ليستقرّ في مكانه في ظهري ، وكنت إذا جلست أحياناً في ظلّ شجرة يابسة اخضرّت وأينعت ، وإذا فارقتها عادت إلى يبوستها ؛ وكنت كثيراً ما أجلس على الأرض فأسمع نداء يقول : يا حامل نور محمد ـ (صلّى الله عليه وآله) ـ عليك السلام .

قال عبد المطّلب : أي بنيّ ، لك البشرى ، وأرجو أن نبيّ آخر الزمان سيخرج من صلبك .

في ذلك الوقت أراد عبد المطّلب أن يفي بنذره ، ذلك أنه كان حين أمر بحفر زمزم ، وانتهجت قريش معه سبيل النزاع ، عهد على نفسه مع الله عهداً أنه إذا رزق بعشرة بنين ليكونوا حماة لما يقوم به ، فسيقدّم أحدهم إلى النحر قرباناً ، وإذ هو الآن أب لعشرة بنين ، فقد عزم على الوفاء بعهده .

لذلك فقد جمع أبناءه ، وأطلعهم على ما عزم عليه ، فقدمّ الجميع أعناقهم ؛ فأشار أن يُضرب على أسمائهم بالقداح ، فمن خرجت القرعة باسمه فهو ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذ عبد المطّلب بيده ، وأقبل به إلى إساف ونائلة ، وهما وثنا قريش اللذان تنحر عندهما ذبائحها ، وتناول السيف ليذبحه ، فقام إليه إخوة عبد الله ، وطائفة من قريش ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم يمنعونه قائلين : والله لا تذبحه حتى تُعذر فيه ، فاضطرّ عبد المطّلب إلى النزول عند إرادتهم ، إذ أشاروا بأن ينطلق بابنه إلى عرّافة بالمدينة لتحكم في هذا الأمر ، لعلّ لديها رأياً يكون فيه الفرج ، فوافقهم ، وانطلقوا إلى العرّافة وقصّ عليها عبد المطّلب خبره وخبر ابنه ، فسألت كم دية الرجل فيكم ؟ قالوا : عشر في الإبل ، قالت : فارجعوا إلى بلدكم ، ثم قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل ، حتى يرضى ربّكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها ، فقد رضي ربّكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، ثمّ قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل ، فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فخرج القدح على عبد الله أيضاً ، ثم لم يزالوا يزيدون ويقرعون حتى بلغت الإبل المائة ، وهذه المرة وقعت القرعة على الإبل ، فقال الجميع فرحين : قد انتهى رضي ربّك يا عبد المطلب . فقال : لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، وضربوا فوقعت القرعة على الإبل في المرتين ، فتثبّت عبد المطلب من صواب ما فعل ، وأمر بالإبل فنحرت ؛ ومن هنا قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « أنا ابن الذبيحين» ،

وأراد بالذبيحين جدّه إسماعيل ذبيح الله ، وأباه .

ـ يقول العلّامة المجلسيّ : لما بلغ عبد الله سنّ الشباب ، سطع نور النبوّة من جبينه ، وأمل الأكابر من النواحي والأطراف أن يزوّجوه إحدى بناتهم علّها تفوز بهذا النور ، فقد كان أوحد زمانه في الحسن والجمال ، فإذا مرّ نهاراً فاح منه عبير المسك والعنبر ، وإذا مرّ ليلاً أشرق الكون حوله بنوره ، حتى دعاه أهل مكة بـ« مصباح الحرم » ؛ وشاءت القدرة الإلهية أن يكون عبد الله مع صَـدَفَة جوهر الرسالة ـ يعني أمّه آمنة بنت وهب (ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة) ـ أن يكونا زوجين . ثم نقل أسباب زواجهما بكلام مستفيض لا يتّسع المقام لذكره ، ويروى أنه بعد أن تمّ زواج آمنة بعبد الله فإن مائتي امرأة هلكن حسرة على عبد الله .

وإجمالاً فحين غدت آمنة صدفة لذلك الدر الثمين عرف الأمر طائفة من الكهنة العرب وتناقلوا خبره ؛ وكانت قد انقضت بضع سنين عمّ فيها القحط ديارهم ، فما انتقل ذلك النور إلى آمنة هطلت الأمطار وعمّ الخصب ، وعاش الناس في نعم وفيرة حتى سمّوا ذلك العام بـ« عام الفتح » .

في ذلك العام بعث عبد المطّلب بابنه عبد الله في ميرة إلى الشام ، وعند رجوعه ووصوله إلى المدينة ساءت صحته ، فخلّفه رفاقه وانطلقوا إلى مكة ، ومات في مرضه ذاك ، ودفن جسده الطاهر في دار النابغة الجعديّ .

ومن ناحية أخرى ، فحين وصل خبر مرض عبد الله إلى أبيه ، بعث بابنه الحارث ـ وكان أكبر إخوته ـ في طلبه ، وعند وصوله وجده قد فارق الحياة قبل وصوله ، وكان عمره خمساً وعشرين سنة ، وعند موته لم تكن آمنة قد وضعت حملها ، وكان قد بلغ شهرين من عمره الشريف على قول ، وسبعة شهور على قول آخر .

وقد ورد في الروايات أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذهب في إحدى الليالي إلى قبر أبيه وصلّى عنده ركعتين لله ، وراح يناديه ، فإذا بالقبر ينشق فجأة ، وعبد الله جالس فيه يقول :

« أشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّك نبيّ الله ورسوله » .

فسأله من وليّك يا أبه ؟ فأجابه متسائلاً : ومن وليّك يا بني ؟ قال : إنه لعليّ وليّك ، قال : أشهد أنّ عليّاً وليّي ؛ ثمّ إنّه لمّا عاد إلى بستانه ، دنا من قبر أمه ، وفعل نحو ما فعل عند قبر أبيه .

يقول العلامة المجلسيّ (ره) : يظهر من هذه الرواية أنها كليهما آمنا بالشهادتين ، وأن إرجاعهما كان لكي يكمل إيمانهما بالإقرار بإمامة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) .

والصيف ، فإن كان رُمي بها فهو هلاك كلّ شيء ، وإن كان ثبتت ورُمي بغيرها فهو أمر حدث ؛ وأصبحت الأصنام كلّها صبيحة ولد النبي (صلّى الله عليه وآله) ليس منها صنم إلاّ وهو منكبّ على وجهه ؛ وارتجس[١] في تلك الليلة إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادي السماوة[٢] . وخمدت نيران فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، ورأى المُوبَذان[٣] في تلك الليلة في المنام إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة وانسربت في بلادهم ، وانفصم طاق كسرى من وسطه ، وانخرقت عليه دجلة العوراء ، وانتشر في تلك الليلة نور من قبل الحجاز ثم استطال حتّى بلغ المشرق ، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلاّ أصبح منكوساً ، والملك مخرساً لا يتكلّم يومه ذلك ، وانتزع علم الكهنة ، وبطل سحر السحرة ، ولم تبق كاهنة في العرب إلاّ حُجبت عن صاحبها ، وعظُمت قريش وسُمُّوا آل الله .

قال أبو عبد الله (عليه السلام) : إنّما سُمّوا آل الله لأنّهم في بيت الله الحرام .

وقالت آمنة : إنّ ابني ، والله سقط ، فاتّقى الأرض بيده ، ثم رفع رأسه إلى السماء فنظر إليها ؛ ثم خرج مني نور أضاء كلّ شيء ، فسمعت في الضوء قائلاً يقول : إنك قد ولدت سيّد الناس فسمّيه محمداً ؛ وأتى به عبد المطّلب لينظر إليه وقد بلغه ما قالت أمّه ، فأخذه ووضعه في حجره ، ثم قال :

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلامَ الطيِّبَ الأردانِ
قد ساد في المهد على الغلمانِ

ثم عوّذه بأركان الكعبة ، وقال فيه أشعاراً ، قال :

وصاح إبليس لعنه الله في أبالسته ، فاجتمعوا إليه فقالوا : ما الذي أفزعك يا سيّدنا ؟ فقال لهم : ويلكم ، لقد أنكرت السماء والأرض منذ الليلة ، لقد حدث في الأرض حدث عظيم ما حدث مثله منذ رفع عيسى بن مريم (عليه السلام) ، فاخرجوا وانظروا ما هذا الحدث الذي قد حدث . فافترقوا ، ثم اجتمعوا إليه فقالوا : ما وجدنا شيئاً ، فقال إبليس لعنه الله : أنا لهذا الأمر ؛ ثمّ صار مثل الصرّ ، وهو العصفور ، فدخل من قبل حراء ، فقال له جبرائيل (عليه السلام) : وراءك ، لعنك الله ، فقال له : حرف أسألك عنه يا جبرئيل ،

---

(١) ارتجس : اضطرب وتزلزل .
(٢) واد في البادية بين الكوفة والشام ، كان جافاً لسنين متطاولة .
(٣) فقيه الفرس وحاكم المجوس .

ما هذا الحدث الذي حدث منذ الليلة في الأرض ؟ فقال له : ولد محمد (صلّى الله عليه وآله) ؛ فقال هل لي فيه نصيب ؟ قال : لا ، قال : ففي أمّته ؟ قال نعم . قال : رضيت . وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

لمّا ولد (صلّى الله عليه وآله) انكبّت الأصنام ـ على الكعبة ـ على وجوهها ، ولمّا حلّ الليل سُمع هذا النداء من السماء .

﴿ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ .

وأشرقت الدنيا كلّها في هذه الليلة ، وضحك الحجر والمدر ، وسبّح لله ما في السماوات والأرضين ، وبكى إبليس وقال : خير الأمة وأفضل الخلائق ، وأكرم العباد وأعظم العالمين محمّد (صلّى الله عليه وآله) .

يروي الشيخ أحمد بن أبي طالب الطبرسي في كتاب الاحتجاج عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قوله :

. . . ومحمد (صلّى الله عليه وآله) سقط من بطن أمّه واضعاً يده اليسرى على الأرض ، ورافعاً يده اليمنى إلى السماء ، يحرّك شفتيه بالتوحيد ، وبدا من فيه نور رأى أهل مكة منه قصور بصرى من الشام وما يليها ، والقصور الحمر من أرض اليمن وما يليها ، والقصور البيض من إصطخر وما يليها ، ولقد أضاءت الدنيا ليلة ولد النبي (صلّى الله عليه وآله) حتى فزعت الجنّ والإنس والشياطين ، وقالوا : حدث في الأرض حدث ؛ ولقد رؤيت الملائكة ليلة ولد تصعد وتنزل ، وتسبّح وتقدّس ، وتضطرب النجوم وتتساقط علامةً لميلاده .

ولقد همّ إبليس بالظعن في السماء لما رأى من الأعاجيب في تلك الليلة ، وكان له مقعد في السماء الثالثة ، والشياطين يسترقون السمع ، فلمّا رأوا العجائب أرادوا أن يسترقوا السمع ، فإذا هم حُجبوا عن السماوات كلّها ، ورُموا بالشهب دلالة [جلالة] لنبوّته (صلّى الله عليه وآله) انتهى .

الفصل الثالث

في أحواله (صلى الله عليه وآله) في أيام الرضاع والطفولة

في حديث معتبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال :

لمّا ولد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بقي أياماً دون أن يؤتى له بلبن يتناوله ، فقرّبه أبو طالب إلى صدره ، فأرسل فيه الحق تعالى لبناً بقي يرضعه أياماً ، حتى استطاع أبو طالب الوصول إلى حليمة السعديّة وتسليمه لها .

وفي حديث آخر قال :

عرض أمير المؤمنين (عليه السلام) على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يعقد لنفسه على بنت حمزة ، فقال له :

أوَلا تعلم أنها أختي في الرضاعة ؟

ذلك أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) رضع مع عمه حمزة من امرأة واحدة .

ويروي ابن شهراشوب أن ثُوَيْبَة (بضم الثاء المثلثة وفتح الواو) كانت أول من أرضعت الرسول (صلّى الله عليه وآله) حين أعتقها أبو لهب ، وبعدها أرضعته حليمة السعديّة ، وبقي عندها خمس سنوات ، ولما بلغ السابعة سافر مع أبي طالب إلى الشام ، ويقول بعضهم : كان له من العمر آنذاك اثنتا عشرة سنة ، وأما سفره بتجارة خديجة إلى الشام فحين كان له من العمر خمس وعشرون سنة .

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف النبي (صلّى الله عليه وآله) قال : « . . . ولقد قرن الله به (صلّى الله عليه وآله) من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره ؛ ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر

أمّه ، يَرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه عَلَماً ، يامرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء ، فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة ، وأشمّ ريح النبوّة »[1] .

ويروي ابن شهر آشوب والقطب الراوندي وآخرون عن حليمة بنت أبي ذؤيب واسمه عبد الله بن الحارث من قبيلة مضر ، وكانت حليمة زوجة الحارث بن عبد العزّى ؛ تقول حليمة :

في سنة ولادة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عمّ بلادنا القحط والجدب . وقدمت مكة في طائفة من نسوة بني سعد بن بكر ، حيث نأخذ أطفالاً لأهل مكّة لإرضاعهم ، وكنت أمتطي أتاناً لبعض الطريق ، ومعنا ناقة لا تدرّ ضروعها قطرة لبن ، ومعي طفلي الذي لم يكن في ثديّي من اللبن ما نعلّله به ، ولم تكن عيناه تعرفان النوم ليلاً من جوعه ؛ ولما بلغنا مكة لم ترض أي من النسوة بأخذ محمد (صلّى الله عليه وآله) لأنه يتيم ، وكنّ يطمعن في عطاء الآباء ؛ ثم إذا بي أرى رجلاً جليلاً ينادي : أيتها المرضعات ، اليس فيكنّ من تأخذ طفلاً مجهولاً ؟ فسألت عمّن يكون هذا الرجل ، قالوا : عبد المطّلب بن هاشم سيّد مكّة ، فتقدّمت مسرعة وقلت : أنا ، قال ؛ من أنت ؟ قلت : امرأة من بني سعد ، واسمي حليمة ؛ فتبسّم عبد المطّلب وقال : بخ بخ ، خصلتان حسنتان سعدٌ وحلم ، فيهما عزّ الدهر وعزّ الأبد .

ثم أردف يقول : أي حليمة ، عندي طفل يتيم اسمه محمد ، ونساء بني سعد لم يقبلنه ، وقلن : يتيم ، ولا يُتصوَّر النفع من يتيم ، وما أشبهك في هذا العمل بي إذ كنت طفلاً مجهولاً ؛ فقبلته ، ثم قدمت معه بيت آمنة ، ولما وقعت عليها عيني راعني جمالها ، ثم أخذت هذا اليتيم ، وما أن ضممته إلى صدري ونظر إليّ حتى رأيت نوراً يسطع من عينيه ، ورغب قرّة عين أصحاب اليمين بثديي الأيمن وتناوله ، راغباً عن الثدي الأيسر ، فتركه لابني ، وامتلأ الثديان ـ ببركته ـ باللبن ، فرضعا حتى ارتويا .

ولما قدمت به إلى زوجي ، جرى اللبن في أثداء ناقتنا ببركته ، حتى أشبع أطفالنا ، فقال زوجي : لقد جئتنا بطفل مبارك ، تدفقت علينا النعمة ببركته ؛ وفي الصباح أركبته على أتان لنا ، فاتجهت إلى الكعبة وبمعجزة منه سجدت ثلاث سجدات ونطقت قائلة : لقد شفيت ببركته من السقم ، وتخلصت من الإعياء ببركة أنّ على ظهري سيّد المرسلين ، وخاتم النبيّين ، وخير السابقين واللاحقين ؛ وانطلقت ـ رغم ضعفها ـ رهواً حتى جاوزت كل ما كان برفقتنا من المطايا ، وكان ما طرأ من تبدّل على أحوالنا موضع تعجّب الجميع ، وكان كل يوم يأتي منه

---

(١) نهج البلاغة ، الصالح ٣٠٠ .

بالمزيد ، فإذا عادت مواشي القبيلة من المرعى جائعة ، عادت مواشينا شبعة ممتلئة الضروع ؛ مررنا في طريقنا بغار ، أطلّ منه رجل يسطع النور من جبينه حتى يبلغ السماء ، فسلّم عليه وقال : لقد وكلني الحق تبارك وتعالى برعايته ؛ وظهر أمامنا قطيع من الغزلان ، وقلن بلسان فصيح : إنّك لا تدرين يا حليمة من تربّين ، إنه أطهر المطهّرين ، وأطيب الطيبين ؛ وكان كل جبل نمرّ به يسلّم عليه ، وعمّت البركة عيشنا وكثرت أموالنا وأثرينا ، وكثرت مواشينا من بركته ؛ وهو لم يُحدث قطّ في ثيابه (بل لم يُر براز يخرج منه) ولم تُر عورته مكشوفة أبداً ، فكنا نرى لباسه يلتصق فوق عورته فيحفظها .

قمت بتربيته (صلّى الله عليه وآله) خمس سنوات ويومين ، وسألني يوماً : أين يذهب إخوتي كلّ يوم ؟ قلت : يذهبون لرعي الأغنام ، قال : سأرافقهم اليوم . ولما ذهب معهم أخذه فوج من الملائكة إلى قمة الجبل ، فغسّلوه ، فأسرع ابني نحوي وهو يقول : أسرعي إلى محمّد فقد ذهبوا به ، ولما وصلت إليه رأيت نوراً يسطع منه نحو السماء ، فتناولته بيدي أقبّله وقلت : ماذا جرى لك ؟ قال : أماه لا تحزني إن الله معنا . وفاحت منه رائحة أطيب من المسك ؛ وقد رآه كاهن يوماً فهتف يقول : هذا قاهر الملوك ومفرّق الأعراب .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال :

كانوا إذا أحضروا الطعام للأطفال تنازعوا فيما بينهم ، أما هو فكان لا يمدّ إليه يداً ، وكانوا إذا استيقظوا من النوم غمصت عيونهم ، بينما يستيقظ هو بوجه نظيف ورائحة زكيّة .

كما روى بسند معتبر آخر أنه بينما كان عبد المطّلب يجلس يوماً قرب الكعبة ، نادى منادٍ يقول : إنّ ولداً لحليمة يدعى محمداً قد اختفى ، فغضب عبد المطلب وراح يصيح : أي بني هاشم ، أي بني غالب اركبوا ، فمحمد (صلّى الله عليه وآله) قد فقد ؛ وأقسم أنه لن يترجّل عن فرسه ما لم يأت بمحمّد ، او يقتل ألف أعرابي ومئة قرشي ، وراح يطوف حول الكعبة ويقول :

يا ربُّ ردَّ راكبي محمّدا ردَّاً إليّ واتّخذ عندي يدا
يا ربُّ إنْ محمدٌ لم يوجَدا فجمعُ قومي كلُّهم تبدّدا

فسمع نداء يقول : إنّ الحقّ تبارك وتعالى لن يضيّع محمداً ، فسأل : وأين هو ؟ فوصل النداء : إنه في الوادي الفلاني تحت شجرة أمّ غيلان الشوكيّة ، ولما قدمنا ذلك الوادي رأيناه يتناول من شجرة الشوك رطباً غنيّة بالماء ويأكلها ، وإلى جانبه يقف شابّان ابتعدا لمّا اقتربنا ، وكانا جبرئيل وميكائيل ، فسألناه من أنت ؟ فأجاب : أنا ابن عبد الله بن عبد المطّلب ، فرفعه عبد المطلب فوق كتفه وعادوا به ، ثم طاف به سبعة أشواط حول الكعبة ، واحتصم عند آمنة

كثير من النساء مواساة لها ، ولما قدم به إلى البيت انطلق إلى أمّه دون أن يلتفت إلى الأخريات .

وإجمالاً فحين دخوله على أمه انصرفت إليه أم أيمن الحبشية تعتني به وترعاه ، وكانت جارية لعبد الله ، ثم انتقلت بالميراث إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ، وكانت إذا لم تره شكت الجوع والعطش ، فإذا شربت شربة من زمزم ، كفتها حتى وقت العشاء ، وكثيراً ما كان يقدم لها الطعام فلا تأكله .



الفصل الرابع

في وصف خلقة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشمائله وصفاته الشريفة

إنّ من أراد الحديث عن شمائل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان كمن يحاول أن يكيل البحر بقدح ، أو كمن يحاول إدخال الشمس من كوّة البيت ؛ غير أنّي ـ حرصاً مني على ما يفرضه الواجب من كمال الكتاب ـ سأشير إليها بإيجاز هو ديدن هذا الكتاب .

اعلم أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) « كان فخماً مفخّماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشذّب[1] ، عظيم الهامة ، رَجْل الشعر[2] ، إذا انفرقت عقيقته فرق ، وإلاّ فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره[3] ؛ أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجّ الحاجبين[4] ، سوابغ في غير قرن[5] ، بينهما عرق يدرّه الغضب ، أقنى

(١) المشذّب ، على وزن معظّم : البائن الطول في نحافة ، الحسن الخلق .

(٢) الشعر الرجْل : ما كان بين الجعودة والاسترسال .

(٣) كان حلق الشعر في ذلك العهد مستقبحاً ، ولا يحسن أن يصدر عن النبي والإمام ما يستقبحه النظر ، ولما جبّ الإسلام ذلك ، صار الأئمة (عليه السلام) يحلقون رؤوسهم .

وإجمالاً فقد كانت شمائله (صلّى الله عليه وآله) من الحسن والصباحة والاعتدال ـ حديث الآفاق وسمر أهل الأرض ، ويروى عن ابن عبّاس أنه (صلّى الله عليه وآله) ما قورن نوره بنور الشمس إلاّ وكان نور الشمس الأضعف ، وما جلس مرّة قرب مصباح إلاّ وكان نور المصباح يخبو ؛ وحديث أمّ معبد في ذلك معروف ؛ وقد اشتهر عن السيدة خديجة في مدحه قولها :

جاء الحبيب الذي أهواه من سفر ... والشمس قد أثرت في وجهه أثرا

عجبت للشمس من تقبيل وجنته ... والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

كما ينسب إلى تلك الفاضلة (وينسبه بعضهم إلى السيدة عائشة) قولها :

نواحي زليخا لو رأين جبينه ... لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

ولو سمعوا في مصرَ أوصاف وجهه ... لما بذلوا في سوم يوسف من نقب

(٤) أزجّ الحاجب : رقيقه في طول .

(٥) القرن : الطرف الشاخص من كلّ شيء .

العرنين[١] ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمّله أشمّ ، كثّ اللحية ، سهل الخدّين ، ضليع[٢] الفم أشنب ، مفلّج[٣] الأسنان ، دقيق المسربة[٤] ، كأنّ عنقه جيد دمية في صفاء الفضّة ، معتدل الخلق بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس[٥] ، أنور المتجرّد ؛ موصول ما بين اللبّة والسرّة بشعر يجري كالخطّ ، عاري الثديين والبطن وما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن[٦] الكفّين والقدمين ، سائل الأطراف ، سبط العصب ، خمصان الأخمصين[٧] ، فسيح القدمين ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال تقلّعاً ، يخطو تكفّياً ويمشي هوناً ، ذريع المشية[٨] ، إذا مشى كأنّما ينحطّ من صبب[٩] ، وإذا التفت التفت جميعاً ؛ خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُلّ نظره الملاحظة ، يبدر من لقيه بالسلام».

كان (صلّى الله عليه وآله) متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلّم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، يتكلّم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين ، تعظم عنده النعمة وإن دقّت ، لا يذمّ منها شيئاً ، غير أنه كان لا يذمّ ذوّاقاً ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تُعوطي الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، وإذا أشار أشار بكفّه كلها ، وإذا تعجّب قلبها ، وإذا تحدّث قارب يده اليمنى من اليسرى ؛ فضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى ، وإذا غضب أعرض بوجهه وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ؛ وجُلّ ضحكه التبسّم ، يفترّ عن مثل حبّ الغمام .

وكان من سيرته في الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمه على قدر فضلهم في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل ويشغلهم في ما

---

(١) العرنين : الأنف ، وقنى الأنف : ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه ، فهو أقنى .
(٢) ضليع الفم : عظيمه قويّه .
(٣) المفلّج من الأسنان : المنفرج .
(٤) المسربة : مجرى الدمع .
(٥) الكراديس : جمع كردوسة وهي كل عظم تكردس اللحم عليه ، أو كلّ عظمين التقايا في مفصل .
(٦) الشثن : من كان غليظ اللحم .
(٧) الأخمص : وسط القدم ، وخمصان : ضامر ، والمعنى أنّ قدميه ضامرتا الوسط غير مسطّحتين .
(٨) يقال : ذرّع في المشي إذا حرّك ذراعيه .
(٩) الصبب : ما انحدر من الأرض أو الطريق .

أصلحهم وأصلح الأمّة ، من مسألته عنهم ، وإخبارهم بالذي ينبغي ، ويقول : ليبلّغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته . . يدخلون رواداً ولا يفترقون إلّا عن ذوّاق، ويخرجون أدلّة فقهاء.

كان (صلّى الله عليه وآله) يخزن لسانه إلّا عمّا يعنيه ، ويؤلّفهم ولا ينفّرهم ، ويكرم كريم كلّ قوم ويولّيه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه ؛ ويتفقّد أصحابه ، ويسأل الناس عمّا في الناس ، ويحسّن الحسن ويقوّيه، ويقبّح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، ولا يقصّر عن الحق ، ولا يجوزه الذين يلونه من الناس ؛ خيارهم أفضلهم عنده ، وأعمّهم نصيحة للمسلمين ؛ وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان (صلّى الله عليه وآله) لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر ، ولا يوطن[1] الأماكن وينهى عن إيطانها ؛ وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ؛ ويعطي كلاً من جلسائه نصيباً ، حتى لا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه ؛ من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، من سأله حاجة لم يرجع إلّا بها أو بميسور من القول ؛ قد وسع الناس منه خلقه ، وصار لهم أباً رحيماً ، وصاروا عنده في الحقّ سواء .

مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة ، ولا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن[2] فيه الحرم ، ولا تثنى فلتاته ، متعادلين متواصلين فيه بالتقوى ، متواضعين يوقّرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليّن الجانب ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا صخّاب ، ولا فحّاش ولا عيّاب ، ولا مزّاح ولا مدّاح ؛ يتغافل عمّا لا يشتهي فلا يؤيس منه ، ولا يُخيب فيه مؤمّليه ؛ قد ترك نفسه من ثلاث ؛ المراء والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذمّ أحداً ولا يعيّره ولا يطلب عثراته ولا عورته ، ولا يتكلم إلّا في ما رجا ثوابه ؛ إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنّما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلّموا ، ولا يتنازعون عنده الحديث ، وإذا تكلّم عنده أحد أنصتوا له حتى يفرغ من حديثه ؛ يضحك ممّا يضحكون منه ، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المسألة والمنطق ، حتى أن كان أصحابه ليستجلبونهم ، ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه ؛ ولا يقبل الثناء إلّا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد كلامه حتى يجوزه فيقطعه بنهي أو قيام .

---

(١) يوطن المكان : يتخذه له وطناً ، أي يختصّ به .

(٢) أبَنَ بشيء : عابه واتّهمه به .

وفي الخبر أنَّ شاباً قدم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال :

هل ترخّص لي بالزنى ؟! .

فاندفع الصحابة ينهرونه ، لكن النبي (صلّى الله عليه وآله)قال : أدنُ منّي .

تقدم الشابّ منه ، فقال له :

أتحبّ أن يزني أحد بأمّك ، أو بأختك وابنتك ، أو بعمّاتك وخالاتك وذوات قرباك ، وهل تأذن بذلك ؟ .

قال الشابّ : لا ، لا أرضى بذلك .

قال (صلّى الله عليه وآله) : فجميع عباد الله كذلك .

ثم وضع يده المباركة على صدره وقال :

« اللهمّ اغفر ذنبه ، وطهّر قلبه ، وحصّن فرجه » .

فلم يُرَ بعدها مع أجنبيّة قطّ .

ويروى نقلاً عن سيرة ابن هشام أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعث بسريّة إلى بني طيء ، وتمّ لهم الفتح ، وعادوا إلى المدينة بالأسرى ، وكانت فيهم ابنة حاتم الطائي ، فما أن بصرت برسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى بادرت بالقول :

«يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ ، منّ الله عليك» .

ومرادها أنّ أباها حاتماً قد مات ، وأنّ أخاها عُديّاً بن حاتم قد فرّ إلى الشام .

لكن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) أمسك عن الجواب ، حتى مضى اليوم الأول والثاني ، وفي اليوم الثالث أمر بإحضارها ، فأشار إليها أمير المؤمنين (عليه السلام) بأن تكرر عرض شكايتها ، ففعلت وأعادت قولها ، فأجابها الرسول الأكرم بأنه يرصد وصول قافلة مأمونة ليعيدها إلى قومها ، وعفا عنها .

وتلك كانت سيرته (صلّى الله عليه وآله) مع الكفار .

ويروي أرباب السير في سيرته ، (صلّى الله عليه وآله) أنّه كان إذا بعث بالجند أوصاهم ووعظهم فقال :

أذهبوا على اسم الله ، واستقيموا بالله ، وجاهدوا لله وعلى ملّة رسول الله .

أيها الناس ، اجتنبوا المكر ، ولا تستحلّوا السرقة في الغنائم ، ولا تمثّلوا بمن يقتل من الكفار ، فلا تسملوا عيناً ، ولا تقطعوا أذناً أو عضواً ؛ ولا تؤذوا شيخاً أو امرأة أو طفلاً ؛ ولا تقتلوا راهباً سكن في كهف أو غار ؛ ولا تقطعوا شجرة من أصلها إلّا لضرورة ، ولا تحرقوا نخلة ، ولا تغرقوا بالماء زرعاً ، ولا تقلعوا شجرة مثمرة ، ولا تحرقوا الحرث والزرع ، فأنتم له محتاجون ؛ ولا تهلكوا حيواناً حلّ لحمه ، إلّا ما كان نصيباً للقوت ؛ ولا تسمّموا ماء المشركين أبداً ، ولا تلجأوا إلى الحيلة .

هذا ولم يكن أعداؤه يلقون منه سوى هذا اللون من المعاملة ، ولم يكن يغير ليلاً ، وكان يرى جهاد النفس فوق كل جهاد ، ويروى أنّه (صلّى الله عليه وآله) بعث سريّة ، فلمّا رجعوا قال :

« مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر ، وبقي عليهم الجهاد الأكبر » .

قيل : يا رسول الله ، وما الجهاد الأكبر ؟ .

قال : « جهاد النفس » .[1]

وفي رواية معتبرة : أنه سئل عمّا أسرع بالشيب إلى فوديه ، فقال :

شيّبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ؛ ففيها أخبار القيامة ، وعذاب الأمم الغابرة .

ويروى أنه لمّا انتقل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى ، لم يترك وراءه درهماً ولا ديناراً ، ولا غلاماً ولا جارية ، ولا شاة ولا بعيراً ، غير مطيّته ؛ وكانت درعه ـ عند موته ـ رهينة عند يهودي من يهود المدينة لقاء عشرين صاعاً من الشعير اقترضها لطعام عياله .

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال : نزل جبرئيل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله)فقال : إن الله جلّ جلاله يقرئك السلام ويقول لك : هذه بطحاء مكة إن شئت أن تكون لك ذهباً ، قال : فنظر النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى السماء ثلاثاً ثم قال :

لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً فأحمدك ، وأجوع يوماً فأسألك .

وقال (عليه السلام) : ما شبع النبي (صلّى الله عليه وآله) من خبز برّ ثلاثة أيام حتّى مضى لسبيله .

وعن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قال :

---

(١) سفينة البحار : ج١ ، ص١٩٥ .

« كنّا مع النبيّ (صلّى الله عليه وآله) في حفر الخندق ، إذ جاءته فاطمة ومعها كسيرة من خبز ، فدفعتها إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقال النبي (عليه الصلاة والسلام) : ما هذه الكسيرة ؟ قالت : قرص خبزته للحسن والحسين جئتك منه بهذه الكسيرة ، فقال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : يا فاطمة أما إنه أوّل الطعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث » .

وعن ابن عباس أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يأكل على الأرض ، ويقبض على اللحم بيده ، وإذا دعاه غلام إلى خبز الشعير في بيته أجابه .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يحمد الله في كل يوم ثلاثمئة وستين مرّة ، عدد عروق الجسد ، يقول :

« الحمد لله ربّ العالمين كثيراً على كلّ حال » .

وعن المجلسي أنه كان لا يقوم من مجلس ـ وإن خفّ ـ حتى يستغفر الله ـ عزّ وجلّ ـ خمساً وعشرين مرّة .

وكان (صلّى الله عليه وآله) يستغفر الله ـ عزّ وجلّ ـ كل يوم سبعين مرة ، ويتوب إليه سبعين مرّة .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال :

« أفطر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عشيّة خميس في مسجد قبا ، فقال : هل من شراب ؟ فأتاه أوس بن خوليّ الأنصاريّ بعُسّ مخيض بعسل ، فلمّا وضعه على فيه نحّاه ثم قال : شرابان يُكتفى بأحدهما من صاحبه ، لا أشربه ولا أحرّمه ؛ ولكن أتواضع لله ، فإنّ من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبّر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله ، ومن بذّر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبّه الله » .

ويروى بسند صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : « كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أول ما بُعث يصوم حتى يقال : ما يفطر ؛ ويفطر حتى يقال : ما يصوم ؛ ثم ترك ذلك وصام يوماً وافطر يوماً ، وهو صوم داود (عليه السلام) ؛ ثم ترك ذلك وصام الثلاثة الأيام الغرّ (البيض) ، ثم ترك ذلك وفرّقها في كلّ عشرة يوماً : خميسين بينهما أربعاء ، فقبض (عليه وآله السلام) وهو يفعل ذلك » .

وكان (صلّى الله عليه وآله) يصوم شعبان كلّه ، ويقول : « شعبان شهري » .

يقول ابن شهر اشوب (رحمه الله) عن بعض الآداب الشريفة والأخلاق الكريمة لحافظ الرسالة (صلّى الله عليه وآله) :

يظهر من الأخبار المتفرقة أنه (صلّى الله عليه وآله) كان أحكم الناس وأحلمهم وأشجعهم وأعدلهم وأعطفهم ، لم تمسّ يده امرأة لا تحلّ ، وأسخى الناس ، لا يثبت عنده دينار ولا درهم ، فإن فضل ولم يجد من يعطيه ـ ويجنّه الليل ـ لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ؛ لا يأخذ مما آتاه الله إلّا قوت عامه فقط من يسير ما يجد من التمر والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله ؛ ولا يُسأل شيئاً إلّا أعطاه ، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه ، حتى ربّما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء .

وكان يجلس على الأرض ، وينام عليها، ويأكل عليها ؛ وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويفتح الباب ، ويحلب الشاة ، ويعقل البعير فيحلبها ، ويطحن مع الخادم إذا أعيا ، ويضع طهوره بالليل بيده ، ولا يتقدّمه مطرق (أي كان أكثر الناس إطراقاً إلى الأرض حياءً) ، ولا يجلس متكئاً ، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع اللحم .

وإذا جلس على الطعام جلس محقّراً ، وكان يلطع أصابعه (يلعقها ويمصّها) ، ولم يتجشّأ قطّ .

ويجيب دعوة الحرّ والعبد ولو على ذراع أو كراع ، يقبل الهدية ـ ولو أنّها جرعة لبن ، ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، يأكل ما حضر ، ولا يردّ ما وُجد ، لا يلبس ثوبين ، يلبس بُرداً حبرة يمنية ، وشملة جبّة صوف ، والغليظ من القطن والكتان ، وأكثر ثيابه البياض ، ويلبس العمامة ، ويلبس القميص من قبل ميامنه ، وكان له ثوب للجمعة خاصّة ، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ، وكان له عباء يفرش له حيثما ينقل يثنى ثنيتين ، يلبس خاتم فضة في خنصره الأيمن .

يحب البطّيخ ، ويكره الريح الرديّة ، ويستاك عند الوضوء ، يردف خلفه عبده أو غيره ؛ يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار .

وقال : كان (صلّى الله عليه وآله) يشيّع الجنائز ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، يجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألّف على أهل الشرف بالبرّ لهم ؛ يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلّا بما أمر الله ؛ ولا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ؛ وكان أكثر الناس تبسّماً ما لم ينزل عليه قرآن أو لم تجر عظة ، وربّما ضحك من غير قهقهة ؛ لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس ، ما شتم أحداً بشتمة ، ولا لعن امرأة ولا خادماً بلعنة ؛ ولا لاموا أحداً إلّا قال : دعوه ، ولا يأتيه أحد ـ حرّ أو عبد أو أمة ـ إلّا قام معه في حاجته ، لا فظّ ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يغفر ويصفح .

يبدأ من لقيه بالسلام ، ومن رامه بحاجة صابرَهُ حتى يكون هو المنصرف ؛ ما أخـذ أحد يده فيرسل يده حتى يـرسلها ، وإذا لقي مسلماً بـدأه بالمصافحة ؛ وكـان لا يقوم ولا يجلس إلاّ على ذكر الله ، وكـان لا يجلس إليه أحـد وهو يصـلّي ـ إلاّ خفف صلاتـه ، وأقبل عليه وقال : ألك حاجة ؟ . يجلس حيث ينتهي به المجلس ، وكـان أكثر مـا يجلس مستقبل القبلة ، وكـان يكرم من يدخل عليه حتى ربّما بسط ثوبه ، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته ؛ وكـان في الرضى والغضب لا يقول إلاّ حقاً .

كان يأكل القثّاء بالرطب والملح ، وكان أحبّ الفواكه الرطبة إليه البطّيخ والعنب ، وأكثر طعامه الماء والتمر ، وكان يتمجّع (يأكل جمعاً) اللبن بالتمـر ويسمّيهما الأطيبـين ؛ وكان أحب الطعام إليه اللحم ، ويأكل الثريـد باللحم ، وكـان يحبّ القرع ، وكـان يأكـل لحم الصيد ولا يصيـده ، وكان يـأكل الخبز والسمن ، وكـان يحبّ من الشـاة الـذراع والكتف ، ومن القـدر (الحساء) القرع ، ومن الصباغ (الإدام) الخل ، ومن التمر العجوة ، ومن البقـول الهندبـاء والباذروج (من البقول) ، والبقلة اللينة .

يقول الشيخ الطبرسي إن تواضعه (صلّى الله عليه وآله) بلغ حداً أنه في يـوم خيبر ويـوم بني قريظة وبني النضير كان على حمار مخطوم بحبل من ليف تحتـه إكاف من ليف ، وكـان يسلّم على النساء والأطفال .

وعن ابن مسعـود قال : أتى النبي (صـلّى الله عليه وآلـه) رجل يكلّمـه فأرعـد ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : « هوّن عليك ، فلستُ بملك ، إنّما أنا ابن امرأة كانت تأكل القدّ » .

وعن أنس قال : « خدمت رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله) عشر سنين ، فما قـال لي أفٍّ قطّ وما قال لشيء صنعتُه ، لم صنعتَه ولا لشيء تركتُه لم تركتَه » .

وعن أنس أيضاً : « كانت لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) شربة يفطر عليها ، وشربة للسحر ، وربّما كانت واحدة ، وربما كانت لبناً ، وربّما كـانت الشربة خبـزاً يُماث ؛ فهيّأتها لـه (صـلّى الله عليه وآلـه) ذات ليلة ، فاحتبس النبي (صـلّى الله عليه وآلـه) فـظننت أنّ بعض أصحابه دعاه ، فشربتها حـين احتبس ؛ فجاء (صـلّى الله عليه وآلـه) بعد العشـاء بساعـة ، فسألت بعض من كان معه : هل كـان النبي (صلّى الله عليـه وآله) أفطر في مكان ، أو دعـاه أحـد ؟ فقـال : لا . فبتّ ليلة لا يعلمهـا إلاّ الله من غمّ [خوف] أن يـطلبهـا منّي النبي (صلّى الله عليه وآله) ولا يجدها ، فيبيت جائعاً . فأصبح صائماً ، وما سألني عنها ، ولا ذكرها حتّى الساعة » .

يقول المطرزي : كـان لأنس بن مالـك أخ لأمّه يقـال له « أبـو عمير » ، وذات يـوم رآه

النبي (صلّى الله عليه وآله) وهو مغموم ، فسأله عمّا به ، فقال : مات نُغَيْر ! (وهو فرخ دجاج كان عنده فمات) فأجابه (صلّى الله عليه وآله) مازحاً :

« يا أبو عُمير ، ما فعلَ النغير » ؟ .

وروي أنه (صلّى الله عليه وآله) كان في سفر ، فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله ، عليّ ذبحها ، وقال الآخر : عليّ سلخها ، وقال آخر : عليّ طبخها ؛ فقال (صلّى الله عليه وآله) : وعليّ جمع الحطب .

فقالوا : يا رسول الله ، نحن نكفيك .

فقال : « قد علمت أنّكم تكفوني ، ولكن أكره أن أتميّز عليكم ، فإنّ الله يكره من عبده أن يراه متميّزاً بين أصحابه » . وقام فجمع الحطب .

وروي أيضاً : كان خدم المدينة يأتون رسول الله (صلّى الله عليه وآله) - إذا صلّى الغداة - بآنيتهم فيها الماء ، فما يؤتى بآنية إلاّ غمس يده فيها ، وربّما كان ذلك في الغداة الباردة ؛ يريدون به التبرّك .

وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له ، أو يسمّيه ؛ فيأخذه فيضعه في حجره تكرمةً لأهله ، فربّما بال الصبيّ عليه ، فيصيح بعض من رآه حين بال ؛ فيقول : « لا تزرموا الصبيّ » .

فيدعه حتّى يقضي بوله ، ثمّ يفرغ له من دعائه أو تسميته ، فيبلغ سرور أهله فيه ، ولا يرون أنّه يتأذّى ببول صبيّهم ؛ فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعد .

وفي الخبر أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) صاحبَ رجلاً ذمّياً في سفر ، فقال له الذمي : أين تريد يا عبد الله ؟ فقال : أريد الكوفة .

فلمّا عدل الطريق بالذمّيّ عدل معه أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فقال له : ألست زعمتَ أنّك تريد الكوفة ؟ فقال له : بلى . فقال له الذمّيّ : فقد تركت الطريق ! فقال له : قد علمت ، قال : فلم عدلت معي وقد علمتَ ذلك ؟ فقال أمير المؤمنين :

هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيّع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه ، وكذلك أمرنا نبيّنا (صلّى الله عليه وآله) .

فقال له الذمّيّ : هكذا قال ؟ قال نعم . قال الذمّيّ :

لا جرم أنّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة ؛ فأنا أُشهدك أنّي على دينك .

ورجع الذمّي مع أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فلمّا عرفه أسلم .

ولنعم ما قال البوصيري :

محمّدٌ سيّد الكونين والثقلين	والفريقين من عُرب ومن عجم
فاق النبيّين في خَلق وفي خُلُق	ولم يدانوه في علم ولا كرم
وكلّهم من رسول الله ملتمسٌ	غَرفاً من البحر أو رَشفاً من الدِّيَم
فهو الذي تمّ معناه وصورته	ثمّ اصطفاه حبيباً باريءُ النسَم
فمبلغ العلم فيه أنّه بشرٌ	وأنه خير خلق الله كلِّهم

وعن أنس أنه قال : خدمت النبي (صلّى الله عليه وآله) عشر سنين ، فما قال لي قطّ : هلاّ فعلت كذا وكذا ، ولا عاب عليّ شيئاً قط . وشممت العطر كلّه فلم أشمّ نكهة أطيب من نكهته . وما أخرج ركبتيه بين جليس له قط . أدركه أعرابي فأخذ بردائه فجبذه جبذة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال له : يا محمّد ، مُر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وضحك ، وأمر له بعطاء ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وعن ابن عباس ، عن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال : « أنا أديب الله ، وعليّ أديبي ؛ أمرني ربّي بالسخاء والبرّ ، ونهاني عن البخل والجفاء ، وما شيء أبغض إلى الله (عزّ وجلّ)من البخل وسوء الخلق . . . » .

وقد بلغت شجاعته (صلّى الله عليه وآله) حداً جعل أسد الله الغالب (عليه السلام) يقول : « كنّا إذا أحمرّ البأس أتّقينا برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه » .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذا حدّث الحديث أو سأل عن الأمر كرّره ثلاثاً ليفهم ويُفهم عنه .

ويروى أنه (صلّى الله عليه وآله) كان لا يتناول الثوم والبصل والبقول والخضار ذات الرائحة الكريهة ، وهو لم يذمّ طعاماً قط ، فما استطابه أكله ، وإلاّ تركه .

وكان إذا أكل مع القوم كان أوّل من يبدأ ، وآخر من يرفع يده ؛ وكان إذا أكل ، أكل ممّا يليه ، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده ؛ وكان إذا شرب بدأ فسمّى ، وحسا حسوة وحسوتين ، ثم يقطع فيحمد الله ، ثم يعود فيسمّي ، ثم يزيد في الثالثة ، ثم يقطع فيحمد

الله ، وكان يمصّ الماء مصّاً ، ولا يعبّه عبّاً ؛ وكان ربّما شرب بنفس واحد حتى يفرغ ؛ وكان (صلّى الله عليه وآله) يشرب في أقداح القوارير ، ويشرب في الأقداح التي تتخذ من الخشب ، وفي الجلود ، ويشرب في الخزف ، ويشرب بكفّيه ؛ وكان يأكل بأصابعه الثلاث : الإبهام ، والتي يليها ، والوسطى ؛ وربّما استعان بالرابعة ، ولم يأكل بإصبعين قط ؛ وكان يغسل يديه من الطعام حتى ينقّيهما ، فلا يوجد لما أكل ريح ؛ وكان (صلّى الله عليه وآله) إذا أكل الخبز واللحم خاصّة غسل يديه غسلاً جيّداً ، ثم مسح بفضل الماء الذي في يده وجهه ؛ وكان لا يأكل وحده ما أمكنه .

وكان (صلّى الله عليه وآله) إذا غسل رأسه ولحيته غسلهما بالسدر ، وكان يحب الدهن ويكره الشعث ، طيب ريح عرقه يفوق كل العطور ، والريح الكريهة لا تبلغ مشامّه قط ، ريقه المبارك يعطي البركة لكلّ ما يقع عليه ، وإذا دهن به المريض شفي .

وكان (صلّى الله عليه وآله) إذا استأذن ، استأذن ثلاثاً ، ولا يقبل أن يقف أحد أمامه وهو جالس ، وكان يجيد التحدث بكلّ لسان ، قادراً على القراءة والكتابة ، وإن كان لم يخط شيئاً قط ؛ وكان لا يمرّ بحجر ولا شجر إلاّ سلّم عليه ، والذباب والبعوض وأمثالها لا تحطّ عليه قطّ ؛ ولا يطير عنه الطير ، إذا مشى لم يكن لقدمه أثر على الأرض اللينة ، فإذا وطىء صخراً خلفت عليه أثراً ؛ ومع تواضعه الجمّ ، فله في القلوب مهابة ، والأنظار لا ترتفع إليه ؛ وكان يقول : « خمس لا أدعهنّ حتى الممات : الأكل على الحضيض مع العبيد ، وركوبي الحمار مؤكفاً ، وحلبي العنز بيدي ، ولبس الصوف ، والتسليم على الصبيان » .

وقد روي أنه (صلّى الله عليه وآله) كان يمزح ، ولا يقول إلاّ حقّاً .

ويروى أنه استدبر رجلاً من ورائه ، وأخذ بعضده وقال : من يشتري هذا العبد ؟! يعني أنه عبد الله .

وقال لامرأة ذكرت زوجها : أهذا الذي في عينيه بياض ؟ فقالت : لا ، ما بعينيه بياض . وحكت لزوجها فقال : أما ترين بياض عيني أكثر من سوادها ؟

وقالت عجوز من الأنصار للنبي (صلّى الله عليه وآله) : أدع لي بالجنة ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : إنّ الجنة لا يدخلها العجّز ، فبكت المرأة ، فضحك النبي (صلّى الله عليه وآله) وقال : أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ **إنّا أنشأناهنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكاراً** ﴾[1] ؟

---

(١) سورة الواقعة : الآيتان ٣٥و٣٦ .

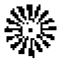
وحكاية مزاحه (صلّى الله عليه وآله) مع عجوز أخرى ومع بلال وابن عباس وآخرين معروفة .

ويروي ابن شهراشوب أن امرأة شكت إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) أن رجلاً قبّلها ، فأرسل إليه ، فاعترف وقال : إن شاءت أن تقتصّ فلتقتصّ ! فتبسّم رسول الله وأصحابه ، وقال أولا تعود ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، فتجاوز عنه .

يقول المؤلّف : إذا تدبّر العاقل وتأمّل ما ذكرناه من حسن أخلاق الرسول (صلّى الله عليه وآله) وحميد خصاله ، علم يقيناً أنّه نبيّ بالحقّ ، وأن هذه الأخلاق الشريفة ليست إلاّ إعجازاً ، ذلك أنه (صلّى الله عليه وآله) نشأ وترعرع بين قوم تجرّدوا عن كل خلق حسن ، تدور عاداتهم حول العصبية والعناد والتنازع والتغاير والتحاسد والفساد ، فتراهم في الحج يطوفون حول الكعبة ويتقافزون عراةً يصفرون ويصرخون ، كما حكى عنهم الحقّ تعالى بقوله :

﴿ وما كانَ صلاتُهم عند البيت إلاّ مُكاءً وتصْدية ﴾[1] .

فمن كانت عبادتهم على هذه الشاكلة ، عُلم كيف تكون سائر أحوالهم ، والحال أنه بعد مضيّ ما ينوف عن ألف وثلاثمئة عام على مبعثه (صلّى الله عليه وآله) ، وما أتتهم به الشريعة المقدسة ـ طوعاً وكرهاً ـ من إصلاح ، فمن يراهم يدرك أي مرتبة من الإنسانية قد بلغوا ، وفي أي مرحلة من الآدمية هم ؛ ورسول ، (صلّى الله عليه وآله) نشأ بين ظهراني قوم كهؤلاء الأعراب ، وقد اتّصف بكل خلق حميد من علم وحلم وكرم ، وعفّة وشجاعة وجود ، ومروءة وغيرها من صفات الكمال التي دبّج العلماء في تعدادها ووصفها المؤلفات ، فلم يحيطوا بعشر أعشارها معترفين بعجزهم عن بلوغ شأوها ، والله هو العالم .



(١) سورة الأنفال : الآية ٣٥ .

الفصل الخامس

في ذكر شطر من معجزات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

اعلم أنه كانت لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) معجزات لم تكن لغيره من الأنبياء ، في حين ظهرت على يديه معجزات تماثل ما ظهر على أيديهم جميعاً .

ويذكر ابن شهراشوب أن معجزاته (صلّى الله عليه وآله) هي أربعة آلاف وأربعمئة وأربعون معجزة ، ذكر منها ثلاثة آلاف فقط .

يقول الفقير إليه تعالى : إنّ أقوال رسول الله وأحواله وأخلاقه كافّة إنما كانت معجزات ، وخاصّة إخباره بالمغيبات (وستأتي الإشارة إليها إن شاء الله) ، وعلاوة عن المعجزات التي ظهرت قبل ولادته (صلّى الله عليه وآله) وعند ولادته ، فإن من الظاهر والبيّن عند المطّلعين أن أقوى المعجزات كافّة وأبقاها هو القرآن المجيد الذي عجز أهل الفصاحة والبلاغة مجتمعين عن الإتيان بمثله ، مستسلمين مقرّين بعجزهم ، وكلّ من لفّق كلمات حاول بها مضاهاة القرآن انقلب خاسئاً وقد افتضح وانكشف ، أمثال مسيلمة الكذّاب والأسود العنسي وغيرهما ، فمن كلام مسيلمة الذي يعارض به سورة الذاريات قوله :

« والزارعات زرعا ، فالحاصدات حصدا ، فالطاحنات طحنا . فالخابزات خُبزا ، فالآكلات أكلا » .

وفي معارضة سورة الكوثر قوله :

« انّا أعطيناك الجاهر ، فصلّ لربّك وهاجر ، إن شانئك هو الكافر » .

ومن كلام الأسود في معارضة سورة البروج قوله :

« والسماء ذات البروج ، والأرض ذات المروج ، والنساء ذات الفروج ، والخيل ذات

السروج ، ونحن عليها نموج ، فوق الملوى والفلوج » .

ومن كلامه أيضاً قوله :

« يا ضفدع بين ضفدعين ، نقيّ تقيّ كم تنقّين ، لا الشاربَ تمنعين ، ولا الماءَ تكدرين ، أعلاكِ في الماء وأسفلك في الطين » .

فمعجزة القرآن المجيد هي أنّه يفضح ـ ببلاغته وفصاحته ـ هذه الكلمات الجافية لمسيلمة والأسود ، سيّما وهما يدّعيان أنّ كلامهما وحي منزل ، ويقرأونه أمام كثيرين ، ذلك أنّ مسيلمة والأسود عربيّان ، وما من عربيّ يقول كلاماً قبيحاً كهذا ، وإن قاله فهو يعلم قبحه ، فلا يقرأه على أحد .

ومن شاء الاطّلاع ـ بشكل موجز ـ على إعجاز القرآن فليرجع إلى الباب الرابع عشر من المجلد الثاني من كتاب (حياة القلوب) . للعلاّمة المجلسي (رضوان الله عليه) ، ذلك أنّ كتابنا هذا لا يتّسع لذلك .

وإجمالاً فنحن سنشير في هذا الكتاب المبارك ـ إن شاء الله ـ إلى بعضٍ من معجزاته (صلّى الله عليه وآله) .

القسم الأول

المعجزات المتعلقة بالأجرام السماوية مثل شقّ القمر ، وردّ الشمس ، وتظليل الغمام ، ونزول المطر ، وإنزال مائدة له (صلّى الله عليه وآله) بطعامها وفاكهتها من السماء ؛ وغيرها ، ونكتفي هنا بإيراد أربع منها .

الأولى : شقّ القمر : قال تعالى :

﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر * وإن يروا آيةً يُعرضوا عنها ويقولوا سحر مستمرّ ﴾[1] .

يروي أكثر المفسّرين من الخاصّة والعامّة أن هذه الآيات نزلت حين طلبت قريش معجزة من النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فأشار إلى القمر فانشقّ نصفين بقدرة الحقّ تعالى ، وفي بعض الروايات أن هذا كان ليلة الرابع عشر من ذي الحجة .

الثانية : ردّ الشمس : يروي أكثر المفسّرين من الخاصّة والعامّة بأسناد كثيرة عن أسماء بنت عميس وغيرها أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعث أمير المؤمنين (عليه السلام) في

---

(١) سورة القمر : الآيتان ١و٢ .

حاجة في غـزوة حنين ، وقـد صلّى النبيّ (صـلّى الله عليه وآلـه) العصر ولم يصلّها عـليّ ، فلما رجع وضع رأسه في حجر عليّ (عليه السـلام) وقد أوحى الله إليه ، فجلّله بثوبه ، فلم يزل كـذلك حتى كـادت الشمس تغيب ، ثمّ إنّه سرّي عن النبي (صـلّى الله عليه وآلـه) فقـال : أصلّيت يا عليّ ؟ قال : لا . فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) : اللهمّ ردّ على عليّ الشمس ، فرجعت حتى بلغت نصف المسجد ، قالت أسماء : وذلك بالصهباء .

وهكـذا رجع وقت صـلاة العصر ، وصلاّهـا أمير المؤمنـين (عليه السـلام) ثم غـربت الشمس .

الثالثة : نزول المطر : روى الخاصّة والعامّة أيضـاً أنه عنـدما انتمـر الأعراب عـلى أذيّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، دعا عليهم بالعـذاب ونزول القحط بهم كـالقحط في زمان يوسف (عليه السـلام) ، فاحتبس المطر عنهم سبع سنـين حتى بلغ القحط يثرب ، فـأتى قوم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقـالوا : يـا رسول الله ، إنّ بـلادنا قـد قحطت ، وتـوالت السنون علينا ، فادع الله تبارك وتعالى يرسل السماء علينا .

فـأمر رسـول الله (صلّى الله عليه وآله) ، بـالمنبر فـأخرج ، واجتمـع الناس ، فصعـد رسـول الله (صلّى الله عليه وآله) ودعـا ، وأمـر النـاس أن يؤمّنـوا ، ونـزل المطر والـرسـول (صلّى الله عليه وآله) يدعو ، واستمر نزوله أسبوعاً ، حتى جاء أولئك النفر بأعيانهم إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) فقالوا : يا رسول الله ، ادع الله لنا أن يكفّ السماء عنّا ، فـإنّا كـدنا أن نغرق .

فاجتمع الناس ، ودعا النبي (صلّى الله عليه وآله) وأمر الناس أن يؤمّنوا عـلى دعائـه ، فقال له رجـل من النـاس : يـا رسول الله أسمعنـا ، فإنّ كـلّ ما تقـول ليس نسمع ، فقـال : قولوا : اللهمّ حوالينا ولا علينـا ، اللهمّ صبّها في بـطون الأودية ، وفي نبـات الشجر ، وحيث يرعى أهل الوبر ، اللهمّ اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً .

وهكذا سالت المياه في الأودية وحول المدينة شهراً ، وقال (صلّى الله عليه وآله) : لله درّ أبي طالب ، لو كان حيّاً لقرّت عيناه ، من ينشدنا قوله ؟

فقام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال : كأنّك أردت يا رسول الله :

وأبيض يـسـتـسـقـى الـغـمام بـوجـهـه ثـمال اليـتـامـى عـصـمـة لـلأرامـل

فقال : أجل .

الرابعة : (نزول فاكهة من فواكه الجنّة) : روي بسند معتبر عن أمّ سلمـة أنّ فاطمـة

(عليها السلام) جاءت إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) حاملة حسناً وحسيناً ، وفخّاراً فيه حريرة ؛ فقال : أدعي ابن عمّك ؛ وأجلس أحدهما على فخذه اليمنى والآخر على فخذه اليسرى ، وعلياً وفاطمة أحدهما بين يديه ، والآخر خلفه ، فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً . قالها ثلاثاً .

تقول أم سلمة : وأنا عند عتبة الباب ، فقلت : وأنا منهم ؟ فقال : أنت إلى خير . وما في البيت غير هؤلاء وجبرئيل ؛ ثمّ أغدف عليهم كساء خيبريّاً ، فجلّلهم به وهو معهم ؛ ثم أتاه جبرئيل بطبق فيه رمّان وعنب ، فأكل النبي (صلّى الله عليه وآله) فسبّح العنب والرمّان ؛ ثمّ أكل الحسن والحسين ، فتناولا ، فسبّح العنب والرّمان في أيديهما ؛ ثم دخل (أكل) علي ، فتناول منه ، فسبّح أيضاً ؛ ثم دخل رجل من الصحابة ، وأراد أن يتناول ، فقال جبرئيل : إنّما يأكل من هذا نبيٌّ ، أو ولد نبيّ ، أو وصيّ نبيّ .

القسم الثاني

المعجزات التي ظهرت منه في الجمادات والنباتات ، كتسليم الحجر والشجر عليه ، وتحرُّك الشجر بأمره ، وتسبيح الحصى بين يديه ، وحنين جذع النخلة ، وتحوّل الحطب إلى سيف لعكاشة في موقعة بدر ، ولعبد الله بن جحش في أحد ، وتحول ورق النخل إلى سيف لأبي دجانة بمعجزة منه (صلّى الله عليه وآله) ؛ وكيف أن قوائم فرس سراقة ساخت في الأرض حين خرج في طلب النبي (صلّى الله عليه وآله) في بداية الهجرة ، وغيرها ؛ ونحن نكتفي هنا بذكر شطر منها :

الأولى : يروي الخاصّة والعامّة بأسناد كثيرة أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يخطب بالمدينة على جذع نخلة في صحن مسجدها ، فقال له بعض أصحابه : يا رسول الله ، إن الناس قد كثروا ، وإنهم يحبّون النظر إليك إذا خطبت ؛ فلو أذنت أن نعمل لك منبراً له مَراقٍ ترقاها فيراك الناس إذا خطبت ، فأذن في ذلك .

فلمّا كان يوم الجمعة مرّ بالجذع فتجاوزه إلى المنبر فصعده ، فلمّا استوى عليه حنّ ذلك الجذع حنين الثكلى ، وأنّ أنين الحبلى . . . فلمّا رأى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذلك نزل عن المنبر ، وأتى الجذع فاحتضنه ، ومسح عليه يده . . . فهدأ حنينه وأنينه ؛ وعاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى منبره ، ثم قال : معاشر المسلمين ، هذا الجذع يحنّ إلى رسول ربّ العالمين ، ويحزن لبعده عنه . . . ولولا أنّي احتضنت هذا الجذع ومسحت يدي عليه ما هدأ حنينه إلى يوم القيامة .

واشتهرت هذه الشجرة بـ(الحنّانة) ، وبقيت حتى خراب المسجد وتجديد بنائه في عهد بني أميّة ، فتمّ اقتلاعها .

وجاء في رواية أخرى أنه (صلّى الله عليه وآله) أمر باقتلاعها ثم دفنها تحت المنبر .

الثانية : ورد في نهج البلاغة وغيره عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته المسمّاة بالقاصعة أنّه قال :

« ولقد كنت معه (صلّى الله عليه وآله) لمّا أتاه الملأ من قريش ، فقالوا له : يا محمّد ، إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحد من بيتك ، ونحن نسألك أمراً إن أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنّك نبيّ ورسول ، وإن لم تفعل علمنا أنّك ساحر كذّاب ؛ فقال (صلّى الله عليه وآله) : وما تسألون ؟ فقالوا : تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : إنّ الله على كلّ شيء قدير ، فإن فعل الله لكم ذلك ، أتؤمنون وتشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنّي سأريكم ما تطلبون ، وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير ، وإنّ فيكم من يُطرح في القليب ، ومن يحزّب الأحزاب .

ثم قال (صلّى الله عليه وآله) : يا أيّتها الشجرة ، إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر ، وتعلمين أنّي رسول الله ، فانقلعي بعروقك حتّى تقفي بين يديّ بإذن الله .

فوالذي بعثه بالحق ، لانقلعت بعروقها ، وجاءت ولها دويّ شديد وقصف كقصف أجنحة الطير ، حتى وقفت بين يدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مرفرفة ، وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وببعض أغصانها على منكبي ، وكنت عن يمينه (صلّى الله عليه وآله) .

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا ـ علوّاً واستكباراً ـ : فمُرْها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فأمرها بذلك ، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً ، فكادت تلتفّ برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقالوا ـ كفراً وعتوّاً ـ : فمُر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان ، فأمره (صلّى الله عليه وآله) فرجع :

فقلت أنا : لا إله إلاّ الله ، إنّي أوّل مؤمن بك يا رسول الله ، وأوّل من أقرّ بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت ـ بأمر الله تعالى ـ تصديقاً بنبوّتك ، وإجلالاً لكلمتك .

فقال القوم كلّهم : بل ساحر كذّاب ، عجيب السحر خفيف فيه ، وهل يصدّقك في أمرك إلاّ مثل هذا ! (يعنونني) » .

أقول : إن صاحب (الناسخ) يقول : إن هذه المعجزة التي يرويها أمير المؤمنين (عليه

السلام) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في تحرّك الشجرة ، إنّما تشبه قصة أبرهة وظهور الأبابيل ، ذلك أنه يعدّ عليّاً (عليه السلام) وصيّاً للنبي (صلّى الله عليه وآله) ، وإماماً مفترض الطاعة ، ويعلم أنّه صادق مصدّق ، وأنّه لم يكن بمقدوره ـ وهو على منبر الكوفة ، وأمام عشرين ألفاً يستمعون إليه ـ لم يكن بمقدوره أن يلصق الكذب برسول الله ويقول إن النبي دعا الشجرة فأقبلت ، إضافة إلى أنه حين روايته لذلك كان بين الحضور جماعة ممّن شهدوا معه تحرّك الشجرة ؛ وأنّه ليس بمقدور أحد تحريف خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، إذ لم يكن أحد على هذا القدر من الفصاحة والبلاغة ، كما أن خطبه (عليه السلام) محفوظة ومضبوطة منذ صدر الإسلام حتى اليوم . انتهى .

الثالثة : روي عن الصادق (عليه السلام) أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أقبل إلى الجعرانة (اسم موضع) فقسّم فيها الأموال (من غنائم موقعة حنين) ، وجعل الناس يسألونه فيعطيهم ، حتى ألجأوه إلى شجرة ، فأخذت بُرده ، وخدشت ظهره ، حتى جلوه عنها وهم يسألونه ، فقال : أيّها الناس ، ردّوا عليّ بردي ، والله لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسّمته بينكم ، ثمّ ما ألفيتموني جباناً ولا بخيلاً .

ثم خرج من الجعرانة في ذي القعدة . قال : فما رأيت تلك الشجرة إلّا خضراء كأنّما يرشّ عليها الماء . (وذلك من بركة ظهره) .

الرابعة : يروي ابن شهراشوب أن الطفيل بن عمرو نهته قريش عن قرب النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فحشا أذنيه بكرسف (قطن) لكيلا يسمع صوته ، فكان يسمع ، فأسلم .

ثم قال : يا رسول الله ، إنّي امرؤ مطاع في قومي ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً على ما أدعوهم إلى الإسلام ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : اللهم اجعل له آية ؛ فانصرف إلى قومه إذ رأى نوراً في طرف سوطه كالقنديل .

القسم الثالث

المعجزات التي ظهرت في البهائم ، كتكلّم عجل آل ذريح ، ودعوته الناس إلى الإيمان بنبوّة محمد (صلّى الله عليه وآله) ؛ وتكلّم الأطفال الرضّع معه (صلّى الله عليه وآله) وتكلّم الذئب والبعير والشاة المسمومة وغيرها من الحكايات الكثيرة ، ونحن نكتفي هنا بالإشارة إلى شطر منها .

الأولى : يروي الراوندي وابن بابويه عن أمّ سلمة رضي الله عنها ، قالت :

كان النبي (صلّى الله عليه وآله) يمشي في البادية ، فناداه منادٍ : يا رسول الله ، مرّتين ،

فالتفت فلم ير أحداً ؛ ثمّ ناداه ، فالتفت فإذا هو بظبية موثقة ، (قال : ما حاجتك ؟) فقالت : إنّ هذا الأعرابي صادني ، ولي خشفان[1] في ذلك الجبل ، أطلقني حتى أذهب وأرضعهما وأرجع ، فقال : وتفعلين ؟ قالت : نعم ، إن لم أفعل عذّبني الله عذاب العشّار ؛ فأطلقها ، فذهبت فأرضعت خشفيها ثم رجعت ، فأوثقها ، فأتاه الأعرابي فقال : يا رسول الله أطلقها ، فأطلقها فخرجت تعدو وتقول : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّك رسول الله .

وفي رواية ابن شهراشوب أن تلك الظبية كانت قد صادها يهودي ، وأنها لما ذهبت إلى خشفيها قالا لها : إن رسول الله قد ضمنك ، وهو في انتظارك ، فلن نرضع حتى نذهب إليه ، فخرجت مع خشفيها إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأثنت عليه ، وجعلوا يمسحون رؤوسهم به ، فجعل اليهودي يبكي ، ثم أسلم ؛ ثم أطلق الظبية ، واتخذ مسجداً في ذلك الموضع ، ثمّ طوّق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أعناقها بالسلاسل كعلامة ، وقال : لقد حرّمت لحومكم على الصيادين .

الثانية : يروى بأسناد كثيرة عن جماعة من العلماء عن الصادق (عليه السلام)قال :

كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذات يوم قاعداً إذ مرّ به بعير ، فبرك بين يديه ورغا ، فقال عمر : يا رسول الله ، أيسجد لك هذا الجمل ؟ فإن سجد لك فنحن أحقّ أن نفعل ، فقال : لا ، بل اسجدوا لله ، إنّ هذا الجمل يشكو أربابه ، ويزعم أنهم أنتجوه صغيراً واعتملوه ، فلما كبر وصار أعور كبيراً ضعيفاً أرادوا نحره . ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

وفي رواية أنه (صلّى الله عليه وآله) أرسل إلى صاحب البعير ، فلما جاء قال له : إنّ هذا يزعم أنه كان لكم شاباً حتى هرم ، وأنه قد نفعكم ، وأنكم أردتم نحره ؛ فقال : صدق ، لنا وليمة فأردنا أن ننحره ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : لا تنحروه ودعوه ، قال : فتركوه .

الثالثة : يروي الراوندي وغيره من محدّثي الخاصّة والعامّة أنّ (سفينة) مولى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال :

خرجت غازياً ، فكُسِر بي ، فغرق المركب وما فيه ، وأقبلت وما عليّ إلاّ خرقة قد اتّزرت بها ، وكنت على لوح ، وأقبل اللوح يرمي بي على جبل في البحر ، فإذا صعدت وظننت أني

---

(١) الخشف : ولد الظبي أول ما يولد .

نجوت ، جاءتني موجة فاتسفتني ، ففعلت بي مراراً ، ثم اني خرجت أستند على شاطىء البحر ، فلم تلحقني (الأمواج) ، فحمدت الله على سلامتي .

فبينما أنا أمشي إذ بصر بي أسد ، فاقبل نحوي يريد أن يفترسني ، فرفعت يدي إلى السماء فقلت : اللهمّ إنيّ عبدك ومولى نبيّك ، نجّيتني من الغرق ، أفتسلّط عليّ سبعك ؟ فألهمت أن قلت : أيها السبع ، أنا سفينة مولى رسول الله ، احفظ رسول الله في مولاه ؛ فوالله إنّه لترك الزئير ، وأقبل كالسنور يمسح خدّه بهذه الساق مرّة ، وبهذه الساق أخرى ، وهو ينظر في وجهي مليّاً ، ثم طأطأ ظهره ، وأومأ إليّ أن أركب ، فركبت ظهره ، فخرج يخبّ بي ، فما كان بأسرع من أن هبط جزيرة ، وإذا فيها من الشجر والثمار ، وعين عذبة من ماء ، فدهشت ، وأومأ إليّ أن انزل ، فنزلت ، فبقي واقفاً حذاي ينظر ؛ فأخذت من تلك الثمار وأكلت ، وشربت من ذلك الماء فرويت ، فعمدت إلى ورقة فجعلتها لي مئزراً واتّزرت بها ، وتلحّفت بأخرى ، وجعلت ورقة شبيهاً بالمزود فملأتها من تلك الثمار ، وبلّلت الخرقة التي كانت معي لأعصرها إذا احتجت إلى الماء فأشربه ، فلما فرغت ممّا أردت اقبل إليّ ، فطأطأ ظهره ، ثم أومأ إليّ أن اركب ، فلما ركبت أقبل بي نحو البحر ، في غير الطريق الذي اقبلت منه .

فلما جزت على البحر ، إذا مركب سائر في البحر ، فلوّحت لهم ؛ فاجتمع أهل المركب يسبحون ويهلّلون ، إذ يرون رجلاً راكباً أسداً ، فصاحوا : يا فتى من أنت ؟ اجنيّ أم إنسيّ ؟! قلت : أنا سفينة مولى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، رعى الأسد فيّ حقّ رسول الله ففعل ما ترون .

فلمّا سمعوا ذكر رسول الله حطّوا الشراع ، وحملوا رجلين في قارب صغير ، ودفعوا إليهما ثياباً ، فجاءا إليّ ، ونزلت عن الأسد ، ووقف ناحية مطرقاً ينظر ما أصنع ، فرميا إليّ بالثياب وقالا : البسها ، فلبستها ، فقال أحدهما : اركب ظهري حتى أحملك إلى القارب ، أيكون السبع أرعى لحقّ رسول الله من أمّته ؟ فأقبلت على الأسد فقلت : جزاك الله خيراً عن رسول الله ، فوالله لنظرت إلى دموعه تسيل على خدّه ما يتحرك ، حتى دخلت القارب ، وأقبل يلتفت إليّ ساعة ، حتى غبنا عنه .

الرابعة : يروي المحدثون أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان إذا أراد حاجة أبعد في المشي ، فأتى يوماً وادياً لحاجة ، فنزع خفّه وقضى حاجته ، ثم توضّأ وأراد لبس خفّه ، فجاء طائر أخضر (كان يقال له أخضر قبا) ، فحمل الخفّ فارتفع به ، ثم طرحه فخرج منه أسود .

وفي رواية أخرى أن الطائر أخذ الحيّة من خفّه وارتفع بها ، ولهذا السبب نهى (صلّى الله عليه وآله) عن صيده .

أقول : إن نظيراً لهذا روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكذلك فإن أبا الفرج يروي عن المدائني أن السيد الحميري وكان يمتطي فرساً ، وقف في كناسة الكوفة وقال : من يذكر منكم فضيلة من فضائل علي (عليه السلام) لم تتضمّنها أشعاري فله هذه الفرس وما عليّ من ثياب ، وأقبل المحدثون يروون أحاديث في فضائله (عليه السلام) والسيد ينشد أشعاره التي تتضمّن تلك الفضائل ، حتى أقبل رجل يروي حديثاً عن أبي الزغل المرادي ، قال :

كنت في خدمة أمير المؤمنين (عليه السلام) وكان منشغلاً بالوضوء للصلاة ، وقد نزع خفّيه ، فتسللت حية إلى أحدهما ، وحين أراد لبسه ظهر غراب واختطف الخف وارتفع به ، ثم طرحه ، فخرجت الحية منه .

فما أن سمع السيد حديث الرجل حتى بادر فأعطاه ما وعد ، ثم ضمّن هذه الفضيلة في شعره ، وقال :

ألا يا قوم للعجب العجاب لخفّ أبي الحسين وللحباب
. . . الأبيات

القسم الرابع

معجزاته (صلّى الله عليه وآله) في إحياء الموتى وشفاء المرضى ، والمعجزات التي ظهرت من أعضائه الشريفة ، كإزالة الألم من عين أمير المؤمنين (عليه السلام) ببركة لعابه المبارك ، وإحيائه الغزال الذي أحبّ لحمه ، وإحيائه جدي رجل من الأنصار كان قد أولمه له ، وتكلّم فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ معه في القبر ، وإحيائه الشاب الأنصاري الذي كانت له أم عجوز عمياء ، وشفائه جرح سملة بن الأكوع الذي كان أصيب به في خيبر ، وعلاجه اليد المقطوعة لمعاذ بن عفراء ، فالتأمت وعادت كحالتها الأولى ، وقدم محمد بن سلمة ، وقدم عبد الله العتيك ، وعين قتادة بعد أن فقئت وخرجت من محجرها ، وإشباعه بضعة ألوف من الجند ببضع تمرات ، وإروائه جماعة من الناس مع خيولهم وإبلهم من ماء تفجّر من بين أصابعه المباركة ، إلى غير ذلك ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى شطر منها .

الأولى : يروي الراوندي والطبرسي وغيرهما أن امرأة أتته (صلّى الله عليه وآله) بصبيّ لها ترجو بركته بأن يمسّه ويدعو له ، وكان برأسه عاهة . . . فمسح بيده على رأسه فاستوى شعره وبرىء داؤه ؛ فبلغ ذلك أهل اليمامة ، فأتوا مسيلمة بصبيّ فسألوه ، فمسح شعره فصلع ، وبقي نسله إلى يومنا هذا صلعاً .

أقول : لقد روي الكثير من هذا النحو من المعجزات المنقلبة إلى ضدّها عن مسيلمة ، منها أن لعابه المنحوس سقط في بئر فَمَلُح ماؤها ، وأنه تفل لعابه في دلو ماء ، ثم صُبّ في بئر ليكثر ماؤها ، فجفّ ذلك الماء ؛ وأنه نثر ماء وضوئه في بستان فلم يخضرّ فيه عشب بعد ذلك ، وأن رجلاً سأله أن يدعو لطفلين له ، فرفع مسيلمة يده ، ودمدم بكلمات ، ولما رجع الرجل إلى بيته وجد أحد طفليه وقد مزّقه الذئب ؛ والآخر وقد وقع في بئر ؛ وأن رجلاً شكا إليه ألماً في عينه ، فلما مسحها بيده عميت ؛ ولمّا سئل مسيلمة عن حقيقة هذه المعجزات المنحوسة ردّ بقوله : كان هذا الرجل في شك من نبوّتي ، فأتت معجزاتي عليه بالنحس .

الثانية : يروي السيد المرتضى وابن شهر اشوب أن النابغة الجعدي أنشد رسول الله قصيدة إلى أن بلغ قوله :

بلغنا السماء عزّةً وتكرُّماً وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال (صلّى الله عليه وآله) : إلى أين يا بن أبي ليلى ؟

قال : إلى الجنّة يا رسول الله .

قال : أحسنت ، لا يفضض الله فاك .

قال الراوي : فرأيته شيخاً له مئة وثلاثون سنة ، وأسنانه مثل ورق الأقحوان نقاءً وبياضاً ، قد تهدّم جسمه ، إلا فاه .

وفي رواية أخرى : كلّما سقطت له سنّ نبتت له أخرى أحسن منها .

الثالثة : روي أن أبا هريرة قال : أتيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوماً بتمرات فقلت : ادع لي بالبركة فيهن ، فدعا ثمّ قال : خذهنّ فاجعلهنّ في المزود ، إذا أردت شيئاً فأدخل يدك فيه فلا تنثره . قال : فلقد حملت من ذلك التمر أوسقاً، وكنّا نأكل ونطعم.

وحين قتل عثمان ، أغاروا على بيت أبي هريرة ، وذهبوا بالمزود ، فاغتمّ أبو هريرة وقال في هذا المقام :

للناس همّ ولي في الناس همّان همُّ الجراب وقتلُ الشيخ عثمان

الرابعة : يروى أن النبي (صلّى الله عليه وآله) ذهب مع جماعة من الصحابة إلى دار أبي الهيثم بن التيهان ، فقال أبو الهيثم : مرحباً برسول الله ، ما كنت أحبّ أن تأتيني وأصحابك إلاّ وعندي شيء ، وكان عندي شيء ففرّقته في الجيران ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : أوصاني جبريل بالجار حتى حسبت أنّه سيورثه .

قال : فنظر النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى نخلة في جانب الدار فقال : يا أبا الهيثم ، تأذن في هذه النخلة ؟ فقال : يا رسول الله ، إنّه لفحل ، وما حمل شيئاً قطّ ، شأنك به . فقال : يا علي ، ائتني بقدح ماء ، فشرب منه ، ثم مجّ فيه ، ثم رشّ على النخلة فتملّت أعذاقاً من بسر ورطب ما شئنا ، فقال : يا علي ، هذا من النعيم الذي يُسألون عنه يوم القيامة .

الخامسة : يروي الراوندي أنّه كان لبعض الأنصار عناق[1] فذبحها ، وقال لأهله : اطبخوا بعضاً ، واشووا بعضاً ، فلعلّ رسولنا يشرّفنا ويحضر بيتنا ويفطر عندنا ، وخرج إلى المسجد .

وكان له ابنان صغيران ، وكانا يريان أباهما يذبح العناق ، فقال أحدهما للآخر : تعال حتّى أذبحك ، فأخذ السكين وذبحه ، فلما رأتهما الوالدة صاحت ، فعدا الذابح فهرب ، فوقع من الغرفة فمات ، فسترتهما ، وطبخت وهيّأت الطعام .

فلمّا دخل النبي (صلّى الله عليه وآله) دار الأنصاري نزل جبرئيل (عليه السلام) وقال : يا رسول الله ، استحضر ولديه ؛ فخرج أبوهما يطلبهما ، فقالت والدتهما ليسا حاضرين ، فرجع إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) وأخبره بغيبتهما ، فقال : لا بدّ من إحضارهما ، فخرج إلى أمّهما فأطلعته على حالهما ، فأخذهما إلى مجلس النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فدعا الله فأحياهما ، وعاشا سنتين .

السادسة : في خبر عن سلمان رضي الله عنه أنّه لمّا نزل (صلّى الله عليه وآله) دار أبي أيوب الأنصاري لم يكن له سوى جدي وصاع من شعير ، فذبح له الجدي وشواه ، وطحن الشعير وعجنه وخبزه ، وقدّم بين يدي النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فأمر بأن ينادى : ألا من أراد الزاد فليأت إلى دار أبي أيّوب ، فجعل أبو أيوب ينادي والناس يهرعون كالسيل ، حتّى امتلأت الدار ، فأكل الناس بأجمعهم والطعام لم يتغيّر ، فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) : اجمعوا العظام ، فجمعوها ، فوضعها في إهابها ثم قال : قومي بإذن الله تعالى ، فقام الجدي ، فضجّ الناس بالشهادتين

السابعة : يروي الشيخ الطبرسي والراوندي وآخرون أن أبا براء ، ملاعب الأسنّة ، كان به استسقاء ، فبعث إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) لبيد بن ربيعة ، وأهدى له فرسين

---

(١) العناق : الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها السنة . المنجد .

ونجائب ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : لا أقبل هديّة ومن مشرك ، قال لبيد : ما كنت أرى أنّ رجلاً من نضر يردّ هديّة أبي براء !

فقال (صلّى الله عليه وآله) : لو كنت قابلاً هديّة من مشرك لقبلتها ، قال : فإنّه يستشفيك من علّة أصابته في بطنه .

فأخذ حثوة من الأرض فتفل عليها ، ثم أعطاه فقال : دُفْها بماء ، ثم اسقه إيّاها ، فأخذها متعجّباً يرى أنّه قد استهزىء به ، فأتاه فشربها ، وأطلق من مرضه ، كأنّما أنشط من عقال .

الثامنة : من المعجزات المتواترة التي ترويها الخاصّة والعامّة أن النبي (صلّى الله عليه وآله) لمّا هاجر من مكّة ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة ، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي (أرقط ، برواية الطبري) فمرّوا على أمّ معبد الخزاعية . . . وكانت تجلس بفناء الخيمة ، فسألوا تمراً أو لحماً ليشتروه ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وإذا القوم مرملون[١] ، فقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى .

فنظر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في كسر خيمتها فقال : ما هذه الشاة يا أمّ معبد ؟ قالت : شاة خلّفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم ـ بأبي أنت وأمّي ـ إن رأيت بها حلباً فاحلبها .

فدعا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال : « اللهمّ بارك في شاتها » فتفاجّت ودرّت ، فدعا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بإناء لها يربض الرهط[٢] ، فحلب فيه ثجّاً[٣] حتى علته الثمال[٤] ، فسقاها فشربت حتى رويت ، ثم سقى أصحابه فشربوا حتى رووا ، فشرب آخرهم وقال : « ساقي القوم آخرهم شرباً » . . . ثمّ حلب فيه ثانياً عوداً على بدء ، فغادره عندها ، ثم ارتحلوا عنها .

فقلّما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد . . . فلمّا رأى اللبن قال : من أين لكم هذا ؟ . . . قالت : مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . . .

---

(١) أرمل القوم زادهم : أنفدوه .

(٢) يربض الرهط : يروي القوم .

(٣) الثج : السيّال .

(٤) الثمال : الرغوة .

التاسعة : يروي جماعة من محدّثي العامّة والخاصّة عن جابر الأنصاري أنه قال : صرت إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في وقعة الخندق فوجدته مستلقياً وقد شدّ على بطنه الحجر ، وكان في منزلي صاع من شعير وشاة مشدودة ، فصرت إلى أهلي فقلت : رأيت الحجر على بطن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأظنّه جائعاً ، فلو أصلحنا هذا الشعير وهذه الشاة ودعونا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، إلينا كان لنا قربة عند الله ؛ قالت : فاذهب فأعلمه ، فإن أذن فعلناه .

فذهبت فقلت له : يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل غداءك اليوم عندنا ، قال : وما عندك ؟ قلت : صاع من الشعير وشاة ، قال : أفأصير إليك مع من أحبّ أو أنا وحدي ؟ قال : فكرهت أن أقول : أنت وحدك ، قلت : بل مع من تحبّ ، وظننته يريد عليّاً (عليه السلام) بذلك .

فرجعت إلى أهلي فقلت : أصلحي أنت الشعير ، وأنا أصلح الشاة ، ففرغنا من ذلك ، وجعلنا الشاة كلها قطعاً في قدر واحدة وماء وملحاً ، وخبزت أهلي ذلك الدقيق فصرت إليه وقلت : يا رسول الله قد أصلحنا ذلك ، فوقف على شفير الخندق ، ونادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أجيبوا دعوة جابر .

فخرج جميع المهاجرين والأنصار ، فخرج النبي (صلّى الله عليه وآله) والناس ، ولم يكن يمرّ بملأ من أهل المدينة إلّا قال : أجيبوا دعوة جابر ، فأسرعت إلى أهلي وقلت : قد أتانا ما لا قِبل لنا به ، وعرّفها خبر الجماعة ، فقالت : ألست قد عرّفت رسول الله ما عندنا ؟ قلت : بلى ، قالت : فلا عليك ، هو أعلم بما يفعل ، فكانت أهلي أفقه مني .

فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الناس بالجلوس خارج الدار ، ودخل هو وعليّ الدار ، وفي رواية أخرى : أدخل الجميع الدار ، وليست في الدار سعة ، فكان (صلّى الله عليه وآله) يشير إلى الحائط ، والحائط يبعد حتى تمكّنوا ، وكان عددهم سبعمئة على قول ، وثمانمئة على آخر ، وألفاً على ثالث .

نظر (صلّى الله عليه وآله) في التنور والخبز فيه ، فتفل فيه وكشف القدر فنظر فيها ، ثم قال للمرأة : اقلعي من التنور رغيفاً رغيفاً ، وناوليني واحداً بعد واحد ، فجعلت تقلع رغيفاً وتناوله إيّاه ، وهو وعليّ يثردان في الجفنة ، ثم تعود المرأة إلى التنور فتجد مكان الرغيف الذي قلعته رغيفاً آخر ، فلما امتلأت الجفنة بالثريد غرف عليها من القدر ، وقال : أدخل عليّ عشرة من الناس ، فدخلوا وأكلوا حتى شبعوا ، ثم قال : يا جابر ايتني بالذراع ، ثم قال : أدخل عليّ عشرة ، فدخلوا وأكلوا حتى شبعوا ، والثريد بحاله ، ثم قال : هات الذراع ، فأتيته

بها ، فقال : أدخل عشرة ، فأكلوا وشبعوا ، ثم قال : هات الذراع ، قلت : كم للشاة من ذراع ؟ قال : ذراعان ، قلت : قد أتيت بثلاث أذرع ، قال : لو سكتّ لأكل الجميع من الذراع .

فلم يزل يدخل عشرة ، ويخرج عشرة حتى أكل الناس جميعاً ، ثم قال : تعال حتى نأكل نحن وأنت ، فأكلت أنا ومحمد (صلّى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) وخرجنا ، والخبز في التنور بحالة ، والقدر على حاله ، والثريد في الجفنة على حاله ، فعشنا أياماً بذلك .

العاشرة : يروى أن قتادة بن النعمان ، خال أبي سعيد الخدري ، وممّن شهدوا وقعتي بدر وأحد ، حيث أصيب بإحدى عينيه فسالت حتى وقعت على خدّه ، فأتى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مستغيثاً يقول : إن لي زوجة حسناء احبّها وتحبّني ، ولم تمض على زواجنا أيام ، ولشدّ ما أكره أن تراني بهذه العين المتدلّية ، فأخذها (صلّى الله عليه وآله) فردّها إلى مكانها ، وقال : « اللهمّ اكسه الجمال » ، فازداد حُسناً على حسن ـ وكانت عينه الأخرى تؤلمه أحياناً ، أمّا هذه فلا .

ويروى أن ولداً لقتادة قدم إلى عمر بن عبد العزيز يوماً ، فسأل : مَن الرجل ؟ فأجابه :

أنا الذي سالت على الخدّ عينه	فرُدّت بكفّ المصطفى احسن الردّ
فعادت كما كانت لأوّل مرّة	فيا حسن ما عينٍ ويا حسن ما ردّ

القسم الخامس

المعجزات التي ظهرت في كفاية شرّ الأعداء ، كهلاك المستهزئين ، وتمزيق الأسد لعتبة بن أبي لهب ، وكفّ شرّ أبي جهل ، وأبي لهب ، وأمّ جميل ، وعامر بن الطفيل ، وأزيد بن قيس ، والمعمّر بن يزيد ، والنضر بن الحارث ، وزهير الشاعر عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، إلى غير ذلك ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى شطر منها .

الأولى : عن عليّ بن إبراهيم وآخرين أن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قام يصلّي (عند الكعبة) ، وقد حلف أبو جهل لئن رآه يصلّي ليدمغنّه ، فجاءه ومعه حجر ، والنبي (صلّى الله عليه وآله) قائم يصلّي ، فجعل كلّما رفع الحجر ليرميه أثبت الله يده إلى عنقه ، ولا يدور الحجر بيده ، فلمّا رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده . (وفي رواية أخرى أنه تضرّع إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) فدعا له الله فأطلق يده) .

ثم قام رجل آخر من رهطه فقال : أنا أقتله ، فلمّا دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله

(صلّى الله عليه وآله) فأرعب ، فرجع إلى أصحابه فقال : حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه ، فخفت أن أتقدّم .

الثانية : يروي علماء التفسير في قوله تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنّا كفيناك المستهزئين ﴾ .. أنّه بعد أن نُبّيء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان أول من أسلم علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، ثمّ أسلمت خديجة بنت خويلد زوجة النبي (صلّى الله عليه وآله) ، ثمّ دخل أبو طالب إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) وهو يصلّي ، وعليّ بجنبه ، وكان مع أبي طالب جعفر ، فقال له أبو طالب : « صِلْ جناح ابن عمّك » . فوقف جعفر على يسار رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فبدر رسول الله من بينهما ، فكان يصلّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) وجعفر وزيد بن حارثة ، وخديجة ، فلما أتى لذلك ثلاث سنين أنزل الله عليه **﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنّا كفيناك المستهزئين ﴾** .

وكان المستهزئون برسول الله (صلّى الله عليه وآله) خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطّلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن طلاطلة الخزاعي ؛ (ويقول بعضهم : إنهم كانوا ستة ، ويضيفون إلى الخمسة الحارث بن قيس) .

فمرّ الوليد بن المغيرة برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومعه جبرئيل ، فقال جبرئيل : يا محمد ، هذا الوليد بن المغيرة ، وهو من المستهزئين بك ، قال ، نعم .

وقد كان مرّ (جبرئيل) برجل من خزاعة على باب المسجد ، وهو يريش نبالاً له ، فوطيء على بعضها ، فأصاب أسفل عقبه قطعة من ذلك ، فدميت .

فلما مرّ (الوليد) بجبرئيل أشار إلى ذلك الموضع ، فرجع الوليد إلى منزله ، ونام على سريره ، وكانت ابنته نائمة أسفل منه ، فانفجر الموضع الذي أشار إليه جبرئيل أسفل عقبه ، فسال منه الدم حتى صار إلى فراش ابنته ، فانتبهت ابنته ، فقالت للجارية : انحلّ وكاء (رباط) القربة ، قال الوليد : ما هذا وكاء القربة ، ولكنه دم أبيك ! فاجمعي لي ولدي وولد أخي ، فإنّي ميّت ، (فجمعتهم فأوصاهم والتحق بجهنّم) .

ومرّ العاص بن وائل ، فأشار جبرئيل إلى رجله ، فدخل عود في أخمص قدمه وخرج من ظاهره ، ومات . وبرواية أخرى أن شوكة دخلت في أخمص قدمه ، فجعل يحكّها حتى هلك .

ومرّ الأسود بن المطّلب ، فأشار إلى بصره فعمي ، وجعل يضرب رأسه بالحائط حتى هلك .

وبرواية أخرى أنه أشار إلى بطنه ، فلم يزل يستسقي حتى انشق بطنه .

ومرّ الأسود بن عبد يغوث ، فدعا عليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال : « اللهمّ أعم بصره ، وأثكله بولده» ، فلمّا كان في ذلك اليوم أتاه جبرئيل بورقة خضراء ، فضرب بها وجهه فعمي ، وبقي حتى أثكله الله عزّ وجلّ بولده يوم بدر ، ثم مات .

وأما الحارث بن طلاطلة فيقال إن ثعباناً لدغه فمات ، وقيل إنه خرج من بيته في السّموم ، فتحوّل حبشياً ، فرجع إلى أهله فأنكروه فقتلوه .

وأما الحارث بن قيس فإنه أكل حوتاً مالحاً ، فأصابه العطش ، فلم يزل يشرب الماء حتى انشق بطنه فمات .

الثالثة : روى الراوندي وغيره عن ابن مسعود أنه قال :

كنّا مع النبي (صلى الله عليه وآله) فصلّى في ظلّ الكعبة ، وناس من قريش وأبو جهل نحروا جزوراً في ناحية مكّة ، فبعثوا وجاؤوا بسلاها[1] فطرحوه بين كتفيه ، فجاءت فاطمة (عليها السلام) فطرحته عنه ، فلمّا انصرف قال : « اللهمّ عليك بقريش ، اللهم عليك بأبي جهل ، وبعتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، وأميّة بن خلف ، وبعقبة بن أبي معيط » .

قال عبد الله : ولقد رأيتهم قتلى في قليب بدر .

الرابعة : روى الراوندي أيضاً عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال :

صلّى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في بعض الليالي فقرأ : ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتبّ ﴾ ، فقيل لأم جميل أخت أبي سفيان امرأة أبي لهب : إنّ محمداً لم يزل البارحة يهتف بك وبزوجك في صلاته ، ويقنت عليكما ؛ فخرجت تطلبه وهي تقول : لئن رأيته لأسمعنّه ، وتنشد : من أحسّ لي محمداً ؟ حتى انتهت إلى رسول الله وأبو بكر جالس معه ، فقال أبو بكر : يا رسول الله لو انتحيت ، فإن أمّ جميل قد أقبلت ، وأنا خائف أن تسمعك شيئاً ، فقال : إنّها لم ترني .

فجاءت حتى قامت عليه ، وقالت : يا أبا بكر ، أرأيت محمداً ؟ قال : لا ، فمضت راجعة إلى بيتها .

قال أبو جعفر (عليه السلام) : ضرب الله بينهما حجاباً أصفر ، وكانت تقول له

---

(١) السلى : جلدة يكون فيها الجنين .

(صلّى الله عليه وآله) : مذمّم ، وكذا قريش كلّهم ؛ فقال النبي : « إن الله أنساهم اسمي وهم يعلمون ، يسمّون مذمّماً وأنا محمّد » .

الخامسة : يروي ابن شهراشوب وكثير من المؤرخين أنّه لما رجع مشركو قريش من موقعة بدر ، سأل أبو لهب أبا سفيان عن قصة بدر ، فقال :

إنّا لقيناهم فمنحناهم أكتافنا ، فجعلوا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، لا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع لأم الفضل زوجة العباس : تلك الملائكة ! فسمعه أبو لهب فجعل يضربه ، فضربته أم الفضل على رأسه بعمود الخيمة ، ففلقت رأسه شجّة منكرة ، فعاش (بعدها) سبع ليال ، وقد رماه الله بالعدسة[1] ، ولقد تركه ابناه ثلاثاً لا يدفنانه ، وكانت قريش تتّقي العدسة ، فدفنوه بأعلى مكّة على جدار ، وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه .

يقول العلاّمة المجلسي : إن مدفن أبي لهب قائم الآن على رأس طريق العمرة ، وكلّما عبر به عابر رماه بالعديد من الحجارة ، حتى ارتفع في الموضع منها تلّ عظيم .

فتأمّل كيف أنّ مخالفة الله ورسوله تضع ذا الحسب الشريف ، وأن طاعتهما ترفع من لا حسب له ولا نسب درجات ، وتلحقه بأهل بيت العزّة والشرف .

القسم السادس

معجزاته (صلّى الله عليه وآله) في استيلائه على الجنّ والشياطين ، وإيمان بعض الجنّ به ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى شطر منها .

الأولى : يروي علي بن إبراهيم أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خرج من مكّة إلى سوق عكاظ ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام ، فلم يجبه أحد ، ولم يجد من يقبله ، ثمّ رجع إلى مكّة ، فلمّا بلغ موضعاً يقال له وادي مجنّة تهجّد بالقرآن في جوف الليل ، فمرّ به نفر من الجنّ ، فلمّا سمعوا قرءاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) استمعوا له ، فلمّا سمعوا قراءته قال بعضهم لبعض : ﴿ **انصتوا ، فلمّا قضي** ﴾ أي فرغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من القراءة ﴿ **ولّوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحقّ ، وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به . .** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك في ضلال مبين** ﴾ .

---

(١) العدسة : بثرة تخرج في الجسد ، وهي من الطاعون تقتل صاحبها .

فجاؤوا إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأسلموا وآمنوا ، وعلّمهم رسول الله شرائع الإسلام ، فأنزل الله على نبيّه : ﴿ قل أوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ ﴾ السورة كلها ، فحكى الله قولهم ، وولّى رسول الله عليهم منهم ، وكانوا يعودون إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في كلّ وقت ، فأمر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) أن يعلّمهم ويفقّههم ، فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ، ويهود ونصارى ، ومجوس وهم ولد الجانّ .

الثانية : يروي الشيخ المفيد والطبرسي وسائر المحدثين أنه لمّا خرج النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى بني المصطلق ، نزل بقرب واد وعر ، فلمّا كان آخر الليل هبط عليه جبرئيل يخبره عن طائفة من كفّار الجنّ قد استبطنوا الوادي ، يريدون كيده وإيقاع الشرّ بأصحابه ، فدعا أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال : اذهب إلى هذا الوادي ، فسيعرض لك من أعداء الله الجن من يريدك ، فادفعه بالقوة التي أعطاك الله إيّاها ، وتحصّن منه بأسماء الله التي خصّك بعلمها ؛ وأنفذ معه مئة رجل من أخلاط الناس ، وقال لهم : كونوا معه ، وامتثلوا أمره .

فتوجّه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الوادي ، فلمّا قارب شفيره أمر المئة الذين صحبوه أن يقفوا بقرب الشفير ، ولا يحدثوا شيئاً حتّى يأذن لهم ، ثم تقدم فوقف على شفير الوادي وتعوّذ بالله من أعدائه ، وسمّاه بأحسن أسمائه ، وأومأ إلى القوم الذين تبعوه أن يقربوا منه فقربوا ، وكان بينه وبينهم فرجة مسافتها غلوة[1] . ثم رام الهبوط إلى الوادي فاعترضت ريح عاصف كاد القوم أن يقعوا على وجوههم لشدّتها ، ولم تثبت أقدامهم على الأرض من هول ما لحقهم ، فصاح أمير المؤمنين (عليه السلام) : أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب ، وصيّ رسول الله وابن عمّه ، اثبتوا إن شئتم ، وظهر للقوم أشخاص كالزّطّ[2] تخيّل في أيديهم شعل النار ، قد اطمأنّوا بجنبات الوادي ، فتوغّل أمير المؤمنين (عليه السلام) بطن الوادي وهو يتلو القرآن ، ويومىء بسيفه يميناً وشمالاً ، فما لبثت الأشخاص حتى صارت كالدخان الأسود ، وكبّر أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ثمّ صعد من حيث هبط ، فقام مع القوم الذين تبعوه حتى أسفر الموضع عمّا اعتراه .

فقال له أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : ما لقيت يا أبا الحسن ، فقد كدنا نهلك خوفاً وإشفاقاً عليك ؟ فقال : (عليه السلام) : لمّا تراءى لي العدوّ جهرت فيهم بأسماء الله فتضاءلوا ، وعلمت ما حلّ بهم من جزع ، فتوغّلت الوادي غير خائف منهم ، ولو بقوا على هيئاتهم لأتيت على آخرهم ، وكفى الله كيدهم ، وكفى المسلمين شرّهم ، وسيسبقني

---

(١) الغلوة : رمية السهم .

(٢) الزّطّ : الزنج .

بقيّتهم إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) فيؤمنون به .

وانصرف أمير المؤمنين (عليه السلام) بمن معه إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأخبره الخبر ، فسُرّي عنه ، ودعا له بخير ، وقال له : قد سبقك يا عليّ إليّ من أخافه الله بك ، فأسلم وقبلت إسلامه .

الثالثة : يروي ابن شهراشوب أن تميماً الداري قال :

أدركني الليل في بعض طرقات الشام ، فلمّا أخذت مضجعي قلت : أنا الليلة في جوار هذا الوادي[1] ، فإذا منادٍ يقول : عُذ بالله ، فإنّ الجنّ لا تجير أحداً على الله ؛ قد بُعث نبيّ الأمّيّين رسول الله ، وقد صلّينا خلفه بالحَجون ، وذهب كيد الشياطين ، ورميت بالشهب ؛ فانطلق إلى محمّد رسول ربّ العالمين .

الرابعة : يروي الطبرسي وغيره عن الزهري أنه قال :

لمّا توفّي أبو طالب (رضي الله عنه) اشتدّ البلاء على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فعمد لثقيف بالطائف رجاء أن يؤووه (بأن يستمعوا إليه ويؤمنوا بدعوته) ، فوجد ثلاثة نفر منهم ، هم سادة ، وهم إخوة : عبيد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، بنو عمرو بن عمير ؛ فعرض عليهم نفسه ، فقال أحدهم : جعلت سارق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ .

وقال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلّمك بعد مجلسك هذا أبداً ، ولئن كنت رسولاً كما تقول فلأنت أعظم خطراً من أن يُردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلّمك بعد .

وتهزّأوا به ، وأفشوا في قومهم ما راجعوه به ، فقعدوا له صفّين على طريقه ، فلّما مرّ رسول الله بين صفّيهم جعلوا ـ لا يرفع رجليه ولا يضعهما ـ إلاّ رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه ، فخلص منهم وهما يسيلان دماً ، فعمد فجاء إلى حائط من حيطانهم[2] ، فاستظلّ في ظلّ نخلة منه وهو مكروب موجع ، تسيل رجلاه دماً ، فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلّما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله ، فلّما رأياه أرسلا إليه غلاماً لهما يدعى عدّاس ، معه عنب ، وهو نصراني من أهل نينوى ؛ فلمّا جاءه قال له رسول الله

(١) تلك عادة جاهلية ، إذا نزلوا في موضع يستعيذون بالجن من أهل هذا المكان .

(٢) الحائط : البستان ـ الجدار .

(صلّى الله عليه وآله) : من أيّ أرض أنت ؟ قال : من أهل نينوى ، قال : من مدينة العبد الصالح يونس بن متّى ؟ فقال له عدّاس : وما يدريك مَن يونس بن متّى ؟ فقال (صلّى الله عليه وآله) : أنا رسول الله ، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متّى ، فلمّا أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس خرّ عدّاس ساجداً لله ، ومعظّماً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وجعل يقبّل قدميه وهما تسيلان دماً ؛ فلمّا بصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا ، فلمّا أتاهما قالا : ما شأنك سجدت لمحمّد وقبّلت قدميه ، ولم نرك فعلت ذلك بأحدٍ منّا؟ قال : هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متّى ؛ فضحكا وقالا : لا يفتننّك عن نصرانيّتك ، فإنه رجل خدّاع .

فرجع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى مكّة ، حتّى إذا كان بنخلة قام في جوف الليل يصلّي ، فمرّ به نفر من أهل نصيبين من اليمن ، فوجدوه يصلّي صلاة الغداة ، ويتلو القرآن ، فاستمعوا له ، وآمنوا ، وانقلبوا إلى قومهم يدعونهم للإسلام .

وقال آخرون : أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى الله ، ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً من الجن من نينوى ، فقال : (صلّى الله عليه وآله) : إنّي أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة ، فأيّكم يتبعني ؟ فاتّبعه عبد الله بن مسعود .

قال عبد الله : ولم يحضر معه أحد غيري ، فانطلقنا حتى إذا كنّا بأعلى مكّة ، ودخل نبيّ الله شعباً يقال له شعب الحجون ، خطّ لي خطّاً ، ثمّ أمرني أن أجلس فيه وقال : لا تخرج منه حتّى أعود إليك ، ثم انطلق حتى قام ، فافتتح القرآن ، فغشيته أسودة[1] كثيرة حتى حالت بيني وبينه ، حتّى لم أسمع صوته ، ثم انطلقوا وطفقوا يتقطّعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتّى بقي منهم رهط ، وفرغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مع الفجر فانطلق فبرز ، ثم قال : هل رأيت شيئاً ؟ فقلت : نعم ، رأيت رجالاً سوداً مستثفري[2] ثياب بيض ، قال : أولئك جنّ نصيبين . . . وروي عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة نفر من جنّ نصيبين ، فجعلهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) رسلاً إلى قومهم ؛ وقال بعضهم : كانوا تسعة نفر .

القسم السابع

معجزاته في إخباره بالمغيّبات .

أقول : يكفينا في هذا المقام ما سنذكره بعد هذا من إخبار أمير المؤمنين (عليه السلام)

---

(١) أسودة : جمع سواد .

(٢) أستثفر : ثنى ثوبه فجمعه بين فخذيه .

عن الغيب ، ذلك أن ما أعطاه أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الغيب إنما أخذه عن النبي (صلّى الله عليه وآله) ، واقتبسه من مشكاة النبوّة .

قال شيخنا البهائي (ره) : جميع أحاديثنا ـ إلاّ ما ندر ـ تنتهي إلى أئمّتنا الاثني عشر ، وهم ينتهون إلى النبي (صلّى الله عليه وعليهم) ، لأن علومهم مقتبسة من تلك المشكاة .

لكننا للتبرّك والتيمّن ـ نكتفي بذكر شطر منها .

الأولى : يروي الحميري عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

قال أبي : كان النبي (صلّى الله عليه وآله) أخذ من العبّاس يوم بدر دنانير كانت معه ، فقال : يا رسول الله ، ما عندي غيرها ، فقال : أين الذي استخبيته عند أم الفضل ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، إنك رسول الله ، ما كان معها أحد حين استخبيتها .

فأنزل الله تعالى : **﴿ يا أيّها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أخذ منكم ﴾** .

فكان العبّاس يقول : صدق الله وصدق رسوله ، فإنّه كان معي عشرون أوقية ، فأخذت ، فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً كلّ منهم يضرب[1] بمال كثير ، أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم .

الثانية : يروي ابن بابويه والراوندي عن ابن عباس أنه قال :

دخل أبو سفيان على النبي (صلّى الله عليه وآله) يوماً فقال : يا رسول الله ، أريد أن أسألك عن شيء ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : إذا شئت أخبرتك قبل أن تسألني ، قال : افعل ، قال : أردت أن تسألني عن مبلغ عمري ، فقال : نعم يا رسول الله ، فقال : إني أعيش ثلاثاً وستين سنة ، فقال : أشهد أنك صادق ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : بلسانك دون قلبك !

قال ابن عبّاس : والله ما كان إلاّ منافقاً ، قال : ولقد كنّا في محفل فيه أبو سفيان وقد كفّ بصره ، وفينا عليّ (عليه السلام) فأذّن المؤذّن ، فلما قال : أشهد أنّ محمداً رسول الله ، قال أبو سفيان : ها هنا من يُحتشَم ؟ قال واحد من القوم : لا ، فقال أبو سفيان : لله درّ أخي بني هاشم ، انظروا أين وضع اسمه ! فقال عليّ (عليه السلام) : أسخن الله عينك[2] يا أبا سفيان ، والله فعل ذلك بقوله عزّ من قائل :

---

(١) يضرب بالمال : يتّجر به لحسابه .

(٢) أسخن عينه : أبكاه .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

فقال أبو سفيان : أسخن الله عين من قال : ليس هيهنا من يحتشم .

الثالثة : يروي الراوندي عن أبي سعيد الخدري قوله :

كنّا نخرج في غزوات مترافقين تسعة وعشرة ، فنقسّم العمل ، فيقعد بعضنا في الرحال ، وبعضنا يعمل لأصحابه ويسقي ركابهم ويصنع طعامهم . . . فاتّفق في رفقتنا رجل يعمل عمل ثلاثة نفر ، يخيط ويسقي ويصنع طعاماً ؛ فذكر ذلك للنبي (صلّى الله عليه وآله) فقال : ذلك رجل من أهل النار ؛ فلقينا العدو وقاتلناهم ، فجُرح الرجل وأخذ سهماً فقتل به نفسه ؛ فقال (صلّى الله عليه وآله) [حين أخبرناه الخبر] : أشهد أنّي رسول الله وعبده .

الرابعة : يروي الراوندي أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ فقال : ما طعمت طعاماً منذ يومين ، فقال عليك بالسوق ؛ فلمّا كان من الغد دخل فقال : يا رسول الله ، لقد أتيت السوق أمس فلم أصب شيئاً ، فبتّ بغير عشاء ؛ قال : فعليك بالسوق ، فأتى بعد ذلك أيضاً فقال (صلّى الله عليه وآله) : عليك بالسوق ؛ فانطلق إليها فإذا عير قد جاءت عليها متاع ، فباعوه بفضل دينار ، فأخذه الرجل ، وجاء إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال : ما أصبت شيئاً .

قال (صلّى الله عليه وآله) : هل أصبت من عير آل فلان شيئاً ؟ قال : لا ، قال : بلى ، ضُرب لك فيها بسهم خرجت منها بدينار ! قال : نعم ، قال : فما حملك على أن تكذب ؟ قال : أشهد أنك صادق ، ودعاني إلى ذلك إرادة أن أعلم أتعلم ما يعمل الناس ، وأن أزداد إلى خير ؛ فقال له النبي (صلّى الله عليه وآله) : صدقت ، من استغنى أغناه الله ، ومن فتح على نفسه باب مسألة فتح عليه سبعين باباً من الفقر ، لا يسدّ أدناها شيء ؛ فما رئي سائلاً بعد ذلك اليوم .

الخامسة : يروى أنه لمّا قدم جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ من الحبشة بعثه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى مؤتة ، وهي قرية من قرى البلقاء في الشام ، والمسافة بينها وبين بيت المقدس منزلان ؛ واستعمل على الجيش معه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، وذلك في سنة ثمان ، فمضى الناس حتى كانوا بمؤتة وفيها جيش عظيم أعدّه القيصر لحربهم .

اتّخذ الجيشان مواقعهما في أرض ضيّقة ، وخرج جعفر بن أبي طالب من بين الصفوف كالأسد الهصور ، وشهر سيفه ونادى في الناس أن يترجّلوا عن خيولهم ويقاتلوا راجلين ، وكان ذلك لأن جيش الكفار كان كبيراً ، وأراد أن يترجّل المسلمون كي يوقنوا أن الفرار مستحيل

عليهم فيصدّقوا القتال ، أما هو فقد اقتحم على فرس له شقراء ، فعقرها ، وتقدم رافعاً اللواء ، واشتد أوار المعركة ، فحمل الكفار من كل جانب وضربوا حلقة حول جعفر ، وعلوه بالسيوف والأسنة فقطعوا يده اليمنى ، فأخذ اللواء باليد الأخرى فقطعوها ، فاحتضن اللواء بين عضديه إلى صدره ، وقد أثخنته الجراح ، وتلقّى في وسطه ضربة سيف استشهد على أثرها وسقط اللواء ، وقد وجد في بدنه خمسون جراحة من قبل ، وقيل اثنتان وتسعون بين طعنة ورمية .

ويروى عن جابر أنه لمّا كان اليوم الذي وقع فيه حربهم صلّى النبي (صلّى الله عليه وآله) بنا الفجر ، ثم صعد المنبر فقال : قد التقى إخوانكم مع المشركين للمحاربة ، فأقبل يحدّثنا بكرّات بعضهم على بعض ، إلى أن قال : قتل زيد بن حارثة وسقطت الراية ، ثم قال : قد أخذها جعفر بن أبي طالب ، وتقدّم للحرب بها ، ثم قال : قد قطعت يده وقد أخذ الراية بيده الأخرى ، ثم قال : قطعت يده الأخرى وقد أخذ الراية في صدره ، ثم قال : قتل جعفر بن أبي طالب وسقطت الراية ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، وقد قتل من المشركين كذا ، وقتل من المسلمين فلان وفلان ، ثم قال : قتل عبد الله بن رواحة ، وأخذ الراية خالد بن الوليد ، فانصرف المسلمون .

ثم نزل عن المنبر ، وصار إلى دار جعفر ، فدعا عبد الله بن جعفر فأقعده في حجره ، وجعل يمسح على رأسه ، فقالت والدته أسماء بنت عميس : يا رسول الله ، إنّك لتمسح على رأسه كأنه يتيم ، فقال قد استشهد جعفر في هذا اليوم ، ودمعت عينا رسول الله وقال : قطعت يداه قبل استشهاده، وقد أبدله الله من يديه جناحين من زمرّد أخضر ، فهو الآن يطير بهما في الجنّة مع الملائكة كيف يشاء .

وعن الصادق (عليه السلام) : قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لفاطمة : اذهبي فابكي على ابن عمّك ، فإن لم تدّعي بثكل ، فما قلت فقد صدقت .

وفي رواية أنه (صلّى الله عليه وآله) قال : على مثل جعفر فلتبك الباكية .

وفي رواية أخرى أنه (صلّى الله عليه وآله) أمر فاطمة (عليها السلام) أن تتخذ طعاماً لأسماء بنت عميس ، وتأتيها ونساؤها ثلاثة أيام .

أقول : لعلّنا هنا قد خرجنا عن الموضوع نوعاً ، إنما فيما ذكرناه الخير والصلاح .

وإجمالاً فمن معجزات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إخباره بأمر الصحيفة التي حملتها امرأة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين ، وإخباره أبا ذرّ بما سيلقاه من بلاء وأذى ، وأنه يعيش وحيداً ويموت وحيداً ، وأنه سيقوم بغسله وتكفينه ودفنه قوم من أهل العراق ؛

وإخباره بأن إحدى النساء تركب جملاً كثير الوبر ، تخرج لحرب وصيّه وتنبحها كلاب الحوأب .

ومنها قوله لعمار : ستقتلك الفئة الباغية ، وآخر زادك ضَياح[1] من لبن ؛ وقوله لفاطمة (عليها السلام) : إنك أوّل أهل بيتي لحاقاً بي ؛ وإخباره أمير المؤمنين (عليه السلام) في مجالس متعددة أن لحيته ستخضب من دم رأسه ، وكان (عليه السلام) ينتظر هذا الخضاب باستمرار .

كذلك إخباره في مجالس متعددة عن استشهاد الحسين (عليه السلام) ومكان مقتله وأنّه يقتل على أيدي شرار الناس ، وإعطاؤه أمّ سلمة تراباً من كربلاء ، وأنه سيستحيل دماً عند مقتله .

وإخباره عن استشهاد الإمام الرضا (عليه السلام) وأنّه سيدفن في خراسان ؛ وقوله للزبير وقد مرّ به يوماً مع عليّ (عليه السلام) : والله لتكوننّ أول العرب تنكث بيعته . وقوله لعمّه العبّاس : ويلٌ لذرّيتي من ذرّيتك .

وإخباره بأن الأرضة ستلحس ما في صحيفة القطيعة التي كتبتها قريش غير اسم الله الذي فيها ؛ وإخباره ببناء مدينة بغداد ، وموت المنافق رفاعة بن زيد ، وأن ملك بني أميّة سيدوم ألف شهر ، وأن معاوية سيقتل حجر بن عديّ وأصحابه ظلماً ، وعن وقعة الحرّة ، وأن ابن عبّاس وزيد بن أرقم سيصابان بالعمى ، وعن موت النجاشي ملك الحبشة ، ومقتل الأسود العنسيّ في اليمن في نفس الليلة التي قتل فيها .

ومنها قوله في محمد بن الحنفيّة : يا عليّ ، سيولد لك ولد قد نحلته اسمي وكنيتي ؛ وكذلك إخباره بأن أبا أيوب الأنصاري يدفن عند سور القسطنطينيّة ، إلى غير ذلك .

يقول العلامة المجلسي في (حياة القلوب) بعد تعداده جملة من معجزاته (صلّى الله عليه وآله) :

يقول المؤلّف : إن ما تمّت الإشارة إليه من معجزاته (صلّى الله عليه وآله) إنّما هو من الألف واحد ، وإنّما هو نزر يسير من كثير ، فجميع أقواله وأطواره وأخلاقه (صلّى الله عليه وآله) كانت معجزات ، وخصوصاً معجزات إخباره بالمغيبات التي تشتمل على ارتباط هذا الكلام المعجز بنظام سيّد الأنام .

يقول المنافقون : اجتنبوا الحديث عن محمد ، فإنّ كل باب وجدار ، والحصى والأحجار ستخبره بما نقول .

---

(١) الضياح بالفتح : لبن رقيق يخلط بالماء .

فالعاقل إذا تفكّر ، وحكّم عقله وتـدبّر ، وجـد أنّ كلّ حـديث من أحاديثـه (صلّى الله عليـه وآله) وأحـاديث أهل بيتـه ، وكلّ كلمـة من كلماتهم اللطيفـة ، وكـلّ حكم من أحكـام الشريعة المقدسة إنّما هي معجزة شافية ، وخارقة للعادة .

هل من عاقل يحكم بجواز أنْ بمقدور فرد واحـد من بني الإنسان ـ من دون وحي وإلهام من الحق الأقدس سبحانه ـ أن يوجد شريعة إذا عُمل بها انتظمت أمور المعـاش والمعاد للخلق طرّاً ؟ وسدّت بها صدوع الفتن والنزاع والفساد ؟ وأن كـلّ فتنة وفسـاد إنّما ينشـآن عن مخالفـة قـوانينها الحقّـة ؟ وأنها قررت ـ عـلى الخصوص ـ كـل واقعـة من بيـوع وتجـارات ومضـاربـات ومعـاملات ومنـازعات ومـواريث ، وكيفيّة معـاشرة الآباء والأبنـاء ، والأزواج والـزوجـات ، والسادة والعبيد ، ومعاشرة المرء لأهل بيته وأهل بلده ، والعلاقة بين الأمراء والرعايا ، وسائر الأمور القانونية ، مما لا يمكن تخيّل ما يفضلها؟

ووضعت من الآداب الحسنة والأخلاق الكـريمة في كـلّ حـديث وخـطاب أضعـاف مـا اشتملت عليه أفكار الحكماء في آلاف السنين .

وبيّنت من المعارف الربّانيّة ومن غوامض المعاني في مدة الرسالة الوجيزة ، ومع ما أضاعه وأفسده طلاّب حطام الدنيا ، فإنّ ما وصل منها إلى الناس إنّما يعجز فحول العلماء عن الوصول إلى سرّ من مائة ألف من أسرارها ، ولو أعملوا فيه أفكارهم حتّى قيام الساعة . انتهى .



الفصل السادس

في وقائع الأيام والسنين من العمر الشريف للرسول (صلى الله عليه وآله)

يقول المؤرخون إن ولادة خاتم النبيين (صلّى الله عليه وآله) كانت بعد ثلاث وستين ومئة وستة آلاف سنة ، أعقبت هبوط آدم (عليه السلام) ، وكانت وفاة آمنة (رضي الله عنها) سنة تسع وستين ومئة وستة آلاف ، بعد أن أتمّ (صلّى الله عليه وآله) السادسة من عمره الشريف .

فقد قدمت آمنة إلى عبد المطلب تسأله أن يأذن لها بالرحيل إلى المدينة حيث يسكن أخوالها من بني عديّ بن النجار ، وأن تصحب معها ابنها محمداً (صلّى الله عليه وآله) كي يروه ، فأذن لها ، فحملته واتجهت إلى المدينة برفقة حاضنته أمّ أيمن ، ونزلت في دار النابغة حيث دفن عبد الله أبو النبي (صلّى الله عليه وآله) ، وهناك اجتمعت بأهلها ، وبعد شهر قفلت راجعة إلى مكة ، وفي الطريق إليها ، في الأبواء ، وتقع بين مكّة والمدينة ، ساءت صحتها وفارقت الحياة ، ودفنت هناك ، أمّا عن قبرها الذي يقوم في مكّة هذه الأيام فيقال إن جسدها المبارك قد نقل إلى مكة من الأبواء .

وبعد رحيل آمنة (رضي الله عنها) قفلت أم أيمن عائدة بمحمد (صلّى الله عليه وآله) إلى جدّه في مكة ، حيث أخذه في كفالته ، وعاش في كنفه ، وكان لا يقرب خواناً أو يمدّ يده إلى طعام دونه ، ويقال إن وسادة كانت تبسط لعبد المطلب يوميّاً في ظل الكعبة ، فإذ خرج توسّدها ، دون أن يجرؤ أحد من عشيرته على فعل ذلك ، بل كانوا يفترشون الأرض بعيداً عنها ، أمّا محمد (صلّى الله عليه وآله) فكان إذا خرج إلى الكعبة توجّه إلى الوسادة رأساً ، فيحتضنه جدّه ويقبّله ويقول : ما رأيت قبلة أطيب منه ولا جسداً ألين منه .

وفي السنة الحادية والسبعين بعد المئة وستة آلاف توفيّ عبد المطّلب ، بعد أن أكمل محمد (صلّى الله عليه وآله) الثامنة من عمره المبارك .

ويروى أنه لمّا أحسّ هذا الرجل الكبير بدنوّ أجله دعا إليه أبا طالب ، وأوصاه برعاية محمد (صلّى الله عليه وآله) ، ومشدّداً عليه أن يحافظ عليه وينصره باليد والمال واللسان ، حتى يصبح سيّد قومه ، ثم أخذ بيده يد أبي طالب وأخذ عليه عهداً بذلك ، وعندها قال : الآن يهون عليّ الموت ، ثم ضمّ محمداً (صلّى الله عليه وآله) إلى صدره وراح يبكي ؛ وطلب إلى بناته أن يبكينه ويرثينه ليسمع رثاءه قبل موته ، فراحت كلّ واحدة من بناته الست تنشده مرثيتها ، وعلى هذا الوقع فارق الحياة ، وله من العمر مئة وعشرون سنة ، والروايات في مدحه كثيرة ، ويروى أنه سيبعث يوم القيامة بحسن الملوك وسيماء الأنبياء .

السنن الخمس لعبد المطلب

ويروى أيضاً أن عبد المطّلب قد سنّ في الجاهلية خمس سنن أجراها الحق تعالى في الإسلام :

الأولى : حرمة نساء الآباء على الأبناء ، قال تعالى : ﴿ **لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من نساء** ﴾ (النساء/٢٢) .

الثانية : الحصول على الغنائم ، وإنفاق خُمسها في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ **واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه** ﴾ (الأنفال/٤١) .

الثالثة : لمّا حفرت بئر زمزم اتّخذ طريقة سقاية الحاجّ ، قال تعالى :

﴿ **أجعلتم سقاية الحاجّ ..** ﴾ (التوبة/١٩) .

الرابعة : تقريره أن دية المقتول مئة من الإبل ، وقد أجرى الإسلام هذا الحكم .

الخامسة : أنه قرّر تحديد الطواف بسبعة أشواط ، بعد أن كان الطواف عند قريش دون تحديد ، وقد أجرى الإسلام هذه السنّة .

كما أنّ عبد المطّلب لم يقرب المقامرة بالأزلام ، ولم يعبد صنماً ، ولم يأكل لحم ذبيحة قُدّمت لصنم ، وكان يقول : إني على دين أبي إبراهيم مقيم ، وللإمام الرضا (عليه السلام) أشعار قالها فيه .

وفي السنة الخامسة والسبعين والمئة بعد ستة آلاف ، وكان قد مضى من عمره الشريف (صلّى الله عليه وآله) اثنتا عشرة سنة وشهران ويومان ، عزم أبو طالب على السفر إلى الشام في تجارة ، ويروى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) تشبّث بزمام ناقته وقال : أي عمّ ، لمن تتركني وأنا لا أب لي ولا أمّ ؟ فبكى أبو طالب وأخذه معه .

وفي الطريق كان كلّما اشتدّ الحر ظهرت غمامة فأظلّته من بين القوم ، حتى مرّوا بصومعة راهب يقال له بحيرا ، وكان على شريعة عيسى (عليه السلام) ذا علم وشأن ، لا يفارق صومعته ، فلما رأى الغمامة تظلّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) نزل من صومعته ، ودعا الركب إلى طعام أعدّه لهم ، فتوجّه الجميع إلى الصومعة وخلّفوا محمداً (صلّى الله عليه وآله) عند متاعهم ، فسألهم الراهب إن كان أحد منهم قد تخلف عن دعوته ، فأجابوه بالنفي ، غير طفل لهم تركوه عند المتاع ، فقال الراهب : أدعوه ، فلا يليق أن يتخلف أحد عن طعامي ؛ فلما انطلقوا إليه وأحضروه إلى الصومعة تحركت الغمامة معه ، فسأل : من يكون هذا الطفل ؟ قالوا إنه ابن أبي طالب ، فاستدار إلى أبي طالب وقال له : ما هذا الغلام منك ؟ أهو ابنك ؟ قال : هو ابن أخي ، قال فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، ارجع به إلى بلده واحذر عليه من اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينّ به شراً ، فإنه كائن له شأن عظيم ، وهو نبيّ هذه الأمّة وسيخرج بالسيف .

أقول : في الأمر هنا اختلاف ، فمن قائل إن أبا طالب خرج به سريعاً حتى أقدمه مكة ، وقائل إنه بعث به إلى مكة ، وتابع هو سفره إلى الشام ، والله هو العالم .

زواج الرسول (صلّى الله عليه وآله) من السيدة خديجة الكبرى وبعثته (صلّى الله عليه وآله)

وفي السنة الثامنة والثمانين بعد المئة وستة آلاف ، وكان (صلّى الله عليه وآله) قد أتّم الخامسة والعشرين من عمره الشريف ، تم زواجه من خديجة (رضي الله عنها) وهي ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب ، كانت قبل زوجةً لعتيق بن عائذ المخزومي ، ولها ابن منه يدعى جارية ، وتزوّجت بعده من أبي هالة بن المنذر الأسدي ، ورزقت منه بهند بن أبي هالة ، ولما توفّي أبو هالة كان قد اجتمع لخديجة من مالها وأموال زوجيها ثروة عظيمة استخدمتها رأس مال في المضاربات التجارية ، حتى غدت من صناديد الأغنياء ذوي القدرة ، حيث يروى أن ثمانين ألفاً من الإبل كانت تستخدم في أعمالها التجارية ، والثروة تنمو يوماً بعد يوم ، واسمها يعلو ويشتهر ، ويرتفع فوق سقف منزلها سرادق من الحرير الأخضر ، يشدّ بأطناب من الإبريسم (وهو الحرير) ، وقصة زواجه (صلّى الله عليه وآله) بها طويلة وتفصيلها خارج عن هذا المختصر ، ولكننا نكتفي منها برواية واحدة .

يروي الشيخ الكليني وغيره أنه لمّا رغب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أن يعقد له على خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) ، توجه أبو طالب مع آله وجماعة من قريش إلى ورقة بن نوفل عمّ خديجة ، وخطب فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذريّة إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كلّ شيء ، وجعلنا الحكّام على الناس في بلدنا الذي نحن فيه .

ثمّ إنّ ابن أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب لا يوزن برجل من قريش إلاّ رجح ، ولا يقاس بأحد منهم إلاّ عظم عنه ، وإن كان في المال قلّ ، فإن المال رزق حائل ، وظلّ زائل ؛ وله في خديجة رغبة ، ولها فيه رغبة ، والصداق ما سألتم عنه من مالي » .

وشفع قوله بالقسم بربّ البيت على أنّه سيكون ذا شأن رفيع ، ومنزلة منيعة ، وحظّ شامل ، ودين شائع ، ورأي كامل .

وكان ورقة عمّ خديجة من القسيسين والعلماء ، وكان عظيم الشأن ، حاول الردّ على أبي طالب ، فلم يسعفه الحال ، وكان اضطرابه في الحديث جليّاً ، فعجز عن الرد بردّ حسن ، ولما رأت خديجة هذه الحال ، غالبت حياءها وقالت بلسان فصيح :

أي عمّ ، وإنك وإن كنت الأولى بالكلام في هذا المقام ، غير أنّي بما أختاره الأولى ، فقد زوجت نفسي منك يا محمد ، وأما مهري فهو من مالي ؛ هلمّ يا عمّ فانحر ناقة لوليمة الزفاف .

فقال أبو طالب : أيها الناس ، اشهدوا أن خديجة زوجت نفسها من محمد (صلّى الله عليه وآله) وأنّها ضمنت مهرها .

فقال أحد القرشيّين : عجباً ، أن يضمن النساء مهورهن للرجال !

فانتفض أبو طالب غاضباً ، وكان إذا غضب هابت قريش غضبه ، وحذرت من سطوته ، ثم قال : لو كان الأزواج والآخرون مثل ابن أخي لطلبتهن النساء بأغلى القيم وأعلى المهور ، ولو كانوا مثلكم لطلبن منهم مهراً غالياً .

ثم إنّ أبا طالب نحر جزوراً للمناسبة ، وتم عقد زفاف درّة الأنبياء على جوهرة خير النساء ، ولما دخلت خديجة (رضي الله عنها) في حبالة محمد (صلّى الله عليه وآله) أنشد عبد الله بن غنم ، أحد القرشيين شعراً حمّله تهانيه فقال :

هنيئاً مريئاً يا خديجة قد جرت ... لك الطيرُ فيما كان منكِ بأسعد
تزوّجت من خير البريّة كلّها ... ومَن ذا الذي في الناس مثلُ محمّد
به بشّر البرّان عيسى بن مريم ... وموسى بن عمرانٍ فيا قرب موعد
أقرّت به الكتّاب قدماً بأنّه ... رسول من البطحاء هادٍ ومهتد

وفي السنة الثالثة والتسعين بعد المئة وستّة آلاف ، وتوافق السنة الثلاثين من عمر

رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، كانت ولادة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، كما سيرد في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

وفي السنة الثامنة والتسعين بعد المئة وستة آلاف ، وتوافق السنة الخامسة والثلاثين من عمره الشريف هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها ، زادت في طول البيت وعرضه ، ورفعت جدرانه بنحو حافظ على مكانه الأصلي .

وفي السنة الثالثة بعد المئتين وستة آلاف في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب ، الموافق ليوم نوروز ، بعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالرسالة ، وله من العمر أربعون سنة .

يروى عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) أنه لمّا انقضت أربعون سنة من عمره الشريف . جعل الحق تعالى قلبه أفضل القلوب وأكبرها وأكثرها خشوعاً وإطاعة ، ثمّ أعطى بصره نوراً آخر ، وأمر أبواب السماء ففتحت ، ونزل الملائكة إلى الأرض أفواجاً ، وقد نظر (صلّى الله عليه وآله) فشاهدهم واتّصلت رحمته من ساق العرش حتى رأسه ، ثم هبط جبرئيل آخذاً بأطراف السماء والأرض ، وأخذ بعضده فهزّه قائلاً :

يا محمّد اقرأ ، قال : وما أقرأ ؟ قال :

﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسان من علق ﴾ .

وتتابع نزول وحي ربّه إليه ، وفي رواية أخرى أن جبرئيل وميكائيل هبطا ومع كلّ منهما سبعون ألف ملك ، وقدّما إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) كرسيّ العزّة والكرامة ، ووضعا تاج النبوّة على رأس سلطان سرير الرسالة ، وناولاه لواء الحمد بيده ، وقالا : اصعد على هذا الكرسي واحمد ربّك ؛ وفي رواية أخرى أن ذلك الكرسي كان من ياقوت أحمر ، وإحدى قائمتيه من الزبرجد ، والأخرى من اللؤلؤ .

ولما صعد الملائكة إلى السماء ، ونزل النبي (صلّى الله عليه وآله) من جبل حراء تصحبه أنوار الجلال ، لم يكن بمقدور أحد النظر إليه ، وكان لا يمر بشجر ولا نبات إلاّ سجد له وقال بصوت فصيح :

السلام عليك يا نبيّ الله ، السلام عليك يا رسول الله .

ولّما دخل بيت خديجة أشرق البيت بشعاع شمس جماله ، فقالت : ما هذا النور الذي أراه منك ؟ قال : إنه نور النبوّة ، قولي :

لا إله إلاّ الله ، محمّد رسول الله .

قالت خديجة ، طالما عرفت ذلك ، ثم نطقت بالشهادتين وآمنت ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : إني لأجد برداً ، دثّريني ، فلما نام أتاه نداء الحقّ تعالى :

﴿ يا أيّها المدّثّر * قم فأنذر * وربّك فكبّر ﴾ .

فقام (صلّى الله عليه وآله) واضعاً إصبعه في أذنه وقال : الله أكبر ، الله أكبر . فكان كل موجود يسمعه ويوافقه .

وفي السنة السابعة بعد المئتين وستة آلاف جهر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بدعوته ، بعد أن كان لثلاث سنوات يدعو الناس خفية ، وآمن فريق برسالته ودعوته فنزل جبرئيل بقوله تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنّا كفيناك المستهزئين ﴾ .

إنه الأمر بإظهار الدعوة ، فصار (صلّى الله عليه وآله) إلى جبل الصفا ، وأنذر الناس ، وبيّن دعوته إلى الدين المبين ، وقرأ القرآن عليهم ، وتلقّى العذاب والأذى منهم ، وكلّ هذا خارج عن مختصرنا ، وقد ذكرنا من خلال القسم الخامس من معجزاته (صلّى الله عليه وآله) ما يناسب هذا المقام ، فيرجع إليه هناك .

ومن هذا القبيل ما جهد به كفّار قريش من إنزال الأذى بالمسلمين ، وأنزلوا الأذى بألسنتهم في كلّ من لم يقدروا على مواجهته منهم ، أمّا من لم تكن له عشيرة تدفع عنه فقد أنزلوا به من العذاب ما لا يطاق ، من جرّ على رمضاء مكّة المحرقة ، والتعذيب بالجوع والعطش ، ومعاناة الوخز بالحديد ، والوقوف تحت أشعة الشمس الملتهبة ، ما لم يتبرأوا من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ودعوته .

أقول : ستأتي الإشارة إلى عمار بن يسار من خلال ذكر صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وما لاقوه من أذى كفار قريش وتعذيبهم .

وفي السنة الثامنة بعد المئتين وستة آلاف كانت هجرة أصحاب النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى الحبشة ، وذلك حين اشتدّ أذى المشركين للمسلمين ، ولم يعد بمقدورهم الصبر عليه ، فسألوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يأذن لهم بالهجرة إلى بلد آخر ، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، فأهلها كتابيّون ، وملكها لا يظلم ؛ وتلك هي الهجرة الأولى لأصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أمّا الهجرة الكبرى فكانت هجرته (صلّى الله عليه وآله) إلى المدينة .

وكان ممّن هاجر إلى الحبشة : عثمان بن عفان وزوجه رقيّة ، وأبو حذيفة بن عتبة بن

ربيعـة وزوجه سهلة ، ورزق في الحبشة بابنـه محمد بن أبي حـذيفة ؛ ثم الـزبير بن العـوّام ؛ ومُصعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة وزوجه أمّ سلمة ، وعثمان بن مظعـون ، وعامر بن ربيعة ، وجعفـر بن أبي طالب (رضي الله عنه) مع زوجه أسماء بنت عميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد وزوجتـاهما ؛ وعبد الله بن جحش وزوجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، وأبو موسى الأشعـري ، وأبو عبيـدة بن الجرّاح وآخرون .

كانوا جميعاً يناهزون الثمانين عدّاً ، وقد خرجوا من مكة في شهـر رجب ، وركبوا سفينـة أبحرت بهم إلى أرض الحبشة ، حيث استراحوا من حقد قريش وكيـدها ، وعـرفوا الأمـان إلى جانب النجاشيّ ، وانصرفوا إلى عبادة الله تعالى .

يقول أبو طالب في حثّ النجاشيّ على نصرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

تـعـلّم مـليـك الحـبش أنّ محـمـداً ... نـبـيٌّ كـمـوسى والمسـيـح ابن مـريـم
أتى بـهـدىً مـثـل الـذي أتـيـا بـه ... فـكـلّ بـأمـر الله يـهـدي ويـعـصـم
وأنّـكـمُ تـتـلـونـه في كـتـابـكـم ... بـصـدق حـديـثٍ لا حـديـث المُـرجُـم
وأنّـك مـا يـأتـيـك مـنّـا عـصـابـة ... بـفـضـلـك إلاّ عـاودوا بـالـتـكـرُّم
فـلا تجـعـلوا لله نـدّاً وأسـلـمـوا ... فـإنّ طـريـق الحـقّ لـيـس بمـظلم

وفي السنة التاسعة بعد المئتين وستة آلاف ، لخمس مضين على البعثة ، كانت الـولادة السعيـدة لفاطمـة (صلوات الله عليها) ، بنحـو سيـأتي تفصيله في البـاب الثـاني إن شـاء الله تعالى .

قصة شعب أبي طالب ، ووفاة أبي طالب وخديجة

وفي السنة العاشرة بعد المئتين وستة آلاف كان خروج رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه) إلى الشعب ، وإجمال القصة أنـه لمّا رأى المشركـون لجوء المسلمـين إلى الحبشة ، وأنهم حصلوا على الأمان هناك ، وأنّ الذين تخلّفوا في مكة منهم قد اطمأنّوا إلى حماية أبي طالب ، كما أن إيمان حمزة شدّ من عزائمهم ؛ تنادوا إلى عقد مؤتمر كبير توافقـوا فيه عـلى قتل محمـد (صلّى الله عليـه وآله) ، ولما علم أبو طالب بذلك ، جمع آل هاشم وعبد المطّلب ونساءهم وأطفالهم وخرج بهم إلى وادٍ يقال له شعب أبي طالب ، واستجاب أبناء عبد المطلب مسلمين وغير مسلمين إلى أوامر أبي طالب بحماية النبيّ (صلّى الله عليه وآله) والذود عنه ، إلاّ أبـا لهب فقد انقلب وانضمّ إلى العدوّ .

وقام أبو طالب مع ذويه بحفظ محمّد (صلّى الله عليه وآله) وحمايته ، ووضع حرّاساً عند

طرفي الشعب ، وكان ابنه عليّ (عليه السلام) يرقد أكثر لياليه إلى جانب محمّد (صلّى الله عليه وآله) بينما تكفّل حمزة بالحراسة قائماً بالسيف عند رأسه .

ولما رأى المشركون ذلك ، وأيقنوا أن لا سبيل لهم للوصول إلى محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، تداعى أربعون من كبارهم إلى دار الندوة ، واتخذوا فيما بينهم عهداً على مقاطعة بني هاشم ؛ فلا يصاهرونهم ، ولا يبيعونهم ولا يشترون منهم ، ولا يبرمون معهم صلحاً ما لم يسلّموهم محمّداً ليقتلوه ، وكتبوا بعهدهم هذا صحيفة تواثقوا عليها جميعهم ، وأودعوها عند أمّ جلاس خالة أبي جهل .

وهكذا حاصرت قريش بني هاشم في الشعب ، وتوقف أهل مكّة عن التعامل معهم في بيع أو شراء ، إلاّ في أوقات الحج ، وهي أوقات حرام يفد الأعراب فيها إلى مكّة ، فيخرج بنو هاشم من الشعب ، ويبتاعون منهم ما يطعمون ، وكانت قريش تنازعهم في ذلك ، فإذا أراد أحدهم شراء شيء دفعت قريش إلى البائع أضعاف ثمنه ليحولوا دون حصوله عليه ، وإذا ذهب أحد من القرشيّين بشيء إلى الشعب بدافع القرابة والرحم منعوه ، وإذا أمسكوا بأحد من بني هاشم خارج الشعب أخذوه وعذّبوه .

وكان ممّن يزوّدهم بالأطعمة أحياناً أبو العاص بن الربيع صهر النبي (صلّى الله عليه وآله) ، وهشام بن عمرو ، والحكيم بن حزام بن خويلد وهو ابن أخي خديجة .

ويروى أن أبا العاص حمل إلى الشعب إبلاً موسوقة بالقمح والتمر ، ومن هنا ما قاله (صلّى الله عليه وآله) من أنّ أبا العاص أدّى حقّ المصاهرة .

وانصرمت ثلاث سنوات سارت فيها الأمور على هذا المنوال ، حتى ارتفع صراخ بني عبد المطّلب من شدّة الجوع ، فتنادى بعض المشركين لنقض العهد ، وأجمع خمسة منهم أمرهم على نقض العهد وتمزيق الصحيفة وهم ؛ هشام بن عمرو ، وزهير بن أبي أميّة بن المغيرة ، والمطعم بن عديّ ، وأبو البختري ، وزمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد ؛ وتوجّهوا في الغداة إلى الكعبة حيث يجتمع كبار قريش ، وأعلنوا ما عزموا عليه ؛ وإذا بأبي طالب يصل فجأة إلى الكعبة قادماً من الشعب مع رهط من قومه ، فظنّ أبو جهل أن أبا طالب قد فقد صبره ممّا لقيه وأهله في الشعب ، وأنه قدم لتسليمهم محمداً (صلّى الله عليه وآله) .

لكن أبا طالب وقف يقول : أيّها القوم ، أقول قولاً ليس فيه لكم إلاّ الخير ، إن ابن أخي محمّداً (صلّى الله عليه وآله) أخبرني أن الله أوكل بصحيفتكم أرضَةً تأكل منها ما كتب من الجور والظلم والقطيعة ، إلاّ ما كان من « باسمك اللهم » فتدعه ؛ فأرى أن تحضروا

الصحيفة ، فإن كان ما قاله حقّاً فما لكم عليه حقّ في حقد أو كيد ، وإن كان كذباً سلّمته إليكم .

استحسن القوم قوله ، ثم أحضروا الصحيفة من أم جلاس ، ولما فتحوها وجدوها وقد أتت عليها الأرضة إلاّ « باسمك اللهم » ، وهي فاتحة كانت قريش تفتتح بها كتاباتها ، فصعقوا وغمرهم الخجل .

ثم إن المطعم بن عديّ مزّق الصحيفة وقال : إننا نبرأ من هذه الصحيفة الظالمة .

إذ ذاك قفل أبو طالب عائداً إلى الشعب ، وفي اليوم التالي توجّه الرجال الخمسة إلى الشعب يصحبهم رهط من قريش ، وعادوا ببني هاشم إلى مكّة وأقرّوهم في بيوتهم .

وبعد خروج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من الشعب ، فإن المشركين أصرّوا ما وسعهم على خصامه ، وسعوا جهدهم في أذيّته بنحو لا يتّسع له المقام .

وفي السنة الثالثة عشرة بعد المئتين وستة آلاف توفّي أبو طالب وخديجة ، أما أبو طالب فكانت وفاته في السادس والعشرين من رجب في ختام السنة العاشرة للبعثة ، وبكاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولمّا حملوا جثمانه تقدّمه وهو يقول : يا عمّ ، لقد وصلت رحماً ، ولم تخذلني في أمري ، فجزاك الله عني خيراً .

هذا وإنّ جلالة شأن أبي طالب ، وما كان من نصرته لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وغيرها من فضائل لا يتّسع لذكرها هذا المقام ، وسنشير إليها في الفصل المخصّص لأهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) باختصار إن شاء الله تعالى .

وبعد ثلاثة أيّام على قول ، أو خمسة وثلاثين يوماً على قول آخر توفّيت خديجة (رضي الله عنها) ، فقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بدفنها بيده في الحَجون ، وهي مقبرة في مكّة ، وبعد وفاتها ووفاة عمّه (رضي الله عنهما) ، حزن رسول الله كثيراً لموتهما ، فلزم بيته ، وقلّما كان يغادره ، وسمّي عامه هذا عام الحزن .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في رثاء هذين العظمين :

أعينيّ جودا بارك الله فيكما ... على هالكين ما ترى لهما مثلا
على سيد البطحاء وابن رئيسها ... وسيدة النسوان أول من صلّى
مصابهما أرجى لي الجوّ والهوا ... فبتّ أقاسي منهما الهم والثكلا
لقد نصرا في الله دين محمّد ... على من بغى في الدين قد رعيا إلاّ

وقال أيضاً في رثاء أبي طالب :

أبا طالب عصمة المستجيـ ـر وغيث المحول ونور الظُّلَم
لقد هدّ فقدك أهل الحفا ظ فصلّى عليك وليّ النعم
ولقّاك ربّك رضوانه فقد كنت للطهر من خير عمّ

بعد وفاة أبي طالب رفع المشركون من وتيرة الخصومة مع محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وطمعوا في زيادة مضايقته ؛ فقد قام أحد سفهاء القوم يوماً ـ بتحريض من تلك الجماعة ـ بقذف حفنة من التراب على رأسه المبارك ، فلم يكن بمقدوره إلاّ الصبر .

وفي السنة الرابعة عشرة بعد المئتين وستّة آلاف تزوّج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من سَوْدة بنت زَمعة ، وهذا هو الزواج الأول له بعد خديجة ، إذ لم يتّخذ له زوجة أخرى في حياة خديجة ، وفي تلك السنة أيضاً تمّت خطبته لعائشة وكانت إذ ذاك في السادسة ، وبنى بها في السنة الأولى للهجرة ، وفي تلك السنة أيضاً بدأ دخول الأنصار في الإسلام .

الإسراء والمعراج : وفي السنة الخامسة عشرة بعد المئتين وستة آلاف كان معراج النبي (صلّى الله عليه وآله) .

اعلم أنه ثبت من الآيات الكريمة والأحاديث المتواترة أن الحقّ تعالى أسرى برسول الله (صلّى الله عليه وآله) في ليلة واحدة من مكّة المعظّمة إلى المسجد الأقصى ، ومن هناك عرج به إلى السماوات حتّى سدرة المنتهى والعرش الأعلى ؛ وأظهر له عجائب خلق السماوات ، وألقى إليه الأسرار الخفية والمعارف اللامتناهية ، وقام (صلّى الله عليه وآله) بعبادة الحق تعالى في البيت المعمور وتحت العرش ، وأراه سبحانه الأنبياء ، وأدخله الجنة فشاهد منازل أهلها .

والأحاديث المتواترة عن الخاصّة والعامّة تدلّ على أنّ عروجه (صلّى الله عليه وآله) كان بالبدن لا بالروح ، وفي اليقظة لا في المنام ؛ ولا خلاف في هذا بين قدماء علماء الشيعة ، وفي هذا يقول العلاّمة المجلسيّ :

« . . . وإنكار أمثال ذلك ، أو تأويلها بالعروج الروحاني ، أو بكونه في المنام ، ينشأ إمّا من قلّة التتبّع في آثار الأئمة الطاهرين ، أو من قلّة التديّن وضعف اليقين ، أو الإنخداع بتسويلات المتفلسفين ، والأخبار الواردة في هذا المطلب لا أظنّ مثلها ورد في شيء من أصول المذهب ، فما أدري ما الباعث على قبول تلك الأصول ، وادّعاء العلم فيها ، والتوقّف في هذا المقصد الأقصى . . . واعلم أن قدماء أصحابنا وأهل التحقيق منهم لم يتوقّفوا في ذلك » .

إذا كانت عبارة « عرجت به » قد وردت في بعض النسخ : « عَرَجت بروحه » فلا تنافي بينهما ، وهذا يماثل قولك : « جئتك بروحي » ، ببيان ليس هنا مقام ذكره ، وقد ذكر تفاصيله شيخنا العلاّمة النوري في (تحيّة الزائر) .

واعلم أن وقوع المعراج قبل الهجرة متفق عليه ، أمّا إن كان وقوعه في الليلة ، السابعة عشرة من شهر رمضان أو في الحادية والعشرين منه ، لستة شهور قبل الهجرة ؛ أم في شهر ربيع الأول لسنتين بعد البعثة ، فأمر مختلف فيه . كما أن هناك اختلافاً في مكان العروج ، وهل كان بيت أمّ هانىء ، أم شعب أبي طالب ، أم المسجد الحرام ؟ والحقّ تعالى يقول :

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾ (الإسراء/١) .

يقول بعضهم : إن المراد بالمسجد الحرام هنا مكّة ، ومكّة والحرم كلّها مسجد . والمعروف أن المسجد الأقصى هو مسجد في بيت المقدس ، ويظهر من أحاديث كثيرة أن المراد البيت المعمور الذي هو في السماء الرابعة ، وهو أبعد المساجد .

كما وقع الاختلاف في هل أن معراجه (صلّى الله عليه وآله) كان على دفعة واحدة أو اثنتين أو أكثر ، ويظهر من الأحاديث المعتبرة أنه وقع على دفعات ، ويمكن حمل الاختلاف في أحاديث المعراج على هذا ، ويروي العلماء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أن الله سبحانه وتعالى رفع النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى السماء مئة وعشرين مرة ، وكان في كل مرّة يؤكّد عليه ويوصيه لولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) وإمامته مع سائر الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، زيادة عن سائر الفرائض .

قال البوصيري :

سريتَ من حرم ليلاً إلى حرم	كما سرى البدر في داجٍ من الظلم
فظلت ترقى إلى أن نلت منزلة	من قابَ قوسين لم تُدرك ولم تُرَم
وقدّمتك جميع الأنبياء بها	والرسْل تقديمَ مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم	في موكب كنتَ فيه صاحب العلم
حتّى إذا لم تَدَعْ شأواً لمستبق	من الدنوّ ولا مَرْقىً لمستنم

بيعة العقبة : وفي السنة السادسة عشرة بعد المئتين وستة آلاف جرت بيعة العقبة الثانية ، وبايعه من حضر من أهل المدينة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم إن جاء إليهم في المدينة . ولما أبرمت البيعة عاد أهل المدينة إلى بلدهم .

وعلم كفّار قريش بأمر البيعة ، فازداد حقدهم وكيدهم ، وتنادوا للتشاور ، فاجتمع منهم أربعون من كبرائهم في دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل من نجد ، فدخل معهم ، وبعد نقاش وتبادل في الآراء استقرّ رأي جميعهم على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً ، ثم يعطى كلّ فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل

واحد فيقتلونه ، فيتفرّق دمه في القبائل كلها ، فلا تقوى عشيرته على حرب قومهم جميعاً ، فيرضون بالعقل (الدية) ، وتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون عليه .

هجرة الرسول (صلّى الله عليه وآله) وليلة المبيت

وفي الليلة الأولى من ربيع الأول كمن المتآمرون حول بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) محدقين به من كلّ جانب ، ومكثوا يرقبون ريثما يغلب عليه النوم لينهالوا عليه بضرباتهم ، لكن الحقّ تعالى أطلع رسوله على مكرهم ، ونزل جبريل (عليه السلام) بقوله عزّ وجل :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ﴾ (الأنفال/ ٣٠) .

وأتاه الأمر بأن ينام أمير المؤمنين (عليه السلام) في فراشه ، وأن يغادر مكّة ، فأخبر علياً (عليه السلام) أن المشركين آتون في طلبه الليلة ، وأنه أمر بالرحيل عن مكة إلى غار ثور ، وأمر بأن يخلّفه في فراشه ، كي لا يعلم المشركون برحيله ، فسأله عليه السلام :

وهل ستكتب لك السلامة ؟ قال : أجل ، قال : حبّاً وكرامة ، ثم سجد لله شاكراً ، وكانت تلك أول سجدة شكر في هذه الأمة ، ثم رفع رأسه وقال : اذهب أينما أمرت روحي لك الفداء ، ثم احتضنه (صلّى الله عليه وآله) وبكى ، ثم استودعه الله ، وأخذ جبرئيل بيده ، وخرج به من البيت وهو يقرأ :

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ (يس/ ٩) .

وخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأخذ حفنة من تراب نثرها عليهم وهو يقول : شاهت الوجوه .

ويروى أنه قصد دار أمّ هانىء ، وفي غلس الصبح توجّه إلى غار ثور ، بينما من ناحية أخرى نام أمير المؤمنين (عليه السلام) في فراشه بعد أن التحف ببرده ، ورغب المتآمرون بالإغارة على البيت ليلاً ، غير أنّ أبا لهب ـ وكان واحداً منهم ـ أشار عليهم بالتريّث إلى الصباح ، وهكذا كان ، فلما تقاطروا إلى البيت عند الصبح وقف لهم أمير المؤمنين (عليه السلام) زاعقاً بهم ، فسألوه :

أين محمّد ؟ فأجاب : وهل أودعتموه عندي ؟ لقد خرج ، فخلّوا عنه وانطلقوا يطلبون النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، وفي هذا الشأن نزل قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ (البقرة/٢٠٧)

ثم إنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) لبث في غار ثور ثلاثة أيام ، وفي الرابع توجّه إلى المدينة ، وبلغها في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ، لثلاث عشرة سنة خلت من البعثة ، وكانت هذه الهجرة إلى المدينة بداية للتاريخ الإسلامي

وفي السنة الأولى للهجرة ، بعد الشهر الخامس أو الثامن منها .

آخى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بين المهاجرين والأنصار ، كما آخى بينه وبين أمير المؤمنين (عليه السلام) ؛ وفي شهر شوال من العام نفسه بنى بزوجه عائشة .

وقائع العام الثاني من الهجرة

وفي السنة الثانية للهجرة تحوّلت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة ، وفي هذه السنة تزوّج أمير المؤمنين من فاطمة (عليهما السلام) ، ويقول بعض المحققين إن سورة ﴿ هل أتى ﴾ نزلت في شأن أهل البيت ، وفيها ذكر للكثير من نعم الله عزّ وجلّ ، كما فيها ذكر الحور العين ، ولعلّ ذلك إجلالاً لفاطمة (صلوات الله عليها) ، وفي آخر شعبان من هذه السنة فرض صوم شهر رمضان .

وفي هذه السنة أيضاً أذن للمسلمين بقتال المشركين .

غزوة الأبواء : وبعد سبعين يوماً خلت هذه السنة غزا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) غزوة الأبواء ، وهي بلدة بين مكة والمدينة ، وفيها قبر آمنة أمّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وبحذائها بلدة هي ودّان ، ولذا تسمّى هذه الغزاة بغزوة ودّان ؛ وانتهت هذه الغزوة بالصلح ، ورجع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) منها دون قتال ، وكان صاحب لوائه فيها الحمزة عمّه (رضي الله عنه) .

مما تحسن معرفته أنه إذا كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على رأس جيشه في حرب ، سمّيت غزوة ، أما إن لم يكن ، سمّيت بعثة أو سَرِيّة ، وهي طائفة من الجيش ترسل للعدو ، أقلّها تسعة وأكثرها أربعمئة ، ويقول البعض : إن السريّة التي تعدادها خمسمئة فما فوق يقال لها منسر ، وإذا كان العدد فوق ثمانمئة سمّي جيشاً ، وإذا كان فوق أربعة آلاف سمّي جَحْفَلاً ، (وذلك بتقديم الجيم على الحاء على وزن جعفر) ، أما عدد غزوات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ففيه اختلاف بين تسع عشرة وسبع وعشرين كما يقال ، لكن القتال وقع في تسع غزوات فقط .

غزوة بواط والعشيرة وبدر الأولى : وفي شهر ربيع الآخر وقعت غزوة بُواط ، وكان

رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في مئتين من أصحابه يريد عيراً لقريش ، وبُواط جبل من جبال جهينة في ناحية رضوى ، ورضوى جبل بين مكة والمدينة قرب يَنْبُع التي يقول الكيسانيّة إن محمد بن الحنفية مقيم هناك ، ويبقى حيّاً حتى خروجه .

وبعد بُواط غزا غزوة العُشَيْرَة ، وهي اسم موضع من بطن ينبع ، وفيها بنو مُدلج ، وقصّتها أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بلغه أن أبا سفيان مع رهط من قريش هم في سفر إلى الشام في تجارة ، فجاء (صلّى الله عليه وآله) مع بعض أصحابه في أثرهم ، لكنّه لم يلقهم ، فوادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة .

وفي شهر جمادي الآخرة كانت غزوة بدر الأولى ، فقد أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة (ماشيتها) فخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سَفَوان في ناحية بدر ، وكان حامل لوائه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وفاته كرز فلم يدركه ، وبعد ثلاثة أيام قفل راجعاً إلى المدينة ، وكان شهر جمادي الآخرة قد انقضى .

غزوة بدر الكبرى : كذلك ففي السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى ، وخلاصتها أن كفّار قريش كعتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبي جهل ، والبختريّ ، ونوفل بن خويلد وغيرهم من صناديد مكة والكثير من المحاربين ، بلغ مجموعهم تسعمئة وخمسين رجلاً ، خرجوا من مكة يريدون حرب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأخرجوا معهم القيان يضربن بالدفوف ، على خيلٍ من مئة فرس وسبعمئة من الإبل ، وأبرموا فيما بينهم أن يتكفّل كلّ يوم واحد من أشرافهم بالمؤونة والعلف للجيش ، وأن ينحر عشرة من الإبل .

وعلى الجانب الآخر فإن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) تحرّك نحو أرض بدر ، وبدر هي اسم لبئر يلقي المشركون فيه قتلاهم ؛ ولمّا استقرّ مع أصحابه هناك راح يشير بيده المباركة إلى مواضع في الأرض ويقول : هذا مصرع فلان محدّداً وكان مصرع كلّ من صناديد قريش ، وهذا ما وقع .

وكان عسكر العدوّ قد علوا كثيباً كشف لهم جيش النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بكامله ، فاستقلّوهم واحتقروهم (كان تعدادهم ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً) والمسلمون بدورهم كان مشهد المشركين في أعينهم قليلاً ، وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ وإذ يُريكُموهم إذِ التقيتم في أعينكم قليلاً ، ويقلّلكم في أعينهم ، ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ﴾ (الأنفال / ٤٤) .

لمّا رأى كفّار قريش قلّة أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعثوا عمير بن وهب

الجمحيّ ، وكان فارساً شجاعاً ، ليستطلع مواقع جيش النبي (صلّى الله عليه وآلـه) ، ويرى إن كان لهم كمين أو مدد ، فجال بفرسه ثم رجع فقال :

ما لهم من كمين ولا مـدد ، ولكنّ نواضح يثرب قـد حملت الموت الناقع ، أمـا ترونهم خُرساً لا يتكلّمون ، يتلمّظون تلمّظ الأفاعي ، وما لهم ملجأ إلاّ سيوفهم ، ومـا أراهم يولّـون حتّى يُقتلوا ، ولا يُقتلون حتى يَقتلوا بعددهم . (وقدّر عددهم بثلاثمئة رجل) .

ولما سمع حكيم بن حزام هذه المقالة رجـا عتبة أن يـرجع بـالناس عن الحـرب ، قال : فأت ابن الحنظليّة ـ يعني أبا جهل ـ فقل له : هل لك أن ترجع اليوم بمن معـك عن ابن عمّك محمّد ؟ فجاء حكيم أبا جهل وبلّغه رسالة عتبة فقال أبو جهل : انتفخ والله سَحْرُه (والسَّحر : الرئة ، والقول كناية عن الجبن) وقد خاف على ابنـه أبي حذيفـة ، وهو فيهم (وكـان ابن عتبة قد أسلم) .

نقل حكيم قول أبي جهل إلى عتبة ، وكان قد جاء في أثره ، فبادره عتبة قائلاً : يا مُصَفِّر الأسْت ، بعيْره ، ستعلم من انتفخ سَحره أنا أم أنت .

وعلى الجانب الآخر فإن رسول الله (صلّى الله عليـه وآله) ـ رغبـة منه في تـطييب قلوب أصحابه ودفع رهبة الحرب عنهم ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿ فإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها ﴾ . ومع علمه أن قريشاً لن تجنح للسلم ، وذلك لأنـه فات وقت الكـلام ـ فقد أرسـل إلى قريش يقول : يا معشر قريش ، ما أحد من العرب أبغض إليّ من أن أبـدأ بكم ، فخلّوني والعرب ، فإن أك صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً ، وإن كنت كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري فارجعوا .

فقال عتبة : والله ما أفلح قوم ردّوا هذا ، يا معشر قريش ، أطيعوني اليوم ، فإن محمّـداً لـه إلّ وذمّة ، وهـو ابن عمّكم ، فارجعوا ولا تردّوا رأيي ؛ فلما سمـع أبو جهـل ذلك غـاظـه وقال : يا عتبة ، نظرت إلى سيوف بني عبد المطّلب وجبنت ، وانتفخ سَحـرك ، فقال عتبـة : أمثلي يجبن ؟ وستعلم قريش اليوم أيّنا الأجبن والألأم ، ثم ترجّل عن بعيره ، وترجّل أبو جهـل عن فرسه فاجتمع إليهما الناس وفصلوا بينهما .

وهنا كانت نار الحرب قد انبعثت ألسنتها ، واندفع الناس من الجانبين لخوض غمارها .

وكان عتبة أول من برز للحرب ، وقد أخذته الحميّة بعد أن نسبه أبـو جهل إلى الجبن ، ولبس درعه ، واعتمّ بعمامة إذ لم يجدوا له خوذة تناسب رأسه لعظم هامته ، ثم تقدم هـو وأخوه شيبة وابنه الوليد ، فصالوا بين الجيشين وقالوا : من يبـارز ؟ فخرج فتيـة من الأنصار ، فقـال لهم عتبة بعد أن انتسبوا : ارجعوا فإنّا لسنـا إيّاكـم نـريد ، ثم نـادى : يا محمّـد ، أخرج إلينـا أكفاءنا من بني عمّنا .

وكره رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يكون أوّل الكرّة بالأنصار ، فدعا علياً (عليه السلام) ، وحمزة بن عبد المطّلب عمّه ، وعبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف ، وانطلق ثلاثتهم للبراز كالأسود .

قال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطّلب ، أسد الله وأسد رسوله .

فقال عتبة : كفؤٌ كريم ، وأنا أسد الحلفاء .

وعتبة بهذا القول عدّ نفسه سيّد الحلفاء المطيّبين ، وقد تقدّمت الإشارة إلى حلف المطيبين عند الحديث عن آباء الرسول (صلّى الله عليه وآله) .

وإجمالاً ، فقد توجّه أمير المؤمنين (عليه السلام) نحو الوليد ، وحمزة نحو شيبة ، وعبيدة نحو عتبة .

ثم ارتجز أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال :

أنا ابن ذي الحوضين عبد المطّلب وهاشم المطعم في العام السغب
أوفي بميثاقي وأحمي عن حسب

ثم حمل على الوليد بن عتبة فضربه على حبل عاتقه ، فأخرج السيف من إبطه ، وكانت ذراعه من الضخامة بحيث إذا رفعها أخفت وجهه ، ويقال إنه أخذ يمينه المقطوعة بيساره فضرب بها هامة علي (عليه السلام) فكاد يسحقها ، لكن علياً (عليه السلام) راغ عنها ، وعاجله بضربة كان فيها أجله .

وحمل حمزة على شيبة ، فتضاربا بالسيفين حتى انثلما ، ثم اعتنقا ، فصاح المسلمون : يا عليّ ، أما ترى الكلب قد بهر عمّك ؟ فحمل عليه عليّ (عليه السلام) ثم قال : يا عمّ طأطىء رأسك ، وكان حمزة أطول من شيبة ، فأدخل حمزة رأسه في صدره ، فضربه أمير المؤمنين على رأسه فطنّ نصفه .

أما عبيدة وعتبة فكانا متقاربين معدودين كليهما من الأقران ، فسرعان ما تصاولا ثم تبادلا ضربتين ، فأصابت ضربة عبيدة مفرق عتبة فمزق رأسه نصفين ، وأصابت ضربة عتبة ساق عبيدة فقطعتها ، وكان عليٌ (عليه السلام) قد انتهى من شيبة ، فجاء إلى عتبة وبه رمق فأجهز عليه ، وهكذا شرك (عليه السلام) في قتل الرجال الثلاثة ، ومن هنا قوله عند قتاله معاوية :

« وعنديَ السيف الذي أعضضته أخاك وخالك وجدّك يوم بدر » .

ثم حُمل عبيدة بين عليّ وحمزة حتى أتيا به رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فنظر إليه

واستعبر فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمّي ، ألست شهيداً ؟ فقـال : بلى ، أنت أول شهيد من أهل بيتي .

وعند أوبتهم من بدر ، ولّما بلغوا أرض الـروحاء أو الصفـراء أسلم عبيدة الـروح فدفن هناك ، وكان يكبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعشر سنوات ، وأنزل الله عزّ وجلّ قرآنـه في شأن أولئك الخصوم الستة فقال :

﴿ هذان خصمان اختصموا في ربّهم فالـذين كفروا قـطّعت لهم ثياب من نـار يُصَبّ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ (الحج / ١٩) .

وبعد مقتل أولئك الثلاثة دبّ الرعب في قلوب القرشيين ، فراح أبو جهل يحرّضهم عـلى القتال ، وجاء إبليس ـ عليه اللعنة ـ إلى قريش في صورة سراقة بن مالك ، فقال لهم : أنا جارٌ لكم ، ادفعوا إليّ رايتكم ؛ فدفعوا إليه رايـة الميسرة ، فجاء يهـوّل على أصحـاب رسول الله ، ويخيّل إليهم ويفزعهم ، ويقوّي قلوب المشركين .

وأقبلت قريش يقدمها إبليس ومعه الراية ، فنظر إليه رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله) فقال : غضّوا أبصـاركم ، وعضّوا عـلى النواجـذ . ولما رأى قلّة أصحـابه رفـع يده إلى السـماء وسأل ربّه النصرة .

قـال تعالى : **﴿ ولقـد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّـة ـ إلى قولـه : يُمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ﴾** (آل عمران / ١٢٣ ـ ١٢٥) .

واشتـدّ القتال ، وحـين نظر إبليس إلى جـبرئيل تـراجع ورمى بـاللواء ، فأخـذ منبّه بن الحجّاج بمجامع ثوبه ثم قال : ويلك يا سراقة ، تفتّ في أعضـاد الناس ؟! فـركله إبليس ركلةً في صدره وقال : إنّي أرى ما لا ترون .

قال تعالى : **﴿ فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقـال إنّي بريء منكم ، إنّي أرى مـا لا ترون ﴾** (الأنفال/٤٨) .

وحمل أسد الله الغالب عليّ بن أبي طـالب (عليه السـلام) كالأسـد الغاضب ، في كـل ناحية ، وراح يجندل الرجال والمطايا ، حتى قتل ستة وثلاثـين رجلاً من أبـطال قريش ؛ ونقـل عنه قوله (عليه السلام) : عجباً لقريش ! لقد شهـدوا قتالي للوليد بن عتبة ، ورأوا كيف أنّي بضربة واحدة منّي جعلت عيني حنظلة تخرجان من محجريها ، فكيف يقدمون على قتالي ؟!

وإجمالاً فقد قتـل من صناديد قريش سبعـون منهم : عتبة وشيبـة ، والوليـد بن عتبة ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وطعيمـة بن عديّ ، والعـاص بن سعيد ، ونـوفل بن خـويلد ، وأبو

جهل ؛ ولمّا أتوا برأسه إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سجد لله شكراً .

وهزمت قريش ، وخرج المسلمون في أثرهم فأسروا منهم سبعين ، وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان .

ومن الأسرى النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، وقد أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بقتلهما ، وكانا من أشدّ قريش عداء للنبي (صلّى الله عليه وآله) .

وجاء في الخبر أنّه لما قتل النضر بيد عليّ (عليه السلام) قالت أخته ترثيه :

أمحمد ، ولأنت نجل نجيبة	في قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرّك لو مننت وربّما	مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
النضر أقرب مَن أسرتَ قرابةً	وأحقّهُم إن كان عِتق يُعتَق

فلما سمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مرثيتها قال : لو كنت سمعت شعرها لما قتلته .

غزوة بني قَيْنُقاع : وفي السنة الثانية ، في منتصف شوال ، على رأس عشرين شهراً من الهجرة ، كانت غزوة بني قَيْنُقاع ، وهم طائفة من يهود المدينة .

اعلم أنّ الكفار بعد الهجرة كانوا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهم الذين عاهدوا الرسول (صلّى الله عليه وآله) على أن لا يحاربوه ولا يُعينوا على حربه ، وهم اليهود من بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قينقاع .

القسم الثاني : وهم الذين حاربوه وناصروا أعداءه ، وهم كفّار قريش .

القسم الثالث : وهم الذين لم يكن لهم شأن معه ، بل كانوا يرقبون ما يكون من عاقبة أمره (صلّى الله عليه وآله) مع الأعراب ، لكن بعضهم كان يتمنّى ظهور أمره (صلّى الله عليه وآله) كقبيلة خزاعة ، خلاف بعضهم الآخر كبني بكر ، وبعض كانوا معه ظاهراً ومع عدوّه باطناً ، كالمنافقين ، وكطوائف اليهود الثلاث ، ثم غدروا به ، وكان بنو قينقاع أول من نقض العهد منهم .

وكان سبب الغزوة أن امرأة من المسلمين كانت تجلس عند دكان صائغ يهودي في سوق قينقاع ، فائتمر مع يهودي آخر السخرية بها ، فمزق ثوبها من الخلف وربطه بمشبك ، والمرأة غافلة عنها ، فلما وقفت انحسر الثوب كاشفاً عن كفلها ؛ وراح اليهوديان يضحكان ،

فصاحت المرأة ، ورأى أحد المسلمين ما جرى فقتل اليهودي جزاء فعلته القبيحة ، فتنادى اليهود من كلّ صوب وقتلوا ذلك الرجل .

فلمّا علم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالأمر طلب أشراف اليهود فقال :

« يا معشر اليهود ، احذروا من الله مثل الذي نزل بقريش يوم بدر ، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، وقد عرفتم أنّي نبيّ ومرسل ، وتجدون ذلك في كتابكم » .

فقالوا : يا محمد ، لا يغرّنّك أنّك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنّا والله لو قابلناك لعرفت أنّا نحن الناس .

ثم قاموا فانصرفوا ، فنزل جبرئيل بقوله تعالى :

﴿ وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ (الأنفال /٥٨) .

فاستخلف (صلّى الله عليه وآله) أبا لبابة على المدينة ، وجعل على لوائه حمزة عمّه (رضي الله عنه) ، وخرج إليهم ، فلمّا رأوا أنهم لا قبل لهم على حربه لجأوا إلى حصونهم يحتمون بها ، فضرب عليهم حصاراً امتدّ خمسة عشر يوماً حتى اشتدّ عليهم الحصار ورضوا بحكم الله فيهم ، وفتحوا أبواب الحصون ، فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المنذر بن قدامة فأوثق المحاربين منهم ، وكانوا سبعمئة ، وظنّوا أنهم مقتولون .

وكان عبد الله بن أبيّ رجلاً منافقاً بين المسلمين ، فسأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يحسن إليهم ، وألحّ في مسألته ، فحجب (صلّى الله عليه وآله) دماءهم على أن يخرجوا من المدينة ويخلّفوا أموالهم وأثقالهم وضياعهم وقلاعهم ، وهكذا كان ، ثم خرجوا إلى أذرعات في الشام ، ويرجع البعض هذه الغزوة إلى السنة الثالثة من الهجرة .

غزوة قرقرة الكدر : وفي شهر شوال من السنة الثانية أيضاً كانت غزوة قرقرة الكدر ، وهو ماء لبني سُلَيم على ثلاثة منازل من المدينة ، وسببها أنه بلغ رسول الله أن جماعة من بني سليم وبني غطفان ائتمروا على الثأر لقريش بالإغارة ليلاً على المدينة ، فعزم على الخروج إليهم ، وسلم لواء جيشه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) على رأس مئتين من أصحابه ، ولما وصل المكان بعد يومين فاته القوم فلم يلق منهم أحداً ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

غزوة السويق : وفي العشرة الأخيرة من ذي القعدة (أو ذي الحجة) من تلك السنة كانت غزوة السويق ، وذلك أن أبا سفيان نذر بعد واقعة بدر أن لا يمسّ رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً (صلّى الله عليه وآله) ، فخرج من مكّة في مئتين من الرجال حتى بلغوا العريض ، في أطراف المدينة ، فوجدوا رجلاً من الأنصار يقال له مَعْبَد بن عمرو وحليفاً له

فقتلوهما ، وأحرقوا بيتاً أو بيتين مع بضع نخلات ، ثم انصرفوا .

علم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالأمر فاستخلف أبا لبابة على المدينة وخرج مع مئتين من المهاجرين والأنصار في طلب أبي سفيان حتى بلغ قرقرة الكدر ، وقد فاته أبو سفيان بعد أن أمر رجاله بالتخفف من أزوادهم لتسهل عليهم النجاة من محمد (صلّى الله عليه وآله) ، فطرحوها وراءهم ، وكان فيها السويق ، ومن هنا سمّيت غزوة السويق ، وقفل الرسول (صلّى الله عليه وآله) راجعاً إلى المدينة ، وكانت مدة هذه الغزوة خمسة أيام ، ويرجعها بعضهم إلى السنة الثالثة من الهجرة .

وفي السنة الثانية من الهجرة كانت ولادة الإمام الحسن (عليه السلام) ، على قول ، بينما يرجع الكثيرون ولادته (عليه السلام) إلى السنة الثالثة ، وسيأتي الحديث عن ولادته (عليه السلام) في الباب الرابع ان شاء الله تعالى .

وقائع العام الثالث من الهجرة

غزوة غطفان : في هذه السنة كانت غزوة غطفان ، ويسميّها البعض غزوة ذي أمر ، أو غزوة أنمار ، وهو موضع في نجد ، وذلك لمّا بلغه (صلّى الله عليه وآله) أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب قد تجمّعوا في ذي أمر يريدون أن يصيبوا أطراف المدينة ، عليهم رجل يقال له : دُعثور بن الحارث بن محارب ، فخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أربعمئة وخمسين رجلاً ومعهم أفراس ، ونزل ذا أمر وعسكر به ، فهرب منه الأعراب فوق ذرى الجبال ، ولم يرهم أحد سوى رجل من بني ثعلبة أخذه المسلمون إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فعرض عليه الإسلام فأسلم .

وأصابهم مطر كثير ، فذهب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لحاجة فأصابه ذلك المطر فبلّ ثوبه وقد جعل (صلّى الله عليه وآله) وادي أمر بينه وبين أصحابه ، ثم نزع ثيابه ونشرها لتجفّ ، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها والأعراب ينظرون إلى كلّ ما يفعل رسول الله ، فقالت الأعراب لدُعثور ـ وكان سيّدهم وأشجعهم ـ : قد أمكنك محمد .

فأقبل عليه حتى قام على رأسه بالسيف مشهوراً ، فقال :

يا محمّد ، من يمنعك منيّ اليوم ؟ قال : الله .

ودفع جبرئيل في صدره ، فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقام على رأسه فقال :

من يمنعك منيّ ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وإنّ محمّداً رسول الله ، والله لا أكثّر عليك جمعاً أبداً .

فأعطاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سيفه ، فأتى قومه ودعاهم إلى الإسلام ، ونزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم ﴾ (المائدة/١١) .

ثم قفل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) راجعاً إلى المدينة بعد غياب واحد وعشرين يوماً عنها .

وفي السنة الثالثة ـ على أحد الأقوال ـ قُتل اليهودي كعب بن الأشرف في الرابع عشر من ربيع الأوّل ، وكان يحرّض على المسلمين ، ويهجو رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

غزوة بحران : كما وقعت في تلك السنة أيضاً غزوة بحران ، وهي في ناحية فُرع ، وفُرع قرية من نواحي الربذة ، وسببها أنه بلغ رسول الله أن جمعاً من بني سليم تجمّعوا في بحران يكيدون له ، فخرج إليهم في ثلاثمئة من أصحابه ، فتفرّقوا في أراضيهم فلم يلق منهم أحداً ، فانصرف راجعاً .

وفي السنة الثالثة أيضاً كانت ولادة الحسين (عليه السلام) ، وتزوج (صلّى الله عليه وآله) في تلك السنة من حفصة في شعبان ، ومن زينب بنت خُزيمة في شهر رمضان .

غزوة أحد : وفي شهر شوال من السنة الثالثة وقعت غزوة أُحد ، وأحد جبل مشهور على فرسخ من المدينة ، وذلك أن قريشاً لمّا رجعت من بدر كانت أشدّ ما تكون غضباً ، وقد امتلأت الصدور منهم بالغيظ والحقد على المسلمين ، فانصرفوا إلى إعداد جيش كبير وتجهيزه ، حتّى جمعوا خمسة آلاف رجل مع ثلاثة آلاف من الإبل ومئتي فرس ، وتوجهوا نحو المدينة لقتال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأخرجوا معهم النساء يذكّرنهم ويحثثنهم على الحرب ، ويرثين قتلى بدر لإثارة مكامن الحقد والبغضاء .

فلمّا بلغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذلك جمع أصحابه ودعاهم إلى الجهاد ، ثم خرج مع نفر من أصحابه يبتغون موضعاً للقتال ، واختاروا أن يكون جبل أحد من خلفهم ، وجبل عينين إلى يسارهم ، والمدينة أمامهم ، ونظراً لوجود شِعب في جبل عينين فقد وضع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب ، وأشفق أن يأتي كمينهم من ذلك المكان ، فقال لعبد الله بن جبير وأصحابه :

« إن رأيتمونا قد هزمناهم حتّى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان ، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا ، والزموا مراكزكم » .

ولمّا فرغ (صلّى الله عليه وآله) من تسوية صفوفه خطب أصحابه فقال :

« أيّها الناس ، أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته ، والتناهي عن محارمه (وساق الخطبة الشريفة إلى قوله) : قد بيّنَ لكم الحلال والحرام ، غير أنّ بينهما شُبَهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلاّ من عُصِم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس مَلِك إلا وله حمىً ، ألا وإنّ حمى الله محارمه ؛ والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى عليه سائر جسده ، والسلام عليكم » .

ومن جانب آخر ، جهّز المشركون صفوفهم ، ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد على الميمنة في خمسمئة رجل ، وعكرمة بن أبي جهل في مثلها على الميسرة ، وجعل صفوان بن أمية وعَمراً بن العاص أميرين على الفرسان ، وعبد الله بن ربيعة أميراً للرماة ، وهو على رأس مئة من الرجال ، وقد حملوا هُبَل على بعير في المقدمة ، وشغل النسوة مؤخرة الجيش ، وسلم اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة .

سأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : من هو حامل لواء الكفّار ؟ فقيل : إنه من بني عبد الدار ، فقال : نحن أحقّ بالوفاء منهم .

فتقدّم مصعب بن عمير ، وهو من بني عبد الدار ، فسأل اللواء فأُسند إليه ، فرفعه متقدّماً القوم .

حثّ طلحة بن أبي طلحة فرسه ، وهو كبش الكتيبة ، وصاحب لواء المشركين ، وطلب البراز ، فلم يجرؤ أحد على إجابته ، لكنّ عليّاً (عليه السلام) ، برز إليه كالأسد الهصور وهو يرتجز ، فقال طلحة :

قد علمت يا قصم أنّه لا يجسر عليّ أحد غيرك ، ثم شدّ عليه طلحة فضربه ، فاتّقاه أمير المؤمنين (عليه السلام) بالحجفة (الترس) ، ثم ضربه على مفرقه ، فسقط على ظهره وسقطت الراية ، فذهب علي (عليه السلام) ليجهز عليه فقال : أنشدك الله والرحم ، فانصرف عنه .

سُرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) من قتله ، ورفع صوته بالتكبير ، وكبّر المسلمون ، ثم أخذ الراية بعد طلحة أخوه مصعب ، فقتله علي (عليه السلام) ، وسقطت رايته إلى

الأرض ، ثم تعاقب بنو عبد الدار واحداً بعد واحد لأخذ الراية كلّما سقطت ، وراحوا يتساقطون واحداً تلو الآخر حتى لم يعد منهم أحد يرفع الراية ، فأخذها غلام لهم يدعى صواب ، فألحقه أمير المؤمنين (عليه السلام) بهم .

ورد في الخبر أن هذا الغلام كان حبشياً ضخم الجثة كالقبّة المبنيّة ، وكان فمه في ذلك الوقت يرغي ويزبد ، وعيناه حمراوين ، ويقسم أنه لن يقتل بدلاً عن أسياده سوى محمّداً (صلى الله عليه وآله) وقد خاف منه المسلمون ، لكن أمير المؤمنين (عليه السلام) عاجله بضربة قدّته من وسطه نصفين ، فصلت نصفه الأعلى عن أسفله ، فراح المسلمون ينظرون إليه بتعجّب ، ثمّ حملوا حملة صادقة اختلط فيها حابل المشركين بنابلهم ، وهزموا شرّ هزيمة ، وراح كل منهم يفرّ إلى ناحية ، وسقط البعير الذي يحمل هُبَل ، وطرح حمولته على الأرض ، وأغار المسلمون في أثر المشركين يجمعون ما يصل إلى أيديهم من الغنائم .

ولّما رأى حرّاس الشّعب ما يجري جاش فيهم الطمع ، وتركوا مكانهم من الشعب ، وجروا يطلبون نصيبهم من الغنائم ، ولم تجد معهم مناشدة عبد الله بن جبير للبقاء في مواقعهم ، فانسلّوا منها وخلّفوا عبد الله في أقلّ من عشرة ، فانحطّ خالد بن الوليد مع عكرمة بن أبي جهل في مئتي فارس على عبد الله بن جبير ، وقد فرّ أصحابه وبقي في نفر قليل فقتلوهم ، ثمّ التفّوا من وراء المسلمين فوضعوا فيهم السيف ، وعادت راية قريش إلى الارتفاع .

ونظرت قريش إلى الراية قد نصبت فلاذوا بها . وجاء إبليس بصورة جُعَيْل بن سراقة ، ونادى : ألا إنّ محمّداً قد قُتل ، وانهزم أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هزيمة قبيحة ، حتى أنهم من ذهولهم وضعوا السيف في بعضهم ، وأقبلوا يفرّون في كل وجه ، وتخلّوا عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلم يبق معه إلاّ أبو دجانة وأمير المؤمنين (عليه السلام)، فكلّما حملت طائفة على رسول الله (صلى الله عليه وآله) استقبلهم (عليه السلام) فدفعهم عن رسول الله بسيفه حتى أصابه في وجهه ورأسه وصدره وبطنه ويديه ورجليه تسعون جراحة ، وسُمع منادٍ من السماء ينادي :

لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ

ونزل جبرئيل إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال : يا محمد ، هذه والله المواساة ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، لأني منه وهو منيّ ، فقال جبرئيل : وأنا منكما .

يروى إجمالاً أن عبد الله بن قميئة أقبل يريد قتل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

فذبَّ مصعب بن عمير ـ وهو صاحب راية رسول الله (صلى الله عليه وآله) ـ عنه ، فتحول ابن قميئة إليه وقطع يمينه ، فأخذ الراية بيساره فقطعها ، ثم أجهز عليه ، وسقطت الراية ، لكن ملكاً بصورة مصعب نصب الراية عالياً ، ورمى ابن قميئة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحجر شجّه في وجهه فسال منه الدم ، فجعل يتلقى الدم بيديه ويرمي به نحو السماء كي لا يسقط على الأرض فينزل العذاب ، ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ؟!

وأصابه عتبة بن أبي وقاص بحجر فشق شفته وكسر رباعيته ، وحمل بعضهم عليه بالسيف فجمد قبل الوصول إلى جسده الشريف ، ويروى أنه حُمل عليه في تلك المعمعة بسبعين ضربة سيف ، لكن الله حفظه ، ومع كل ذلك فهو لم يدع على القوم بل قال : اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون .

استشهاد حمزة بن عبد المطلب

وشهد هذه الموقعة وحشيّ عبد جبير بن مطعم ، وكان يضمر الحقد على حمزة بن عبد المطّلب ، فكمن له وهو منشغل بالقتال يهدّ الناس هدّاً ، فأخذ حربته فهزّها ورماه بها فوقعت في عانته ، وخرج رأسها من الجانب الآخر ، وعلى قول آخر : وقعت في خاصرته وخرجت من مثانته ، فسقط شهيداً .

ثم إن وحشيّاً جاء إلى جثّته فبقرها وأخرج كبده وأخذها إلى هند زوجة أبي سفيان ، فأخذتها في فمها فلاكتها ، فجعلها الله في فيها صلبة قاسية كي تلفظها فلا يختلط جزء من بدنه الشريف مع بدن كافر ، ثم رمت بها ، ومن هنا سمّيت هند بآكلة الأكباد .

ثم إنّها أعطت وحشيّاً كلّ ما كانت تتزيّن به من حلي وقلائد ، وصارت إلى الجسد الشريف فجدعت أذنيه وجعلتها قرصين ، وقطعت أعضاء أخرى من بدنه تحملها معها إلى مكّة ، وتأسّت بها نساء قريش ، فرحن يمثّلن بالشهداء ، فقلعن العيون ، ويقرن البطون ، وقطّعن الأعضاء ، وسلكنها في خيوط واتّخذن منها خلاخيل وأساور وقلائد ، كما جاء أبو سفيان إلى مصرع حمزة ، وراح ينكت فمه بنصل سنانه ويقول : ذق عقق !

ولمّا رأى الحُلَيْس بن علقمة ما جرى هتف قائلاً : يا معشر بني كنانة ، انظروا إلى من يزعم أنه سيّد قريش ما يصنع بابن عمّه الذي قد صار لحماً ، فبان الغضب في وجه أبي سفيان وقال : إنما كانت مني زلّة ، اكتمها عنّي !

وإجمالاً فقد قتل من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في هذه الغزوة سبعون شهيداً عددَ أسرى قريش الذين أسروا في بدر فلم يقتلهم المسلمون ورضوا بإطلاقهم وأخذ

الفدية ، على أن يستشهد بالمقابل من المسلمين بعددهم في وقعة أخرى .

ولمّا وصل خبر استشهاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى المدينة خرجت أربع عشرة امرأة من أهل البيت وذويهم من المدينة إلى أرض المعركة ، فلما دنت فاطمة (عليه السلام) من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ورأت ما به من جراحات صاحت وجعلت تمسح الدم عن وجهه وتبكي ، فترقرق الدمع في عيني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأتاه أمير المؤمنين (عليه السلام) بالماء في درقته ، وفاطمة (عليها السلام) تغسل رأسه ووجهه دون أن يتوقف الدم ، فأخذت قطعة من حصير أحرقتها وباشرت جراحاته برمادها ، فسكن الدم .

ويروي عليّ بن إبراهيم القمّي أنه لّما سكن القتال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

من له علم بعمّي حمزة ؟ فقال له الحارث بن الصّمّة : أنا أعرف موضعه ، فجاء (الحارث) حتّى وقف على حمزة ، فكره أن يرجع إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيخبره ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (عليه السلام) يا عليّ ، اطلب عمّك ؛ فجاء عليّ (عليه السلام) فوقف على حمزة ، فكره أن يرجع إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فجاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتّى وقف عليه ، فلمّا رأى ما فُعل به بكى ، ثم قال : والله ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ عليّ من هذا المكان ، لئن أمكنني الله من قريش لأمثّلنّ بسبعين رجلاً منهم ، فنزل عليه جبرئيل فقال :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبرْ . . ﴾ (النحل /١٢٦ / ١٢٧) .

فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : بل أصبر ؛ ثمّ ألقى على حمزة (رحمه الله) بردة كانت عليه ، فكانت إذا مدّها على رأسه بدت رجلاه ، وإذا مدّها على رجليه بدا رأسه ، فمدّها على رأسه ، وألقى على رجليه الحشيش ، وقال : « لولا أنّي أحذر أن أُحزن نساء عبد المطّلب لتركته للعقبان والسباع ، حتّى يحشر يوم القيامة من بطون السباع والطير » . ذلك أن المصيبة كلّما عظمت ، كلّما كان ثوابها أكثر .

وأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالقتلى فجمعوا ، فصلّى عليهم ، ودفنهم في مضاجعهم ؛ وكبّر على حمزة سبعين تكبيرة .

ويقول البعض : إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أمر بأن يدفن حمزة مع عبد الله بن جحش ابن أخته في قبر واحد ، وأن يدفن عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر مع عمرو بن الجموح في قبر واحد ، وهكذا فقد تم دفن كل جسد مع آخر إلفٍ له أو اثنين ، كما قرّب مَنْ

أكثر من قراءة القرآن منهم من بعضهم ، ودفن الشهداء بأثوابهم المخضبة بالدم والمعفرة بالتراب وقال (صلّى الله عليه وآله) :

« زمّلوهم في ثيابهم ودمائهم ، فإنّه ليس من كَلْم ٍكُلِمَ في الله إلاّ وهو يأتي الله يوم القيامة واللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

وجاء في الحديث : « إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) صلّى على حمزة وكفّنه لأنه كان جُرِّد » .

كما يروى أن عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن الجموح دفنا في قبر واحد ، وكان قبرهما ممّا يلي السيل ، فإذا ما جاء السيل وجرف القبر رأوا عبد الله ، وكان قد أصابه جرح في وجهه ، فيده على وجهه ، فأميطت يده عن جرحه فثعب الدم ، (أي سال) فردّت إلى مكانها فسكن الدم ؛ قال جابر : رأيته في حفرته كأنه نائم ما تغيّر من حاله قليل ولا كثير ، فقيل : أفرأيت أكفانه ؟ قال : إنّما كفّن ووضع على رجليه الحرمل (نبات له حبّ أسود كالسمسم) فوجدنا الكفن كما هو ، والحرمل على رجليه كهيئته ، وبين ذلك وبين دفنه ستّ وأربعون سنة .

ثم إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعد أن فرغ من شأن الشهداء توجّه إلى المدينة ، فكان لا يمرّ بحيّ إلاّ خرج أهله يشكرون الله على سلامته ولا يذكرون قتلاهم .

وقد سارعت كُبيشة أم سعد بن معاذ إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان ابنها سعد ممسكاً بعنان فرس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال : يا رسول الله ، هذه أمي قد حضرت ، قال : مرحباً بها ، وعزّاها بولدها عمرو بن معاذ فقالت : كلّ مصيبة بعدك جلل ، فدعا لها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يذهب عمّن بقي لها الحزن ، وأن يعوّضها عن مصيبتها الأجر والمرحمة ، وطلب من سعد أن يأمر الجرحى من قومه بالذهاب إلى بيوتهم للتداوي ، فأمرهم سعد بذلك ، وكانوا ثلاثة رجال ، بينما لازم سعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى أبلغه بيته ، ثم قفل راجعاً .

وفي الطريق سمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بكاء النوائح على قتلاهنّ ، فترقرقت عيناه وبكى ثم قال : لكنّ حمزة لا بواكي له اليوم ، فلما سمعها سعد بن معاذ وأسيد بن حضير قالا : لا تبكينّ امرأة حميمها حتّى تأتي فاطمة (عليها السلام) فتُسعدها ، فلمّا سمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الواعية على حمزة ، وهو عند فاطمة (عليها السلام) على باب المسجد قال : ارجعن رحمكنّ الله ، فقد آسيتنّ بأنفسكنّ ، وتقرر منذ ذاك أنه عند كل مصيبة تقع في المدينة ، فالبواكي يبكين حمزة أولاً ، ثم يبكين حميمهنّ .

وفضائل حمزة جمّة ، وما أكثر من رثاه من الشعراء ، وقد اشرت إلى ذلك في كتابي

(كحل البصر في سيرة سيد البشر) كما ذكرت في (مفاتيح الجنان) فضل زيارته مع نصّها ، وزيارات شهداء أحد ، ولا مجال في هذا الكتاب لأكثر من ذلك ، وقد ورد مختصر عن فضائله عند الحديث عن أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

وقد جرت واقعة أحد في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ويقول البعض إنّ قريشاً بلغت أرض أحد يوم الخميس الخامس من شوال ، وجرت المعركة يوم السبت ، والله هو العالم .

غزوة حمراء الأسد : وهي موضع يبعد ثمانية أميال عن المدينة ، وخلاصتها أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أمر بلالاً أن ينادي بأنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى نبيّه أن اخرج من وقتك هذا لطلب قريش ، ولا تخرج معك من أصحابك إلّا من كانت به جراحة ، فترك الأصحاب ما كانوا فيه من شأن العلاج ولبسوا لبوس الحرب على ما كان بهم من جراح وخرجوا في طلب قريش ، يتقدّمهم أمير المؤمنين (عليه السلام) براية المهاجرين ، حتى بلغوا حمراء الأسد .

وكان ذلك في الغد من يوم أحد ، ولئلا تراجع قريش أمرها وتتوجّه إلى المدينة .

وبعد أن مكث بأصحابه أياماً ، قفل (صلّى الله عليه وآله) عائداً إلى المدينة ، وفي طريق العودة ظفروا بمعاوية بن المغيرة بن العاص ، وأبي غرّة الجمحي ، فأخذوهما إلى المدينة ، وأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بقتل أبي غرّة ، ذلك أنه كان قد وقع أسيراً في بدر ، فعاهد على أن لا يعود لحرب المسلمين ، فأطلقه ، وراح يرجو رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يطلقه هذه المرّة أيضاً ، فقال (صلّى الله عليه وآله) :

« لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين » وأمر به فقتل .

وقائع العام الرابع من الهجرة

غزوة معونة والرجيع : في شهر صفر من هذا العام قدم عامر بن مالك بن جعفر ـ وكنيته أبو براء ، ويلقّب بملاعب الأسنّة ، وكان سيّد بني عامر بن صعصعة من نجد ـ على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في المدينة ، فعرض (صلّى الله عليه وآله) عليه الإسلام ، فلم يُسلم ولم يبعد ، وقال : يا محمد ، إنّ أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل ، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : إني أخشى عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سبعين رجلاً ، وقيل أربعين ، من خيار

أصحابه ، منهم : المنذر بن عمرو ، وحِرام بن مِلحان ، وأخوه سُلَيْم ، والحارث بن الصِّمَّة ، وعامر بن فُهَيْرة ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وعمرو بن أمية الضَّمْري وغيرهم من وجوه الصحابة والقرّاء والعبّاد ، فساروا أياماً يحتطبون ويبيعون ، ويشترون بالثمن طعاماً ، ويبيتون لياليهم بالصلاة والعبادة والتلاوة ، كما قاموا بنقل الحطب من أجل الحجرات المطهّرة .

وعقد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إمارة هذه السريّة للمنذر بن عمرو ، وبعث معهم برسائل إلى أشراف نجد وإلى بني عامر كي يتقبّلوا ما يحملونه إليهم من تعليم وإرشاد ، فساروا حتى بلغوا بئر معونة في أرض بني عامر وحَرةَ بني سُلَيْم من أعالي نجد ، فنزلوا هناك ، وأوكلوا أمر إبلهم إلى عمرو بن أميّة ورجل من الأنصار ليقوما على إعلافها ، ويقال : إلى الحارث بن الصِّمَّة ، ثم طلبوا إلى حِرام بن مِلحان أن يخرج بكتاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى عامر بن الطفيل بن مالك العامري ، ابن أخي عامر بن مالك ، فلمّا أتاه لم ينظر عامر في كتاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ويقال إنه أخذه وقذف به ، فلما رأى حِرام ذلك قال : يا أهل بئر معونه ، إنّي رسولُ رسول الله إليكم ، فآمنوا بالله ورسوله ؛ فلم يكمل قوله حتى خرج إليه رجل منهم وعاجله برمح في جنبه حتى خرج من الشقّ الآخر ، فقال : الله أكبر ، فزت وربِّ الكعبة ، ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا : لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً ؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُلَيْم : عُصَيَّة ورعلاً وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتّى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلمّا رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، إلاّ كعب بن زيد ، الذي أصيب بجراح بليغة فتركوه ظنّاً منهم أنه ميّت ، لكنه كان به رمق فانسلّ من بين القتلى ، فعاش حتّى قتل يوم الخندق ؛ وأخذوا عَمْرَ بن اميّة أسيراً ، فلمّا أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل ، بعد أن جزّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنّها كانت على أمّه ، فوفّى بذلك بنذرها .

اتّخذ عمرو طريقه إلى المدينة ، ولما بلغ أرض قرقرة لقي رجلين من بني عامر ، وكانا في أمان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لكنّ عَمْراً لم يكن يعلم بذلك ، فلما جنّ الليل وراحا في سباتهما ، قام عمرو إليهما فقتلهما بدماء أصحابه شهداء معونة ، ولما بلغ المدينة ونقل إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الخبر قال : لقد كانا في أماني ، ووجبت علينا ديتهما .

تألّم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لمقتل شهداء بئر معونة أشدّ الألم ، ويقال إنه بقي شهراً أو أربعين يوماً يدعو على قبائل رعل وذكوان وعُصَيّة ، ويضيف إليهم في اللعن بني لحيان عَضَل وقارة .

وذلك أن سفيان بن خالد الهُذَليّ اللحيانيّ قدم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وسأله أن يبعث معهم نفراً من أصحابه يفقّهونهم ويقرئونهم القرآن ، ويعلّمونهم شرائع الإسلام ، فبعث معهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عشرة منهم عاصم بن ثابت ، ومَرْثد بن أبي مَرْثد ، وخبيب بن عديّ ، مع سبعة آخرين ، فخرجوا حتى إذا كانوا بالرجيع ، وهو ماء لهُذَيل ، غدروا بالقوم وقتلوا سبعة منهم ، وأسروا الثلاثة الباقين بعد أن أعطوهم العهد بالأمان ، ثم غدروا بهم وتسبّبوا أخيراً بقتلهم ، وتُعرف هذه السريّة بسريّة الرجيع .

وبالعودة إلى غزوة معونة نقول : إن حسّان بن ثابت وكعب بن مالك أنشدا أشعاراً يندّدان فيها بإخفار عهد أبي براء ، ولما سمع أبو براء بما جرى حزن حزناً شديداً حتى مات غمّاً ، وأمّا عامر بن الطفيل فقد هلك من غدّة أصيب بها في بيت امرأة سلولية ، وذلك بعد أن دعا عليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

غزوة بني النضير : وقد وقعت في السنة الرابعة من الهجرة ، ومن الجدير ذكره أن يهود بني النضير كانوا يبلغون الألف ، في حين يعدّ يهود بني قريظة سبعمئة ، وكان بنو النضير أكثر مالاً وأحسن حالاً من قريظة ، وكانوا حلفاء لعبد الله بن أبي المنافق ، فكان إذا وقع بين قريظة والنضير قتيل ، وكان القتيل من بني النضير قالوا لبني قريظة : لا نرضى أن يكون قتيل منّا بقتيل منكم ، فجرى بينهم في ذلك مخاطبات كثيرة حتى كادوا أن يقتتلوا ، حتى رضيت قريظة وكتبوا بينهم كتاباً على أنّه أيّما رجل من النضير قتل رجلاً من قريظة أن يُقعد على جمل ، ويُولّى وجهه إلى ذنب الجمل ، ويلطّخ وجهه بالقير الأسود ويدفع نصف الدية .

وأيّما رجل من بني قريظة قتل رجلاً من بني النضير أن تدفع إليه الدية كاملة ، ويقتل به أيضاً .

وكانوا جميعهم يقيمون في المدينة بعد أن أمنّهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شريطة أن لا يثيروا عليه أعداءه ، وأن لا يحالفوا أعداء الدين .

وحدث أن قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير ، فبعث إليهم بنو النضير يطلبون دية القتيل ، ويطلبون القاتل ليقتلوه ، وذلك حسب العهد المبرم بينهما .

وكان الإسلام في هذا الوقت قد اشتدّ عوده ، وقويت شوكته ، فرأى بنو قريظة في ذلك فرصتهم لنقض العهد ؛ فأرسلوا إلى بني النضير أن العهد شيء غلبتمونا عليه ، وليس حكم التوراة ، فإمّا الدية ، وإمّا القتل وإلاّ فهذا محمد بيننا وبينكم فهلمّوا نتحاكم إليه .

ولّما عرضت الخصومة على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قضى بنقض العهد المبرم بينهما لبطلانه . ورضي بنو قريظة ـ بالطبع ـ بحكمه ، في حين اغتمّ بنو النضير وأضمروا في

أنفسهم الكيد للنبي (صلّى الله عليه وآله) إذا واتتهم الفرصة .

وأتت الفرصة المرتقبة لّما قتل عمرو بن أمية الرجلين العامريّين اللذين كانا في جوار رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقدم النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى بني النضير يستقرض منهم دية القتيلين ، فرحّبوا به ودعوه إلى ضيافتهم ، وقال له كعب بن الأشرف : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت .

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا فرصة أحسن من هذه ، فهذا محمّد جالس إلى جانب جدار من بيوتنا ، فمن رجل يعلو على هذا البيت ويلقي عليه صخرة ؟ ويريحنا منه ؟

هذا ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) في نفر من أصحابه ، أتاه جبرئيل يخبره بما أراد القوم ، فقام وقال لأصحابه : لا تبرحوا ؛ وخرج راجعاً إلى المدينة ، وأمر محمد بن مسلمة بالذهاب إلى بني النضير وإنذارهم بالجلاء عن المدينة خلال عشرة أيام ، لأنّهم غدروا وخانوا العهد ، فمن شوهد منهم بعد هذه المهلة عرض نفسه للهلاك .

وتهيّأ اليهود للخروج ، لكنّ عبد الله بن أبيّ أرسل لهم يقول : لا تخرجوا ، فإن معي الذين من قومي وغيرهم يدخلون حصونكم ويمدّونكم بالعون ، فإن قاتلتم قاتلوا معكم .

ونزل قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنّكم ، والله يشهد إنّهم لكاذبون ﴾ (الحشر/١١) .

ثم إن اليهود تحصّنوا بحصونهم وبعثوا إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن اصنع ما بدا لك ، فنحن لن نغادر بيوتنا ؛ فقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكبّر ، وكبّر أصحابه ، وقال لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

تقدّم إلى بني النضير ، فأخذ (عليه السلام) الراية وتقدم ، وجاء النبي (صلّى الله عليه وآله) في إثره ، وأحاط بحصونهم ، وغدر بهم عبد الله بن أبيّ .

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلمّا كفر قال إنّي بريء منك ، إنّي أخاف الله ربّ العالمين ﴾ (الحشر/١٦) .

قضى اليهود في ضيق الحصار خمسة عشر يوماً ، ثم أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بقطع نخلهم من جذوره ، إلّا ما حمل العجوة منها ، ويقال إنه فعل ذلك كي يجزع اليهود

ويقطعوا الأمل من البقاء ، ولما اشتدّ الأمر عليهم قالوا : يا محمّد نخرج من بلادك ، فأعطنا مالنا ، فقال : لا ، ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل ، فلم يقبلوا ، فبقوا أياماً ثمّ قالوا : نخرج ، ولنا ما حملت الإبل ، فقال : لا ، ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً ، فخرجوا على ذلك ، ودفعهم غيظهم إلى تخريب بيوتهم لمّا أيقنوا بوقوعها غنيمة للمسلمين ، فنزل فيهم قوله تعالى :

﴿ يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيديَ المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ (الحشر/٢) .

ثم ولّى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) محمد بن مسلمة إخراجهم ، فخرجوا كلّ ثلاثة منهم على بعير وقربة ، ويقال إنها كانت ستمئة بعير ، وأذن لهم بحمل ما استطاعوا حمله ، إلاّ السلاح ، وعبروا سوق المدينة وهم يضربون على الدفوف وينشدون إخفاء لعجزهم وغيظهم ، وخرج قوم منهم إلى الشام ، وآخرون إلى خيبر .

وكانت غنائمهم خالصة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فخيّر الأنصار بين أن يقسّم غنائم بني النضير بينهم وبين المهاجرين ، ويكون المهاجرون والأنصار كما كانوا ، وبين أن يخصّ بها المهاجرين ولا يكونوا بعد ذلك مع الأنصار ، فاختاروا الأخير .

وذلك أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان لمّا أمر المهاجرين بالهجرة إلى المدينة قضى بأن يأخذ كل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين في بيته ، ويكون شريكه في ماله ومعاشه ، وبقي الأمر على ذلك حتى كان ما كان من إجلاء بني النضير ، وقبول الأنصار بقسمة الغنائم على مساكين المهاجرين ، وأن يبقوا كما كانوا شركاء في المعاش والبيوت ، فدعا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال :

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

ثم إنه قسّم الغنائم بين المهاجرين ، ولم يعط من الأنصار إلاّ رجلين هما سهل بن حنيف وأبو دجانة ، فإنّهما كانا محتاجين .

ونزل في الأنصار قوله تعالى :

﴿ الذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر/٩) .

ثم إنه (صلّى الله عليه وآله) وهب مزارع القوم ومرابعهم وآبارهم وأنهارهم إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فوقفها على أولاد فاطمة (عليها السلام) .

وقائع العام الخامس من الهجرة

في هذا العام تزوّج رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه) من زينب بنت جحش ، وإذ ذاك نزلت آية الحجاب .

غزوة المُرَيْسيع : وفي تلك السنة أيضاً كانت غزوة المُرَيْسيع ، وهو بئر ينزل عنـدها بنـو المصطلق ، وكانت البئر لخزاعة بين مكّة والمدينة من ناحية القديـد ، وهذه الغـزوة تسمّى أيضاً غزوة بني المصطلق ، وهـو لقب جُذَيمـة بن سعد ، وهم بـطن من خزاعـة ، وكان سيّد القوم وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، قد جمع لحرب رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله) ، فلما بلغـه الخبر جهّز أصحابه لقتالهم ، وخرج من المدينة يوم الاثنين الثاني من شعبان ، وبصحبته زوجتاه أم سلمة وعائشة ، وفي مسيرهم بلغوا وادياً مخوفاً فنزلوا هناك ، وأتاه جبرئيل ينبئه أن جماعة من كفّار الجنّ قد أجمعوا على إنـزال الأذى بأصحـابه ، فـأرسل يستقـدم عليّاً (عليـه السلام) ، فـأرسله لقتالهم ، وكُتب لـه الظفـر عليهم ، وقد سبقت الإشـارة إلى ذلـك عند الحـديث عن معجزات النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فلا نكرّر .

ثم إنه (صلّى الله عليه وآله) قدم أرض المريسيع فلقي الحارث وقومه ، وكان بينهم قتال شديد ، فقتل قتادة حـامل لـواء المشركين ويـدعى صفوان ، وسقط اللواء ، كما أنّ عليّاً قتـل رجلاً منهم يدعى مـالكاً وابنه ، وانهزم القوم ، وخـرج المسلمون في أثـرهم فقتلوا منهم عشرة رجال آخرين ، وسقط للمسلمين شهيد واحد .

وبعد ثلاثة أيام من الجدال قتل جماعة منهم ، ولجأ آخرون إلى الفرار ، ووقع البـاقون في الأسر ، ومنهم مئتان من نسائهم ، وغنم المسلمـون منهم ألفين من الإبـل وخمسة آلاف شـاة ؛ وكان بين النساء برّة بنت الحارث بن أبي ضرار ، فوقعت نصيبـاً لثابت بن قيس بن الشـماس ، فكاتبها على أن تؤدي إليه مالاً تنال به حرّيّتهـا ، فسألت رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله) أن يعينها على أداء مـا كاتبت عليـه ، فقال : هـل لـك في خير من ذلـك ؟ قـالت : ومـا هـو يـا رسول الله ؟ قال : أقضي كتابتك وأتـزوجك . قـالت : نعم ، فأخـذها من ثـابت بن قيس ، وسمّاها جويرية ، وجعلها في جملة أزواجه ؛ ولما رأى المسلمون ذلك قالوا : لا يليق بنا أن يبقى قومُ صَجيعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الأسر والرقّ ، وهكذا أعتقوا كل امـرأة أسيرة من بني المصطلق .

تقول عائشة : ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها .

وإجمالاً فقد أقـام رسول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) أربعة أيـام بعد المعـركة ، ثم قفـل راجعاً إلى المدينة ، وفي هذه الرجعة جـرت قصّة جهجـاه بن سعيد (بن مسعـود) الغفاري ،

وسنّان الجُهني ، وقول عبد الله بن أبيّ المنافق : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ ﴾ يريد بالأعز نفسه، وبالأذلّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، نعوذ بالله ، فنقل زيد بن الأرقم ـ وكان غلاماً حديث السن ـ قول ابن أبيّ إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فمشى عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولمّا بلغه أن زيد بن الأرقم نقل إليه ما سمعه ، فحلف بالله أنه ما قاله ولا تكلّم به ، وأن زيداً يكذب ، فاغتمّ زيد لذلك ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون . . ﴾ . فتأكد صدق زيد ونفاق ابن أبيّ .

كما وقعت في الرجعة من هذه الغزوة قصّة الإفك .

غزوة الخندق : في شوال من السنة الخامسة وقعت غزوة الخندق ، ويقال لها غزوة الأحزاب ، ذلك أن قريشاً استصرخت الأعراب لحرب المسلمين ، فاجتمع من كل قبيلة حزب ، وهذه الغزوة أتت بعد أن أجلى المسلمون يهود بني النضير عن المدينة ، ممّا استفحلت معه عداوة اليهود للمسلمين ، فقدم عشرون رجلاً من زعمائهم إلى مكّة ، منهم حييّ بن اخطب ، وسلاّم بن أبي الحُقَيْق ، وكنانة بن الربيع ، وهَوْذة بن قيس ، وأبو عامر الراهب المنافق ؛ واجتمعوا في مكّة إلى أبي سفيان وخمسين رجلاً من كبار قريش ، فدعوهم إلى حرب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقالوا : إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، وكتبوا على ذلك فيما بينهم عهداً ، ثم دعوا القبائل لمّا عزموا عليه ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة في جيش تعداده أربعة آلاف رجل ، وفيهم ألف بعير وثلاثمئة فرس ، ولمّا بلغ مَرّ الظهران انضمّ إليه ألفان من أسلم وأشجع وكنانة وفزارة وغطفان وغيرهم ، حتى بلغ تعداد الجيش عند بلوغه المدينة عَشَرَةَ آلاف رجل .

فلما سمع بهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) جمع أصحابه لتبادل الرأي ، فأشار سلمان (رضي الله عنه) عليه بحفر خندق حول المدينة ، وقال : إنه أمر يصنعونه في بلادنا إذا غزاهم جيش عظيم ، وبذلك تنحصر المواجهة في جانب واحد ، فأعجب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بما أشار به سلمان ، وأمر أصحابه بحفر الخندق ، وخصّ كل عشرة منهم بحفر أربعين ذراعاً ، أو عشرة أذرع على قول ، وشاركهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الحفر حتى استكملوه في شهر ، وجعلوا له ثمانية مداخل وأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يحرس كلّ مدخل رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار ، مع آخرين ، وأمر بالنساء والأطفال فوضعوا في مأمن ، وهكذا أحكم تحصين المدينة قبل قدوم قريش بثلاثة أيام .

أمّا من جانب المشركين فقد استدعى أبو سفيان حييّ بن أخطب ، فقال له : إن استطعت أن تحوّل بني قريظة إلى جانبنا تصنع خيراً ، فخرج حييّ حتى أتى كعب بن أسد صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على

قومه ، وعاهده وعاقده ، لمّا سمع كعب بحييّ بن أخطب أغلق دونه حصنه ، وأبى أن يفتح له فقال حييّ : ويحك يا كعب ، جئتك بعزّ الدهر ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، بمن معهم من الأعراب حتى بلغوا عشرة آلاف ، قال كعب : جئتني والله بذلّ الدهر ، فدعني ومحمداً فما رأيت منه إلاّ صدقاً ووفاء ، فلن أنقض عهده .

لكنّ حيياً لم يزل به يقسم له الأيمان بأنه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ، دخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيبه ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وخرج حييّ فالتحق بأبي سفيان ، وبشّره بنقض عهد قريظة .

وجاء نقض العهد هذا في وقت عصيب ، فعظم الأمر على المسلمين ، لكنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خفّف عنهم وبشّرهم بالنصر من عند الله عزّ وجل .

وعظم عند ذلك البلاء ، وتقاطر الأحزاب فوجاً إثر فوج ، وعمّ الفزع أصحاب القلوب الخائرة لمّا رأوا هذا الجيش العظيم ، حتى كادت العيون تخرج من محاجرها ، كما قال تعالى :

﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ (الأحزاب/ ١٠) .

ولما رأى المشركون الخندق قالوا : والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، واستمر الحصار أربعة وعشرين يوماً أو سبعة وعشرين ، ولقي أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كل تعب ونصب من ضيق الحصار ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، واستأذن بعضهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يأذن لهم بالعودة إلى المدينة لحماية بيوتهم ، قال تعالى :

﴿ ويستأذن فريق منهم النبيّ يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة ، إنْ يريدون إلاّ فراراً ﴾ (الأحزاب/١٣) .

ولم يكن بين القوم حرب خلال الحصار إلاّ الرمي بالنبل والقذف بالحجارة ، وإن فرساناً من قريش منهم عمرو بن عبد ودّ ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، وضرار بن الخطّاب ، وهُبيرة بن أبي وهب ، وعكرمة بن أبي جهل ، وجميعهم من شجعان قريش ، أقبلوا نحو الخندق ، ثم تيمّموا مكاناً منه ضيقاً ، فضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، وأبو سفيان ، وخالد بن الوليد وجماعة من المقاتلين اصطفّوا على حافّة الخندق يرقبون ما يجري ، فصرخ بهم عمرو : هلمّوا فاقتحموا ، قالوا : سنلحق بكم إن دعت الحاجة .

ثمّ إن عَمْراً جعل يغلي فوق فرسه وهو ينادي : هل من مبارز ؟ وكان عمرو يسمّى

فارس يَلْيَلْ ، ويعدلونه بألف فارس ، وإذ يعلم الأصحاب شجاعته ، صَمتوا كأنّ على رؤوسهم الطير ، وكأنما أراد ابن الخطاب أن يتحرّى لهم عذراً ، فراح يذكر طرفاً من شجاعة عمرو ، مما زاد في تخاذل الأصحاب ، ولّما رأى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن عَمْراً يطلب المبارزة قال : هل فيكم من يكفينا شرّ هذا العدوّ ؟ فوثب أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : أنا له يا رسول الله ، فسكت (صلّى الله عليه وآله) ، هذا وعمرو ينادي : هل من مبارز ؟ أيها الناس ، ألستم تزعمون أنّ قتلاكم في الجنّة وقتلانا في النار ؟ ألا يحبّ أحدكم أن يصير إلى الجنة ، أو يرسل عدوّه إلى النار ؟ ثم ركز رمحه في الأرض ، وأقبل يجول جولة ويقول :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من لهذا الكلب ؟ فلم يجبه أحد ، فوقف أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : أنا له يا رسول الله ، فقال : يا عليّ ، هذا عمرو بن ودّ ! قال : وأنا عليّ بن أبي طالب . فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : ادن منّي ، فدنا منه فألبسه درعه ذات الفضول ، وعمّمه بعمامته السحاب ، ودعا له .

فمّر أمير المؤمنين (عليه السلام) يهرول وهو يرتجز رداً على عمرو :

لا تعجلنّ فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّة وبصيرة والصدق منجي كلّ فائز
إنّي لأرجو أن أقيـ م عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبـ قى صوتها بعد الهزاهز

وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه ، ثمّ إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) دعا عَمْراً إلى واحدة من ثلاث : إمّا الإسلام ، وإمّا الرجوع عن حرب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وإمّا أن ينزل عن فرسه ، فعليّ (عليه السلام) كان راجلاً ، فاختار عمرو الثالثة ، لكنه في الحقيقة كان يبطن الخوف من قتال عليّ (عليه السلام) ، ذلك أنه قال له : عُد يا عليّ ، فأنت لم تبلغ مبلغ الرجال ، وهأنذا ابن ثمانين ، وأبوك كان لي صديقاً ونديماً ، وإني أكره أن أقتلك ، وهل أمن ابن عمّك حين بعثك إليّ أن اختطفك برمحي هذا فأتركك معلّقاً بين السماء والأرض ، فلا أنت بالحيّ ولا بالميت ؟ .

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : دع هذا يا عمرو ، فأنا أحبّ ان أقتلك في سبيل الله ؛ فغضب عمرو واقتحم عن فرسه فعقره ، ثم بدر أمير المؤمنين (عليه السلام) بضربة من سيفه ، فاتّقاها بالدرقة فقطعها وثبت السيف على رأسه فجرحه ، واشتبكا في قتال عنيف وثار

الغبار بينهما حتى غابا عن أبصار الفريقين ، ثم عاجله أمير المؤمنين (عليه السلام) بضربة على ساقيه فقطعهما ، وسقط عمرو على الأرض ، وجلس أمير المؤمنين (عليه السلام) على صدره ، فقال عمرو : يا عليّ ، قد جلست منّي مجلساً عظيماً ، فإن قتلتني فلا تجرّدني من ثوبي ، فقال : لك ذلك .

ويروي ابن أبي الحديد وغيره أنّ علياً بعد أن تلقّى ضربة عمرو انقلب إليه كالأسد الغاضب وعاجله بضربة على رأسه النجس ففصله عن جسده ، وارتفع صوته بالتكبير ، فلما سمع المسلمون صوت التكبير أيقنوا أنّ عَمْراً قد قتل ، وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الجنّ والإنس إلى يوم القيامة .

وقد نظم الشيخ الأزري قصّة مقتل عمرو في قصيدته الهائية ، ورأيت من المناسب إيرادها هنا ، قال (رحمه الله) :

ظهرت منه في الورى سطوات ... ما أتى القوم كلّهم ما أتاها
يوم غصّت بجيش عمرو بن ودٍّ ... لهوات الفلا وضاق فضاها
وتخطّى إلى المدينة فرداً ... لا يهاب العدى ولا يخشاها
فدعاهم وهم ألوف ولكن ... ينظرون الذي يشبّ لظاها
أين أنتم من قسْوَرٍ عامريّ ... تتّقي الأسد بأسه في شراها
أين مَن نفسه تتوق إلى الجنـ ... ـات أو يورد الجحيم عِداها
فابتدى المصطفى يحدّث عمّا ... يُؤْجَرُ الصابرون في أخراها
قائلاً : إنّ للجليل جِناناً ... ليس غير المهاجرين يراها
مَن لعمرٍو وقد ضمنت على اللـ ... ـه له من جنانه أعلاها
فالتووا عن جوابه كسوامٍ ... لا تراها مجيبة من دعاها
فإذا هم بفارسٍ قرشيٍّ ... ترجف الأرض خيفةً أن يطاها
قائلاً ما لها سواي كفيلٌ ... هذه ذمّةٌ عليّ وفاها
ومضى يطلب البراز كما تمشـ ... ـي خماص الحشا إلى مرعاها
فانتضى مشرفيّة فتلقّى ... ساق عمرو بضربة فبراها
وإلى الحشر رنّة السيف منه ... يملأ الخافقين رجع صداها
يا لها ضربة حوت مكرماتٍ ... لم يزن ثقل أجرها ثقلاها
هذه من علاهُ إحدى المعالي ... وعلى هذه فقس ما سواها

يروى عن جابر أنه لمّا سقط عمرو خرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق ، وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد الله في جوف الخندق ، فجعلوا يرمونه بالحجارة ، فقال

لهم : قتلة أجمل من هذه ! ينزل بعضكم أقاتله ، فتقدم أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنهى أمره بضربه واحدة ، كما ضرب هبيرة ضربة أصابت قربوس فرسه ونفذت إلى درعه فقطعتها ، وسقط مضرّجاً .

يقول جابر : ما أشبه قصة مقتل عمرو بقصة قتل داود جالوت .

وإجمالاً ، فبعد أن وضعت الحرب أوزارها بعث المشركون إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يشترون جثّتي عمرو ونوفل ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : هما لهم ، فنحن لا نأكل ثمن الموتى .

ولما وقفت أخت عمرو على جسد أخيها رأت أن درعه التي لم يكن لها مثيل عند العرب ، وأن سائر أسلحته وثيابه باقية لم تنزع ، قالت ، ما قتله إلاّ كفؤٌ كريم ، ولكن من هو قاتله ؟ فقالوا : عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، فأنشدت :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الأبد
لكنّ قاتله مَن لا يُعاب به من كان يدعى أبوه بيضة البلد

وإجمالاً فقد كان حصار قريش لأصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قاسياً ، فقال أبو سعيد الخدري : قد بلغت القلوب الحناجر ، ألا من كلمة تخفّف عنّا ؟ فقال (صلّى الله عليه وآله) قل : اللهمّ استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

كما أن ألسنة المنافقين بدأت تطول بالأقوال الشنيعة ، فصعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى مسجد الفتح فدعا الله وناجاه وقال :

« يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرّين ، ويا كاشف الكرب العظيم . . . » الدعاء ، فأرسل الله تعالى على المشركين ريح الدبور فانهزموا ، وقلعت أخبيتهم وقلبت قدورهم ، فلم يكن أمامهم من هول ما نزل بهم سوى الفرار ، وكان مقتل عمرو ونوفل أهمّ أسباب الهزيمة ، ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بعليّ بن أبي طالب ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

يقول بعض العلماء : لولا أن النبي (صلّى الله عليه وآله) كان رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح التي أتت على الأحزاب ، أشدّ في سورتها وفي ثورانها .

وعن حذيفة بن اليمان أن أبا سفيان قال : لقد طال مقامنا ها هنا ، وهلك الخف والحافر ، وخذلنا اليهود ، وأتتنا أخيراً هذه الريح ، فالنجاء النجاء ، وقام إلى راحلته فركبها ، وحذت قريش حذوه ، ولحقوا به منهزمين بما استطاعوا حمله من أثقالهم .

غزوة بني قُرَيْظة : وفي السنة الخامسة من الهجرة أيضاً كانت غزوة بني قريظة ، فلما

رجع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من غزوة الخندق ، وصار إلى بيت فاطمة (عليها السلام) يريد أن يغتسل ويحرق البخور ، أتاه جبرئيل يقول :

عذيرك من محارب ، والله ما وضعت الملائكة لأمّتها ، كيف تضع لأمتك ؟ إن الله يأمرك أن لا تصلّي العصر إلاّ ببني قريظة ، فإنّي متقدّمك ومزلزل بهم حصنهم . فنادى بلال بأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الناس أن لا يصلّينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة ، فخرج الناس فأحاطوا بحصنهم ، وامتدّ الحصار خمسة عشر يوماً أو خمسة وعشرين على قول ، والحرب قائمة بالرمي بالنبال والحجارة ، حتى بعث الله الرعب فيهم ، واشتدت عليهم وطأة الحصار ، فنزلوا من قلاعهم ، ورضوا بحكم سعد بن معاذ بهم ، فقال سعد : قد حكمت أن تقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذراريهم ، وتقسّم غنائمهم بين المهاجرين والأنصار ، وهكذا كان .

قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم تطأوها ، وكان الله على كلّ شيء قديراً ﴾ (الأحزاب/٢٦ ـ ٢٧) .

ويروى أن سعد بن معاذ رُميَ في الخندق بسهم لقطع أكحله ، فنزفه الدم ، فقبض على أكحله بيده ثم قال : « اللهم إن كانت الحرب قد وضعت أوزارها بين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وبين قريش فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتّى تقرّ عيني من بني قريظة » ، فأمسك الدم ، فلما حقق الله له مراده انفجر جرحه ، فما زال ينزفه حتى قضى ، (رحمة الله عليه) .

غزوة دومة الجندل : في السنة نفسها تمّ القضاء على يهود طاس ، وفيها أدّى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) صلاة الخسوف ، وفي تلك السنة أيضاً كانت غزوة دومة الجندل .

وذلك أن قوماً من شرار تلك الأرض راحوا يتعرّضون للقوافل والركبان ، فسار إليهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول على رأس ألف من أصحابه يتعقّبهم ، ولمّا علم الأشرار بذلك لجأوا إلى الفرار ، فاستولى المسلمون على أموالهم ومواشيهم ، ثم اتّخذوا طريقهم نحو المدينة فبلغوها في العشرين من ربيع الثاني .

و(دُومة) موضع يقع على خمسة منازل من الشام قرب جبل طيّء ، ويبعد عن المدينة مسيرة خمسة عشر يوماً أو ستة عشر ، وقد دعي بدومة الجندل لأنه مبني من الصخر ، فالجندل تعني الصخر .

وقائع العام السادس من الهجرة

في هذه السنة فرض الحج إلى الكعبة ونزلت الآية الكريمة: ﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله﴾، ويقول البعض: إن فريضة الحج وجبت في السنة التاسعة للهجرة.

غزوة ذات الرِّقاع: وفي السنة السادسة أيضاً وقعت غزوة ذات الرقاع، وسببها أن خبراً ورد المدينة يفيد بأن جماعة من غطفان وبني محارب وأنمار وثعلبة يستعدّون لغزو المدينة، فاستخلف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أبا ذر على المدينة وخرج في منتصف جمادى الأولى في أربعمئة أو سبعمئة من أصحابه إلى جانب نجد حتى بلغ موضع نخلة، ومنه نزل إلى ذات الرقاع؛ فلما علم القوم بعزم الرسول (صلّى الله عليه وآله) نزل الرعب في قلوبهم وفرّوا إلى قلل الجبال يمتنعون بها، وخلّفوا وراءهم ـ من رعبهم ـ نساء لهم فأخذهنّ المسلمون.

وحلّ وقت الصلاة إذ ذاك، فخاف المسلمون إذا هم انشغلوا بالصلاة أن يغدر العدوّ المتربّص بهم، وهنا شرع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) صلاة الخوف، ووفقاً لبعض الروايات فإنّ هذه الآية نزلت في هذا المقام:

﴿فإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم..﴾ (الآية: النساء/١٠٢).

وفي وجه تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع اختلاف، فالبعض يرجعها إلى أن الأرجل كانت تصاب بالجروح من أثر المشي فكانت تعصب بالرقاع، ويرجعها البعض إلى أن الرايات كانت تتّخذ من الرقاع، ويرجعها البعض الآخر إلى وجود جبل في تلك الأرض ذي ألوان متعددة كالثوب المرقّع؛ وآخرون يقولون: إنه اسم شجرة نزل عندها رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، ويروى أن المسلمين أسروا امرأة كان زوجها غائباً، فلمّا حضر راح يتعقّب جيش المسلمين، فكانوا إذا نزلوا منزلاً قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): من يحرسنا الليلة؟ فبرز رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار وقالا: نحن يا رسول الله.

وأخذا موضعاً في مدخل الوادي للحراسة، واتّفقا على أن ينام المهاجريّ أول الليل ويحرس الآخر، وينام الأنصاري آخر الليل؛ ثم وقف الأنصاريّ للصلاة، وحضر زوج المرأة، فرأى سواداً فرماه بسهم استقر في بدنه، فسحبه ولم يقطع صلاته، ثم رماه بالثاني فلم يقطع صلاته، وبعد أن رماه بالثالث سلّم، وأيقظ رفيقه، فلما رأى الزوج أنهما علما بقدومه انطلق هارباً.

ولما علم المهاجريّ بما جرى قال: سبحان الله، كنت أيقظتني عند نزول السهم الأول، فأجابه: كنت أقرأ سورة لم أشأ قطعها، فلما تتابع ورود السهام أنهيت صلاتي

وأيقظتك ، ووالله لولا خوفي من مخالفة أوامر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وتقصيري في الحراسة لآثرت أن تنقطع روحي قبل أن أقطع تلك السورة .

أقول : كان المهاجري عمار بن ياسر ، والأنصاريّ عبّاد بن بشر ، والسورة التي كان يتلوها كانت سورة الكهف .

غزوة بني لحيان : في هذه السنة أيضاً وقعت غزوة بني لحيان ، ولحيان هو ابن هُذيل بن مدركة ، وكانوا طائفتين : عضل وقارّة ، وذلك أنّ قبيلة هُذيل قتلت عاصم بن ثابت ، وخُبَيْب بن عديّ وآخرين ، وغدروا برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فعزم (صلّى الله عليه وآله) على تأديبهم ، فخرج في مئتين من أصحابه ، ولما بلغ بني لحيان ما عزم عليه لجأوا إلى الجبال وتحصّنوا بقللها ، فأقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في تلك الأرض يوماً أو يومين ، ثم قفل راجعاً إلى المدينة بعد أربعة عشر يوماً من خروجه .

غزوة ذي قرد : وكان وقوعها في السنة السادسة أيضاً ، وقَرد ماء قرب المدينة ، وسببها أنّه كانت لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) عشرون من الإبل الحلوبة يرعاها هناك ، يرعاها له أبو ذرّ الغفاري ، فأغار عليها عيينة بن الحصين الفزاريّ في أربعين فارساً ، وقتل ابناً لأبي ذرّ ورجلاً من غفار ، وأسر زوجه ، التي غافلتهم ونجت بنفسها على بعير من إبل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولما بلغت المدينة صارت إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأنبأته بالأمر ، كما أنبأته بأنّها نذرت إن وصلت سالمة أن تنحر هذا البعير ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : ما أسوأ ما جزيت به هذا البعير بعد أن حملك على ظهره وأوصلك سالمة ، وتريدين قتله ! إنّه لا نذر في معصية ، ولا لأحدٍ في ما لا يملك .

وإجمالاً فلما اطّلع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على الواقعة نادى : يا خيل الله اركبي ، فتقاطر خمسمئة أو سبعمئة رجل ، وأسلم اللواء إلى المقداد وأرسله في طليعة الجند ، ووصل المقداد إلى العدوّ فقتل أبو قتادة أحد رجالهم ، وراح سلمة بن الأكوع يرميهم بالنبل راجلاً وهو يقول : « خذها وأنا ابن الأكوع ، واليوم يوم الرّضّع » وذلك من قولهم « لئيم راضع » أي : رضع اللؤم في بطن أمّه .

وفرّ الكفار ، ومرّوا بشعب فيه ماء يقال له ذو قَرَد ، وهم عطاش ، فلم يستطيعوا الشرب منه لخوفهم .

غزوة الحديبية : في شهر ذي القعدة من السنة السادسة خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يريد العمرة ، وساق معه الهدي سبعين بعيراً ، وأحرم عند مسجد الشجرة ، وكان بصحبته ألف وخمسمئة وعشرون أو أربعمئة من المسلمين ، ومن النساء كانت تلازمه

أمّ سلمة ، ولما علم المشركون في مكة بالأمر عزموا على صدّه عن زيارة البيت ، ونزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الحديبية ، وهي في منزل عن مكة ، عند بئر قليلة الماء ، ونفد الماء في مدة قصيرة ، فشكا الناس العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء ، فما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا عنه .

وبينما هم كذلك إذ جاءهم بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي من جانب قريش ونقل إليه أن القوم أجمعوا أمرهم على صدّه ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : إنّا لم نجيء لقتال أحد ، ولكنّا جئنا معتمرين ، وسننحر هدينا ونذر لكم لحومها، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم ، وستضرّ بهم أكثر.

ثم أعقبه عروة بن الثقفي ، فتكلم النبيّ (صلّى الله عليه وآله) معه كما تكلّم مع بديل ، ولاحظ عروة خفية مقدار ما يكنّه أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لنبيّهم من احترام وإكبار ، فرجع إلى أصحابه وقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشيّ ، والله إنْ رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّدٍ محمّداً ، إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّموا اخفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له[1] ، وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد

---

(١) اعلم أن الروايات في تعظيم الصحابة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) كثيرة ، فيروى أنه كان في خيمته والصحابة خارجها ، فخرج بلال يحمل آنية فيها ماء غسل فيه يديه ، فتبادروا إلى الماء ، فمن ظفر بشيء منه مسح به وجهه للتبرك به ، ومن لم يظفر مسح يده بيد آخر ، ثم مسح وجهه . ويروى عن أنس قوله : حلق النبي (صلّى الله عليه وآله) شعره ، فاجتمع الصحابة على ما تخلف من شعره المقصوص يتخاطفونه حتى وصلت كل شعرة منه إلى يد أحدهم . وعن أسامة بن شريك قال : قدمت إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فرأيت الصحابة وقد جلسوا بعيداً عنه كأنّ على رؤوسهم الطير ؛ والمغيرة يقول : كان الصحابة إذا أرادوا قرع باب الرسول (صلّى الله عليه وآله) قرعوه بأظفارهم وليس بالحجارة ، والبراء بن عازب يقول : ما أكثر ما رغبت أن أسأل النبي (صلّى الله عليه وآله) سؤالاً ، لكني كنت أحجم من مهابته (صلّى الله عليه وآله) ، إلى عامين .

العلاّمة المجلسي يقول : كما أن تكريم رسول الله وأهل بيته الأطهار وتعظيمهم واجب في حياتهم فهو واجب بعد مماتهم أيضاً ، ذلك أن دلائل التعظيم عامّة ، وقد وردت أحاديث كثيرة في أنّ حرمتهم بعد الموت كحرمتهم حال الحياة ، وأن حيّهم وميّتهم سواء ، وأنّهم يطّلعون على أحوال الناس بعد وفاتهم ، فينبغي إذاً مراعاة الأدب عند الدخول إلى روضاتهم المقدسة وأضرحتهم المنوّرة ، كما عند الخروج ، وأن لا نعطي للضريح ظهورنا ، وأن لا نمدّ نحوه أقدامنا ، وأن نقف بأدب عند الزيارة ، وأن نقرأ بهدوء ، وأن نقوم بتعظيمهم وتفخيمهم لما يتضمّنه الشرع والعرف ، إلاّ ما ورد النهي عنه كالسجود ، ووضع الجبين على القبر ؛ وينبغي تعظيم أسمائهم الشريفة في القول والكتابة ، وإرسال الصلوات عند قولها أو سماعها ، واحترام أحاديثهم وتعظيم ذرّيتهم الطيبة ورواة أحاديثهم وحفّاظ شريعتهم تعظيماً لهم ، وإجمالاً فكل تعظيم لما نسب إليهم تعظيم لهم ، وتعظيمهم تعظيم لربّ العالمين . انتهى قوله رحمه الله .

فاقبلوها ، والله لقد رأيت جيشاً لن يبخل رجاله بأرواحهم حتى يغلبوكم .

وأخيراً فقد بعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عثمان بن عفان إلى مكّة ليطلع قريشاً على ما عزم عليه ، وقال المسلمون : الفرج قريب ؛ فصار عثمان إلى مكّة ولحقه إليها عشرة من المهاجرين ، فاحتبسوه في مكّة ، فظن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّهم قتلوه ، (شائعة نشرها الشيطان بينهم) فقال (صلّى الله عليه وآله) : لا نبرح حتّى نناجز القوم ، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا ، وسمّيت هذه البيعة ببيعة الرضوان ، لأنّ الله عزّ وجلّ قال في سورة الفتح : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ الآية .

بعثت هذه البيعة الرعب في قلوب قريش ، فبعثوا سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف كي يكلموه في الصلح ، وهكذا كان وكتب بينه (صلّى الله عليه وآله) وبين سهيل كتاباً للصلح هذا ملخّصه :

الحرب مكفوفة عشر سنوات بين المسلمين وقريش ، ولا إضرار في الأموال والأنفس ، وحرية السفر والانتقال للجانبين مضمونة ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن يُعبد الله بمكّة علانية ، وعلى أن تخلى مكّة للرسول في عام قابل فيدخلها حاجّاً والسلاح في غمده ، على ألا يبقى فيها فوق ثلاثة أيّام ومن لحق محمداً وأصحابه من قريش فإن محمداً يردّه إليهم ولو كان مسلماً ، ومن رجع من أصحاب محمّد إلى قريش بمكّة فإن قريشاً لا تردّه إلى محمّد .

شعر جماعة من الصحابة بعدم الارتياح لهذا الصلح ، كما أصاب التشويش أفكار البعض ، وكيف أنّ رؤيا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بزيارة الكعبة وأداء العمرة وفتح مكّة لم تتحقق ، حتى أنّ ابن الخطّاب أورد حديث القلب هذا على لسانه إذ قال : « ما شككت في نبوّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) قطّ إلّا يوم الحديبية » .

وقال لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) : لم نعطِ الدنيّة في ديننا ؟ قال (صلّى الله عليه وآله) : إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري ، قال : أو لست تحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف حقاً ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام ؟ قال : لا ، قال (صلّى الله عليه وآله) : فإنّك تأتيه وتطوف به .

وقال تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ الآية .

وقائع العام السابع من الهجرة

فتح خيبر : من المعلوم أن سورة الفتح نزلت على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عند رجوعه من الحديبية ، وهي تبشّر بفتح خيبر ، كما قال تعالى : ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

وخيبر هذه سبعة حصون محكمة هي : الناعم ، القَموص ، الكتيبة ، الشق ، النطاة ، الوطيح ، السُلالم .

لما قدم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة ، ثمّ أمر بإعداد العدة للحرب ، ثم خرج إلى خيبر في ألف وأربعمئة رجل ، فلمّا نزل بساحتهم أصبحوا وغدوا إلى زرعهم وحرثهم ، فلما نظروا إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قالوا : محمّد وجيشه ! ثمّ ولّوا هاربين إلى حصونهم .

ولما رأى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذلك قال : الله أكبر ، خربت خيبر ، إنّا جيش إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .

ذلك أنّ اليهود كانوا يحملون السلال والمعاول ، وهي من أدوات الهدم ، ولما رآها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) توسّم فيها علامة فأل بأن خيبر ستخرب .

أما اليهود فقد صمموا على القتال ، فجمعوا نساءهم وذراريهم في حصن الكتيبة ، والعلف والمؤن في حصن الناعم ، ووضعوا عليها حراسة شديدة ، كما جمعوا رجال حربهم في حصن النطاة .

قال الحبّاب بن المنذر لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) : إن هؤلاء اليهود يحبّون أشجار النخيل أكثر من محبّتهم لأبنائهم ، فلو أمرت بقطع نخيلهم لضاعفت حزنهم وغمّهم ، فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقطع أصحابه أربعمئة نخلة .

وإجمالاً فقد احترب الفريقان ، وفتح المسلمون بعض القلاع ، ثم إنّهم ضربوا الحصار حول قلعة القموص ، وكانت قويّة محكمة التحصين ، وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس ، وكان كلّ من الصحابة يخرج في يوم بالراية فإذا حل المساء ولم يفتح الله عليه عاد ، حتى خرج أبو بكر بالراية يوماً ورجع منهزماً ، وفي اليوم الذي تلاه خرج عمر بالراية ورجع منهزماً كذلك ، يقول ابن أبي الحديد في قصيدة عن فتح خيبر :

وإن أنس لا أنس اللذين تقدّما	وفرّهما والفرّ قد علما حوب
وللراية العظمى وقد ذهبا بها	ملابس ذلٍّ فوقها وجلابيب
يشلّهما من آل موسى شمردلٌ	طويلُ نجادِ السيف أجْيدُ يَعبوب

غـذرتـكـما إنّ الحِـمام لمبـغَض وإن بـقـاء الـنـفس لـلـنـفس محـبـوب

ولما رجع عمر عشيّة قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : سأعطي الراية غداً رجلاً كرّاراً غير فرّار ، يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

ولما كان من الغد ، وكان الأصحاب يتطاولون لنيل هـذا الشرف ، قال (صلّى الله عليه وآله) : ادعوا لي عليّاً ، قالوا هو أرمد يشكو الضعف ، قال : جيئوني بـه ، فأتي بـه سلمة بن الأكوع ، فقال النبي (صلّى الله عليه وآلـه) : ادن مني ، وضـع رأسك على فخـذي ، ففعل فدعا له النبي (صلّى الله عليه وآله) وتفل في يده فمسح بها على عينيه ورأسه ، فانفتحت عيناه وسكن ما كان يجده من صداع ؛ يقول حسان بن ثابت في ذلك :

وكـان عـليّ أرمـد الـعـين يـبـتـغـي دواء فـلمّا لم يُحسّ مـداويـا
شـفـاه رسـول الله مـنـه بـتـفـلـة فـبـورك مـرقـيّـاً وبـورك راقـيـا
وقـال سـأعـطي الـرايـة اليوم صـارمـاً كـمـيّـاً محـبـاً لـلـرسـول مـوالـيـا
يحـب إلهـي والإلـه يحـبّـه بـه يـفـتـح الله الحـصـون الأوابـيـا
فـأصـفى بهـا دون الـبـريّـة كـلّـهـا عـلـيّـاً وسمّـاه الـوزيـر المـواخـيـا

ثم أعطاه الراية ، فتناولها ومضى بها حتى أتى حصن القموص ، فخرج مـرحب كعادتـه كلّ يوم كالفيل الهائج وهو يرتجز ويقول :

وقـد عـلـمـت خـيـبر أنّي مـرحـبُ شـاكـي الـسـلاح بـطل مجـرّب

فأقبل إليه أمير المؤمنين كالأسد الغاضب وهو يقول :

أنـا الـذي سـمّـتـني أمّـي حـيـدرة ضرغـامُ آجـامٍ ولـيـثُ قـسـورة
(الأبيات)

فلما سمع مرحب قوله ذكر كلام كاهنته ، إذ كانت قد قالت له : قاتل كـلّ من قاتلك ، وغـالب كلّ من غـالبك ، إلاّ من تسمّي عليـك بحيدرة ، فـإنّـك إن وقفت لـه هلكت ، فلما سمعها منه هرب ، فتمثّل لـه إبليس في صورة حـبر من أحبار اليهـود وقال : حيـدرة في الدنيا كثير ، فمّم فرارك ؟ فرجع وأراد أن يبادر بالضرب لكنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يمهله ، وأهوى عليه بـذي الفقار بضربـة سقط منها لـوجهه ، وقتـل من بعده الـربيع بن أبي الحقيق ، وكان من صناديد القوم ، وعنترة الخيبريّ من أبطال الرجال ، وهو معروف بالجلد والشجاعة ، ومُرّة وياسر وأمثالها من شجعان اليهود .

وانهزم اليهود ودخلوا حصن القموص ، وأغلقوا بابه عليهم دونه ، فصـار أمير المؤمنين

(عليه السلام) إليه فعالجه حتّى فتحه ، واهتزّ الحصن بشدّه ، حتّى أن صفيّة بنت حييّ بن أخطب قالت ارتجف بي السرير فسقطت لوجهي ، فشجّني جانب السرير .

ثم إنّ عليّاً (عليه السلام) رفع الباب فجعله مجنّاً له ، وتقاطر اليهود نحو القلعة ، إذ ذاك جعل أمير المؤمنين (عليه السلام) الباب جسراً فعبر عليه المسلمون وظفروا بالحصن ، ولمّا انصرفوا من الحصن أخذه أمير المؤمنين (عليه السلام) بيمناه ، ورمى به فوق رأسه أربعين ذراعاً ، وحاول أربعون رجلاً رفعه فما استطاعوا .

وفي هذا المقام قيل شعر كثير ، رأينا من المناسب إيراد بعض ممّا قاله الشيخ الأزري رحمه الله ، فلله درّه من قائل :

وله يوم خيبر فتكاتٌ	كبرت منظراً على من رآها
يوم قال النبيّ إنّي لأعطي	رايتي ليثها وحامي حماها
فاستطالت أعناق كلّ فريق	ليروا أيّ ماجدٍ يُعطاها
فدعا أين وارث العلم والـ	بأس مجير الأيام من بأساها
أين ذو النجدة العُلى لو دعته	في الثريّا مَروعة لبّاها
فأتاه الوصيُّ أرمدَ عينٍ	فسقاها من ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولّت	عنه علماً بأنّه أمضاها
ويرى مرحباً بكفّ اقتدارٍ	أقوياء الأقدار من ضُعفاها
ودحا بابها بقوّة بأسٍ	لو حَمَتْه الأفلاك منه دحاها
عائذ للمؤمّلين مجيب	سامع ما تسرّ من نجواها

يروى أن جعفر بن أبي طالب قدم من الحبشة يوم خيبر فسرّ رسول الله أيّما سرور لمقدمه ، وقد أتاه بالهدايا من الطيب والثياب والقطيفة المنسوجة من الذهب ، فأعطاها عليّاً (عليه السلام) ففصلها سلكاً سلكاً ، فباع الذهب وكان ألف مثقال ، ففرّقه في فقراء المهاجرين والأنصار ، ولم يترك منه شيئاً لنفسه .

وفي السنة السابعة للهجرة كانت عمرة القضاء ، وذلك أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لما رجع من خيبر عزم على زيارة مكة ، لأداء عمرة القضاء مكان عمرته التي صدّوه عنها ، وخرج معه المسلمون ممّن كان معه في عمرته تلك ، وخرج آخرون غيرهم ، وأخذوا معهم سبعين بدنة من الهدي كما أخذوا معهم سلاحهم غير ظاهر كي لا يؤخذوا على غرّة لو فكّرت قريش بنقض العهد .

ركب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ناقته القصواء وزمامها بيد عبد الله بن رواحة ،

وصحبه المسلمون ، ركباناً وراجلين ، يلبّون ، ودخلوا مكّة من ثنية الحجون حتى بلغوا المسجد الحرام ، وطاف راكباً ، واستلم الحجر الأسود بمحجنه[١] ، وأمر أصحابه بالاضطباع[٢] والجلّد في الطواف كي لا يظن المشركون بهم الضعف ، ثم هرول ثلاثة أطواف ومشى سائرها ، ومضت هذه الهرولة مذ ذاك سنّة ، وقفلوا راجعين بعد ثلاثة أيام قضوها في مكة .

وفي هذه السنة تزوّج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت تحت عبد الله بن جحش الذي هاجر بها إلى الحبشة مسلماً ، لكنه ارتدّ هناك ومات على دين النصارى ، غير أن أمّ حبيبة ثبتت على إسلامها حتى كتب رسول الله إلى النجاشيّ في شأنها ـ يخطبها لنفسه ، فعقد النجاشيّ مجلساً دعا إليه جعفر بن أبي طالب مع جماعة من المسلمين وعقد للرسول (صلّى الله عليه وآله) عليها بوكالته عنه مع خالد بن سعيد بن العاص وكيل أم حبيبة ، وخطب النجاشيّ بالمناسبة فقال :

الحمد لله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّه الذي بشّر به عيسى ابن مريم .

أمّا بعد ، فإن رسول الله كتب إليّ أن أزوّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجابت إلى ما دعاها إليه رسول الله ، وأصدقتها أربعمئة دينار .

ثم أمر بإحضار أربعمئة دينار مهراً لها .

ثم خطب خالد بن سعيد فقال :

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون .

أمّا بعد ، فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وزوّجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فبارك الله لرسوله (صلّى الله عليه وآله) .

ثم أخذ خالد المال ، وأمر النجاشيُّ بالطعام ، وأكل الحاضرون .

وقائع العام الثامن من الهجرة

وقعة مؤتة : في هذا العام من الهجرة كانت وقعة مؤتة ، وهي قرية من قرى البلقاء في الشام ، وسبب هذه الواقعة أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعث الحارث بن عمير

---

(١) المحجن : العصا المعقوفة .

(٢) الاضطباع : إدخال الرداء تحت الإبط الأيمن وتغطية الأيسر .

الأزدي بكتاب إلى حاكم بصرى ، وهي قصبة من أعمال الشام ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسّانيّ ، وهو من كبار بلاط قيصر ، فقتله ، وبلغ ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فاشتدّ عليه ، وندب الناس فأسرعوا وخرجوا فعسكروا بالجرف ، فأتى (صلّى الله عليه وآله) الجرف وعرض الجيش ، وكان يعدّ ثلاثة آلاف مقاتل ، ثم عقد لهم راية بيضاء ، وأسند الإمارة إلى جعفر بن أبي طالب ، ثم قال : فإن أصيب جعفر فزيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم .

وكان أحد اليهود حاضراً فقال : يا أبا القاسم ، إن كنت نبيّاً فسيصاب من سمّيت قليلاً كانوا أو كثيراً ، إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا لو سمّوا مئة أصيبوا جميعاً ؛ ثم أوصاهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذا بلغوا حيث قتل الحارث أن يدعوا الكفار إلى الإسلام فإن أبوا فليحاربوهم .

ومضى المسلمون حتى قاربوا مؤتة ، فلما بلغ شرحبيل مقدمهم استنجد بالقيصر فأمدّه بجيش قوامه مئة ألف أو أكثر .

كان المسلمون طلّاب شهادة ، فلم يحسّوا لكثرة الأعداء ضعفاً وخوراً ، واصطفّ الجيشان ، ونادى جعفر في الناس أن ترجّلوا عن رواحلكم ، وقاتلوا رجالاً ، وكان هذا التدبير ليشعر المسلمين أنهم لا يستطيعون الفرار ، وأن عليهم أن يقاتلوا بصدق ، ثم نزل عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم رفع الراية وتقدّم ، واستعر القتال ، والكفار يتعاقبون كالموج فوجاً إثر فوج ، وأحاطوا بجعفر كالحلقة ، ثم أهووا عليه بالسيوف فقطعوا يمناه ، فأخذ الراية بيسراه فقاتل حتى أصيب مقبلاً بخمسين جراحة ، ثم قطعوا يسراه فأخذ الراية بين عضديه ، فضربوه في وسطه فوقع شهيداً ؛ فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل ؛ وقد أشرنا إلى وقعة مؤتة في أواخر فصل معجزات النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فليرجع إليها هناك .

والروايات في فضل جعفر كثيرة ، ومنها أن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال : « خلق الناس من أشجار شتّى وخُلقت أنا وجعفر من شجرة واحدة » ، وقال (صلّى الله عليه وآله) لجعفر يوماً : « أشبهت خَلقي وخُلقي » .

ويروي ابن بابويه عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قوله : إن الحق عزّ وجلّ أوحى إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) أني شكرت لجعفر بن أبي طالب أربع خصال وقبلتها منه ؛ فدعاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وسأله عنها ، فقال : يا رسول الله ، لولا أن الله عزّ وجلّ أخبرك بها لما أبديتها ، أولاها أني لم أشرب شراباً قطّ ، لأنّي أعلم أن الشراب يذهب

بالعقل ؛ والثانية أني لم أكذب قطّ ، فالكذب يذهب بالرجولة والمروءة ؛ ولم أزن بحرم أحد قطّ ، لأن من زنى بحرم آخر زني بحرمه ، ولم أعبد صنماً قطّ ، لأنه لا يُتصوّر منه نفع أو ضرر ؛ فربت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على كتفه وقال : إنك لأهل لأن يجعل الله لك جناحين تطير بهما مع الملائكة .

وفي حديث للإمام السّجاد (عليه السلام) أنه لم يمّر يوم أسوأ على رسول الله من يوم أحد . إذ استشهد فيه عمّه حمزة أسد الله وأسد رسوله ، وبعده يوم مؤتة إذ استشهد فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب .

موقعة ذات السلاسل : وخلاصتها أن أهل وادي يابس اجتمعوا اثني عشر ألف فارس ، وتعاهدوا على أن يقتلوا محمداً (صلّى الله عليه وآله) وعليّاً (عليه السلام) ، فنزل جبرئيل على محمّد (صلّى الله عليه وآله) فأخبره بقصّتهم ، وأمره أن يبعث إليهم أبا بكر في أربعة آلاف فارس من المهاجرين والأنصار ؛ فأمر (صلّى الله عليه وآله) أبا بكر بالمسير إليهم ، وأوصاه أن يعرض عليهم الإسلام ، فإن تابعوا وإلاّ واقعهم ، فقتل مقاتليهم ، وسبى ذراريهم .

فمضى أبو بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار ، يسير بهم سيراً رفيقاً حتى انتهوا إلى أهل وادي اليابس ، ونزلوا قريباً منهم ، فخرج إليهم من أهل الوادي مئتا رجل مدجّجين بالسلاح ، وطلبوا أن يتحدث إليهم أبو بكر . فخرج إليهم في نفر من أصحابه ، فقالوا : أما واللات والعزّى ، لولا رحم ماسّة ، وقرابة قريبة لقتلناك وجميع من معك قتلة تكون حديثاً لمن يكون بعدكم ، فارجع أنت ومن معك واربحوا العافية ، فإنّا إنّما نريد صاحبكم بعينه وأخاه عليّ بن أبي طالب ، فرأى أبو بكر الصلاح في عودة الجيش ، فانصرف وأخبر النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بمقالة القوم ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : يا أبا بكر خالفت أمري ولم تفعل ما أمرتك به . وكنت والله عاصياً فيما أمرتك .

ثم إنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) نصب مكانه عمر بن الخطاب ، وأرسله على رأس الجيش ، فجرى له ما جرى لأبي بكر[1] .

ثم دعا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أمير المؤمنين (عليه السلام) وأوصاه بما أوصى به أبا بكر وعمر ، وبشّره بأنّ الله سيفتح عليه ، فخرج عليّ (عليه السلام) ومعه المهاجرون والأنصار ، فسار بهم سيراً غير سير أبي بكر وعمر ، وذلك أنه أعنف بهم في السير ، حتى إذا كانوا قريباً منهم حيث يرونهم أمر أصحابه أن ينزلوا ، فخرج إليه من العدو مئتا رجل شاكين في

---

(١) يروى أن النبي (ص) بعث عمْرَ بن العاص كذلك لكنه رجع خائباً .

السلاح ، وسألوه : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب ، ابن عمّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأخوه ، أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، ولكم ما للمسلمين ، وعليكم ما عليهم من خير وشرّ ، فقالوا : إيّاك أردنا ، وأنت طلبتنا ، قد سمعنا مقالتك ، فاستعدّ للحرب العوان ، واعلم أنّا قاتلوك وقاتلو أصحابك ، والموعود فيما بيننا غداً ضحوة ، فقال لهم عليّ (عليه السلام) : ويلكم تهدّدونني بكثرتكم وجمعكم ، فأنا أستعين بالله وملائكته والمسلمين عليكم ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

ولما جنّ الليل أمر أصحابه أن يحسنوا إلى دوابّهم ، ويقضموا ويسرجوا ، فلما انشقّ عمود الصبح صلّى بالناس بغلس ، ثم غار عليهم بأصحابه ، فلم يعلموا حتى وطئتهم الخيل ، فما أدرك آخر أصحابه حتّى قتل مقاتليهم ، وسبى ذراريهم ، واستباح أموالهم ، وخرّب ديارهم ، وأقبل بالأسارى والأموال معه .

وأنزل الحقّ عزّ وجلّ سورة العاديات في ذلك اليوم ، قال تعالى :

﴿ **والعاديات ضبحاً** ﴾ : يقسم بالعاديات وهي الخيل تعدو بالرجال ، الضبح : ضبحها في أعنّتها ولجمها .

﴿ **فالموريات قدحاً** ﴾ : المخرجات النار من الصخور بسنابكها ، ويقول عليّ بن ابراهيم : إن أرضهم كانت مليئة بالحجارة ، فإذا وقعت عليها حوافر الخيل خرجت منها النار .

﴿ **فالمغيرات صبحاً** ﴾ : القسم بالمغيرات في وقت الصبح .

﴿ **فأثرن به نقعاً * فوسطن به جمعاً** ﴾ : يعني الخيل يثرن النقع بالوادي ، حتى توسطوا القوم .

﴿ **إنّ الإنسان لربّه لكنود * وإنّه على ذلك لشهيد * وإنّه لحب الخير لشديد** ﴾ : والحق أن الإنسان جحود لربّه ، وهو شاهد على هذا الجحود ، وهو حريص على المال والحياة بشدّة .

﴿ **أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور * وحُصّل ما في الصدور * إنّ ربّهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ : ألا يعلم الإنسان إذا بُعث من قبره ، ورأى ما في صدره حاضراً ، أن ربّه في ذلك اليوم عليم بما فعل ؟

ويروى أنه كانت لأمير المؤمنين (عليه السلام) عصابة لا يتعصّب بها حتّى يبعثه الرسول (صلّى الله عليه وآله) في وجه شديد ، فمضى إلى منزل فاطمة (عليها السلام) فالتمس العصابة منها ، فقالت : أين تريد ، وأين بعث بك أبي ؟ قال : إلى وادي الرمل ، فبكت

إشفاقاً عليه . فدخل النبي (صلّى الله عليه وآله) وهي على تلك الحال ، فقال لها : ما لك تبكين ، أتخافين أن يقتل بعلك ؟ كلاّ إن شاء الله . فقال له عليّ (عليه السلام) : لا تنفسْ عليّ بالجنّة يا رسول الله ؟

ثم خرج (عليه السلام) ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) يشيّعه حتى مسجد الأحزاب ؛ ولما رجع من غزوته خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لاستقباله ، والمسلمون قاموا له صفّين ، فلما بصر شمس الولاية (عليه السلام) بشمس النبوّة (صلّى الله عليه وآله) ترجّل عن فرسه وأهوى إلى قدميه يقبّلهما ، فقال له (صلّى الله عليه وآله) : اركب فإنّ الله تعالى ورسوله عنك راضيان فبكى أمير المؤمنين (عليه السلام) فرحاً ، وانصرف إلى منزله .

وتسلّم المسلمون الغنائم ، فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) لبعض من كان معه في الجيش : كيف رأيتم أميركم ؟ قالوا : لم ننكر منه شيئاً إلاّ أنّه لم يؤمّ بنا في صلاة إلاّ قرأ فيها ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ، فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) : أسأله عن ذلك ، فلما جاءه قال له : لِمَ لمْ تقرأ بهم في فرائضك إلاّ بسورة الإخلاص ؟ فقال : يا رسول الله ، أحببتها ، قال له النبي (صلّى الله عليه وآله) : فإنّ الله قد أحبّك كما أحببتها ، ثم قال له : يا عليّ ، لولا أنّي أشفق أن تقول فيك طوائف ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ بملأ منهم إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك .

أقول : يقال عن هذه الغزوة « ذات السلاسل » لأنّه لّما ظفر أمير المؤمنين (عليه السلام) بأعدائه قتل أكثر رجالهم ، وأسر نساءهم وأبناءهم ، ثم ربط سائر رجالهم بالسلاسل والحبال ، ومن هنا سمّيت بذات السلاسل ، وهذا الموقع يبعد عن المدينة خمسة منازل .

فتح مكّة المعظّمة : كان أحد الشروط التي تضمّنها كتاب صلح الحديبية ينصّ على عدم التعرّض لمن دخل في حلف أحد الجانبين ، وكان بنو بكر وكنانة في حلف قريش ، بينما كانت خزاعة من حلفاء ومعاهدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان بين القبيلتين شرّ قديم .

وذات يوم قال رجل من بني بكر شعراً في هجاء النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فسمعه غلام من بني خزاعة فمنعه فلم يمتنع ، فعدا عليه فشجّه في رأسه ووجهه ، فاجتمع بنو بكر على قتال خزاعة وسألوا قريشاً المدد ، فرفدتهم قريش بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً ، وقتل من خزاعة ما يقرب من عشرين رجلاً ، فبلغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما جرى فقال : لا نُصرت إن لم أنصر خزاعة ، ثم أرسل في القبائل أن يوافي المدينة في أول شهر رمضان كل شاك السلاح ، وأمر من في المدينة بالتأهّب ، وبثّ العيون كي لا يتسرّب إلى مكة الخبر .

لكنّ حاطب بن بلتعة كتب إلى قريش كتاباً يحذرهم فيه مما عزم عليه النبي (صلّى الله عليه وآله) قال فيه : من حاطب بن بلتعة إلى أهل مكة : إنّ رسول الله يريدكم ، فخذوا حذركم ، وبعث بالكتاب مع امرأة تدعى سارة ، أخفته في ضفائرها ، واتجهت نحو مكة ، ونزل جبرئيل فأخبر النبي (صلّى الله عليه وآله) بما فعلت ، فأرسل علياً (عليه السلام) في جماعة وأمرهم بإحضار الكتاب منها ، فأدركوها فأنكرت وأقسمت بالله ما معها من كتاب ، فسلّ (عليه السلام) سيفه وقال : أخرجي الكتاب وإلاّ والله لأضربن عنقك ، فلمّا رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها ، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأرسل إلى حاطب فسأله : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : أردت أن أتّخذ عند قريش يداً ، فأهلي بين ظهرانيهم ، فنزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ﴾ الآية الممتحنة/١ .

وفي الثاني من شهر رمضان ، أو في العاشر منه خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عامداً إلى مكّة في عشرة آلاف من المسلمين ، يقول ابن عباس : طلب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في منزل عسفان قدحاً من الماء فشرب والناس ينظرون ، فلم يصم من ساعته تلك حتى مكّة ، يقول جابر : بعد أن شرب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قيل له إن البعض صائمون فقال : أولئك العصاة !

ومن جانب آخر فإن العبّاس عمّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خرج من مكّة مع أهله وعشيرته عامداً المدينة ، فلقي النبي (صلّى الله عليه وآله) في بيوت السقيا أو ذي الحُلَيْفة ، فسرّ الرسول (صلّى الله عليه وآله) لرؤيته وقال : هجرتك آخر الهجرات ، كما أن نبوّتي آخر النبوّات ، ثم أمر بأهله فأرسلوا إلى المدينة ولزم هو الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، ثم تابعوا طريقهم حتى نزلوا بمرّ الظهران .

قال العباس بن عبد المطلب يحدّث نفسه : والله لئن بغتَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قريشاً بهذا الجيش فدخل مكة عنوة إنّه لهلاك كلّ من فيها ، ثم خرج على بغلة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال : أخرج إلى الأراك لعليّ أرى حطّاباً أو صاحب لبن ، أو داخلاً يدخل مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيأتونه فيستأمنونه . قال العباس : فوالله إنّي لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان وبُدَيْل بن ورقاء يتحدّثان ، فتكلم أبو سفيان فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة (يعني أبا سفيان) فقال : أبو الفضل ؟ فقلت : نعم قال : لبيّك فداك أبي وأمي ، ما وراءك ؟ فقلت : هذا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد جاء بما لا قِبل لكم به ، باثني عشر ألفاً من المقاتلة ، قال : فما تأمرني ؟ قلت : تركب عجز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله (صلّى الله عليه

وآله) ، واعلم يا أبا سفيان أن على الطليعة الليلة عمر بن الخطاب ، ولئن رآك لما تركك حيّاً ، ذلك لأن بين أبي سفيان وعمر خصومة مكنونة منذ الجاهلية ، ويقال إن هند زوجة أبي سفيان كانت تلتزم ألواناً من المعاشرة مع عدد من شباب قريش ، وكان عمر واحداً منهم ، ومن هنا كان منشأ الخصومة والحقد المتبادل .

وإجمالاً فقد أردف العباس أبا سفيان خلفه وقصد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلما بلغا خيمة عمر بن الخطاب ، رآه عمر ، فبادر إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال : يا رسول الله ، هذا عدوّ الله لا أمان له ولا إيمان ، فدعني أضرب عنقه ، فقال العبّاس : يا رسول الله إنّي قد أجرته .

قال النبي (صلّى الله عليه وآله) يا أبا سفيان ، آمن تأمن ، قال : فما نصنع باللات والعزّى ؟ فقال له عمر : اسلح[1] عليهما ، قال أبو سفيان : أفّ لك ما أفحشك ، ما يدخلك يا عمر في كلامي وكلام ابن عمّي ؟ فقال عمر : لو كنت خارج هذه الخيمة لما جرؤت على هذا القول .

فأسكتهما رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال للعبّاس : اذهب فقد آمنّاه حتى تغدو به عليّ بالغداة . فبات أبو سفيان في خيمة العبّاس .

ولما أصبح الصباح سمع أبو سفيان أذان بلال ، فقال : من هذا ؟ قال العبّاس : إنّه مؤذّن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ونظر أبو سفيان إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) وهو يتوضّأ ، وأيدي المسلمين تحت شعره ، فليس قطرة تصيب رجلاً منهم إلاّ مسح بها وجهه ، فقال : بالله ما رأيت كاليوم قطّ كسرى ولا قيصر .

وبعد الصلاة غدا به العبّاس إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فنطق من خوفه بالشهادتين ، قال العبّاس : يا رسول الله ، إنّ أبا سفيان رجل يحبّ الفخر ، فلو خصصته بمعروف بين قومه ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

ثم قال : ومن وضع سلاحه وأغلق بابه فهو آمن ، ومن جلس عند الكعبة فهو آمن .

ثم مضى أبو سفيان ، فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) لعمّه : أدركه واحبسه في مضائق الوادي حتّى يمرّ به جنود الله ، فلحقه العبّاس وقال له : صبراً يا أبا حنظلة حتّى تنظر إلى جنود الله .

---

(١) سلح : تغوّط .

وقف أبو سفيان في مضيق الوادي ، فجعلت الجنود تمرّ به فوجاً إثر فوج من أمامه ثم مرّت كتيبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو في قلبها ، وفي ركابه خمسة آلاف رجل من أبطال المهاجرين والأنصار على خيول عربية وإبل حمراء وسيوف مشرفيّة ودروع داوديّة ، فقال للعبّاس : ما أعظم ملك ابن أخيك ! قال العبّاس : ويحك يا أبا سفيان ، إنّها النبوّة ، قال : نعم .

ثم إن أبا سفيان سارع بالخروج إلى مكّة ، وقد سطع الغبار من فوق الجبال وقريش لا تعلم ، وأقبل أبو سفيان من أسفل الوادي يركض ، فاستقبلته قريش ، وقالوا : ما هذا الغبار؟ قال: محمد في خلق ، يا آل غالب البيوت البيوت، من دخل داري فهو آمن، ومن وضع سلاحه وأغلق بابه فهو آمن، ومن جلس عند الكعبة فهو آمن.

قالت قريش : قبّحك الله ! وعرفت هند فأخذت تطردهم ثم قالت : اقتلوا الشيخ الخبيث ، لعنه الله من وافد قوم وطليعة قوم !

ثم انثالت أفواج الكتائب يتلو بعضها بعضاً كالسيل حتى بلغت ذا طوى ، وبلغ الرسول (صلّى الله عليه وآله) ذا طوى ، والجيش حوله كالطوق ، فلما رأى (صلّى الله عليه وآله) كثرة المسلمين ومكّة بين يديه تذكر أيّام الوحدة والهجرة ، فوضع جبينه على سرج ناقته في سجدة شكر ، ذلك أنه لمّا كان مهاجراً إلى المدينة التفت بوجهه نحو مكّة وقال :

« الله يعلم أنّي احبّك ، ولولا أنّ أهلك اخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً ، ولا ابتغيت بك بدلاً ، وإنّي لمغتمّ على مفارقتك » .

ثم نزل في الحجون ، حيث قبر خديجة (عليها السلام) في خيمة سجافها من أديم أحمر نصبت له فاغتسل ، ثم ركب راحلته شاك السلاح ، وقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت ، واستلم الحجر الأسود بمحجنه وهو يكبّر ، وارتفع صوت المسلمين بالتكبير حتى رددت صداه الفيافي والجبال ، ثم نزل عن ناقته وأخذ بعضادتي الباب ثم قال :

« لا إله إلاّ الله ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وغلب الأحزاب وحده » .

ثم أمر بتحطيم الأصنام والأوثان المنصوبة في أطراف البيت ، وكان يشير بعصاه إلى الصنم أو يخزه بطرف قوسه في عينه ويقول :

« جاء الحق وزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

وكانت الأصنام تتساقط بإشارته ، أما الأصنام الكبيرة التي نصبت فوق الكعبة فقد أمر عليّاً (عليه السلام) فوضع قدمه على كتفه ، ورفعه حتى وصل إليها ورمى بها إلى الأرض

واحداً فواحداً ، فتحطّمت عن آخرها ، ثم نزل (عليه السلام) عن الكعبة بأدب ، ولما بلغ الأرض تبسّم ، فسأله عن السبب فقال : لقد ألقيت بها إلى الأرض ولم ألق ضرراً ، فقال له (صلّى الله عليه وآله) : وكيف تلقى ضرراً ومحمد يرفعك وجبرئيل ينزلك ؟

ويروى أنه (صلى الله عليه وآله) أخذ مفتاح البيت ففتحه ، ثم أمر بصور للأنبياء والملائكة نصبها المشركون على الجدران ، فطمست ، وبعد التهليل والحمد قال مخاطباً أهل مكّة :

ماذا تقولون ، وماذا تظنّون ؟ قالوا : نقول خيراً ، ونظنّ خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

فأخذته الرقّة ، وفاضت عيناه ، ولمّا رأى أهل مكّة هذا ارتفع بكاؤهم ، فقال :

« فإني أقول كما قال أخي يوسف ، لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » . ثم قال :

« ألا لبئس جيران النبي كنتم ، لقد كذّبتم ، وطردتم ، وأخرجتم ، وفللتم ، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني » .

ثم عفا عنهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !

ودخل وقت الصلاة ، فأمر بلالاً فصعد على الكعبة وأذّن ، سمع المشركون صوت الأذان ، من كان منهم في المسجد ، ومن كان في أطراف الجبال ، فصدرت عن بعضهم أقوال قبيحة ؛ قال عكرمة بن أبي جهل : والله إن كنت لأكره أن أسمع صوت ابن رباح ينهق على الكعبة ؛ وقال خالد بن أسيد : الحمد لله الذي أكرم أبا عتاب (أبوه) من هذا اليوم أن يرى ابن رباح قائماً على الكعبة ؛ وقال أبو سفيان : أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، والله لو نطقت لظننت أنّ هذه الجُدُر تخبر به محمّداً .

فأخبر جبرئيل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بما قالوا ، فدعاهم ، فواجه كلّاً بما قال ، فأسلم بعضهم . ثم تقاطر رجال قريش فبايعوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومنهم أبو قحافة ، وكان إذ ذاك شيخاً ضريراً ، وأنزل الله تعالى سورة الفتح .

ثم جاء الدور إلى النساء ، فجئن يبايعنه (صلّى الله عليه وآله) ، فجمعهن حوله ، ثم دعا بإناء فصبّ فيه ماء ، ثم غمس يده فيه وقال : من أرادت البيعة فلتغمس يدها في هذا الماء ، فهي البيعة ، فإنني لا أصافح النساء ، ويقال إن أميّة أخت خديجة أخذت له البيعة من النساء ، ونزل في بيعة النساء قوله تعالى :

﴿ يا أيّها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ـ على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهنّ ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ، ولا يعصينك في معروف ـ فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله ، إنّ الله غفور رحيم ﴾ (الممتحنة/١٢) .

فلما قرأ هذه الآية عليهنّ قالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام[1] ، وكانت عند عكرمة بن أبي جهل : يا رسول الله ، ما ذلك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه ؟ فقال :

« لا تلطمن خدّاً ، ولا تخمشنّ وجهاً ، ولا تنتفنّ شعراً ، ولا تشققن جيباً ، ولا تسوّدن ثوباً ، ولا تدعين بويل » .

وبايعهنّ على ذلك .

غزوة حنين : بعد فتح مكة ازداد إقبال الأعراب وقبولهم للدعوة ودخولهم في الإسلام ، غير أن قبائل هوازن وثقيف تمرّدوا وتكبّروا ، ثم راحوا يجمعون الجموع والسلاح ، وأمّروا عليهم مالك بن عوف النصريّ وهو سيد هوازن ، وخرجوا يسوقون معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم حتى نزلوا بأوطاس ، وكانوا أربعة آلاف مقاتل ، ثم أرسل مالك يستصرخ بني سعد ، لكنهم أبوا إمداده قائلين : إن محمّداً رضيعنا ، وقد نشأ بين ظهرانينا ، فلن نحاربه ، وبعد إلحاح من مالك ، ورسل ورسائل استطاع خداع فريق منهم ، فخرجوا معه .

وإجمالاً فقد استطاع مالك بن عوف أن يحشد جيشاً قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وسار بهم في واد عريض يقال له وادي حنين ، وعسكر هناك .

وبلغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اجتماع القوم على حربه فانصرف إلى الإعداد للحرب ، ثم استخلف عتّاب بن أُسَيْد على مكّة ، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس ويعلّمهم ، ثم خرج بألفي رجل من أهل مكة إلى الآلاف العشرة الذين معه ، وصار مجموعهم اثني عشر ألفاً ، ويقال ستة عشر ألفاً ، وأعاره صفوان بن أميّة مئة ذرع وبعض آلات الحرب الأخرى ، وسار بهم حتى اقترب من حنين ، ويروى أن أبا بكر قال وقد أعجبته الكثرة : لن نُغلب اليوم من قلّة ، قال تعالى :

﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ (التوبة/٢٥) .

من جانب آخر فقد قال مالك بن عوف لأصحابه : اكسروا جفون سيوفكم ، واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي الشجر ، فإذا كان في غلس الفجر فاحملوا حملة رجل واحد .

---

(١) البعض يقول : أم حكيم بنت الحارث بن عبد المطلب .

أمّا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فلمّا أسفر الصبح عقد اللواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وخرج الناس على راياتهم ، وسلك الجيش طريقاً ينحدر إلى وادي حنين ، وكان بنو سُليم على مقدّمته بقيادة خالد بن الوليد ، الذي عبر الوادي مراعياً ضيقه وانحداره . مما اضطّر قومه للمسير كتائب متفرّقة ، وهنا انقضّ عليهم رجال هوازن من كلّ ناحية ، فانهزم بنو سليم ، وانهزم مَن وراءهم من كتائب قريش ، وكانوا حديثي عهد بالإسلام ، وتبعهم الآخرون في الهزيمة فلم يبق أحد إلّا انهزم ، وبقي أمير المؤمنين (عليه السلام) يقاتل في نفر قليل ، ومرّ المنهزمون برسول الله (صلّى الله عليه وآله) لا يلوون على شيء .

وكان النبي (صلّى الله عليه وآله) يركب بغلته البيضاء (دُلدُل) فأقبل ينادي : إلى أين أيها الناس ؟ فلم يلو أحد عليه ؛ وكان من بقي مع النبي (صلّى الله عليه وآله) عشرة أنفس ، تسعة من بني هاشم خاصة ، وعاشرهم أيمن بن أمّ أيمن ، وقد قتله مالك ، رحمة الله عليه ، وبقي الهاشميون التسعة ، العبّاس بن عبد المطلب عن يمينه (صلّى الله عليه وآله) آخذاً بلجام بغلته ، والفضل بن العبّاس عن يساره ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب ممسكاً بسرج بغلته ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) بين يديه يضرب بالسيف ، ويدفع عنه الأعداء ، ونوفل بن الحارث ، وربيعة بنْ الحارث ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب حوله ، وقد ولّت الكافّة مدبرين .

ولما رأى النبي (صلّى الله عليه وآله) ، ذلك ، وكز بغلته وحمل على القوم ، وحمي الوطيس وهو (صلّى الله عليه وآله) يقول :

أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب

وهذه هي الوقعة الوحيدة التي قاتل فيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بنفسه .

وعن الفضل بن العبّاس أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قتل وحده في هذا اليوم أربعين رجلاً من القوم ، كان بضربة منه يقدّ واحدهم نصفين ، وكانت ضرباته بكراً ، كما يقول الفضل ، فكانت تكفيه ضربة واحدة يردي بها خصمه ، ولا يحتاج إلى ثانية .

قال : وأقبل رجل من هوازن اسمه أبو جرول ، على جمل أحمر ، بيده راية سوداء ركزها في رأس رمح طويل ، وكان يتقدّم القوم ، فإذا ظفر بأحد من المسلمين فقتله رفع الراية لمن وراءه من المشركين فاتّبعوه ، وهو يرتجز ويقول :

أنا أبو جرولَ لا براحُ حتّى نبيحَ القومَ أو نُباحُ

فصمد له أمير المؤمنين (عليه السلام) فضرب عجز بعيره فصرعه ، ثم ضربه أخرى فقدّه نصفين مجندلاً وهو يقول :

قد علم القوم لدى الصباحِ أنّي لدى الهيجاء ذو نصاحِ

وقد انخذل المشركون بقتل أبي جرول ، وارتفع صوت العبّاس ـ وكان جهوري الصوت ـ ينادي الأصحاب ويقول : « يا معشر الأنصار ، يا أصحاب بيعة الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة » ، فالتأم الناس وانحدروا خلف العدو .

وتناول النبي (صلّى الله عليه وآله) حفنة من تراب نثرها على العدو وقال : « شاهت الوجوه » ، ثم دعا فقال : « اللهم إنّك أذقت أوّل قريش نكالاً ، فأذق آخرها نوالاً » .

ويروى أن خمسة آلاف من الملائكة شهدوا هذه الحرب ، وفرّ مالك بن عوف مع جماعة من هوازن وثقيف إلى الطائف ، كما فرّ آخرون إلى أوطاس ، وفريق ثالث ببطن نخلة ، وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من قتل كافراً فله سلاحه وثيابه .

يقال إن أبا طلحة قتل في هذه الحرب عشرين رجلاً ؛ وكان له سلبهم ، وقد قُتل من المسلمين أربعة شهداء ، ولما وضعت الحرب أوزارها كان بين المنهزمين ألف وخمسمئة بين محارب وقائد ، وكلّ من أدركوه منهزماً قتلوه .

وبعد ثلاثة أيام على هذه الحال أمر رسول الله بالغنائم فجمعت في الجعرانة لتوزيعها ، وكانت أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألف [أربعة آلاف] أوقية من الفضّة ، وما يزيد على أربعين ألف شاة ، إلى جانب ستة آلاف من الأسرى ، وكان بينهم شيماء بنت حليمة ، وأخت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من الرضاعة ، فلما قامت على رأسه قالت : يا محمّد أختك سبي بنت حليمة ، فنزع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) برده فبسطه لها فأجلسها عليه ، ثمّ أكبّ عليها يسائلها ، وخيّرها بين أن تكون معه أو تعود إلى بيتها فاختارت الأخير ، فأعطاها غلاماً أو جارية على قول ، وبعيرين وبضع شياه ، وقد كلّمته في أسارى هوازن فقال : أما نصيبي ونصيب بني عبد المطّلب فهو لك ، وأمّا ما كان للمسلمين فاستشفعي بي عليهم .

فلمّا صلّوا الظهر قامت فتكلّمت ، فوهب لها الناس أجمعون ، إلّا الأقرع بن حابس ، وعُيينة بن حصن ، فإنهما أبيا أن يهبا ، فأقرع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بينهم وبين الأسرى ثم قال : اللهمّ توّه سهميهما ، فأصاب أحدهما خادماً لبني عقيل ، وأصاب الآخر خادماً لبني نمير ، فلمّا رأيا ذلك وهبا ما منعا .

ويروى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أمر منادياً فنادى يوم أوطاس : « ألا لا

توطأ الحبالى حتّى يضعن ، ولا غير الحبالى حتى يُستبرأن بحيضة » .

ثم إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خرج من الجعرانة في ذي القعدة إلى مكة فقضى بها عمرته ، ثم صدر إلى المدينة وخليفته على أهل مكة عتّاب بن أسَيْد ، وقرر له درهماً من بيت المال في اليوم ، فقنع به وأغناه عن حاجة غيره .

وفي السنة الثامنة توفيت زينب بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) زوجة أبي العاص بن الربيع ، ويقال إنهم صنعوا لها تابوتاً ، وهو أول تابوت صنع في الإسلام ، وكان لها ابن وابنة ، الابن هو عليّ ، وقد توفيّ لمّا قارب البلوغ ، والابنة هي أمامة ، وقد صارت زوجة لأمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة فاطمة (عليها السلام) وفقاً لوصيّتها .

وفي هذه السنة ولد إبراهيم ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وسيأتي الحديث عنه ـ إن شاء الله ـ في الفصل الثامن ، ضمن الحديث عن أولاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

وقائع العام التاسع من الهجرة

في مستهلّ العام التاسع من الهجرة عيّن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عمّالاً ينتقلون إلى القبائل المسلمة ليجمعوا زكاة أموالهم ، فامتنع بنو تميم عن أداء الزكاة ، فخرج إليهم خمسون نفراً أغاروا عليهم فجأة فأسروا أحد عشر رجلاً منهم وإحدى عشرة امرأة وثلاثين من ذراريهم ، ورجعوا بهم إلى المدينة ، فأقبل في أثرهم كبار بني تميم أمثال عُطارد بن حاجب بن زُرارة ، والزِّبْرِقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، والأقرع بن حابس ، فصاروا إلى حجرات الرسول (صلّى الله عليه وآله) ونادوا : يا محمّد ، اخرج إلينا ، فقام إليهم (صلّى الله عليه وآله) من قيلولته ، ونزل فيهم قوله تعالى :

﴿ إنّ الذين يُنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ﴾ (الحجرات / ٤ـ٥) .

ثم قالوا : لقد قدمنا مع شاعرنا وخطيبنا نفاخركم ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : ما بالشعر بُعثت ، ولا بالفخار أُمرت ، فهاذا عندكم ؟

وقف عُطارد وخطب خطبة في فضل بني تميم ، ثم تلاه الزبرقان[1] بن بدر فأنشد :

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   نحن الرؤوس وفينا السادة الرُّفُعُ

---

(١) الزبرقان : بكسر الزاي : القمر ، ولقبه الحصين بن بدر لجماله ، أو لصفرة في عمامته .

ونطعم الناس عند القحط كلّهمُ من الشريف إذا لم يؤنس الفزعُ

ولما انتهيا من قولها قام ثابت بن قيس خطيب الأنصار بأمر من سيّد الأبرار (صلّى الله عليه وآله) فخطب خطبة أطول وأبلغ مما قالا : ثم استأذن حسّان في الردّ عليهما ، فأذن له فقال :

إنّ الذوائب من فهرٍ وإخوتهم قد بيّنوا سنّة للناس تُتّبعُ
يرضى بها كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهمُ أو حاولوا النفع من أشياعهم نفعوا
سجيّة تلك منهم غير محدَثةٍ إنّ الخلائق حقّاً شرُّها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفّهمُ عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان في الناس سبّاقون بعدهمُ فكلّ سبْق لأدنى سبقهم تبع
لا يجهلون وإن حاولتَ جهلهمُ في فضل أحلامهم عن ذاك متّسع
إنْ عفّةٌ ذُكرت في الوحي عفّتُهم لا يطمعون ولا يُرديهمُ الطمع

فقال الأقرع بن حابس : تالله إن محمداً أظفره الغيب ، فخطيبه أفضل من خطيبنا ، وشاعره أفضل من شاعرنا ، وقد أيّدا دينه .

ثم إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أعاد إليهم أسراهم ، وأمر لكلّ منهم بعطاء لائق .

غزوة تبوك : وتبوك موضع بين الحِجر[1] والشام ، وهي اسم حصن وماء في تلك النواحي نزل عنده جيش المسلمين ، ويقال لهذه الغزوة : الفاضحة ، لافتضاح كثير من المنافقين فيها ، ويقال لهذا الجيش : جيش العُسرة ، لما لقيه الناس من قحط وشدّة ، وهي آخر غزوة من غزوات الرسول (صلّى الله عليه وآله) .

وسبب هذه الغزوة أن قافلة من التجّار قدمت المدينة من الشام ، فأشاعوا أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في عسكر عظيم ، وأن هرقل قد سار في جنوده وجلب معهم قبائل غسّان وجذام وفهر وعاملة ، وقد قدم عساكره البلقاء ، فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أصحابه بالتهيّؤ ، وحثّهم على الجهاد .

وكان ذلك في وقت عسير على أهل المدينة ، فقد كان الجوّ شديد الحرارة ، وكانت الثمار والمحاصيل قد أدركت وحان قطافها ، وأحبّ الناس المقام في المسكن والمال ، إلى بعد الشقّة

(١) الحِجر : ديار ثمود في ناحية الشام ، قال تعالى : ﴿ كذّب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ .

وكثرة الأعداء ، فتثاقل القوم عن الخروج ، ونزل قوله تعالى :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم ﴾ (التوبة/٣٨) .

ثم إن الناس بدأوا يأتون بصدقاتهم لتجهيز الجيش ، وكان عند أبي عقيل الأنصاريّ صاعان من التمر جمعهما من عمله بالأجر ، فترك صاعاً لعياله ، وقدّم صاعاً للجيش ، فتقبّله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) منه ؛ لكنّ بعض المنافقين سخروا منه لقلّة صدقته ونالوه بلمزهم ، فنزل قوله تعالى :

﴿ الذين يلمزون المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلاّ جهدهم فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ (التوبة/٧٩) .

وتصدّق كثير من النساء بحلاهم فضمّها (صلّى الله عليه وآله) إلى تجهيز الجيش وأمر أن يأخذ كلّ نعلين زيادة فيعدّ كالراكب ، وهكذا جهّز جيشاً قوامه ثلاثون ألف رجل ، منهم ألف راكب ، وجاء جماعة يعدّون اثنين وثمانين رجلاً يلتمسون الإذن في التخلّف لفقرهم وقلّة مالهم ، فقال لهم (صلّى الله عليه وآله) : اذهبوا أغناني الله عنكم ، ونزل قوله تعالى :

﴿ وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم ﴾ (التوبة/٩٠) .

وفريق آخر من المنافقين قعدوا عن الخروج دون أن يقدّموا أعذاراً ، لا بل كانو يخوّفون الناس ويقولون إن الحرّ شديد ، أو يقولون إن محمّداً يظنّ أن حرب الروم هي كغيرها من الحروب ، وإن رجلاً واحداً لن يعود من هذا الجيش قطّ ، وأمثال ذلك من القول ، وفيهم نزل قوله تعالى :

﴿ فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحرّ ، قل نار جهنّم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون ﴾ (التوبة/٨١) .

وإذ كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد أذن لبعض المنافقين بالقعود ، فقد أنزل تعالى قوله : **﴿ عفا الله عنك لمَ أذنت لهم ﴾** الآيات .

وإجمالاً فلما حصل المنافقون على الإذن بالتخلّف ، أضمروا في أنفسهم أنهم ـ في حال طال غياب النبي (صلّى الله عليه وآله) ، أو في حال هزيمته في تبوك ـ سيغيرون على بيته ويخرجون أهله من المدينة ، ولمّا علم النبي (صلّى الله عليه وآله) بما تكنّه ضمائرهم استخلف على المدينة أمير المؤمنين (عليه السلام) كي لا ينال المنافقون مبتغاهم ، وكي يعلم الناس أن

الخلافة بعد النبي (صلّى الله عليه وآله) إنما هي لعليّ (عليه السلام) .

ولما خرج من المدينة قال المنافقون : إن النبي (صلّى الله عليه وآله) لم يستخلفه إلاّ استثقالاً له ، وإلاّ فلمَ لم يخرجه معه ؟ ! فلما سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) بمقالتهم لحق بالنبي (صلّى الله عليه وآله) في الجرف وأبلغه بزعم المنافقين من استثقاله إيّاه ومقته له ، فقال له النبي (صلّى الله عليه وآله) : ارجع يا أخي إلى مكانك ، فإن المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك ، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي ؟

وتوجّه المسلمون إلى تبوك ، ولاقوا في سفرهم هذا من العناء والشدّة ما لم يلقوه من قبل أبداً ، فقد كان لكل عشرة منهم جمل واحد يتناوبون ركوبه ، إلى قلة في الزاد ، حتى أن قوت الرجلين منهم كان حبة تمر ، يلوك نصفها ويدع النصف لرفيقه : « وكان زادهم الشعير المسوّس ، والتمر الزهيد ، والإهالة السَّنِخَة »[1] .

وفضلاً عن شدّة الحرّ وسورته فقد كان الماء قليلاً ، حتى أنهم مع قلّة رواحلهم كانوا ينحرون البعير ويشربون ما يختزنه في جوفه ، ومن هنا جاءت تسمية هذا الجيش بجيش العسرة ، فقد عاينوا ثلاثة ألوان من العسرة الشديدة ، قال تعالى :

﴿ **لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ (التوبة/١١٧) .

وفي هذه الغزوة ظهرت معجزات كثيرة على يدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، منها إخباره بحديث المنافقين ، ومنها تكلّمه مع الجبل ، وإجابة الجبل له بلسان فصيح ، ومنها كلامه (صلّى الله عليه وآله) مع الجنّي الذي ظهر بصورة أفعى كبيرة في رأس الطريق ، وإخباره عن مكان ناقة ضالّة ، وزيادته ماء تبوك ببركته ، إلى غير ذلك .

وإجمالاً ، بلغ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أرض تبوك ، وعلم هرقل بقدومه ، وكان أمبراطوراً على أوروبا وبلاد الشام وبيت المقدس ، وقد اتخذ مقاماً له في حمص ، وكان منذ البداية يميل إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لما عرفه من دلائل نبوّته ؛ وفي رواية أنّه أسلم ودعا قومه إلى التصديق به فأبوا عليه حتى خافهم على ملكه ، فامتنع وأسلم سرّاً .

ولمّا عرف النبي أن غزو قيصر للمدينة كان خبراً كاذباً جمع كبار أصحابه وسألهم ماذا

---

(١) الإهالة السنخة : الشحم الفاسد .

ترون ؟ هل نغزو من هنا ممالك بني الأصفر ، أم نعود إلى المدينة ؟ فرأى بعضهم أن الصلاح في العودة فرجع بالجيش إلى المدينة .

أصحاب العقبة ومسجد ضرار

وفي طريق العودة جرت قصة أصحاب العقبة ، وهم جماعة من المنافقين التمسوا على أن ينفّروا ناقة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عند عقبة في الطريق ، فإذا نفرت طرحته فقتل ، ولمّا بيّتوا أمرهم أتاه جبرئيل فأخبره خبرهم ، فركب (صلّى الله عليه وآله) الناقة وأمر عماراً أن يمسك بزمام الناقة كما أمر حذيفة أن يسوقها ، ولما بلغوا العقبة أمر أن لا يتقدّمه أحد إليها ، ثم رقي العقبة فرأى فرساناً متلثّمين ، فصرخ بهم وأسرع حذيفة فاستقبل وجوه رواحلهم ضرباً بمحجن كان معه ، فخافوا وظنّوا أنّ مكرهم قد انكشف ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، فقال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : يا حذيفة ، هل عرفت الرهط ؟ قال : لا ، فوجوههم كانت متلثّمة ، قال : إنهم فلان وفلان حتى عدّهم ، ثم قال : اكتم هذا الحديث ، ومن هنا كان حذيفة يمتاز عن الصحابة بأنّه يعرف المنافقين ، ويقال بشأنه : صاحب السرّ الذي لا يعلمه غيره ، وكتب بعضهم أن قصّة منافقي العقبة جرت عند عودته (صلّى الله عليه وآله) من حجّة الوداع .

وأثناء عودته (صلّى الله عليه وآله) من تبوك أيضاً جرت قصة مسجد ضرار الذي بناه المنافقون إلى جنب مسجد قباء ، تفريقاً بين المؤمنين ، وكانوا يتوقّعون أن يجيئهم أبو عامر الفاسق إلى هذا المسجد ، فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) به أن يُهدم ويحرق ، فهدم وأحرق ، واتُّخذ كناسة تطرح فيه الجيف والأقذار ، ونزل في شأنه قول الله تعالى : ﴿ والذين اتّخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ﴾ (التوبة / ١٠٧) .

ولما ورد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المدينة كان قد بقي في شهر رمضان أيّام ، فأتى جري عادته إلى المسجد ، فصلّى ركعتين ، ثم انصرف إلى بيته .

وبعد عودته (صلّى الله عليه وآله) من تبوك أيضاً في العشر الأواخر من شوال وقع عبد الله بن أبيّ ، كبير المنافقين مريضاً ، ومات في ذي القعدة بعد أن بقي طريح الفراش عشرين يوماً ، واعتناء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) به بسبب رعاية ابنه ، وبسبب حكمة لا يعلمها الآخرون ، واعتراض عمر عليه ، مما تمّ تفصيله في موضعه .

وفي السنة التاسعة أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أبا بكر بقراءة أوائل سورة براءة على أهل مكة ، ولما انصرف أبو بكر من المدينة وبلغ ذا الحليفة فأحرم منها ، نزل جبرئيل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال : إنّ الأعلى يقرئك السلام ويقول لك : يا محمد ، لا

يؤدّيها إلاّ أنت أو رجل منك ، وبرواية أخرى : لا يؤدّيها إلا عليّ (عليه السلام) فأمر علياً (عليه السلام) بأن يلحق بأبي بكر ويأخذ الآيات منه ، ويقرأها على الناس في موسم الحج ، فخرج (عليه السلام) فأدرك أبا بكر في الروحاء وأخذها منه وقرأها على الناس .

وفي أحاديث معتبرة عن الإمام الصادق (عليه السلام) يروى أن أمير المؤمنين (عليه السلام) أخذ الآيات العشر الأوائل من سورة براءة ، وقرأها على الناس يوم عرفة في عرفات ، وليلة العيد في المشعر الحرام ، ويوم العيد عند الجمار ، وفي ختام أيام التشريق في منى ، وأنه جهر بها على المشركين ، شاهراً سيفه ينادي في الناس :

« لا يطوفنّ بالبيت عريان ، ولا يحجّن البيت مشرك ، ومن كان بينه وبين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عهد فعهده إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر .

ويروى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعث أبا بكر بسورة براءة في الأول من ذي الحجّة ، وأن أمير المؤمنين (عليه السلام) أدرك أبا بكر في الروحاء في اليوم الثالث ، وأخذ الآيات منه وذهب بها إلى مكّة ، ورجع أبو بكر .

هذا وإن الروايات في عزل أبي بكر عن أداء براءة ، وإرسال أمير المؤمنين مكانه وردت في كتب السنّة والشيعة .

وفي السنة التاسعة أيضاً توفّي النجاشيّ ملك الحبشة ، ويوم وفاته قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : اليوم توفّي رجل صالح ، قوموا بنا نصلّ ، عليه ، ويقال إن جثمان النجاشيّ كان ظاهراً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) أما أصحابه فقد صلّوا عليه ومعه .

وقائع العام العاشر من الهجرة

قصة المباهلة ونصارى نجران : قدم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وفد نجران فيهم بضعة عشر رجلاً من أشرافهم ، وثلاثة نفر يتولّون أمورهم : العاقب[1] ، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم ، واسمه عبد المسيح ؛ والسيّد ، وهو ثمالهم وصاحب رحلهم ، واسمه الأيهم ، وثالثهم أبو حارثة[2] بن علقمة الأسقف ، وهو حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وله فيهم شرف ومنزلة ، وكانت ملوك الروم قد بنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم من علمه واجتهاده في دينهم .

---

(١) وكان منهم أيضاً أسهم بن النعمان ، ويقال إنه كان أسقف نجران ، ويماثل العاقب علوّ منزلة .

(٢) أبو حارثة واسمه الحصين بن علقمة ، ويرجع نسبه إلى البكر بن وائل ؛ وكان عمره مئة وعشرين سنة ، وكان يؤمن برسول الله (ص) خفية .

فلما توجّهوا إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) جلس أبو حارثة على بغلة ، وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة ، إذ عثرت بغلة أبي حارثة ، فقال كرز : تعس الأبعد ، يعني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست ، قال له : لم يا أخ ؟ فقال : والله إنّه للنبي الذي كنّا ننتظر ، فقال كرز : فما يمنعك أن تتبعه ؟ فقال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرّفونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلّا خلافه ، لو فعلت لنزعوا منّا كلّ ما ترى ؛ فأضمر عليها منه أخوه كرز ، فلمّا قدم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أسلم .

وقدموا على رسول لله (صلّى الله عليه وآله) وقت العصر ، وفي لباسهم الديباج ولباس الحيرة ، على هيئة لم يقدم بها أحد من العرب ، ثم أتوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فسلّموا عليه ، فلم يردّ ولم يكلّمهم ، فانطلقوا يبغون عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفةً لهم ، فقالوا : إنّ نبيكم كتب إلينا كتاباً فأقبلنا مجيبين له ، فأتيناه فسلّمنا عليه فلم يردّ سلامنا ولم يكلّمنا ، فما الرأي ؟ فقالا لعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) : ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم ؟ قال : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ، ثم يعودوا إليه ، ففعلوا ذلك ، فردّ سلامهم ثمّ قال : والذي بعثني بالحقّ ، لقد أتوني في المرّة الأولى وإنّ إبليس لمعهم .

ثم ساءلوه ودارسوه يومهم ، وقال الأسقف : ما تقول في السيّد المسيح يا محمد ؟ قال : هو عبد الله ورسوله ، قالوا : فهل رأيت قطّ ابناً دون أب ؟ فنزل في ذلك :

﴿ إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ (آل عمران/٥٩) .

وطالت المناظرة فيما بينهم ، ولجّوا في الخصومة ، فنزل قوله تعالى :

﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم[١] ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (آل عمران/٦١) .

ولما نزلت هذه الآية قالوا للنبي (صلّى الله عليه وآله) : نباهلك غداً ، وانصرفوا .

---

(١) الزمخشري والفخر الرازي والبيضاوي وغيرهم كثير من علماء السنة أعطوا الدليل من خلال آية المباهلة هذه على أنّ علياً (ع) وفاطمة وبنيهما أفضل ـ بعد النبي (ص) ـ ممّن على وجه الأرض جميعاً ، وأن الحسنين (ع) ابنا النبي (ص) بحكم القول : « ابناءنا » ، وأن عليّاً (ع) أشرف من سائر الأنبياء ومن الصحابة كافة بحكم القول : « أنفسنا » .

قال أبو حارثة لأصحابه : انظروا ، فإن كان محمد غدا بولده وأهل بيته فاحذروا مباهلته ، وإن غدا بأصحابه وأتباعه فباهلوه .

وفي الصباح قدم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بيت أمير المؤمنين (عليه السلام) ، آخذاً بيد الحسن والحسين ، تتبعه فاطمة (عليها السلام) ، وبين يديه عليّ (عليه السلام) ، ثم خرجوا من المدينة للمباهلة ، فلما رآهم النصارى قال أبو حارثة : من هؤلاء معه ؟ قيل : هذا ابن عمّه زوج ابنته ، وهذان ابنا ابنته ، وهذه ابنته أعزّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه .

وغدا السيّد والعاقب بابنين لهما ، وتقدّم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فجثا على ركبتيه ، فقال أبو حارثة : جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة ، ثم انكفأ راجعاً ، فقال له السيّد : إلى أين تذهب ؟ قال : إنّي لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة ، وأنا أخاف أن يكون صادقاً فلا يحول والله علينا الحول وفي الدنيا نصرانيّ واحد .

وفي رواية أخرى : أنّه قال : إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً عن موضعه لأزاله ، فلا تباهلوه فتهلكوا ولا يبقى نصراني على وجه الأرض .

ثم إن أبا الحارثة قدم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال : يا أبا القاسم ، إنّا لا نباهلك ولكن نصالحك ، فصالحهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على ألفي حلّة[1] في السنة ، قيمة كلّ حلّة أربعون درهماً ، وعليهم في كلّ حرب ثلاثون درعاً وثلاثون سناناً وثلاثون فرساً يعطونها عارية ، وكتب لهم بذلك كتاب مصالحة ، ثم انصرفوا .

وروي أنّه قال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : والذي نفسي بيده ، إنّ العذاب قد تدلّى على نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولأضرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران ، ولو لاعنوا واهله حتى الطير على رؤوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا » .

وبعد مدّة قصيرة قدم السيّد والعاقب إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأسلما .

وينقل صاحب الكشّاف وغيره من علماء السنة في صحاحهم عن عائشة أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خرج يوم المباهلة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم عليّ ، ثم قال : ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهّركم تطهيراً** ﴾ .

---

(١) ورد في بعض الروايات أنه (ص) صالحهم على ألفي حلة نفيسة سنوياً ، والف مثقال من الذهب يؤدى نصفها في المحرّم والنصف الآخر في رجب .

ويقول الزمخشري أيضاً :

« فإن قلت : ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبيّن الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختصّ به وبمن يكاذبه ، فما معنى ضمّ الأبناء والنساء ؟

قلت : ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانة بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزّته ، وأفلاذ كبده ، وأحبّ الناس إليه لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له ؛ وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبّته وعزّته هلاك الاستيصال إن تمت المباهلة ؛ وخصّ الأبناء والنساء لأنّهم أعزّ الأهل والصقهم بالقلوب ، وربّما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمّ كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب ، وقدّمهم في الذكر على الأنفس ليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس ، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء « عليهم السلام » انتهى .

حجـة الوداع

وفي السنة العاشرة للهجرة كانت حجّة الوداع .

يروي الشيخ الكليني أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بقي في المدينة بعد الهجرة عشر سنين دون أن يحجّ ، حتّى نزل في السنة العاشرة قوله تعالى :

﴿ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر ، يأتين من كلّ فجّ عميق * ليشهدوا منافع لهم ﴾ (الحج / ٢٧ ٢٨) .

فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المؤذنين ان يؤذّنوا بأعلى أصواتهم بأنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يحجّ في عامه هذا ، وعلم بخروجه للحج من حضر المدينة وأهل العوالي والأعراب ، وكتب إلى من بلغه كتابه ممّن دخل في الإسلام : إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يريد الحج ، يؤذنهم بذلك ليحجّ من أطاق الحج ، فاقبل الناس واجتمعوا لحج رسول الله (ص) ، وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون به ويتّبعونه ، أو يصنع شيئاً فيصنعونه .

فخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أربع بقين من ذي القعدة ، فلمّا انتهى إلى ذي الحليفة زالت الشمس ، فأمر الناس بإزالة شعر الإبط والعانة والغسل ، والتجرّد في إزار ورداء ، ثم اغتسل غسل الإحرام ودخل مسجد الشجرة فصلّى فيه الظهر ، ثمّ عزم بالحجّ مفرداً كي لا تدخل فيه العمرة ، ذلك انّ حجّ التمتّع لم يكن قد نزل بعد ، ثمّ احرم وخرج من المسجد ، حتى إذا انتهى إلى البيداء عند الميل الأوّل اصطفّ له الناس على جانبي الطريق ، فلبّى بالحج مفرداً وقال :

« لبّيك اللهمّ لبّيك ، لا شريك لك لبّيك ، إنّ الحمد والنعمة لك ، والملك لك ، لا شريك لك » .

وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يكثر في تلبيته من « ذي المعارج » ، وكان يلبّي كلّما لقي راكباً ، او علا أكمة ، او هبط وادياً ، ومن آخر الليل وفي أدبار الصلوات ؛ ونحر الهدي[1] بيده ستّاً وستّين ، أو أربعاً وستين ، وبرواية أخرى : مئة بعير ، حتى انتهى إلى مكة في سلخ أربع من ذي الحجّة ، فلما انتهى إلى باب المسجد الحرام دخل من باب شيبة ، وعند الباب حمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على أبيه إبراهيم (عليه السلام) ، ثم أتى الحجر (الأسود) فاستلمه (مسحه بيده وقبّله) ثم طاف بالبيت سبعاً ، وصلّى ركعتي الطّواف خلف مقام إبراهيم (عليه السلام) ، ودخل زمزم فشرب منها ثم قال :

« اللهمّ إنّي أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاءً من كلّ داء وسقم » .

فجعل يقول ذلك وهو مستقبل الكعبة ، ثم استلم الحجر ، وتوجّه نحو الصفا وهو يتلو: ﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حجّ البيت واعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ (البقرة/١٥٨).

ثم أتى الصفا فصعد عليه ، واستقبل الركن اليمانيّ فحمد الله وأثنى عليه ، ودعا مقدار ما يقرأ سورة البقرة مترسّلاً (أي : متمهّلاً) ، ثمّ انحدر إلى المروة فصعد عليه ، وتوقّف بمقدار ما توقّف على الصفا ، ثم نزل من المروة وتوجّه إلى الصفا ، ودعا ، ثم عاد إلى المروة وهكذا حتى أتمّ سبعة أشواط .

ولما فرغ من سعيه وهو على المروة أقبل على الناس بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هذا جبرئيل ـ وأومأ بيده إلى خلفه ـ يأمرني أن آمر من لم يسق هدياً أن يُحلّ (وبذلك ينقلب حجّه عمرة) ، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت (أي : لو علمت أن هذا سيكون لما أحضرت الهدي معي) لصنعت مثل ما أمرتكم ، ولكنيّ سقت الهدي ، ولا ينبغي لسائق الهدي أن يُحلّ حتى يبلغ الهدي محلّه » .

فقال رجل من أصحابه : وكيف نخرج حجّاجاً ورؤوسنا وشعورنا تقطر (من غسل الجنابة)؟ فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « أما إنّك لن تؤمن بهذا (أي : حج التمتع) أبداً » .

فقال له سراقة بن مالك بن جُعشُم الكنانيّ : يا رسول الله ، عَلِمنا ديننا كأننا خلقنا

---

(١) بعير وشاة الأضحية .

اليوم ، فهذا الذي أمرتنا به ، ألعامنا هذا أم لما يُستقبل ؟ فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « بل هو للأبد إلى يوم القيامة » ، ثمّ شبك أصابعه وقال : « دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » .

وقدم عليّ (عليه السلام) من اليمن على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو بمكّة ، فدخل على فاطمة (عليها السلام) وهي قد أحلّت ، فوجد ريحاً طيّباً ، ووجد عليها ثياباً مصبوغة ، فقال ما هذا يا فاطمة ؟ (ولماذا تحلّين قبل وقت الحِلّ؟) فقالت : أمرنا بهذا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فخرج علي (عليه السلام) إلى رسول الله مستفتياً فقال : يا رسول الله ، إنّي رأيت فاطمة قد أحلّت وعليها ثياب مصبوغة ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « أنا أمرت الناس بذلك ، فأنت يا عليّ بمَ أهللت (بماذا أحرمت) ؟ قال : يا رسول الله ، إهلال كإهلال النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « قَرّ على إحرامك مثلي وأنت شريكي في هديي » .

قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ونزل رسول الله بمكّة بالبطحاء هو وأصحابه ، ولم ينزل الدور ، فلمّا كان يوم التروية (اليوم الثامن) عند زوال الشمس أمر الناس أن يغتسلوا ويهلّوا (يحرموا) بالحج ، وهو قول الله عزّ وجلّ الذي أنزله على نبيّه (صلّى الله عليه وآله) : ﴿ فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ . (المراد بالاتّباع في حجّ التمتّع) .

وخرج النبيّ (صلّى الله عليه وآله) وأصحابه مهلّين بالحج حتّى أتوا منى ، فصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر ، ثم غدا (مع فجر اليوم التاسع) والناس معه ، (متوجّهين إلى عرفات) .

ومن البدع أنّ قريشاً كانت تفيض من المزدلفة (أي : المشعر الحرام) ولا تتجاوزه ، وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، وعن الحرم لا نبتعد ، وسائر الناس يذهبون إلى عرفات ، ولمّا كان الناس يفيضون من عرفات إلى المشعر الحرام ، فكانوا هم يتوجهون مع الناس من المشعر الحرام إلى منى ، وكانت قريش ترجو أن تكون إفاضته (صلّى الله عليه وآله) من حيث كانوا يفيضون ، فنزل قوله تعالى :

﴿ ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ﴾ (البقرة/ ١٩٩) .

ويقول (صلّى الله عليه وآله) : إن المراد بالناس في هذه الآية : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (عليهم السلام) ومن كان بعدهم من الأنبياء ، فهم جميعاً أفاضوا من عرفات .

فلما رأت قريش أن قبّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد مضت (من المشعر الحرام إلى عرفات) كأنّه دخل في أنفسهم شيء للذي كانوا يرجون من الإفاضة من مكانهم ، حتى

انتهى (صلّى الله عليه وآله) إلى نمرة ، بحيال شجر الأراك ، فضربت قبّته ، وضرب الناس أخبيتهم عندها ، فلمّا زالت الشمس خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومعه قريش (وسائر الناس) وقد اغتسل وقطع التلبية حتى وقف بالمسجد (موضع يقال له مسجده) ، فوعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، ثم صلّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين ، ثم مضى إلى الموقف فوقف به ، فجعل الناس يبتدرون أخفاف ناقته ، يقفون إلى جانبها ، فنحّاها ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « أيّها الناس ، ليس موضع أخفاف ناقتي بالموقف ، ولكن هذا كلّه » ، وأومأ بيده إلى الموقف ، فتفرّق الناس ؛ وفعل مثل ذلك بالمزدلفة ، فوقف الناس حتّى وقع القرص ، قرص الشمس ، ثم أفاض وأمر الناس بالدّعة .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) : إن المشركين كانوا يفيضون من قبل أن تغيب الشمس ، فخالفهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأفاض بعد غروب الشمس وقال : « أيها الناس ، إنّ الحجّ ليس بوجيف الخيل ، ولا إيضاع[1] الإبل ، ولكن اتّقوا الله وسيروا سيراً جميلاً ، ولا توطئوا ضعيفاً ، ولا توطئوا مسلماً » ، وكان يكفّ ناقته حتى يصيب رأسها مقدّم الرحل ، ويقول : « أيها الناس ، عليكم بالدعة » .

ولما انتهى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى المزدلفة صلّى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين ، ثمّ أقام حتى صلّى الفجر ، وعجّل بإرسال ضعفاء بني هاشم إلى منى في الليل ، وفي رواية أخرى أنه أرسل النساء ليلاً ، بعث أسامة بن زيد معهنّ ، وأمرهنّ أن لا يرمين جمرة العقبة حتى تطلع الشمس ، فلما أضاء له النهار أفاض من المزدلفة حتّى انتهى إلى منى ، فرمى جمرة العقبة (بسبع حصيات) .

وكان الهدي الذي جاء به رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أربعة وستين أو ستة وستين ، وجاء عليّ (عليه السلام) بأربعة وثلاثين أو ستة وثلاثين ، فيكون مجموع ما جاءا به مئة بعير ، وبرواية أخرى أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يجيء معه بشيء ، وأنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ساق مئة بدنة كاملة ، فأشرك عليّاً (عليه السلام) معه ، فنحر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ستّاً وستين ، ونحر عليّ (عليه السلام) أربعاً وثلاثين بدنة ، وأمر رسول الله أن يؤخذ من كل بدنة منها جذوة من لحم ثم تطرح في برمة (قِدر من الحجر) ثم تطبخ ، فأكل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعليّ (عليه السلام) وحَسَوَا من مرقها ، ولم يعطيا الجزارين جلودها ، ولا جلالها ولا قلائدها ، وتصدّق به ، ثم حلق وزار البيت (وطاف) ورجع إلى منى وأقام بها ، حتّى كان اليوم الثالث من أيام التشريق (الثالث عشر من

(١) الوجيف : السير السريع ، وأوضع البعير : جعله يسرع في سيره .

ذي الحجة) ثم رمى الجمار (ثلاث جمرات) ونفر عائداً إلى الأبطح في مكة .

غدير خمّ ونصب أمير المؤمنين (ع)

يروي الشيخ المفيد والطبرسي أنه لمّا قضى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) نسكه قفل إلى المدينة ومعه عليّ (عليه السلام) والمسلمون ، حتّى انتهى إلى الموضع المعروف بغدير خمّ ، وليس بموضع إذ ذاك يصلح للنزول ، لعدم الماء فيه والمرعى ، فنزل في الموضع ونزل المسلمون معه ، وكان سبب نزوله في هذا المكان نزول القرآن عليه بنصبه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) خليفة في الأمّة بعده .

وقد كان تقدّم الوحي إليه في ذلك من غير توقيت له ، فأخّره لحضور وقت يأمن فيه الإختلاف منهم عليه ، فيرتدّ بعضهم عن الدين ، وعلم الله عزّ وجلّ أنّه إن تجاوز غدير خمّ انفصل عنه كثير من الناس إلى بلادهم وأماكنهم وبواديهم ، فأراد الله أن يجمعهم لسماع النصّ على أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وتأكيد الحجّة عليه فيه ، فلا يبقى لأحد المسلمين عذر ، فأنزل قوله تعالى :

﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك ﴾ .

يعني في استخلاف عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) والنصّ بالإمامة عليه ، ثم قال : ﴿ وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ .

فأكّد الفرض عليه بذلك ، وخوّفه من تأخير الأمر فيه ، وضمن له العصمة ومنعه الناس منه ، لذلك نزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في هذا الموضع الذي لا يصلح للنزول فيه .

ورجع المسلمون من سبق منهم ، ونزلوا حوله ، وكان يوماً قائظاً شديد الحرّ ، فأمر بدوحات هناك فقُمّ ما تحتها ، وأمر بجمع الرحال في ذلك المكان ، ووضع بعضها فوق بعض ، ثم أمر مناديه فنادى في الناس : « الصلاة جامعة » فاجتمعوا من رحالهم إليه ، وإنّ أكثرهم ليلفّ رداءه على قدميه من شدّة الحرّ ، فلمّا اجتمعوا صعد على تلك الرحال حتى صار في ذروتها ، ودعا أمير المؤمنين (عليه السلام) فرقي معه حتّى قام عن يمينه ، ثم خطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ فأبلغ في الموعظة ، ونعى إلى الأمّة نفسه ، وقال :

« قد دُعيت ويوشك أن أجيب ، وقد حان منّي خفوق[1] من بين أظهركم ، وإنّي مخلّف

---

(١) خفق النجم : غاب .

فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » .

ثمّ نادى بأعلى صوته : « ألست أولى بكم منكم بأنفسكم » ؟ قالوا : اللهم بلى ، فقال لهم وقد أخذ بضبعي[1] أمير المؤمنين (عليه السلام) فرفعهما حتى بان بياض إبطيهما :

« فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه ، اللهمّ والِ مَن والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » .

ثم نزل (صلّى الله عليه وآله) وكان وقت الظهيرة ، فصلّى ركعتين ، ثم زالت الشمس ، فأذّن مؤذّنه لصلاة الظهر ، فصلّى بهم الظهر وجلس في خيمته ، وأمر عليّاً (عليه السلام) أن يجلس في خيمة له بإزائه ، ثم أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّئوه بالمقام ، ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين ، ففعل الناس كلّهم ذلك ، ثمّ أمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين معه أن يدخلن عليه ويسلّمن عليه بإمرة المؤمنين ، ففعلن ، وكان فيمن أطنب في تهنئته بالمقام عمر بن الخطّاب ، وأظهر له من المسرّة به وقال في ما قال : بخٍ بخٍ لك يا عليّ ، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة .

وجاء حسّان بن ثابت إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال : يا رسول الله ، أتأذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله ؟ فقال له : قل يا حسّان على اسم الله ، فوقف على نشز[2] من الأرض ، وتطاول المسلمون لسماع كلامه ، فأنشأ يقول :

يناديهمُ يوم الغدير نبيّهم ... بخمٍّ ، وأسمِع بالنبيّ مناديا
وقال : فمن مولاكمُ ووليّكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاديا
إلهك مولانا وأنت وليّنا ... ولن تجدنْ منّا لك اليوم عاصيا
فقال له : قم يا عليّ فإنّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فخصّ بها دون البريّة كلّها ... عليّاً وسمّاه الوزير المؤاخيا
فمن كنت مولاه فهذا وليّه ... فكونوا له أتباع صدقٍ مواليا
هناك دعا : اللهمّ والِ وليّه ... وكن للذي عادى عليّاً معاديا

وهذه الأشعار متواترة عن الخاصّة والعامّة .

ويروى أنه لمّا أنشد حسّان هذا الشعر قال له رسول الله : « لا تزال يا حسّان مؤيّداً

---

(١) الضبع : العضد .

(٢) النشز : المرتفع من الأرض .

بروح القدس ما نصرتنا بلسانك » ، وإنّما اشترط رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الدعاء له لعلمه بعاقبة أمره في الخلاف ، ولو علم سلامته في مستقبل الأحوال لدعا له على الإطلاق .

وللكميت الشاعر أيضاً قصيدة في قصّة الغدير هذه أبيات منها :

ويومَ الدوح دوح غدير خمٍّ أبان له الولاية لو أُطيعا
ولكنّ الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً منيعا
ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقّاً أُضيعا

أقول أنا الأحقر : كتبت كتاباً في حديث الغدير وسمته بـ(فيض القدير فيما يتعلّق بحديث الغدير) لا يتّسع له المقام ، وإلاّ لكنت أوردت ملخّصاً له هنا .

ونظراً لأنه في أوائل السنة الحادية عشرة للهجرة ، وبعد حجّة الوداع ، كانت وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، فها نحن نشرع في الحديث عن وفاته (صلّى الله عليه وآله) .



الفصل السابع

في وقوع المصيبة العظمى بوفاة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)

اعلم أن أكثر علماء الفريقين يرون أنّ ارتحال سيد الأنبياء (صلّى الله عليه وآله) إلى عالم البقاء كان يوم اثنين ، ويرى أكثر علماء الشيعة أن ذلك اليوم كان اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر ، في حين يقول أكثر علماء السنّة إنه اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، ويروى في (كشف الغمّة) عن الإمام الباقر (عليه السلام) أن رحيله (صلّى الله عليه وآله) إلى عالم البقاء كان في السنة العاشرة للهجرة بعد ثلاث وستين سنة انقضت من عمره الشريف ، منها أربعون سنة في مكة قبل نزول الوحي عليه ، وثلاث عشرة سنة أخرى في مكة أيضاً بعد نزول الوحي ، ولمّا هاجر إلى المدينة كان عمره الشريف ثلاثاً وخمسين سنة ، وأقام بعدها في المدينة عشر سنين حتّى قبض في شهر ربيع الأول يوم الاثنين لليلتين خلتا منه .

والمؤلّف يقول : إن وفاته (صلّى الله عليه وآله) وقعت في الثاني من شهر ربيع الأول مما يتّفق مع قول بعض أهل السنّة ، وليس من علماء الشيعة من يقول بذلك ، ويحتمل أن تكون هذه الفقرة من الرواية محمولة على التقيّة . واعلم أن روايات كثيرة[1] وردت بشأن كيفية وفاة

---

(١) يروي ابن بابويه بشأن وفاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن ابن عباس ما خلاصته : لمّا مرض رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعنده أصحابه قام إليه عمار بن ياسر فقال له : فداك أبي وأمّي يا رسول الله ، فمن يصلّي عليك منّا إذا كان ذلك منك ؟ قال : مه رحمك الله ، . . . (ثم بيّن لعليّ (عليه السلام) كيفيّة غسله وتكفينه والصلاة عليه ، والتسليم عليه من أهل بيته وسائر المسلمين ، ثم دفنه) .

ثم قال : يا بلال هلّم عليّ بالناس ، فاجتمع الناس ، فخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) متعصّباً بعمامته ، متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

معاشر أصحابي ، أيّ نبيّ كنت لكم ؟ ألم أجاهد بين أظهركم ؟ ألم تكسر رباعيتي ؟ ألم يعفّر جبيني ؟ ألم تسل الدماء على حرّ وجهي حتى كنفت لحيتي ؟ ألم أكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي ؟ ألم أربط حجر =

. . . .

= المجاعة على بطني » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، لقد كنت لله صابراً ، وعن منكر بلاء الله ناهياً ، فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء .

قال : « وأنتم فجزاكم الله ، ثم قال : إنّ ربي عزّ وجلّ حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم ، فناشدتكم بالله أيّ رجل منكم كانت له قِبل محمد مظلمة إلاّ قام فليقتصّ منه ، فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إليّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء » ، فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له : سوادة بن قيس ، فقال له : فداك أبي وأمّي يا رسول الله ، إنّك لمّا أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء ، وبيدك القضيب الممشوق ، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني ، فلا أدري عمداً أو خطأ ، فقال : « معاذ الله أن أكون تعمّدت » ، ثم قال : « يا بلال ، قم إلى منزل فاطمة فائتني بالقضيب الممشوق » ، فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة : معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة ؟ فهذا محمد يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة ! وطرق بلال الباب على فاطمة (عليها السلام) وهو يقول : يا فاطمة قومي ، فوالدك يريد القضيب الممشوق ، فأقبلت فاطمة (عليها السلام) وهي تقول : يا بلال وما يصنع والدي بالقضيب ، وليس هذا يوم القضيب ؟ فقال بلال : يا فاطمة ، أما علمت أنّ والدك قد صعد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا ؟ فصاحت فاطمة (عليها السلام) وقالت :

واغمّاه لغمّك يا أبتاه ، من للفقراء والمساكين وأبناء السبيل يا حبيب الله ، وحبيب القلوب ؟ ثم ناولت بلالاً القضيب ، فخرج حتى ناوله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « أين الشيخ ؟ » فقال الشيخ : ها أنذا يا رسول الله بأبي أنت وأمّي ، فقال : « تعال فاقتصّ منّي حتّى ترضى » ، فقال الشيخ : فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله ، فكشف (صلّى الله عليه وآله) عن بطنه ، فقال الشيخ : بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟ فأذن له فقبّله ، فقال : أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « يا سوادة بن قيس ، أتعفو أم تقتصّ ؟ » فقال : بل أعفو يا رسول الله ! فقال : « اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيّك محمد » .

ثم قام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فدخل بيت أمّ سلمة وهو يقول: «ربّ سلّم أمّة محمد من النار، ويسّر عليهم الحساب» فقالت أمّ سلمة: يا رسول الله، مالي أراك مغموماً متغيّر اللون؟ فقال : «نعيت إليّ نفسي هذه الساعة ، فسلام عليك في الدنيا ، فلا تسمعين بعد هذا اليوم صوت محمّد أبداً » ، فقالت أمّ سلمة : واحزناه حزناً لا تدركه الندامة عليك يا محمداه . ثم قال (صلّى الله عليه وآله) : « ادع لي حبيبة قلبي وقرّة عيني فاطمة » ، فجاءت فاطمة وهي تقول : نفسي لنفسك الفداء ، ووجهي لوجهك الوقاء يا أبتاه ، ألا تكلّمني كلمة ؟ فإنّي أنظر إليك وأراك مفارق الدنيا ، وأرى عساكر الموت تغشاك شديداً فقال لها :

« يا بنيّة إنّي مفارقك ، فسلام عليك منّي » (ولما سمعت فاطمة (عليها السلام) هذا الخبر ظهرت عليها أمارات الفزع لفراق هذا العظيم ، وبدّت عنها آه الحسرة ، وراحت تسأله أسئلة عجيبة ، ثمّ أغمي عليه) .

فدخل بلال وهو يقول : الصلاة رحمك الله (فأفاق رسول الله) وخرج فصلّى بالناس ، وخفّف الصلاة ، =

هذا العظيم وبشأن وصاياه ، ونكتفي هنا بما اختاره الشيخ المفيد والطبرسي منها ، رضوان الله عليهما .

= ثم قال : « ادعوا لي عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد » ، فجاءا ، فوضع يده على عاتق عليّ (عليه السلام) والأخرى على أسامة ، ثمّ قال : « انطلقا بي إلى فاطمة » ، فجاءا به حتى وضع رأسه في حجرها ، فإذا الحسن والحسين (عليهما السلام) يبكيان ويصطرخان وهما يقولان : أنفسنا لنفسك الفداء ، ووجوهنا لوجهك الوقاء ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « من هذان يا عليّ » ؟ قال : هذان ابناك الحسن والحسين ، فعانقهما وقبّلهما ، وكان الحسن أشدّ بكاءً ، فقال له : « كفّ يا حسن ، فقد شققت على رسول الله » .

ونزل ملك الموت (عليه السلام) وقال : السلام عليك يا رسول الله ، قال : « وعليك السلام يا ملك الموت ، لي إليك حاجة » ، قال : وما حاجتك يا نبيّ الله ؟ قال : « حاجتي أن لا تقبض روحي حتّى يجيئني جبرئيل فيسلّم عليّ وأسلّم عليه » ، فخرج ملك الموت وهو يقول : يا محمّداه ! فاستقبله جبرئيل في الهواء فقال : يا ملك الموت ، قبضت روح محمد ؟ قال : لا يا جبرئيل ، سألني أن لا أقبضه حتّى يلقاك فتسلّم عليه ويسلّم عليك ، فقال جبرئيل : يا ملك الموت ، أما ترى أبواب السماء مفتّحة لروح محمّد ؟ أما ترى الحور العين قد تزيّنّ لروح محمّد ؟ ثم نزل جبرئيل (عليه السلام) فقال : السلام عليك يا أبا القاسم ، فقال : « وعليك السلام يا جبرئيل ، أعند الشدائد تخذلني » ؟ فقال : يا محمّد ، إنّك ميّت وإنّهم ميّتون ، كلّ نفس ذائقة الموت ، فقال : « أدن منّي حبيبي جبرئيل » فدنا منه ، فنزل ملك الموت ، فقال له جبرئيل : يا ملك الموت ، احفظ وصيّة الله في روح محمّد ، وكان جبرئيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وملك الموت آخذ بروحه (صلّى الله عليه وآله) .

يقول ابن عباس : إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في ذلك المرض كان يقول : « ادعوا لي حبيبي » ، فجعل يُدعى له رجل بعد رجل ، فيعرض عنه ، فقيل لفاطمة : امضي إلى عليّ فما نرى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يريد غير عليّ ، فبعثت فاطمة إلى عليّ (عليه السلام) ، فلما دخل فتح رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عينيه وتهلّل وجهه ، ثم قال : « إليّ يا عليّ ، إليّ يا عليّ » ، فما زال يدنيه حتى أخذ بيده وأجلسه عند رأسه ، ثمّ أغمي عليه ، فجاء الحسن والحسين (عليهما السلام) يصيحان ويبكيان حتّى وقعا على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأراد عليّ (عليه السلام) أن ينحّيهما عنه ، فأفاق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ثم قال : « يا عليّ ، دعني أشمّهما ويشمّاني ، وأتزوّد منهما ويتزوّدان منّي ، أما إنّهما سيُظلمان بعدي ويقتلان ظلماً ، فلعنة الله على من يظلمهما » ، يقول ذلك ثلاثاً ، ثمّ مدّ يده إلى عليّ (عليه السلام) فجذبه إليه حتى أدخله تحت ثوبه الذي كان عليه ، ووضع فاه على فيه ، وجعل يناجيه مناجاة طويلة حتّى خرجت روحه الطيبة ، صلوات الله عليه وآله .

فانسلّ عليّ من تحت ثيابه وقال: أعظم الله أجوركم في نبيكم، فقد قبضه الله إليه، فارتفعت الأصوات بالضجّة والبكاء (من أهل بيت الرسالة، وتلقّوا التعازي من بعض الأصحاب الذين لم ينشغلوا بالإعداد للخلافة).

يقول ابن عباس : فقيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) : ما الذي ناجاك به رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حين أدخلك تحت ثيابه ؟ فقال : « علّمني ألف باب ، يفتح لي كل باب ألف باب » .

وصية رسول الله (صلّى الله عليه و آله) لأصحابه

قالا : لمّا رجع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من حجّة الوداع ، وقد تحقّق من دنوّ أجله ، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين يحذّرهم الفتنة بعده ، والخلاف عليه ، ويؤكّد وصايتهم بالتمسّك بسنّته والاجتماع عليها والوفاق ، ويحثّهم على الاقتداء بعترته ، والطاعة لهم ، والنصرة والحراسة ، والاعتصام بهم في الدين ؛ ويزجرهم عن الاختلاف والارتداد ، ويكرر قوله :

« يا أيها الناس ، إنّي فرطكم ، وأنتم واردون عليّ الحوض ، ألا وإنّي سائلكم عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهم لن يفترقا حتى يلقياني ، ألا وإنّي قد تركتهما فيكم : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فلا تسبقوهم فتفرّقوا ، ولا تقصّروا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم .

أيّها الناس ، لا ألفينّكم بعدي ترجعون كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فتلقوني في كتيبة كمجّر السيل الجرّار ؛ ألا وإنّ عليّ بن أبي طالب أخي ووصيّي ، يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله »

فكان (صلّى الله عليه وآله) يقوم مجلساً بعد مجلس بمثل هذا الكلام ونحوه ، ثمّ إنّه عقد لأسامة بن زيد بن حارثة الإمرة ، وأمره وندبه أن يخرج بجمهور الأمّة إلى حيث أصيب أبوه من بلاد الروم ، واجتمع رأيه على إخراج جماعة من متقدّمي المهاجرين والأنصار في معسكره ، حتى لا يبقى في المدينة عند وفاته من يختلف في الرياسة ، ويطمع في التقدّم على الناس بالإمارة ، ويستتبّ الأمر لمن استخلفه من بعده ، ولا ينازعه في حقّه منازع ، فعقد له الإمرة على ما ذكرناه ، وجدّ في إخراجهم ، وأمر أسامة بالبروز عن المدينة بمعسكره إلى الجرف (موضع يبعد فرسخاً واحداً عن المدينة) وحثّ الناس على الخروج إليه والمسير معه ، وحذّرهم من التلوّم والإبطاء عنه .

توعّك الرسول ووصاياه (صلّى الله عليه و آله)

فبينا هو في ذلك إذ عرضت له الشكاة التي توفّي فيها ، فلمّا أحسّ بالمرض أخذ بيد عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) واتّبعه جماعة من الناس ، وتوجّه إلى البقيع ، فقال للذي اتّبعه : إنّني قد أُمرت بالإستغفار لأهل البقيع ، فانطلقوا معه حتّى وقف بين أظهرهم وقال :

« السلام عليكم أهل القبور ، ليهنئكم ما أصبحتم فيه عمّا فيه الناس ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أوّلها » .

ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً ، وأقبل على أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال :

« إنّ جبرئيل (عليه السلام) كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة ، وقد عرضه عليّ العام مرّتين ، ولا أراه إلاّ لحضور أجلي » ثم قال :

يا عليّ ، إنّي خُيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها أو الجنّة ، فاخترت لقاء ربّي والجنة ، فإذا أنا متّ فاستر عورتي ، فإنّه لا يراها أحد إلاّ أُكمه » .

ثمّ عاد إلى منزله ، فمكث ثلاثة أيام موعوكاً ، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس ، معتمداً على أمير المؤمنين (عليه السلام) بيمنى يديه ، وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى ، حتى صعد المنبر ، فجلس عليه ثمّ قال :

« معاشر الناس ، وقد حان منّي خفوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إيّاها ، ومن كان له عليّ دين فليخبرني به ؛ معاشر الناس ، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شرّاً إلاّ العمل ، أيّها الناس ، لا يدّعي مدّع ولا يتمنّ متمنّ ، والذي بعثني بالحقّ نبيّاً لا ينجي إلاّ عمل مع رحمة ، ولو عصيت لهويت ، اللهمّ قد بلّغت » .

ثمّ نزل فصلّى بالناس خفيفة ، ثم دخل بيته ، وكان إذ ذاك في بيت أمّ سلمة (رضي الله عنها) ، فأقام به يوماً أو يومين ، فجاءت عائشة إليها تسألها أن تنقله إلى بيتها لتتولّى تعليله ، وسألت أزواج النبي (صلّى الله عليه وآله) في ذلك ، فأذن لها ، فانتقل إلى البيت الذي أسكنه عائشة ، واستمر به المرض فيه أيّاماً ، وثقل .

فجاء بلال عند صلاة الصبح ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) مغمور بالمرض ، فنادى : الصلاة يرحمكم الله ، فأوذن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بندائه ، فقال : « يصلّي بالناس بعضهم ، فإنّي مشغول بنفسي » ، فقالت عائشة : مروا أبا بكر ، وقالت حفصة : مروا عمر ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حين سمع كلامهما ورأى حرص كلّ واحدة منهما على التنويه بأبيها وافتتانها بذلك ورسول الله حيّ : « أكففن فإنّكنّ صويحبات يوسف » ، ثمّ قام مبادراً خوفاً من تقدّم أحد الرجلين ، وقد كان (صلّى الله عليه وآله) أمرهما بالخروج مع أسامة ، ولم يك عنده أنّهما قد تخلّفا ، فلما سمع من عائشة وحفصة ما سمع علم أنّهما متأخّران عن أمره ، فبدر لكفّ الفتنة وإزالة الشبهة ، فقام (صلّى الله عليه وآله) وإنّه لا يستقلّ على الأرض من الضعف ، فأخذ بيده عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس (عليهما السلام) ، فاعتمد عليهما ورجلاه تخطّان على الأرض من الضعف ، فلمّا خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب ، فأومأ إليه بيده أن تأخّر عنه ، فتأخّر أبو بكر ،

وقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مقامه فكبّر وابتدأ الصلاة التي كان ابتدأها أبو بكر ، ولم يبن على ما مضى من فعاله ، فلمّا سلّم انصرف إلى منزله ، واستدعى أبا بكر وعمر وجماعة ممن حضر المسجد من المسلمين ، ثم قال : « ألم آمر أن تنفذوا جيش أسامة ؟ » فقالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « فلمَ تأخرتم عن أمري » ؟ قال أبو بكر : إنّي كنت قد خرجت ، ثم رجعت لأجدّد بك عهداً ، وقال عمر : يا رسول الله ، إنّي لم أخرج لأنّي لم أحبّ أن أسأل عنك الركب ، فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) : « نفّذوا جيش أسامة ، نفّذوا جيش أسامة » يكررها ثلاث مرات .

وفي رواية أنّه قال : « ملعون من تخلّف عن جيش أسامة » ، كررها ثلاثاً ، ثمّ اغمي عليه من التعب الذي لحقه والأسف الذي ملكه ، فمكث هنيئة مغمىً عليه ، وبكى المسلمون ، وارتفع النحيب من أزواجه وولده ونساء المسلمين ، وجميع من حضر ، فأفاق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فنظر إليهم ثم قال : « ايتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً » فقام بعض من حضر يلتمس دواةً وكتفاً ، فقال له عمر : ارجع فإنّه يهجر ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، واختصموا ، منهم من يقول : قرّبوا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلّوا بعده ، ومنهم من يقول : القول ما قال عمر ، وتلاوموا بينهم وقالوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، لقد أشفقنا من خلاف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقال بعضهم : ألا نأتيك بدواة وكتف يا رسول الله ؟ فقال : « أبعد الذي قلتم ؟ لا ، ولكنّي أوصيكم بأهل بيتي خيراً » ، وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا ، وبقي عنده العبّاس والفضل بن العبّاس وعليّ بن أبي طالب وأهل بيته خاصّة ، فقال له العبّاس : يا رسول الله ، إن يكن هذا الأمر فينا مستقرّاً من بعدك فبشّرنا ، وإن كنت تعلم أنّا نُغلب عليه فأوص بنا ، فقال : « أنتم المستضعفون من بعدي » ، وأصمت ، فنهض القوم وهم يبكون ، قد يئسوا من النبي (صلّى الله عليه وآله) .

فلمّا خرجوا من عنده قال : « ردّوا عليّ أخي وعمّي العباس » ، فأنفذوا من دعاهما فحضرا ، فلمّا استقرّ بهما المجلس قال (صلّى الله عليه وآله) :

«يا عمّ رسول الله ، تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني » ، فقال العبّاس : يا رسول الله ، عمّك شيخ كبير ، ذو عيال كثير ، وأنت تباري الريح سخاء وكرماً ، وعليك وعد لا ينهض به عمّك .

فأقبل على علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال له :

« يا أخي ، تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي عنّي ديني ، وتقوم بأمر أهلي بعدي » ؟ فقال : نعم يا رسول الله ، فقال له : « ادن منّي » ، فدنا منه ، فضمّه إليه ، ثم

نزع خاتمه من يده فقال له : «خذ هذا فضعه في يدك » ، ودعا بسيفه ودرعه وجميع لأمته فدفع ذلك إليه ، والتمس عصابة كان يشدّها على بطنه إذا لبس سلاحه وخرج إلى الحرب فجيء بها إليه ، فدفعها إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال له : « امض على اسم الله إلى منزلك » .

كيفيّة وفاته وغسله ودفنه (صلّى الله عليه وآله)

فلمّا كان من الغد حجب الناس عنه وثقل في مرضه ، وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يفارقه إلّا لضرورة ، فقام في بعض شؤونه ، فأفاق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إفاقة فافتقد عليّاً (عليه السلام) ، فقال وأزواجه حوله : « ادعو لي أخي وصاحبي » ، وعاوده الضعف فأصمت ، فقالت عائشة : ادعو له أبا بكر ، فدعي ودخل عليه وقعد عند رأسه ، فلمّا فتح عينه نظر إليه ، فأعرض عنه بوجهه ، فقام أبو بكر فقال : لو كان له إليّ حاجة لأفضى بها إليّ ؛ فلما خرج أعاد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) القول ثانية ، فقالت حفصة : ادعوا له عمر ، فدعي فلمّا حضر ورآه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أعرض عنه ، فانصرف ؛ ثم قال : « ادعوا لي أخي وصاحبي » ، فقالت أمّ سلمة (رضي الله عنها) ادعوا له عليّاً (عليه السلام) فإنّه لا يريد غيره .

فدعي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فلمّا دنا منه أومأ إليه ، فأكبَّ عليه فناجاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) طويلاً ، ثمّ قام فجلس ناحية حتى أغفي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلمّا أغفي خرج ، فقال له الناس : ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن ؟ فقال : « علّمني ألف باب من العلم ، فتح لي كلّ باب ألف باب ، وأوصاني بما أنا قائم به إن شاء الله تعالى » .

ثم ثقل وحضره الموت وأمير المؤمنين (عليه السلام) حاضر عنده ، فلمّا قرب خروج نفسه قال له : « ضع يا عليّ رأسي في حجرك ، فقد جاء أمر الله تعالى ، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك ، وامسح بها وجهك ، ثمّ وجّهني إلى القبلة وتولّ أمري ، وصلّ عليّ أوّل الناس ، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي ، واستعن بالله تعالى » .

فأخذ عليّ رأسه فوضعه في حجره ، فأغمي عليه ، فأكبّت فاطمة (عليها السلام) تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عينه وقال بصوت ضعيف : « يا بنيّة ، هذا قول عمّك أبي طالب لا تقوليه ، ولكن قولي :

﴿ وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ (آل عمران/ ١٤٤) .

فبكت طويلاً ، فأومأ إليها بالدنو منه ، فدنت منه فأسرّ إليها شيئاً تهلّل وجهها له ، ثم قبض (صلّى الله عليه وآله) ويد أمير المؤمنين اليمنى تحت حنكه ، ففاضت نفسه (صلّى الله عليه وآله) فيها ، فرفعها إلى وجهه فمسحه بها ، ثم وجّهه وغمضه ، ومدّ عليه إزاره ، واشتغل بالنظر في أمره .

وجاء في الرواية أنه قيل لفاطمة (عليها السلام) : ما الذي أسرّ إليك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فسرّى عنك به ما كنت عليه من الحزن والقلق ؟ قالت : إنّه أخبرني أنّني أوّل أهل بيته لحوقاً به ، وأنّه لن تطول المدّة لي بعده حتّى أدركه ، فسرّى ذلك عنّي .

ثم إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) انصرف إلى غسل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فاستدعى الفضل بن العباس فأمره أن يناوله الماء ، فغسله بعد أن عصب عينه ، ثمّ شقّ قميصه من قبل جيبه حتى بلغ به إلى سرّته ، وتولّى غسله وتحنيطه وتكفينه ، والفضل يعاطيه الماء ويعينه عليه ، فلمّا فرغ من غسله وتجهيزه تقدّم فصلّى عليه وحده ، ولم يشركه معه أحد في الصلاة عليه ، وكان المسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمّهم في الصلاة عليه ، وأين يدفن ، فخرج إليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال لهم : « إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إمامنا حيّاً وميّتاً ، فيدخل عليه فوج بعد فوج منكم فيصلّون عليه بغير إمام وينصرفون ، وإن الله تعالى لم يقبض نبيّاً في مكان إلاّ وقد ارتضاه لرمسه فيه ، وإنّي لدافنه في حجرته التي قبض فيها » ، فسلّم القوم بذلك ورضوا به .

ولمّا صلّى المسلمون عليه أنفذ العبّاس بن عبد المطّلب برجل إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ، وكان يحفر لأهل مكّة ويضرح ، وكان ذلك عادة أهل مكّة ، وأنفذ إلى زيد بن سهل ، وكان يحفر لأهل المدينة ويلحد ، فاستدعاهما وقال : اللهم خر لنبيّك ، فوجد أبو طلحة زيد بن سهل ، وقيل له : احفر لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) فحفر له لحداً ، ودخل أمير المؤمنين (عليه السلام) والعبّاس بن عبد المطّلب والفضل بن العبّاس وأسامة بن زيد ليتولّوا دفن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فنادت الأنصار من وراء البيت : يا عليّ ، إنّا نذكّرك الله وحقّنا اليوم من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يذهب ، أدخل منّا رجلاً يكون لنا به حظّ من مواراة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقال : ليدخل أوس بن خوليّ ، وكان بدريّاً فاضلاً من بني عوف من الخزرج ، فلمّا دخل قال له علي (عليه السلام) : انزل القبر فنزل ، ووضع أمير المؤمنين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على يديه ودلاّه في حفرته ، فلمّا حصل في الأرض قال له : اخرج فخرج ، ونزل عليّ القبر فكشف عن وجه رسول الله (صلّى الله

عليه وآله) ، ووضع خدّه على الأرض موجّهاً إلى القبلة على يمينه ، ثم وضع اللبن وأهال عليه التراب، وكان ذلك يوم الاثنين لثمان وعشرين خلون من صفر من السنة الحادية عشرة من هجرته (صلّى الله عليه وآله) ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ولم يحضر دفن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أكثر الناس لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة . انتهى .

ورد في الأحاديث المعتبرة أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مضى شهيداً ، كما روى الصفّار بسند معتبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله :

« سُمّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوم خيبر ، فتكلّم اللحم فقال : يا رسول الله إنّي مسموم ، قال : فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) عند موته : اليوم قطعت مطاياي الأكلة التي أكلت بخيبر ، وما من نبيّ ولا وصيّ إلّا شهيداً » .

وقال في رواية أخرى :

« سمّت اليهوديّة النبيّ في ذراع . . فأكل ما شاء الله ، ثم قال الذراع : يا رسول الله ، إنّي مسموم ، فتركه ، وما زال ينتقض به سمّه حتى مات صلوات الله عليه » .

هذا وتستحبّ زيارته (صلّى الله عليه وآله) من قريب ومن بعد ، كما يقول الشيخ الشهيد في (الدروس) : تستحبّ زيارة النبي والأئمة (عليهم السلام) ، كل يوم جمعة ، ولو كان الزائر بعيداً عن قبورهم ، فإذا وقف على مكان مرتفع وأدّى زيارته يكن أفضل . انتهى .

كما يستحسن زيارة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عقب كل صلاة بهذه الكلمات التي علّمها الإمام الرضا (عليه السلام) لابن أبي نصر البزنطي ، قال :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا محمّد بن عبد الله ، السلام عليك يا خيرة الله ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا صفوة الله ، السلام عليك يا أمين الله ، أشهد أنّك رسول الله ، وأشهد أنّك محمّد بن عبد الله ، وأشهد أنّك قد نصحت لأمّتك وجاهدت في سبيل ربّك ، وعبدته حتّى أتاك اليقين ، فجزاك الله أفضل ما جزى نبيّاً عن أمّته ، اللهم صلّ على محمّد أفضل ما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنّك حميد مجيد » .

الفصل الثامن

في بيان أحوال أبناء النبي (صلى الله عليه وآله)

ورد في (قرب الأسناد) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه ولد لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) من خديجة : القاسم والطاهر وفاطمة وأم كلثوم ورقيّة وزينب ، فتزوّج عليّ (عليه السلام) فاطمة (عليها السلام) وتزوج أبو العاص بن الربيع[1] ـ وهو من بني أميّة ـ زينب ، وتزوّج عثمان بن عفّان أمّ كلثوم ، ولم يدخل بها حتى هلكت ، وزوّجه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مكانها رقيّة .

ثمّ ولد لرسول الله (صلّى الله عليه وآله)من أمّ إبراهيم ، إبراهيم ، وهي مارية القبطيّة ، أهداها إليه صاحب الاسكندريّة مع البغلة الشهباء ، وأشياء معها .

أقول : من المشهور وما نقله المؤرخون أن تزويج أمّ كلثوم بعثمان كان بعد وفاة رقيّة ، وإن رقيّة توفّيت في السنة الثانية للهجرة إبّان وقعة بدر .

والشيخ الطبرسي وابن شهرآشوب يرويان أنّه لم يولد لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) أبناء من غير خديجة سوى إبراهيم الذي ولد من مارية القبطية ؛ والمشهور أنّه ولد له ثلاثة

---

(1) زواج زينب بأبي العاص كان قبل البعثة ، وقبل تحريم الزواج بالكفّار ، وولدت زينب بنتاً من أبي العاص اسمها أمامة ، تزوجها أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة فاطمة (عليها السلام) عملاً بوصيّتها ، وروي أن أبا العاص وقع أسيراً في بدر ، فبعثت زينب قلادة كانت خديجة قد أعطتها لها إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فداءً لزوجها ، فلمّا رأى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) القلادة تذكّر خديجة فرقّ ، وطلب من أصحابه أن يهبوه افتداء أبي العاص ففعلوا ، وأطلق أبو العاص من غير فداء ، واشترط عليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن يبعث بزينب حال رجوعه إلى مكّة ، فوفى بشرطه وبعث إليه بزينب ، ثمّ قدم بعدها إلى المدينة وأسلم ، وانتقلت زينب إلى جوار ربّها في السنة السابعة ، أو الثامنة للهجرة على قول .

أبناء ، أولهم القاسم ، ولهذا كنّي (صلّى الله عليه وآله) بأبي القاسم ، وقد كانت ولادته قبل البعثة ؛ والثاني عبد الله وكانت ولادته بعد البعثة ، وقد لقّب بالطاهر والطيّب ، وكلاهما ارتحلا إلى دار الخلود في مكة ؛ هذا ويقول البعض إن الطيّب والطاهر اسمان لابنين آخرين غير عبد الله ، وهو قول لم يؤخذ بالاعتبار ؛ والثالث إبراهيم (عليه السلام) ويروى أنّه لمّا ماتت رقيّة قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « الحقي بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون وأصحابه » ، وفاطمة (عليها السلام) على شفير القبر تنحدر دموعها في القبر ، ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) يتلقّاه (الدمع) بثوبه قائماً يدعو ، قال : إنّي لأعرف ضعفها ، وسألت الله عزّ وجلّ أن يجيرها من ضمّة القبر .

ومن المشهور أن ولادة إبراهيم (عليه السلام) كانت في المدينة في السنة الثامنة للهجرة ، وبشرّه بولادته أبو رافع ، فوهبه غلاماً ، وسمى ولده إبراهيم ، وفي اليوم السابع أمر له بعقيقة ، وحلق رأسه ، وتصدّق على المساكين بوزن شعره فضّة ، وأمر بدفن شعره في الأرض ، وتنازعت نساء الأنصار في إرضاعه ، فأعطاه (صلّى الله عليه وآله) إلى أمّ بردة بنت المنذر بن زيد لترضعه ، ولم يبق إبراهيم (عليه السلام) في الدنيا غير قليل ، وتوفّي في السنة العاشرة للهجرة لثماني عشرة خلت من رجب، وكان عمره الشريف سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وبرواية أخرى : سنة وستّة أشهر وبضعة أيام ، ودفن في البقيع ، وظهرت عند موته ثلاث سنن يأتي تفصيلها في موضعه .

ويروي ابن شهرآشوب (ره) عن ابن عباس قوله :

كنت عند رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلى فخذه الأيسر ابنه إبراهيم ، وعلى فخذه الأيمن الحسين بن عليّ (عليه السلام) ، وهو تارة يقبّل هذا ، وتارة يقبّل هذا ، إذ هبط جبرئيل بوحي من ربّ العالمين ، فلمّا سرّي عنه قال : أتاني جبرئيل من ربّي فقال : يا محمّد ، إنّ ربّك يقرئك السلام ويقول : لست أجمعهما ، فافد أحدهما بصاحبه ، فنظر النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى إبراهيم فبكى ، ونظر إلى الحسين فبكى ، وقال : إنّ إبراهيم أمّه أمة (مارية) ، ومتى مات لم يحزن عليه غيري ، وأمّ الحسين فاطمة ، وأبوه عليّ ابن عمّي ولحمي ودمي ، ومتى مات حزنت ابنتي ، وحزن ابن عمّي ، وحزنت أنا عليه ، وأنا أوثر حزني على حزنهما ، يا جبرئيل يقبض إبراهيم فديته للحسين .

قال : فقبض بعد ثلاث ، فكان النبي (صلّى الله عليه وآله) إذا رأى الحسين مقبلاً قبّله وضمّه إلى صدره ورشف ثناياه وقال : «فديت من فديته بابني إبراهيم» .

ويروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه لمّا مات إبراهيم (عليه السلام) هملت

عينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالدمع وقال : (تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الربّ ، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون » .

ثم رأى النبي (صلّى الله عليه وآله) في قبره خللاً فسوّاه بيده . ثم قال : « إذا عمل أحدكم عملاً فليتقن » ، ثمّ قال : « الحق بسلفك الصالح عثمان بن مظعون » .

وسيأتي ذكر عثمان بن مظعون في ذيل الحديث عن شهادة عثمان بن أمير المؤمنين (عليه السلام) .



الفصل التاسع

في بيان موجز لأحوال أقارب النبيّ (صلّى الله عليه وآله)

يروي الشيخ الطبرسي وآخرون أنه كان لرسول الله تسعة أعمام هم بنو عبد المطّلب : الحارث ، والزبير ، وأبو طالب ، وحمزة ، وغيداق ، وضرار ، والمقوّم ، وأبو لهب ، والعبّاس ؛ كان الحارث أكبرهم سنّاً ، ولهذا يكنّى عبد المطّلب بأبي الحارث ، وكان شريكه في حفر بئر زمزم .

وأبناء الحارث : أبو سفيان ، والمغيرة ، ونوفل ، وربيعة ، وعبد شمس ؛ وأبو سفيان أخو رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من الرضاعة ، فقد أرضعته حليمة السعديّة ، وكان شبيهاً به (صلّى الله عليه وآله) ، توفّي في العشرين من عمره ، ودفن في البقيع ، ويقال إن مدفنه في منزل عقيل بن أبي طالب .

وخلّف نوفل بضعة أبناء منهم : المغيرة بن نوفل ، وهو الذي أمسك بابن ملجم المرادي (عليه اللعنة) بعد ضربته لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويذكر التاريخ أنّه كان قاضياً في أيام عثمان ، وحضر صفّين مع أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وتزوّج بعده من أمامة بنت أبي العاص بن الربيع فأنجبت له يحيى ؛ وربيعة بن الحارث هو الذي عناه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوم فتح مكة إذ قال :

« الا إنّ كلّ مأثرة كانت في الجاهليّة موضوعة تحت قدميّ ، ودماء الجاهليّة موضوعة ، وإنّ أوّل دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث » .

ذلك أنّ أحد أبنائه كان قد قتل في الجاهلية ، والعبّاس بن ربيعة وشجاعته في صفّين معروفة ، وعبد شمس بن الحارث ، وقد سمّاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقيل إن أبناءه في الشام .

وكان أبو طالب ، وعبد الله ، أبو الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، والزبير أبناء أمّ واحدة ، وأمّهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن مخزوم ، واسم أبي طالب عبد مناف ، وكان له أربعة أبناء : طالب ، وعقيل ، وجعفر ، وعليّ (عليه السلام) ، وروي أنه كان يفصل بين كلّ من هؤلاء الأربعة عشر سنين ؛ وكان لأبي طالب بنتان : أم هانيء ، واسمها فاختة ، وجمانة ، وأمّهم جميعهم فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ؛ وقد أعقبوا جميعاً ، غير طالب .

وجمانة كانت زوجة سفيان بن الحارث بن المطّلب ، وكانت أمّ هانيء زوجة أبي وهب هبيرة بن عمرو المخزومي ، وولد له منها أبناء أحدهم جُعدة بن هبيرة ، وكان فارساً مغواراً ، وولاه أمير المؤمنين (عليه السلام) خراسان .

وانتقل أبو طالب إلى رحمة ربّه قبل هجرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بثلاث سنين ، وعلى قول : إن وفاة خديجة كانت بعد وفاته بثلاثة أيام ، وسمّى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هذا العام بعام الحزن ، وقد سبقت الإشارة إلى وفاة هذين العظيمين في الفصل السادس .

وأمّا العبّاس ، وكنيته أبو الفضل ، فكانت معه سقاية زمزم ؛ وقد أسلم في موقعة بدر ، وتوفّي في أواخر أيّام عثمان ، وقد كفّ بصره في أواخر عمره ، وأمّه وأمّ ضرار هي نُتيلة وكان له تسعة أبناء وثلاث بنات : عبد الله ، وعبيد الله ، والفضل ، وقُثم ، ومَعبَد ، وعبد الرحمن ، وتمّام ، وكثير ، والحارث ، وأمّ حبيب ، وآمنة ، وصفيّة ؛ وأمّ حبيب مع ستّة إخوة ممّن تقدّمت أسماؤهم هي أمّ الفضل لُبابة بنت الحارث الهلالي ، أخت ميمونة بنت الحارث زوجة النبي (صلّى الله عليه وآله) ، ومع أنّ أمّ الفضل ولدتهم في بيت واحد ، فإن مدافنهم بعيدة عن بعضها ، فقبر الفضل في أجنادين من أراضي الروم ، ومعبد وعبد الرحمن في إفريقية ، وعبد الله في الطائف ، وعبيد الله في اليمن ، وقثم في سمرقند .

يقول البغوي : أم الفضل هي المرأة التي أسلمت بعد خديجة (رضي الله عنها) ، ويقول البعض إن أبناء العباس كانوا عشرة، بزيادة عون، ويؤيد هذا القول تصريح العبّاس بعددهم ، والشيخ الشهيد الثاني يقول في كتابه (شرح الدراية) : إن من بين الأبناء العشرة كان تمّام أصغرهم ، فكان العبّاس يأخذه في حجره وهو يقول :

تمّوا بتمّام فصاروا عشرة يا ربّ فاجعلهم كراماً بررة
واجعل لهم ذكراً وأنم الشجرة

وأمّا أبو لهب فأبناؤه : عُتبة ، وعتيبة ، ومُعتب ، ودرّة وأمّهم أمّ جميل أخت أبي سفيان التي دعاها الحقّ بـ : حمّالة الحطب .

وعمّاته (صلّى الله عليه وآله) ستّ من اُمّهات متعدّدة : أميمة ، وأمّ حكيم وبرّة ، وعاتكة ، وصفيّة ، وأروى ؛ أمّا أميمة ويدعوها بعضهم : فاطمة ، فقد كانت زوجة جحش بن الريّان ، وولدت له عبد الله ، وعبيد الله ، وأبا أحمد ، وزينب ، وحمنة ، وأمّ حبيبة ؛ وزينب هي زوجة زيد بن حارثة ، وطلّقها زيد ، وزوّجها الحقّ تعالى من نبيّه (صلّى الله عليه وآله) .

وأمّا أمّ الحكيم بنت عبد المطّلب فكانت زوجة كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وولدت له عامراً ، وهو أبو عبد الله بن عامر وكان والياً لعثمان على العراق وخراسان .

وأمّا برّة بنت عبد المطّلب فكانت زوجة أبي رُهْم ، ثم صارت زوجة عبد الأسد بن هلال المخزومي بعده ، وولدت له أبا سلمة ، واسمه عبد الله وهو أول مهاجر إلى الحبشة مع زوجه أمّ سلمة ، ثم هاجر بعدُ إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً وجرح جراحة مات على أثرها ، ومن بعده تزوّج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من أرملته أمّ سلمة .

وأمّا عاتكة بنت عبد المطّلب فكانت زوجة عمير بن وهب ، ثم صارت تحت كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار .

وأمّا صفية بنت عبد المطّلب فكانت زوجة الحارث بن حرب بن أميّة ، ثم تزوّجت بعده من العوّام بن خويلد أخي السيدة وولدت له الزبير .

ويروى أنه عند وفاة عبد المطّلب كانت بناته الست أولئك حاضرات ، فطلب منهنّ أن يبكينه ويرثينه مراثي يسمعها قبل موته ، فقالت كلّ منهن قصيدة ترثي بها أباها ، وفارق عبد المطّلب الحياة وهو يستمع اليهنّ .

ومن بين أعمام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان أبو طالب والحمزة أفضلهم ، وأبو طالب اسمه عبد مناف وكنيته أبو طالب ، وفيه يقول أبوه عبد المطّلب :

وصّيتُ من كنّيته بطالب عبدَ مناف وهو ذو تجارب

وكان هذا الرجل الكبير سيّد البطحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكّة ، وقبلة القبيلة ؛ وكان رحمه الله شيخاً جسيماً ، عليه بهاء الملوك ، ووقار الحكماء .

يروى أنه قيل لأكثم بن صيفي حكيم العرب : ممّن تعلّمت الحكمة والرئاسة والحلم والسيادة ؟ قال : من حليف العلم والأدب ، سيّد العجم والعرب ، أبي طالب بن عبد المطّلب .

وفي روايات كثيرة أنّ مثله مثل أصحاب الكهف ، أخفى إيمانه كي يكون بمقدوره نصرة النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، ودفع شرّ كفّار قريش عنه ، وكان أبو طالب مستودع وصايا وآثار الأنبياء ، وقد ردّها للنبي (صلّى الله عليه وآله) .

وفي الخبر أنّ نوره يطفيء أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار (هي نور محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) ، ولئن وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان ، وإيمان هذا الخلق في كفّة أخرى يظهر رجحان إيمان أبي طالب على إيمانهم ، وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يحب رواية أشعار أبي طالب وتدوينها ويقول : تعلّموها وعلّموها أولادكم ، ذلك أنه كان على دين الله ، وفي أشعاره علم كثير .

وإجمالاً فإن خدمات أبي طالب للدين ونصرته لسيّد المرسلين (صلوات الله عليه وآله) قد تجاوزت البيان ، ويكفي في هذا المقام قول النبي (صلّى الله عليه وآله) بما مضمونه : ما زالت قريش في جبن وخوف حتى توفي أبو طالب .

وقال ابن أبي الحديد:

ولولا أبو طالب وابنه لما مثّل الدينُ شخص فقاما
فذاك بمكّة آوى وحامى وذاك بيثرب جسّ الحماما[1]

وأما حمزة بن عبد المطّلب فهو عظيم الجلال ، وقد سبق الحديث عن استشهاده في أحد .

كما استشهد جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مؤتة ، وقد أتينا على ذكر استشهاده عند الحديث عن معجزات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ووقائع العام الثامن من الهجرة .

وإليك طرفاً من فضائل حمزة وجعفر :

يروي ابن بابويه عن الإمام الرضا (عليه السلام) أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال :

« خير إخواني عليّ ، وخير أعمامي حمزة ، والعبّاس صنو أبي » .

وقال : « وصلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على حمزة سبعين صلاة ، وكبّر عليه سبعين تكبيرة » .

---

(١) وسيأتي هذا الشعر ومعناه عند الحديث عن أولاد الإمام موسى الكاظم (ع) إن شاء الله.

ويروى في قرب الأسناد عن الصادق (عليه السلام) أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

« منّا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سيّد الأوّلين والآخرين ، وخاتم النبيين ؛ ووصيّه خير الوصيّين ، وسبطاه خير الأسباط : حسناً وحسيناً ، وسيّد الشهداء حمزة عمّه ، ومن طار مع الملائكة جعفر ، والقائم (عليه السلام) » .

والروايات بهذه المضامين كثيرة ، ويروي علي بن إبراهيم أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال :

« إنّ إلهي اختارني في ثلاثة من أهل بيتي ، وأنا سيّد الثلاثة وأتقاهم ولا فخر ، (اختارني) وعلياً وجعفراً ابني أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطّلب » .

كما يروى عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قوله في تفسير الآية :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ :

إن المراد بـ« من قضى نحبه » أي أجله ، وهو حمزة وجعفر بن أبي طالب ، و« من ينتظر » يعني علياً (عليه السلام) .

كما يروى عنه (عليه السلام) في (البصائر) قوله :

« على قائمة العرش مكتوب : حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيّد الشهداء » .

ويروي الشيخ الطوسي عن جابر الأنصاري قوله :

أقبل العبّاس ذات يوم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكان العباس طوالاً حسن الجسم ، فلمّا رآه النبيّ (صلّى الله عليه وآله) تبسّم إليه ، فقال : إنك يا عمّ لجميل ، فقال العبّاس : ما الجمال بالرجل يا رسول الله ؟ قال : بصواب القول بالحقّ ، قال : فما الكمال ؟ قال : تقوى الله عزّ وجلّ وحسن الخلق .

ويروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنّه قال :

قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « احفظوني في عمّي العبّاس ، فإنه بقيّة آبائي » .

ويروي ابن بابويه أن جبرئيل (عليه السلام) هبط على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعليه قباء أسود ، ومنطقة فيها خنجر ، فقال : يا جبرئيل ما هذا الزيّ ؟ فقال :

زيّ ولد عمّك العبّاس ، فخرج النبيّ (صلّى الله عليه وآله) إلى العبّاس فقال : يا عمّ ، ويل لولدي من ولدك ، فقال : يا رسول الله ، أفأجبّ نفسي ؟ قال : جرى القلم[1] بما فيه .

ويروى عن ابن عبّاس أن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قال لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

يا رسول الله ، إنّك لتحبّ عقيلاً ؟ قال : إي والله ، إنّي لأحبّه حبّين : حبّاً له ، وحبّاً لحبّ أبي طالب له ، وإنّ ولده لمقتول في محبّة ولدك ، فتدمع عليه عيون المؤمنين ، ويصلّي عليه الملائكة المقرّبون ، ثمّ بكى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتّى جرت دموعه على صدره ، ثم قال : إلى الله أشكو ما تلقى عترتي من بعدي .

وسيأتي الحديث عن عقيل وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عبّاس عند الحديث عن أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إن شاء الله تعالى .



(١) يقول البعض : المراد أن قطع آلة رجولتك لا يفيد لأن عبد الله ولد منك ، وأن الأبناء منه سيولدون ، ويحتمل أنّ المراد معنى آخر .

الفصل العاشر

في بيان أحوال بعض أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)

الأوّل : سلمان المحمّدي

سلمان رضوان الله عليه ، وهو أوّل الأركان الأربعة ، مخصوص بشرف : « سلمان منّا أهل البيت » منسلك في سلك أهل بيت النبوّة والعصمة ، ومن قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في فضله :

« سلمان بحر لا يُنزف ، وكنز لا ينفد ، سلمان منّا أهل البيت ، يمنح الحكمة ، ويؤتي البرهان » .

قال عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) : « ومن لكم بمثل لقمان الحكيم » ؟ بيد أن الإمام الصادق (عليه السلام) قال عنه : « سلمان خير من لقمان » ، وقال عنه الإمام الباقر (عليه السلام) : كان سلمان من المتوسّمين » .

ويستفاد من الروايات أنّ سلمان علم الاسم الأعظم ، وأنّه كان محدَّثاً ، وأن الإيمان عشر درجات ، وسلمان في العاشرة منها ، وكان عالماً بعلم الغيب والمنايا ، وأنه كان يميل إلى تحف الجنّة في الدنيا ، وأن الجنّة كانت مشتاقة وعاشقة له ، وأنّ الله ورسوله (صلّى الله عليه وآله) يحبّانه ، وأنّ الله عزّ وجلّ أمر النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بحبّ أربعة سلمان أحدهم . ونزلت آيات في مدحه ومدح أقرانه . وكان جبرئيل (عليه السلام) ما حضر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلّا أمره أن يقرئه السلام عن الله عزّ وجلّ ، وأمره أن يطلعه على علم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب ، وكانت له ليالي خلوة مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومع أمير المؤمنين (عليه السلام) يعلّمانه من مكنون علم الله ومخزونه ما لا يقوى على تحمّله أحد ، حتى بلغ مرتبة قال عنها الإمام الصادق (عليه السلام) :

« أدرك سلمان العلم الأوّل والعلم الآخر ، وهو بحرٌ لا يُنزح ، وهو منّا أهل البيت » .

يقول القاضي نور الله : كان سلمان الفارسيّ منذ صباه يسعى في طلب الدين الحق ، فتردّد على علماء الأديان من يهود ونصارى وغيرهم ، وكان يصبر على ما يلقى من شدائد في هذا الطريق ، حتى أن عشرة أسياد تناقلوه بيعاً وشراء حتى وصل إلى سيّد الكائنات عليه وآله أفضل الصلوات ، فاشتراه من بعض اليهود بمبلغ من مال ، وبلغ من المحبّة والإخلاص والمودّة ، واختصاصه بالانتساب إلى الحضرة النبوية مكاناً يدعو للفخر ، مشحوناً بمضمون الرعاية من لسان النبي المبارك ، إذ يقول : « سلمان منّا أهل البيت » . ولنعم ما قيل :

كانت مودّة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحما

ويروي الشيخ الأجلّ أبو جعفر الطوسي نوّر الله مشهده ، في كتاب (الأمالي) عن منصور بن بزرج أنه قال :

قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : ما أكثر ما أسمع منك سيّدي ذكر سلمان الفارسي ، فقال : لا تقل سلمان الفارسي ، ولكن قل : سلمان المحمّدي ، أتدري ما كثرة ذكري له ؟ قلت : لا ، قال : لثلاث خلال : إحداها إيثاره هوى أمير المؤمنين (عليه السلام) على هوى نفسه ، والثانية : حبّه الفقراء واختياره إيّاهم على أهل الثروة والعدد ، والثالثة : حبّه للعلم والعلماء ؛ وإنّ سلمان كان عبداً صالحاً حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين .

كما روى بإسناده عن سدير الصيرفي ، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : « كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد ، فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتّى بلغوا سلمان ، فقال له عمر بن الخطّاب : أخبرني من أنت ، وما أصلك ، وما حسبك؟ فقال سلمان :

أنا سلمان بن عبد الله ، كنت ضالاً فهداني الله عزّ وجلّ بمحمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد (صلّى الله عليه وآله) ، فهذا حسبي ونسبي يا عمر . انتهى .

وجاء في الخبر أن أبا ذرّ دخل على سلمان وهو يطبخ قدراً له ، فبينا هما يتحادثان إذ انكفأت القدر على وجهها على الأرض ، فلم يسقط من مرقها ولا من ودكها[1] شيء ، فعجب من ذلك أبو ذرّ عجباً شديداً ، وأخذ سلمان القدر فوضعها على حالها الأول على النار ثانية ،

---

(١) الودك : الدسم من اللحم والشحم .

وأقبلا يتحدّثان ، فبينما هما يتحدّثان إذ انكفأت القدر على وجهها ، فلم يسقط منها شيء من مرقها ولا من ودكها .

قال : فخرج أبو ذرّ وهو مذعور من عند سلمان ، فبينما هو متفكّر إذ لقي أمير المؤمنين (عليه السلام) على الباب ، فلمّا أن بصر به أمير المؤمنين (عليه السلام) قال له : يا أبا ذرّ ، ما الذي أخرجك ، وما الذي أذعرك ؟ فقال له أبو ذرّ : يا أمير المؤمنين ، رأيت سلمان صنع كذا وكذا فعجبت من ذلك ، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : يا أبا ذرّ ، إنّ سلمان لو حدّثك بما يعلم لقلت : رحم الله قاتل سلمان : يا أبا ذرّ ، إنّ سلمان باب الله في الأرض ، من عرفه كان مؤمناً ، ومن أنكره كان كافراً ، وإنّ سلمان منّا أهل البيت .

وقدم المقداد على سلمان وكان رفع قدراً على موقد دون نار ، والقدر تغلي ، فقال : يا أبا عبد الله ، قدر تغلي من غير نار . فتناول سلمان حجرين وضعهما تحت القدر فاشتعلا كالقش ، وزاد غليان القدر ، قال سلمان : يا مقداد سكّن غليان القدر ، قال : وكيف أجعله يسكن ولا أرى ما أسكّنه له ! فأدخل سلمان يده المباركة في القدر كالمغرفة فسكن ، وسحب يده وعليها أثر من الحساء ، فعجب المقداد من ذلك أشدّ العجب ، وروى القصة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

وإجمالاً فالروايات في فضله أكثر من أن تذكر ، وسيأتي طرف منها عند الحديث عن أحوال أبي ذرّ (رضي الله عنه) ، وقد توفّي في المدائن سنة ست وثلاثين ، وصار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) من المدينة ليلة موته ، إذ طويت له الأرض ، فغسله وكفّنه وصلّى عليه ، ودفن هناك .

وفي رواية أنّه لمّا جاء أمير المؤمنين (عليه السلام) ليغسله ، رفع الشملة عن وجهه ، فتبسّم سلمان ، فقال له :

مرحباً يا أبا عبد الله ، إذا لقيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقل له ما مرّ على أخيك من قومك .

قال : ثمّ أخذ في تجهيزه ، فلمّا صلّى كنّا نسمع من أمير المؤمنين (عليه السلام) تكبيراً شديداً ، وكنت رأيت معه رجلين ، فقال : أحدهما جعفر أخي ، والآخر الخضر (عليه السلام) ، ومع كلّ واحد منهما سبعون صفّاً من الملائكة ، في كلّ صفّ ألف ألف ملك .

وفي نفس الليلة رجع أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى المدينة ، ويقوم قبر سلمان في المدائن في صحن كبير ، وهو مزار لكلّ بادٍ وحاضر .

وقد نقلت زيارته (رضي الله عنه) في (هدية الزائرين ، والمفاتيح) .

الثاني : أبو ذرّ ، جُندب بن جُنادة

وهو من قبيلة غفار ، وأحد الأركان الأربعة ، وكان ثالث مَن أسلم ، وعلى قول : كان الرابع أو الخامس ، ورجع إلى قومه بعد إسلامه فلم يشهد بدراً وأحد والخندق ، ثم قدم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فلزمه ، وكانت مكانته عنده تفوق الذكر ، وقال (صلّى الله عليه وآله) في حقّه الكثير ، ودعاه بصدّيق الأمّة وشبيه عيسى ابن مريم في الزهد ، ومن أقواله في حقّه الحديث المشهور :

« ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ » .

يقول العلاّمة المجلسي في (عين الحياة) :

يستفاد من أخبار الخاصّة والعامّة أنه بعد المعصومين (عليه السلام) ليس بين الصحابة من يفوق سلمان الفارسي وأبا ذرّ والمقداد جلالة قدر ورفعة شأن ، ويظهر من بعض الأخبار أن سلمان يرجح أبا ذر ، وهو يرجح المقداد .

وقال : قال أبو الحسن موسى (عليه السلام) : « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين حواريّي محمّد بن عبد الله رسول الله ، الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه؟ فيقوم سلمان وأبو ذرّ والمقداد » .

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « إنّ الله تعالى أمرني بحبّ أربعة من أصحابي ، فقيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : عليّ والمقداد وسلمان وأبو ذرّ » .

ويروى بأسانيد كثيرة في كتب السنّة والشيعة أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال :

« ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ » .

وهذا ابن عبد البرّ ، وهو من أعاظم علماء السنّة يروي في كتاب (الاستيعاب) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال: أبو ذر في أمّتي بزهد عيسى ابن مريم، وفي رواية أخرى: شبيه عيسى ابن مريم في الزهد؛ ويروي أيضاً أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قال عن أبي ذرّ:

« ذلك رجل وعى علماً عجز عنه الناس ، ثمّ أوكأ عليه ولم يخرج شيئاً منه » .

يروي ابن بابويه بسند معتبر عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال :

« إنّ أبا ذرّ أتى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومعه جبرئيل في صورة دحية الكلبي وقد استخلاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلما رآهما انصرف عنهما ولم يقطع كلامهما ، فقال جبرئيل : يا محمّد ، هذا أبو ذرّ قد مرّ بنا ولم يسلّم علينا ، أما لو سلّم لرددنا عليه ، يا محمّد ، إنّ له دعاء يدعو به معروفاً عند أهل السماء ، فاسأله عنه إذا عرجتُ إلى السماء .

فلما ارتفع جبرئيل (عليه السلام) جاء أبو ذرّ إلى النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : ما منعك يا أبا ذرّ أن تكون سلّمت علينا حين مررت بنا ؟ فقال : ظننت يا رسول الله أن الذي معك دحية الكلبي قد استخليته لبعض شأنك ، فقال : ذاك جبرئيل (عليه السلام) وقد قال : أما لو سلّم علينا لرددنا عليه ، فلمّا علم أبو ذرّ أنه كان جبرئيل (عليه السلام) دخله من الندامة حيث لم يسلّم عليه ما شاء الله ، فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : ما هذا الدعاء الذي تدعو به ؟ فقد أخبرني جبرئيل (عليه السلام) أنّ لك دعاء تدعو به معروفاً في السماء ، فقال : نعم يا رسول الله ، أقول :

« اللهم إنّي أسألك الإيمان بك ، والتصديق بنبيّك ، والعافية من جميع البلاء ، والشكر على العافية ، والغنى عن شرار الناس » .

وعن أبي عبد الله عن أبيه (عليهما السلام) قال :

« بكى أبو ذرّ رحمة الله عليه من خشية الله عزّ وجلّ حتى اشتكى بصره ، فقيل له : يا أبا ذرّ ، لو دعوت الله أن يشفي بصرك ، فقال : إنّي عنه لمشغول ، وما هو أكبر همّي ؛ قالوا : وما يشغلك عنه ؟ قال : العظيمتان : الجنة والنار » .

ويروي ابن بابويه عن عبد الله بن عبّاس قال :

كان النبي (صلّى الله عليه وآله) ذات يوم في مسجد قبا وعنده نفر من أصحابه ، فقال أوّل من يدخل عليكم الساعة رجل من أهل الجنّة ، فلمّا سمعوا ذلك قام نفر منهم فخرجوا وكلّ واحدٍ يحبّ أن يعود ليكون هو أوّل داخل ، فيستوجب الجنة ؛ فعلم النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ذلك منهم ، فقال لمن بقي من أصحابه : سيدخل عليكم جماعة يستبقوني ، فمن بشّرني بآذار فله الجنّة » .

فعاد القوم ودخلوا ومعهم أبو ذرّ ، فقال لهم : في أيّ شهر نحن من الشهور الروميّة ؟ فقال أبو ذرّ : قد خرج آذار يا رسول الله ، فقال : قد علمت ذلك ، ولكن أحببت أن يعلم قومي أنّك رجل من الجنّة ؛ وكيف لا تكون كذلك وأنت المطرود عن حرمي بعدي لمحبتك لأهل بيتي ، فتعيش وحدك ، وتموت وحدك ، ويسعد بك قوم يتولّون تجهيزك ودفنك ، أولئك رفقائي في جنّة الخلد التي وعد المتّقون .

وقد نقل أرباب السير المعتبرة أن أبا ذرّ كان عاملاً لعمر على الشام ، حتى خلافة عثمان الذي أحلّ معاوية بن أبي سفيان محلّه على الشام ، وانصرف معاوية إلى الدنيا وبهارجها ، وشغف بقصورها وعماراتها ، فانبرى إليه أبو ذرّ باللوم والتوبيخ ، وراح يدعو إلى الخليفة بالحقّ أمير المؤمنين (عليه السلام) منوّهاً بمناقبه وفضائله ، داعياً أهل الشام إليه حتّى مال كثير منهم إلى التشيع له ، ومن هنا ما اشتهر من أنّ شيعة الشام وجبل عامل كانوا ثمرة دعوة أبي ذرّ ونتاج بركته .

فكتب معاوية إلى عثمان يقول : أمّا بعد ، فإن كان لك حاجة في الناس قبلي فأقدم إليك أبا ذرّ ، فإنّي أخاف أن يفسد عليك الناس .

فكتب إليه عثمان : أمّا بعد ، فحين تنظر في كتابي فاحمل جنيدباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره ، حتّى يغلب عليه النوم من الجهد فيغفل عن ذكري وذكرك .

فوجّه به مع من سار به الليل والنهار ، وحمله على بعير ليس عليه وطاء ، وكان أبو ذرّ (رحمه الله) رجلاً طوالاً نحيفاً ، قد عدا عليه الشيب فابيضّ شعر رأسه وفوديه ، وهكذا حتى قدم به المدينة بعد أن سقط لحم فخذَيْه من الجهد .

وفي المدينة ، راح أبو ذرّ يعرّض بعثمان وفعاله ، وكان إذا رآه تلا الآية الكريمة :

﴿ يوم يُحمى عليها في نار جهنّم فتُكوى بها جباهُهم وجنوبهم وظهورهم ﴾ .

معرّضاً بعثمان ومحذّراً وواعظاً ، لكنّ عثمان لم يستجب لما يقوم به أبو ذرّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم تزده مواعظه إلاّ إمعاناً في ملامته ، فقضى بخروجه مع أهله وعياله إلى الرَّبَذة ، ولم يكتف بذلك ، بل إنّه حظر على الناس أن يقاعدوه أو يكلّموه ، لا بل حتى إنه حظر عليهم تشييعه عند خروجه ، لكن أمير المؤمنين والحسنين (عليهم السلام) خرجوا لتشييعه يرافقهم عقيل وعمار بن ياسر وغيرهم ، فاعترض مروان بن الحكم طريقهم ، وكان مكلّفاً من عثمان أن يخرج بأبي ذرّ .

قال مروان مخاطباً الحسن (عليه السلام) : إيهاً يا حسن ، ألا تعلم أنّ أمير المؤمنين قد نهى عن كلام ذلك الرجل ؟ فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك .

فحمل عليّ على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته ، وقال : تنحّ نحّاك الله إلى النار. فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر، فلما لقي عثمان أمير المؤمنين (عليه السلام) قال له فيما قال: إنّ مروان يشكو أنك ضربت راحلته، فأجاب: دونه راحلتي فليقتصّ منها.

وإجمالاً ، فقد صار أبو ذرّ إلى الربذة ، وبلغ من معاناته هناك أنّ ولده ذرّاً مات ، وكانت له غنيمات يقتات بها مع عياله فأصابتها آفة فنفقت ، كما ماتت زوجه في الربذة أيضاً ، فبقي وحيداً إلّا من ابنته .

تقول ابنته : أصابنا الجوع ، وبقينا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً ، فقال لي أبي : يا بنيّة ، قومي بنا إلى الرمل نطلب القتّ ، وهو نبت له حبّ ، فصرنا إلى الرمل فلم نجد شيئاً ، فجمع أبي رملاً ووضع رأسه عليه ، ورأيت عينيه قد انقلبتا وهو يحتضر ، فبكيت وقلت له : يا أبه ، كيف أصنع بك وأنا وحيدة ؟ فقال : يا ابنتي لا تخافي ، فإنّي إذا متّ جاءك من أهل العراق من يكفيك أمري ، وقد أخبرني بذلك حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في غزوة تبوك ، فإذا أنا متّ فمدّي الكساء على وجهي ، ثم اقعدي على طريق العراق ، فإذا أقبل ركب فقومي إليهم وقولي : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد توفّي .

قالت : فدخل إليه قوم من أهل الربذة فقالوا : يا أبا ذرّ ، ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قالوا : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قالوا : هل لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني .

قالت : فلمّا عاين سمعته يقول : مرحباً بحبيب أتى على فاقة ، لا أفلح من ندم ، اللهم خنّقني خناقك ، فوحقّك إنّك لتعلم انّي أحبّ لقاءك ، وأنّي لم أك قطّ للموت كارهاً .

قالت ابنته : فلمّا مات مددت الكساء على وجهه ، ثمّ قعدت على طريق العراق ، فجاء نفر فقلت لهم : يا معشر المسلمين ، هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد توفّي ، فنزلوا ومشوا يبكون ، فجاؤوا فغسلوه وكفّنوه ، وصلّوا عليه ودفنوه ، وكان فيهم الأشتر .

ويروى أنّ مالكاً قال : كفّنته في حلّة كانت معي قيمتها أربعة آلاف درهم .

يقول ابن عبد البرّ : كانت وفاة أبي ذرّ في السنة الحادية والثلاثين أو الثانية والثلاثين من الهجرة ، وصلّى عليه عبد الله بن مسعود .

الثالث : أبو معبد ، المقداد بن الأسود

هو المقداد بن عمرو البهرانيّ ، وكان الأسود بن عبد يغوث قد تبنّاه فنسب المقداد إليه .

كان هذا الرجل الكبير قديم الإسلام ، وكان من الفضلاء الأخيار من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وواحداً من الأركان الأربعة ؛ كان عظيم القدر شريف المنزلة . وتديّنه وشجاعته ممّا أجمع السنّة والشيعة على التنويه بهما وعلى ذكر فضله وجلاله .

ويروى عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال :

« إن الله تعالى أمرني بحبّ أربعة من أصحابي وأخبرني أنّه يحبّهم ، فقيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : عليّ (عليه السلام) والمقداد وسلمان وأبو ذرّ » . رضوان الله عليهم أجمعين .

كانت زوجه ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطّلب ، بنت عمّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شهد جميع غزواته (صلّى الله عليه وآله) ، وهو أحد الأربعة الذين تشتاق الجنة لهم ، والأخبار في فضله أكثر ممّا يستوعبها المقام ، ونكتفي منها بهذا الحديث الذي رواه الكشّي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

« ارتدّ الناس إلا ثلاثة نفر : سلمان وأبو ذرّ والمقداد » قال الراوي : فقلت : عمّار ؟ قال : « حاص حيصة ثم رجع » ثم قال :

« إن أردت الذي لم يشكّ ولم يدخله شيء فالمقداد » .

وفي الخبر أنّ قلبه كان مثل زبر الحديد .

وعن كتاب الاختصاص ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال :

« إنّما منزلة المقداد بن الأسود في هذه الأمة كمنزلة ألِف في القرآن لا يلزق بها شيء » .

توفّي المقداد سنة ثلاث وثلاثين للهجرة في الجرف ، وهو موضع على فرسخ من المدينة ، فحمل جثمانه ودفن في البقيع ، والقبر الذي ينسب إليه في شهروان ولا واقع له . نعم ، يحتمل أن يكون قبر الفاضل المقداد السيوري ، أو قبر أحد مشايخ العرب .

ومن الغرائب أن ابنه معبد ـ مع جلالة شأن أبيه ـ كان من أهل الخلاف ، وشهد الجمل مع جيش عائشة ، وقتل ، ولما استعرض أمير المؤمنين (عليه السلام) القتلى مرّ بمعبد المذكور فقال : رحم الله أباه ، فلو كان حيّاً لكان رأى خيراً من رأيه ؛ فقال عمار بن ياسر ، وكان في صحبته : الحمد لله الذي جزى معبداً القتل ، فوالله لم أخش في قتل رجل عدل عن الحق خشيتي من قتل ابن هذا أبوه ، فقال (عليه السلام) : رحمك الله وجزاك خيراً .

الرابع : بلال بن رباح

مؤذّن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أمّه حُمامة ، وكنيته أبو عبد الله وأبو عمرو ، وهو من السابقين في الإسلام ، وقد شهد بدراً وأحد والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ويروى أنّه يلفظ الشين سيناً ، وفي الرواية : إنّ سين بلال شين عند الله تعالى .

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال : رحم الله بلالاً ، فهو يحبّنا أهل البيت ،

وكان عبداً صالحاً ، وكان يقول : لن أرفع الأذان لأحد بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومنذ ذلك اليوم تُرك قول « حيّ على خير العمل » ، ويقول شيخنا في (نفس الرحمن) : إن بلالاً حين قدم من الحبشة أنشد في مدح رسول الله (صلّى الله عليه وآله) باللسان الحبشي :

أره بري كنكره كري كرا منسدره

فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حسان بن ثابت بشرح معنى هذا الشعر بالعربية فقال :

إذا المكارم في آفاقنا ذُكرت فإنّما بك فينا يُضرب المثل

توفيّ بلال بالطاعون في الشام سنة ثماني عشرة أو سنة عشرين للهجرة ، ودفن في الباب الصغير هناك .

أقول : إن قبره مزار مشهور ، وقد قدمتُه زائراً .

الخامس : جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري

صحابيّ جليل القدر من أصحاب بدر ، وردت في مدحه روايات كثيرة ، وهو مَن أبلغ سلام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى الإمام محمد الباقر (عليه السلام) ، وكان أوّل من زار الإمام الحسين (صلّى الله عليه وآله) في يوم الأربعين ، وهو من قرأ الصحيفة السماوية التي تحمل النصّ من الله عزّ وجلّ على أئمة الهدى عليهم السلام ، وذلك عند فاطمة (صلوات الله عليها) ، وأخذ نسخة عن تلك الصحيفة .

وعن (كشف الغمّة) أن الإمام زين العابدين (عليه السلام) وابنه الإمام محمد الباقر (عليه السلام) لقيا جابراً ، وكان الباقر (عليه السلام) طفلاً ، فقال له أبوه : قبّل رأس عمّك ؛ فاقترب الباقر (عليه السلام) من جابر فقبّل رأسه ، وكان جابر قد كُفّ بصره ، فقال : من هذا ؟ قال الإمام السجّاد (عليه السلام) : إنّه ابني محمد ، فاحتضنه جابر إليه وقال : يا محمّد ، محمّد رسول لله (صلّى الله عليه وآله) يقرئك السلام .

وعن (الاختصاص) يروي أن جابراً سأل الباقر (عليه السلام) أن يضمن له الشفاعة يوم القيامة ، فقبل (عليه السلام) .

وقد شهد جابر هذا كثيراً من غزوات الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، كما شهد صفّين مع أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولم يترك الاعتصام بحبل الله المتين وموالاة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان يدعو الناس باستمرار إلى محبّة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان يعبر أزقّة المدينة ويحضر مجالس الناس وهو يقول : « عليّ خير البشر ، فمن أبى فقد كفر » .

ويقول أيضاً : معاشر الأصحاب ، أدّبوا أولادكم على حبّ عليّ (عليه السلام) ، فمن أبى محبّته فانظروا أمّه ماذا فعلت .

توفي جابر في السنة الثامنة والسبعين للهجرة ، بعد أن غدا كفيف البصر وقد جاوز التسعين ، وكان آخر صحابيّ يتوفّى في المدينة ، وكان أبوه عبد الله الأنصاريّ من النقباء الذين شهدوا بدراً وأحداً ، وقتل في وقعة أحد ، ودفن مع زوج أخته عمرو بن الجموح في قبر واحد ، وقصة هدم قبور شهداء أحد أيّام معاوية لإجراء الماء معروفة .

السادس : حُذَيفة بن اليمان العبسيّ

من كبار أصحاب سيّد المرسلين ، ومن خواصّ أمير المؤمنين (عليهما وآلهما السلام) ، وهو أحد السبعة الذين صلّوا على فاطمة (عليها السلام) ، وقد شهد مع أبيه وأخيه صفوان وقعة أحد في ركاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وفي ذلك اليوم ، ولما اشتدّ أوار القتال ، قتل أحد المسلمين أباه ، ظنّاً منه أنّه من المشركين .

هذا وبناء على سرٍّ كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد استودعه إيّاه فقد أضحى حذيفة على معرفةٍ بالمنافقين من الصحابة ، ونتيجة لهذه المعرفة فإن الخليفة الثاني كان يأبى حضور الصلاة على ميّت ما لم يكن حذيفة حاضراً لتلك الصلاة .

وقد كان حذيفة عاملاً لعمر بن الخطاب على المدائن ، ثم عزله في وقت لاحق وعيّن سلمان (رضي الله عنه) ، محلّه ، إلى أن توفّي سلمان ، وعاد حذيفة والياً على المدائن من جديد واستقرّ في عمله حتى حلّ دور صاحب الولاية عليّ (عليه السلام) ، فأرسل كتاباً إلى أهل المدائن يطلعهم فيه على مبايعته بالخلافة مع أمره المبارك بإقرار حذيفة في عمله ، لكن حذيفة ـ بعد تحرك أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى البصرة لقمع شرّ أصحاب الجمل ، وقبل نزول موكبه المبارك في الكوفة ـ توفّي ودفن في المدائن .

ويروى عن أبي حمزة الثمالي أن حذيفة ـ لمّا قاربته الوفاة ـ دعا ابنه وأوصاه بالعمل بنصائح عدّدها له فقال :

ولدي العزيز ، أظهر يأسك ممّا في أيدي الناس ، ففي يأسك هذا الغنى والقوة ؛ ولا تسأل الناس حاجاتك فذاك هو الفقر عينه ، وليكن يومك الذي أنت فيه خيراً من أمسك الذي مضى ؛ ولتكن صلاتك إذا صلّيت كأنّما هي صلاة الوداع ، وكأنّما هي صلاتك الأخيرة ؛ ولا تعمل عملاً يحوجك إلى الاعتذار عنه .

وعن (رجال) ابن داود وغيره أنه قال : حذيفة بن اليمان أحد الأركان الأربعة .

وبعد وفاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سكن حذيفة الكوفة ، وتوفّي في المدائن بعد بيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) بأربعين يوماً ، وفي مرض موته أوصى ابنيه صفوان وسعيداً ببيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وعملا بوصيّته ، وشهدا حرب صفّين واستشهدا .

السابع : أبو أيّوب الأنصاريّ

هو خالد بن زيد ، من كبار الصحابة ، حضر بدراً وسائر المشاهد ، وهو الذي نزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في بيته عند هجرته من مكّة إلى المدينة ، وخدماته ، وخدمات أمّه لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) طيلة وجوده في بيته معروفة ، وفي ليلة زفاف رسول الله إلى صفيّة لبس أبو أيّوب سلاحه ووقف يحرس خيمة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولما رآه (صلّى الله عليه وآله) دعا له وقال : « اللهم احفظ أبا أيّوب كما حفظ نبيّك » .

وقال الشهيد القاضي السيد نور الله في (المجالس) في ترجمته :

أبو أيوب بن زيد الأنصاري ، اسمه خالد ، غير أن كنيته غلبت على اسمه ، حضر غزاة بدر وغيرها من غزوات الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، وقد انتقل (صلّى الله عليه وآله) من بيت أبي أيّوب ، وفي حرب الجمل وصفّين والخوارج كان يلازم أمير المؤمنين (عليه السلام) في جهاده .

وجاء في ترجمة (الفتوح) لابن الأعثم الكوفي أن أبا أيّوب خرج من صفوف جيش الإمام (عليه السلام) في بعض أيام صفين ودعا للمبارزة ، فلم يستجب لندائه أحد من جيش الشام ، رغم تكراره النداء ، ذلك أنّ أحداً لم يرغب بقتاله فما كان منه إلا أن نزل بسوطه على فرسه وحمل على جيش الشام ، فتفرّق القوم عنه وتجنّبوا مواجهته حتى بلغ خيمة معاوية ، وكان معاوية يقف عند باب الخيمة فما أن رأى أبا أيّوب حتى انهزم مندفعاً إلى داخل الخيمة ، وخرج من جانبها الآخر .

وقف أبو أيّوب على باب الخيمة يدعو للمبارزة ، فتوجه نحوه جماعة من أهل الشام فحمل عليهم وأصاب بعض المعروفين منهم بجراح بليغة ، ثم رجع سالماً إلى مكانه .

رجع معاوية إلى خيمته مصفّر اللون مكفهرّ الوجه ، وراح يلوم رجاله ويعنف بهم قائلاً : كيف يقتحم صفوفكم فارس من جنود علي ، ويصل إلى خيمتي ، إلا أن يكون قد أسركم وغلّ أيديكم حتى أن أحداً منكم لم يستطع أن يتناول حفنة من تراب فيرميه بها .

قال رجل من أهل الشام اسمه المترفّع بن منصور : يا معاوية ، لتكن خالي الفؤاد ، فنحن أيضاً من نوع هذا الفارس الذي وصل بحملته إلى خيمتك ، وسنحمل حتى نبلغ خيمة عليّ بن أبي طالب ، ولو رأيت عليّاً وأمكنتني منه الفرصة لجرحته وأثلجت فؤادك .

ثم حثّ جواده مندفعاً به نحو جيش الإمام (عليه السلام) ، مغيراً على خيمته ، فلما رآه أبو أيّوب اندفع إليه ، وعاجله بضربة من سيفه على عنقه فقدّه ، وخرج السيف من الجانب الآخر ، ومن تأثير الضربة الصافية المحكمة ، ولمضاء السيف فقد بقي الرأس مكانه على عنقه ، ولمّا وقف الجواد على قائمتيه الخلفيتين سقط الرأس على جانب وتهاوى الجسد على الجانب الآخر ، وبلغ العجب من الحضور منتهاه من ضربة أبي أيّوب ، وراحوا يثنون عليه .

وفي زمن معاوية خرج أبو أيّوب لغزو الروم ، ولمّا بلغ تلك الديار وقع مريضاً وأوصى أن يدفن بعد مماته في الموضع الذي يلقى فيه المسلمون جيش العدو ، وبناء على ذلك فقد دفن في ظاهر مدينة استنبول قرب سور المدينة ، وغدا مرقده المنوّر محلاً لاستشفاء المسلمين والنصارى .

وأورد صاحب (الاستيعاب) في باب الكنى أن الروم بعد أن فرغوا من الحرب قصدوا القبر لنبشه ، لكنّ محاولتهم اقترنت بنزول أمطار غزيرة ذكّرتهم بقهر الخالق عزّ وجلّ فتنبهّوا وأقلعوا عن عزمهم .

أقول : أخبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن مدفن أبي أيّوب حيث قال : يدفن عند القسطنطينيّة رجل صالح من أصحابي .

الثامن : خالد بن سعيد بن العاص

هو خالد بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ القرشيّ ، نجيب بني أميّة ، كان من السابقين الأوّلين المتمسّكين بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) .

وسبب إسلامه هو أنّه رأى في منامه أن ناراً شبّت ، وأنّ أباه يريد أن يلقي به فيها ، ورأى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يبادر إليه ويخلّصه من النار ؛ فلما أفاق من نومه أسلم ، وكان رفيق جعفر بن أبي طالب في هجرته إلى الحبشة وعودته منها ، وشهد غزوة الطائف وفتح مكة وغزوة حنين ، وتولّى صدقات اليمن بتكليف من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وهو من عقد لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) على أمّ حبيبة بنت أبي سفيان مع النجاشيّ ملك الحبشة .

وبعد وفاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) امتنع خالد عن بيعة أبي بكر ، ولم يبايع إلاّ بعد أن أكرهوا أمير المؤمنين (عليه السلام) على البيعة ، وقد أفصح عن كرهه للبيعة ، وكان أحد اثني عشر رجلاً أنكروا على أبي بكر ما فعل ، وحاجّوه في ذلك في يوم جمعة وهو واقف على المنبر .

وهـذه المحاجّـة موجـودة في كتابي (الاحتجـاج) و(الخصـال) ، كـما ورد في (مجـالس المؤمنين) أن أخوين لخالد وهما أبان وعمر ، امتنعا أيضاً عن بيعة أبي بكـر ، وتابعـا أهل البيت (عليهم السلام) ، وكانوا يقولون لهم :

إنّكم لطوالُ الشجر ، طيّبو الثمر ، ونحن تبعٌ لكم .

التاسع : خُزَيمة بن ثابت الأنصاريّ

ويلقّب بذي الشهادتين ، ذلك أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اعتبر شهادته بمثابـة شهادتين ، شهد بدراً وما بعدها من غزوات ، ويُعدّ من السابقين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ينقل البهائي في (الكامل) أن خـزيمة بن ثـابت وأبا الهيثم الأنصـاريان كـانا جـدّيّين في نصرة أمير المؤمنين (عليه السلام) في يوم صفّين ، وأنّه (عليه السلام) قال : مع أنّهما خذلاني في أوّل أمرهما ، غير أنّهما تابا أخيراً وعرفا سوء ما فعلا .

وأورد صـاحب (الاستيعـاب) أن خـزيمـة كـان في صفّـين مـلازمـاً لأمـير المؤمنين (عليه السلام) ، وأنّه لمّا استشهد عمّار بن ياسر شهر سيفه واشتبك في قتال مع العدو حتى ذاق شربة الشهادة ، رضوان الله تعالى عليه .

ويروى أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) خطب في الأسبوع الأخير من عمره خطبة كانت الأخيرة له (عليه السلام) ، وقال فيها :

« أين إخـواني الذين ركبـوا الطريق ومضـوا على الحق ؟ أين عـمّار ، وأين ابن التّيهان ، وأين ذو الشهادتين ، وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة ، وأُبرِدَ برؤوسهم إلى الفجرة » .

ثمّ ضرب (عليه السلام) بيده إلى لحيته الشريفة فأطال البكاء ، ثم قال :

« أوّهِ على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه . . . » .

العاشر : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبيّ

وهو الذي أُسر في الجاهلية ، فاشتراه حكيم بن حزام من أجل خديجة ، في سوق عكاظ من نواحي مكّة ، فوهبته خديجة (رضي الله عنها) إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه) ، ولمّا علم أبوه حارثة بذلك قدم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ملتمساً إطلاق ابنه لقاء فدية ، فطلب إليه (صلّى الله عليه وآله) أن يخيّر ولده بين الذهاب مع أبيه أو البقـاء ، فقال زيـد : لا

أختار على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أحداً ، قال أبوه : أي بنيّ ، أتختار العبودية على الحريّة ، وتهجر أباك ؟ قال : لقد رأيت من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما لا أختار معه غيره أحداً .

لما سمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قوله صحبه إلى الكعبة ، وقال لمن فيها : إنّي أشهدكم على أن زيداً ابني ، يرثني وأرثه ؛ فلما رأى حارثة ذلك زال غمّه على ابنه وقفل راجعاً ، ومذ ذاك أضحى زيد معروفاً بزيد بن محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وكان ذلك حتى أمر الله عزّ وجلّ بالجهر بالإسلام ونزلت الآية المباركة : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم .. ﴾ الآية ؛ ولمّا نزل الحكم في قوله تعالى : ﴿ أدعوهم لآبائهم ﴾ صاروا يدعونه زيد بن حارثة ، وكفّوا عن تسميته بزيد بن محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، كما أنّ الآية الشريفة : ﴿ ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ﴾ إشارة أيضاً لهذا الأمر ، لا أنّ المراد بها أنّه (صلّى الله عليه وآله) ليس أباً للحسن والحسين ، وذلك أنّهما ابناه بحكم القول : ﴿ أبناءنا ﴾ في آية المباهلة وغيرها .

وزيد يكنّى بأبي أسامة ، باسم ولده أسامة ، وقد استشهد في مؤتة حيث استشهد أيضاً جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) .

الحادي عشر : سعد بن عُبادة

هو سعد بن عُبادة بن دُلَيْم بن حارثة الخزرجيّ الأنصاريّ ، سيّد الأنصار وجواد عصره ، ونقيب الرسول المختار (صلّى الله عليه وآله) ، حضر العقبة وبدراً ، وكانت معه راية رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوم فتح مكّة ، كان رجلاً عظيماً ، بلغ في الجود الغاية ، وكان ابنه قيس وأبوه وجدّه أيضاً من الأجواد ، كانوا لا يملّون من قرى الأضياف والوافدين ، وفي أيام جدّه دُلَيْم كان مناديه ينادي كل يوم أمام دار ضيافته : « مَن أراد الشحم واللحم فليأت دار دُلَيْم » ، وبعد دليم سار ابنه عُبادة في طريق أبيه ، وكان سعد بعده على النهج نفسه ، وفاق قيس بن سعد آباءه في ذلك .

كان دليم وعبادة يقدّمان كل سنة عشرة من الإبل تقرّباً من الصنم « مناة » يرسلانها إلى مكّة ، ولمّا وصل الدور إلى سعد وقيس ـ وكانا قد أسلما ـ كانا يرسلان بهذه الإبل إلى الكعبة كلّ سنة ؛ وقد روي أنّه لمّا كان ثابت بن قيس مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : يا رسول الله ، كان بنو معدّ في الجاهليّة قدوتنا في الكرم ، قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة ، خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام ، إذا فقهوا » .

كان سعد صاحب غيرة شديدة ، حتى أنّه لم يتزوج إلاّ بكراً ، كما لم يجرؤ أحد على الزواج من مطلّقة له .

وإجمالاً فسعد هذا هو الذي أُحضر يوم السقيفة وكان مريضاً محمولاً ، وأراد بنو الخزرج أن يبايعوه ، كما كان الناس يقولون ببيعته ، لكنّ البيعة تمّت لأبي بكر ، ولمّا تزاحم الناس على بيعة أبي بكر من كلّ جانب كادوا يطأون سعداً ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتّقوا سعداً لا تطأوه ، فقال عمر : اقتلوا سعداً قتله الله ، فقام قيس بن سعد وكان ذا شدّة فأخذ بلحية عمر فقال : يا بن الصهّاك الحبشية ، فرّار في الميدان ، وأسد هصور في الأمن والأمان ، والله لو حصحصت[1] من سعد شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة .

وقال سعد بن عبادة : يا بن الصهّاك ، أما والله لو أنّ بي قوّة ما أقوى على النهوض لسمعت منّي في أقطارها وسككها زئيراً يُجحرك وأصحابك ، أما والله لألحقنّك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع .

ثمّ قال : يا آل خزرج ، احملوني من مكان الفتنة ، فحملوه إلى داره .

ثمّ بُعث إليه أن أقبل فبايع ، فقد بايع الناس وبايع قومك ، فقال : أما والله حتّى أرميكم بما في كنانتي من نبلي ، وأخضب سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل وايم الله ، لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتّى أعرض على ربيّ وأعلم ما حسابي .

ولم يبايع قط ، حتى كان في أيام عمر ، فخرج من المدينة إلى الشام ، وكانت له حولها عشيرة كبيرة ، فراح يتنقّل من قرية إلى قرية يقيم فيها أسبوعاً وينتقل إلى غيرها ، حتى إذا كان يوماً يعبر بستاناً فيها كان يتخذه طريقاً أصابه سهم فقتله ، ونسبوا قتله إلى الجنّ ، وقالوا على لسان الجنّ :

قد قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عبادة
فرميناه بسهمين فلم نخطِ فؤاده

الثاني عشر : أبو دُجانة

واسمه سِماك بن خَرَشة بن لَوْذان ، من كبار الصحابة وشجعانهم المعروفين ، وكان صاحب حرز معروف ، وقد حضر حرب اليمامة ، ولمّا ألجأ المسلمون قوم مسيلمة الكذّاب إلى

(١) حصص : حلق .

الحديقة ، وهي حديقة الرحمن ، وقد دعيت بحديقة الموت لشدة القتال الذي وقع فيها ، ودخل قوم مسيلمة الحديقة وأحكموا إغلاقها ، طلب أبو دجانة من المسلمين أن يجعلوه فوق ترس يرفعونه بأسنّة الرماح حتى يبلغ سور الحديقة ، وكان لأبي دجانة قلب كقلب الأسد ، ففعل المسلمون ما طلبه منهم ، وقفز إلى الحديقة وانبرى يجالد القوم كالأسد المصور ، فيقتل ويجندل ، وقفز البراء بن مالك من المسلمين إلى الحديقة وفتح بابها ، فاندفع المسلمون إلى الداخل ، وكان أبو دجانة والبراء قد قتلا فيها ، وعلى قول آخر فإن أبا دُجانة بقي حياً ، وقتل في ركاب أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين .

يقول الشيخ المفيد في (الإرشاد) : روى المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال : يخرج مع القائم (عليه السلام) من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلاً حتى قال : وسلمان ، وأبو ذر ، وأبو دجانة الأنصاريّ ، والمقداد ، ومالك الأشتر ، ثم يكونون عنده (عليه السلام) من الأنصار والحكّام .

الثالث عشر : عبد الله بن مسعود الهُذَليّ

حليف بني زهرة ، ومن السابقين في الإسلام ، يعرف بين الصحابة بعلم قراءة القرآن .

ويقول علماؤنا : إنّه كان يختلط بالمخالفين ويميل إليهم ، ويجلّه علماء السنة كثيراً ويقولون إنه أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى ، ويقول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : خذوا القرآن من أربعة ، وابتدأ بابن أمّ عبد وهو عبد الله بن مسعود ، والثلاثة الأخرون هم : معاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وسالم مولى أبي حذيفة .

وقالوا : قال (صلّى الله عليه وآله) : « من أحبّ أن يسمع القرآن غضّاً فليسمعه من ابن أمّ عبد » .

وابن مسعود هو من فصل رأس أبي جهل يوم بدر عن جسده ، وهو من حضر جنازة أبي ذرّ (رضي الله عنه) ، وكان من القوم الذين أنكروا على أبي بكر جلوسه في مجلس الخلافة ، إلى غير ذلك ؛ وكان له من الأتباع والأصحاب جماعة منهم الربيع بن خيثم المعروف بالخواجة ربيع ، والمدفون في المشهد المقدّس .

الرابع عشر : عمّار بن ياسر العنسيّ

حليف بني مخزوم ، ويكنّى بأبي اليقظان ، من كبار أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ومن المعذّبين في الله ، ومن مهاجري الحبشة ، ومن المصلّين إلى القبلتين ، حضر بدراً وسائر المشاهد ، وقد أسلم مع أبيه ياسر وأمّه سُميّة وأخيه عبد الله في بداية الدعوة ، وأنزلت بهم قريش أشدّ العذاب وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يمرّ بهم وهم

يعذّبون فيسلّيهم ويدعوهم إلى الصبر ويقول : « صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة » ، وكان يقول : اللهم اغفر لآل ياسر .

ويروي ابن عبد البرّ أنّ كفّار قريش أخذوا ياسراً وسميّة وابنيهما عمّاراً وعبد الله مع بلال والخبّاب وصُهَيْب ، فألبسوهم دروعاً من حديد ، وصاروا بهم إلى صحراء مكّة في الشمس المحرقة ، وراحوا ينظرون إليهم حتى أحرقت الشمس والحديد أجسادهم ، وغلبت أدمغتهم ، ونفدت طاقتهم ، فقالوا لهم : إن أردتم الراحة فاكفروا بمحمّد وسُبّوه ، فتظاهروا تقيّةً ، وأتى قومهم ومعهم أبسطة من جلد مبلّلة بالماء ، فألقوهم عليها ، ثم حملوهم وذهبوا بهم .

أقول : الظاهر أن قوم ياسر وعمّار هم بنو مخزوم ، إذ إن ياسراً قحطانيّ ومن عنس بن مذحج ، وقد قدم من اليمن إلى المدينة مع أخويه مالك والحارث بحثاً عن أخٍ آخر لهم ، فبقي ياسر في مكّة ورجع أخواه إلى اليمن ، وصار ياسر حليفاً لأبي حُذيفة بن المغيرة المخزوميّ ، وكانت سميّة جارية له فزوّجه منها فولدت له عمّاراً ، فأعتقه أبو حذيفة ، فلا بدّ أن يكون ولاء عمّار لبني مخزوم ، وبسبب هذا الحلف والولاء ، ولمّا ضرب عثمان عمّاراً حتّى ظهر له فتق وكسرت ضلعه . فقد اجتمع بنو مخزوم وقالوا : والله لو مات عمّار فلن نقتل فيه أحداً غير عثمان .

وإجمالاً فإن كفّار قريش قتلوا ياسراً وسميّة ، فكانا كلاهما شهيدين ، وتلك فضيلة لعمار وأبويه أنهم استشهدوا في سبيل الإسلام ، وكانت سميّة أمّ عمّار من النساء الخيّرات الفاضلات ، وقد لقيت أشدّ العذاب في سبيل الإسلام ، وانتهى الأمر بها إلى الشهادة بعد أن أشبعها أبو جهل سبّاً وشتماً ، ثمّ طعنها بحربة شقّت أحشاءها ، وكانت أوّل شهيدة في الإسلام .

وفي الخبر أنّ عماراً قال للنبيّ (صلّى الله عليه وآله) :

يا رسول الله ، بلغ العذاب من أمّي كلّ مبلغ ، فقال : صبراً يا أبا اليقظان ، اللهمّ لا تعذّب أحداً من آل ياسر بالنار .

وأمّا عمّار فيروى أنّ مشركي قريش رموه في النار ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « يا نار كوني برداً وسلاماً على عمّار ، كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم » ، فلم تضرّه النار .

هذا وإن قصّة ما حمله عمّار من الأحجار عند بناء المسجد النبوي وكونه ضعف ما حمله الآخرون ، ورجزه وأقواله لعثمان ، وأقوال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في جلال شأنه ، أمور مشهورة .

وقد ورد في صحيح البخاري أن عمّاراً حمل ضعف ما حمله الآخرون من أحجار ، ليكون الواحد عنه والآخر عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فكان النبي (صلّى الله عليه وآله) يمسح على رأسه ووجهه ويقول :

« ويح عمّار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

كما يروى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال في حقّه :

« عمّار مع الحقّ والحقّ مع عمّار حيث كان ، عمّار جلدة بين عيني وأنفي ، تقتله الفئة الباغية » .

وقال (صلّى الله عليه وآله) أيضاً : عمار ملىء إيماناً من رأسه إلى قدميه .

استشهد عمّار في صفّين ؛ في التاسع من صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة ، (رضوان الله عليه) ؛ وجاء في (مجالس المؤمنين) أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) صلّى عليه بنفسه ودفنه بيده المباركة ، وكان عمره إحدى وتسعين سنة .

ويروي بعض المؤرخين أن عمّار بن ياسر (رضي الله عنه) ، وفي اليوم الذي استشهد فيه ، رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم لو أعلم أنّه أرضى لك أن ألقي بنفسي في ماء الفرات فأغرق لفعلت ، وقال في مرّة أخرى : اللهمّ لو أعلم أنّه أرضى لك أن أقحم هذا السيف في بطني حتى يخرج من ظهري لفعلت ، وقال في مرّة ثالثة ؛ اللهمّ إنّي لا أعلم عملاً أقرب إلى رضاك من قتال هؤلاء القوم .

وما أن فرغ من دعائه ومناجاته حتى قال لأصحابه :

لقد كنّا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) نقاتل المخالفين والمشركين تحت هذه الرايات التي يرفعها جيش معاوية ، وعلينا في هذه الأيام أن نقاتل أصحاب هذه الرايات ، ولا يخفى عليكم أني اليوم مقتول ، وأنّي متوجّه بعملي من هذا العالم الفاني إلى دار الخلد ، فاعلموا أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) مقتداي ، وسيحكم الله عزّ وجلّ بين الخيار والأشرار من عباده .

ولما فرغ من أقواله ساط فرسه واندفع نحو القوم ، وراح يحمل عليهم الحملة إثر الأخرى وهو يرتجز ويقول :

اليوم ألقى الأحبّة ، محمّداً وحزبه .

وخرج إليه جماعة من الشام ، عميت قلوبهم ، وضربه أحدهم ـ ويكنّى بأبي العادية ـ

ضربة على خاصرته أفقدته القدرة ، فرجع إلى صفوف المسلمين يطلب ماءً ، فأتاه غلام له واسمه رشد بقدح من لبن ، فلمّا نظر إلى القدح قال : صدق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولمّا سألوه عمّا يعني بهذا القول ، قال : أخبرني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّ آخر زادي من الدنيا صاع من لبن ، ثم رفع القدح فشربه ، وفاضت روحه الزكيّة تتهادى نحو عالم البقاء ؛ وأتاه أمير المؤمنين (عليه السلام) فوقف على جسده ، ووضع رأسه على ركبته المباركة وقال :

ألا أيّها الموت الذي هو قاصدي ارحني فقد أفنيت كلّ خليل
أراك بصيراً بالذين أحبّهم كأنّك تنحو نحوهم بدليل

ثم قال (عليه السلام) : إنا لله وإنّا إليه راجعون ، من لا يأسى على موت عمّار فليس من المسلمين في شيء ، اللهمّ ارحم عمّاراً في تلك الساعة التي يسأله فيها الملكان ، ما شهدت مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ثلاثة إلاّ عمّار رابعهم ، وأربعة إلاّ عمّار خامسهم ، لم تحق الجنة لعمّار مرّة بل استحقّها مرّات ، فجنات عدن له معدّة ، وهنيئاً له القتل ، فقد كان مع الحقّ ، وكان الحقّ معه ، كما قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : يدور مع عمّار حيث دار .

ثمّ قال (عليه السلام) : اللهمّ عذّب قاتل عمّار ولاعنه وسالبه سلاحه بالنار ، ثمّ تقدّم فصلّى عليه ، وواراه الثرى بيديه الطاهرتين ، رحمة الله ورضوانه عليه ، وطوبى له وحسن مآب .

الخامس عشر : قيس بن عاصم المنقريّ

قدم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في السنة التاسعة للهجرة في وفد من بني تميم فأسلم ، وقال (صلّى الله عليه وآله) : هذا سيّد أهل الوبر ، وكان رجلاً عاقلاً حليماً ، وقد أخذ الأحنف بن قيس ـ وهو المعروف بكثرة الحلم ـ أخذ حلمه عن قيس ، ويذكر التاريخ أنّ الأحنف بن قيس سئل : هل يوجد من هو أكثر حلماً منك ؟ قال : أجل ، فقد تعلّمت الحلم من قيس بن عاصم المنقريّ ، فقد قدمت إليه يوماً وكان عنده رجل يحدّثه ، فإذا بجماعة من الرجال يقودون أخاه ويداه مغلولتان وقالوا : لقد قتل ابنك الآن فأتينا به إليك مقيّداً .

سمع قيس مقالتهم فلم يقطع حديثه ، وعندما أتمّ حديثه دعا ابنه الآخر فقال له : قم يا بنيّ إلى عمّك فاطلقه ، وإلى أخيك فادفنه .

ثمّ قال : أدّوا لأمّ المقتول مئة من الإبل ، علّ هذا يخفّف من حزنها ، ثم انقلب من جانبه الأيمن فاتّكأ على جانبه الأيسر وقال :

إنّي امرؤ لا يعتري خُلقي دَنَسٌ يفنّده ولا أفن

وعندما قدم قيس هذا إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في وفد من بني تميم ، التمس منه (صلّى الله عليه وآله) موعظة نافعة ، فوعظهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بكلمات منها :

أي قيس ، لا بدّ لك من قرين يُدفن معك ، وهو يدفن حيّاً وتدفن أنت ميتاً ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً لم يعنك وتخلّى عنك ، ولن تُحشر إلاّ معه ، ولن تبعث إلاّ معه ، ولن تُسأل إلاّ معه ، فلا يقرّ لك قرار إلا بالعمل الصالح ، ذلك أنّه إن كان صالحاً فستنال به الأنس ، وإن كان فاسداً فلن تنالك الوحشة إلاّ منه ، ألا وإنّه عملك .

قال قيس : يا رسول الله ، أحببت أن تكون هذه الموعظة نظماً ، فنفخر نحن بها على من جاورنا من الأعراب ، كما أنّنا نتخذها ذخراً لنا ، فدعا (صلّى الله عليه وآله) حسّان بن ثابت لينظمها ، وكان الصلصال بن دَلْهَمِس حاضراً ، فقام بنظمها قبل حضور حسّان ، وقال :

تخيّر خليطاً من فعالك إنّما قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بدّ قبل الموت من أن تُعدّه ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
فإنْ كنت مشغولاً بشيء فلا تكن بغير الذي يرضى به الله تشغل
فلن يصحب الإنسان من بعد موته ومن قبله إلا الذي كان يعمل
ألا إنّما الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلاً بينهم ثمّ يرحل

السادس عشر : مالك بن نويرة الحنفي اليربوعيّ

كان من أشباه الملوك ومن شجعان عصره ، فصيح ، حلو البيان ، من صحابة السيّد المختار ، ومن خلصاء صاحب ذي الفقار .

وقد أورد القاضي نور الله في (المجالس) طرفاً من أحواله وحصوله على الشهادة بسبب محبّته لأهل البيت (عليهم السلام) بيد خالد بن الوليد ؛ كما روي في شأنه قول عن البراء بن عازب إذ يقول :

بينما كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) جالساً مع أصحابه دخل عليه كبار بني تميم ، وكان أحدهم مالك بن نويرة ، وبعد السلام قال :

يا رسول الله ، علّمني الإيمان ، فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « الإيمان أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله ، وتصلّيَ الخمس ، وتصوم شهر رمضان ، وتؤدّي

الزكاة ، وتحجّ البيت ، وتوالي وصيّي هذا » ، وأشار إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) .

كما أوصاه (صلّى الله عليه وآله) بأن لا يهرق دماً دون حق ، وأن يتّقي السرقة والخيانة ، وأن يجتنب شرب الخمر وأكل مال اليتيم ، وأن يؤمن بأحكام الشريعة فيحلّ الحلال ويحرّم الحرام ، وأن يعدل بين الضعيف والقوي والصغير والكبير .

وعدّد له سائر أحكام الشريعة حتى تعلّمها ، إذ ذاك وقف مالك نشطاً متبختراً وهو يقول في نفسه : تعلّمت الإيمان وربِّ الكعبة ، ولما غاب عن نظر الرسول (صلّى الله عليه وآله) قال :

« من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا الرجل » .

فانطلق وراءه رجلان من الحاضرين يبشّرانه بعد أن استأذنا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقالا له : لقد عدّك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من أهل الجنة ، ونلتمس منك طلب المغفرة لنا ، فقال مالك لهما : لا غفر الله لكما ، تتركان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو صاحب الشفاعة وتلتمسانها منّي ؟

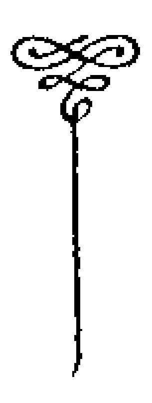
رجع الرجلان مغمومين ، فنظر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في وجهيهما فقال : إنّ في الحقّ مبغضة .

ولمّا توفي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قدم مالك إلى المدينة ينشد معرفة من يقوم مقامه (صلّى الله عليه وآله) ، وذات يوم ، وكان يوم جمعة رأى أبا بكر يعتلي المنبر ويخطب بالناس فذهل ، ولم يتمالك أن قال مخاطباً أبا بكر : ألست أخا بني تميم ؟ قال : بلى ، قال مالك : فماذا جرى لوصيّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الذي أمرنا بولايته ؟ قال الناس : أيّها الأعرابيّ ، كثيراً ما يقع حادث إثر حادث ، قال مالك : والله لم يحدث شيء ، بل أنتم تجرّأتم على خيانة أمر الله وأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

ثم توجّه نحو أبي بكر وقال : من تكون حتّى تعتلي المنبر ووصيّ النبي (صلّى الله عليه وآله) جالس ؟ فقال أبو بكر : أخرجوا هذا الأعرابيّ البوّال على عقبيه من مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقام قنفذ وخالد بن الوليد وراحا يركلان مالكاً حتى أخرجاه من المسجد ، فركب بعيره وهو يرسل الصلوات على الرسول (صلّى الله عليه وآله) ثمّ أنشد :

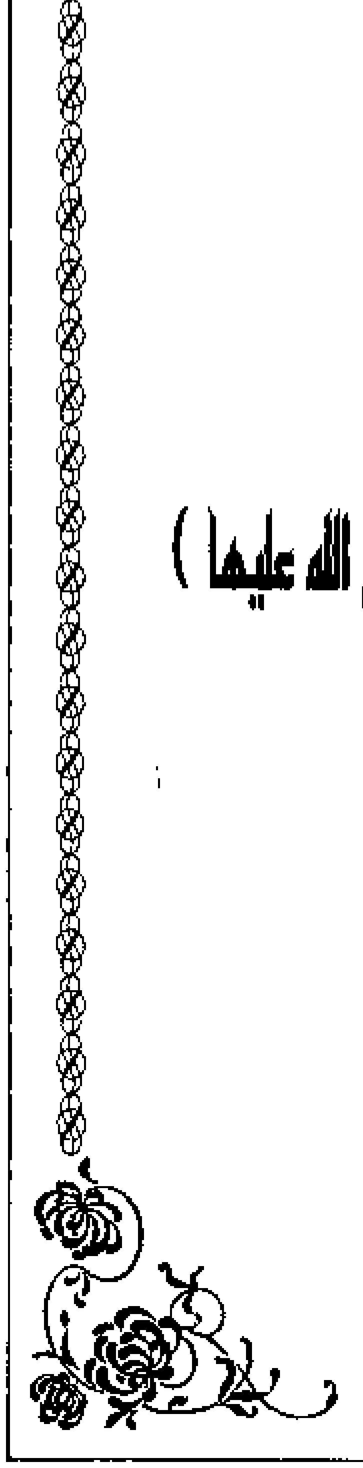
أطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر
إذا مات بكر قام بكر مقامه	فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

يقول المؤلف : لقد نقل الشيعة والسنّة أنّ خالد بن الوليد قتل مالكاً دون ذنب أو جريرة ، وجعل من رأسه أثفية[1] للقدر ، وعدا على زوجته في ليلة مقتله ، كما قتل سائر رجال القبيلة وأسر نساءها ، وأخذهنّ معه إلى المدينة ، وسمّوهم أهل الرِّدّة .



(١) الأثفية : الحجر توضع عليه القدر مع حجرين آخرين .





الباب الثاني

في تاريخ فاطمة الزهراء (سلام الله عليها)

الفصل الأول

في بيان الولادة السعيدة لفاطمة الزهراء (عليها السلام)

يقول الشيخ الطوسي في (المصباح) ويتّفق معه أكثر العلماء : إنّ ولادة فاطمة الزهراء (عليها السلام) كانت في العشرين من شهر جمادي الآخرة ، وكان يوم جمعة من السنة الثانية من البعثة ، ويقول البعض : من السنة الخامسة للبعثة ، ويقول العلاّمة المجلسي (ره) في (حياة القلوب) :

يروي صاحب (العدد) أن فاطمة الزهراء (عليها السلام) ولدت من خديجة في السنة الخامسة بعد البعثة .

كيفيّة ولادتها : بينا النبي (صلّى الله عليه وآله) جالس بأبطح ومعه عمار بن ياسر والمنذر بن الضحضاح ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ، والعباس بن عبد المطلب ، وحمزة بن عبد المطّلب إذ هبط عليه جبرئيل (عليه السلام) في صورته العظمى ، قد نشر أجنحته حتى أخذت من المشرق إلى المغرب ، فناداه : يا محمّد ، العليّ الأعلى يقرأ عليك السلام ، وهو يأمرك أن تعتزل عن خديجة أربعين صباحاً ، فشقّ ذلك على النبي (صلّى الله عليه وآله) وكان محبّاً لها ، وبها وامقاً ، قال : فأقام النبي (صلّى الله عليه وآله) أربعين يوماً يصوم النهار ويقوم الليل ، فجعلت خديجة تحزن في كلّ يوم مراراً لفقد رسول الله ، فبعث بعمّار بن ياسر وقال : قل لها يا خديجة لا تظنّي أنّ انقطاعي عنك هجرة ولا قلى[1] ، ولكن ربّي عزّ وجلّ أمرني بذلك لينفذ أمره ، فلا تظنّي يا خديجة إلاّ خيراً ، فإنّ الله عزّ وجلّ ليباهي بك كرام ملائكته كلّ يوم مراراً ، فإذا جنّك[2] الليل فأجيفي[3] الباب ،

---

(١) القلى : البغض .

(٢) جنّ : ستر واخفى ، والمراد : أظلم .

(٣) أجيفي الباب : ردّيه .

وتحذي مضجعك من فراشك ، فإنّي في منزل فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها) .

فلمّا كان في كمال الأربعين هبط جبرئيل (عليه السلام) فقال : يا محمّد ، العليّ الأعلى يقرئك السلام ، وهو يأمرك أن تتأهّب لتحيّته وتحفته ، قال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : يا جبرئيل ، وما تحفة ربّ العالمين ؟ قال : لا علم لي ، قال : فبينا النبيّ (صلّى الله عليه وآله) كذلك إذ هبط ميكائيل ومعه طبق مغطّى بمنديل من سندس ، فوضعه بين يدي النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، وقال : يا محمّد ، يأمرك ربّك أن تجعل الليلة إفطارك على هذا الطعام .

قال عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) : كان النبيّ (صلّى الله عليه وآله) إذا أراد أن يفطر أمرني أن أفتح الباب لمن يرد إلى الإفطار ، فلمّا كان في تلك الليلة أقعدني النبي (صلّى الله عليه وآله) على باب المنزل وقال : يا بن أبي طالب ، إنّه طعام محرّم إلاّ عليّ ؛ قال عليّ (عليه السلام) : فجلست على الباب ، وخلا النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بالطعام ، وكشف الطبق فإذا عذق من رطب وعنقود من عنب (وإبريق ماء) فأكل النبيّ (صلّى الله عليه وآله) منه شبعاً ، وشرب من الماء ريّاً ، ومدّ يده للغسل ، فأفاض الماء عليه جبرئيل ، وغسل يده ميكائيل ، وتمندله[1] إسرافيل (عليهم السلام) ، فارتفع فاضل الطعام مع الإناء إلى السماء .

ثمّ قام النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ليصلّي ، فأقبل عليه جبرئيل (عليه السلام) فقال : الصلاة محرّمة[2] عليك في وقتك ، حتّى تأتي إلى منزل خديجة فتواقعها ، فإنّ الله عزّ وجلّ آلى على نفسه أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذرّيّة طيّبة .

فوثب النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى منزل خديجة ، قالت خديجة (رضوان الله عليها) : وكنت قد ألفت الوحدة ، فكان إذا جنّني الليل غطّيت رأسي ، وأسجفت ستري ، وغلّقت بابي ، وصلّيت وردي ، وأطفأت مصباحي ، وأويت إلى فراشي ؛ فلمّا كان في تلك الليلة لم أكن بالنائمة ولا بالمنتبهة ، إذ جاء النبي (صلّى الله عليه وآله) فقرع الباب ، فناديت : من هذا الذي يقرع حلقة لا يقرعها إلاّ محمّد (صلّى الله عليه وآله) ؟ قالت خديجة : فنادى النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بعذوبة صوته وحلاوة منطقه : افتحي يا خديجة فإنّي محمّد ، قالت خديجة : فقمت فرحة مستبشرة بالنبيّ (صلّى الله عليه وآله) وفتحت الباب ، ودخل النبيّ (صلّى الله عليه وآله) المنزل .

وكان إذا دخل المنزل دعا بالإناء فتطهّر للصلاة ، ثم يقوم فيصلّي ركعتين يوجز فيهما ،

---

(١) تمندله : أعطاه المنديل .

(٢) الظاهر أنّها الصلاة النافلة دون الفريضة ، فقد كان دأب النبي والإمام تقديمها على الإفطار .

ثمّ يأوي إلى فراشه ؛ فلمّا كان في تلك الليلة لم يدع بالإناء ، ولم يتأهّب للصلاة ، غير أنّه أخذ بعضدي وأقعدني على فراشه ، وداعبني ومازحني ، وكان بيني وبينه ما يكون بين المرأة وبعلها ، فلا والذي سمك[1] السماء وأنبع الماء ما تباعد عنّي النبيّ (صلّى الله عليه وآله) حتى حسست بثقل فاطمة (عليها السلام) في بطني .

أمّا كيف كانت ولادتها السعيدة (عليها السلام) فقد روى الشيخ الصدوق (ره) بسند معتبر عن المفضّل بن عمر قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : كيف كانت ولادة فاطمة (عليها السلام) فقال :

« نعم ، إنّ خديجة (رضي الله عنها) لمّا تزوّج بها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هجرتها نسوان مكّة فلم يدخلن عليها ، ولا يسلّمن عليها ، ولا يتركن امرأة تدخل عليها ؛ فاستوحشت خديجة لذلك ، وكان جزعها وغمّها حذراً عليه[2] (صلّى الله عليه وآله) ، فلما حملت بفاطمة (عليها السلام) كانت فاطمة تحدّثها من بطنها وتصبّرها ، وكانت تكتم ذلك عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فدخل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوماً فسمع خديجة (رضي الله عنها) تحدّث فاطمة (عليها السلام) ، فقال لها : لمن تحدّثين ؟ قالت : الجنين الذي في بطني يحدّثني ويؤنسني ، قال : يا خديجة ، هذا جبرئيل يخبرني أنّها أنثى ، وأنّها النسلة الطاهرة الميمونة ، وأن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها ، وسيجعل من نسلها الأئمّة ، ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه .

فلم تزل خديجة على ذلك إلى أن حضرت ولادتها ، فوجّهت إلى نساء قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين منّي ما تلي النساء من النساء[3] ، فأرسلن إليها : أنت عصيتنا ولم تقبلي قولنا ، وتزوّجت محمّداً يتيم أبي طالب ، فقيراً لا مال له ؛ فلسنا نجيء ولا نلي من أمرك شيئاً .

فاغتمّت خديجة لذلك ، فبينا هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال ، كأنّهنّ من نساء بني هاشم ، ففزعت منهنّ لمّا رأتهنّ ، فقالت إحداهنّ : لا تحزني يا خديجة فإنّا رسل ربك إليك ، ونحن أخواتك ، أنا سارة ، وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنّة ، وهذه مريم بنت عمران ، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران ، بعثنا الله إليك لنلي منك ما يلي النساء ، فجلست واحدة عن يمينها ، وأخرى عن يسارها ، والثالثة بين يديها ، والرابعة من خلفها ؛ فوضعت فاطمة (عليها السلام) طاهرة مطهّرة ، فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها

---

(١) سمك : رفع .

(٢) لئلا تسبّب له (صلّى الله عليه وآله) عداوتهنّ الشديدة الشقاء والألم .

(٣) أي : أقبلن لتتولّين شأن ولادتي .

النور حتّى دخل بيوتات مكّة ، ولم يبق في شرق الأرض وغربها موضع إلّا أشرق فيه ذلك النور .

ودخل عشر من الحور العين ، كلّ واحدة منهنّ معها طست من الجنّة وإبريق من الجنّة ، وفي الإبريق ماء من الكوثر .

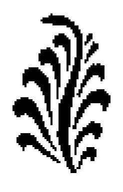
(ثم تناولت المرأة التي بين يدي خديجة فاطمة (عليها السلام) ، وغسلتها بماء الكوثر) وأخرجت خرقتين بيضاوين أشدّ بياضاً من اللبن ، وأطيب ريحاً من المسك والعنبر ، فلفّتها بواحدة ، وقنّعتها بالثانية ، ثم استنطقتها فنطقت فاطمة (عليها السلام) بالشهادتين وقالت :

« أشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّ أبي رسول الله ، سيّد الأنبياء ، وأنّ بعلي سيّد الأوصياء ، وولدي سادة الأسباط » .

ثمّ سلّمت عليهنّ وسمّت كلّ واحدة منهنّ باسمها ، وأقبلن يضحكن إليها ؛ وتباشرت الحور العين ، وبشّر أهل السماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة (عليها السلام) ، وحدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك .

وقالت النسوة : خذيها يا خديجة طاهرة مطهّرة زكيّة ميمونة ، بورك فيها وفي نسلها .

فتناولتها فرحة مستبشرة ، وألقمتها ثديها فدرّ عليها فكانت فاطمة (عليها السلام) تنمو في اليوم كما ينمو الصبيّ في الشهر ، وتنمو في الشهر كما ينمو الصبيّ في السنة .



الفصل الثاني

في بيان أسماء فاطمة (عليها السلام) وألقابها وبعض فضائلها

يروي ابن بابويه بسند معتبر عن يونس بن ظبيان قال :

قال أبو عبد الله (عليه السلام) : لفاطمة (عليها السلام) تسعة أسماء عند الله عزّ وجلّ : فاطمة ، والصدّيقة ، والمباركة ، والطاهرة ، والزكيّة ، والراضية ، والمرضيّة ، والمحدَّثة ، والزهراء .

ثمّ قال (عليه السلام) : أتدري أيّ شيء تفسير فاطمة ؟ قلت : أخبرني يا سيّدي ، قال : فطمت من الشر ، ثم قال : لولا أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) تزوّجها لما كان لها كفؤ إلى يوم القيامة على وجه الأرض ، آدم فمن دونه .

يقول العلاّمة المجلسي (ره) في ذيل هذا الحديث :

الصدّيقة بمعنى المعصومة ، والمباركة : ذات البركة في العلم والفضل والكمالات والمعجزات والأولاد الكرام ، والطاهرة : المطهّرة من صفات النقص ، والزكيّة : النامية في الكمالات والخيرات ، والراضية : من رضيت بقضاء الله عزّ وجلّ ، والمرضيّة : المرضيّ عنها من الله وأحبّاء الله ، والمحدَّثة : من يحدّثها الملَك ، والزهراء : المشرقة بنور الصلاة والمعنى .

ويمكن أن يستدل به (الحديث) على كون أمير المؤمنين (عليه السلام) أفضل من جميع الأنبياء وأوصيائهم سوى النبيّ الخاتم (صلّى الله عليه وآله) ، بل إن البعض يستدلّ به على أفضليّة فاطمة الزهراء (عليها السلام) عنهم . انتهى .

وفي أحاديث متواترة عن الخاصة والعامّة جاء أنّها (عليها السلام) سمّيت فاطمة لأن الله عزّ وجلّ فطمها وفطم شيعتها من النار .

ويروى أن النبي (صلّى الله عليه وآله) سئل : ما البتول ؟ فقال : « البتول : التي لم تر

حمرةً قطّ ، أي : لم تحض ، فإن الحيض مكروه في بنات الأنبياء » .

ويروي الشيخ الصدوق بسند معتبر أن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) كان إذا قدم من سفر بدأ بفاطمة (عليها السلام) فدخل عليها فأطال عندها المكث (ثم يدخل بعدها إلى بيوت أزواجه) .

فخرج مرّة في سفر ، فصنعت فاطمة (عليها السلام) مسكتين من ورق[1] ، وقلادة وقرطين ، وستراً لباب البيت لقدوم ابيها وزوجها ، فلمّا قدم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) دخل عليها ، فوقف أصحابه على الباب لا يدرون يقفون أو ينصرفون ، لطول مكثه عندها ؛ فخرج عليهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقد عرف الغضب في وجهه ، حتّى جلس عند المنبر .

فظنّت فاطمة (عليها السلام) أنّه إنّما فعل ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر ، فنزعت قلادتها وقرطيها ومسكتيها ، ونزعت الستر فبعثت به إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقالت للرسول : قل له : تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول : اجعل هذا في سبيل الله .

فلمّا أتاه : قال : « فعلت ، فداها أبوها » ثلاث مرات .

« ليست الدنيا من محمّد ولا من آل محمّد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما أسقى فيها كافراً شربة ماء » . ثمّ قام فدخل عليها .

مناقب الزهراء (عليها السلام)

يروى الشيخ المفيد والشيخ الطوسي عن طريق العامّة أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : « فاطمة بضعة مني ، من سرّها فقد سرّني ، ومن ساءها فقد ساءني ، فاطمة أعزّ الناس عليّ » .

ويروي الشيخ الطوسي عن عائشة قالت :

ما رأيت من الناس أحداً أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (صلّى الله عليه وآله) من فاطمة ، كانت إذا دخلت عليه رحّب بها ، وقبّل يديها ، وأجلسها في مجلسه ؛ فإذا دخل عليها قامت إليه فرحّبت به ، وقبّلت يديه .

ويروي القطب الراوندي مرسلاً أنّ أمّ أيمن لما توفّيت فاطمة (عليها السلام) حلفت أن

---

(١) المسكة : السوار والخلخال ، الورق : الفضّة .

لا تكون بالمدينة إذ لا تطيق أن تنظر إلى مواضع كانت بها ، فخرجت إلى مكّة ، فلمّا كانت في بعض الطريق عطشت عطشاً شديداً ، فرفعت يديها وقالت : يا ربّ ، أنا خادمة فاطمة (عليها السلام) تقتلني عطشاً ؟ فأنزل الله عليها دلواً من السماء فشربت ، فلم تحتج إلى الطعام والشراب سبع سنين ، وكان الناس يبعثونها في اليوم الشديد الحرّ فما يصيبها عطش .

ويروي ابن شهر آشوب والقطب الراوندي أنّ عليّاً (عليه السلام) استقرض من يهودي (واسمه زيد) شعيراً ، فاسترهنه شيئاً ، فدفع إليه ملاءة فاطمة (عليها السلام) رهناً ، وكانت من الصوف ، فأدخلها اليهوديّ إلى داره ووضعها في بيت ، فلمّا كانت الليلة ، دخلت زوجته البيت الذي فيه الملاءة بشغل ، فرأت نوراً ساطعاً في البيت أضاء به كلّه ، فانصرفت إلى زوجها فأخبرته بأنّها رأت في ذلك البيت ضوءاً عظيماً ، فتعجّب اليهودي زوجها ، وقد نسي أنّ في بيته ملاءة فاطمة (عليها السلام) ، فنهض مسرعاً ودخل البيت ، فإذا ضياء الملاءة ينشر شعاعها كأنّه يشتعل من بدر منير يلمع من قريب ، فتعجّب من ذلك ، فأمعن النظر في موضع الملاءة فعلم أن ذلك النور من ملاءة فاطمة (عليها السلام) .

فخرج اليهوديّ يعدو إلى أقربائه ، وزوجته تعدو إلى أقربائها ، فاجتمع ثمانون من اليهود فرأوا ذلك ، فأسلموا كلّهم .

وفي (قرب الأسناد) بسند معتبر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : إنّ فاطمة (عليها السلام) ضمنت لعليّ (عليه السلام) عمل البيت والعجين والخبز وقمّ البيت ، وضمن لها عليّ (عليه السلام) ما كان خلف الباب : نقل الحطب ، وأن يجيء بالطعام .

ويروي ابن بابويه بسند معتبر عن الإمام الحسن (عليه السلام) قال :

« رأيت أمّي فاطمة (عليها السلام) قامت في محرابها ليلة جُمعتها ، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتّضح عمود الصبح ، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمّيهم وتكثر الدعاء لهم ، ولا تدعو لنفسها بشيء ، فقلت لها : يا أمّاه ، لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك ؟ فقالت : يا بنيّ ، الجار ثمّ الدار » .

ويروي الثعلبي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) رأى فاطمة (عليها السلام) وعليها كساء من أجلّة الإبل ، وهي تطحن بيديها وترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال : يا بنتاه ، تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة ، فقالت : يا رسول الله ، الحمد لله على نعمائه ، والشكر لله على آلائه ، فأنزل الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربّك فترضى ﴾ .

وينقل عن الحسن البصري أنه يقول : ما كان في هذه الأمّة أعبد من فاطمة ، كانت

تقوم حتّى تتورّم قدماها ، ولمّا قال لها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : أيّ شيء خيرٌ للنساء ؟ قالت (عليها السلام) : أن لا يرين الرجال ، وأن لا يراهنّ الرجال ، فضمّها (صلّى الله عليه وآله) إليه وقال : ذرّيّة بعضها من بعض .

وعن (الحلية) لأبي نعيم : لقد طحنت فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى مجلت[1] يداها وظهرت فيهما خشونة وصلابة من أثر الطحن) .

ويروي الشيخ الكليني عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنه قال :

ليس على وجه الأرض بقلة أشرف ولا أنفع من الفرفخ ، وهو بقلة فاطمة (عليها السلام) ثم قال : لعن الله بني أميّة ، هم سمّوها بقلة الحمقاء بغضاً لنا وعداوةً لفاطمة (عليها السلام) .

يروي السيد فضل الله الراوندي في (النوادر) عن عليّ (عليه السلام) قال :

استأذن أعمى على فاطمة (عليها السلام) فحجبته ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لها : لم حجبته وهو لا يراك ؟ فقالت (عليها السلام) : إن لم يكن يراني فإنّي أراه ، وهو يشمّ الريح ؛ فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : أشهد أنّك بضعة منّي .

وبهذا الإسناد قال : سأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أصحابه عن المرأة ما هي ؟ قالوا : عورة ؛ قال فمتى تكون أدنى من ربّها ؟ فلم يدروا ؛ فلمّا سمعت فاطمة (عليها السلام) ذلك قالت : أدنى ما تكون من ربّها أن تلزم قعر بيتها ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : فاطمة بضعة منّي .

أقول : إنّ فضائل ومناقب هذه المخدّرة أكثر ممّا يتّسع له المقام هنا ، وبما أنّنا ننشد الإيجاز فنحن نكتفي بهذا القدر ، والبركات ، التي وصلتنا من هذه العقيلة ومنها تسبيح الزهراء المعروف ، والأحاديث في فضله كثيرة ، ويكفي أنّ من يواظب عليه لا يعرف الشقاء وسوء العاقبة ، وأنّ من يواظب على التسبيح به بعد كلّ صلاة أفضل عند الصادق (عليه السلام) من ألف ركعة في اليوم ، وكيفيّته على الأشهر : أربع وثلاثون مرّة : الله أكبر ، وثلاث وثلاثون مرّة : الحمد لله ، وثلاث وثلاثون مرّة : سبحان الله ، فيكون المجموع مئة .

ومنها دعاء النور الذي علّمته (عليها السلام) لسلمان (رضي الله عنه) وقالت: إن شئت أن لا تصاب بالحمّى في الدنيا أبداً فواظب عليه ، والدعاء هو :

---

(١) مجلت يده : قرحت ، أو تجمّع ماء فيها بين الجلد واللحم بسبب العمل .

بسم الله الرحمن الرحيم

« باسم الله النور ، باسم الله نور النور ، باسم الله نور على نور ، باسم الذي هو مدبّر الأمور ، باسم الله الذي خلق النور من النور ، الحمد لله الذي خلق النور من النور ، وأنزل النور على الطور ، في كتاب مسطور ، في رقّ منشور ، بقدر مقدور ، على نبيّ محبور ، الحمد لله الذي هو بالعزّ مذكور ، وبالفخر مشهور ، وعلى السرّاء والضراء مشكور ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين » .

قال سلمان : فتعلّمتهنّ ، فوالله لقد علّمتهنّ أكثر من ألف نفس من أهل المدينة ومكّة ، ممّن بهم الحمّى ، فكلّ بريء من مرضه بإذن الله تعالى .

ومنها صلاة الاستغاثة بهذه المخدّرة (صلوات الله عليها) ، وجاء في الرواية : إذا مسّتك يوماً حاجة وضاق صدرك فتوجّه إلى الله تعالى وصلّ ركعتين ، فإذا سلّمت فكبّر ثلاث تكبيرات ، وسبّح تسبيح الزهراء (عليها السلام) ، ثم اهبط إلى السجود وقل مئة مرّة : يا مولاتي يا فاطمة أغيثيني ، ثمّ ضع الجانب الأيمن من وجهك على الأرض ، وكرر ما قلته في سجودك مئة مرة ثانية ، ثمّ عد إلى السجود وأعد القول مئة مرّة ثالثة ، ثم ضع الجانب الأيسر من وجهك على الأرض وأعد القول مئة مرّة رابعة ، ثم عد إلى السجود وأعد القول مئة مرّة خامسة ، ثم اذكر حاجتك فانّها ستقضى إن شاء الله تعالى .

ومنها ما نقله المحدّث الفيض في (خلاصة الأذكار) عن الزهراء (عليها السلام) أنها قالت : ورد عليّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقد بسطت فراشي للنوم ، فقال : يا فاطمة لا تذهبي إلى النوم إلاّ بعد أربعة أعمال تؤدّينها : أن تختمي القرآن ، وأن تجعلي الأنبياء شفعاء لك ، وأن ترضي المؤمنين عنك ، وأن تؤدّي الحجّ والعمرة .

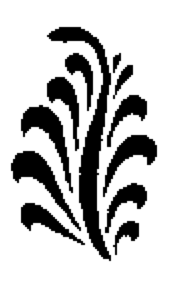
قال هذا وانصرف إلى الصلاة ، فمكثت ريثما أتمّ صلاته وقلت : يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أمرتني بأربعة أمور لا أقدر على إتيانها من فوري ، فتبسّم (صلّى الله عليه وآله) وقال :

إذا ما قرأت : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرّات فكأنّك ختمت القرآن ، وإذا ما صلّيت عليّ وعلى الأنبياء قبلي فسنكون شفعاءك يوم القيامة ، وإذا ما استغفرت للمؤمنين رضوا عنك جميعهم ، وإذا ما قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر فكأنّما أدّيت حجّاً وعمرة .

أقول : يقول شيخنا في (المستدرك) : نقل بعض معاصرينا من أهل السنّة في كتاب (خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام) هذا الدعاء عن بعض العرفاء :

اللهمّ ربُ الكعبة وبانيها ، وفاطمة وأبيها وبعلها وبنيها نـوّر بصري وبصيرتي ، وسرّي وسريرتي .

وبـالتحقيق المتّصل بـالتجربـة فإنّ هـذا الدعـاء مفيد في إنارة البصر ، فمن قـرأه عنـد الأكتحال نوّر الله تعالى بصره .



الفصل الثالث

في وفاة الزهراء (عليها السلام)

اعلم أن هنالك اختلافاً كبيراً في يوم وفاة فاطمة (عليها السلام) ، والأظهر عند الأحقر أنّ وفاتها (عليها السلام) كانت في اليوم الثالث من جمادي الآخرة ، كما اختار جماعة من كبار العلماء ، وعندي على هذا المطلب شواهد لا محلّ لذكرها ؛ وبقيت بعد أبيها خمسة وتسعين يوماً ، ومع أنه ورد في رواية معتبرة أنّ مدّة مكثها في الدنيا بعد أبيها كانت خمسة وسبعين يوماً ، فبالإمكان ذكر وجه في ذلك ببيان ليس ههنا مقام ذكره ، ويستحسن العمل بالطريقين في إقامة مجالس العزاء بهذا المصاب كما هو جارٍ فعلاً .

وعلى أيّ حال فإنّ بقاءها في الدنيا بعد أبيها لم يطل ، قضته في حزن وبكاء متواصلين ، وكابدت في هذه المدّة القصيرة من الألم والأذى ما لا يعلمه إلّا الله عزّ وجلّ ، وإذا تأمّل متأمّل في تلك الكلمات التي خاطب بها أمير المؤمنين (عليه السلام) رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عند قبره بعد دفن فاطمة (عليها السلام) عرف مقدار ما كابدته تلك المظلومة ، ومن تلك الكلمات :

« ستنبّئك ابنتك بتظاهر أمّتك عليّ ، وعلى هضمها حقّها ، فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، فكم من غليلٍ معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً ، وستقول : ويحكم الله وهو خير الحاكمين » .

يروي ابن بابويه بسند معتبر أن البكّائين خمسة : آدم ، ويعقوب ، ويوسف وفاطمة بنت محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وعليّ بن الحسين (صلوات الله عليهم أجمعين) .

فأمّا آدم فبكى على الجنّة حتى صار في خدّيه أمثال الأودية .

وأمّا يعقوب فبكى على يوسف حتّى ذهب بصره ، وحتى قيل له :

﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ .

وأمّا يوسف فبكى على يعقوب حتىّ تـأذّى به أهـل السجن ، فقالـوا له : إمّـا أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار ، وإمّا أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل ، فصالحهم على واحدة منهما .

وأمّا فاطمة (عليها السـلام) فبكت على رسـول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى تـأذّى بها أهل المدينة فقالوا لها : قد آذيتنا بكثرة بكائك ، فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء ، فتبكي حتى تقضي حاجتها ، ثم تنصرف .

وأمّـا عليّ بن الحسـين (عليهما السلام) فبكى عـلى الحسين (عليـه السلام) عشرين سنة ، وبرواية : أربعين سنة ، ما وضع بين يـديه طعـام إلاّ بكى ، وما شرب مـاء إلاّ بكى ، حتّى قال له مولىً له : جعلت فـداك يا بن رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله) ، إنّي أخـاف أن تكون من الهالكين ؛ قال : إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمـون ، إنّي لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني لذلك عبرة .

ويروي الشيخ الطوسي بسند معتبر عن ابن عبّاس أنّه قال :

لمّا حضرت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الوفاة بكى حتّى بلّت دموعه لحيته ، فقيـل له : يا رسول الله ، ما يبكيك ؟ فقال : أبكي لـذرّيّتي وما تصنـع بهم شرار أمّتي من بعدي ، كأنّي بفاطمة بنتي وقد ظلمت بعدي وهي تنادي : يا أبتاه ! فلا يعينها أحد من أمّتي .

فسمعت ذلـك فـاطمـة (عليهـا السـلام) فبكت ، فقـال رسـول الله (صـلّى الله عليـه وآله) : لا تبكي يـا بنيّة ، فقـالت : لست أبكي لما يصنـع بي من بعدك ، ولكنّي أبكي لفراقك يـا رسول الله ، فقـال لها : أبشري يـا بنت محمّد بسرعـة اللحاق بي ، فـإنّك أوّل من يلحق بي من أهل بيتي .

وعن (روضة الواعظين) وغيره : مرضت فاطمة (سلام الله عليهـا) مرضـاً شديـداً ، ومكثت أربعين ليلة في مرضهـا إلى أن توفّيت ، فلمّا نُعيت إليهـا نفسها دعت أمّ أيمن ، وأسـماء بنت عميس ، ووجّهت خلف عليّ (عليه السلام) فأحضرته ، فقالت :

يا بن عمّ ، إنّه قد نُعيت إليّ نفسي ، وإنّني لا أرى ما بي إلاّ أنّي لاحقة بأبي سـاعة بعـد ساعة ، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي .

قـال لهـا عـليّ (عليـه السـلام) : أوصيني بمـا أحببت يـا بنت رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله) ، فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت ، ثم قالت :

يا بن عمّ ، ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ، ولا خالفتك منذ عـاشرتني ؛ فقال معـاذ الله ،

أنت أعلم بالله ، وأبرّ وأتقى وأكرم وأشدّ خوفاً من الله أن أوبّخك بمخالفتي ، قد عزّ عليّ مفارقتك وفقدك ، إلاّ أنّه أمر لا بدّ منه ، والله جدّدت عليّ مصيبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقد عظمت وفاتك وفقدك ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمضّها وأحزنها ، هذه والله مصيبة لا عزاء لها ، ورزيّة لا خلف لها .

ثمّ بكيا ساعة ، وأخذ عليّ (عليه السلام) رأسها وضمّها إلى صدره ، ثمّ قال : أوصيني بما شئت ، فإنّك تجديني أمضي فيها كما أمرتني به ، وأختار أمرك على أمري ؛ ثمّ قالت :

جزاك الله عنّي خير الجزاء يا بن عمّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أوصيك أولاً أن تتزوّج بعدي بابنة أختي أمامة ، فإنّها تكون لولدي مثلي ، فإن الرجال لا بد لهم من النساء .

ثم قالت : أوصيك يا بن عمّ أن تتخذ لي نعشاً ، فقد رأيت الملائكة صوّروا صورته ، فقال لها : صفيه لي ، فوصفته فاتّخذه لها ، فأوّل نعش عمل على وجه الأرض ذاك ، وما رأى أحد قبله ، ولا عمل أحد .

ثمّ قالت : أوصيك أن لا يشهد أحد جنازتي من هؤلاء الذين ظلموني وأخذوا حقّي ، فإنّهم عدوّي وعدوّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولا تترك أن يصلّي عليّ أحد منهم ، ولا من أتباعهم ، وادفني في الليل إذا هدأت العيون ونامت الأبصار .

ويروى في (كشف الغمّة) وغيره أنّه لما قربت وفاة فاطمة (عليها السلام) قالت لأسماء بنت عميس : احضري لي ماء وضوئي ، فتوضّأت ، وبرواية : اغتسلت أحسن ما يكون من الغسل ، وتطيّبت بطيبها ، ثم لبست أثوابها الجدد ؛ ثم قالت :

أي أسماء ، إن جبرئيل عند وفاة أبي أتاه بأربعين درهماً من كافور الجنّة ، فجعله (صلّى الله عليه وآله) ثلاثة أقسام : قسماً لنفسه ، وآخر لي ، وثالثاً لعليّ (عليه السلام) ، فأتني به ، فلما أتت به قالت : ضعيه عند رأسي ، ثم تسجّت بثوبها مستقبلة القبلة ، وقالت : انتظريني هنيهة وادعيني ، فإن أجبتك وإلاّ فاعلمي أنّي قد قدمت على أبي (صلّى الله عليه وآله) .

فانتظرتها هنيهة ، ثمّ نادتها فلم تجبها ، فنادت : يا بنت محمد المصطفى ، يا بنت أكرم من حملته النساء ، يا بنت خير من وطيء الحصا ، يا بنت من كان من ربّه قاب قوسين أو أدنى ؛ فلم تجبها ، فكشفت الثوب عن وجهها فإذا بها قد فارقت الدنيا ، فوقعت عليها تقبّلها ، وهي تقول : إذا قدمت على أبيك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فاقرئيه عن أسماء بنت عميس السلام .

فبينا هي كذلك إذ دخل الحسن والحسين[١] فقالا : يا أسماء ، ما يُنيم أمّنا في هذه الساعة ؟ قالت : يا ابني رسول الله ، ليست أمّكما نائمة ، قد فارقت الدنيا .

فوقع عليها الحسن يقبّلها مرّة ويقول : يا أمّاه كلّميني قبل أن تفارق روحي بدني ، وأقبل الحسين يقبّل رجلها ويقول : يا أمّاه ، أنا ابنك الحسين ، كلّميني قبل أن يتصدّع قلبي فأموت .

قالت لهما أسماء : يا ابني رسول الله ، انطلقا إلى أبيكما عليّ (عليه السلام) فأخبراه بموت أمّكما ، فخرجا حتى إذا كانا قرب المسجد رفعا أصواتهما بالبكاء ، فابتدرهما الصحابة فقالوا : ما يبكيكما يا ابني رسول الله ؟ لا أبكى الله أعينكما ، لعلّكما نظرتما إلى موقف جدّكما فبكيتما شوقاً إليه ؟

فقالا : أو ليس قد ماتت أمّنا فاطمة (صلوات الله عليها) : قال : فوقع عليّ (عليه السلام) على وجهه فغشي عليه حتّى رشّ عليه الماء ، ثم أفاق ، وكان (عليه السلام) يقول : بمن العزاء يا بنت محمد ، كنت بك أتعزّى ففيم العزاء من بعدك ؟ ثم قال :

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة ... وكلّ الذي دون الفراق قليل[٢]
وإنّ افتقادي واحداً بعد واحد[٣] ... دليل على أن لا يدوم خليل

وعن (روضة الواعظين) أيضاً ، وبعد أن انتشر خبر موتها (صلوات الله عليها) :

فصاحت أهل المدينة صيحة واحدة ، واجتمعت نساء بني هاشم في دارها ، فصرخن صرخة واحدة كادت المدينة أن تتزعزع من صراخهنّ ، وهنّ يقلن : يا سيّدتاه ، يا بنت رسول الله .

وأقبل الناس مثل عرف الفرس إلى عليّ (عليه السلام) وهو جالس والحسن والحسين (عليهما السلام) بين يديه يبكيان ، فبكى الناس لبكائهما .

وخرجت أمّ كلثوم وعليها برقعة ، وتجرّ ذيلها متجلّلة برداء ، غلبها نشيجها وهي تقول : يا أبتاه يا رسول الله ، والآن حقاً فقدناك فقداً لا لقاء بعده أبداً .

---

(١) في رواية أخرى أن أسماء شقّت جيبها وخرجت فتلقّاها الحسن والحسين (عليهما السلام) فقالا : أين أمّنا ؟ فسكتت ، فدخلا البيت فإذا هي ممتدة ، فحرّكها الحسين (عليه السلام) فإذا هي ميّتة ، فقال : يا أخاه ، آجرك الله في الوالدة فوقع الحسن (عليه السلام) يقبّلها مرّة ويقول : يا أمّاه .. الخ .

(٢) الممات قليل ـ خ .

(٣) فاطماً بعد أحمد ـ خ .

كيفية دفنها سلام الله عليها

واجتمع الناس فجلسوا وهم يضجّون ، وينتظرون أن تخرج الجنازة فيصلّون عليها ، وخرج أبو ذرّ وقال : انصرفوا فإنّ ابنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد أخّر إخراجها في هذه العشيّة ، فقام الناس وانصرفوا .

فلمّا أن هدأت العيون ، ومضى شطر من الليل أخرجها علي والحسن والحسين (عليهم السلام) ، وعمّار والمقداد وعقيل والزبير ، وأبو سلمان وبريدة ، ونفر من بني هاشم وخواصّه ، صلّوا عليها ودفنوها في جوف الليل ، وسوّى عليّ (عليه السلام) حواليها قبوراً مزوّرة مقدار سبعة حتى لا يعرف قبرها ، وبرواية أخرى : أربعين قبراً رشّت بالماء حتى لا يبين قبرها من غيره من القبور ؛ وبرواية ثالثة أن قبرها سوّي مع الأرض مستوياً ، فمسح مسحاً سواء مع الأرض حتّى لا يعرف موضعه .

كلّ هذا كان حتّى لا يعرف الآخرون موضع القبر بعينه ، فلا يصلّوا على القبر ، ولا يعنّ لهم أن ينبشوه ، ولهذا فقد وقع اختلاف في موضع قبرها ، فمن قائل : إنه في البقيع إلى جوار قبور الأئمة (عليهم السلام) ، ومن قائل : إنه في الروضة ما بين قبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومنبره ، ذلك أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : « إنّ بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة » و« منبري على ترعة[1] من ترع الجنة » ، ويقول البعض : إنّها مدفونة في دارها ، هذا أصحّ الأقوال ، ويؤيده رواية صحيحة تدلّ عليه .

يروي ابن شهر آشوب وآخرون أنه لمّا أرادوا أن يوسّدوها القبر امتدت منه يدان أشبه بيدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وتناولتا جثمانها (عليها السلام) .

ويروي الشيخ الطوسي والكليني بأسناد معتبرة عن علي بن الحسين ، عن أبيه الحسين (عليهما السلام) قال :

لمّا مرضت فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وصّت إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أن يكتم أمرها ويخفي خبرها ؛ ولا يؤذن أحداً بمرضها ، ففعل ذلك .

وكان يمرّضها بنفسه ، وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس (رحمها الله) ، على استسرار بذلك كما وصّت به ، فلمّا حضرتها الوفاة وصّت أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يتولّى أمرها ، ويدفنها ليلاً ويعفي قبرها ، فتولّى ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) ودفنها ، وعفى موضع قبرها .

---

(١) الترعة : الباب .

أحزان أمير المؤمنين (عليه السلام)

فلمّا نفض يده من تراب القبر هاج به الحزن ، فأرسل دموعه على خدّيه ، وحوّل وجهه إلى قبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال :

« السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك من ابنتك وحبيبتك وقرّة عينك وزائرتك ، والبائتة في الثرى ببقيعك ، المختار لها سرعة اللحاق بك ؛ قلّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري ، وضعف عن سيّدة النساء تجلّدي ، إلاّ أنّ في التأسّي لي بسنّتك ، والحزن الذي حلّ بي لفراقك موضع التعزّي ، ولقد وسّدتك في ملحود قبرك ، بعد أن فاضت نفسك بين نحري وصدري ، وغمّضتك بيدي ، وتولّيت أمرك بنفسي .

نعم ، وفي كتاب الله أنعم القبول ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، قد استُرجعت الوديعة ، وأُخذت الرهينة ، واختلست الزهراء ، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله .

أمّا حزني فسرمد ، وأمّا ليلي فمسهّد ، لا يبرح الحزن من قلبي أو يختار الله لي دارك التي فيها أنت مقيم ، كمدٌ مقيحٌ ، وهمّ مهيّج ، سرعان ما فُرّق بيننا ، وإلى الله أشكو ، وستنبئك ابنتك بتظاهر أمّتك عليّ ، وعلى هضمها حقّها ؛ فأحفها السؤال ، واستخبرها الحال ، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً ، وستقول : ويحكم الله وهو خير الحاكمين .

سلام عليك يا رسول الله سلام مودِّعٍ لا سئمٍ ولا قالٍ ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإن أُقم فلا عن سوء ظنّي بما وعد الله الصابرين ، والصبر أيمن وأجمل ، ولولا غلبة المستولين علينا لجعلت المقام عند قبرك لزاماً ، والتلبّث عنده معكوفاً ، ولأعولت إعوال الثكلى على جليل الرزيّة ، فبعين الله تدفن بنتك سرّاً ، ويهتضم حقّها قهراً ، ويمنع إرثها جهراً ، ولم يطل العهد ، ولم يخلق منك الذكر ، فإلى الله يا رسول الله المشتكى ، وفيك أجمل العزاء ، فصلوات الله عليها وعليك ، ورحمة الله وبركاته » .

نقل العلاّمة المجلسي عن (مصباح الأنوار) عن أبي عبد الله الصادق ، عن آبائه (عليهم السلام) أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لمّا وسّد فاطمة (عليها السلام) القبر قال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ، وعلى ملّة رسول الله محمّد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله) ، سلّمتك أيّتها الصدّيقة إلى من هو أولى بك منّي ، ورضيت لك بما رضي الله تعالى لك .

ثم تلا : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارةً أخرى** ﴾ .

فلمّا أهال عليه التراب أمر أن يرشّ بالماء ، ثم جلس عند القبر بعين باكية وقلب أحرقه

الحزن ، فأخذ عمّه العبّاس بيده وسار به عن القبر .

يقول الشهيد (ره) في المزار : تستحبّ زيارة فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وزوجة أمير المؤمنين ، وأمّ الحسن والحسين (عليهم السلام) .

ويروى أنّها (عليها السلام) قالت : أخبرني أبي أنّ من سلّم عليه وعليّ ثلاثة أيام أوجب الله له الجنّة ، فقيل لها : في حياته وحياتك ؟ قالت : نعم وبعد موتنا .

فإذا أراد الزائر زيارتها فليزرها في ثلاثة مواضع : في بيتها ، وفي الروضة ، وفي البقيع .

وكانت ولادتها (عليها السلام) في السنة الخامسة بعد البعثة ، وانتقلت إلى رحمة ربّها بعد أبيها بما يقرب من مئة يوم . انتهى .

يقول العلاّمة المجلسي : يروي السيد ابن طاووس عليه الرحمة :

يقول الزائر عند زيارته للزهراء (عليها السلام) :

« السلام عليك يا سيدة نساء العالمين ، السلام عليك يا والدة الحجج على الناس أجمعين ، السلام عليك أيّتها المظلومة الممنوعة حقّها » .

ثم يقول : « اللهمّ صلّ على أمتك وابنة نبيّك ، وزوجة وصيّ نبيّك صلاة تزلفها فوق زلفى عبادك المكرمين من أهل السماوات وأهل الأرضين » .

ثم يطلب المغفرة من الله ، فيغفر الله عزّ وجلّ ذنوبه ، ويدخله الجنّة ، وهذه الزيارة المختصرة معتبرة ، ويمكن أداؤها في كل وقت .

يقول المؤلّف : تحدّثنا في كتاب (المفاتيح) و(هديّة الزائرين) عن ثواب الزيارة ، وعن الاختلاف في موضع قبرها ، وكيفيّة زيارة تلك المظلومة ، ونكتفي بهذا القدر في هذا الموجز .

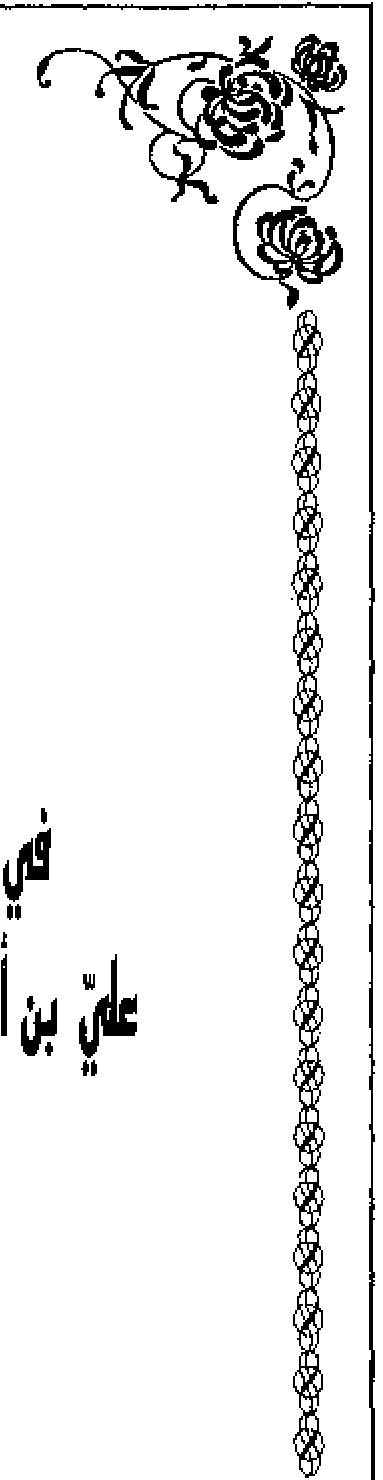
واعلم أنّه كان لها (عليها السلام) أربعة أبناء : الإمام الحسن ، والإمام الحسين ، وزينب الكبرى ، وزينب الصغرى ، المكنّاة بأمّ كلثوم (سلام الله عليهم أجمعين) ؛ وابنٌ كانت حاملاً به ، وكان النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قد سمّاه محسناً ، وقد أسقط هذا الطفل بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

يقول الشيخ الصدّوق في معنى الحديث النبوي الشريف الذي خاطب به أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله : « إنّ لك كنزاً في الجنّة ، وأنت ذو قرنيها » :

سمعت بعض مشايخي يقول : هذا الكنز الذي أخبر (صلّى الله عليه وآله) أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنه له في الجنّة إنّما هو محسن هذا ، الذي أسقط في بيته بالقوّة .

أقول : أوردت بعض المصائب التي نزلت بالزهراء (عليها السلام) في كتاب خصّصته لذلك وأسميته (بيت الأحزان في مصائب سيّدة النسوان) ، فمن طلبه فليرجع إليه ، والله تعالى الموفّق ، وهو المستعان .

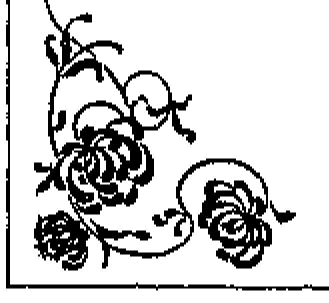




الباب الثالث

في تاريخ سيّد الأوصياء

عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)



الفصـــل الأول

في الولادة السعيدة
لأمير المؤمنين (عليه السلام)

ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ـ على المشهور ـ بمكّة في البيت الحرام في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة .

أبوه أبو طـالب بن عبد المـطّلب ، وكان أخـاً شقيقاً لعبـد الله أبي رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) ، وأمّـه فاطمـة بنت أسـد بن هـاشم بن عبـد منـاف ، وكـان هـو وإخـوتـه أوّل الهاشميّين ، الذين ولدوا لأب وأمّ هاشميّين .

وفي كيّفية ولادته وردت روايات كثيرة ، ومـا ورد منها بـأسانيـد كثيرة هـو أن العبّاس بن عبد المطّلب كان ويزيد بن قعنب جالسين ما بـين فريق بني هـاشم إلى فريق عبـد العزّى بـإزاء بيت الله الحـرام إذ أتت فاطمـة بنت أسد بن هـاشم أمّ أمير المؤمـنين (عليه السـلام) وكـانت حاملاً به لتسعة أشهـر ، وكان يـوم التمام ، فـوقفت بإزاء البيت الحـرام وقد أخـذها الـطلق ، فرمت بطرفها نحو السماء ، وقالت : أي ربّ ، إنّي مؤمنة بك وبما جاء بـه من عندك الـرسل ، وبكلّ نبيّ من أنبيائك ، وبكلّ كتاب أنزلته ، وإنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل ، وإنّه بنى بيتك العتيق ، فأسألك بحقّ هذا البيت ومن بناه ، وبهذا المولود الذي في أحشائي ، الذي يكلّمني ويؤنسني بحديثه ، وأنا موقنة أنه إحدى آياتك ودلائلك لمّا يسّرت عليّ ولادتي .

قال العبّاس بن عبد المطّلب ويزيد بن قعنب :

لمّـا تكلّمت فاطمـة بنت أسد ، ودعت بهـذا الدعـاء رأينا البيت قـد انفتح من ظهـره ، ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا ، ثم عادت الفتحة والتزقت بإذن الله ، فـرمنا أن نفتح الباب ليصل إليهما بعض نسائنا فلم ينفتح البـاب ، فعلمنا أنّ ذلـك أمر من أمـر الله تعالى ، وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيّام ، وأهل مكّة يتحدّثـون بذلـك في أفواه السكـك ، وتتحدّث

المخدّرات في خدورهنّ ، فلما كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من الموضع الذي كانت دخلت منه ، فخرجت فاطمة وعليّ (عليه السلام) على يديها ، وقالت :

معاشر الناس ، إنّ الله عزّ وجلّ اختارني من خلقه ، وفضّلني على المختارات ممّن كنّ قبلي ، وقد اختار آسية بنت مزاحم ، فإنّها عبدت الله سرّاً في موضع لا يحبّ أن يعبد الله فيه إلّا اضطراراً ، وإنّ مريم بنت عمران اختارها الله حيث يسّر عليها ولادة عيسى (عليه السلام) فهزّت الجذع اليابس من النخلة في فلاة من الأرض حتى تساقط عليها رطباً جنياً ؛ وإنّ الله تعالى اختارني وفضّلني عليها وعلى كلّ من مضى قبلي من نساء العالمين ، لأني ولدت في بيته العتيق ، وبقيت فيه ثلاثة أيّام آكل من ثمار الجنّة وأرزاقها ؛ فلمّا أردت أن أخرج وولدي على يدي هتف بي هاتف وقال :

يا فاطمة ، سميه عليّاً فأنا العليّ الأعلى ، وإنّي خلقته من قدرتي وعزّتي وجلالي ، وقسط عدلي ، واشتققت اسمه من اسمي ، وأدّبته بأدبي . . . ووقفته على غامض علمي ، وولد في بيتي ، وهو أوّل من يؤذّن فوق بيتي ، ويكسّر الأصنام ويرميها على وجهها ، ويعظّمني ويمجّدني ويهلّلني ، وهو الإمام بعد حبيبي ونبيّي وخيرتي من خلقي محمّد رسولي ، ووصيّه ، فطوبى لمن أحبّه ونصره ، والويل لمن عصاه وخذله وجحد حقّه .

وفي بعض الروايات أنه لمّا ولد أمير المؤمنين (عليه السلام) ضمّه أبو طالب إلى صدره ، وأخذ بيد فاطمة ، وخرج إلى الأبطح ، ونادى :

يا ربّ باذا الغسق الدّجيّ والقمر المبتلج المضيّ
بيّن لنا من حكمك المقضيّ ما ذا ترى في اسم هذا الصبيّ

فجاء شيء يدبّ على الأرض كالسحاب ، حتى حصل في صدر أبي طالب ، فضمّه مع عليّ إلى صدره ؛ فلمّا أصبح إذا بلوح أخضر مكتوب فيه :

خصّصتما بالولد الزكيّ والطاهر المنتجب الزكيّ
فاسمه من شامخ عليّ عليّ اشتقّ من العليّ

فأسماه أبو طالب عليّاً ، وعلّقوا اللوح في الزاوية اليمنى من الكعبة ، وما زال هناك حتى أخذه هشام بن عبد الملك ، فلم يُر بعدها .

والأخبار في ولادته (عليه السلام) وكيفيّتها كثيرة ، غير أن المقام لا يتّسع لأكثر من ذلك .

وقد اختصّ (عليه السلام) بهذا الكرامة ، ذلك أنّ أشرف البقاع الحرم ، وأشرف

مواضع الحرم المسجد ، وأشرف بقاع المسجد الكعبة ، ولم يولد فيه مولود سواه ، وليس المولود في سيّد الأيام ـ يوم الجمعة ـ في الشهر الحرام ، في البيت الحرام سوى أمير المؤمنين (عليه السلام) .

وفي الحقيقة :

هذه مِن عُلاه إحدى المعالي وعلى هذه فقِسْ ما سواها

ولنعم ما قال الحِمْيَرِيّ :

ولَدَتْه في حرم الإله وأمنه والبيت حيث فِناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب كريمة طابت وطاب وليدها والمولد
في ليلة غابت نحوس نجومها وبدت مع القمر المنير الأسعُدُ
ما لُفَّ في خِرق القوابل مثله إلّا ابن آمنة النبيّ محمّد



الفصل الثاني

في بيان فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)

لا يخفى على أهل العلم والبصيرة أن فضائل أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) يقصر البيان واللسان ـ بالغَينْ ما بلغا ـ أن يقيّماها ، ويضيق أيّ بحث أو كتاب عن احتوائها والإحاطة بها ، بل إنّ ملائكة السماء يعجزها بلوغ درجاته ، وفي الحقيقة فما أُحصي من فضائله (عليه السلام) لا يبلغ غَرفةً من بحر ، وفي الأحاديث الواردة عن كلام الحق تعالى في فضائله ما لا يحصى تعداده ، وكتاب فضله لا يكفيه لو كان ماء البحر مداده .

فكيف ـ والحال هذه ـ أجد الجرأة على الإمساك بالقلم ، لأكتب شيئاً في هذا المقام ؟ غير أنه (صلوات الله عليه) معدن الكرم والفتوة ، وأرجو رجاء الواثق أن يصفح عن جرأتي ، ويتقبّل منّي هذا النزر من الكلام ، وما توفيقي إلاّ بالله ، عليه توكّلت وإليه أنيب .

أعلم أن الفضائل تكون إمّا نفسيّة أو بدنيّة ، وأمير المؤمنين (صلوات الله عليه) أكمل وأفضل الخلق بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في هذين النوعين من الفضائل بوجوه عديدة ، ونكتفي هنا بذكر أربعة عشر وجهاً منها ، راجين التبرّك بهذا الرقم الشريف .

الوجه الأول : أن جهاده (عليه السلام) في سبيل الله وبلاءه في غزوات النبي (صلّى الله عليه وآله) فاقا ما قام به الناس كافّة في تلك الغزوات ، ولم يبلغ أحد مبلغه في الجهاد والفداء .

ففي موقعة بدر أرسل بالوليد وشيبة والعاص وحنظلة وطعمة ونوفل إلى الدرك الأسفل مع غيرهم من صناديد المشركين ، وواصل القتال حتى كان مقتل نصف المشركين على يديه ، وقتل سائرُ المسلمين بعضدهم ثلاثة آلاف من الملائكة والمسوَّمين النصف الآخر .

وفي موقعة أحد ، حيث فرّ الناس ، ثبت (عليه السلام) كالطود بين يدي رسول الله

(صلّى الله عليه وآله) يدفع عنه المشركين ، ويعمل القتل فيهم حتى ملأت جسده المقدّس الجراحات البالغة ، فلم يفزعه الهول ، وراح يجندل أبطال الرجال حتى نزل جبرئيل بنداء السماء :

لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي

وفي موقعة الأحزاب قتل عَمْرَ بن عبد ودّ ، وجاء الفتح على يديه ، حتى قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في حقّه : « ضربة عليّ أفضل من عبادة الجن والإنس » .

وفي موقعة خيبر كان مقتل مرحب بطل اليهود على يديه ، واقتلع باب الحصن ـ على عظمته ـ بيد الإعجاز ، ورمى به إلى بعد أربعين قدماً ، في حين عجز أربعون من الأصحاب عن تحريكه .

وفي موقعة حنين ، حين خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعشرة آلاف من المسلمين للحرب ، حتى استكثر أبو بكر عددهم فقال : لن نهزم اليوم من قلّة ، لكن الجميع انهزموا ، ولم يبق مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلاّ بضعة رجال كان عليّ (عليه السلام) على رأسهم ، حتى إذا قتل صنديدهم أبا جرول فكسر بقتله قلوب المشركين ، وارتعدت منهم الفرائص ، فلاذوا بالفرار ، ورجع الفرّارون من المسلمين .

إلى غيرها وغيرها من المواقع التي أتى أرباب السير والتواريخ على ذكرها ، ويتّضح منها للمتتبّع مبلغ جهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) ومبلغ شجاعته وعظم بلائه .

الوجه الثاني : أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان أعلم الناس وأكثرهم معرفة ، وتظهر أعلميّته في جوانب عديدة :

الأول : أنه بلغ (عليه السلام) من الفطنة وقوّة الحدس وشدّة الذكاء الغاية ، وكان يلازم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ملازمة متواصلة ، فاستفاد من تلك الملازمة ، واقتبس من نور مشكاة النبوّة ، وهذا أوضح برهان على أعلميّته (عليه السلام) بعد النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، وأن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) علّمه ـ قبل ارتحاله إلى الرفيق الأعلى ـ ألف باب من العلم ، كلّ باب منها يفتح على ألف باب .

كما يستفاد من الأخبار المعتبرة المستفيضة ، بل المتواترة ، والتي رواها الشيعة والسنة معاً ، أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال فيه : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها » .

والثاني : اتفق مرّات كثيرة أن الصحابة كانت تشتبه عليهم الأحكام الشرعية ، فيفتي بعضهم خطأً ، فيرجعون إليه فيصوّبها لهم ، ولم ينقل قطّ بأنه رجع إليهم مرّة واحدة ، وهذا

يشهد بأعلميّته ، وحكايات أخطاء الصحابة ورجوعهم فيها إليه لا تخفى على الماهر الخبير .

الثالث : مفاد الحديث النبوي : « أقضاكم عليّ » ، يستلزم الأعلميّة ، ذلك أنّ القضاء يستلزم العلم .

الرابع : حقيقة استناد الفضلاء والعلماء من أهل كلّ فنّ عليه، وينقل عن ابن أبي الحديد قوله :

قد عرفت أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، وأرباب هذا الفنّ هم من تلامذته ، فأمّا من الشيعة والإماميّة ، فرجوعهم إليه ظاهر ، وأمّا من العامّة فأستاذ هذا الفنّ من الأشاعرة أبو الحسن الأشعري ، وهو تلميذ أبي عليّ الجبائي ، وأبو عليّ أحد مشايخ المعتزلة ، وكبير المعتزلة واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن هاشم بن محمد بن الحنفيّة ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه محمد تلميذ أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ومن العلوم علم تفسير القرآن ، وعنه أُخذ ومنه فرّع ، وابن عبّاس واحد من كبار المفسّرين ومشايخهم ، وهو تلميذ أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ومن العلوم علم النحو والعربيّة ، وقد علم الناس كافّة أنّه هو الذي ابتدعه وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي ـ أستاذ هذا العلم ـ جوامعه وأصوله .

ومن العلوم علم الفقه ، وكلّ فقيه في الإسلام إنّما هو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه .

ومن العلوم علم الطريقة ، وإن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ كما أن أصحاب نفس الأولياء والخرقة التي هي شعارهم يسندونها ـ باعتقادهم ـ بإسناد متّصل إليه (عليه السلام) .

الخامس : أنه ما أكثر ما أخبر عن وفير علمه بنفسه في مواقف متعدّدة ، كما في قوله :

« سلوني قبل أن تفقدوني ، فإنّي بطرق السماوات أخبر منكم بطرق الأرض » .

وكان الناس يواصلون سؤاله عن أمور مشكلة وعلوم غامضة ويسمعون منه الأجوبة عنها ، ومن غرائب هذه الكلمات أن كلُّ من ادّعاها بعده باء بالمذلّة والافتضاح ، وهذا ما جرى لابن الجوزيّ[1] ، ولمقاتل بن سليمان[2] ، والواعظ

---

(١) حكاية ابن الجوزي في هذا المقام بلغت حداً من الانتشار لا حاجة معه لذكرها .

(٢) أمّا حكاية مقاتل بن سليمان وكان من أجلّة أهل السنّة وأعيانهم وجاء في تاريخ ابن خلّكان عن إبراهيم الحربيّ عن مقاتل أنّه قال يوماً : سلوني عمّا دون العرش ، فقال له رجل : آدم حجّ آدم فمن حلق له ؟ ←

البغدادي(١) في عهد الناصر العبّاسيّ، وما جرى من افتضاحهم بعد التفوّه بهذه الكلمات

(*) (سيرد الجواب عن هذا السؤال في المجلّد الثاني عند الحديث من فضائل الإمام علي النقي (عليه السلام)) .
قال مقاتل : هذا السؤال ليس منك ، لكنّ الله شاء أن يبتليني بالعجز والذلّة بسبب العُجب الذي حصل عندي .

(١) أمّا حكاية الواعظ البغدادي فقد كان في عهد الناصر لدين الله العبّاسيّ واعظ مشهور بعلم الحديث والرجال ، وكان إذا نزل عن المنبر جمع حوله خلقاً كثيراً من العرفاء والعوام ، وكان عدوّاً للحكماء المتألّهين وطلبة العلوم العقليّة وأهل الكلام ، وكان يتناول رجال الشيعة بكلام قبيح أكثر من هؤلاء كلهم ، فاتفق كبار الشيعة على تعيين واحد منهم يقوم - إذا ما تناولهم الواعظ بكلامه البذيء - بتوجيه أسئلة له عن معضلات المسائل والأمور المشكلة ، فيخجله ويفضحه بين الناس ، واختاروا من بينهم رجلاً اسمه أحمد بن عبد العزيز ، وكان رجلاً شيعيّاً لديه من علم الكلام والأدب وأمور المعتزلة نصيب وافٍ ، وذات يوم اعتلى الواعظ المنبر ، واجتمع من الناس خلق كثير ، وبدأ الواعظ الحديث عن صفات القادر ذي المنن ، وأثناء حديثه وقف أحمد بن عبد العزيز وسأله عن مسائل عقلية ذات صلة بطريقة المتكلمين من المعتزلة ، فلما لم يستطع الواعظ الإجابة لجأ إلى أسلوب المحاجّة والجدل بكلمات خطابيّة وألفاظ مسجّعة مقفّاة صقلها ولفّقها ، وقال في آخر حديثه : أعين المعتزلة حول ، وأصواتي في مسامعهم طبول ، وكلامي في أفئدتهم يصول ، يا من بالاعتزال - ويحك - كم تحوم وتجول ، حول من لا تدركه العقول ، كم أقول وكم أقول ، خلّوا هذا الفضول .
ولما سمع الناس من الواعظ هذه الأقوال المسجّعة والكلمات المعسولة جازت عليهم الخدعة وصرخوا في أحمد أن اصمت ، فسرّ الواعظ وطرب ، وراح يشطح في أقواله كرّة بعد كرّة ؛ ويقول : سلوني قبل أن تفقدوني .
فوقف أحمد ثانية وقال : أيّها الشيخ ، ما هذا القول الذي تقول ؟ هذا الكلام لم ينطق به إلاّ عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، والخبر معلوم بتمامه ، وتتمة الخبر أنه (عليه السلام) قال : لا يقولها بعدي إلاّ مدّعٍ كذّاب .
كان الواعظ لا يزال تحت تأثير سروره وطربه ، وأراد أن يغتنم من جواب أحمد فرصة يظهر فيها معرفته بعلم الرجال فقال: أيّ عليّ بن أبي طالب؟ هل هو علي بن أبي طالب بن المبارك النيشابوريّ من تقصده، أم عليّ بن أبي طالب بن إسحاق المروزيّ ، أم ابن عثمان القيروانيّ ، أم ابن سليمان الرازيّ ؟ حتى عدد سبعة أو ثمانية من رواة الحديث ويحملون اسم عليّ بن أبي طالب .
وإذ ذاك وقف أحمد بن عبد العزيز ومعه رجلان عن يمينه ويساره لحمايته وقفوا وأرواحهم على أكفّهم وقال أحمد :
اهدأ أيها الشيخ ، قائل هذا الكلام هو عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، وزوج فاطمة سيدة نساء العالمين (عليها السلام) ، فإن كنت لم تعرفه بعد أزيدك إيضاحاً : صاحب هذا القول هو ذلك الذي لما آخى محمّد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله) بين أصحابه اتّخذه أخاً له ، وناداه : يا أخي ، وقال : عليّ منّي ، إن لم تكن بعد قد سمعت بمكانته ومنزلته ، وإن لم تكن قد عرفت مقامه الرفيع ومحلّه المنيع ! ولما أراد الواعظ أن يردّ على أحمد صرخ الرجل عن يمينه : =

مسطورة في كتب السير التواريخ ، وهذا أيضاً برهان على مقصودنا ، ذلك أنه (عليه السلام) قال : «ولا يقولها بعدي إلاّ مدع كذّاب» ، كما أنّه مرّة وضع يده المباركة على صدره وقال : «إنّ هيهنا لعلماً جمّاً» ، وقال في مقام آخر :

« والله لو كُسرت (ثُنيت) لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم » .

وإجمالاً فلم يؤثر عن أحد ما أُثر عنه (عليه السلام) من أصول العلم والحكمة ، وقضايا كثيرة ، وها نحن نرى اليوم حكماء كابن سينا ، ونصير الدين المحقق الطوسي ، وابن ميثم وأمثالهم ، وكذلك علماء أعلام وفقهاء كرام كالعلاّمة والمحقق والشهيد وآخرين رضوان الله عليهم ، نراهم يستمدّون من بعضهم بعضاً تفسير كلماته (عليه السلام) وتأويلها ، ويستفيدون علوماً كثيرة من كلماته وقضاياه .

الوجه الثالث : من الوجوه التي تدلّ على فضله وأفضليّته ما يُستفاد من آية التطهير المباركة ، وآية المباهلة وافية الهداية ، ببيان شرح في محلّه ، ولا يتّسع هذا المختصر لبسطه ، نعم ، يؤثر عن الفخر الرازي كلام في ذيل آية المباهلة نرى من المناسب إيراده هنا .

يقول الفخر بن الخطيب : يستدلّ الشيعة من هذه الآية أنّ عليّاً (عليه السلام) أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد (صلّى الله عليه وآله) ، وأفضل من سائر الصحابة ، والذي يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ وأنفسنا وأنفسكم ﴾ وليس المراد بقوله : « وأنفسنا » نفس محمد

= اصمت أيّها الشيخ ، إن بين الأسماء كثيرين ممن يسمّون : محمّد بن عبد الله ، لكن ذلك الذي قال الله عزّ وجلّ في شأنه : ﴿ ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾ ، وإنما هو رجل آخر .

كذلك فعليّ بن أبي طالب كثير في الأسماء ، لكن ذلك الذي قال صاحب الشريعة في شأنه : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نبي بعدي » ، إنما هو رجل آخر ، واعلم أيها الشيخ أن الأسماء كثيرة والكنى وفيرة ، إنما يعرف الرجل بمكانه .

التفت الواعظ إليه ليجيبه ، إذ بالآخر الذي على يسار أحمد يصرخ :

أيها الشيخ ، دعك من اللغو والباطل ، وإنّما أنت رجل جاهل ، فإن كنت لا تعرف عليّ بن أبي طالب فأنت معذور ! وأنشد :

وإذا خفيت على الغبي فعاذرٌ أن لا تراني مقلةٌ عمياءُ

وهنا عمّ الاضطراب المجلس ، وعمّت الناس الفوضى ، وتوالت اللكمات والصفعات على الوجوه والرؤوس ، فمن أثواب ممزّقة ، إلى رؤوس عارية ؛ أما الواعظ فأصابه الرعب ، ونزل عن المنبر ، فأحاط به أصحابه وأخذوه إلى بيته ، وبلغ قصر الخليفة ما جرى ، فبعث برجاله ففرّقوا بين المتقاتلين ، وأمّ الناصر لدين الله الناس في صلاة أخرى حتى تمكّنوا من الإمساك بأحمد ورفيقه ، ولما هدأت الفتنة أطلقوهما .

(صلّى الله عليه وآله) لأن الإنسان لا يدعو نفسه ، بل المراد به غيره ، وأجمعوا على أنّ ذلك الغير كان عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، فدلّت الآية على أنّ نفس عليّ هي نفس محمّد ، ولا يمكن أن يكون المراد أنّ هذه النفس هي عين تلك النفس ، فالمراد أنّ هذه النفس مثل تلك النفس ، وذلك يقتضي الإستواء في جميع الوجوه ، ترك العمل بهذا العموم في حقّ النبوّة ، وفي حقّ الفضل ، لقيام الدلائل على أن محمداً (صلّى الله عليه وآله) كان نبيّاً ، وما كان عليّ كذلك ؛ ثم الإجماع دلّ على أنّ محمّداً (صلّى الله عليه وآله) كان أفضل من سائر الأنبياء والصحابة ، فعليّ كذلك أفضل من سائر الأنبياء والصحابة . انتهى موضع الحاجة من كلام الفخر الرازي .

ولنعم ما قال ابن حمّاد (ره) :

وسمّاه ربُّ العرش في الذكر نفسَه ... فحسبك هذا القول إن كنت ذا خُبر
وقال لهم هذا وصيّي ووارثي ... ومن شدّ ربُّ العالمين به أزري
عليٌّ كزرّي في قميصي إشارةً ... بأن ليس يستغني القميص عن الزرّ

أشار ابن حمّاد في كلّ بيت من هذه الأبيات إلى فضيلة من فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ففي البيت الأول إشارة إلى آية المباهلة ، وفي الثاني إشارة إلى حديث الغدير ، وتعيين النبيّ (صلّى الله عليه وآله) له (عليه السلام) وصياً ؛ وفي الثالث إشارة إلى الحديث الشريف الذي قاله في أمير المؤمنين (عليه السلام) ، كما يقول ابن شهر اشوب بأن القول : أنت زرّي من قميصي ، يعني ما بيني وبينك إنّما هو كما بين الزرّ والقميص ، فابن حمّاد يشير في شعره إلى هذا التشبيه ، وأنه كما يحتاج القميص إلى الزرّ ولا يستغني عنه ، فالنبي (صلّى الله عليه وآله) يرى عليّاً لازماً له ، ولا يستغني عنه .

الوجه الرابع : كثرة جوده وسخائه (عليه السلام) ، وهذا الأمر أشهر من أن ينوّه به ، لقد كان (عليه السلام) يصوم أياماً ، ويقضي ليالي طاوياً ليعطي قوته لغيره ؛ وسورة « هل اتى » نزلت في صدد إيثاره (عليه السلام) ، كما أنّ الآية الشريفة : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرّاً وعلانية** ﴾ إنّما نزلت فيه ؛ كان يعمل أجيراً ثمّ يتصدّق بأجرته ، وكان يشدّ حجراً على بطنه من الجوع .

ويكفي في هذا المقام شهادة معاوية ، وهو ألد عدوّ له ، بسخائه (عليه السلام) ، ذلك أنّ « الفضل ما شهدت به الأعداء » قال معاوية في حقه : إنّه ، أي عليّ (عليه السلام) ، لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه .

ولمّا ارتحل (عليه السلام) عن هذه الدنيا لم يترك سوى دراهم لشراء خادم لأهله ،

وخطابه للأموال الدنيوية بقوله : يا بيضاء و ... غرّي غيري » ، وكنسه لبيت المال بعد تصدّقه بالأموال ، ثم صلاته فيه ، كل هذه أمور مسطورة في كتب السنة والشيعة على السواء .

يروي الشيخ المفيد (رحمه الله) عن سعيد بن كلثوم أنّه قال :

كنت عند الصادق جعفر بن محمّد (عليهما السلام) ، فذكر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فأطراه ومدحه بما هو أهله ، ثم قال : والله ما أكل علي بن أبي طالب (عليه السلام) من الدنيا حراماً قطّ حتّى مضى لسبيله ، وما عرض له أمران قطّ هما لله رضى إلاّ أخذ بأشدّهما عليه في دينه ، وما نزلت برسول الله (صلّى الله عليه وآله) نازلة قطّ إلاّ دعاه ثقةً به ، وما أطاق عمل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من هذه الأمّة غيره ، وإن كان ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنّة والنار : يرجو ثواب هذه ، ويخاف عقاب هذه ، ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله والنجاة من النار ممّا كدّ بيديه ورشح منه جبينه ، وإن كان ليقوت أهله بالزيت والخلّ والعجوة ، وما كان لباسه إلاّ الكرابيس[1] ، إذا فضل شيء عن يده من كمّه دعا بالجلم[2] فقصّه .

ولم يشبهه أحد من أهل بيته في ملبسه وفقهه كما أشبهه علي بن الحسين (عليه السلام) .

الوجه الخامس : كثرة زهد أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولا شكّ أنّه كان أزهد الناس بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، والزهّاد كافّتهم يستمدّون الإخلاص منه ، فهو سيّد الزهّاد ، ما شبع من طعام قطّ ، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً ، يأكل فتات خبز الشعير اليابس ، وكان يربط جراب الخبز ويختم عليه خوفاً من أن يلتّه ابناه بالزيت أو الدهن بداعي العطف أو الإشفاق ، وقليلاً ما كان يضمّ الإدام إلى الخبز ، وإن فعل فالملح أو الخلّ .

وجاء في كيفيّة استشهاده (عليه السلام) أن أمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) قالت :

ولمّا كانت ليلة تسع عشرة في شهر رمضان قدّمت إليه عند إفطاره طبقاً فيه قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن وملح جريش ، فلمّا فرغ من صلاته أقبل على فطوره ، فلمّا نظر إليه وتأمله حرّك رأسه وبكى بكاء شديداً عالياً وقال : يا بنيّة ... أتقدّمين إلى أبيك إدامين في طبق واحد ؟ أنا أريد أن أتّبع أخي وابن عمي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .. إلى أن قال : يا بنيّة والله لا آكل شيئاً حتّى ترفعي أحد الإدامين ، فلمّا رفعته تقدّم إلى الطعام فأكل

(١) الكرابيس : الثياب الخشنة القاسية (فارسية) .

(٢) الجلم : آلة كالمقص .

قرصاً واحداً بالملح الجريش ، ثمّ حمد الله وأثنى عليه ، ثم قام إلى صلاته .

وجاء في كتابه إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة :

« . . ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية[1] ، ومن طُعمه بقرصيه » ، وقال : « . . ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القزّ ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني طمعي إلى تخيّر الأطعمة - ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع . . أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى[2] ، وأكباد حرّى[3] . . أأقنع من نفسي بأن يقال : هذا أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم في مكاره الدهر . . فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات ، كالبهيمة المربوطة ، همّها علفها » .

وإجمالاً فمن يتأمّل بإمعان في خطبه وكلامه (عليه السلام) يعلم علم اليقين ما بلغه في زهده وعدم اكترائه بالدنيا .

يروي الشيخ المفيد أنه في سفره (عليه السلام) إلى البصرة لدفع أصحاب الجمل ، نزل في الربَذة ، ونزل حجّاج مكة هناك واجتمعوا قرب خيمته علّهم يسمعون منه كلاماً ، أو يستفيدون منه فائدة ، بينما كان هو في خيمته .

وجاء ابن عبّاس يخبره خبر اجتماع القوم ، ليخرج إليهم من الخيمة ، قال :

ذهبت إليه وكان يرقع نعله ، فقلت له : إنّما نحن أحوج إليك لإصلاح أمورنا من إصلاحك لهذا النعل ، فلم يجبني حتى فرغ من إصلاح النعل ، ثم وضعه بجانب أخيه وقال : ضع ثمناً لهذا الزوج من النعال ، قلت : لا قيمة له ، وأعني أنه من قدمه وما أصابه من البلى لا يساوي شيئاً ؛ فقال : مع كلّ هذا ؛ ما قيمته ؟ قلت : درهم أو بعض درهم ، قال : أما والله إن هذين النعلين أفضل عندي وأحبّ إليّ من أمركم هذا ، إلاّ أن أقيم حدّاً أو أدفع باطلاً .

ومن كلامه (عليه السلام) في كتاب بعث به إلى ابن عبّاس ، ما هو جدير بأن يكتب بماء الذهب ، قال :

« أمّا بعد ، فإنّ المرء قد يسرّه درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فاتك منها ؛ وما نلت من دنياك فلا

(١) الطمر بالكسر : الثوب الخلق البالي .

(٢) بطون غرثى : جائعة .

(٣) أكباد حرّى - مؤنث حرّان - أي عطشان .

تكثر به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً ، وليكن همّك في ما بعد الموت » .

وبعد أن قرأ ابن عبّاس هذا الكتاب قال : ما جنيت نفعاً ـ بعد كلام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ـ كما جنيته من هذه الكلمات .

وإجمالاً فإنّ مطالعة هذه الكلمات من أجل الزهد في الدنيا كافية وافية لكلّ عاقل .

الوجه السادس : أنه كان (عليه السلام) أعبد الناس ، وسيّد العابدين ، ومصباح المتهجّدين ، فصلاته من جميعهم أكثر ، وصيامه أوفر ؛ أخذ عنه العبّاد صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة ، ومن مشعله أضاؤوا شمع اليقين في طريق الدين ، وكانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده ، وبلغ من حرصه على أداء ورده ما روي من أنه ليلة الهرير في صفّين ومُدّ له نطع ما بين الصفّين صلّى عليه ، والسهام تتناوشه من يمين ويسار وتقع على الأرض ، فلا يرتاع ولا يقوم حتى يفرغ ، ولمّا أصيبت قدمه بسهم أرادوا إخراجه بطريقة لا تؤلمه ، فصبروا حتى انصرف إلى صلاته فأخرجوه ، ذلك أنّه إذ ذاك كان يتوجّه بكليّته إلى الله عزّ وجلّ ، فلا يلتفت إلى ما سواه قطّ ، وممّا صحّ نقله أنّه كان يصلّي في كلّ يوم وليلة ألف ركعة ، وكثيراً ما كان يغشى عليه خوفاً ورهبة من الله عزّ وجلّ ، وكان عليّ بن الحسين (عليهما السلام) مع ما عرف عنه من كثرة العبادة حتى سمّي بزين العابدين وذي الثفنات وكان يقول : « ومن يقدر على عبادة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) » ؟

الوجه السابع : أنه كان (عليه السلام) أحلم الناس وأكثرهم عفواً عمّن أساء إليه ؛ وتعرف صحّة هذا الأمر ممّا فعله (عليه السلام) مع أعدائه كمروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وقد ملك أمرهم في حرب الجمل ، إذ أضحوا أسراه ، فأطلقهم جميعاً ولم يتعرّض لهم أو يقتصّ منهم ؛ ولّما ظفر بصاحبة الهودج عاملها بغاية اللطف والإشفاق ؛ وشهر أهل البصرة سيوفهم عليه ، وعلى أولاده ، كما شهروا ألسنتهم ، فلمّا ظفر بهم جرّدهم من سيوفهم ، وأعطاهم الأمان ، وحال دون التعرّض لأموالهم وأبنائهم .

كما يتبدّى هذا الأمر بوضوح في ما فعله مع معاوية في موقعة صفّين ، فقد استولى أصحاب معاوية على الماء في البداية ، ومنعوا أصحاب عليّ (عليه السلام) منه ، فلما قاتلوهم وملكوا عليهم الماء ، وصار أصحاب معاوية في الفلاة ولا ماء لهم ، قال له أصحابه : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تسقهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أكافيهم بمثل فعلهم ، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة ففي حد السيف ما يغني عن ذلك .

ويروي كثير من علماء السنّة في كتبهم أنّ أحد ثقاتهم قال :

رأيت علي بن أبي طالب (عليه السلام) في منامي ذات ليلة فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لمّا تمّ لكم فتح مكّة جعلتم دار أبي سفيان مأمناً ، وقلتم : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وهذا ابنه ينزل بابنك الحسين (عليه السلام) أعظم الفواجع في كربلاء !! فقال (عليه السلام) : لعلّك لم تسمع بأشعار ابن الصيفيّ ؟ قلت : لا ، قال : فاسمعها إذاً.

يقول الراوي : لمّا صحوت من نومي بادرت إلى دار ابن الصيفي ، المعروف بـ « حيص بيص » وقصصت عليه رؤياي ، فصاح صيحة وبكى ثم قال : أما والله لقد قلت الليلة أشعاراً لم أسمعها أحداً ولم أكتبها ، ثم أنشد :

ملكنا فكان العفو منّا سجيّة فلمّا ملكتم سال بالدم أبطح
وحلّلتمُ قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى فنعفو ونصفح
وحسبكمُ هذا التفاوت بيننا وكلّ إناءٍ بالذي فيه ينضح

الوجه الثامن : حسن خلقه وبشر وجهه وتبسّمه وطلاقة محيّاه (عليه السلام) أمور معروفة عنه حتى عابه بها أعداؤه ، فهذا عمرو بن العاص يقول : إنّه ذو دعابة شديدة ، وعمرو بن العاص إنّما أخذها عن عمر لقوله لمّا عزم على استخلافه : لله أبوك ، لولا دعابة فيك !!

وقال صعصعة بن صوحان وغيره في وصفه : كان فينا كأحدنا ، لين جانب وشدّة تواضع وسهولة قياد ، وكنّا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه .

وقال معاوية لقيس بن سعد : رحم الله أبا حسن ، فقد كان هشّاً بشّاً ذا فكاهة ، قال قيس : نعم ، كان رسول الله يمزح ويبسم إلى أصحابه ، وأراك تسرّ حسواً في ارتغاء[1] رفعه ، وتعيبه بذلك ؛ أما والله ، لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسّه الطوى ، تلك هيبة التقوى ، ليس كما يهابك طغام[2] أهل الشام .

الوجه التاسع : أنه كان (عليه السلام) أسبق الناس إلى الإيمان بالله ورسوله باعتراف الخاصّة والعامّة ، وهي فضيلة لا ينكرها أعداؤه ، وليس الإنكار بمقدورهم ، كما أنّه نفسه نوّه بهذه المنقبة من فوق المنابر فما جحدها أحد .

يروى عن سلمان (رضي الله عنه) أنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قال :

« أوّلكم وروداً عليّ الحوض وأوّلكم إسلاماً عليّ بن أبي طالب » .

---

(١) الارتغاء : الحطّ والإذلال .

(٢) الطغام : أوغاد الناس.

وقال (صلّى الله عليه وآله) لفاطمة (عليها السلام) : « زوّجتك أقدمهم إسلاماً ، وأكثرهم علماً » .

وقال أنس : بعث الله عزّ وجلّ محمداً (صلّى الله عليه وآله) يوم الاثنين ، وأسلم عليٌّ (عليه السلام) يوم الثلاثاء .

ومن قول خزيمة بن ثابت الأنصاري في هذا الصدد :

ما كنت أحسب هذا الأمر منصرفاً	عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أوّل من صلّى بقبلتهم	وأعرف الناس بالآثار والسنن
وآخر الناس عهداً بالنبيّ ومَن	جبريلُ عون له في الغسل والكفن

ويروي الشيخ المفيد عن يحيى بن عفيف قال : قال أبي :

كنت يوماً جالساً مع العبّاس بن عبد المطّلب في مكّة إذ دخل شاب المسجد الحرام ، ورفع رأسه إلى السماء ، وحلّ الزوال فتوجه إلى الكعبة ووقف للصلاة ، وإذ ذاك رأيت طفلاً يأتي ويقف إلى يمينه ، ثم أتت بعدهما امرأة ووقفت خلفهما ، فلمّا ركع الشاب ركع الطفل والمرأة بعده ، ثم رفع الشاب رأسه من الركوع وهبط إلى السجود ، وتابعه رفيقاه .
عجبت لأمرهم وقلت للعبّاس : إن أمر هؤلاء الثلاثة لعظيم ! قال أتعلم من هم ؟ الشابّ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب ، ابن أخي ؛ أمّا الطفل فهو عليّ بن أبي طالب ، ابن أخي الآخر ، وتلك المرأة هي خديجة بنت خويلد ، واعلم أنّ ابن أخي محمّداً بن عبد الله يزعم أنّ إلهه ربُّ السماوات والأرض ، وقد أمره أن يسير على هذا الدين ، فوالله ليس على وجه الأرض على دينه سوى هؤلاء الثلاثة .

الوجه العاشر : فصاحته (عليه السلام) ، فهو إمام الفصحاء وسيّد البلغاء ، حتى قال عنه معاوية : والله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره ؛ وقال البلغاء في كلامه : دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ؛ وكتاب (نهج البلاغة) أفضل شاهد على ذلك ، والله ورسوله أعلم بمقدار فصاحته ، ودقائق الحكمة في كلامه ممّا لا يباريه فيه أحد .

ولست أعلم أحداً جرؤ على تلفيق ما يماثل خطبه أو كلماته ؛ وإن كان بعض علماء السنّة والجماعة لا يعدّون الخطبة الشقشقيّة من بين خطبه ، ويزعمون نسبتها إلى السيّد الرضيّ جامع نهج البلاغة ، فهم قد ركبوا مركباً صعباً ودقيقاً ، ذلك أنّه لا يخفى على أهل الأدب والخبرة سخافة هذا الزعم ، فقد ذكر رواة الأخبار أنّهم عثروا على هذه الخطبة في كتب السلف قبل ولادة السيّد الرضيّ ؛ والشيخ المفيد الذي كانت ولادته قبل السيّد الرضيّ بإحدى وعشرين سنة يذكر في كتاب (الإرشاد) أنّ جماعة من أهل النقل يروون بطرق مختلفة عن ابن عبّاس أنّ

أمير المؤمنين (عليه السلام) خطب هذه الخطبة في الرحبة ، وذلك في حضوره هو ؛ ويتفق أبي الحديد مع كثير من أهل الأدب وفصحاء العرب على أنّ السيّد الرضي (ره) أو غيره لم ي قطّ بأمثال هذا الكلام .

الوجه الحادي عشر : معجزاته الباهرة عليه السلام .

اعلم أنّ المعجزة أمر يظهر على أيدي البشر ممّا يخرج عن حدود طاقتهم في العاد ويعجزون عن الإتيان بمثله ، ولكنه لا يوجب أن ترافق المعجزات صاحبها على الدوام ، ف رئي صاحب المعجزة رئيت معجزته أيضاً ، بل إن صاحب المعجزة إذا لقي تحدّياً ، أو اس مدّعاه معجزة استجاب للتحدّي فأتى بأمر خارق للعادة .

بيد أنّ كثيراً من معجزات أمير المؤمنين كانت تلازمه باستمرار ويراها الصديق والعد ولا قدرة لأحد على إنكارها ، وهي تزيد كثيراً على ما ذُكر منها ، ومن جملتها شجاعته وقوّته فهو باتفاق العدو والصديق الكرّار لا الفرّار ، وهو غالب كلّ غالب ، وهذا واضح وظ لكلّ من نظر إلى غزواته كما في بدر وأحد ، وموقعتي الجمل وصفّين ، وغيرها من المعارك ، ليلة الهرير كانت له خمسمئة تكبيرة أو تسعمئة على قول ، وأسقط بكلّ تكبيرة عدوّاً ، ومعر أنّ سيفه كان يخترق دروع الحديد والفولاذ ، وكانت شفرته تفري الحديد وتفري رق الرجال ، فمن يقدر على ذلك ، أو من يبلغ هذا الشأو ولو بالتمنّي ؟ لم يكن (عليه السلا يريد في هذه المواقع أن يظهر معجزة أو يأتي بما هو خارق للعادة ، إنّما هي شجاعته وق الملازمتان دوماً لقالبه البشري .

ويورد ابن شهر آشوب أموراً كثيرة في صدد قوّته (عليه السلام) كتمزيقه قماطه[1] و طفل ، وقتله حيّة بالضغط عليها بيده وهو صغير في المهد ، وقد أسمته أمّه حيدرة ، وإنّ إصبعه على أسطوانة في الكوفة ، وأثر كفّه في تكريت والموصل ، وأثر سيفه في صخرة في ج ثور في مكة ، وأثر رمحه في جبل من جبال البادية ، وفي صخرة عند قلعة خيبر ، كلّها أ معروفة ؛ وقصّة قطب الرحى[2] وتطويق عنق خالد بن الوليد ، وقصّة ضغطه عليه بإصب

---

(١) وردت قصة تمزيقه قماطه في رواية بجماعة عن أمّه فاطمة قالت :
لمّا ولد علي (عليه السلام) شددته وقمّطته بقماط فنتر القماط ، ثم جعلته قماطين فنترهما ، ثم جعلته ثـ وأربعة وخمسة وستّة ، منها أديم وحرير فجعل ينترها ، ثم قال : يا أمّاه لا تشدّي يديّ فإنّي أحتاج أبصبص (أشير) لربي بأصابعي .

(٢) أمّا قصّة قطب الرحى: فهي أنّ خالد بن الوليد قال: أتى الأصلع ـ يعني عليّاً (عليه السلام) ـ منصرفي من قتال أهل الردّة في عسكري ، وهو في أرض له ؛ يقول عليّ (عليه السلام) : إنّه لمّا تكاثف جنوده وكثرة جموعه أراد أن يضع منّي في موضعي ، فوضعت منه عند من خطر بباله ، وهمّ

السبابة والوسطى حتى قارب خالد الهلاك فصرخ متألمًا ، وأحدث في ثيابه ، كلّها أيضاً أمور معروفة للجميع ، وكذلك اقتلاعه الصخرة العظيمة عن عين ماء في طريقه إلى صفّين ، والقاؤها إلى بُعد أذرع كثيرة ، بعد أن عجز جماعة كثيرون عن قلعها[1] ، كما أنّ حكاية قلع باب خيبر وقتل مرحب أشهر من أن تعرّف ، وقد أشرنا إليها عند الحديث عن أحوال الرسول (صلّى الله عليه وآله) .

يقول ابن شهر آشوب ما حاصله : إن من عجائب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ومعجزاته أنّه جاهد إلى جانب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) السنين الطوال ، وحارب أيام خلافته الناكثين والمارقين والقاسطين فلم ينهزم في موقعة قطّ ، وهو على كثرة ممارسته للحرب لم يصب بجرح منكر ولم ينل شيئاً ، ولم يلق مبارزاً قطّ إلا ظفر عليه ، ولم يفلت منه قرن في حرب ، ولا نجا من ضربته أحد ، وما قُدّمت راية قوتل تحتها أمير المؤمنين (عليه السلام) إلاّ نكّسها الله تبارك وتعالى ، وغلب أصحابها وانقلبوا صاغرين ، وهو لم يهب جيشاً قط مهما كان عظيماً ، بل كان دأبه أن يحمل عليهم مهرولاً فيفرّق جموعهم ، ويروى أنه يوم الخندق قفز في حملته على عمرو بن عبد الود أربعين ذراعاً ، وهذا خارج المألوف ، ثم قَطْعُهُ ساقي عمرو مع ما عليه من ثياب وسلاح ، وكذلك ضربته لمرحب التي جعلته نصفين من فرقه حتى قدمه مع ما أحاط بجسمه من حديد وفولاذ . . الخ .

وكذلك فإنّ فصاحته وبلاغته كانتا ممّا اتفق الفصحاء والبلغاء على كون كلامه فوق كلام

= نفسه ، يقول خالد : فنكسني والله عن فرسي ، فجعل يسوقني إلى رحىً للحارث بن كلدة ، ثم عمد إلى قطب الرحى (الحديد الغليظ الذي عليه مدار الرحى) فمدّه بكلتي يديه ولوّاه في عنقي ، وأصحابي كأنّهم نظروا إلى ملك الموت ، فاقسمت عليه بحقّ الله ورسوله ، فاستحيى وخلّ سبيلي .

قالوا : فدعا أبو بكر جماعة الحدادين فقالوا : إن فتح هذا القطب لا يمكننا إلاّ أن نحميّه بالنار ، فبقي ذلك أيّاماً والناس يضحكون منه ، حتى عاد أمير المؤمنين (عليه السلام) من سفره ، فذهبوا إليه وشفعوا لخالد واقسموا عليه ، فقبض على الحديد وجعل يفتل منه شبراً فشبراً فيرمي به ، كأنه يفت الدقيق المخمّر .

أمّا قصّة إمساكه لخالد بإصبعيه : السبابة والوسطى فمعروفة ، فقد أمر خالد بقتل أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فأتى المسجد بسيفه ، وكان (عليه السلام) منصرفاً إلى صلاته ، وانتظر خالد حتى يسلّم أبو بكر فيقتله ، لكن أبا بكر كان في تشهدّه يعيد التفكير في الأمر ، فراح يكرر التشهّد ويعيده حتى قرب طلوع الشمس ، فعند ذاك قال قبل التسليم : يا خالد لا تفعل ! ثم سلّم ، التفت عليّ (عليه السلام) إلى خالد وسأله عمّا أُمر به ، قال : امرت بضرب عنقك ، قال : ويلك أكنت فاعلاً ؟ قال : أجل والله لولا أنّي نهيت ، إذ ذاك رمى به (عليه السلام) إلى الأرض ، وفي روايات أخرى أنه (عليه السلام) أمسك به (عليه السلام) بإصبعيه وراح يضغط حتى أحدث خالد في ثيابه ودنا من الهلاك ، فأطلقه (عليه السلام) بعد أن شفع به عمّه العبّاس .

(١) سيأتي تفصيل هذه المعجزة في المجلّد الثاني عند الحديث عن أحوال الإمام الرضا (ع) إن شاء الله

المخلوق وتحت كلام الخالق ، كما سبقت الإشارة .

وأما علمه وحكمته اللذان لا يعلم مقدارهما سوى الله ورسوله ، ولا يستطيع أحد شرحهما ، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها ، فإنّ امرأً يبلغ في معارج العلم والحكمة هذا العروج الذي لا يقدر أحد على مجرّد تمنّيه ، ومن دون معلم أو مدّرس في الظاهر ، فإعجازه بيّن .

وأما جوده وسخاؤه فيكفي أنّه كان (عليه السلام) يبذل كلّ ما تناله يداه ، وكان يمضي ثلاثة أيام بلياليها في صيام متواصل مع فاطمة والحسنين (عليهم السلام) في حين يعطون طعامهم لمسكين ويتيم وأسير ، وأنّه تصدق بخاتمه أثناء ركوعه فأنزل الله عزّ وجلّ في شأنه وشأن أهل بيته سورة « هل أتى » وآية « إنّما وليكم الله » ، وأنه أعتق ألف مملوك من كدّ يده .

وأمّا زهده وعبادته فقد اتفّق العلماء على القول بأن أحداً لا يقوى على عبادته ، وقد قنع طوال عمره بخبز الشعير ، ولم يزد إدامه على الملح أو الخلّ ، ومع هذا القوت كانت له تلك القوّة والأيد ، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها ، وهذه معجزة أيضاً فهي تفوق طاقة البشر ؛ وعلى هذا المنوال كان في مناقبه الأخرى ، في عفوه وحلمه ورحمته ، وفي شدّته ونقمته ، وفي شرفه وتواضعه ، وهذا إنّما هو جمع بين الأضداد وتأليف بين الأشتات ، وهذا أيضاً من خوارق العادات ، ومن شريف فضائله (عليه السلام) .

وإلى هذا يشير السيّد الرضيّ ، (رضي الله عنه) ، في افتتاحه لنهج البلاغة إذ يقول :

« إنّ كلامه الوارد في الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر ، إذا تأمّله المتأمّل ، وفكّر فيه المتفكّر ، وخلع من قلبه أنه كلام (مشرع الفصاحة) مثله ممّن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشكّ في أنّه كلام مَن لا حظّ له في غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، وقد قبع في كسر بيت ، أو انقطع إلى سفح جبل ، لا يَسمع إلاّ حسّه ، ولا يرى إلاّ نفسه ؛ ولا يكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه ، فيقطّ الرقاب ، ويجدّل الأبطال ، ويعود به ينطف دماً ، ويقطر مهجاً ؛ وهو مع تلك الحال زاهد الزهّاد ، وبدل الأبدال ؛ وهذه من فضائله العجيبة ، وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد ، وألّف بين الأشتات . . . » . انتهى .

ولنعم ما قال الصفيّ الحلّيّ في مدح أمير المؤمنين (عليه السلام) :

جُمعتْ في صفاتك الأضداد	فلهذا عزّت لك الأنداد
زاهد حاكم حليم شجاع	فاتكٌ ناسكٌ فقير جواد
شيم ما جُمعن في بشر قطّ	ولا حاز مثلهنّ العباد

خُلُق يُخجل النسيم من اللطف وبأسٌ يذوب منه الجماد

وإجمالاً فقد كان (عليه السلام) في جميع صفاته أفضل من المخلوقات كافّة غير ابن عمّه ، فلا جرم أن وجوده الشريف بين الخلق إحاطة بالممكنات وأكبر المعجزات ، ممّا لا مجال لإنكاره ، بأبي أنت وأمي يا آية الله العظمى والنبأ العظيم .

أمّا المعجزات التي كانت تظهر على يديه بين حين وآخر فأكثر من أن تُحدّ أو تُعدّ ، ونشير إليها في هذا المختصر بصورة الإجمال لتكون فهرساً لأهل التمييز والاطّلاع .

من بين معجزاته (عليه السلام) تلك المتعلّقة بانقياد الحيوانات والجنّ له ، ويظهر هذا من حديث الأسد وجُوَيْرية بن مسهر[1] ، وحديثه (عليه السلام) مع الثعبان على منبر الكوفة[2] ، وكلامه مع الطيور والذئب وسمك الجرّي ، وسلام أسماك الفرات عليه بإمارة المؤمنين ، وذهاب الغراب بنعله وسقوط حيّة منه[3] وقصّة الرجل

---

(١) قصّة الحديث : قال أمير المؤمنين (ع) لجويرية بن مسهر وقد عزم على الخروج :
أما إنّه سيعرض لك في طريقك الأسد ، قال : فما الحيلة له ؟ قال : تقرئه منّي السلام وتخبره أنّي أعطيتك منه الأمان ، فخرج جويرية ، فبينا هو يسير على دابّة إذ أقبل نحوه أسد لا يريد غيره ، فقال له جويرية : يا أبا الحارث ، إنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) يقرئك السلام ، وإنّه قد آمنني منك . قال : فولّى الليث عنه مطرقاً يهمهم حتّى غاب في الأجمة . فلما انصرف جويرية إلى أمير المؤمنين (ع) سلّم عليه وقال : كان من الأمر كذا وكذا ، فقال : إنّه ولّى عنك وهو يقول : أقرىء وصيّ محمد منّي السلام ، وعقد بيده خمساً ، ويعني أنه سلّم خمس مرات ، وقد نقلت هذه القصة عن طريق آخر ، بيد أن نقلنا هذا يوافق رواية الباقر (ع) .

(٢) قصّة الثعبان : كان أمير المؤمنين (ع) يخطب فوق منبر الكوفة إذ بثعبان يظهر عند المنبر وتوجّه نحو أمير المؤمنين (ع) ، فخاف الناس وتهيّأوا لدفعه ، فأشار إليهم (ع) أن يبقوا على حالهم ، واقترب الثعبان منه فقرّب (ع) رأسه إليه ، فوضع الثعبان رأسه عند أذنه (ع) وصاح صيحة ثم ابتعد قليلاً ؛ والناس في حيرة واجمون ، وحرّك أمير المؤمنين (ع) شفتيه والثعبان يصغي ، ثمّ نزل وغاب عن العيون كما لو أن الأرض ابتلعته ، وعاد أمير المؤمنين (ع) إلى خطبته فأتمّها ، ثم نزل عن المنبر ، فتدافع الناس إليه يسألونه عن أمر الثعبان، فقال (ع): إنه حاكم من حكّام الجنّ، اشتبه عليه أمر فأتى يسألني، فعلّمته الحكم في هذا الأمر، فدعا لي ثم انصرف.

(٣) قصة الغراب : نقل صاحب الأغاني عن المدائنيّ أنّه قال : إن السيّد الحميريّ ، وقف بالكناسة (وهي محلة مشهورة بالكوفة) وقال : من جاء بفضيلة لعليّ بن أبي طالب (ع) لم أقل فيها شعراً فله فرسي هذا وما عليّ ، فجعلوا يحدّثونه وينشدهم فيه (أي ينشدهم ما سبق له قوله من شعره في ما يحدّثونه به من الفضائل) ، حتّى روى رجل عن أبي الزغل المرادي أنّه قدم أميرُ المؤمنين (ع) فتطهّر للصلاة ، فنزع خفّه، فانسابت فيه أفعى، فلمّا دعا به ليلبسه انقضّ غراب (على الخفّ فأخذه) ثم حلّق به، ثم ألقاه، فخرجت الأفعى منه ، قال : فأعطاه السيّد ما وعده وأنشأ يقول أبياتاً من الشعر مطلعها :

الآذربيجاني[1] وجمله العنيد، وحكاية اليهودي[2] الذي فقد أمواله فأرجعها الجنّ له بأمر من أمير المؤمنين (عليه السلام) وكيفيّة أخذه البيعة من الجنّ في وادي العقيق، إلى غير ذلك.

ومن معجزاته الأخرى ما يتعلّق بالجمادات والنباتات ، كردّ الشمس له (عليه السلام) أيام النبي (صلّى الله عليه وآله) وبعد مماته في أرض بابل . وقد صنّف بعضهم كتاباً في جواز ردّ الشمس ، وقد كتب عن ردّ الشمس له (عليه السلام) في مواضع عديدة ؛ ومنها تكلّم الشمس معه في مناسبات متعدّدة ، ومنها حكمه بسكون الأرض عند حدوث زلزلة في أرض المدينة أيام أبي بكر ، وعدم توقفها عن الحركة ، فاستقرّت بأمر منه ، ومنها نطق الحصى وتسبيحها في كفّه ، ومنها حضوره ـ بطيّ الأرض له ـ موت سلمان في المدائن ، وما كان من تجهيزه ودفنه له ، ومنها نقل أبي هريرة بطيّ الأرض له ، وإبلاغه بيته بعد أن شكا إليه شدّة شوقه إلى أهله وعياله .

ومنها حديث البساط حيث أشبع (عليه السلام) جماعة من أصحابه في الهواء ، وأخذه إياهم إلى كهف أصحاب الكهف ، وسلامهم عليهم فلم يردّوا إلا سلام أمير المؤمنين

= ألا يا قوم للعجب العجاب خفّ أبي الحسين وللحباب
(والحباب بالضم : الحيّة)

(١) قصّة الرجل الآذربيجاني : أتى هذا الرجل إلى أمير المؤمنين (ع) فشكا إليه أن عنده جملاً عنيداً شموساً لا ينقاد له أبداً ، وأنّ معاشه منه ، فقال له (ع) : إذا انصرفت إلى الموضع الذي هو فيه فقل : « اللّهم إنّي أتوجه إليك بنبيّك نبيّ الرحمة وأهل بيته الذين اخترتهم على علم على العالمين ، اللّهم ذلّل لي صعوبتها واكفني شرّها ، فإنّك الكافي المعافي ، والغالب القاهر » ، قال :
فانصرف الرجل راجعاً ، ثم عاد إليه من قابل وهو يركب جمله ، وقبل أن يتكلم حدّثه أمير المؤمنين (ع) كيف قام بتطويع الجمل كما علّمه ، فأمّن على كلامه .

(٢) قصّة اليهودي : يروي أبو إسحاق السبيعي والحارث بن الأعور أنّ عجوزاً مرّ في الكوفة وهو يبكي ويقول : عشت مئة عام أنجب البنين فما رأيت سوى ساعة واحدة من العدل ، قيل : وكيف ؟ أنا حجر الحميري ، وكنت على دين اليهود ، قدمت الكوفة أبتاع طعاماً ، ولمّا وصلت القبّة (وهي اسم موضع في الكوفة) فقدت مالي ، فجئت الأشتر النخعي وقصصت عليه قصّتي ، فأخذني إلى أمير المؤمنين (ع) ، فلما بصر بي قال : يا أخا اليهود ، إن عندي علم البلايا والمنايا وما كان وما يكون ، أأخبرك أم تخبرني ؟ قلت : بل قل أنت ، قال : إن رجالاً من الجنّ سرقوا مالك في القبّة ، والآن ماذا تريد ؟ قلت : إن تفضّلت عليّ فأرجعت إليّ مالي أسلمت لله ، فأخذني إلى القبّة ، وصلّى ركعتين ودعا ثم تلا : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ الآية ، ثم قال : يا معشر الجنّ ، بايعتموني وعاهدتموني ، فما هذا العمل المذموم الذي ارتكبتموه ؟ وإذا بي أرى مالي يخرج لي القبّة ، فتشهّدت وأسلمت ، وعائداً أرد الكوفة فإذا به مقتول ، وهذه علّة بكائي . ويقول ابن عقدة : كان هذا الرجل من قلاع المدينة .

(عليه السلام)، وتكلّمهم معه، ومنها تحويله الطين ذهباً لصاحب دين[١]، ومنها حكمه على جدار آيلٍ للسقوط بعدم سقوطه، كان (عليه السلام) يجلس في أصله، ومنها أنّ حلقات درعه (عليه السلام) كانت تلين بيده فيسردها، كما قال خالد بن الوليد: رأيت عليّاً يسرد حلقات درعه بيده ويصلحها، فقلت: هذا كان لداود (عليه السلام)، فقال: يا خالد بنا ألان الله الحديد لداود، فكيف لنا؟

ومنها شهادة نخل المدينة بفضله وفضل ابن عمه (صلوات الله عليهما) وقول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) له: يا عليّ سمّ نخل المدينة صيحانيّاً، فقد صاحت بفضلي وفضلك. ومنها اخضرار شجرة إجّاص بإعجازه (عليه السلام)، وانقلاب قوس ثعباناً مبيناً بأمره، وتسليم الشجر والمدر عليه في أرض اليمن، وانحسار ماء الفرات بأمره بعد طغيانه، وكثير من هذا القبيل لا يحيط به الإحصاء.

ومن معجزاته ما يتعلّق بالمرضى والموتى، كما التأمت بأمره يد هشام بن عديّ الهمدانيّ المقطوعة في صفّين، والتئام يد الرجل الأسود التي قُطعت بأمره حين ثبت عليه أنه سرق، وكان من محبّيه، ومنها حديثه مع الجمجمة في بابل، وبناؤه مسجداً في الموضع، وهو قائم الآن قرب مسجد ردّ الشمس في الحلّة، وهو معروف[٢]. وفي (تحفة الزائر) و(الهديّة إلى

(١) قصة تحويل الطين ذهباً: وجد (ع) مؤمناً لازمه صاحب الدين بالدين، فقال: اللهم بحق محمد وآله الطاهرين لما صببت من فضلك هذا الذهب، ثم أمره فتناول حجراً ومدراً فانقلبت له ذهباً أحمر، فقضى دينه، وكان الذي بقي أكثر من مئة ألف درهم.

(٢) لما كان مسجد ردّ الشمس واقعاً في ناحية من نواحي الحلّة، وكان أهل الحلّة غالباً من الإماميّة المخلصين لأهل البيت، فإن هذا المسجد معمور ومقصود دائماً، بخلاف مسجد الجمجمة الواقع في طرف منه، وهو معدود من مآثر عيون الشيعة، ولهذا فهو مهجور متروك، حتى اسمه فقد ضاع شيئاً فشيئاً، مع أنّ جماعة من أكابر الفقهاء مثل [illegible] والقطب الراوندي وابن حمزة الطوسي وغيرهم يذكرون هذا المسجد الشريف في باب معجزات أمير المؤمنين (ع) وفضائله، ثم إن شيخنا العلامة النوري طاب ثراه سافر إلى الحلّة في أواخر عمره لاستكشاف أمر هذا المسجد الشريف، ووصل بجهد ومشقّة إلى قرية الجمجمة وهي قرب الحلّة [illegible] معجزات من أمير المؤمنين (ع)، ويقع مسجد الجمجمة في بستان في أقصى قريته إلى الشرق، وينقل مسنّو القرية عن أسلافهم أنهم أدركوا قبّة هذا المسجد، وأنّ من الأمور المسلّمة بينهم أنّه إذا أخذ أحد شيئاً من آجرّ هذه القبّة وهو يعلم، وبنى به شيئاً [illegible] إلى الخراب، ولهذا لا يجرؤ أحد على أخذ شيء من آجرّ المسجد، وقد [illegible] المسجد [illegible] الأمر [illegible] أحداً لم يقدم على ترميمه، والأمل أن [illegible] الذين [illegible] أهل [illegible] إلى ترميمه، ويعمروا مصلّى أمير المؤمنين (ع) [illegible] [illegible] معجزة لأمير المؤمنين (ع) [illegible] إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر [illegible] على مرّ [illegible] والأيام.

مسجد ردّ الشمس ومسجد الجمجمة) شرح ذلك . ومنها إحياؤه لسام بن نوح ، وإحياؤه لأصحاب الكهف كما تمت الإشارة في حديث البساط .

ويروى عن الباقر (عليه السلام) أنه قال : مرض رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مرضة ، فدخل عليّ (عليه السلام) المسجد فإذا جماعة من الأنصار ، فقال لهم : أيسرّكم أن تدخلوا على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ؟ قالوا : نعم ، فاستأذن لهم فدخلوا ، فجاء عليّ (عليه السلام) وجلس عند رأس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ووضع يده على صدره فإذا الحمّى تنفضه نفضاً شديداً ، فقال (عليه السلام) : يا أمّ مِلدم[1] اخرجي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وانتهرها ، فجلس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وليس به بأس ، فقال : يا بن أبي طالب ، لقد أعطيت من خصال الخير ، حتّى أن الحمّى لتفزع منك .

ولنعم ما قاله مقصورة العبدي :

مَن زالت الحمّى عن المطهر به   مَن ردّت الشمس له بعد العِشا
من عبّر الجيش على الماء ولم   يُخش عليه بللٌ ولا ندى

ويروي ابن شهر آشوب (ره) عن عبد الواحد بن زيد أنّه قال :

خرجت إلى مكّة فبينا أنا بالطواف فإذا بجارية خماسيّة متعلّقة بستارة الكعبة ، وهي تخاطب جارية مثلها (أختها) وتقول :

« لا وحقّ المنتجب بالوصيّة ، الحاكم بالسويّة ، العادل في القضيّة ، العالي البيّنة ، زوج فاطمة المرضيّة ، ما كان كذا وكذا » . فقلت لها : يا جارية ، من صاحب هذه الصفة ؟ قالت : ذلك والله علم الأعلام ، وباب الأحكام ، وقسيم الجنّة والنار ، وربّانيّ هذه الأمّة ، ورأس الأئمة ، أخو النبيّ ووصيّه ، وخليفته في أمّته ، ذلك مولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، فقلت لها : يا جارية ، بم يستحقّ عليّ منك هذه الصفة ؟ قالت : كان أبي والله مولاه فقتل بين يديه يوم صفّين ، ولقد دخل يوماً على أمّي وهي في خبائها ، وقد ركبني وأخاً لي من الجدريّ ما ذهب به أبصارنا ، فلمّا رآنا تأوّه ، وأنشأ يقول :

ما إن تأوّهتُ في شيء رزئت به   كما تأوّهت للأطفال في الصغر
قد مات والدهم من كان يكفلهم   في النائبات وفي الأسفار والحضر

ثمّ أدنانا إليه ، ثم أمرّ يده المباركة على عينيّ وعيني أخي ، ثم دعا بدعوات ، فها أنا بأبي أنت والله أنظر إلى الجمل على فرسخ .

---

(١) أم مِلدم : الحمّى .

ومن معجزاته عذاب جماعة قاموا على خصامه والعداء له ، وهلاك بعضهم ، كهلاك رجل شتمه ، فمات تحت أرجل جمل ، وإصابة أبي عبد الله المحدّث بالعمى بعد أن أنكر فضله ، ومسخ الخطيب الدمشقيّ كلباً ، ومسخ آخر خنزيراً ، واسوداد وجه آخر ، وخروج ثور من الشطّ ، ومقتل خطيب بذيء في واسط ، وضغطه (عليه السلام) عنق بذيء اللسان في النوم ، وتحول بول رجل قبيح القول إلى قطران ، وهلاك جماعة كثيرة في النوم وقد قالوا في حقّه ما يقبح كأحمد بن حمدون الموصلي ، وذبح جار لمحمد بن عباد البصراوي ، وغيرهم من قوم آخرين ذاقوا قدراً من العذاب الإلهيّ في الدنيا لأنهم قاموا بشتمه وسبّه ، وإصابة رجل كذّبه بفقد البصر ، وعذاب الحارث بن النعمان الفهري[1] الذي تمرّد على قبول ولايته

---

(١) حديث تعذيب الحارث كما رواه الثعلبي قال : سئل سفيان بن عيينة عن تفسير قوله تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ ، فيمن نزل ؟ قال : سألتني عن شيء لم يسألـه أحد قبلك ، أخبرني أبي أنّ جعفراً الصادق (ع) يروي عن أبيه أنه لمّا بلغ رسول الله (ص) غدير خمّ نادى : أيّها الناس ، ولمّا اجتمع الناس أخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) فقال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » ، شاع الأمر في البلاد ، فقدم الحارث بن النعمان الفهري على ناقة إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلقيه في الأبطح ، فنزل عن ناقته فعقلها ، ودخل إليه ، وكان جالساً بين صحابته وقال : يا محمّد (ص) ، أمرتنا عن الله أن نشهد له ولك بالرسالة ، فرضينا ، وأمرتنا بأن نصلّي خمس صلوات فرضينا ، وأمرتنا بأداء الزكاة فرضينا ، وأمرتنا بحجّ البيت فرضينا ، فلم نكتف بهذا ولم ترض حتى أخذت بضبعي ابن عمّك ، فرفعته علينا وقلت من كنت مولاه فعليّ مولاه ، فهل هذا من عندك أم من عند الله عزّ وجلّ ؟

فقال (ص) أقسم بالذي لا إله غيره إنه من عند الله ، فتوجّه الحارث إلى ناقته وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فلم يبلغ راحلته حتى أصابه حجر من السماء من مفرقه وخرج من دبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع ﴾ .

وقد أورد الكثيرون من أساطين أئمة السنّة هذا الحديث في كتبهم كما أورده الجيكانيّ أيضاً عن حذيفة بن اليمان .

والأبطح في هذه الرواية ليس المراد به أبطح مكّة ، ذلك أن الأبطح ليس محصوراً بأبطح مكّة ، بل كل مسيل فيه دقاق الحصى يقال له الأبطح ، ولذا يقال لأبطح مكة : البطحاء والأبطح ، ليس بمعنى اسم علم لمكان ، وقد صرّح أئمة علم اللغة بهذا المعنى علاوة على إطلاق العلماء والعرب العرباء استعمال الأبطح بهذا المعنى ، وفي الوجه السابع من وجوه فضائله (ع) ورد شعر ابن الصيفي وهو شاهد على هذا المدّعى ، فاعتراض ابن تيميّة ليس من الواقعيّة في شيء ، وكذلك سائر خرافاته في قدح هذه الرواية بقوله إن سورة المعارج مكّيّة ، والجواب أنه هنا حملٌ على تعدّد النزول كما يذكر علماء السنّة هذا الاحتمال في مواضع متعدّدة ، يقول السيوطي في الإتقان :

« النوع الحادي عشر : ما تكرّر نزوله ، صرّح جماعة من المتقدّمين والمتأخّرين بأنّ من القرآن ما تكرّر نزوله » ، ثم ينقل السيوطي عن ابن الحصار مواضع كثيرة فيها سور وآيات حصل فيها التكرار . وأمّا استدلال ابن تيميّة على نفي تعذيب الحارث بالآية المباركة : ﴿ ما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ﴾ .

(عليه السلام) وأظهر لهن الكره الشديد ، وقد نقلت قصّته عن الثعلبي وسائر أئمة السنّة في (فيض الغدير) ، وإنّ عقد اعتراضات ابن تيميّة الحرّاني على هذا الحديث الشريف مبتور ، وقد جعلتُ خرافاته هباءً منثوراً .

ومن معجزات هذا العظيم الأخرى ما ظهر بعد شهادته عن قبره الشريف .

ومن معجزاته إخباره بأخبار الغيب التي سنشير فيها بعد إلى جملة منها إن شاء الله تعالى ، وإجمالاً فإن معجزاته بيّنة واضحة لا مجال لإنكارها .

يا أبا الحسن ، يا أمير المؤمنين ، بأبي أنت وأمي ، لأنت الذي يسعى أعداؤك باستمرار في إطفاء نور فضائلك ، ويضعف أحبّاؤك عن ذكر مناقبك ، ويدعوهم الخوف والتقيّة إلى كتمان فضلك ، ومع كلّ هذا ظهر من معجزاتك وفضائلك على الأنام ما شمل العالم من شرقه إلى غربه ، واشتغل العدوّ والصديق بذكر مدائحك ومناقبك برطب اللسان وعذب البيان :

شهد الأنام بفضله حتّى العدى والفضل ما شهدت به الأعداء

يروي ابن شهر آشوب أنّ أعرابيّة رئيت في مسجد الكوفة وهي تقول : أيّها الرجل المشهور في السماوات ، والمشهور في الأرضين ، والمشهور في الدنيا ، والمشهور في الآخرة ؛ قصر سلاطين الجور وجبابرة الزمان هممهم على إطفاء نورك ، وأبى الله إلاّ أن يزيد في إشراقه وظهوره ؛ فقيل لها : ومن تقصدين بهذه الكلمات ؟ قالت : أمير المؤمنين (عليه السلام) . قالت هذا وغابت عن الأنظار .

يروى عن الشعبيّ بروايات مستفيضة أنّه كان يقول : إنّي لأسمع خطباء بني اميّة يسبّون أمير المؤمنين (عليه السلام) على المنابر دون انقطاع ، ويقولون عنه أقوال السوء ، ومع هذا فهو كمن اخذ أحد بضبعيه فرفعها إلى السماء ، وأبان رفعته وسمّو درجته ؛ كما أسمع التنويه بمدائح ومناقب أوائلهم وأسلافهم دون انقطاع ، فكأنهم يعرضون الأموات ويكشفون للناس الجيف ، فهم مهما كالوا من المدائح وأظهروا من حسناتهم ، فإنّما يزيدون من انتشار سوئهم

= فجوابه أنه ليس المراد نفي التعذيب على الإطلاق ، فالله تعالى يقول بعد هذه الآية : ﴿ وما لهم ألاّ يعذّبهم الله ﴾ ، الآية . ويقول الفخر الرازي في تفسيرها :

« وكان المعنى : أنّه يعذّبهم إذا خرج الرسول من بينهم ، ثمّ اختلفوا في هذا العذاب ، فقال بعضهم : لحقهم هذا العذاب المتوعّد به يوم بدر ، وقيل : بل يوم فتح مكة » الخ وتمثيل تعذيب الحارث بتعذيب أصحاب الفيل محض خداع وتسويل . ذلك أنه لا يمكن قياس فرد واحد بجماعة ، وكذلك الأمر الذي يستدعي إخفاؤه وكتمانه بالأمر الذي تتوفر الدواعي إلى نقله . وهذا جواب مجمل من خرافات (منهاج السنّة) ، أمّا التفصيل ففي (فيض الغدير) .

وعفونتهم ، وهذا إعجاز واضح وخرق للعادة بيّن ؛ وإلاّ فالمفروض في هذه الحال أن تخفى فضائله (عليه السلام) ، وأن تطفأ أنواره ، بل أن تطغى المثالب الملفّقة على مناقبه ، لا أن تملك فضائله ومناقبه شرق العالم وغربه ، وتقهر الجمهور والناس كافّة من صديق وعدوّ على مديحه وترديد قوله تعالى :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

ومن هذا القبيل كثرة ذراريه ونسله وأولاده (عليه السلام) الذين قصر خلفاء الجور والأعداء وجبابرة الزمان هممهم دوماً على استئصالهم من الجذور ، وأن لا يبقوا لهم اسماً ولا أثراً ، فما أكثر من استشهد من العلويين على أيديهم ، بعد أن ساموهم أنواع العذاب ، فبعضهم قضى بحّد السيف ، والبعض قضى جوعاً وعطشاً ، والكثير قضى حيّاً بين اسطوانة وجدار أو تحت بناء ، وآخرون عانوا مرارة السجن والنكال[1] ، والقليل نجوا من بين أيديهم هاربين بأرواحهم ، فتفرّقوا غرباء عن أوطانهم في بلاد نائية ، وقفار بعيدة عن الناس والعمران ، كان الناس يجتنبونهم تقرّباً من جبابرة الوقت، أو خوفاً على أرواحهم؛ ومع ذلك ـ والحمد لله تعالى ـ فلا يخلو بلد أو مدينة أو قرية أو مجلس أو مجتمع من كثير منهم وقد بلغوا ما لا يمكن حصره ، وهم أكثر وأوفر عدداً من جميع ذراري الأنبياء والأولياء والصالحين ، بل أكثر من ذرّية أيّ من الناس ، وهذا أيضاً فيه من الإعجاز الباهر وخرق العادة ما فيه .

الوجه الثاني عشر : إخباره (عليه السلام) بالمغيّبات ، وهي أخبار أكثر من أن تحصى ، لكننا نشير إلى بعضها .

فقد أخبر مرّة بعد مرّة أن ابن ملجم قاتله فقال : « أنتظر أشقاها أن يخضب لحيتي من دم

---

(١) قال السيد محمد أشرف مؤلّف كتاب فضائل السادات ، وفي كتاب سيادة الأشراف ، لبعض الأعلام من الأشراف : وممّا يرغم أنف الحسود ما اشتهر أنّه لـمّا قتل الحسين (ع) كان في بني اُميّة اثنا عشر ألف ولد مهودهم من الذهب والفضّة ، ولم يكن للحسين (ع) إلاّ ابنه عليّ (ع) ، والآن قلّ أن يوجد بلد أو قرية ولا يوجد فيها جمٌّ غفير وجمع كثير من الحسينيّين ، ولم يبق من بني اُميّة من ينفخ في النار ، بل فنوا عن بكرة أبيهم ؛ وبذلك ردّ الله على عمرو بن العاص بقوله جلّ شأنه : **﴿ إنّ شانئك هو الأبتر ﴾** ، حيث عابه (ص) عمرو بن العاص بأنه أبتر منقطع النسل ، انتهى .

وينقل السبط ابن الجوزي في (التذكرة) عن الواقدي قوله : إنّ المنصور العبّاسي قد حبس عشرين نفراً من أحفاد الحسين (ع) في سرداب تحت الأرض ، مظلم دوماً ، لا يعرف فيه النهار من الليل ، ولم يكن في ذلك السرداب بئر أو مبولة لقضاء الحاجة : الأمر الذي اضطّر السادة إلى أن يحدثوا في سجنهم ، فتنتشر الروائح الكريهة بينهم ، وتتورّم أقدامهم ، وينتهي بهم إلى أوخم العواقب ، فإذا مات أحدهم لم يُدفن ، ويكتفي الأحياء منهم بالنظر إليه والبكاء عليه ، حتى هلكوا جميعاً .

أما برواية الطبري فيقول : هلكوا جميعهم عطشاً .

رأسي بعهد معهود أخبرني به حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) » .

وأخبر باستشهاد ابنه الحسن (عليه السلام) بالسمّ ، وأخبر باستشهاد ابنه الحسين (عليه السلام) قبل وقت طويل ، وكان يعبر كربلاء مع رجاله فقال : هذا والله مناخ ركابهم ، وموضع منيّتهم ، وكما قال للبراء بن عازب : يا براء ، يقتل ابني الحسين (عليه السلام) وأنت حيّ لا تنصره ، كما أخبر عن حكومة الحجاج بن يوسف الثقفي ، وعن يوسف بن عمرو وما يفتكان ويريقان من دماء ، وأخبر عن خوارج النهروان وعدم عبورهم للنهر وعن مقتلهم هناك ، وعن مقتل ذي الثديّة كبير الخوارج ، وأخبر عن عاقبة أمر جماعة من أصحابه وعن كيفيّة مقتل كلّ منهم ، كما أخبر عن قطع يد ورجل جويرية بن مسهر ورُشيد الهجري ومقتلهما صلباً ، وأخبر عن كيفيّة استشهاد ميثم التمّار وصلبه على جذع كان نخلة وعيّنها له وحدّد موضعها على باب دار عمرو بن حريث ، وأخبر بمقتل قنبر وكُميل ، وحجر بن عدي وغيرهم ، كما أخبر عن أن خالد بن عرفطة لم يمت ، وذلك حين أبلغوه بموته ، وأنّ خالداً هذا لا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، وأخبر عن قتاله الناكثين والقاسطين والمارقين ، وأخبر عن حقيقة ما بكنّه طلحة والزبير عندما تظاهرا بالتوجّه إلى مكة من أجل العمرة ، وكانا يضمران نكث بيعته والاستعداد لحربه ، وإخباره أصحابه بأنّهما سيلقيانه بجيش كبير ؛ كما أخبر بوفاة سلمان في المدائن ، وذلك عند سفر سلمان .

وأخبر بخلافة بني أميّة وبني العبّاس ، وأشار إلى أشهر أوصاف وخصائص بعض خلفاء بني العبّاس أمثال : رأفت السفّاح (الأول) والفتّاك المنصور (الثاني) وكبير السلطنة رشيد (الخامس) والعالم المأمون (السابع) وكثير النصب والعناد المتوكّل (العاشر) الذي يقتله ولده ، وكثير التعب والعناء المعتمد (الخامس عشر) لانشغاله في الحروب والقتال مع صاحب الزنج ، وإحسان المعتضد (السادس عشر) إلى العلويين ، ومقتل المقتدر (الثامن عشر) واستيلاء ثلاثة من أولاده على الخلافة وهم الراضي والمتّقي والمطيع ؛ وغيرهم ممّا لا يخفى على أهل التاريخ والسير ، وقد ورد هذا الإخبار في هذه الخطبة التي قال فيها (عليه السلام) .

« ويل لهذه الأمّة من رجالهم ، الشجرة الملعونة التي ذكرها ربّكم تعالى ، أوّلهم خضراء وآخرهم هزماء ، ثم يلي أمر هذه الأمّة رجال أوّلهم أرأفهم ، وثانيهم أفتكهم ، وخامسهم كبشهم ، وسابعهم أعلمهم ، وعاشرهم أكفرهم ، يقتله أخصهم به ، وخامس عشرهم كثير العناء قليل الغناء ، وسادس عشرهم أقضاهم للذمم وأوصلهم للرحم ، كأنّي أرى ثامن عشرهم تفحص رجلاه في دمه بعد أن يأخذه جنده بكظمه من ولده ثلاثة رجال سيرتهم الضلال » .

حتى آخر الخطبة حيث يشير إلى مقتل المستعصم ببغداد ، إذ قال :

« لكأنّي أراه على جسر الزوراء قتيلاً ، ذلك بما قدمت يداك ، وأنّ الله ليس بظلام للعبيد » .

كما أخبر بوقوع الفتن في الكوفة ، ومقتل رؤوس الظلم أو ابتلاؤهم ببلايا شاغلة ، والذين يرفعون راية الظلم ، وقال :

« كأنّي بك يا كوفة تُمدّين مدّ الأديم العكاظيّ » .

إلى أن يقول :

« وإنّي لأعلم والله أنّه لا يريد بك جبّارٌ بسوء إلاّ رماه الله بقاتل ، أو ابتلاه الله بشاغل » .

وجرى كما أخبر به (عليه السلام) ، فأقام زياد بن أبيه ويوسف بن عمرو والحجّاج الثقفي وغيرهم صروح التعدّي والظلم في الكوفة فابتليت بصنوف البلاء والهلكة والموت على أسوأ حال سبق شرحها في مواضعها .

كما أخبر قوماً أن معاوية يعرض عليهم سبّه (عليه السلام) ، وإخباره ابن عبّاس في ذي قار وهو جالس لأخذ البيعة بقوله : يأتيكم من قبل الكوفة ألف رجل ، لا يزيدون رجلاً ، ولا ينقصون رجلاً ، وإخباره عن دواهي أهل البصرة وصاحب الزنج في كلام له مع الأحنف بن قيس ، كما ستأتي الإشارة إليه في فصل أبناء الإمام زين العابدين (عليه السلام) إن شاء الله ، كما أخبر عن جيش هولاكو ما سيثيره من فتن .

وفي خطبته التي ألقاها في وقعة الجمل في البصرة أشار إلى قتل رجال البصرة على أيدي الزنوج ، وأخبر عن الدجّال وأحداث الكون ، ثم إخباره عن غرق البصرة إذ قال :

« وايم الله لتغرقنّ بلدتكم حتّى كأنّي أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ طير في لجّة بحر » .

كما أخبر عن بناء مدينة بغداد ، ثم إخباره عن مآل عبد الله بن الزبير ، وقوله فيه :

« خبٌّ ضبّ ، يروم أمراً ولا يدركه ، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا ، وهو بعدُ مصلوبُ قريش » .

وإخباره عن خروج السادة من بني هاشم كالناصر والداعي بقوله :

« إنّ لآل محمّد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاة حتى تقوم بإذن الله فتدعو إلى دين الله » .

وإخباره عن مقتل النفس الزكيّة محمّد بن عبد الله المحض عند أحجار الزيت في

المدينة ، بقوله : إنّه يقتل عند أحجار الزيت » .

وكذلك إخباره عن مقتل أخي محمّد إبراهيم في أرض باخمرا وهي موضع بين واسط والكوفة ، بقوله : « بباخمرا يُقتل بعد أن يظهر ، ويُقهر بعد أن يَقهر » .

وقال فيه أيضاً : « يأتيه سهم غرب يكون فيه منيّته ، فيا بؤس الرامي شلّت يده ، ووهن عضده » .

وأخبر عن المقتولين بفخّ ، وعن حكم سلاطين العلويّة في المغرب ، وعن سلاطين الإسماعيلية بقوله :

« ثمّ يظهر صاحب القيروان » إلى قوله . « من سلالة ذي البداء المسجّى بالرداء » .

وأخبر عن سلاطين آل بُوَيْه بقوله فيهم : « ويخرج من ديلمان بنو الصيّاد » وقوله فيهم : « ثم يستشري أمرهم حتّى يملكوا الزوراء ، ويخلعوا الخلفاء » .

وفي إخباره عن خلفاء بني العبّاس دعا عليّ بن عبد الله بن العبّاس بأبي الأملاك ، وفي موقعة صفّين ـ حيث تبادل مع معاوية إرسال الرسل والرسائل ـ أخبر في كتاباته بالكثير من أخبار الغيب ، ومنها أنه ختم قوله مخاطباً معاوية : إنّ رسول الله أخبرني أن لحيتي ستخضب من دم رأسي ، فأستشهد وستلي أنت الأمّة بعدي ، وستقتل ولدي الحسن غدراً وخديعة بالسمّ الناقع ، ثم من بعدك يأتي ابنك يزيد فيقتل ولدي الحسين بمعونة من ابن الزانية وهو ابن زياد ، ثم يلي الأمّة اثنا عشر نفراً من أئمّة الضلالة من أولاد أبي العاص ومروان بن الحكم ، كما عرض لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الرؤيا ، فرآهم بصورة قرود ينزون على منبره ، ويرجعون بالشريعة والأمّة القهقرى .

ثم قال : ثم يأتي قوم راياتهم سود أعلامهم سود ، ويريد بني العباس ، فيملكون منهم الخلافة والسلطنة ويأخذونهم بالمذلّة والقتل .

ثم أخبر (عليه السلام) بمغيّبات كثيرة منها أمر الدجّال ، وشيء عن ظهور قائم آل محمد عليهم السلام .

وقال في آخر رسالة مرقومة : إنّي لأعلم أن هذه الورقة لن تجديك نفعاً ، ولن تنال حظّاً إلا أن تسرّ لما أخبرتك به عن تولّيك وأبناءك الحكم ، لكنّ ما بعثني على الكتابة إليك هو أني طلبت أن تؤخذ عن الكتاب نسخ لعلّ الشيعة وأصحابي يجنون منها نفعاً ، أو لعلّ أحداً ممّن هم بطرفك يقرأها وتثنيه عمّا هو فيه من ضلال فيسلك سبيل الهداية ، وتثبت الحجّة منّي عليك .

يقول المؤلف : إنّ شرح غالب هذه الأخبار الغيبيّة في هذا الكتاب ، وستأتي تتمّته إن شاء الله كلاً في موقعة .

الوجه الثالث عشر : استجابة دعواته (عليه السلام) كما ثبتت بطرق كثيرة معتبرة .

منها دعاؤه على بسر بن أرطاة باختلاط العقل ، واستجابة دعائه ؛ ومنها دعاؤه على رجل كان يتجسّس عليه ويرفع أخباره إلى معاوية ، بالعمى ، فأذهب الله بصره ؛ ومنها دعاؤه على طلحة والزبير بالذلّ والمساءة والموت البشع ، واستجابة الله دعاءه ، فأمّا الزبير فقتله عمرو بن جرموز بالسيف وهو نائم ، ورمى جثته ، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم فأصاب عرقاً في أكحله[1] فبقي مفتوحاً ينزف ، ومات في الفلاة تحت الشمس المحرقة بعد أن نزف دمه ، وكان طلحة نفسه يقول : ما ضاع دم قرشيّ كما ضاع دمي .

وقد ثبت من روايات أهل السنّة أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) استشهد جماعة من الصحابة على حديث الغدير ، فشهد أكثرهم أنّهم سمعوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول في غدير خمّ : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » ، إلاّ بضعة منهم كتموا ذلك وراموا إخفاءه ، فدعا عليهم (عليه السلام) فأصيبوا بما دعا عليهم به ، بعضهم أصيب بالعمى ، وبعضهم بالبرص فذاقوا طعم العذاب الإلهي في الدنيا ، كأنس بن مالك وزيد بن الأرقم ، وعبد الرحمن بن مدلج ، ويزيد بن وديعة ، كما ورد في كتاب (أسد الغابة) ، وتاريخ ابن كثير ، و(إنسان العيون) للحلبي ، و(المناقب) لابن المغازلي ، و(شواهد النبوّة) للجامي ، و(أنساب الأشراف) للبلاذري ، و(الحلية) لأبي نعيم الاصفهاني ، وكتب أخرى ، وقد أوردت عباراتهم في (فيض الغدير) حيث أوضحت بطلان زعم ابن روزبهان بأنّ هذه الروايات من موضوعات الروافض .

الوجه الرابع عشر : اختصاصه (عليه السلام) بفضيلة نصرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعونه ، كما قال تعالى :

﴿ فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ .

المولى هنا : بمعنى الناصر ، والمراد بصالح المؤمنين باتّفاق المفسرين : أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكذلك اختصاصه (عليه السلام) بالأخوة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) وبالتماثل معه ، وبارتقائه على كتفه (صلّى الله عليه وآله) وتحطيمه للأصنام ، كما اختصاصه بفضيلة خبر الطائر ، وحديث المنزلة ، والراية ، وخبر الغدير وغيرهما .

(١) الأكحل : عرق في الذراع يُفصَد .

وإجمالاً فهو يتميّز عن غيره بالكمال النفسانيّ والبدنيّ والخارجيّ ، إذ كان يمتلك من صفات الكمال النفسانيّة كالعلم والحلم والزهد والشجاعة والسخاء وحسن الخلق والعفّة وغيرها ما لم يمتلك سواه معشاره ، وقد اعترف بذلك أعداؤه ولم يستطيعوا إنكاره ، وبلغ من سخائه وإيثاره أن رقد في فراش رسول الله (صلّى الله عليه وآله) معرّضاً نفسه لسيوف كفّار قريش ، وشرى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بنفسه ، وظهر في وقعة أحد من فتوّته وإيثاره ما بعث على ارتفاع نداء من الملأ الأعلى يهتف :

لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي

أما صفات الكمال البدنيّة فالكلّ يعلم أنّه لم يكن له فيها نظير ، وقد ضرب بقوّته وقدرته في الآفاق ، فلم يماثله فيهما أحد ، فها هو يقتلع باب خيبر من مكانه بيده بإعجاز ظاهر منه ، في حين عجزت عصبة من الرجال عن تحريكه ؛ وها هو يزيح صخرة عظيمة عن فم بئر أن عجز جيشه عن تحريكها ؛ فشجاعته قد أنست الناس شجاعة من كان قبله ، ومحت عن الألسنة ذكر من جاء بعده ؛ ومقاماته في الحروب مشهورة ، وسيبقى ذكرها إلى يوم القيامة ؛ وهو الشجاع الذي ما فرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلاّ قتله ، ما لم يؤمن ؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى الثانية ؛ وهو الشجاع الذي يفخر به قوم قتلاه ، وها هي أخت عمرو بن عبد ودّ تقول في رثاء أخيها :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكنّ قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقالت لمّا رأت أخاها في سلبه لم ينزع عنه ثوب أو درع قالت : إنّما قتله كفؤٌ كريم .

وهو الشجاع الذي إذا وقف خصم أمامه لحظة راح يفتخر بها طول المدى ، ويحدّث عن جرأته وقوة جنانه ؛ وهو الذي رفع ملوك الكفر صورته في قصورهم تيّمناً ، ونقش ملوك الترك وآل بويه رسمه على سيوفهم تفاؤلاً بالظفر ، وتيمّناً بالنصرة على أعدائهم .

وكانت هذه القوة والقدرة منه في حال كان قوته خبز الشعير ، ولبسه الخشن من الثياب ، ودأبه الصيام والقيام ودوام العبادة .

أمّا صفات الكمال الخارجيّة ، فأحدها نسبه الشريف ، فأبوه أبو طالب سيّد البطحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكّة المعظّمة ، وكفيل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من صغره حتى كبر ، وحاميه من المشركين والكفار حتى لم يحتج في وجوده إلى الهجرة والاغتراب ، فلمّا رحل عن دنياه خلّفه دون حام أو ناصر ، فهاجر إلى المدينة .

وأمّه (عليه السلام) فاطمة بنت أسد بن هاشم ، التي كفّنها رسول الله (صلّى الله

عليه وآله) بردائه ؛ وابن عمه (عليه السلام) سيّد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ، خاتم النبيّين (صلّى الله عليه وآله) ، وأخوه جعفر الطيّار ذو الجناحين ، وعمّه حمزة سيد الشهداء ، سلام الله عليهم أجمعين .

وإجمالاً ، فآباؤه آباء رسول الله ، وأمّهاته أمّهات خير خلق الله ، لحمه ودمه بلحمه ودمه مقرون ، ونور وجهه بنوره متّصل ومضموم قبل خلق آدم ، حتى صلب عبد المطّلب ، وانفصلا بعد صلب عبد المطلب في صلبي عبد الله وأبي طالب ليخرجا سيّدين للعالم أولهما المنذر والثاني الهادي .

ومن صفات كماله الأخرى مصاهرته لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذ زوّجه فاطمة (عليها السلام) أشرف بناته وسيّدة نساء العالمين ، التي بلغ من محبّته لها أن يتواضع لها إذا جاءته ، فيقوم من مكانه فيقبّلها ويشمّها ؛ ومن المعروف أن محبّة النبيّ (صلّى الله عليه وآله) لفاطمة (عليها السلام) ليست لأنّ فاطمة (عليها السلام) ابنته ، بل لما لها من كرامة ومحبّة عند الله عزّ وجلّ .

هـذي المحبّـة غيرُ حبٍّ هيّـنٍ لـهُ   في حبِّ محبوبِ الإلـه الحبُّ لـهُ

ورسول الله يقول مرّات ومرّات : فاطمة بضعة منّي ، أذيتها أذيّتي ورضاها رضاي ، وغضبها غضبي .

ومن صفات كماله الخارجية أيضاً حكاية أبنائه (عليهم السلام) ، فلم ينل أحد ما ناله هو من شرف الأبناء فالحسن والحسين (عليهما السلام) ـ ابناه ـ إمامان وسيّدا شباب أهل الجنّة ، ومحبّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لهما بلغت مبلغاً لا يخفى على أحد ، كما أنّ العبّاس ومحمّداً وزينب وأم كلثوم وغيرهم من أبنائه ، بلغوا من الجلال وعلوّ الشأن درجات أوضح من البيان ، ولكلّ من ولديه الحسن والحسين (عليهما السلام) أبناء بلغوا من الشرف الغاية .

أمّا أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) فالقاسم وعبد الله ، والحسن المثنّى والمثلّث ، وعبد الله المحض ، والنفس الزكيّة وإبراهيم قتيل باخمرا ، وعليّ العابد ، والحسين بن عليّ بن الحسن مقتول فخّ ، وإدريس بن عبد الله ، وعبد العظيم ، والسادة البطحائيون (أو البطحائيون) ، والشجريون (نسبه إلى قرية الشجرة) ، والأصفهانيون (المعرفون بسادات الروضة[1]) ، وآل طاووس ، وإسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي

(١) الروضة بالفارسية : گلستانة .

(عليهما السلام) ، الملقّب بطباطبا ، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين ، وستأتي أسماؤهم مع الشروح عليها في فصل أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) إن شاء الله .

وأمّا أبناء الإمام الحسين (عليه السلام) فهم الأئمة العظام كالإمام عليّ زين العابدين ، والإمام محمد باقر العلوم ، والإمام جعفر الصادق ، والإمام موسى الكاظم ، والإمام عليّ الرضا ، والإمام محمد الجواد ، والإمام عليّ الهادي ، والإمام الحسن العسكري ، والإمام الحجّة بن الحسن مولانا صاحب العصر والزمان صلوات الله عليهم أجمعين .

الحمد لله الذي جعلنا من المتمسّكين بولاية أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام .

مواهب الله عندي جازوت أملي — وليس يبلغها قولي ولا عملي
لكنّ أشرفها عندي وأفضلها — ولايتي لأمير المؤمنين علي[1]

يا ربّ فاحشرني في الآخرة مع النبيّ والعترة الطاهرة .

خاتمة : المرحوم المغفور له ، خالد المقام ، والعالم الكامل جليل القدر ، صاحب التصانيف الرائقة ، الأستاذ الشيخ محمد طاهر ، وقبره مع شيوخ قمّ قرب زكريّا بن آدم القمّي (ره) قال قصيدة في مدح أمير المؤمنين (عليه السلام) موسومة بـ « مؤنس الأبرار » وفيها يشير إلى الكثير من فضائل هذا الرجل ، رأينا من الملائم التبرّك في هذا الكتاب بأبيات منها[2] نختتم بها هذا الفصل .

يبدأ الشاعر قصيدته فيكتب بدمع العيون قصة أبناء هذا العصر ، فينزفها ألماً عليهم ويحذّر من الميل إلى الدنيا وبهرجها ، فالأنس الحقّ لا يكون إلا بالله ، والقرب منه ، وتلمّس عين لطفه ؛ أمّا الدنيا فغرّارة خدّاعة ، إن لان منها الملمس ففي أنيابها السمّ الزعاف .

ثم يدعو إلى مجانبة الآفات كالحسد والغرور ، ونبذ سموم الرياء والسمعة ، والبحث عن العلاج الناجع في عضص الإيمان ، والتوجّه إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى الدار الباقية ، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية ، والتخلّص من قيود الغفلة ، واللجوء إلى الصدق في النوايا ، والإخلاص في العمل ، والطاعة والخشوع ، والتزوّد لليوم الآخر بثمين الزاد لمبادلته بجوهر المتاع .

ثم يأخذ بالحديث عن مدار قصيدته ، فيرتقي في معارج الحب ، حبّه لأمير المؤمنين

---

(١) قائل هذه الأشعار ابن شهر آشوب .

(٢) أورد المؤلف خمسة وثمانين بيتاً من القصيدة المشار إليها « مؤنس الأبرار » ونكتفي هنا بذكر مضمونها بإيجاز ، والإشارة إلى ما أشارت إليه . (المعرّب) .

(عليه السلام) ، وموقع هذا الحبّ منه ، بل موقعه هو من هـذا الحبّ ، ويتلمّس تاج محبّته فيحسّ بالشرف والفخر ، ويزجي الشكر ، فمحبّته (عليه السلام) ليست واجباً على الإنسان فحسب ، إنّها فرض على الدنيا ومن فيها .

أليس هو من دعاه خير الخلق طرّاً بخير البشر ؟ فقال فيه : « عليّ خـير البشر ، فمن أبى فقد كفر » ؟

أليس لا يجوز القبولَ فرضٌ من صلاة أو صوم أو حجّ إلاّ بمحبّته ومحبّة آله ؟

أليس هو من سقى بالدم شجرة الإسلام الغضّة فأينعت؟

أليس هو من أراق ماء النور من علمه فمحا ظلمات الجهل ، وأراق مـاء الخير من سيفه فانقلبت فيافي الأرض رياضاً؟

أليس هو من سوّد بحدّ سيفه وجه من قال : إن خرق الفلك محال ؟

أليس هـو من دكّ عرش الشرك الزنيم ، وحطّم أوثـانـه بـأيـدٍ من كتف أخيـه النبيّ العظيم ؟

أليس هو من فيه نزلت : « هل أتى » وفاز لإيثاره بمدح الرحمن ؟

أليس هو من جاد بخاتمه راكعاً فاستحقّ : « إنّما وليكم » عن جدارة ؟

أليس هو من النبي بمنزلة هارون من النبي ، غير أنه ليس بنبيّ ؟

أليس صاحب يوم الغدير ، يوم تُوّج بتاج الولاية وقيل فيه : « والِ من والاه » ؟

أليس من أقرّ به الخاصّ والعامّ ، ثم انظروا بعدُ قلوب أهل النفاق الفُجّار ؟

أليس نفس المصطفى في قول : « أنفسنا » إذ باهلوا الكفّار ؟

أليس فيه نزلت آية الإنذار ، وكان الوصيّ الأمين منذ يوم الدار ؟

أليس أخا النبي المنذر ، وهو الهادي بقول العزيز الجبّار ؟

أليس ثاني الثقلين ، ومن لم يلتزمه ضلّ المسار ؟

أليس سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق وبار ؟

أليس من طهّره الحق تعالى ، وطهّر أهل بيته الأبرار ؟

أليس من توّجه الإيمان أميراً على المهاجرين والأنصار ؟

أليس رجل خيبر ، فقتل مرحباً وفاز بثناء النبيّ المختار ؟

أليس هو من يحبّ الله ، ويحبّه الله ، وهو هو الكرّار ؟

أليس كان البدر المنير في بدر ، وكان الآخرون النجوم الصغار ؟

ألم يبرأ نبي الله ممّن أشرك ، بأمر الله ، وبصوته الهدّار ؟

أليس الحق معه ، وهو مع الحقّ أينما دار ؟

أليس من رُدّت له الشمس فأدّى فرضه بفضل الغفّار ؟

أليس من قال : « سلوني » وما قالها بعده غير كاذب فجّار ؟

أليس إمام أهل العلم ، تلميذ لدنيّة النبيّ المختار ؟

أليس باب مدينة العلم ، فلا يلتبسنّ باب وجدار ؟

أليست جهنّم لمن عادى عليّاً ، ولمن أحبّه النجاة من النار ؟

وبعدُ ، فينتقل الشاعر إلى حديث عن تولّيه عليّاً وأولاده (عليهم السلام) ، وعمّا لقيه في الولاء لهم من جور الأعداء ، وفراره مضطرّاً من النجف بعد أن كان يرجو أن تكون تربتها تربته ، ويدعو بجاه محمّد وعليّ والآل الأطهار أن يعود إليها ، فهو مهما تقلّبت به الأرض والأحوال فمحبّة عليّ دأبه وديدنه ، ففي محبّته الخلاص من وطأة سؤال منكر ونكير ، وبشفاعة المرتضى فلمحبّه الغفران من الرحمن الرحيم .

ثم يقول : إنّ حصر فضائل عليّ (عليه السلام) من المحال ، وليس الحديث عن فضله - مهما بلغ - سوى إقرارٍ بالعجز ، حتى ولو كانت البحار مداداً وكان الشجر أقلاماً ؛ ويختم بتحذير القارىء من أن يظنّ به الإغراق والإفراط ، فهذا ما أخبر به أحمد المختار ، عليه وعلى آله أفضل الصلوات .

الفصل الثالث

في استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام)

المشهور بين علماء الشيعة أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قبض ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة ، بعد أن ضربه أشقى الأمّة عبد الرحمن بن ملجم المرادي اللعين بالسيف المسموم على رأسه في مسجد الكوفة ، في وقت التنوير[1] ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة مضين من الشهر ، فبقي يومين ثم لقي ربّه شهيداً وله من العمر ثلاث وستون سنة .

كان له من العمر عشر سنين لمّا بعث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالنبوّة ، فآمن به ، وعاش مع النبي (صلّى الله عليه وآله) في مكّة ثلاث عشرة سنة ، وعاش معه في المدينة بعد الهجرة عشر سنين ، ثم فجع بموته ، وعاش بعده ثلاثين سنة ، منها أيام أبي بكر سنتان وأربعة أشهر ، وإحدى عشرة سنة أيام عمر ، واثنتا عشرة سنة أيام عثمان ، وأمّا خلافته الظاهريّة فقد امتدّت ما يقرب من خمس سنين ، ممتحناً بجهاد المنافقين ، ومورس الظلم ضدّه بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مباشرة ، وتحدّث عن مظلوميّته ، وقد ضجر من تمرّد رجاله ونفاقهم حتى طلب الموت من الله ؛ وتحدّث عن مقتله بيد ابن ملجم مرّات ، وكان أحياناً يقول : « ما يمنع أشقاها أن يخضبها من فوقها بدم » ؟ ويضع يده على لحيته .

وخطب أصحابه في شهر رمضان ، الشهر الذي قتل فيه ، فقال : « ألا وإنكم حاجّو العام صفّاً واحداً ، وآية ذلك أنّي لست فيكم » .

وكان في هذا الشهر يفطر ليلة في بيت الحسن ، وليلة في بيت الحسين ، وليلة في بيت زينب (عليهم السلام) ، وكانت عند عبد الله بن جعفر ، لا يزيد على ثلاث لقم ، فقيل له

---

(١) وقت التنوير : وقت صيرورة الليل منوّراً بالشفق .

في ذلك فقال : يأتيني أمر الله وأنا خميص ، إنّما هي ليلة أو ليلتان .

ويروي بعضهم أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان على المنبر يوماً ، فنظر إلى ابنه الحسن (عليه السلام) وقال : أي أبا محمد ، كم يوماً انقضى من شهر رمضان هذا ؟ قال : ثلاثة عشر يوماً ، فنظر إلى الحسين (عليه السلام) وقال : أي أبا عبد الله ، كم بقي من شهر رمضان هذا من الأيّام ؟ قال : سبعة عشر يوماً ، فرفع يده إلى لحيته ، وكانت بيضاء فقال : « والله ليخضبها بدمها إذا انبعث أشقاها » ، ثم أنشد :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

أمّا عن كيفيّة مقتله (عليه السلام) فيروي جماعة من الأفاضل أن نفراً من الخوارج ـ ومن بينهم عبد الرحمن بن ملجم ـ اجتمعوا بمكّة ، فتذاكروا الأمراء فعابوهم وعابوا عليهم أعمالهم ، وذكروا أهل النهروان وبكوا عليهم وترحّموا ، وقال بعضهم من خلال الحديث : إن عليّاً ومعاوية سبب بلاء هذه الأمّة فلو أتيناهما وقتلناهما فأرحنا منهما البلاد والعباد ؛ قال رجلٌ من أشجع : أما والله ليس عمرو بن العاص بأقلّ منهما ، فهو أصل الفساد والفتنة ؛ فتعاهدوا بينهم على ذلك ، فقال عبد الرحمن بن ملجم : أنا أكفيكم عليّاً ؛ وقال الحجّاج بن عبد الله المعروف بالبرك : أنا أكفيكم معاوية ؛ وقال دادوية المعروف بعمرو بن بكر التميمي : أنا أكفيكم عَمْرَ بن العاص .

وتعاهدوا على ذلك وتوافقوا على الوفاء ، واتّعدوا شهر رمضان في ليلة تسع عشرة منه ، على أن يكون التنفيذ في ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة عند صلاة الصبح ، ثم تفرّقوا ، فأخذ البرك طريق الشام ، وعمرو طريق مصر وابن ملجم طريق الكوفة ، بعد أن سمّموا سيوفهم ، وكتموا أمرهم في انتظار الميعاد .

وفي صبح ليلة تسع عشرة دخل البرك بن عبد الله المسجد بسيفه المسموم واتّخذ موقفاً له بين الناس خلف معاوية ، فلما ركع معاوية (أو سجد) شهر سيفه وضرب معاوية ، فوقعت ضربته في إليته ، فصرخ معاوية ووقع في المحراب ، فاجتمع الناس وأمسكوا بالبرك ، وأخذوا معاوية إلى قصره ، ثم أتوا له بطبيب حاذق ، فقال : إن السيف مسموم ، فاختر إمّا أن أُحْمي لك حديدة فأجعلها في الضربة ، وإمّا أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك ، فقال : أمّا النار فلا أطيقها ، وأمّا النسل ففي يزيد وعبد الله ما يقرّ عيني ، وحسبي بهما ؛ فسقاه الدواء فعوفي ، ولم يولد له بعد ذلك ؛ ثم أمر أن تبنى في المسجد مقصورة وعين حرّاساً يحرسونه .

ثم أحضر البرك ، فأمر بقطع رأسه ، فقال : إنّ لك عندي بشارة ، قال : وما هي ؟ فأخبره خبر صاحبه وقال : إنّ عليّاً قتل هذه الليلة فاحتبسني عندك ، فإن قتل فأنت وليّ ما تراه

في أمري ، وإن لم يقتل أعطيتك العهود والمواثيق أن أمضي فأقتله ، ثم أعود إليك فاضع يدي في يدك حتى تحكم فيَّ بما ترى .

فحبسه عنده ـ على قول ـ فلما أتى الخبر أنّ علياً قتل في تلك الليلة خلّى سبيله .

أما عمرو بن بكر ، فلما بلغ مصر ، صبر حتى حلّت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان ثم أتى المسجد بسيفه المسموم وجلس ينتظر عَمْراً ، وشاء القضاء أن يصاب عمرو في تلك الليلة بالقولنج ، فاستخلف قاضي مصر خارجة بن أبي حبيبة على الصلاة ، فخرج إلى الصلاة ، فشدّ عليه عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته ، وهو يظنّه عَمْرَ بن العاص ، وأراد الفرار ، فتكاثر عليه الناس وأخذوه إلى عمرو بن العاص ، فأمر بقتله ، فشرع اللعين بالبكاء ، فقيل له : أتبكي عند الموت ، أو لم تعلم أن جزاء فعلتك الهلاك ؟ قال : لا والله ، لست أخشى الموت ، بل إنيّ أبكي لأني لم أظفر بعمرو ، ويحزنني أن البرك وابن ملجم بلغا مرادهما وقتلا علياً ومعاوية ؛ فأمر عمرو بقتله ، ودخل من غد إلى خارجة وهو يجود بنفسه فقال خارجة : أما والله يا أبا عبد الله ما أراد غيرك ، قال عمرو : ولكنّ الله أراد خارجة !

وأمّا عبد الرحمن بن ملجم فأقبل إلى الكوفة ونزل في محلّة بني كندة ، قاعدة الخوارج ، فلقي بها أصحابه فكتمهم أمره مخافة أن ينتشر منه شيء ، فهو في ذلك إذ زار رجلاً من أصحابه ، فصادف عنده قطام بنت الأخضر التيميّة ، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها ، صباحة وجه وسواد شعر كالمسك ، وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) قتل أباها وأخاها في النهروان ؛ فلمّا رآها ابن ملجم شغف بها واشتدّ إعجابه ، وسأل في نكاحها وخطبها ، فقالت : ما الذي تسمّي لي من الصداق ؟ فقال : لا تسأليني شيئاً إلاّ أعطيته ، فقالت : ثلاثة آلاف درهم ، وعبداً ، وقينة ، وقتل علي بن أبي طالب ؛ فقال : لك جميع ما سألت ، فأمّا قتل عليّ بن أبي طالب فأنّى لي بذلك ؟ قالت : فالتمس غرّته ، فإن أنت قتلته شفيت نفسي ، وهناك العيش معي ، وإن أنت قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا .

عرف ابن ملجم أن اللعينة متفقة معه فيما هو فيه ، فقال : أما والله ما جاء بي إلى هذا المصر ـ وقد كنت هارباً منه ـ إلاّ ما سألتني من قتل عليّ بن أبي طالب ، فلك ما سألت . قالت : فأنا طالبة لك بعض من يساعدك على ذلك ؛ ثم بعثت إلى وردان بن مجالد التيميّ وسألته معونة ابن ملجم لعنه الله ، فتحمّل ذلك لها .

وخرج ابن ملجم فأتى رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بجرة الخارجي ، فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : تساعدني على قتل عليّ بن أبي طالب ، قال : ثكلتك أمّك ، لقد جئت شيئاً إدّاً ، وكيف تقدر على ذلك ؟ قال ابن ملجم : نكمن له في المسجد الأعظم ، فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به ، فإن نحن قتلناه شفينا

أنفسنا ، وأدركنا ثارنا ، فلم يزل به حتّى أجابه ، فأقبل معه حتى دخل على قطام ، وكانت معتكفة في المسجد الأعظم قد ضربت عليها قبّة ، فقالا لها : قد اجتمع رأينا على قتل هذا الرجل ، فقالت لهما : إذا أردتما ذلك فائتياني في هذا الموضع ؛ فانصرفا من عندها ، فلبثا أيّاماً ثم أتياها ومعهما وردان ليلة الأربعاء لتسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وتقلّدوا سيوفهم ، ومضوا وجلسوا مقابل السدّة التي كان يخرج منها أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الصلاة

وكانوا قبل ذلك ألقوا إلى الأشعث بن قيس ما في نفوسهم من العزيمة على قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وواطأهم على ذلك ؛ وحضر الأشعث بن قيس في تلك الليلة لمعونتهم على ما اجتمعوا عليه .

وكان حجر بن عدي في تلك الليلة بائتاً في المسجد ، وهو من كبار الشيعة ، فسمع الأشعث يقول لابن ملجم : النجاء النجاء لحاجتك ، فقد فضحك الصبح ، فأحسّ حجر بما أراد الأشعث ، فقال له : قتلته يا أعور ! وخرج مبادراً ليمضي إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ليخبره الخبر ويحذّره من القوم وشاء القضاء أن يخالفه أمير المؤمنين (عليه السلام) من الطريق ، فدخل المسجد ، فسبقه ابن ملجم وضربه بالسيف ، وأقبل حجر (وقد سبق القضاء) والناس يقولون : قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) .

أحوال أمير المؤمنين (عليه السلام) ليلة تسع عشرة من شهر رمضان

ونأتي الآن إلى بيان حال أمير المؤمنين (عليه السلام) في تلك الليلة :

قالت أمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) : لمّا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قدّمت إليه عند إفطاره طبقاً فيه قرصان من خبز الشعير ، وقصعة فيها لبن وملح جريش ؛ فلمّا فرغ من صلاته أقبل على فطوره ، فلمّا نظر إليه وتأمّله حرّك رأسه وبكى بكاءً شديداً عالياً وقال : . . . يا بنيّة أتقدّمين إلى أبيك إدامين في طبق واحد ؟ أنا أريد أن أتّبع أخي وابن عمّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يا بنيّة ، ما من رجل طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلاّ طال وقوفه بين يدي الله عزّ وجلّ ، يا بنيّة ، إنّ الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب .

ثم ذكر شيئاً عن زهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ثم قال :

يا بنيّة ، والله لا آكل شيئاً حتى ترفعي أحد الإدامين ، فلما رفعته تقدّم إلى الطعام فأكل قرصاً واحداً بالملح الجريش ، ثمّ حمد الله وأثنى عليه ، ثم قام إلى صلاته فصلّى ، ولم يزل راكعاً وساجداً ومبتهلاً ومتضرّعاً إلى الله سبحانه .

ويروى أنّه (عليه السلام) كان يكثر الخروج والدخول في تلك الليلة ، وهو ينظر إلى السماء وهو قلق يتململ ، ثم قرأ سورة « يس » حتى ختمها ، ويكثر من قول : « اللهم بارك لنا في الموت » ، و « لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم » و« إنّا لله وإنّا إليه راجعون » ، ثم صلّى حتى ذهب بعض الليل ، ثم جلس للتعقيب ، ثمّ صلّى على النبيّ وآله ، واستغفر الله كثيراً .

ويروي ابن شهر آشوب وغيره أنّ عليّاً (عليه السلام) قد سهر تلك الليلة ، ولم يخرج لصلاة الليل على عادته ، فقالت أمّ كلثوم : ما هذا السهر ؟ قال : إنّي مقتول لو قد أصبحت ، فقالت : مُر جعدة فليصلّ بالناس (جعدة هو ابن هبيرة ، وأمّه أمّ هانىء أخت أمير المؤمنين (عليه السلام)) ، قال : مروا جعدة ليصلّ ، ثم قال : لا مفرّ من الأجل ، وعزم على الخروج إلى المسجد بنفسه .

ويروى أنّه (عليه السلام) سهر في تلك الليلة ، فأكثر الخروج والنظر إلى السماء وهو يقول : والله ما كَذَبت وما كُذِّبت ، وإنّها الليلة التي وُعدت ؛ ثمّ يعاود مضجعه ، فلمّا طلع الفجر أتاه ابن النباح (مؤذّنه) ونادى : الصلاة ، فقام فاستقبله الإوزّ فصحن في وجهه ، فجعلوا يطردوهنّ فقال : دعوهنّ فإنّهنّ صوائح تتبعها نوائح .

وبرواية عن أمّ كلثوم والإمام الحسن (عليه السلام) :

فقلت له : يا أباه هكذا تتطيّر؟ فقال : يا بنيّة ، ما منّا أهل البيت من يتطيّر ولا يُتطيّر به ، ولكن قول جرى على لساني .

ثم أوصى ابنته بالإوزّ فقال : يا بنيّة ، بحقّي عليك إلّا ما أطلقتيه ، فقد حبست ما ليس له لسان ، ولا يقدر على الكلام إذا جاع أو عطش ، فأطعميه واسقيه ، وإلّا خلّي سبيله يأكل من حشائش الأرض ؛ فلمّا وصل إلى الباب فعالجه ليفتحه فتعلّق الباب بمئزره ، فانحلّ مئزره حتى سقط ، فأخذه وشدّه (يقول المؤرخ أمين المسعودي : كان بيت أمير المؤمنين (عليه السلام) من جذع نخلة ، فعالجه ليفتحه فاستعصى ، فاقتلعه من مكانه ووضعه جانباً ، ثم شدّ مئزره وجعل ينشد) :

اشدد حيازيمك للموت فإنّ الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حلّ بناديكا
ولا تغترّ بالدهر وإن كان يواتيكا
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكا

ثم قال : اللهمّ بارك لنا في الموت ، اللهم بارك لي في لقائك .

قالت أمّ كلثوم : فلمّا سمعته يقول ذلك قلت : واغوثاه يا أبتاه ، وخرج ، فقام الحسن (عليه السلام) ولحقه ، فقال : يا أبتاه ، أريد أن أمضي معك ، فقال له : أقسمت بحقي عليك إلّا ما رجعت ، . . فرجع الحسن (عليه السلام) فوجد أخته أمّ كلثوم . . وجلست يتحادثان وهما محزونان يبكيان مما شهداه من حال أبيهما وسمعاه من أقواله .

مجيئه (عليه السلام) إلى المسجد وإيقاظه للنائمين

وسار أمير المؤمنين (عليه السلام) حتى دخل المسجد ، والقناديل قد خمد ضوؤها ، فصلّى في المسجد ورده ، وعقّب ساعة ، ثم إنّه قام وصلّى ركعتين . ثم علا المئذنة ، ووضع سبّابتيه في أذنيه وتنحنح ثمّ أذّن ، وكان (عليه السلام) إذا أذّن لم يبق في بلدة الكوفة بيت إلّا اخترقه صوته ؛ ثم نزل من المئذنة وجعل يسبّح الله ويقدّسه ويكبّره ، ويكثر من الصلاة على النبيّ ثمّ أنشد :

خلّوا سبيل المؤمن المجاهد في الله لا يعبد غير الواحد
ويوقظ الناس إلى المساجد

كان من كرم أخلاقه (عليه السلام) أنه يتفقّد النائمين في المسجد ، ويقول للنائم : الصلاة يرحمك الله ، الصلاة .

وكان ابن ملجم اللعين لم ينم تلك الليلة وهو يفكّر في ما سيقدم عليه من أمر عظيم ، ولما بلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الملعون وجده نائماً على وجهه ، ومعه السيف المسموم تحت ثوبه ، فقال له : يا هذا قم من نومك هذا ، فإنّها نومة يمقتها الله وهي نومة الشيطان ، بل نم على يمينك فإنّها نومة المؤمنين ، أو على يسارك فإنّها نومة الحكماء ، أو نم على ظهرك فإنّها نومة الأنبياء .

ثم قال : لقد هممت بشيء تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال ، ولو شئت لأنبأتك بما تحت ثيابك .

ضربة اللعين ابن ملجم لعلي (عليه السلام)

ثم تركه وعدل عنه إلى محرابه ، وقام قائماً يصلّي .

أمّا ابن ملجم فمع أنّه كان يتردّد في مسمعه أن أمير المؤمنين (عليه السلام) يقتل بيد أشقى الأمّة ، وقوله لقطام : أخاف أن أكون ذلك الشقي ، ولا يتيسّر لك ما تتمنّين ، وكان تلك الليلة يفكّر في هذا الأمر العظيم حتى الصبح ، لكنّ سيل شقائه جرف تلك الأخيلة كما يجرف سيل الفناء التبن ونشارة الخشب ، وصمّم على قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) ،

فتقدّم حتى وقف بإزاء الأسطوانة التي كانت إلى جانب المحراب ، في حين كـان وردان وشبيب يكمنان في الركن .

ولّما رفع أمير المؤمنين (عليه السلام) رأسـه من الركعـة الأولى كان شبيب بن بجـرة أول من حمل عليه وهو يقول : لله الحكم يا علي ، لا لك ولا لأصحابـك ، وضربه بسيفـه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق ؛ وأعقبه ابن ملجم فأخذ سيفه وهزّه ، وحمل عليـه وهو يـردد الكلام نفسه ، ثم ضربه على رأسه الشريف وشاء القضاء أن تقـع الضربة على موضـع الجرح الـذي أصابه بـه عمـرو بن عبد ودّ العـامـريّ ، ثم أخـذت الضربـة من مفـرق رأسـه إلى مـوضـع السجـود[1] ، فقال (عليـه السلام) : « بـاسم الله وبـالله عـلى ملّة رسـول الله ، فـزت وربّ الكعبـة » . ثم صاح : قتلني ابن ملجم ، قتلني ابن اليهـوديّة وربّ الكعبـة ، أيّهـا النـاس لا يفوتنكم ابن ملجم .

فلمّا سمع الناس صيحته ثار جميع من في المسجد في طلب اللعـين ، وعلت الأصوات ، واضطرب الناس وماجوا ، وأحاطوا بأمير المؤمنين (عليه الســلام) وهو ملقىً في محـرابه يشـدّ الضربة ، ويأخذ التراب ويضعه عليها ، ثم تلا قولـه تعالى : **﴿ منهـا خلقناكم وفيهـا نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾** .

ثم قال : أتى أمر الله ، وصدق رسول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) ، ورأى الناس الـدم من رأسه يجري على وجهه ويخضب لحيته ، وهو يقول : « هذا ما وعدنا الله ورسوله » .

ولّما ضرب ابن ملجم ضربته على مفرق عـليّ (عليه السـلام) ارتجّت الأرض ، وماجت البحـار ، وتزلـزلت السماوات ، واصـطفقت أبـواب الجـامـع ، وضجّت المـلائكـة في السـماء

---

(١) وفقاً لرواية الشيخ المفيد والمسعودي أن ابن ملجم وشبيب ومجاشع بن وردان تقلّدوا سيـوفهم وقعـدوا مقابلين لباب السدّة التي يخرج منها عليّ (ع) ، فلمّا دخل (ع) المسجد وهو ينادي : أيّها الناس الصـلاة شدّ عليـه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولـون : الحكم لله لا لك ، وضربـه ابن ملجم على رأسه بـالسيف في قـرنه ، وأمـا شبيب فوقعت ضربتـه بعضادة البـاب ، وأمّـا (ابن) وردان فهـرب ؛ وقـال عـليّ (ع) : لا يفوتنكم الرجل ؛ وشدّ الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ويتناولونه ويصيحون ، فضرب ساقـه رجل من همـدان برجله ، وضرب المغيرة بن نوفـل بن الحارث بن عبـد المطلب وجهـه فصرعه ، وأقبـل به إلى الحسن (ع) ، ودخـل شبيب بين النـاس فنجا بنفسـه ، وهرب حتى أتى رحله ، فـدخل عليـه عبد الله بن بجرة ، وهو أحد بني أبيه ، فرآه ينزع الحرير عن صدره ، فسأله عن ذلك فخبّره خبره ، فانصرف عبد الله إلى رحله وأقبل إليه بسيفه فضربه حتى قتله ، وليكن معلوماً أن ما يستفاد من الروايات هو أن تلك الصلاة التي ضُرب فيها أمير المؤمنين (ع) كانت نافلة الفجر .

بالدعاء ، وهبّت ريح عاصف سوداء مظلمة ، ونادى جبرئيل (عليه السلام) بين السماء والأرض يسمعه كلّ مستيقظ :

« تهدّمت والله أركان الهدى ، وانطمست والله نجوم السماء وأعلام التقى ، وانفصمت والله العروة الوثقى ، قتل ابن عمّ المصطفى ، قتل الوصيّ المجتبى ، قتل عليّ المرتضى ، قتل والله سيّد الأوصياء ، قتله أشقى الأشقياء » .

فلما سمعت أمّ كلثوم نعي جبرئيل لطمت على وجهها وخدّها ، وشقّت جيبها وصاحت : وا أبتاه ، وا علياه ، وا محمداه ، وا سيداه ، ثم إن الحسنين (عليهما السلام) خرجا إلى المسجد فإذا الناس ينوحون وينادون : وا إماماه ، وا أمير المؤمنيناه ، قتل والله إمام عابد مجاهد ، لم يسجد لصنم ، كان أشبه الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلمّا سمع الحسن والحسين (عليهما السلام) صرخات الناس : ناديا : وا أبتاه ، وا علياه ، ليت الموت أعدمنا الحياه .

فلمّا وصلا الجامع ودخلا وجدا أبا جعدة بن هبيرة ومعه جماعة من الناس وهم يجتهدون أن يقيموا الإمام في المحراب ليصلّي بالناس ، فلم يطق على النهوض ، وتأخّر عن الصفّ وتقدّم الإمام الحسن (عليه السلام) فصلّى بالناس ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) يصلّي إيماء من جلوس ، يميل تارة ويسكن أخرى ، والحسن (عليه السلام) ينادي وا انقطاع ظهراه ، يعزّ والله عليّ أن أراك هكذا ، ففتح عينيه وقال : يا بنيّ ، لا جزع على أبيك بعد اليوم ، هذا جدّك محمد المصطفى ، وجدّتك خديجة الكبرى ، وأمّك الزهراء ، والحور العين محدقون منتظرون قدوم أبيك ، فطب نفساً وقرّ عيناً وكفّ عن البكاء ، فإنّ الملائكة قد ارتفعت أصواتهم (لبكائك) إلى السماء .

ثم عصبوا رأسه بردائه ، ونقلوه من المحراب إلى صحن المسجد . ثم إنّ الخبر شاع في جوانب الكوفة والحشر الناس ، حتّى المخدّرات خرجن من خدورهنّ إلى الجامع ينظرن إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، فدخل الناس الجامع فوجدوا الحسن ورأس أبيه في حجره ، وقد غسل الدم عنه ، وشدّ الضربة وهي ما تزال تشخب دماً ، ووجهه قد زاد بياضاً بصفرة ، وهو يرمق السماء بطرفه ، ولسانه يسبّح الله ويوحّده ويقول :

« إلهي أسألك مرافقة الأنبياء والأوصياء ، وأعلى درجات جنّة المأوى » .

ثم أغشي عليه ، فبكى الحسن بكاء شديداً فسقط من دموعه قطرات على وجه أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ففتح عينيه فقال له : يا بنيّ يا حسن ما هذا البكاء ؟ يا بنيّ أتجزع على أبيك وغداً تُقتل بعدي مسموماً مظلوماً؟ ويقتل أخوك بالسيف هكذا ، وتلحقان بجدّكما

وأبكيا وأمّكما ؛ فقال له الحسن (عليه السلام) : يا أبتاه ، ما تعرّفنا من قتلك ومن فعل بك هذا ؟ قال : قتلني ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم المراديّ ، وسيطلع عليكم من هذا الباب ، وأشار بيده الشريفة إلى باب كندة ، ولم يزل السمّ يسري في رأسه وبدنه ، ثم أغمي عليه ساعة ، والناس ينظرون إلى باب كندة ويبكون ، وإذا بالصيحة قد ارتفعت ، وزمرة من الناس قد جاؤوا بعدوّ الله ابن ملجم مكتوفاً ، وهذا يلعنه ، وهذا يضربه ، وهم ينهشون لحمه بأسنانهم ، ويقولون له : يا عدّو الله ما فعلت ؟ أهلكت أمّة محمّد ، وقتلت خير الناس ، وإنّه لصامت ، وبين يديه رجل يقال له حذيفة النخعي ، بيده سيف مشهور ، وهو يردّ الناس عن قتله ، حتى جاؤوا به وأوقفوه بين يدي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فلمّا نظر إليه الحسن (عليه السلام) قال له : ويلك يا لعين يا عدّو الله ، أنت قاتل أمير المؤمنين ، ومثكلنا إمام المسلمين ، هذا جزاؤه منك حيث آواك ، وقرّبك وأدناك ، وآثرك على غيرك ؟ هل كان بئس الإمام لك حتى جازيته هذا الجزاء يا شقيّ ؟

أطرق ابن ملجم ولم ينبس ، وضجّ الناس بالبكاء والنحيب ، ثمّ التفت الحسن (عليه السلام) إلى الذي جاء به فقال له : كيف ظفرت بعدوّ الله وأين لقيته ؟ فقص عليه أمره ، فقال (عليه السلام) : الحمد لله الذي نصر وليّه وخذل عدوّه ، وبعد قليل فتح أمير المؤمنين (عليه السلام) عينيه وهو يقول : « أرفقوا بي يا ملائكة ربّي » .

حديثه (عليه السلام) مع قاتله

فقال له الحسن (عليه السلام) : هذا عدوّ الله وعدوّك ابن ملجم قد أمكن الله منه ، وقد حضر بين يديك ؛ فنظر إليه وقال له بضعف : يا بن ملجم ، لقد جئت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ، أبئس الإمام كنت لك حتّى جازيتني بهذا الجزاء ؟ ألم أكن شفيقاً عليك ، وآثرتك على غيرك ، وأحسنت إليك ، وزدت في عطائك ؟ وقد كنت أعلم أنّك قاتلي لا محالة ، ولكن رجوت بذلك الاستظهار من الله تعالى عليك ، وعلّ أن ترجع عن غيّك ، فغلبت عليك الشقاوة فقتلتني يا شقيّ الأشقياء ، فدمعت عينا ابن ملجم وقال : يا أمير المؤمنين ، فأنت تنقذ من في النار ؟

ثمّ التفت إلى ولده الحسن (عليه السلام) وقال له : ارفق يا ولدي بأسيرك وارحمه وأحسن إليه وأشفق عليه ، ألا ترى إلى عينيه قد طارتا في أمّ رأسه ، وقلبه يرجف خوفاً ورعباً وفزعاً ؟ فقال له الحسن (عليه السلام) : يا أباه ، قد قتلك هذا اللعين الفاجر وأفجعنا فيك ، وأنت تأمرنا بالرفق به ؟! فقال له : نعم يا بنيّ ، نحن أهل بيت لا نزداد على الذنب إلينا إلاّ كرماً وعفواً ، والرحمة والشفقة من شيمتنا .. فإن أنا متّ فاقتصّ منه بأن تقتله وتضربه ضربة واحدة ، ولا تحرقه بالنار ، ولا تمثّل بالرجل ، فإنّي سمعت جدّك رسول الله (صلّى الله

عليه وآله) يقول : إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور ، وإن أنا عشت فأنا أولى بالعفو عنه ، وأنا أعلم بما أفعل به ، فإن عفوت فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلاّ عفواً وكرماً .

ولما حمل أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى بيته ، وهو مدنف جاؤوا باللعين مكتوفاً إلى بيت من بيوت القصر فحبسوه فيه ، والناس في أمر عظيم باكون محزونون ، قد أشرفوا على الهلاك من شدّة البكاء والنحيب ، والتفت إليه الحسن (عليه السلام) وهو يبكي ، فقال له : يا أبتاه ، من لنا بعدك ؟ ما كيومك إلاّ يوم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، من أجلك تعلّمت البكاء ، يعزّ والله عليّ أن أراك هكذا ؛ فناداه (عليه السلام) وقال : ادن منّي ، فدنا منه وقد قرحت أجفان عينيه من البكاء ، فمسح الدموع عن عينيه ، ووضع يده على قلبه وقال له : يا بنيّ ، ربط الله قلبك بالصبر ، وأجزل لك ولإخوتك عظيم الأجر ، فسكّن روعتك واهدأ من بكائك ، فإنّ الله قد آجرك على عظيم مصابك ، ثم ادخل إلى حجرته وأرقد في موضع مصلاّه .

وأقبلت زينب وأمّ كلثوم حتى جلستا معه على فراشه ، وأقبلتا تندبانه وتقولان : يا أبتاه ، من للصغير حتّى يكبر؟ ومن للكبير بين الملأ ؟ يا أبتاه ، حزننا عليك طويل ، وعبرتنا لا ترقا ، فضجّ الناس من وراء الحجرة بالبكاء والنحيب ، وفاضت دموع أمير المؤمنين (عليه السلام) عند ذلك ، وجعل يقلّب طرفه وينظر إلى أهل بيته وأولاده ، ثم دعا الحسن والحسين (عليهما السلام) وجعل يحضنهما ويقبّلهما .

يروي الشيخ المفيد[1] والشيخ الطوسي عن الأصبغ بن نباتة قال : لمّا ضرب ابن ملجم

---

(١) روى ابن شاذان في (الفضائل) عن الأصبغ بن نباتة قال : لمّا ضرب أمير المؤمنين (ع) الضربة التي كانت وفاته فيها اجتمع إليه الناس بباب القصر ، وكان يراد قتل ابن ملجم ، لعنه الله ، فخرج الحسن (ع) فقال : معاشر الناس ، إنّ أبي أوصاني أن أترك أمره إلى وفاته ، فإن كان له الوفاة ، وإلاّ نظر هو في حقّه ، فانصرفوا يرحمكم الله ، فانصرف الناس ولم أنصرف ، فخرج ثانية وقال لي : يا أصبغ ، أما سمعت قولي عن قول أمير المؤمنين (ع) ؟ قلت : بلى ، ولكنّي رأيت حاله فأحببت أن أنظر إليه ، فأسمع منه حديثاً ، فاستأذن لي رحمك الله ؛ فدخل ولم يلبث أن خرج فقال لي : ادخل ، فدخلت فإذا أمير المؤمنين (ع) معصّب بعصابة ، وقد علت صفرة وجهه على تلك العصابة ، وإذا هو يرفع فخذاً ويضع أخرى من شدّة الضربة وكثرة السمّ ، فقال لي : يا أصبغ ، أما سمعت قول الحسن عن قولي ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ولكنّي رأيتك في حالة فأحببت النظر إليك ، وأن أسمع منك حديثاً ؛ فقال لي : اقعد ، فما أراك تسمع منّي حديثاً بعد يومك هذا ، اعلم يا أصبغ أنّي أتيت رسول الله (ص) عائداً كما جئت الساعة ، فقال : يا أبا الحسن ، اخرج فناد في الناس الصلاة جامعة ، واصعد المنبر ، وقم دون مقامي بمرقاة ، وقل للناس :

« ألا من عقّ والديه فلعنة الله عليه ، ألا من أبق من مواليه فلعنة الله عليه ، ألا من ظلم أجيراً أجرته فلعنة الله عليه » .

لعنه الله ، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) غدونا عليه نفر من أصحابنا أنا والحارث الهمداني وسويد بن غفلة وجماعة معنا ، فقعدنا على الباب ، فسمعنا البكاء فبكينا ، فخرج إلينا الحسن بن علي (عليه السلام) فقال : يقول لكم أمير المؤمنين (عليه السلام) : انصرفوا إلى منازلكم ، فانصرف القوم غيري ، فاشتدّ البكاء من منزله فبكيت ، وخرج الحسن (عليه السلام) وقال : ألم أقل لكم انصرفوا ؟ فقلت : لا والله يا بن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لا تتابعني نفسي ولا تحملني رجلاي أن أنصرف حتّى أرى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، قال : فبكيت ، ودخل ، فلم يلبث أن خرج فقال لي : ادخل ، فدخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) فإذا هو مستند معصوب الرأس بعمامة صفراء ، قد نزف واصفرّ وجهه ، ما أدري وجهه أصفر أو العمامة ، فأكببت عليه فقبلته وبكيت ، فقال لي : لا

= يا أصبغ ، ففعلت ما أمرني به حبيبي رسول الله (ص) ، فقام من أقصى المسجد رجل فقال : يا أبا الحسن ، تكلّمت بثلاث كلمات فأوجزتهنّ ، فاشرحهنّ لنا ، فلم أردّ جواباً حتى أتيت رسول الله (ص) فقلت ما كان من الرجل .

قال الأصبغ : ثمّ أخذ بيدي وقال : أبسط يدك ، فبسطت يدي ، فتناول إصبعاً من أصابع يدي وقال : يا أصبغ ، كذا تناول رسول الله (ص) إصبعاً من أصابع يدي ، كما تناولت إصبعاً من أصابع يدك ثم قال : مه يا أبا الحسن ، ألا وإنّي وأنت أبوا هذه الأمّة ، فمن عقّنا فلعنة الله عليه ، ألا وإنّي وأنت موليا هذه الأمّة ، فمن أبق عنّا لعنة الله عليه ، ثم قال : آمين ، فقلت : آمين .

قال الأصبغ : ثمّ أغمي عليه ، ثمّ أفاق فقال لي : أقاعد أنت يا أصبغ ؟ قلت : نعم ، زادك الله من مزيدات الخير ، قال : يا أصبغ ، لقيني رسول الله (ص) في بعض طرقات المدينة وأنا مغموم قد تبيّن الغمّ في وجهي ، فقال لي : يا أبا الحسن ، أراك مغموماً ، ألا أحدّثك بحديث لا تغتمّ بعده أبداً ؟ قلت : نعم ، قال : إذا كان يوم القيامة نصب الله منبراً يعلو منابر النبيين والشهداء ، ثمّ يأمرني الله أصعد فوقه ، ثم يأمرك الله أن تصعد دوني بمرقاة ، ثم يأمر الله ملكين فيجلسان دونك بمرقاة ، فإذا استقللنا على المنبر لا يبقى أحد من الأوّلين والآخرين إلّا حضر .

فينادي الملك الذي دونك بمرقاة : معاشر الناس ، ألا من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي : أنا رضوان خازن الجنان ، ألا إنّ الله بمنّه وكرمه وفضله وجلاله أمرني أن أدفع مفاتيح الجنّة إلى محمّد (ص) ، وإن محمداً (ص) أمرني أن أدفعها إلى عليّ بن أبي طالب ، فاشهدوا لي عليه .

ثمّ يقوم ذلك الذي تحت ذلك الملك بمرقاة منادياً يسمع أهل الموقف : معاشر الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي : أنا مالك خازن النيران ، ألا إنّ الله بمنّه وفضله وكرمه وجلاله قد أمرني أن أدفع مفاتيح النار إلى محمد (ص) ، وإن محمّداً (ص) قد أمرني أن أدفعها إلى عليّ بن أبي طالب (ع) فاشهدوا لي عليه .

فآخذ مفاتيح الجنان والنيران ، ثمّ قال : يا عليّ ، فتأخذ بحجزتي ، وأهل بيتك يأخذون بحجزتك ، وشيعتك يأخذون بحجزة أهل بيتك .

قال (ع) : فصفقت بكلتا يديّ : وإلى الجنة يا رسول الله ؟ قال : إي وربّ الكعبة ؛ قال الأصبغ : فلم أسمع من مولاي غير هذين الحديثين ، ثمّ توفّي صلوات الله عليه .

تبك يا أصبغ فإنّها والله الجنّة ، فقلت له : جعلت فداك ، إنّي أعلم والله أنّك تصير إلى الجنّة ، وإنما أبكي لفقداني إيّاك .

وإجمالاً ، فقد أغمي عليه ساعة طويلة وأفاق ، وكذلك كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يغمى عليه ساعة طويلة ويفيق أخرى ، لأنه (صلّى الله عليه وآله) كان مسموماً .

فلما أفاق ناوله الحسن (عليه السلام) قعباً من لبن ، فشرب منه قليلاً ثم نحّاه عن فيه وقال : احملوه إلى أسيركم ، ثم أعاد وصاية الحسن (عليه السلام) بشأن مأكل اللعين ومشربه .

ويروي الشيخ المفيد وآخرون أنّه لمّا جاؤوا بابن ملجم إلى الحبس قالت له أم كلثوم وهي تبكي : يا عدوّ الله قتلت أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فقال لها لعنه الله : لم أقتل أمير المؤمنين وإنما قتلت أباك ، فقالت : أمّا أبي فإنّه لا بأس عليه ، وإنّ الله مخزيك في الدنيا والآخرة ، قال ابن ملجم . لقد اشتريت سيفي هذا بألف ، وسمّمته بألف ، وضربته به ضربة لو قسّمت بين أهل الأرض لأهلكتهم .

قال أبو الفرج : ثمّ جُمع له أطبّاء الكوفة ، فلم يكن منهم أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هاني السلولي ، وكان متطبّباً صاحب الكرسي ، يعالج الجراحات ، فلما نظر إلى جرح أمير المؤمنين (عليه السلام) دعا برئة شاة حارّة فاستخرج منها عرقاً أدخله في شقّ الجرح ثمّ نفخه حتى بلغ أقصى الجرح ، وبعد أن تركه في الجرح قليلاً استخرجه وإذا عليه بياض الدماغ ، فقال : يا أمير المؤمنين اعهد عهدك ، فإنّ عدوّ الله قد وصلت ضربته إلى أمّ رأسك . (أي : لا يستطاع عمل شيء) .



الفصل الرابع

في وصايا أمير المؤمنين (عليه السلام) وكيفيّة وفاته

وصايا أمير المؤمنين (عليه السلام)

قال محمّد بن الحنفيّة (رضي الله عنه) : وبتنا ليلة عشرين من شهر رمضان مع ابي وقد نزل السمّ إلى قدميه ، وكان يصلّي تلك الليلة من جلوس ، ولم يزل يوصينا بوصاياه ، ويعزّينا عن نفسه ، ويخبرنا بأمره وتبيانه إلى حين طلوع الفجر ، فلمّا أصبح استأذن الناس عليه ، فأذن لهم بالدخول ، فدخلوا وأقبلوا يسلّمون عليه ، وهو يردّ عليهم السلام ، ثمّ قال : أيّها الناس اسألوني قبل أن تفقدوني ، وخفّفوا سؤالكم لمصيبة إمامكم ، فبكى الناس عند ذلك بكاء شديداً ، فقام إليه حجر بن عديّ وقال شعراً في مصيبة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فلما سكت قال له : كيف لي بك إذا دعيت إلى البراءة منّي؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لو قطّعت بالسيف إربا إرباً وأضرمت لي النار وألقيت فيها لآثرت ذلك على البراءة منك ، فقال : وفّقت لكلّ خير يا حجر ، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيّك .

ثم قال : هل من شربة من لبن ؟ فأتوه بلبن في قعب ، فشرب منه قليلاً وقال : ألا وإنّه آخر رزقي من الدنيا ، فبكى جميع أهل البيت .

ويروى أنّ أحدهم قال لابن ملجم : يا عدوّ الله لا تفرح فأمير المؤمنين (عليه السلام) سينجو ولا بأس عليه ، فقال اللعين : إذاً فعلى من تبكي أم كلثوم ، أعليّ تبكي أم على عليّ تقيم العزاء ؟ والله لقد اشتريت سيفي هذا بألف درهم ، وسمّمته بألف ، وأصلحت كلّ نقص فيه ، وضربت عليّاً بهذا السيف ضربة لو قسّمت على أهل المشرق والمغرب لأهلكتهم .

ولمّا كانت ليلة إحدى وعشرين جمع اولاده وأهل بيته وودّعهم ، ثمّ قال لهم : الله خليفتي عليكم وهو حسبي ونعم الوكيل ، وأوصاهم ببعضهم خيراً .

وفي تلك الليلة تزايد أثر السمّ في جسده الشريف ، ثمّ عرضنا عليه المأكول والمشروب فأبى ، فنظرنا إلى شفتيه وهما تختلجان بذكر الله تعالى ، وجعل جبينه يرشح عرقاً وهو يمسحه بيده ويقول : سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول :

« إنّ المؤمن إذا نزل به الموت ودنت وفاته عرق جبينه ، وصار كاللؤلؤ الرطب ، وسكن أنينه » .

ثم نادى أولاده كلّهم بأسمائهم صغيراً وكبيراً وجعل يودّعهم ويقول : الله خليفتي عليكم ، أستودعكم الله ، وهم يبكون . فقال له الحسن (ع) : يا أبه ، ما دعاك إلى هذا ؟ فقال له : يا بنيّ ، إنّي رأيت جدّك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في منامي قبل هذه الكائنة بليلة ، فشكوت إليه ما أنا فيه من التذلّل والأذى من هذه الأمّة ، فقال لي : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلهم بي شرّاً منّي ، وأبدلني بهم خيراً منهم ، فقال لي : قد استجاب الله دعاك ، سينقلك إلينا بعد ثلاث ، وقد مضت الثلاث ؛ يا أبا محمد ، أوصيك ـ ويا أبا عبد الله ـ خيراً ، فأنتما منّي وأنا منكما ، ثم التفت إلى أولاده الذين من غير فاطمة (عليه السلام) وأوصاهم أن لا يخالفوا الحسن والحسين (عليهما السلام).

ثم قال : « أحسن الله لكم العزاء ، ألا وإنّي منصرف عنكم وراحل في ليلتي هذه ، ولاحق بحبيبي محمّد (صلّى الله عليه وآله) كما وعدني » .

ويروي الشيخ المفيد والشيخ الطوسي عن الإمام الحسن (عليه السلام) أنّه قال : لمّا حضرت والدي الوفاة أقبل يوصي[1] فقال :

« هذا ما أوصى به عليّ بن أبي طالب أخو محمّد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وابن عمّه وصاحبه : أوّل وصيّتي أنّي أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسوله وخيرته ، اختاره بعلمه وارتضاه لخيرته ؛ وأنّ الله باعث من في القبور ، وسائل الناس عن أعمالهم ، عالم بما في الصدور .

ثمّ إنّي أوصيك يا حسن ـ وكفى بك وصيّاً ـ بما أوصاني به رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فإذا كان ذلك يا بنيّ الزم بيتك ، وابك على خطيئتك ، ولا تكن الدنيا أكبر همّك ، وأوصيك يا بنيّ بالصلاة عند وقتها ، والزكاة في أهلها عند محلّها ، والصمت عند

---

(١) وقال المسعودي في مروج الذهب : ثم دعا الحسن والحسين (ع) فقال لهما : « أوصيكما بتقوى الله وحده ، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها ، قولا الحقّ ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضعيف ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم .

ثمّ نظر إلى ابن الحنفيّة فقال : هل سمعت ما قلت به أخويك ؟ قال : نعم ، قال : أوصيكم بمثله .

الشبهة ، والاقتصاد والعدل في الرضى والغضب وحسن الجوار ، وإكرام الضيف ، ورحمة المجهود ، وأصحاب البلاء وصلة الرحم ، وحبّ المساكين ومجالستهم ، والتواضع فإنه أفضل العبادة ، وقصر الأمل ، واذكر الموت ، وازهد في الدنيا فإنّك رهين موت وغرض بلاء وطريح سقم .

وأوصيك بخشية الله في سرّ أمرك وعلانيتك ، وأنهاك عن التسرّع بالقول والفعل ، وإذا عرض شيء من أمر الآخرة فابدأ به ، وإذا عرض شيء من أمر الدنيا فتأنّه حتّى تصيب رشدك فيه ، وإيّاك ومواطن التهمة ، والمجلس المظنون به السوء ، فإن قرين السوء يضرّ جليسه ، وكن لله يا بنيّ عاملاً ، وعن الخنى زجوراً ، وبالمعروف آمراً ، وعن المنكر ناهياً ، وواخ الإخوان في الله ، وأحبّ الصالح لصلاحه ، ودار الفاسق عن دينك ، وأبغضه بقلبك ، وزايله بأعمالك لئلاّ تكون مثله ؛ وإيّاك والجلوس في الطرقات ، ودع المماراة ومجاراة من لا عقل له ولا علم ، واقتصد يا بنيّ في معيشتك ، واقتصد في عبادتك ، وعليك فيهما بالأمر الدائم الذي تطيقه ، والزم الصمت تسلم ، قدّم لنفسك تغنم ، وتعلّم الخير تعلم ، وكن لله ذاكراً على كلّ حال ، وارحم من أهلك الصغير ، ووقّر منهم الكبير ؛ ولا تأكلنّ طعاماً حتّى تصدّق منه قبل أكله ، وعليك بالصوم فإنّه زكاة البدن ، وجنّة لأهله ؛ وجاهد نفسك ، واحذر جليسك ، واجتنب عدوّك ، وعليك بمجالس الذكر ، وأكثر من الدعاء ، فإنّي لم آلك يا بنيّ نصحاً ؛ وهذا فراق بيني وبينك .

وأوصيك بأخيك محمّد خيراً ، فإنّه شقيقك وابن أبيك وقد تعلم حبّي له ؛ وأمّا أخوك الحسين فهو ابن أمّك ، ولا أريد الوصاة بذلك ؛ والله خليفتي عليكم ، وإيّاه أسأل أن يصلحكم ، وأن يكفّ الطغاة البغاة عنكم ، والصبر الصبر حتى ينزل الله الأمر ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم » .

وفي الرواية السابقة أنّه لما أوصى أمير المؤمنين (عليه السلام) ابنه الحسن (عليه السلام) بوصيّته قال :

« فإذا أنا متّ يا أبا محمّد فغسّلني وكفّنّي وحنّطني ببقيّة حنوط جدّك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فإنّه من كافور الجنّة جاء به جبريل (عليه السلام) إليه ؛ ثم ضعني على سريري ، ولا يتقدّم أحد منكم مقدّم السرير ، واحملوا مؤخره واتبعوا مقدّمه ، فأيّ موضع وضع المقدّم فضعوا المؤخّر ، فحيث قام سريري فهو موضع قبري .

ثمّ تقدّم يا أبا محمّد وصلّ عليّ يا بنيّ يا حسن ، وكبّر عليّ سبعاً ، واعلم أنّه لا يحلّ ذلك على أحد غيري إلاّ على رجل يخرج في آخر الزمان اسمه القائم المهديّ ، من ولد أخيك

الحسين ، يقوّم اعوجاج الحقّ ؛ فإذا أنت صلّيت عليّ يا حسن فنحّ السرير عن موضعه ، ثم اكشف التراب عنه فترى قبراً محفوراً ولحداً مثقوباً وساجةً منقوبة ، فأضجعني فيها ، فإذا أردت الخروج من قبري فافتقدني فإنّك لا تجدني ، وإنّي لاحقٌ بجدّك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

واعلم يا بنيّ ، ما من نبيّ يموت وإن كان مدفوناً بالمشرق ويموت وصيّه بالمغرب ، إلاّ ويجمع الله عزّ وجلّ بين روحيهما وجسديهما ، ثمّ يفترقان فيرجع كلّ واحدٍ منهما إلى موضع قبره ، وإلى موضعه الذي حطّ فيه ؛ ثمّ أهلّ التراب عليّ ، ثمّ غيّب قبري ؛ ثم يا بنيّ بعد ذلك إذا أصبح الصباح أخرجوا تابوتاً إلى ظاهر الكوفة على ناقة ، وأمر بمن يسيّرها بما عليها كأنّها تريد المدينة ، بحيث يخفى على العامّة موضع قبري الذي تضعني فيه » .

ويروى عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) أمر ابنه الحسن (عليه السلام) أن يحفر له أربعة قبور في أربعة مواضع : في المسجد (الكوفة) ، وفي الرحبة ، وفي الغرّي (النجف) وفي دار جعدة بن هبيرة ، وإنّما أراد بهذا أن لا يعلم أحد من أعدائه موضع قبره .

يقول المؤلّف : كان الغرض من إخفاء القبر أن لا يعلم الملاعين من الخوارج وبني أميّة موضعه ، وكانوا في غاية العداء والبغض له (عليه السلام) لئلاّ يحفروه ويخرجوا جسده المطهر ؛ ولم يزل قبره مخفيّاً حتى أيام الإمام الصادق (عليه السلام) حيث التمس منه بعض الشيعة والأصحاب أن يدلّهم على قبر جدّه بقصد زيارته ، ففعل ؛ وفي أيام الرشيد أصبح موضع مضجعه المنوّر ظاهراً ومعلوماً من الجميع بتفصيل لا يتّسع المقام لذكره .

قال الراوي : ثم إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

« يا أبا محمد ويا أبا عبد الله ، كأنّي بكما وقد خرجت عليكما من بعدي الفتن من ها هنا وها هنا ، فاصبرا حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

ثم قال : « يا أبا عبد الله ، أنت شهيد هذه الأمّة ، فعليك بتقوى الله والصبر على بلائه » .

ثم أغمي عليه ساعة ، وأفاق وقال : « هذا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وعمّي حمزة ، وأخي جعفر ، وأصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكلّهم يقولون : عجّل قدومك علينا فإنّا إليك مشتاقون » .

ثمّ أدار عينيه في أهل بيته كلّهم وقال : « أستودعكم الله جميعاً ، سدّدكم الله جميعاً ، حفظكم الله جميعاً ، خليفتي عليكم الله وكفى بالله خليفة » .

ثمّ قال : « وعليكم السلام يا رسل ربي » .

ثمّ قال : « لمثل هذا فليعمل العاملون ، إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون » .

وعرق جبينه وهو يذكر الله كثيراً ، وما زال يذكر الله كثيراً ويتشهّد الشهادتين ، ثمّ استقبل القبلة ، وغمّض عينيه ، ومدّ رجليه ويديه وقال :

« أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله » .

ثمّ قضى نحبه صلوات الله عليه ، ولعنة الله على قاتله .

وكانت (هذه الواقعة المهولة) ليلة الجمعة سنة أربعين من الهجرة .

فعند ذلك صرخت زينب بنت علي (عليه السلام) وأمّ كلثوم وجميع نسائه ، وقد شقّوا الجيوب ولطموا الخدود ، وارتفعت الصيحة في القصر ، فعلم أهل الكوفة أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد قبض ، فأقبل النساء والرجال يهرعون أفواجاً أفواجاً ، وصاحوا صيحة عظيمة ، فارتجّت الكوفة بأهلها ، وكثر البكاء والنحيب ، وكثر الضجيج بالكوفة وقبائلها ودورها وجميع أقطارها ، فكان ذلك كيوم مات فيه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولمّا أظلم الليل تغيّر أفق السماء ، وارتجّت الأرض ، وسمع تسبيح الملائكة في الهواء ، وناحت قبائل الجنّ ، فبكته ورثته .

بيان غسله وتكفينه

قال محمّد بن الحنفيّة : ثمّ أخذنا في جهازه ليلاً ، وكان الحسن (عليه السلام) يغسّله ، والحسين (عليه السلام) يصبّ الماء عليه ، وكان (عليه السلام) لا يحتاج إلى من يقلّبه ، بل كان يتقلّب كما يريد الغاسل يميناً وشمالاً ، وكانت رائحته أطيب من رائحة المسك والعنبر .

ثمّ نادى الحسن (عليه السلام) أخته وقال : يا أختاه هلمّي بحنوط جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فبادرت زينب مسرعة حتى أتته (بحصّة أمير المؤمنين (عليه السلام) من الحنوط الذي بقي بعد النبي وفاطمة (عليهما السلام) (وكان من الكافور الذي أحضره جبرئيل (عليه السلام) من الجنّة) ، فلمّا فتحته فاحت الدار وجميع الكوفة وشوارعها لشدّة رائحة ذلك الطيب ؛ ثمّ لفّوه بخمسة أثواب كما أمر (عليه السلام) ، ثم وضعوه على السرير .

كيفية تشييعه ودفنه

وتقدّم الحسن والحسين (عليهما السلام) إلى السرير من مؤخّره (كما أوصى

(عليه السلام)) ، وإذا مقدّمه قد ارتفع ولا يرى حامله ، وكان حاملاه من مقدّمه جبرئيل وميكائيل ، (وخرج السرير مائلاً نحو النجف الأشرف بظاهر الكوفة ، وأراد بعض الناس الخروج في تشييعه فمنعهم الحسن (عليه السلام) ، وأمرهم بالرجوع) ، والإمام الحسين (عليه السلام) يقول :

« لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، يا أباه ، وا انقطاع ظهراه ، من أجلك تعلّمت البكاء ، إلى الله المشتكى » .

قال محمد بن الحنفيّة : والله لقد نظرت إلى السرير ، وإنّه ليمر بالحيطان والنخل فتنحني له خشوعاً .

ووفقاً لرواية أماليّ الشيخ الطوسي أنه لمّا مرّت الجنازة بقائم الغرّي وهو باب قديم كأنّه الميل ، ويسمّونه العلم أيضاً ـ انحنى واعوجّ احتراماً للنعش المطهّر ، كما انحنى سرير أبرهة إذ دخل عليه عبد المطلب ، تعظيماً له ، واليوم يقوم مسجد في مكان هذا القائم يقال له مسجد حنّانة ، ويقع إلى الشرق من النجف على بعد ثلاثة آلاف ذراع تقريباً .

قال : فلمّا انتهينا إلى (موضع) قبره (عليه السلام) وإذا مقدّم السرير قد وضع ، فوضع الحسن (عليه السلام) مؤخّره ، ثم قام (عليه السلام) وصلّى عليه والجماعة خلفه ، فكبّر سبعاً كما أمره به أبوه (عليه السلام) ، ثمّ زحزحنا السرير وكشفنا التراب وإذا نحن بقبر محفور ولحد مشقوق وساجة عليها لوح مكتوب عليه سطران بالسريانيّة ، ترجمتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما حفره نوحٌ النبيّ لعليّ وصيّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قبل الطوفان بسبعمئة عام » .

ووفقاً لرواية أخرى أنه كتب على اللوح : « هذا ما ادّخره له جدّه نوح النبيّ للعبد الصالح الطاهر المطهّر » .

ولمّا أرادوا إنزاله سمعوا هاتفاً يقول : «أنزلوه إلى التربة الطاهرة، فقد اشتاق الحبيب إلى الحبيب» .

ويروى أنهم سمعوا ناطقاً لهم بالتعزية يقول : « أحسن الله لكم العزاء في سيّدكم وحجّة الله على خلقه » .

ويروى عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

« دفن أمير المؤمنين (عليه السلام) بناحية الغريّين قبل طلوع الفجر ، ودخل قبره الحسن والحسين ومحمّد بنو عليّ (عليه السلام) وعبد الله بن جعفر رضي الله عنه » .

وبعد أن أشرجوا عليه اللبن أخذوا اللبنة من عند الرأس لهإذا ليس في القبر شيء، وإذا هاتف يهتف:

« إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان عبداً صالحاً ، فألحقه الله عزّ وجلّ بنبيّه (صلّى الله عليه وآله) ، وكذلك يفعل بالأوصياء بعد الأنبياء ، حتى لو انّ نبيّاً مات في الشرق ومات وصيّه في الغرب ألحق الله الوصيّ بالنبيّ » .

ويروي صاحب كتاب (مشارق الأنوار) عن الإمام الحسن (عليه السلام) أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال للحسنين (عليهما السلام) : « إذا وضعتماني في الضريح فصلّيا ركعتين قبل أن تهيلا عليّ التراب ، وانظرا ما يكون » فلمّا وضعاه في الضريح المقدّس فعلا ما أمرا به ، ونظرا فإذا الضريح مغطّى بثوب من سندس ، فكشف الحسن (عليه السلام) ممّا يلي وجه أمير المؤمنين (عليه السلام) فوجد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وآدم وإبراهيم (عليهما السلام) يتحدّثون مع أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكشف الحسين (عليه السلام) مما يلي رجليه فوجد الزهراء وحوّاء ومريم وآسيا عليهنّ السلام ينحْنَ على أمير المؤمنين (عليه السلام) ويندبنه .

هذا ولمّا ألحد أمير المؤمنين (عليه السلام) وقف صعصعة بن صوحان العبديّ (رضي الله عنه) على القبر ، ووضع إحدى يديه على فؤاده ، والأخرى قد أخذ بها التراب يضرب به رأسه ، ثم قال :

بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين ، هنيئاً لك يا أبا الحسن ، فلقد طاب مولدك ، وقوي صبرك ، وعظم جهادك ، وظفرت برأيك ، وربحت تجارتك ، وقدمت على خالقك فتلقّاك الله ببشارته ، وحفّتك ملائكته ، واستقررت في جوار المصطفى وشربت بكأسه الأوفى . . . إلى أمثال هذا الكلام ، وبكى بكاء شديداً وبكى كلّ من كان معه

وعدلوا إلى الحسن والحسين ومحمّد وجعفر والعباس ويحيى وعون وعبد الله (عليهم السلام) فعزّوهم في أبيهم (صلوات الله عليه) ، وانصرف الناس ، ورجع أولاد أمير المؤمنين (عليه السلام) وشيعتهم إلى الكوفة .

فلمّا طلع الصباح ، وبزغت الشمس أخرجوا تابوتاً من دار أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأتوا به إلى المصلّى بظاهر الكوفة ، ثمّ تقدم الحسن (عليه السلام) وصلّى عليه ، ورفعه على ناقة وسيّرها نحو المدينة .

يروى أن عبد الله بن العبّاس أنشد هذه الأشعار في رثاء أمير المؤمنين (عليه السلام) :

وعزّ عليّ بالعراقين لحيته ... مصيبتها جلّت على كلّ مسلم

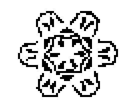
وقال سيأتيها من الله نازل ويخضبها أشقى البريّة بالدمّ
فعاجله بالسيف شُلّت يمينه لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم
فيا ضربة من خاسر ضلّ سعيه تبوّأ منها مقعداً في جهنّم
ففاز أمير المؤمنين بحظّه وإن طرقت إحدى الليالي بمعظم
ألا إنّما الدنيا بلاء وفتنة حلاوتها شيبت بصبرٍ وعلقم

ويروى أيضاً أنه لمّا بلغ معاوية خبر مقتل أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : إنّ الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في الحرب قد قضى نحبه . وأنشد :

قل للأرانب ترعى أينما سرحت وللظباء بلا خوف ولا وجل

ويروي الشيخ الكليني وابن بابويه (ره) وآخرون بإسناد معتبرة أنّه لمّا كان اليوم الذي قبض فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ارتجّ الموضع بالبكاء ، ودهش الناس كيوم قبض النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، وجاء رجل باكٍ وهو مسرع يسترجع وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوّة ، حتّى وقف على باب أمير المؤمنين (عليه السلام) وراح يعدّد كثيراً من مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وسكت القوم حتى انقضى كلامه ، وبكى وأبكى الناس ، ثمّ طلبوه فلم يصادفوه .

يقول المؤلف : ذلك الرجل كان الخضر (عليه السلام) ، وكلماته بمثابة زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) . وقد أوردت في اليوم الموافق لاستشهاده (عليه السلام) كلامه في باب الزيارات في كتاب (الهديّة) ، والمقام لا يتّسع لذكره في هذا الموجز .



الفصل الخامس

في قتل ابن ملجم اللعين بيد الإمام الحسن (عليه السلام)

بعد أن أودع الإمام الحسن (عليه السلام) جسد أبيه المبارك أرض النجف ورجع إلى الكوفة مع شيعة عليّ (عليه السلام) رقي المنبر ، فأراد الكلام فخنقته العبرة ، فقعد ساعة ثم قام فقرأ خطبة فصيحة بليغة ، ابتدأها بحمد الله تعالى والثناء عليه ، ومما قاله (عليه السلام) .

« . . والحمد لله الذي احسن علينا الخلافة أهل البيت ، وعنده نحتسب عزانا في خير الأبناء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وعند الله نحتسب عزانا في أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولقد أصيب به الشرق والغرب ، والله ما خلّف ديناراً ولا درهماً إلاّ أربعمئة درهم أراد أن يبتاع لأهله خادماً[1] ؛ ولقد حدّثني حبيبي جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّ الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته ، وما منّا إلاّ مقتول أو مسموم .

ثم نزل عن منبره فدعا بابن ملجم لعنه الله ، فأتيَ به ، فقال له : ويلك ماذا جنيت ممّا فعلت ؟ قتلت أمير المؤمنين (عليه السلام) وثلمت في الدين ثلمة ؟ فقال : قد عهدت الله عهداً أن أقتل أباك ، فقد وفيت ، فإن شئت فاقتل ، وإن شئت فاعف ، فإن عفوت ذهبت إلى معاوية فقتلته وأرحتك منه ، ثم جئتك ؛ فقال : لا حتّى أعجلك إلى النار .

ووفقاً لرواية (فرحة الغرّي) فإنّ ابن ملجم قال للحسن (عليه السلام) : إنّي أريد أن أسارّك بكلمة ، فأبى الحسن (عليه السلام) وقال : إنّه يريد أن يعضّ أذني ، فقال ابن ملجم : والله لو أمكنني منها لأخذتها من صماخه .

---

(١) سترد خطبته (عليه السلام) بطولها عند الحديث عن أحواله (عليه السلام) إن شاء الله ، وفيها أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) خلّف سبعمئة درهم ليشتري بها خادماً لأهله . . . الخ .

ثم إنه (عليه السلام) أعجل اللعين ابن ملجم إلى النار بضربة واحدة عملاً بوصيّة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وفي رواية أخرى أنه حكم عليه بضرب عنقه ، وطلبت أمّ الهيثم بنت الأسود النخعي تسليمها جسده ، فاضرمت ناراً وأحرقت الجسد النجس بها .

يقول المؤلف : الظاهر من هذه الرواية أن ابن ملجم اللعين قتل في يوم واحد وعشرين من شهر رمضان يوم قبض أمير المؤمنين (عليه السلام) ، كما وردت روايات أخرى بهذا المضمون ، ومنها أنه في صبيحة الليلة التي دفن فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) أقسمت أمّ كلثوم على أخيها الحسن (عليه السلام) أن لا يدع قاتل أبيهم حيّاً ساعة واحدة ؛ ونتيجة لذلك فإن المعروف بين الناس من أن ابن ملجم قتل يوم سابع وعشرين من شهر رمضان لا سند له .

ويروي ابن شهر آشوب وآخرون أن العظام النجسة لابن ملجم طرحت في حفرة ، وأن أهل الكوفة يسمعون صراخاً وعواء كعواء الكلب يرتفع من هذه الحفرة ؛ وحكاية إخبار الراهب عن عذاب ابن ملجم في الدنيا بقيء طائر لجسده مع أربع دفعات ثم إعادة ابتلاعه قطعة قطعة ، وتكرر هذا العمل منه دون انقطاع على صخرة عند شاطىء البحر ، هي حكاية مشهورة ، وفي الكتب المعتبرة مسطورة .

يقول المؤرخ أمين المسعودي إنه لمّا عزموا على قتل ابن ملجم قال عبد الله بن جعفر : دعوني أشفي ما في نفسي عليه ، فدفع إليه ، فأمر بمسمار فحمي بالنار ، ثم كحله ، فجعل ابن ملجم يقول : سبحان الله الذي خلق الإنسان ، وإنك لتكحل عمّك بملمول مضّ[1] ، ثم أمر بقطع يده ورجله فقطع ، ثم أخذ وأحرق[2] .

(١) الملمول : المرود الذي يكتحل به ، والكحل المضّ : الحاد الموجع .

(٢) قال عمران بن حطّان يمدح ابن ملجم عليه لعائن الله :

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها ... إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا

وقال القاضي أبو الطيّب الطاهر بن عبد الله الشافعي يردّ عليه :

إنّي لأبرأ ممّا أنت قائله ... عن ابن ملجم الملعون بهتانا
يا ضربة من شقيّ ما أراد بها ... إلاّ ليهدم للإسلام أركانا
إنّي لأذكره يوماً فألعنه ... ديناً وألعن عمراناً وحطّانا
عليه ثمّ عليه الدهرَ متّصلاً ... لعائن الله إسراراً وإعلانا
فأنتما من كلاب النار جاء به ... نصّ الشريعة برهاناً وتبيانا

الفصل السادس

في ذكر أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام) وأزواجه

كان لأمير المؤمنين (عليه السلام) ـ على قول الشيخ المفيد ـ سبعة وعشرون ذكراً وأنثى : أربعة منهم : الحسن والحسين وزينب الكبرى (الملقبة بالعقيلة) وزينب الصغرى المكنّاة بأمّ كلثوم من فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

وسيأتي بيان أحوال الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام إن شاء الله ، أمّا زينب فكانت زوجاً لعبد الله بن جعفر ، ابن عمّها ، وولدت له أبناء منهم محمّد وعون اللذان استشهدا في كربلاء .

ويقول أبو الفرج : إنّ محمداً بن عبد الله شهيد كربلاء أمّه خوصاء بنت حفصة وهو الأخ الشقيق لعبد الله الذي استشهد في وقعة الطف أيضاً ؛ وأمّا أمّ كلثوم فحكاية زواجها بعمر مسطورة في الكتب ، وكانت بعده تحت عون بن جعفر ، ومن بعده زوجة لمحمد بن جعفر .

الخامس : محمد المكنّى بأبي القاسم ، وأمّه خولة الحنفيّة بنت جعفر بن قيس وفي بعض الروايات أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بشّر أمير المؤمنين (عليه السلام) بولادة محمّد وأعطاه اسمه وكنيته ، ولد محمّد أيّام حكم عمر بن الخطّاب ، وتوفّي في عهد عبد الملك بن مروان وله من العمر خمس وستون سنة ؛ وفي مكان وفاته اختلاف ، فمن قائل إنه توفّي في أيلة ، ومن قائل آخر : في الطائف ، ومن قائل ثالث إنه توفّي في المدينة ودفن في البقيع ، يقول الكيسانيّة بإمامته وأنه مهديّ آخر الزمان ، ويعتقدون أنه اتخذ من شعب رضوى ـ وهو جبل باليمن ـ مكاناً له ، وأنّه حيّ يرزق حتى وقت خروجه ، والحمد لله أن هذه الطائفة انقرضت .

وكان محمد رجلاً عالماً شجاعاً قويّاً ، ويروى أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) أتى يوماً

بدروع اختار إحداها وكانت أطول من قامته فأمر بقطع مقدار من حاشيتها ، فجمع محمّد حاشية الدرع بقبضته وقطعها من حيث أشار أبوه كأنه يقص قطعة من الحرير لا من الحديد ؛ كما أن قصّته وقيس بن عبادة مع الرجلين الروميّين اللذين بعث بهما ملك الروم معروفة ؛ وما جرى معه في حرب الجمل وصفّين خير دليل على شجاعته وشدّة بأسه .

السادس والسابع : عمر ورقيّة الكبرى ، التوأمان المولودان من أمّ حبيب بنت ربيعة .

الثامن إلى الحادي عشر : العبّاس وجعفر وعثمان وعبد الله الأكبر ، والأربعة جميعاً كانوا من الشهداء بطفّ كربلاء ، وسيأتي الحديث عن كيفيّة استشهادهم فيما بعد إن شاء الله تعالى ؛ وأمّهم أمّ البنين بنت حزام بن خالد الكلابيّة ، ويروى أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) دعا أخاه عقيلاً ، وكان عالماً بأنساب العرب ، وطلب منه أن يختار له زوجاً تلد له بنين فحولاً ، فأشار عليه بالزواج من أم البنين الكلابيّة ، فهي تنحدر من آباء لا يدانيهم في الشجاعة بين العرب أحد ، فتزوّجها ورزق منها بالعبّاس (عليه السلام) وإخوته الثلاثة ، ومن هنا أن الشمر بن ذي الجوشن لعنه الله ، وكان من بني كلاب ، أحضر لأبي الفضل العباس وإخوته كتاب الأمان ، وكان يدعوهم بأبناء الأخت كما يروى .

الثاني عشر والثالث عشر : محمّد الأصغر وعبد الله ، ومحمّد يكنّى بأبي بكر ، وقد استشهد كلاهما في كربلاء ، وأمّهما ليلى بنت مسعود الدارميّة .

الرابع عشر : يحيى ، وأمّه أسماء بنت عميس .

الخامس عشر والسادس عشر : أم الحسن ورملة ، وأمّهما أمّ سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي ، ورملة هذه هي رملة الكبرى وكانت تحت أبي الهياج عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ؛ ويقال إنّ أمّ الحسن كانت زوجة جعدة بن هبيرة ابن عمّتها ، وتزوّجها من بعده جعفر بن عقيل .

السابع عشر حتى التاسع عشر : نفيسة وزينب الصغرى ورقيّة الصغرى ، ويقول ابن شهر اشوب إنّ أمّهنّ هي أمّ سعيد بنت عروة ، وأمّا رملة وأمّ الحسن فأمّهما أمّ شعيب المخزوميّة ؛ ويقول : إن نفيسة تكنّى بأمّ كلثوم الصغرى ، وقد تزوج منها كثير بن العبّاس بن عبد المطلب ، وإنّ زينب الصغرى تزوّجها محمد بن عقيل ؛ ويقول البعض إنّ رقيّة الصغرى أمّها أمّ حبيبة ، وقد عقد لها على مسلم بن عقيل .

وما تبقّى من أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام) وهم من العشرين حتى السابع والعشرين فهنّ إناث جميعهنّ ، وأدرجهنّ وفق الترتيب الآتي : أمّ هانيء ، وأمّ الكرام ، وجمانة المكنّاة بأمّ جعفر ، وأمامة ، وأمّ سلمة ، وميمونة ، وخديجة ، وفاطمة رحمة الله عليهنّ .

ويقول البعض : إنّ عدد أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام) ستّة وثلاثون ، ثمان عشرة من الذكور ومثلهم من الإناث ، بإضافة عبد الله وعون وأمّه أسماء بنت عميس برواية هشام بن محمد المعروف بابن الكلبي ، ومحمد الأوسط وأمّه أمامة بنت زينب بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وعثمان الأصغر ، وجعفر الأصغر ، والعبّاس الأصغر ، وعمر الأصغر ، ورملة الصغرى ، وأمّ كلثوم الصغرى .

ويروي ابن شهرآشوب أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) رزق من زوجه محياة بنت امرىء القيس بابنة توفيت وهي صبيّة ، ويذكر الشيخ المفيد (ره) أن فاطمة الزهراء كانت حاملاً بابنٍ لأمير المؤمنين (عليه السلام) سمّاه النبيّ (صلّى الله عليه وآله) محسناً ، وقد أسقط هذا الجنين بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

يقول المؤلّف : يذكر المسعودي في (مروج الذهب) ، وابن قتيبة في (المعارف) ، ونور الدين العبّاس الموسوي الشامي في (أزهار بستان الناظرين) أنّ محسناً يُعدّ في أولاد أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وقال الصاحب مجدي : يروي الشيعة خبر محسن ورفسه ، وقد عثرت على ذكر محسن في بعض كتب أهل السنّة ، غير أنّ رفسه لم يذكر من جهة أعوّل عليها .

وهذا وإن خمسة من أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام) أعقبوا أبناء ، وهم : الإمامان الحسن والحسين (عليهما السلام) ، ومحمّد بن الحنفيّة ، والعبّاس ، وعمر الأكبر ، ومن ذكر امّهات أولاد أمير المؤمنين (عليه السلام) يعلم ضمناً أسماء العديد من زوجاته ، ويذكر أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يتمتّع بحرّةٍ ولا أمةٍ في حياة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ، كما كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مع خديجة ، وبعد وفاة الزهراء (عليها السلام) تزوّج من أمامة بنت أختها عملاً بوصيّتها ، ويروى أن زواجه (عليه السلام) من أمامة كان بعد ثلاث ليال مضت على وفاة الزهراء (عليها السلام) ، ولمّا قبض أمير المؤمنين (عليه السلام) خلّف وراءه أربع زوجات وثماني عشرة أمّ ولد ، وأسماء الزوجات الأربع : أمامة ، وأسماء بنت عميس ، وليلى التميميّة ، وأمّ البنين .

تذييل : تقدّم القول : إنّ خمسة من أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام) أعقبوا أولاداً : الحسنان (عليهما السلام) ، وسيرد ذكر أولادهما فيما بعد إن شاء الله ؛ والثلاثة الأخرون : محمد بن الحنفيّة ، والعباس ، وعمر الأطرف ، ومن المناسب هنا أن نشير إلى بعض ذراريهم .

أبناء محمد بن الحنفيّة (رضي الله عنه) : أعقب محمّد بن الحنفيّة أربعة وعشرين ولداً منهم أربعة عشر من الذكور ، وعقبه كله كان من ولديه عليّ وجعفر ، وجعفر هذا قتل يوم الحرّة إذ استباح مسرف بن عقبة المدينة بأمر من يزيد ، وأكثرعقبه ينتهي إلى رأس المذري

عبد الله بن جعفر الثاني بن عبد الله بن جعفر بن محمد بن الحنفيّة ، ومنهم الشريف النقيب أبو الحسن بن القاسم بن محمد العويد بن علي بن رأس المذري ، وابنه أبو محمد الحسن بن أحمد ، وابنه أبو محمد الحسن بن أحمد ، وهو سيّد جليل القدر ، كان خليفة للسيّد المرتضى في النقابة ببغداد ، وقد أعقب سلالة من أهل العلم والجلالة والفضل والحديث عرفوا ببني النقيب المحمّدي ، لكنّهم انقرضوا .

ومنهم جعفر الثالث بن رأس المذري ، وعقبه من ابنه زيد وعليّ وموسى وعبد الله ؛ ومن بني علي بن جعفر الثالث أبو عليّ المحمّديّ (رضي الله عنه) في البصرة ، وهو الحسن بن الحسين بن العبّاس بن عليّ بن جعفر الثالث ، وهو صديق عمر .

وينقل عن أبي نصر البخاريّ أن نسب المحمّديّة الصحيح ينتهي إلى ثلاثة : زيد الطويل بن جعفر الثالث ، وإسحاق بن عبد الله بن رأس المذري ، ومحمّد بن عليّ بن عبد الله بن رأس المذري ؛ ومن بني محمد بن عليّ بن إسحاق بن رأس المذري السيّد الثقة أبو العباس عقيل بن الحسين بن محمد المذكور ، وكان فقيهاً ومحدثاً وراوية ، وله كتاب الصلاة ، وكتاب مناسك الحجّ وكتاب الأمالي ، قرأ عليه الشيخ عبد الرحمن المفيد النيشابوري ، وله عقب بنواحي اصفهان وفارس ؛ ومن أبناء رأس المذري القاسم بن عبد الله بن رأس المذري الفاضل المحدّث ، وولده الشريف أبو محمّد عبد الله بن القاسم .

وأمّا عليّ بن محمّد بن الحنفيّة فأولاده : أبو محمّد الحسن بن علي المذكور ، وكان رجلاً عالماً فاضلاً ، ادّعى الكيسانيّة له الإمامة وأنّه أوصى لابنه عليّ ، واتّخذه الكيسانيّة ، إماماً بعد أبيه ، وأمّا أبو هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفيّة فهو إمام الكيسانيّة ، وانتقلت البيعة منه إلى بني العبّاس ، فانقرضت ؛ ويقول أبو نصر البخاريّ إنّ المحمّديّة كانوا رؤساء في قزوين ، وعلماء في قمّ ، وسادة في الريّ .

أبناء أبي الفضل العبّاس بن عليّ (عليهما السلام) : أعقب العبّاس (عليه السلام) من ابنه عبيد الله ، وانتهى عقب عبيد الله بابنه الحسن بن عبيد الله ، وأعقب الحسن من خمسة أبناء : ١ ـ عبيد الله وكان قاضي الحرمين وأميراً على مكّة والمدينة ، ٢ ـ العبّاس الخطيب الفصيح ، ٣ ـ حمزة الأكبر ، ٤ ـ إبراهيم الجردقة ، ٥ ـ الفضل .

أمّا الفضل بن الحسن بن عبيد الله فكان رجلاً فصيحاً لسناً شديداً في الدين عظيم الشجاعة ، وعقبه من ثلاثة أبناء : جعفر والعبّاس الأكبر ومحمد ، ومن أولاد محمّد بن الفضل أبو العباس الفضل بن محمّد الخطيب الشاعر ، ومن أشعاره في رثاء جدّه العبّاس (عليه السلام) قال :

إنّي لأذكر للعبّاس موقفه ... بكربلاء وهامُ القوم تختطف
يحمي الحسينَ ويحميه على ظمأ ... ولا يولّي ولا يثني فيختلف
ولا أرى مشهداً يوماً كمشهده ... مع الحسين عليه الفضل والشرف
أكرم به مشهداً بانت فضيلته ... وما أضاع له أفعاله خلف

وكان للفضل ابن ، وأمّا إبراهيم الجردقة فكان من الفقهاء والأدباء والزهّاد ، وعقبه من ثلاثة أبناء : حسن ومحمّد وعلي .

وأمّا عليّ بن الجردقة فكان واحداً من أسخياء بني هاشم ، وكان ذا جاه ، توفّي سنة أربع وستين بعد المئتين ، وكان له تسعة عشر ولداً أحدهم عبيد الله[1] بن إبراهيم الجردقة ، يقول الخطيب البغدادي : إنّ كنيته أبو عليّ ، وهو من أهل بغداد ، قدم مصر وسكن فيها ، عنده كتب موسومة بالجعفريّة فيها فقه أهل البيت يروي على المذهب الشيعي ، توفّيّ في مصر سنة اثني عشرة وثلاثمئة .

وأمّا حمزة بن الحسن بن عبيد الله بن العباس فكان يكنّى بأبي القاسم ، وكان شبيهاً بأمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو من كتب له المأمون بخطّ يده : « يعطى الحمزة بن الحسن ، شبيه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب مئة ألف درهم » .

ومن نسله محمد بن عليّ بن الحمزة نزيل البصرة ، الذي كان يروي الحديث عن الإمام الرضا (عليه السلام) وغيره ، وكان رجلاً عالماً وشاعراً ، ويقول الخطيب البغدادي في تاريخه : إنّ أبا عبدالله محمّد بن عليّ بن الحمزة بن الحسن بن عبيد الله بن العبّاس بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) واحد من الأدباء والشعراء ، وعالم برواية الأخبار ، يروي عن أبيه وعن عبد الصمد بن موسى الهاشمي وغيرهما ؛ ويروي عن عبد الصمد بأسناده عن ابن عبّاس قال : إذا غضب الله تعالى على قوم ـ ولم يعجّل لهم بعذاب كالريح وعذابات آخر يهلكهم بها ـ خلَقَ لتلك الأمم خلقاً لا يعرفون الله يعذّبونهم .

ومن بني الحمزة أيضاً أبو محمد القاسم بن الحمزة الأكبر ، وكان في اليمن عظيم القدر على غاية من الجمال ، وكان صوفيّاً كما يقال .

ومنهم أيضاً أبو يعلى الحمزة بن القاسم بن عليّ بن الحمزة الأكبر ثقة جليل القدر ، كان من شيوخ النجاشي ، وذكره آخرون ، وقبره يقع قرب الحلّة .

---

(١) ينقل الشيخ رضيّ الدين عليّ أخو العلاّمة (ره) عن الزبير بن بكّار أنّ عبيد الله بن علي المذكور كان عالماً فاضلاً جواداً ، طاف الدنيا وجمع « الجعفرية » وفيها فقه أهل البيت (عليهم السلام) ، قدم بغداد فأقام بها وحدّث ، ثم سافر إلى مصر فتوفّي بها سنة ٣١٢ .

ويروي شيخنا في (النجم الثاقب) في ذكر حكايتهم أنهم بلغوا - في الغيبة الكبرى - خدمة إمام العصر (عجّل الله فرجه) ، وفيها حكاية تتعلّق بحمزة المذكور رأينا من المناسب إيرادها هنا .

حكاية تشرّف السيد مهدي القزويني بالحضور لدى إمام العصر (صلوات الله عليه) :
يروي السيّد السند والحبر المعتمد ، زبدة العلماء وقدوة الأولياء الميرزا الصالح خلف الأرشد سيّد المحقّقين ونور مصباح المتهجّدين ، وحيد عصره ، السيد مهدي القزويني طاب ثراه عن والده الماجد قال :

أخبرني والدي : وكان يلازم الخروج إلى جزيرة في جنوب الحلّة بين دجلة والفرات لإرشاد عشائر بني زبيد وهدايتهم إلى المذهب الحقّ (كانوا جميعاً على مذهب أهل السنّة ، وببركة إرشاد الوالد قدّس سرّه رجعوا جميعاً إلى مذهب الإماميّة ، أيّدهم الله ، وهم على ذلك إلى اليوم ، ويناهزون عشرة آلاف نفس) .

قال : في الجزيرة مزار معروف بقبر الحمزة بن الكاظم (عليه السلام) يزوره الناس ويروون عنه كرامات كثيرة ؛ ويقيم حول هذه القرية مئة أسرة تقريباً .

ذهبت إلى الجزيرة وعبرت من هناك دون أن ازوره ، ذلك انه كان قد بلغني على وجه الصحّة أنّ الحمزة بن موسى الكاظم (عليهما السلام) مدفون في الريّ مع عبد العظيم الحسني ، ثم خرجت دون توقّف ، وكنت ضيفاً على أهل القرية فدعوني إلى زيارة المرقد المذكور فامتنعت قائلاً بأني لا أزور مزاراً لا أعرفه ، وتضاءلت رغبة الناس في الذهاب إلى هناك بسبب إعراضي عن زيارة المزار ؛ ثم غادرتهم وبقيت ليلتي في المزيديّة عند بعض السادة هناك ، وعند السحر قمت من أجل نافلة الليل ، والاستعداد للصلاة ، ولما فرغت من أداء النافلة وجلست مشتغلاً بالتعقيب في انتظار طلوع الفجر إذا بسيّد يدخل عليّ ، وكنت أعرفه بالصلاح والتقوى ، وكان من سادة تلك القرية ، فسلّم وجلس ، ثم قال : يا مولانا كنت أمس ضيفاً على أهل قرية الحمزة ، ولم تقم بزيارته ! قلت : أجل ، قال : ولمه ؟ قلت : لأنّي لا أزور مزاراً لا أعرفه ، والحمزة بن الكاظم (عليه السلام) مدفون في الريّ ؛ فقال : « ربّ مشهور لا أصل له » ذلك ليس قبر الحمزة بن موسى الكاظم (عليه السلام) ، ولو أنّ هذا هو المشهور ، بل إنه قبر أبي يعلى الحمزة بن القاسم العلويّ العبّاسيّ ، أحد علماء الإجازة وأهل الحديث ، وقد ذكره أهل الرجال في كتبهم وأثنوا عليه بالعلم والورع ؛ فقلت في نفسي : هذا من عوامّ السادة ، وليس من المطّلعين على علم الرجال والحديث ، فلعلّه أخذ هذا الكلام عن بعض العلماء ؛ ثم نهضت أرقب طلوع الفجر ، ووقف السيّد وانصرف ، وغفلت عن سؤاله عمّن أخذ هذا الكلام .

ولّما طلع الفجر قمت إلى الصلاة ، وجلست بعد فراغي منها للتعقيب حتّى طلوع الشمس وكان معي عدد من كتب الرجال فنظرت فيها فإذا الأمر كما ذكر ؛ ثم إنّ أهل القرية قدموا لرؤيتي وكان بينهم ذلك السيّد ، فقلت له : لقد قدمت إليّ وأخبرتني أن قبر الحمزة هو قبر أبي يعلى الحمزة بن القاسم العلوي ، فممّن قلت ذلك ، وممّن أخذته ؟ فقال : والله لم أقدم إليك قبل هذه الساعة ، وقد قضيت ليلتي خارج القرية ، في مكان ذكر اسمه ، فسمعت بقدومك فجئت اليوم لزيارتك .

فقلت لأهل القرية : يجب عليّ أن أعود لزيارة الحمزة ، فلست أشكّ في أنّ الشخص الذي رأيته كان صاحب الأمر (عليه السلام) .

ثم ركبت مع أهل القرية جميعهم لزيارته ، ومنذ ذلك اليوم اشتهر ذلك المزار وشاع أمره حتى أنّ الرجال تشدّ إليه من أمكنة بعيدة .

يقول المؤلف : يقول الشيخ النجاشي في (الرجال) : الحمزة بن القاسم بن عليّ بن الحمزة بن الحسن بن عبيد الله بن العبّاس بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أبو يعلى : ثقة جليل القدر من أصحابنا ، كان يروي أحاديث كثيرة ، له كتاب في ذكر من رووا عن جعفر بن محمّد (عليه السلام) ، ويعلم من كلمات العلماء والأسانيد أنّه من علماء الغيبة الصغرى ، وكان معاصراً لوالد الصدّوق عليّ بن بابويه ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وأمّا العبّاس بن الحسن بن عبيد الله بن العبّاس ، وكنيته أبو الفضل ، فقد كان خطيباً فصيحاً وشاعراً بليغاً ؛ وكان صاحب مكانة عند هارون الرشيد ؛ قال أبو نصر البخاري : « ما رئي هاشميّ أخضب لساناً منه » ، وقال الخطيب البغدادي : أبو الفضل العبّاس بن الحسن ، هو أخو محمّد وعبيد الله والفضل والحمزة ، وهو من أهل مدينة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، قدم بغداد أيّام هارون الرشيد وأقام بها بصحبة هارون ، وصحب المأمون بعده ، وكان رجلاً عالماً وشاعراً فصيحاً ، يزعم أكثر العلويّين أنّه كان أشعر بني طالب ، ثم روى الخطيب بسنده عن الفضل بن محمّد بن الفضل أنّه قال : قال عمّي العبّاس :

لا قيمة لرأيك في كل أمر ما لم تعدّه للأمور المهمّة ومالك لا يغني كلّ الناس منا لم تخصّصه لأهل الحقّ فيه ، وكرامتك لا تكفي الجميع ما لم تقصد بها أهل الفضل .

والعبّاس بن الحسن المذكور أعقب من أربعة أبناء هم : أحمد ، وعبيد الله ، وعليّ وعبد الله ؛ ويقول أبو نصر البخاريّ : إن عقبه من عبد الله بن عبّاس لا غيره ، وعبد الله بن عبّاس كان شاعراً فصيحاً ذا حظوة عند المأمون يدعوه الشيخ ابن الشيخ ، ولمّا توفيّ وبلغ خبر وفاته المأمون قال : « استوى الناس بعدك يا بن عبّاس » ، وشارك في تشييعه .

وكان لعبيد الله بن عبّاس ولد اسمه الحمزة ، قدم أولاده إلى طبريّة الشام ومنهم : أبو الطيّب محمّد بن الحمزة وكان صاحب مروءة وسماحة وصلة رحم ، وكثرة معروف ، وفضل كثير ، وجاه واسع ، وكان في طبرية ذا أملاك ومياه وأموال ، حتى حسده ظفر بن خضر الفراعي فجهّز جيشاً أرسله لاغتياله ، وتمّ له ما أراد ، واستشهد عبد الله في بستانه بطبريّة في شهر صفر من السنة الحادية والتسعين بعد المئتين ، ورثاه الشعراء ، وسلالته بقيت في طبريّة ويدعون ببني الشهيد .

وأما عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس فكان قاضي قضاة الحرمين ، أعقبه أولاده بنو هارون بن داود بن الحسين بن عليّ بن عبيد الله المذكور ، وبنو هارون المذكور قدموا إلى دمياط ، ومن أولاده أيضاً القاسم بن عبد الله بن الحسن بن عبيد الله المذكور صاحب أبي محمد الحسن العسكري (عليه السلام) ، والقاسم هذا كان ذا شأن ومنزلة في المدينة ، وسعى في الصلح بين بني عليّ وبني جعفر ، وكان أحد أصحاب الرأي واللسان .

عمر الأطرف بن أمير المؤمنين (عليه السلام) وأبناؤه : وكنيته أبو القاسم ، ويقال له الأطرف لكون نسبه الشريف يتّصل بطرف واحد ، أما عمر بن عليّ بن الحسين فيقال له عمر الأشرف لاتّصال نسبه الشريف من طرفين ؛ وأمّه صهباء التغلبيّة وهي أم حبيب بنت عبّاد بن ربيعة بن يحيى من سبي اليمامة ، وعلى قول : من سبي خالد بن الوليد من عين التمر اشتراها أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان عمر وأخته رقيّة توأمين ، وهو آخر أولاد أمير المؤمنين (عليه السلام) وكان صاحب لسان ، فصيحاً جواداً عفيفاً .

قال صاحب العمدة : « ولا تصحّ رواية من روى أنّ عمر حضر كربلاء وكان أوّل من بايع عبد الله بن الزبير ، ثم بايع بعده الحجّاج » .

أقول : سيأتي عند الحديث عن أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) أن الحجّاج أراد ان يشرك عمر مع الحسن بن الحسن في صدقات أمير المؤمنين (عليه السلام) فلم يفلح ، وكانت وفاة عمر في ينبع في سنّ السابعة والسبعين أو الخامسة والسبعين ، وشكّل أولاده جماعة كبيرة في مدن متعدّدة ، وينتهون جميعهم إلى ابنه محمّد بن عمر من أبناء أربعة : عبد الله ، وعبيد الله ، وعمر وأمّ الثلاثة خديجة بنت الإمام زين العابدين (عليه السلام) ورابعهم جعفر وأمّه أمّ ولد .

يقول الشيخ أبو نصر البخاريّ : إنّ أكثر العلماء من عقب جعفر قد انقرضوا وأما عمر بن محمد بن عمر الأطرف فأعقابه من ولدين : أبي الحمد إسماعيل ، وأبي الحسن إبراهيم ؛ وأمّا عبيد الله بن محمّد بن الأطرف صاحب العمدة فيقال إنّه صاحب قبر النذور ببغداد ، وقد دفنوه حيّاً .

أقول : إنّ صاحب قبر النذور هو عبيد الله بن محمد بن عمر الأشرف ، كما يقول الخطيب في تاريخ بغداد ، والحموي في المعجم ، ورواية الخطيب بسنده عن محمد بن موسى بن حمّاد البربري أنه قال : قلت لسليمان بن أبي الشيخ : يقولون إنّ صاحب قبر النذور هو عبيد الله بن عمر بن عليّ بن أبي طالب ، قال : ليس كذلك ، بل قبره في أرضه وملكه في ناحية الكوفة والمعروف بـ لبيّا ، وصاحب قبر النذور هو عبيد الله بن محمّد بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) ، كما أنّ الخطيب يروي عن أبي بكر الدوري عن أبي محمّد الحسن بن محمّد ابن أخي الطاهر العلويّ أنّ قبر عبيد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في أرض بناحية الكوفة تسمّى بـ لبّى .

وعلى أي حال فسيرد ذكره عند الحديث عن أبناء الإمام زين العابدين (عليه السلام) إن شاء الله ، وعقبة من عليّ بن الطيب بن عبد الله المذكور ، ويقال لهم بنو الطيب ، ومنهم أبو أحمد محمّد بن أحمد بن الطيب ، وكان سيّداً جليلاً ، وشيخ آل أبي طالب في مصر . يرجعون إليه في المشورة والرأي .

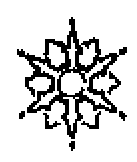
وأمّا عبد الله بن محمّد بن الأطرف فأعقابه من أربعة : أحمد ، ومحمّد وعيسى المبارك ، ويحيى الصالح ؛ فأحمد بن عبد الله والد أبي يعلى الحمزة السمّاكي النسّابة ، ووالد عبد الرحمن بن أحمد الذي ظهر باليمن .

ومحمّد بن عبد الله هو والد القاسم بن محمّد الذي أوجد السلطنة في طبرستان ، وعُرف بالملك الجليل ، كذلك هو والد أبي عبد الله جعفر بن محمّد ملك ملتاني الذي أوجد السلطنة في ملتان ، وأنجب الكثير من الأبناء ، ونما عددهم ، وكان الكثير منهم ملوكاً وأمراء وعلماء ونسّابين ، كما كان الكثير منهم على رأي الإسماعيلية ويتكلّمون الهنديّة ، ومن أولاد جعفر ملك ملتاني أبو يعقوب إسحاق بن جعفر أحد العلماء والفضلاء ، وابنه أحمد بن إسحاق صاحب الجلالة في مملكة فارس ، وابنه أبو الحسن عليّ بن أحمد بن إسحاق النسّابة ، وهو من ولاّه عضد الدولة نقابة الطالبيّين بعد عزل أبي أحمد الموسوي ، وأبو الحسن المذكور كان نقيباً للطالبيّين ببغداد أربع سنوات ، وسنّ السنن الفاضلة .

وأمّا عيسى المبارك بن عبد الله بن محمّد الأطرف فكان سيّداً شريفاً راوية للحديث ، ومن أولاده أبو الطاهر أحمد الفقيه النسّابة المحدّث ، شيخ أهل بيته في العلم والزهد ؛ وهو جدّ السيّد الشريف النقيب أبي الحسن عليّ بن يحيى بن محمّد بن عيسى بن أحمد المذكور الذي روى الشيخ أبو الحسن العمري في كتاب (المجدي) عن عليّ بن سهل التمّار عن خاله محمّد بن دهيان عنه وهو عن علاّن الكلابي الذي قال : صحبت أبا جعفر محمّداً ابن الإمام علي النقيّ بن محمد بن عليّ الرضا (عليهم السلام) وكان حديث السنّ ، فما رأيت أوقر ولا أزكى

ولا أجلّ منه ؛ وكان ابوه الإمام عليّ النقي قد تركه في الحجاز وهو لم يزل طفلاً ، ولمّا شبّ وقوي قدم السامرة ، وكان مع أخيه الإمام أبي محمّد (عليه السلام) لا يفارقه ، وكان أبو محمّد (عليه السلام) يأنس به وينقبض من أخيه جعفر .

أمّا يحيى الصالح بن عبد الله بن محمد الأطرف ، ويكنّى بأبي الحسين ، فقد سجنه الرشيد ثم قتله بعد ذلك ، وكان عقبه من اثنين أحدهما : أبو عليّ محمد الصوفي ، والآخر : أبو عليّ صاحب حبس المأمون ، وقد أعقبا كثيراً من الأبناء ، ومن أولاد الحسن بنو مراقد ومنهم من سكن النيل والحلّة ، وكانوا من النقباء ؛ ومن أولاد محمّد الصوفي الشيخ أبو الحسن عليّ بن أبي الغنائم محمّد بن عليّ بن محمّد بن محمّد الملقطة بن عليّ الضرير بن محمّد الصوفي الذي ينتهي إليه علم الأنساب في زمانه ، وكان قوله حجّة ، يلقاه الشيوخ من الكبار الأجلاّء ، كما صنّف كتب : (المبسوط) و(المجدي) و(الشافي) و(المشجر) ، وكان من سكان البصرة ، ثمّ انتقل فيها بعد إلى الموصل سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة ، وفيها اتّخذ زوجة وأنجب أبناء ، كان أبوه أبو الغنائم نسّابة أيضاً ، ويروي السيّد النسّابة الجليل فخار بن معدّ الموسويّ عن السيّد جلال الدين عبد الحميد بن تقيّ الحسينيّ ، عن ابن كلثوم عبّاس النسّابة ، عن جعفر بن أبي هاشم بن عليّ ، عن جدّه أبي الحسن العمري المذكور ؛ ويروي أيضاً السيّد جلال الدين عبد الحميد بن التقيّ ، عن الشريف أبي تمّام محمّد بن هبة الله بن عبد السميع الهاشميّ ، عن أبي عبد الله جعفر بن أبي هاشم ؛ عن جدّه أبي الحسن العمري المذكور .



الفصل السابع

في الحديث عن كوكبةٍ من أكابر أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)

الأوّل : الأصبغ بن نُباتة المجاشعيّ

رجل جليل القدر ، من فرسان العراق ، ومن خواصّ أمير المؤمنين (عليه السلام) ، « وكان رحمه الله شيخاً ناسكاً عابداً ، وكان من ذخائر أمير المؤمنين (عليه السلام) ».

ورد في كتاب الكشي عن أبي الجارود أنه قال : قلت للأصبغ بن نُباتة : ما كان منزلة هذا الرجل فيكم (يريد عليّاً (عليه السلام))؟ قال :

« ما أدري ما تقول ، إلاّ أنّ سيوفنا كانت على عواتقنا ، فمن أومأ إلينا ضربناه بها » .

ويروى أيضاً أن الأصبغ سئل : كيف سمّاك أمير المؤمنين (عليه السّلام) وأشباهك بشرطة الخميس ؟ فقال : إنّا ضمنّا له الذبح ، وضمن لنا الفتح ، أي : شرطنا له القتال معه حتى النصر أو الشهادة ، وشرط لنا الجنّة وضمنها .

ولا يخفى أن الجيش سمّي خميساً لأنّه مقسوم إلى خمسة أقسام : المقدّمة ، والساقة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب .

فإن قيل : فلان صاحب أمير المؤمنين (عليه السلام) من شرطة الخميس كان المعنى أنه من رجال جيشه الذين عقد بينه وبينهم شرطاً .

ويروى أن من عقدوا معه (عليه السلام) شرطاً كانوا ستّة آلاف رجل .

كما يروى أنّه (عليه السلام) قال لعبد الله بن يحيى الحضرميّ يوم الجمل : « أبشر ابن يحيى ، فإنّك وأبوك من شرطة الخميس حقّاً ؛ لقد أخبرني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) باسمك واسم أبيك في شرطة الخميس ، والله سمّاكم شرطة الخميس على لسان نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وورد في كتاب الميزان للذهبي أنّ علماء الرجال من أهل السنّة يعتبرون الأصبغ بن نباتة من الشيعة ، ويعتبرون حديثه ـ بناء على ذلك ـ متروكاً ؛ ونقل عن ابن حيّان أن الأصبغ رجل كان مفتوناً بمحبّة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، وأنّ الطّامّة ضربت رأسه ، لذا فقد أعرض عن حديثه . انتهى .

وإجمالاً فقد روى الأصبغ حديث عهد الأشتر ، ووصيّة أمير المؤمنين (عليه السلام) لابنه محمّد ، وقد سبقت الإشارة إلى حديثه معه (عليه السلام) بعد ضربة ابن ملجم اللعين له ، وذلك عند الحديث عن استشهاده (عليه السلام) .

الثاني : أويس القرنيّ

سهيل اليمن وشمس القرن ، من خيار التابعين ، ومن حواريّي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأحد الزّهّاد الثمانية[1] ، بل أفضلهم ، وآخر المئة الذين بايعوا أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفّين على بذل المهج في ركابه ، وقاتل معه حتى استشهد .

ويروى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال يوماً لأصحابه : « أبشروا برجل من أمّتي يقال له أويس القرنيّ ، فإنّه يشفع بمثل ربيعة ومضر » . كما شهد له (صلّى الله عليه وآله) في حديث آخر بالشهادة ودخول الجنة ؛ وقال في حديث ثالث : « تفوح روائح الجنّة من قبل القرن ، واشوقاه إليك يا أويس القرني ، ألا من لقيه فليقرئه منّي السلام » .

واعلم أن الموحّدين العرفاء كانوا يمتدحون أويساً كثيراً ويدعونه بسيّد التابعين ، ويقال إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يدعوه روح الرحمن ، وخير التابعين ، ويقول (صلّى الله عليه وآله) : « إنّي لأنشق روح الرحمن من طرف اليمن » .

ويقال إنّ أويساً القرنيّ كان يمتهن رعي الإبل ، وينفق من أجره على أمّه ، فطلب منها الإذن يوماً بالقدوم إلى المدينة وزيارة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأذنت له شريطة ألا يتوقّف هناك أكثر من نصف يوم ، فتوجّه إلى المدينة ، ولما بلغ بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شاء القدر أن يكون الرسول (صلّى الله عليه وآله) خارج البيت ، فاضطرّ أويس إلى الرجوع إلى اليمن دون أن يفوز برؤية الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، بعد أن جلس ساعة أو ساعتين في انتظاره ؛ فلمّا رجع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : ما هذا النور

---

(١) الزهّاد ثمانية : الربيع بن خثيم ، والهرم بن حيّان ، وأويس القرني ، وعامر بن عبد قيس ، وأبو مسلم الخولاني ، ومسروق بن الأجدع ، والحسن بن أبي الحسن ، والأسود بن يزيد ؛ والأربعة الأول من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وكانوا من الزهّاد الأتقياء ، والأربعة الأخر ليسوا كذلك .

الذي أراه ؟ قيل : إنّه جمّال يقال له أويس ، قدم وذهب ؛ فقال : لقد ترك لنا هذا النور هديّة ومضى .

وعن كتاب (تذكرة الأولياء) أنّه كان يضع (خرقة) رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حسب تعليمات أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وفي أيام عمر جعل عمر يطلبه فأتوا به إلى أويس فإذا به يراه عارياً إلاّ من ثوب من الوبر يستره ، فجعل عمر يمتدحه ويظهر زهده ويقول : من هذه الخلافة يشتريها مني برغيف ؟ قال أويس : وهل يرضى بهذه التجارة ذو عقل ؟ إن قلت صدقاً فدعها عنك لمن أرادها وامض ، قال عمر : فادع لي ، قال : فأنا في كلّ صلاة أدعو للمؤمنين والمؤمنات ، فإن كنت مؤمناً نالك دعائي ، وإلاّ فلن أضيّعه .

يقال إن أويساً القرني كان في بعض الليالي يقول : الليلة ليلة الركوع ، ويركع حتى يوافيه الصبح بركعة واحدة ، وكان يقول في أخرى : الليلة ليلة السجود ، ويسجد حتى يوافيه الصبح في سجدته ؛ فقيل له : ما هذه المشقة التي تحمّلها نفسك ؟ قال : ليت ما بين الأبد والأزل ليلة واحدة فأقضيها في سجدة واحدة .

الثالث : الحارث بن عبد الله الأعور الهَمْداني[1]

من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن محبّيه ، يقول القاضي نور الله : ورد في تاريخ اليافعي أن الحارث كان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وصحب عبد الله بن مسعود ، كان فقيهاً ، وذكر حديثه في كتب السنن الأربعة ، وعن ميزان الذهبي أنّه من كبار علماء التابعين ، وينقل عن ابن حيّان أنه كان مغالياً بالتشيّع ، وعن أبي بكر بن أبي داود ـ وهو من علماء أهل السنّة ـ أنّه قال : الحارث الأعور كان أفقه الناس ، وأفرض الناس ، وأحسب الناس ، أخذ علم الفرائض عن الأمير (عليه السلام) ؛ والنسائي ـ مع تشدّده في

---

(١) ليعلم أنه إذا ذكر الهَمْداني بين أصحاب أمير المؤمنين (ع) حتى أصحاب الصادق (ع) جاء اسمه بسكون الميم ، منسوباً إلى هَمْدان ، وهي قبيلة كبيرة في اليمن ، وهم من شيعة أمير المؤمنين (ع) ومحبّيه ، وقد قال فيهم (ع) :

ولو كنتُ بوّاباً على باب جنّة ... لقلتُ لهَمْدان ادخلوا بسلام

وأما بعد الإمام الصادق (ع) فإذا رئي اسم (همداني) احتمل أن يكون بفتح الميم نسبة إلى هَمَدان ، وهي مدينة بناها همدان بن فلوح بن سام بن نوح (ع) ، وفي أقصى تلك المدينة جبل الوند الذي يروى عن الصادق (ع) أن فيه ينبوعاً من ينابيع الجنّة .

وقد نقل صاحب (عجائب المخلوقات) ذلك الحديث عن الصادق (ع) ، وقال إذ ذاك : أهل همدان يقولون : هذا الينبوع هو نفسه الماء الموجود في قمّة ذلك الجبل ، وهو ماء شديد البرودة خفيف سائغ ، لا يحس شاربه بثقله ، وهو يشفي المرضى ، ويفد إليه الناس من الأطراف دون انقطاع .

رجال الحديث ـ ذكر حديثه في السنن الأربعة ، واحتجّ به ، وقوّاه .

وقد ورد في كتاب الشيخ أبي عمرو الكشي أن الحارث قدم ذات ليلة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فسأله : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال : والله إنّها محبّتك التي أقدمتنا عليك ، فقال (عليه السلام) : لتعلم يا حارث أنّه ما مات محبّ لنا إلاّ ورآنا عند موته راجياً رحمة الله ، وما مات عدّو لنا إلاّ رآنا عند موته وقد غرق باليأس والخجل .

وهذه الرواية تضمّنتها بعض أشعار ديوانه المعجز (عليه السلام) :

يا حارِ همْدانَ من يمت يرني ... من مؤمن ومنافق قُبُلا

أقول : اعلم أنّ نسب شيخنا البهائي زيد بهاؤه ينتهي إلى الحارث ، ولهذا فالشيخ البهائي يدعو نفسه أحياناً بالحارثيّ .

والحارث موضوع حديثنا هو من رأى أميرَ المؤمنين (عليه السلام) مع الخضر في النخيلة ، حيث نزل عليهما طبق من الرطب من السماء يأكلان منه ؛ أمّا الخضر (عليه السلام) فكان يرمي بالنوى ، لكنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يجمعها في كفّه . يقول الحارث : قلت له (عليه السلام) هبني تلك النوى ، ففعل ، فغرستها فأثمرت رطباً لم تقع عيني على مثله .

ويروى أن حارثاً الأعور أتى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : يا أمير المؤمنين ، أحبّ أن تكرمني بأن تأكل عندي ، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) : على أن لا تتكلّف لي شيئاً ، ودخل فأتاه الحارث بكسرة ، فجعل أمير المؤمنين (عليه السلام) يأكل ، فقال له الحارث : إنّ معي دراهم ـ وأظهرها فإذا هي في كمّه ـ فإن أذنت لي اشتريت لك ، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) : هذه ممّا في بيتك .

يعني : لا بأس ، ولا تكلّف فيه .

الرابع : حُجر بن عديّ الكنديّ الكوفيّ

من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو من الأبدال .

عن (الكامل) للبهائي أن زهد حجر وكثرة عبادته مشهوران بين العرب ، ويقال إنه كان يصلّي في اليوم ألف ركعة ، ويقول صاحب الاستيعاب في (المجالس) : كان حجر من أفاضل الصحابة مع صغر سنّه بين كبارهم ، وكان مستجاب الدعوة ، وكانت له إمارة بني كندة في حرب صفّين إلى جانب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكانت أمير جيشه (عليه السلام) يوم النهروان .

يقول العلاّمة الحلّيّ قدّس سرّه : إنّ حجراً كان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ومن الأبدال . ويذكر الحسن بن داود أنّ حجراً كان من عظماء الصحابة وأصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وقد طلب إليه أحد أمراء معاوية أن يلعن أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : إنّ أمير الوفد أمرني أن ألعن عليّاً ؛ فالعنوه لعنه الله .

وقد تذوّق حجر (رحمه الله) الشهادة بسعاية من زياد بن أبيه وحكم من معاوية بن أبي سفيان وذلك سنة إحدى وخمسين مع بعض أصحابه .

أقول : إنّ أصحاب حجر الذين قتلوا معه هم : شريك بن شدّاد الحضرمي ، وصيفيّ بن شبل الشيباني ، وقبيصة بن ضُبيعة العبسي ، ومُحرز بن شهاب المِنقَريّ ، وكِدام بن حيّان العنزيّ ، وعبد الرحمن بن حسّان العنزيّ ، وقبورهم مع القبر الشريف لحجر تقع في بلدة عذراء على بعد فرسخين من دمشق .

وقد كبر على قلوب المسلمين قتل حجر وأصحابه ، وقد أكثروا من ملامة معاوية وتوبيخه على فعلته تلك .

ويروى أن معاوية قدم على عائشة ، فقالت له : ما الذي أكرهك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه ؟ قال : يا أمّ المؤمنين ، رأيت في قتلهم صلاح الأمّة ، وفي بقائهم فساد الأمّة ، فلا جرم أنّي قتلتهم !!

قالت عائشة : سمعت رسول الله (عليه السلام) يقول : سيقتل من بعدي قوم في عذراء يغضب الله تعالى لقتلهم وأهل السماء .

ويروى أنّ الربيع بن زياد الحارثي عامل معاويه على خراسان ، لما سمع بقتل حجر دعا الله وقال : اللهم إن كان لربيع عندك قرب ومنزلة إلاّ ما عجّلت بقبض روحه ؛ فلم يتمّ كلامه حتى وقع ميّتاً .

الخامس : رُشَيد الهجري

من المتمسّكين بحبل الله المتين ، وكان من خاصّة أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وفي جلاء ذلك يقول العلاّمة المجلسي (ره) :

يروي الشيخ الكشي بسند معتبر أن ميثم التمّار ـ وهو من كبار أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأمينه على أسراره ـ مرّ يوماً بمجلس لبني أسد فاستقبله حبيب بن مظاهر ، وهو أحد شهداء كربلاء ، ووقفا يتحدّثان حديثاً طويلاً ، قال حبيب : « لكأنّي بشيخ أصلع ، ضخم البطن ، يبيع البطّيخ عند دار الرزق قد صلب في حبّ أهل بيت نبيّه ، تبقر بطنه على الخشبة » ، يريد به ميثماً .

فقال ميثم : « وكأني برجل أحمر له ضفيرتان ، يخرج لنصرة ابن بنت نبيّه ، فيقتل ويجال برأسه بالكوفة » ، يريد بذلك حبيباً ؛ وافترقا .

فلمّا سمع أهل المجلس حديثهما قالوا : ما رأينا أحداً أكذب من هذين ؛ وكان أهل المجلس ما يزالون في مجلسهم إذ أقبل عليهم رشيد الهجري ، وهو من أمناء أسرار أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فطلب صاحبيه الكبيرين ميثماً وحبيباً ، فقيل له : إنّهما افترقا بعد أن تحدّثا ساعة ، وأعادوا عليه حديثهما فقال : « رحم الله ميثماً ، إنّه نسي أن يقول : ويزاد في عطاء الذي يجيء بالرأس مئة درهم » ، ثم مضى ، فقال بعضهم : هذا والله أكذبهم

فما مضى وقت طويل حتى رأوا ميثماً مصلوباً عند باب عمرو بن حريث ، وقتل حبيب بن مظاهر مع الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء ، وطافوا برأسه في شوارع الكوفة .

ويروي الشيخ الكشي أيضاً أن أمير المؤمنين (عليه السلام) خرج يوماً مع أصحابه إلى بستان نخيل ، فجلس تحت نخلة وأمر بجمع رطب منها ، فتناولها مع أصحابه ، فقال رشيد الهجري : ما أطيب هذا الرطب يا أمير المؤمنين ، فقال (عليه السلام) : يا رشيد ، أما إنّك ستصلب على جذعها .

فكان رشيد يختلف إليها باستمرار يسقيها ، فجاءها يوماً وإذا قد قطع سعفها فقال : اقترب أجلي ! فما مضت أيام حتى أرسل ابن زياد في طلبه ، فأتاه ، وفي الطريق إليه رأى الشجرة وقد جعلوها نصفين ، فقال : هذا من أجلي ؛ ثمّ دعوه إلى الأمير ثانية ، فلمّا جاءه قال له ابن زياد : هات من كذب صاحبك ، فقال : والله ما أنا بكذّاب ولا هو ، ولقد أخبرني أنّك تقطع يديّ ورجليّ ولساني ؛ قال ابن زياد :

إذاً والله نكذّبه ، اقطعوا يديه ورجليه وأخرجوه ؛ فلمّا حمل إلى أهله أقبل يحدّث الناس بالعظائم ، فعلم ابن زياد بذلك ، فأمر بقطع لسانه . ويقال إنّه أمر بصلبه على رواية .

ويروي الشيخ الطوسي بسند معتبر عن أبي حسّان العجلي قال: لقيت أمة الله ابنة رشيد الهجري فقلت لها: أخبريني ما سمعت من أبيك، قالت: سمعت أبي يقول: سألني حبيبي أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: يا رشيد، كيف صبرك متى أرسل إليك دعيّ بني أميّة فقطع يديك ورجليك ولسانك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، آخر ذلك إلى الجنّة ؟ فقال : أجل ، وأنت معي في الدنيا والآخرة . ثمّ قالت : فوالله ما ذهبت الأيّام حتّى أرسل إليه ابن زياد الدعيّ فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فأبى أن يبرأ منه ، فقال له الدعيّ : فبأيّ ميتة قال لك تموت ؟ فقال له : أخبرني خليلي أنّك تدعوني إلى البراءة منه فلا أبرأ ، فتقدّمني فتقطع يديّ ورجليّ ولسانيّ ، فقال : والله لأكذّبن قوله ، ثم

قال : اقطعوا يديه ورجليه واتركوا لسانه ، ففعلوا . فحُملت أطراف يديه ورجليه ، فدنوت منه فقلت : يا أبه ، هل تجد ألماً لما أصابك ؟ فقال : لا يا بنتي إلاّ كالزحام بين الناس .

ولمّا اجتمع الناس والجيران حوله يعودونه ويألمون لما أصابه ، ويبكون ، فقال لهم أبي : دعوا البكاء وآتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة ، وتحدّث وكتبوا ، فلما بلغ الدعيَّ ذلك ، وأنّ رشيداً يكاد يفتن الناس : فقال : مولاه لا يكذب ، اذهبوا فاقطعوا لسانه ، ففعلوا ، ومات من ليلته .

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يدعوه برشيد البلايا ، وكثيراً ما كان رشيد يلقى الرجل فيقول له : أنت تموت بميتة كذا ، وأنت يجري عليك كذا ، فيكون كما يقول .

وورد في كتاب بحار الأنوار نقلاً عن كتاب الإختصاص أنّه لمّا طلب زياد أبو عبيد الله رشيد الهجري اختفى رشيد ، فجاء ذات يوم إلى أبي أراكة وهو جالس على بابه في جماعة من أصحابه (وكان أبو أراكة أحد كبار رجال الشيعة) فدخل (رشيد) منزل أبي أراكة ، ففزع لذلك أبو أراكة وخاف ، فقام فدخل في أثره ، فقال : ويحك قتلتني وأيتمت ولدي وأهلكتهم ، قال : وما ذاك ؟ قال : أنت مطلوب وجئت حتّى دخلت داري ، وقد رآك من كان عندي ؛ فقال : ما رآني أحد منهم ، قال : وتسخر بي أيضاً ؟ فأخذه وشدّه كتافاً ، ثم أدخله بيتاً وأغلق عليه بابه .

ثمّ خرج إلى أصحابه فقال لهم : إنّه خيّل إليّ أنّ رجلاً شيخاً قد دخل داري آنفاً . قالوا : ما رأينا أحداً ! فكرّر ذلك عليهم كلّ ذلك يقولون : ما رأينا أحداً ، فسكت عنهم .

ثمّ إنّه تخوّف أن يكون قد رآه غيرهم ، فذهب إلى مجلس زياد ليتجسّس ، هل يذكرونه ؟ فإن هم أحسّوا بذلك أخبرهم أنّه عنده ، ودفعه إليهم ؛ فسلّم على زياد وقعد عنده ، وكان الذي بينهما لطيف .

قال : فبينا هو كذلك إذ أقبل الرشيد على بغلة أبي أراكة ، مقبلاً نحو مجلس زياد ، فلمّا نظر إليه أبو أراكة تغيّر وجهه وأسقط في يده ، وأيقن بالهلاك .

فنزل رشيد عن البغلة ، وأقبل إلى زياد فسلّم عليه ، فقام إليه زياد فاعتنقه فقبّله ، ثم أخذ يسائله : كيف قدمت ؟ وكيف من خلّفت ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ وأخذ لحيته ، ثمّ مكث هنيئة ، ثمّ قام فذهب . فقال أبو أراكة لزياد : أصلح الله الأمير ، من هذا الشيخ ؟ قال : هذا أخ من إخواننا من أهل الشام ، قدم علينا زائراً !!

فانصرف أبو أراكة إلى منزله فإذا رشيد بالبيت كما تركه ! فقال له أبو أراكة : أمّا إذا كان عندك من العلم كلّ ما أرى فاصنع ما بدا لك ، وادخل علينا كيف شئت .

أقول : كان أبو أراكة المذكور من خواصّ أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) كالأصبغ بن نُباتة ، ومالك الأشتر ، وكميل بن زياد ؛ وآل أبي أراكة مشهورون في رجال الشيعة ، وما فعله أبو أراكة لرشيد لم يكن بسبب استخفافه به ، بل كان خوفاً على نفسه ، ذلك أنّ زياداً كان يلحّ في طلب رشيد وأمثاله من الشيعة ، وكان يعذّبهم ويقتلهم ، ويفعل ذلك بكلّ من يساعدهم أو يحميهم أو يضيّفهم .

السادس : زيد بن صوحان العبديّ

ورد في (المجالس) نقلاً عن كتاب الخلاصة أن زيد بن صوحان كان من الأبدال ، وكان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكانت شهادته في موقعة الجمل .

ويروى الشيخ أبو عمرو الكشي أنه لمّا أصيب زيد وسقط عن فرسه أتى إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) ووقف على رأسه وقال : « يا زيد رحمك الله ، كنت خفيف المؤونة عظيم المعونة » فرفع زيد رأسه إليه وقال :

جزاك الله عنيّ خيراً يا أمير المؤمنين ، أما والله ما عرفتك إلاّ عارفاً بالله تعالى ، أما والله إنيّ لم أكن أقاتل أعداءك معك عن جهل ، لكني لمّا سمعت من أمّ سلمة وما جاء في حديث الغدير بحقّك عرفت كم هي وخيمة عاقبة من خذلك ، فكرهت خذلانك والتخلّي عنك لئلاّ يخذلني الله تعالى .

ويروى عن الفضل بن شاذان أن زيداً كان من رؤوس التابعين والزهّاد ، ولمّا قدمت عائشة البصرة كتبت إليه :

من عائشة زوجة النبيّ (صلّى الله عليه وآله) إلى ابنها زيد بن صوحان الخاصّ ، أمّا بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس في بيتك ، واخذل الناس عن عليّ بن أبي طالب (صلوات الله عليه) حتّى يأتيك أمري .

فلمّا قرأ زيد الكتاب ، كتب في الجواب : لقد أمرتنا بشيء نحن مأمورون بغيره ، وتركت أنت أمراً أُمرتِ به ، والسلام .

أقول : مسجد زيد أحد المساجد الشريفة في الكوفة ، ودعاؤه الذي كان يدعو به في صلاة الليل معروف ، وقد ذكرناه في (المفاتيح) .

ويروى أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال له : إنّ عضواً منك يسبقك إلى الجنّة ، وقد بترت يده في موقعة النهاوند .

السابع : سليمان بن صُرَد الخزاعي

كان اسمه في الجاهلية يساراً ، وسمّاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سليمان ، كان رجلاً جليلاً فاضلاً ، اختار الكوفة مكاناً لإقامته ، وبنى في خزاعة داراً ، وكان سيّد قومه ، شهد صفّين مع أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو من اجتمع الشيعة في بيته بعد موت معاوية ، وكتبوا إلى الحسين (عليه السلام) كتاباً يطلبون فيه قدومه (عليه السلام) إلى الكوفة ، لكنه لم يشهد الواقعة مع سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وحرم من فيض الشهادة معه ، وندم على ذلك أشدّ الندم ، ثمّ تاب وأناب ، وحزم أمره على الاشتراك في الثأر لمقتله (عليه السلام) ، وفي سنة خمس وستين قام مع المسيّب بن نجبة الفزاريّ ، وعبد الله بن سعد بن نفيل العضديّ ، وعبد الله بن وال التميميّ ، ورفاعة بن شدّاد البجليّ ، وجماعة آخرين من شيعة الكوفة يقال لهم التوّابون ، قاموا للثأر لدم الإمام الحسين (عليه السلام) من قتلته من بني أميّة وتوجهوا بجمعهم نحو الشام .

وفي عين وردة ، وهي مدينة من بلاد الجزيرة ، التقوا بجيش الشام وقوامه ثلاثون ألفاً ، وكان بقيادة ابن زياد ، والحصين بن نمير ، وشراحيل بن ذي الكلاع الحميريّ : وكان الجيش مقبلاً من الشام لقتال الشيعة ، وجرت بين الفريقين معركة كبيرة ، واستشهد سليمان بسهم سدّده إليه الحصين بن نمير ، وقتل بعده المسيّب ، ولمّا رأى الشيعة ذلك شهروا سيوفهم دفعة واحدة ، بعد أن حطّموا أغماد سيوفهم وقد عزموا وصمّموا على الموت ، وفي تلك الحال وصلهم مدد من شيعة البصرة قوامه خمسمئة مقاتل ، وثبتوا في القتال ثباتاً مشهوداً يقولون : « أقِلْنا ربّنا تفريطنا فقد تبنا » ، حتى قتل عبد الله بن سعد مع لفيف من وجوه الشيعة ، ولمّا رأى الباقون أن لا جدوى من المقاومة لاذوا بالفرار إلى بلادهم .

وقد شرح الشيخ ابن نما كيفيّة مقتل سليمان من خلال تفصيله لمعركة الثأر ، ختمه بقوله :

« فلقد بذل في أهل الثأر مهجته ، وأخلص لله توبته ؛ وقد قلت هذين البيتين حيث مات مبرّأ من العيب والشين :

قضى سليمان نحبه فغدا ... إلى جنان ورحمة الباري
مضى حميداً ببذل مهجته ... وأخذه للحسين بالثار

وفي حديث المفضّل استفاضة في مدحه رحمه الله .

الثامن : سهل بن حُنيف الأنصاريّ

أخو عثمان بن حنيف ، وسيأتي ذكره مع أجلّاء الصحابة والأحبّة المخلصين لأمير المؤمنين (عليه السلام) إن شاء الله .

شهد بدراً وأحداً ، وأظهر شجاعة وبطولة في أحد ، ولازم أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفّين ، وتوفّي بعد العودة من صفّين .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : « لو أحبّني جبل لتهافت » ، ذلك لما يلقاه محبّ أهل البيت (عليهم السلام) من بلاء وامتحان .

وبعد وفاته رحمه الله كفّنه ببرد من الحبر الأحمر ، وكبّر في الصلاة عليه خمساً وعشرين تكبيرة ، وقال : لو كبّرت عليه سبعين مرّة لكان أهلاً لذلك .

وقد أورد صاحب (الاستيعاب) في (المجالس) أنه شهد جميع غزوات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وفي وقعة أحد ، حيث فرّ أكثر الصحابة ، ثبت مختاراً يرمي أعداء الرسول (صلّى الله عليه وآله) بسهامه ، ويذود عن حرمه ؛ وانتظم بعد أحد في سلك أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فاستخلفه على المدينة عند خروجه لحرب الجمل ، وشهد صفّين مجاهداً ، وولي حكومة فارس فترة ثم عزل عنها بسبب خلاف مع أهلها ، حيث وليها زياد بعده .

التاسع : صعصعة بن صَوْحان العبديّ

ذكر في كتاب الخلاصة في (المجالس) أنّه كان من كبار أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله إنه لم يكن بين أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) من يعرف حقّ إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) إلّا صعصعة وأصحابه ، وعليه يقول ابن داود : يكفيه هذا من علوّ القدر والشرف .

وورد في كتاب (الاستيعاب) أن صعصعة بن صوحان العبدي أسلم في عهد رسول الله لكنّه ـ لمانع ما ـ لم يره ، وكان من كبار قومه بني عبد القيس ، وكان خطيباً فصيحاً لَسِناً ، متديّناً فاضلاً بليغاً ، وكان هو وأخوه زيد بن صوحان في زمرة أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ويروى أن أبا موسى الأشعري ـ وكان عاملاً لعمر ـ أرسل ألف ألف درهم إلى عمر ، فقام عمر بقسمة المال على المسلمين ، وفضلت منه بقيّة ، فقام عمر وخطب في القوم فقال : اعلموا أنه فضل من هذا المال ـ بعد أداء حقوق الناس ـ فضلة ، فماذا ترون فيها ، فوقف

صعصعة ـ وكان لا يزال فتى أمرد ـ وقال : يا أمير المؤمنين ، إن الشورى لا تصحّ في شيء يجب عمله ونـزل القرآن في بيـان حكمه ، ومـا بيّن لـك القرآن مـوضعه فضعـه في موضعـه ؛ فقال عمر : نطقت حقّاً ، فأنت منّي وأنا منك ؛ ثم قسم تلك البقية بين المسلمين . ويروي الشيخ أبو عمر والكشي أن صعصعـة لمّا مـرض أتاه أمير المؤمنين (عليـه السلام) يعـوده في مرضـه ، فأحسّ منه افتخاراً بذلـك فقال لـه : يا صعصعـة ، لا تذهبنّ نفسـك إلى الفخر ، وتـذلّل لله عزّ وجلّ ، فقال صعصعة : بلى والله ، أعلم أنّ الله عزّ وجلّ قد أكرمني بك بفضله ومنّه .

ويروى أنّه لمّا قدم معاوية الكوفة أمر أن يحضر إليه في مجلسـه نفر ممّن كـان الإمام الحسن (عليه السلام) قـد أخذ لهم الأمـان منه ، وكـان صعصعة بينهم ، فلما دخـل المجلس قال لـه معاوية : أما والله يا صعصعة لم أكن أريدك في أماني ، فقال له : أما والله لم أكن أريد خطابك باسم الخلافة ، ثمّ سلّم عليه باسم الخلافة ، وجلس .

قال معاوية : لو كنت صـادقاً في قـولك فـاصعد المنـبر والعن عليّاً فتـوجّه صعصعـة إلى المسجـد ، وصعد عـلى المنـبر ، ثم حمـد الله وأثنى عليـه ، وصـلّى عـلى رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله) وقال :

أيّها الناس ، قدمت من عند رجل تقدّم شرّه وأبطأ خيره ، وقـد أمرني بلعن عـليّ بن أبي طالب ، فالعنوه لعنه الله ، فقال أهل المسجد : آمين .

ثم عاد إلى معاوية وأبلغه بما فعله على المنبر ، فقال معاوية : أمـا والله ما قصدت بلعنك سواي ، عد إلى المسجد والعن عليّاً بصراحة ، فعاد صعصعة وصعد المنبر وقال : أمرني معاوية أن ألعن عليّ بن أبي طالب ، فأنا ألعن من لعن عليّ بن أبي طالب ، فقال الحاضرون : آمين .

ولمّا بلغ معاوية ما جرى عرف أنّه لن يلعن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فأمر بإخراجه من الكوفة .

العاشر : ظالم بن ظالم أبو الأسود الدؤليّ البصريّ

من شعراء الإسلام ، ومن شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، شهد صفّين ، وهو من وضع علم النحو بعد أن أخذ أصوله عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهـو من وضع النقـاط لحروف القرآن الكريم أيام زياد بن أبيه .

بعث له معاويـة هديـة منها بعض الحلوى يغـريه بهـا للانحـراف عن ولائه لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكانت له ابنة في الخامسة أو السادسة ، فتناولت بعضاً من الحلوى ، فقال لها أبوهـا : أي بنيّة ، إن معـاوية بعث لنـا بهذه الحلوى يغـرينا بهـا كي نتخلّى عن ولائنـا لأمير

المؤمنين (عليه السلام) ، فقالت : قبحه الله ، يخدعنا عن السيّد المطّهر بالشهد المزعفر ، تبّاً لمرسله وآكله ، ثم عالجت نفسها كي تقيء ما أكلته ، وأنشدت :

أبالشهد المزعفر يا بن هند نبيع عليك أحساباً ودينا
معاذ الله ! كيف يكون هذا ومولانا أمير المؤمنينا

توفي أبو الأسود بالطاعون سنة تسع وستين عن خمسة وثمانين عاماً في البصرة ، وقد ذكر ابن شهراشوب وجماعة غيره أشعاراً له في رثاء أمير المؤمنين (عليه السلام) مطلعها :

ألا يا عين جودي فاسعدينا ألا فابكي أمير المؤمنينا

وكان أبو الأسود شاعراً طليق اللسان ، وكان سريع الجواب ، وقد روى الزمخشري أن زياد بن أبيه سأل أبا الأسود : كيف أنت في محبّتك لعليّ ؟ قال : كما أنت في محبّتك لمعاوية ، غير أنّي أريد ثواب الآخرة وتريد حطام الدنيا ، ومثلي ومثلك كمن وصفهما عمرو بن معدي كرب :

خليلان مختلف شأننا أريد العلاء ويهوى السمن
أحبّ دماء بني مالك وراق المعلّ بياض اللبن

كما يروي الزمخشري عنه هذين البيتين :

أمفنّدي في حبّ آل محمّد حجرٌ بفيك فدع ملامك أو زد
من لم يكن بحبالهم مستمسكاً فليعترف بولادة لم ترشد

الحادي عشر : عبد الله بن أبي طلحة

من أفاضل أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو من دعا له رسول الله وهو بعد جنين ، أمّه هي أمّ أنس بن مالك ، وكانت أفضل نساء الأنصار ، ولمّا قدم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المدينة راح الجميع يقدّمون له الهدايا ، فأخذت أمّ أنس بيد ابنها أنس وقدمت إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقالت : إني لا أملك شيئاً يا رسول الله ، فهذا ابني اقبله هدية منّي يكن خادماً لك ، فقبل الرسول (صلّى الله عليه وآله) هديّتها ، وأضحى مالك مذ ذاك في خدمته .

وبعد مالك أبي أنس اصبحت أمه زوجاً أبي طلحة ، وكان من خيار الأنصار قوّاما بالليل صوّاماً بالنهار ، وكان له ملك يعمل فيه ، وأعطاه الله ولداً من أمّ أنس ، وكان معتلاً ، وكان أبو طلحة إذا قدم داره ليلاً سأل عنه ، وتفقّده ، وذات يوم توفي الولد ، ولما قدم والده وسأل

عنه جري عادته قالت أمّه : الولد الليلة في راحة وسكون ! سرّ أبو طلحة ، وواقع زوجه في تلك الليلة .

وفي الصباح قالت أمّ الطفل لزوجها : ما قولك بقوم أخذوا شيئاً عارية من جيرانهم ، واستخدموا عاريتهم ، فلما استعادها أصحابها راحوا يبكون ؟ قال : هم والله مجانين ، قالت : احذر إذاً أن تكون منهم ، فولدك قد توفي ، وكان عارية استوفاها الله ، فاصبر وسلّم أمرك إليه ، وقم إلى دفن الولد .

قصّ أبو طلحة هذه الواقعة على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأعجب بتلك المرأة ودعا لها ولزوجها بقوله : « اللهم بارك لهما في ليلتهما » ، وحملت الأمّ من تلك الليلة بعبد الله ؛ ولّما ولد عبد الله لفتّه امّه بخرقة وطلبت إلى أنس أن يأخذه إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأخذ الرسول (صلّى الله عليه وآله) بوجهه ودعا له ، فلا جرم أنّه غدا من أفضل أبناء الأنصار .

الثاني عشر : عبد الله بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعيّ

يقول القاضي نور الله نقلاً عن كتاب (الاستيعاب) : إنّ عبد الله وأباه أسلما قبل فتح مكّة ، وقد شبّ في خزاعة ، وكانت خزاعة عَيْبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، شهد وقعة حنين والطائف وتبوك ، وكان على درجة رفيعة من القدر والعظمة ؛ استشهد في حرب صفّين مع أخيه عبد الرحمن ، وكان عبد الله إذ ذاك أميراً على مشاة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ومن أكابر أصحابه ؛ وعن الشعبي أن عبد الله بن بديل كان يقاتل في صفّين وعليه درعان ، وبرز يحمل سيفين وهو ينشد :

لم يبق غير الصبر والتوكّل ... والترس والرمح وسيف مصقل
ثمّ التمشّي في الرعيل الأوّل ... مشي الجمال في حياض المنهل

وحمل ابن بديل يضرب بسيفه ويشقّ الصفوف إلى معاوية حتى بلغه وقد تفرّقت الجموع عنه ، فصاح بهم : ويلكم ، الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح ، فرضخه الناس بالصخر والحجارة حتى أثخنوه فسقط ، فأقبلوا عليه بسيوفهم فقتلوه .

وجاء معاوية ومعه عبد الله بن عامر ، فوقف عليه ، وكشف ابن عامر عن وجهه ، وترحّم عليه ، وأراد معاوية أن يمثّل به ، فأقسم ابن عامر أنّ هذا لن يكون طالما روحه بين جنبيه ، فقال معاوية : اكشفوا عنه فإنّا لا نمثّل به ، قد وهبناه لعبد الله بن عامر ، فلما نظر إلى وجهه قال : هذا كبش القوم وربّ الكعبة ! اللهمّ أظفرني بالأشتر والأشعث بن قيس ، فليس مثل هذا بين القوم غيرهما ، ثم قال :

إنّ نساء خزاعة لو قدرت على أن تقاتلني ، فضلاً عن رجالها ، لفعلت .

أقول : ينتهي إلى عبد الله بن بديل نسب الشيخ الإمام سعيد قدوة المفسّرين ، ترجمان كلام الله المجيد الحسين بن علي بنّ محمّد بن أحمد الخزاعي المشهور بالشيخ أبي الفتوح الرازي ، صاحب (روض الجنانّ في تفسير القرآن) ، وجدّه محمّد بن أحمد ، وجدّ جدّه أحمد ، وعمّ أبيه عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين الخزاعي النيسابوري نزيل الريّ ، المشهور بالمفيد النيسابوري ، وابنه أبو الفتوح محمّد بن الحسين ، وابن أخته أحمد بن محمّد ، كانوا جميعاً من العلماء الأفاضل .

وهو رحمه الله معدن العلم ومحتده .

شرف تتابع كابراً عن كابر كالرمح أنبوباً على أنبوب

وهذا الرجل الكبير من مشايخ ابن شهر آشوب ، ويقع قبره الشريف إلى جوار عبد العظيم في الريّ ، في صحن ابن الإمام حمزة .

الثالث عشر : عبد الله بن جعفر الطيّار

ورد في (المجالس) أنه أوّل مولود من أهل الإسلام يولد في الحبشة ، وقدم المدينة مع أبيه بعد هجرة النبي (صلّى الله عليه وآله) ، وفاز بملازمة صاحب الرسالة ، ويذكر عن عبد الله قوله : أنا أحفظ حين دخل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على أمّي فنعى لها أبي ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي وعيناه تهراقان الدموع حتّى تقطّرت لحيته ، ثم قال :

« اللهمّ إنّ جعفراً قد قدم إليك ، أحسن الثواب ، فاخلفه في ذرّيّته بأحسن ما خلّفت أحداً من عبادك في ذرّيّته » .

وبعد ثلاثة أيام أتانا (صلّى الله عليه وآله) في بيتنا فعزّانا وواسانا ودعا لنا ، وقال لأمّي أسماء بنت عميس : لا تغتمّي فأنا وليّهم في الدنيا والآخرة .

ونشأ عبد الله كريماً جواداً حليماً عفيفاً ، بلغ من سخائه أنه كان يقال له : « بحر الجود » ، ويروى أنّ بعضهم عاتبه على كثرة سخائه فقال : سخوت حتى اعتاد الناس على العطاء ، وأخشى إن قطعت عنهم عطائي أن يقطع الله عنّي عطاءه .

ويروي ابن شهر آشوب أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مرّ يوماً بعبد الله بن جعفر وهو طفل يلعب ، ويصنع بيتاً من الطين ، فسأله : لماذا تصنع هذا ؟ قال : أبيعه ، قال : وما تصنع بثمنه ؟ قال : أشتري الرطب وآكلها ، فقال له (صلّى الله عليه وآله) : « اللهمّ بارك له في صفقته » .

قال عبد الله : فما بعت شيئاً ولا اشتريت شيئاً إلاّ بورك لي فيه .

وقد أعطاهم الله من المال ما بلغوا معه مضرب المثل في الجود والعطاء ، وكان أهل المدينة إذا اقترضوا شيئاً يعدون المقرض بالقول : سنؤدي لك قرضك عند عطاء عبد الله بن جعفر ؛ ويروى أن الناس كانوا يلومونه على كثرة جوده وعطائه ، فكان يقول :

لست أخشى قلّة العدم ما اتّقيت الله في كرمي
كلّ ما انفقت يخلفه ليَ ربٌّ واسع النعم

أقول : الحكايات التي تروى عن جوده وسخائه كثيرة ، ومنها ما قرأته في (مروج الذهب) أنه لمّا نفدت أموال عبد الله ، أتى المسجد يوم الجمعة وطلب من الله الموت ، وقال : إلهي قد عوّدتني على الجود ، وعوّدت أنا الناس على عطاياي ، فإن شئت أن تقطع عنّي مال الدنيا فلا تبقني فيها ، فما انقضى أسبوع حتى توفّي .

وجاء في (عمدة الطالب) أن عبد الله بن جعفر توفّي سنة ثمانين للهجرة بالمدينة ، وصلّى عليه أبان بن عثمان بن عفان ، ودفن في البقيع .

وعلى قول آخر : توفّي في الأبواء سنة تسعين ، وصلّى عليه سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ودفن هناك .

وأعقب عبد الله عشرين من الأبناء ، أو أربعة وعشرين على قول ، ومنهم معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان وصيّ أبيه ، وسمّاه بذلك بالتماس من معاوية ، وهو أبو عبد الله بن معاوية الذي خرج أيام مروان الحمار سنة خمس وعشرين ومئة ، وبايعه الناس وملك على الجبل حتى سنة تسع وعشرين ومئة حين خدعه أبو مسلم المروزيّ فأخذه وحبسه في هراة ، وبقي في محبسه حتّى توفّي في سنة ثلاث وثمانين ومئة ، وقبره في هراة يزار ، ويقول صاحب (العمدة) إنّه رأى قبره سنة ست وسبعين وسبعمئة .

ومن أبناء عبد الله بن جعفر اسحاق العريضي ، وهو أبو القاسم أمير اليمن ، وكان القاسم رجلاً جليلاً ، أمّه أمّ حكيم بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر ، فالقاسم بن إسحاق إذاً ابن خالة الإمام الصادق (عليه السلام) ، وهو والد أبي هاشم الجعفريّ .

ومن أبناء عبد الله بن جعفر عليّ الزينبيّ ، وأمّه زينب بنت أمير المؤمنين (عليها السلام) . وأعقب ولدين من لبابة بنت عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب ، أحدهما محمّد الرئيس ، والآخر إسحاق الأشرف ؛ ومحمّد الرئيس والد أبي الكرام عبد الله وإبراهيم الأعرابيّ ، وهو من أجلاّء بني هاشم ، وإليه ينتهي نسب أبي يعلى الجعفري خليفة الشيخ المفيد الذي توفي سنة ثلاث وستين وأربعمئة .

ومن أبناء عبد الله بن جعفر كذلك محمّد وعون اللذان استشهدا في كربلاء ، وسيأتي ذكر شهادتهما عند الحديث عن أحوال سيّد الشهداء (عليه السلام) ، كما سيأتي في الفصل الخامس إن شاء الله الكلام الذي دار بين عبد الله وغلامه في باب مقتل ولديه وجوابه لغلامه .

الرابع عشر : عبد الله بن الخبّاب بن الأرت

من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان أبوه من المعذّبين في الله ، وأمّا هو ، فلمّا سار خوارج النهروان وعبروا موضعاً فيه نخل وماء رأوا عبد الله وقد وضع مصحفاً على عنقه يركب حماراً ومعه عياله وزوجه ، وكانت حاملاً ، فقالوا له : ماذا تقول في عليّ بعد التحكيم ؟

قال : إنّ عليّاً أعلم بالله ، وأشدّ توقّياً على دينه ، وأنفذ بصيرة .

قالوا : إنّ هذا القرآن الذي تحمله حول عنقك يأمرنا بقتلك !! ثمّ أخذوه فذبحوا به من النهر وألقوه على حافّته وذبحوه كما تذبح النعجة حتى سال دمه مع الماء ، ثم عمدوا إلى زوجه فبقروا بطنها ، وقتلوا بعض النسوة ممّن كنّ معها .

واتفق أنّ تمراً سقط من النخل على الأرض ، فالتقط أحدهم حبّة وضعها في فمه ، فصرخوا فيه : ماذا فعلت ؟ فسارع إلى رميها من فمه!

ورأوا خنزيراً فراح أحدهم يضربه ، وسارع آخر إلى قتله ، فقالوا له : هذا فساد في الأرض ، وأنكروا عليه عمله !!

الخامس عشر : عبد الله بن عبّاس

من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وتلميذ أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن محبّيه .

يقول العلاّمة في (الخلاصة) : إن حال عبد الله في الجلالة والإخلاص لأمير المؤمنين (عليه السلام) أشهر من أن يخفى ، وقد ساق الشيخ الكشّي أحاديث في القدح فيه هو أجلّ منها ، وقد أوردنا تلك الأحاديث والردّ عليها في كتاب كبير .

يقول القاضي نور الله في (المجالس) : إنّ حاصل القوادح التي تُفهم من روايات الكشّي يرجع إلى بعض أعمال ابن عبّاس ، واعتقاد مؤلف الكتاب وإيمانه ، أمّا الأجوبة التي ذُكر أنّ العلاّمة أوردها في كتاب كبير فلم تقع تحت نظرنا القاصر ، بيد أنّه سُمع من بعض الثقاة أنّ الكتاب المذكور قد فقد مع بعض متاع العلاّمة وكتبه ، وذلك في الفترة بعد وفاة السلطان المغفور له محمد خدا بنده الماضي ، حتى أنّ نسخة واحدة منه لم تقع تحت أنظار أيّ من أفاضل العصر ، ولم يعثروا لها على أثر . انتهى .

ويمتاز ابن عبّاس امتيازاً تامّاً في علم الفقه والتفسير والتأويل ، بل في الأنساب والشعر ، بسبب أنّه تتلمذ على أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وبسبب دعاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) له ، ذلك أنه أحضر الماء لاغتساله (صلّى الله عليه وآله) في بيت خالته ميمونة زوجه (صلّى الله عليه وآله) ، فدعا له وقال : « اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل » .

وكان رجلاً عالماً فصيح اللسان ذا فهم وإدراك ، وقد بعث به أمير المؤمنين (عليه السلام) ليحاجّ الخوارج ، وفي حادثة التحكيم واختيار أبي موسى قال (عليه السلام) : أنا لا أرضى بأبي موسى لهذا العمل ، عليكم بابن عبّاس ؛ كذلك ففي حرب البصرة ، ولمّا تغلّب (عليه السلام) على أصحاب الجمل أرسل ابن عبّاس إلى الحميراء يأمرها بتعجيل الرجوع إلى المدينة ، وعدم الإقامة بالبصرة ، وكانت الحميراء إذ ذاك في قصر بني خلف في جانب البصرة ، فذهب إليها ابن عبّاس وطلب الإذن بالدخول فلم تأذن له ، فدخل دون إذنها فرأى البيت خالياً من الأثاث ، وقد استترت هي خلف ستارتين ، ونظر حوله فرأى وسادة فتناولها وجلس عليها ، فقالت له من خلف الستار : « أخطأت السنّة ، ودخلت بيتنا ، وجلست على متاعنا بغير إذننا » .

قال ابن عباس : نحن أكثر منك معرفة بسنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ونحن بها أولى ، فنحن علّمناك الآداب والسنن ، وهذا ليس بمنزلك ، فمنزلك هناك حيث أسكنك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فخرجت منه ظلماً لنفسك وعصياناً لله ورسوله ، فإذا كنت في بيتك فلن ندخل عليك دون إذن ، ولن نجلس على متاعك .

ثم قال : إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يأمرك بالرجوع إلى المدينة ، والقرار في بيتك .

قالت : رحم الله أمير المؤمنين . وهو عمر بن الخطّاب .

قال : بل والله لأمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) . . . الخ .

هذا وقد عمي ابن عبّاس في أواخر عمره من كثرة البكاء على أمير المؤمنين وعلى الحسين (عليهما السلام) كما يقال ، وقال في ذلك :

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي زكيٌّ وعقلي غير ذي دَخَلٍ ... وفي لساني ما كالسيف مأثورُ

أمّا قصة حمله المال من بيت مال البصرة وذهابه إلى مكّة ، وكتابة أمير المؤمنين (عليه السلام) إليه بهذا الخصوص ، وجوابه له ، وبهذا العبارات الجسورة فأمر حيّر

المحققين ؛ فالقطب الراونديّ يقول : إنه عبيد الله بن عبّاس وليس عبد الله ، وقال آخرون : هذا لا تستقيم صحّته ، ذلك أنّ عبيد الله كان عامله على اليمن ، فما شأن البصرة ؟ علاوة عن أن أحداً لم ينقل عنه هذا الأمر .

وقال ابن أبي الحديد : لقد غدا هذا الأمر مشكلاً لديّ ، فإن نقلت التكذيب خالفت الرواة وأكثر الكتب ، وذلك لاتفاقهم على نقله ، وإن أقل إنّه عبد الله بن عباس فلا أظن ذلك الأمر فيه مع تلك الملازمة والطاعة والإخلاص لعليّ (عليه السلام) في حياته وبعد وفاته ، وإذا رفعت هذا الأمر عن ابن عباس فمن أطوّقه به ؟ وهنا فأنا متوقّف في هذا المقام .

وابن ميثم يقول : هذا مجرّد استبعاد ، فابن عبّاس لم يكن معصوماً ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) لا يخشى في الحقّ لومة لائم حتى في أعزّ أولاده عليه ، بل الواجب في هذه الأمور المزيد من الغلظة على الأقرباء ، ومنهم ابن عبّاس . انتهى .

وابن عبّاس توجّه من مكّة إلى الطائف خوفاً من ابن الزبير ، وتوفيّ سنة ثمان وستين أو تسع وستين في الطائف ، وصلّى عليه محمّد بن الحنفيّة ، وقال : « اليوم مات ربّانيّ هذه الأمّة » .

يقال إنه حين سجّي على سريره شوهد طيران أبيضان يدخلان كفنه ، فقال الناس : هذا فقهه .

السادس عشر : عثمان بن حُنَيف

أخو سهل بن حنيف ، الذي سبق الحديث في أنه من السابقين في الرجوع إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان عامله على البصرة ؛ ويروى أنّه دعي إلى وليمة أقامها أحد فتية البصرة ، وقد دعي إليها الأغنياء ، وحجب عنها الفقراء ، ولمّا بلغ هذا أمير المؤمنين (عليه السلام) كتب إليه :

« أمّا بعد يا بن حنيف فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، تُستطاب لك الألوان ، وتُنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوّ ، وغنيّهم مدعوّ . . » الخ .

وعثمان هذا هو من أتاه طلحة والزبير حين قدما البصرة ، فقتلا الكثير من جنده ، وأخذاه فضرباه ، ونتفا لحيته ، وأخرجاه من البصرة .

وبعد حرب الجمل عيّن أمير المؤمنين (عليه السلام) عبد الله بن عبّاس والياً على البصرة ، وسكن عثمان الكوفة وبقي حتى أيام معاوية بن أبي سفيان .

السابع عشر : عدّي بن حاتم الطائيّ

من محبّي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان إلى جانبه في حروبه ، وضرب بسيفه بين يديه ، سارع إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في السنة العاشرة للهجرة وأسلم .

وكان سبب ذلك أنّ جيش المسلمين أغار على جبل طيّ، وخربوا معبدهم وحطّموا صنم بيتهم وكانوا يدعونه فلساً ، كما أسروا أهله ، وفرّ عديّ نحو الشام ، وكان رأس قبيلته ، فأسروا أخته ، وقدموا بها المدينة مع الأسرى ، فلمّا رآها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكانت معروفة بصباحتها وفصاحتها قالت له : « يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ منّ الله بك » .

فسكت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولم يجبها يومين ، كما ورد في سيرة ابن هشام ، وفي اليوم الثالث ، مرّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومعه أمير المؤمنين (عليه السلام) بالأسرى ، فأشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إليها بأن تعرض حاجتها ، فأعادت قولها السابق ، فقال لها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : قد وهبناك ، فإذا مرّت قافلة تأمنين بها فأخبريني أرجعك معها إلى بلادك، قالت: أريد الذهاب إلى أخي في الشام .

ثمّ اتّفق أنّ قافلة لبني قضاعة قدمت المدينة ، فأتت البنيّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقالت : ها هنا قافلة من قومي ، وهم أهل ثقة ، فأذن لي ؛ فزوّدها بثياب وزاد وراحلة وأرسلها مع القافلة .

فلمّا قدمت الشام ولقيت أخاها قصّت عليه قصّتها وقالت : اعلم أنه لا أمان في هذه الدنيا وتلك سوى مع محمد (صلّى الله عليه وآله) ، والأفضل لك أن تسارع إليه دون تأخير .

أعدّ عديّ لسفره ، وسارع إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقدم عليه في مجلسه ، وعرّفه بنفسه ، فقام النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ومشى إلى ناحية من المجلس وعديّ في أثره ، وإذا بامرأة عجوز تتقدم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وتعرض حاجتها له ، فتوقّف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ريثما قضى لها حاجتها ، فقال عديّ في نفسه : ليس من عادة الملوك أن يدعوا شؤونهم معطّلة من أجل امرأة عجوز ، بل هي من شيم الأنبياء ، ولمّا عادوا إلى مجلسهم أظهر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لعديّ ما يستحقه من إكرام ، فهو سيّد كريم في قومه ، فأتى إلى وسادة من ليف فبسطها له وأمره بالجلوس عليها ، لكن عديّاً تنحّى جانباً ، فأبى عليه إلاّ الجلوس عليها وجلس هو على الأرض .

تلك كانت سيرته الشريفة (صلّى الله عليه وآله) مع الكفّار ، ومن يرجع ، إلى كتب السنّة والشيعة في هذا الصدد يلق الكثير من أمثال تلك الواقعة .

وإجمالاً فقد أسلم عديّ على يدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وجرياً على القول : « وبأبيه اقتدى عديّ في الكرم » فإن عدياً كان جواداً سخياً ، ويقال إن شاعراً قدم عليه وقال : يا أبا طريف ، قد قلت شعراً في مدحك ، قال : تريّث ريثما أعرّفك ما لديّ من مال ، فتمدحني على قدر عطائي ، إنه ألف ألف درهم ، وألف شاة ، وثلاثة غلمان وفرس ، والآن قل ، وإذ ذاك أنشده .

وسكن عديّ الكوفة ، وشهد مع أمير المؤمنين (عليه السلام) الجمل وصفّين والنهروان ، وأصيبت عينه في موقعة الجمل فعميت ، وتوفّي في الكوفة سنة ثمان وستين .

وفي أيام معاوية ، وكان الناس يفدون عليه ، قال معاوية لعديّ : ما صنعت يا عديّ بأبنائك فلست أراهم معك ؟ قال : قتلوا بين يدي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، قال : ما أنصفك عليّ ، قتل أولادك وأبقى أولاده ، فقال عديّ : ما أنصفتُ علياً إذ قُتل و بقيتُ ؛ قال معاوية : اعلم أنه لا تزال قطرة من دم عثمان باقية ، ولن يمحوها إلاّ دم شريف من أشراف اليمن ، قال عديّ : أقسم بربّ تلك القلوب التي ملئت غضباً منك ، ألا إنّها لا تزال في صدورنا باقية ، وتلك السيوف التي قاتلناك بها ، فهي لا تزال على عواتقنا ، فإذا تقدّمت إلينا من باب الخديعة شبراً ، دنونا منك في طريق الشرّ شبراً ، اعلم أنه لقطع الحلقوم وسكرات الموت أهون عندنا من قول سوء نسمعه في عليّ (عليه السلام) ، وإن سُلّ سيف يا معاوية شُهر سيف به .

ورأى معاوية أن المصلحة تقضي مجانبة الغضب ، فأنهى الحديث ، وطلب إلى رجاله أن يكتبوا كلام عديّ ، فهو مليء حكمة وعظة .

الثامن عشر : عقيل بن أبي طالب

أخو أمير المؤمنين (عليه السلام) وكنيته أبو يزيد ، ويقال إنّه يصغر أخاه طالباً بعشر سنوات ، وجعفر يصغر عقيلاً بعشر سنوات ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) يصغر جعفراً بعشر سنوات ، وكان أبو طالب يحبّ عقيلاً أكثر من حبّه سائر بنيه ، لهذا قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في حقّه : « إنّي لأحبّه حبّين : حبّاً له ، وحبّاً لحبّ أبي طالب له » .

يقال إنّه ليس بين العرب مثيل لعقيل في علم الأنساب ، وكانت تبسط له طنفسة في المسجد فيصلّي عليها ، ثم يحيط الناس به يستفيدون من علمه بالأنساب وأيّام العرب ، وكان إذ ذاك مكفوف البصر ، وكان عقيل مبغضاً من الناس لأنه كان مطّلعاً على حسناتهم وسيّئاتهم ، وكان معروفاً بسرعة الإجابة وشدّة العارضة .

ولما قدم عقيل إلى معاوية نصب له كراسيّه ، وأجلس جلساءه حوله . فلمّا ورد عليه سأله : أخبرني يا أبا يزيد عن عسكري وعسكر أخيك ، فقد مررت عليهما ، قال :

أخبرك ، مررت والله بعسكر أخي فإذا ليل كليل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ونهار كنهار رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلاّ أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ليس في القوم ، ما رأيت إلاّ مصلّياً ، ولا سمعت إلاّ قارئاً ؛ ومررت بعسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين ممّن نفّر ناقة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ليلة العقبة .

ثم قال : من هذا عن يمينك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه ستّة نفر فغلب عليه جزّار قريش ، (ويعني جزّار إبل قريش العاص بن وائل الذي غلب الخمسة الآخرين فاتّخذه ابناً)

ثم قال : فمن الآخر ؟ قال : الضحّاك بن قيس الفهري ، قال : أما والله لقد كان أبوه جيّد الأخذ لعسب[1] التيوس .

ثم قال : فمن الآخر : قال : أبو موسى الأشعري ؛ قال : هذا ابن السرّاقة .

فلما رأى معاوية أنّه قد أغضب جلساءه علم أنّه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءاً ، فأحبّ أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء فيذهب بذلك غضب جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول فيّ ؟ قال : دعني من هذا ، قال : لتقولنّ ، قال : أتعرف حمامة ؟ قال : ومن حمامة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام فمضى .

فأرسل معاوية إلى النسّابة فدعاه ، قال : من حمامة ؟ قال : ولي الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمامة جدّتك أمّ أبي سفيان ، كانت بغيّاً في الجاهليّة صاحبة راية .

قال معاوية لجلسائه : قد ساويتكم وزدت عليكم فلا تغضبوا .

وقال معاوية يوماً وعنده عمرو بن العاص وقد أقبل عقيل : لأضحكنّك من عقيل ، فلمّا سلّم قال معاوية : مرحباً برجل عمّه أبو لهب ، فقال عقيل : وأهلاً برجل عمّته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ؛ قال معاوية : ما ظنّك بعمّك أبي لهب ؟ قال : إذا دخلت النار فخذ على يسارك تجده مفترشاً عمّتك حمّالة الحطب ، أفناكح في النار خير أم منكوح ؟ قال : كلاهما شرّ والله .

ولقد توفّي عقيل في سنة خمسين عن ستة وتسعين عاماً .

---

(١) العسب : النسب .

التاسع عشر : عمرو بن الحَمِق الخزاعي

عبد صالح إلهيّ ، من حواريّي باب علم صاحب الرسالة ، بلغ بملازمته أمير المؤمنين (عليه السلام) مقاماً عالياً ، شهد جميع وقائعه من الجمل والنهروان إلى صفّين ، مكن الكوفة بعد أمير المؤمنين (عليه السلام) كان جلّ اهتمامه ـ مع حجر بن عديّ ـ ينصبّ على منع بني أميّة من سبّ الإمام (عليه السلام) ، ولمّا تولّى زياد بن أبيه السلطة ، وأمسك بحجر بن عدي فرّ عمرو إلى الموصل واختبأ في غار هناك فلدغته أفعى في الغار فتوفّي .

ولمّا خرج جماعة من طرف زياد بطلبه وجدوه ميتاً ، فقطع زياد رأسه وبعث به إلى معاوية ، فرفعه على سنان الرمح ، وكان أول رأس يرفع على الرمح في الإسلام ، وكان سبق لأمير المؤمنين (عليه السلام) أن أخبره بما سينتهي إليه أمره ، وفي كتاب بعث به الإمام الحسين (عليه السلام) ردّاً على كتاب لمعاوية ، تحدث عن غدر معاوية ومكره وظلمه ونقضه للعهد ، قال (عليه السلام) :

« أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفرّ لونه ، بعدما آمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل ، ثمّ قتلته جرأة على ربّك واستخفافاً بذلك العهد ؟ » .

أقول : سيأتي خلال الحديث عن القتلى من أصحاب الحسين (عليه السلام) ذكر زاهر الذي كان مع عمرو بن الحمق ، وتولى دفنه .

ويروي الراوندي وابن شهر آشوب أن عَمْرَ بن الحمق لما قدّم ماء لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) دعا له بأن يجعل له من الشباب حظّاً ، فعاش ثمانين عاماً دون أن تظهر شعرة بيضاء واحدة في رأسه .

العشرون : قنبر مولى أمير المؤمنين (عليه السلام)

كان غلامه الخاص ، ورد ذكره في الأخبار بكثرة ، وقال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) :

إنّي إذا رأيت شيئاً منكرا أوقدت ناري ودعوت قنبرا

ومدح قنبر له (عليه السلام) حين سئل : مولى من أنت ؟ مشهور[1] ، وقد ورد

---

(١) قال قنبر : مولاي من ضرب بسيفين ، وطعن برمحين ، وصلى القبلتين .. إلى آخر مديحه المشهور (المعرب) .

مسطوراً في (رجال الكشي) ، وقد قتل على يد الحجّاج الثقفي .

ويروى أنه لمّا أتي به إلى الحجّاج سأله : ما الذي كنت تليه من عليّ بن أبي طالب ؟ قال : كنت أوضّيه ، قال : فما كان يقول إذا فرغ من وضوئه ؟ قال : كان يتلو الآية المباركة :

﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء ، حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون * فقُطع دابر القوم الذي ظلموا ، والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

قال الحجّاج : أظنّ أنّه أرادنا بتأويل هذه الآية ، قال قنبر : نعم ، قال : ما أنت صانع إن أمرنا بقطع رأسك ؟ قال : في تلك الحال أكون سعيداً وتكون شقيّاً ! فأمر بضرب عنقه .

الحادي والعشرون : كميل بن زياد النخعيّ اليمانيّ

من خواصّ أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن أعاظمهم ، يعدّه العرفاء أمين سرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) . وإليه تنتهي سلسلة جماعة من العرفاء ، والدعاء الشهير الذي يدعى به ليلة النصف من شعبان ، وكل ليلة جمعة ينسب إليه ، وكذلك الحديث المشهور حين أخذ أمير المؤمنين (عليه السلام) بيده ـ إذ كانا في الفلاة ـ وقال :

« يا كميل ، إنّ هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقول : الناس ثلاثة . . . » إلى آخر الحديث .

وهذا الحديث موجود في الكثير من كتب الحديث ، والشيخ البهائي يعدّه أحد الأربعين حديثاً ، ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل وصيّته التي يقول فيها :

« يا كميل ، مُر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ، ويُدلجوا في حاجة من هو نائم ، فوالذي وسع سمعه الأصوات ما من أحدٍ أودع قلباً سروراً إلاّ وخلق الله تعالى له من ذلك السرور لطفاً ، فإذا نزلت نازلة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تُطرد غريبة الإبل . . . » .

كان كميل عاملاً لأمير المؤمنين فترة ، ثم انتهى الأمر به إلى الحجّاج الثقفي فقتله ، ويروى أنّه لما ولي الحجّاج العراق أراد الإمساك بكميل كي يقتله ، ففرّ هارباً منه ، فلما فشل في الإمساك به قرر قطع العطاء من بيت المال عن قومه ، ولما بلغ ذلك كميلاً قال : لم يبق من العمر إلاّ القليل ، ممّا لا ينبغي معه قطع رزق القوم ، ثم قام وقدم إلى الحجّاج ، قال الحجاج : لقد بحثت عنك لأجزيك ! قال : اعمل ما بدا لك فلم يبق من العمر إلاّ القليل ، وعمّا قريب سأرجع وإيّاك إلى الله عزّ وجلّ وقد أخبرني مولاي أنّك قاتلي ؛ قال الحجّاج : لأنت من قتلة عثمان ، ثمّ أمر به فضربت عنقه .

كان ذلك سنة ثلاث وثمانين للهجرة ، وتوفي عن تسعين عاماً ، وقبره معروف في الثويّة ما بين النجف والكوفة .

الثاني والعشرون : مالك بن الحارث الأشتر النخعيّ

سيف الله المسلول على أعدائه ، قدّس الله روحه ، جليل القدر عظيم المنزلة ، وخصوصيّته من أمير المؤمنين (عليه السلام) أظهر من أن تذكر ، ويكفي في هذا المقام قول عليّ (عليه السلام) فيه :

« رحم الله مالكاً ، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) » .

في سنة ثمان وثلاثين للهجرة ولاّه أمير المؤمنين (عليه السلام) على مصر ، وقبل أن يبعث به إلى مصر كتب إلى أهلها كتاباً ، وممّا جاء فيه :

« أمّا بعد ، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيّام الخوف ، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع ، أشدّ على الفجّار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج ، فاسمعوا قوله وأطيعوا أمره فيما طابق الحقّ ، فإنّه سيف من سيوف الله . . » .

وعهد له عهداً هو أطول عهوده (عليه السلام) ، يشمل من اللطائف والمحاسن الكثير، مملوءاً بالعظات والحكم ممّا لا يحصى، يصلح دستوراً لكل والٍ وسلطان وحاكم، ويشتمل على أصول جباية الخراج وجمع الزكاة ، وتجنّب ظلم عباد الله والجور عليهم إلى غير ذلك ، وهذا العهد معروف ومشهور ، له ترجمات عديدة ، وبعد أن عهد به إليه أمره أن يتجهّز للسفر ، وخرج الأشتر في جماعة من أصحابه متوجّهاً إلى مصر .

يروى أن خبر تولية الأشتر لمّا طرق مسامع معاوية أوسل إلى أحد دهاقنة العريش يغريه على دسّ السمّ للأشتر مقابل إعطائه عشرين سنة من ضريبة الخراج ، فلما قدم الأشتر العريش قدّم له الدهقان هديّة من العسل بعد أن مزجه بالسمّ ، بعد أن عرف أن العسل هو الأكلة المفضّلة عند الأشتر ، ولمّا أكل منه مات من فوره .

ويروي البعض أن موته كان في القلزم ، وإنّ نافعاً غلام عثمان هو من سمّمه ، ولما بلغ الخبر معاوية سرّ سروراً عظيماً لم يتّسع له جلده، وضاقت عليه الدنيا الواسعة من فرط الفرح، وقال : « إنّ لله جنوداً من عسل » .

ولما بلغ الخبر أمير المؤمنين (عليه السلام) تألّم أشدّ الألم وأسف بالغ الأسف فصعد المنبر فقال :

« إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، اللهمّ إنّي أحتسبه عندك ، فإنّ موته من مصائب الدهر » .

ثم قال : « رحم الله مالكاً فلقد أوفى بعهده ، وقضى نحبه ولقي ربّه ، ومع أنّا وطّنّا أنفسنا على أن نصبر على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله (صلّى الله عليه وآله) فإنّها من أعظم المصائب » .

ثم نزل عن المنبر ، ورجع إلى بيته ، وتوافد إليه مشائخ نخع فوجدوه يتأسف ويتلهف على موت الأشتر ، ثم قال :

«لله درّ مالك، وما مالك! لو كان من جبل لكان فنداً[1]، ولو كان من حجر لكان صلداً ؛ أما والله ليهدّنّ موتك عالماً ، وليفرحنّ عالماً ، على مثل مالك فلتبك البواكي ، وهل مَرجُوّ كمالك ؟ وهل موجود كمالك ؟ وهل قامت النساء عن مثل مالك ؟!

يقول القاضي نور الله في (المجالس) : إنّ صاحب معجم البلدان أورد في ذيل أحوال بعلبك أنّ معاوية بعث رجلاً للقاء الأشتر في طريقه إلى مصر ، فلقيه حوالي القلزم ، وقدم له عسلاً ممزوجاً بالسم ، فمات منه هناك ، ونقل جثمانه إلى مدينة الطيبة ، وقبره المنوّر معروف هناك ومشهور ؛ ولما بلغ معاوية خبر موته جهر بسروره وقال : « إن لله جنوداً من عسل » .

وقال صاحب المعجم أيضاً : لا يخفى أن الأشتر (رضي الله عنه) مع كونه يتحلّى بحلية العقل والشجاعة والعظمة والفضل ، فكان يتزيّن كذلك بزينة العلم والزهد والفقر والتعبّد .

ورد في مجموعة ورّام بن أبي فراس رحمه الله أن مالكاً الأشتر (رضي الله عنه) كان مجتازا بسوق وعليه قميص خام وعمامة منه ، فرآه بعض السوقة فأزرى بزيّه فرماه ببندقة تهاوناً به ، فمضى ولم يلتفت ؛ فقيل له : ويلك أتدري بمن رميت ؟ فقال : لا ، فقيل له : هذا مالك صاحب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فارتعد الرجل ومضى إليه ليعتذر منه ، وقد دخل مسجداً وهو يصلّي .

فلمّا انفتل انكبّ الرجل على قدميه يقبّلهما ، فقال : ما هذا الأمر ؟ فقال : أعتذر إليك ممّا صنعت ؛ فقال : لا بأس عليك ، فوالله ما دخلت المسجد إلاّ لأستغفرنّ لك !! انتهى .

يقول المؤلّف : لاحظ كيف اكتسب هذا الرجل من أخلاق أمير المؤمنين (عليه السلام) ، مع كونه من أمراء جيشه ، شجاعاً شديد الشوكة ، وبلغت شجاعته درجة جعلت ابن أبي حديد يقول :

---

(١) الفند بالفتح والكسر : الجبل العظيم .

لو أقسم أحد أنه ليس بين العرب والعجم من هو أكثر شجاعة من الأشتر ـ خلا أستاذه أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ فأظنّ أنّ قسمه صحيح ، فما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزم مماته أهل العراق ؟ ويقول فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) : « رحم الله مالكاً ، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) » ، وقال : ليت لي فيما بينكم رجلان مثله ، بل ليت لي رجلاً واحداً .

ومن التأمّل في هذه الأشعار تعرف شدّة شوكته على الأعداء ، قال :

أبقيت وفري وانحرفت عن العلى	ولقيتُ أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشنَّ على ابن هند غارة	لم تخل يوماً من نهاب نفوس
خيلاً كأمثال السعالي شزّباً[1]	تغدو ببيض في الكريهة شوس[2]
حمي الحديد عليهمُ فكأنّه	ومضان برق أو شعاع شموس

وإجمالاً ، فهو في هذا المقام من الجلال والشجاعة وشدة الشوكة كان على درجة من حسن الخلق بلغت أن رجلاً من السوقة ـ يهينه ويستهزىء به فلا تغيّر إهانته له من حاله ، لا بل يمضي إلى المسجد ليدعو ويستغفر له !! ويتبدّى للمتأمّل كيف أنّ شجاعته هذه ، وغلبته على نفسه وهواه إنما هي أسمى من شجاعته البدنيّة .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « أشجع الناس من غلب هواه » .

الثالث والعشرون : محمّد بن أبي بكر بن أبي قحافة

رجل جليل القدر ، عظيم المنزلة ، من خواصّ أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن حواريّيه ، بل هو بمنزلة ابن له ، أمّه أسماء بنت عميس كانت زوجاً لجعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، ثم تزوّجها أبو بكر من بعده فولدت له محمّداً في رحلة حجّة الوداع ، وبعد أبي بكر تزوّجها أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فلا جرم أن يتربّى محمّد في حجره ، ولا يعرف أباً غيره ، حتّى أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : « محمّد ابني من صلب أبي بكر » .

شهد محمّد وقعتي الجمل وصفّين وبعد صفّين عيّنه أمير المؤمنين (عليه السلام) والياً على مصر ، وفي سنة ثمان وثلاثين بعث معاوية بعمرو بن العاص ، ومعاوية بن خديج ، وأبي الأعور السلمي في جيش كبير إلى مصر ، وكانوا جميعاً من أنصار عثمان ، وهناك جمعوا جموعهم وانبروا لقتال محمد بن أبي بكر وأخذوه أسيراً ، ثم ضرب معاوية بن خديج عنقه وهو ظامىء ،

---

(١) شزّب : ضامرة .

(٢) الشوس : الطوال .

وقطع رأسه وأدخل جثته ـ يساعده ابن العاص ـ في جوف حمار وأحرقوه بالنار ، وكان عند موته ابن ثمان وعشرين .

يقال : لمّا بلغ أمّه أسماء نبأ مقتل ولدها كظمت غضبها وغصّتها حتى شخب الدم من ثدييها ، وروّعت عائشة أخته وجزعت عليه ، وكانت في دبر كلّ صلاة تدعو على معاوية وابن العاص وابن خديج ، ثم حلفت أن لا تأكل شواء أبداً بعد قتل محمّد .

أمّا أمير المؤمنين (عليه السلام) فهو لمّا بلغه النبأ حزن على محمد حزناً عميقاً ، وكتب إلى ابن عباس في البصرة ينعيه إليه بقوله :

« أمّا بعد ، فإنّ مصر قد افتتحت ، ومحمّد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد ، فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً ، وعاملاً كادحاً ، وسيفاً قاطعاً ، وركناً دافعاً .

وقد كنت حثثت الناس على لحاقه ، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ، ودعوتهم سرّاً وجهراً ، وعوداً وبدءاً ، فمنهم الآتي كارهاً ، ومنهم المعتلّ كاذباً ، ومنهم القاعد خاذلاً ؛ أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً ، فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوّي في الشهادة ، وتوطيني نفسي على المنيّة لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً ، ولا ألتقي بهم أبداً » .

ولما تلقّى ابن عبّاس النبأ قدم الكوفة لتعزية أمير المؤمنين (عليه السلام) .

وقدم أحد عيون أمير المؤمنين (عليه السلام) من الشام ، وقال : يا أمير المؤمنين ، بلغ معاوية خبر مقتل محمّد بن أبي بكر فصعد المنبر وأذّن بقتله ، وسرّ سروراً عظيماً ، وما رأيت قطّ سروراً رأيته بالشام حين قتل محمّد بن أبي بكر . فقال (عليه السلام) :

« إنّ حزننا على قتله على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافاً » .

وقال : « كان لي ربيباً ، وكنت أعدّه ولداً ، وكان بي برّاً ، فعلى مثل هذا نحزن ، وعند الله نحتسبه » .

ومحمّد (رضي الله عنه) أخ من الأم لمحمّد وعون ابني جعفر ، وأخ ليحيى بن عليّ (عليه السلام) ، وابن خالة ابن عباس ، وأب للقاسم فقيه المدينة ، وهو جدّ لأمّ الإمام الصادق (عليه السلام) .

الرابع والعشرون : محمّد بن أبي حذيفة بن عتبة بن عبد شمس

مع كونه ابن خال معاوية بن أبي سفيان فقد كان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن أنصاره وشيعته ، سجن ردحاً طويلاً في سجون معاوية ، ثم أخرجه من

السجن يوماً وقال له : يا محمّد ، ألم يَئِنْ لك أن تتبصَّر وتترك موالاتك لعليّ ؟ ألا تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن عائشة وطلحة والزبير قد خرجوا يطلبون بدمه ، وأن عليّاً بعث إلى عثمان من يقتله ؟ ونحن اليوم نطالب بدمه ؟

قال محمّد : إنّك لتعلم أنّي أمسّ القوم بك رحماً ، وأعرفهم بك . قال : أجل ، قال : إنّك تطالب بدم عثمان ، فوالذي لا إله غيره ما أعلم أحداً شرك في دم عثمان وألّب الناس عليه غيرك لمّا استعملك على الشام ، فسأله المهاجرون والأنصار أن يعزلك ، فأبى ، ففعلوا به ما بلغك ، أما والله لم يشرك بدمه ابتداء إلاّ طلحة والزبير وعائشة ، فهم من حرّضوا على قتله ، وشركهم بذلك عبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، وعمّار والأنصار جميعاً ، ثم قال :

« والله إنّي لأشهد أنّك مذ عرفتك في الجاهليّة والإسلام لعلى خلق واحد ، ما زاد فيك الإسلام لا قليلاً ولا كثيراً ، وإنّ علامة ذلك لبيّنة ، تلوموني على حبّي عليّاً ، خرج مع عليّ (عليه السلام) كلّ صوّام وقوّام مهاجريّ وأنصاريّ ، وخرج معك أبناء المنافقين والطلقاء والعتقاء ، خدعتهم عن دينهم ، وخدعوك عن دنياك .

والله يا معاوية ما خفي عليك ما صنعت ، وما خفي عليهم ما صنعوا إذا حلوا إلى أنفسهم سخط الله في طاعتك ، والله لا أزال أحبّ عليّاً لله ورسوله ، وأبغضك في الله وفي رسول الله أبداً ما بقيت » .

فأمر به معاوية فأعيد إلى سجنه ، وبقي فيه حتّى مات .

يقول ابن أبي الحديد : قبض عمرو بن العاص على محمّد بن أبي حذيفة في مصر ، وبعث به أسيراً إلى معاوية فسجنه ، ثم فرّ من سجنه ، فراح في أثره رجل من خثعم يقال له عبد الله بن عمرو بن ظلام ، وكان عثمانيّ الهوى ، فأدركه مختبئاً في غار وقتله . وكان والده أبو حذيفة من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وشهد معه بدراً حيث قتل أخوه ، واستشهد يوم اليمامة في القتال مع مسيلمة الكذّاب .

الخامس والعشرون : ميثم بن يحيى التمّار

من خواصّ أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن أصفيائه وحواريّيه ، وقد علّمه (عليه السلام) من العلوم بالقدر الذي يناسب قابليّته واستعداده ، كان مطّلعاً على أسرار خفيّة وأخبار غيبيّة كانت ترشح عنه في بعض الأحايين ، يكفي في هذا الصدد أنّ ابن عبّاس ، وهو تلميذ أمير المؤمنين (عليه السلام) وتلقّى عنه علم تفسير القرآن ، وما كان له من باع طويل في علم الفقه والتفسير ، والذي كان محمد بن الحنفيّة يدعوه ربّانيّ الأمّة ، ومع كونه ابن عمّ رسول الله وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما) ، ابن عبّاس هذا يخاطبه ميثم فيقول :

يا بن عبّاس ، سلني ما شئت في تفسير القرآن فإنّي قرأت تنزيله على أمير المؤمنين (عليه السلام) وعلّمني تأويله ، فقال : يا جارية الدواة والقرطاس ، فأقبل يكتب .

وكان رحمه الله من الزهّاد ، وممّن يبست جلودهم من العبادة والزهادة .

ويروى عن أبي خالد التمّار قال : كنت مع ميثم التمّار بالفرات يوم الجمعة ، فهبّت ريح ونحن في سفينة من سفن الرمّان ، قال : فخرج فنظر إلى الريح فقال : شدّوا برأس سفينتكم ، وإنّ هذا ريح عاصف[1] ، مات معاوية الساعة ، قال : فلمّا كانت الجمعة المقبلة قدم بريد من الشام فلقيته فاستخبرته فقال : توفّي أمير المؤمنين ، وبايع الناس يزيد ، قلت : أيّ يوم توفّي ؟ قال : يوم الجمعة .

وقد تقدم الحديث عن إخباره لحبيب بن مظاهر عند ذكر أحوال رشيد الهجري أنه سيقتل في نصرة ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأنّه يطاف برأسه في الكوفة .

يروي الشيخ الشهيد محمّد بن مكّي عن ميثم أنه قال : صحبني أمير المؤمنين (عليه السلام) معه ذات ليلة إلى خارج الكوفة ، حتّى بلغنا مسجد الجعفي ، وهناك اتّجه إلى القبلة وصلّى أربع ركعات ، وبعد السلام والتسبيح قال : ابسط كفّيك ، ثم قال :

« إلهي كيف أدعوك وقد عصيتك ، وكيف لا أدعوك وقد عرفتك ، وحبّك في قلبي مكين ، مددت إليك يداً بالذنوب مملوءة ، وعيناً بالرجاء ممدودة ، إلهي أنت مالك العطايا وأنا أسير الخطايا . . . » .

وهكذا حتّى أتمّ الدعاء ، ثم هبط إلى السجود ووضع وجهه على التراب وقال مئة مرّة : العفو العفو ، ثم وقف وخرج من المسجد وأنا معه ، وسرنا حتّى إذا كنّا في الفلاة خطّ على الأرض خطّاً وقال لي : لا تتجاوز هذا الخطّ ، وتركني وذهب وكانت تلك الليلة شديدة الظلام ، فقلت في نفسي : يا مولاي ، تركت نفسك في هذه الفلاة وحيداً ، مع كثرة أعدائك ، فما يكون عذري عند الله ورسوله (صلّى الله عليه وآله) ؟ فوالله لقد هممت باللحاق به فأكون على بيّنة من أمره ولو خالفت أمره ، فانطلقت أبحث عنه حتى أدركته وقد دلّى رأسه حتى نصف جسده في بئر هناك وهو يتحدّث مخاطباً البئر ، فأحسّ بي فقال : من أنت ؟ قلت : ميثم ، قال : أولم آمرك أن لا تتجاوز الخطّ الذي خططته لك ؟ قلت : خشيت

---

(١) أقول : نظير هذا ما رواه الراوندي عن الصادق (ع) من أنه في غزوة بني المصطلق هبّت ريح عاصف ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : لقد مات منافق في المدينة ، ولمّا رجع الناس إلى المدينة كان رفاعة بن زيد ـ وهو من كبار المنافقين ـ قد مات

يا مولاي عليك الأعداء فلم يطق قلبي البقاء ، قال : هل سمعت شيئاً ممّا كنت أقوله ؟ قلت : لا يا مولاي ، قال :

« وفي الصدر لبانات إذا ضاق لها صدري نكتُ الأرض بالكفّ وأبديت لها سرّي ، فمهما تنبت الأرض فذاك النبت من بذري » .

يقول العلاّمة المجلسي في (جلاء العيون) عن الشيخين الكشي والمفيد وغيرهما إنّ ميثماً التمّار كان عبداً لامرأة من بني أسد ، فاشتراه أمير المؤمنين (عليه السلام) منها فأعتقه ، فقال : ما اسمك ؟ فقال : سالم ، فقال : أخبرني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن اسمك الذي سمّاك به أبوك في العجم ميثم ، قال : صدق رسول الله وصدقت يا أمير المؤمنين ، والله إنّه لاسمي ، قال : فارجع إلى اسمك الذي سمّاك به (ذكره) رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ودع سالماً ، فرجع إلى ميثم ، واكتنى بأبي سالم .

وقال له (عليه السلام) ذات يوم : إنّك تؤخذ بعدي فتصلب وتطعن بحربة ، فإذا كان اليوم الثالث ابتدر منخراك وفمك دماً فتخضب لحيتك ، فانتظر ذلك الخضاب ، فتصلب على باب دار عمرو بن حريث عاشر عشرة أنت أقصرهم خشبة ، وأقربهم من المطهرة ، وامض حتّى أريك النخلة التي تصلب على جذعها ، فأراه إيّاها .

وفي رواية أخرى أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال له : كيف أنت يا ميثم إذا دعاك دعي بني أميّة عبيد الله بن زياد إلى البراءة منّي ؟ فقال ميثم : يا أمير المؤمنين ، أنا والله لا أبرأ منك ، قال : إذن والله يقتلك ويصلبك ، فقال ميثم : أصبر ، فذاك في الله قليل ؛ فقال : يا ميثم إذاً تكون معي في درجتي .

وكان ميثم - بعد أمير المؤمنين (عليه السلام) - يأتي تلك النخلة ويصلّي عندها ويقول : بوركت من نخلة ، لك خلقتُ ولي غذّيتِ ؛ وكان يلقى عَمرَ بن حريث فيقول : إنّي مجاورك فأحسن جواري ، فيقول له عَمرو : أتريد أن تشتري دار ابن مسعود أو دار ابن حكيم ؟ وهو لا يعلم ما يريد .

وفي السنة التي توجّه فيها الحسين (عليه السلام) من المدينة إلى مكّة ، ومنها إلى كربلاء ، توجّه ميثم إلى مكّة ، ودخل على أمّ سلمة (زوج النبي (صلّى الله عليه وآله)) (رضي الله عنها) ، فقالت : من أنت ؟ قال : أنا ميثم ، قالت : والله لربّما سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يذكرك ويوصي بك عليّاً في جوف الليل ، فسألها عن الحسين (عليه السلام) فقالت : هو في حائط له (بستان) قال : أخبريه أنّي قد أحببت السلام عليه ، ونحن ملتقون عند ربّ العالمين إن شاء الله ؛ قالت : كثيراً ما رأيت الحسين بن عليّ ابن فاطمة

يذكرك ، فقال : أنا والله أكثر ذكره فاقرئيه السلام ، فإنّي مبادر ، ولنا أمر مقدّر سيكون ، ثم قالت : يا جارية اخرجي فادهنيه ، فدهنت لحيته فقال : أما والله لئن دهنتيها لتخضبنّ فيكم بالدماء .

ولما خرج إذا بابن عبّاس جالس ، فقال : يا بن العبّاس ، سلني ما شئت من تفسير القرآن فإنّي قرأت تنزيله على أمير المؤمنين (عليه السلام) وعلّمني تأويله ، فقال : يا جارية الدواة والقرطاس ، فأقبل يكتب .

حتّى قال ميثم : يا بن عبّاس ، كيف بك إذا رأيتني مصلوباً عاشر عشرة ؟ فقال : وتكهّن أيضاً ؟! قال ميثم : مه ، احتفظ بما سمعت منّي ، فإن يكن ما أقول لك حقّاً أمسكته ، وإنْ يك باطلاً خرقته ؛ قال : هو ذلك .

ولما فرغ ميثم من حجّه قفل عائداً إلى الكوفة ؛ وكان قبل ذهابه إلى الحج لقي عريف قومه (نقيبهم) ، فقال له : كأنّي بك وقد دعاك دعيّ بني أميّة فيطلبني منك أياماً ، فإذا قدمت عليك ذهبت بي إليه حتّى يقتلني على باب دار عمرو بن حريث ، ثم خرج ميثم إلى مكّة ، فأرسل الطاغية عدوّ الله ابن زياد إلى عريف ميثم فطلبه منه ، فأخبره أنّه بمكّة ، فقال له : لئن لم تأتني به لأقتلنّك ، فأجّله أجلاً .

وخرج العريف إلى القادسيّة ينتظر ميثماً ، فلمّا قدم ذهب به إلى الطاغية ، فقال ابن زياد : أنت ميثم؟ ، قال : نعم أنا ميثم ، قال الحاضرون في المجلس : إنه من المقرّبين إلى أبي تراب ، قال ابن زياد : ويحكم ، أهذا العجمي ؟ قالوا : نعم ، فالتفت ابن زياد إلى ميثم فقال : أين ربّك ؟ قال : هو بالمرصاد لكلّ ظالم ، وأنت أحد الظلمة ، قال : إنّك على عجمتك لجريء ، تبرّأ من أبي تراب ، فقال : لا أعرف أبا تراب ، قال : تبرّأ من عليّ بن أبي طالب ، فقال له : فإن أنا لم أفعل ؟ قال : إذاً والله لأقتلنّك ، قال : أما لقد كان مولاي يقول لي إنك ستقتلني وتصلبني عاشر عشرة على باب دار عمرو بن حريث ، قال : لنخالفنّه ، قال : كيف تخالفه ، فوالله ما أخبرني إلاّ عن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) عن جبريل عن الله تعالى ، فكيف تخالف هؤلاء ؟ ولقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه ، وأين هو من الكوفة ، وأنا أوّل خلق الله ألجم في الإسلام .

فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيدة ، قال له ميثم : إنّك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين (عليه السلام) فتقتل هذا الذي يقتلنا .

فلمّا دعا عبيد الله بالمختار ليقتله طلع بريد بكتاب يزيد إلى عبيد الله يأمره بتخلية سبيله ، فخلاّه ، وأمر بميثم أن يصلب ، فأخرج فرفع على الخشبة عند باب عمرو بن

حريث ، قال عمرو : قد كان والله يقول : إنّي مجاورك ؛ فلمّا صلب أمر جاريته بكنس تحت خشبته ورشّه وتجميره ، فجعل ميثم يحدّث بفضائل بني هاشم (ويلعن بني أميّة ، ويحدّث عمّا سيكون من انقراض دولتهم) ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هذا العبد ، فقال : ألجموه ، ففعلوا ، فلمّا كان اليوم الثالث من صلبه أتاه أحد رجال ابن زياد والحربة في يده وقال : أما والله إنّي لأطعنك وأنا أعلم أنّك صوّام بالنهار قوّام بالليل ، ثم طعنه في خاصرته فنفذت الحربة من أحشائه ، ثم انبعث في آخر النهار فمه وأنفه دماً ، وصعدت روحه إلى الملأ الأعلى ، وكان هذا قبل قدوم الحسين (عليه السلام) العراق بعشرة أيّام .

ويروى أيضاً أنّه لما انتقل هذا العظيم إلى رحمة ربّه قدم سبعة من التمّارين إليه ليلاً والحرّاس يحرسونه وقد أوقدوا النار ، فحالت النار بينهم ، فاحتملوه حتّى انتهوا به إلى فيض من ماء فدفنوه هناك ، وغمروه بالماء ، ولمّا طلبه الحرّاس لم يعثروا له على أثر .

السادس والعشرون : هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص

ولقبه المرقال ، يقول القاضي نور الله في (الإصابة) :

المذكور هو هاشم الشجاع المشهور الملقّب بالمرقال ، واشتهر بهذا اللقب لأنّ الإرقال ضرب من الجري السريع ، فقد كان في النزال يجري مسارعاً إلى خصمه .

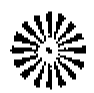
وينقل عن الكلبي وابن حيّان أنّ هاشماً فاز بشرف صحبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأسلم يوم فتح مكّة ، ورافق عمّه في حربه مع الفرس في القادسيّة ، وأظهر هناك شجاعة وبطولة فائقتين ، وكان في موقعة صفّين يقاتل بين يدي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأحسن الجهاد .

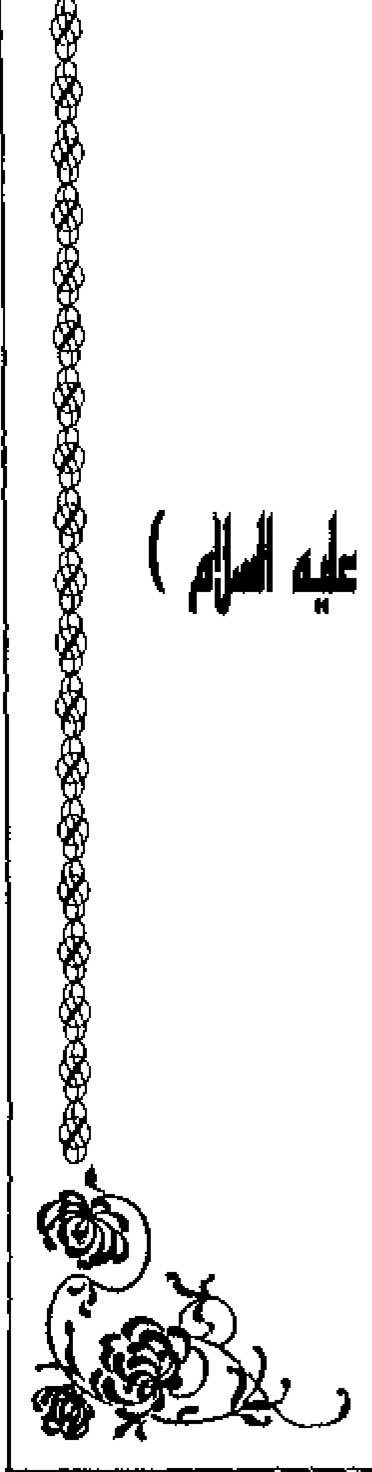
وورد في (الفتوح) للأعثم الكوفي ، وفي كتاب الإصابة أنّه لمّا قتل عثمان وبايع الناس أمير المؤمنين (عليه السلام) بلغ النبأ الكوفة ، وكان واليها أبو موسى الأشعري من قِبل عثمان ، فتقاطر الكوفيّون إلى أبي موسى يأخذون عليه إحجامه عن البيعة ، فراح الأشعري يراوغ ويحتجّ بأنّه ينتظر جلاء الأمور والمواقف ، غير أنّ هاشماً وقف أمام الأشعري وقال له : وماذا تنتظر ؟ هل تخشى أن يعود عثمان إلى الحياة فيلومك ؟ بايع يا أبا موسى لخير هذه الأمّة ، ثم مدّ يده اليسرى واضعاً عليها يده اليمنى وقال : هذه لعليّ وهذه لي ، وقد بايعت عليّاً ، ثم أنشد كما عن (الإصابة) :

أبايع غير مكترث عليّاً ولا أخشى أميراً أشعريّا
أبايعه وأعلم أن سأرضي بذاك الله حقّاً والنبيّا

فاز هاشم بالشهادة في صفّين ، فرفع ابنه عتبة راية أبيه وحمل على أهل الشام يجاهدهم كما جاهدهم أبوه ، حتى اقتفى أثره شهيداً كريماً .

أقول : يعلم من هنا أن هاشماً استشهد في موقعة صفّين ، وعليه ، فإنّ ما هو مسطور في بعض الكتب ـ من أن هاشماً قدم كربلاء لعون الحسين (عليه السلام) ، وأنّه وقف بين الصفوف يقول : أيها الناس من لم يعرفني عرّفته بنفسي ، فأنا هاشم بن عتبة ابن عمّ عمر بن سعد . . . الخ . لا نصيب له من الواقع ، والله هو العالم .



الباب الرابع

في تاريخ الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام)

الفصـــل الأول

في الولادة السعيدة للإمام الحسن (عليه السلام)

المشهور أن ولادة الإمام الحسن (عليه السلام) كانت ليلة الثلاثاء منتصف شهر رمضان المبارك سنة ثلاث للهجرة ، أو سنة اثنتين على قول .

اسمه الشريف : الحسن ، وهو تورية عن شبّر ، وتعني في العبريّة : الحسن وكان اسم كبير أبناء هارون (عليه السلام) شبّر ، وكنيته (عليه السلام) : أبو محمد ، وألقابه : السيّد ، والسبط ، والأمين ، والحجّة ، والبرّ ، والتقيّ ، والزكيّ ، والمجتبى ، والزاهد .

ويروي ابن بابويه بأسناد معتبرة عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) قال :

« لمّا ولدت فاطمة الحسن (عليهما السلام) قالت لعليّ (عليه السلام) : سمّه ، فقال : ما كنت لأسبق باسمه رسول الله ؟ فجاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأخرج إليه في خرقة صفراء ، فقال : ألم أنهكم أن تلفّوه في خرقة صفراء ؟ ثمّ رمى بها وأخذ خرقة بيضاء فلفّه بها .

وفي رواية أخرى أنّه (صلّى الله عليه وآله) أدخل لسانه في فيه فجعل الحسن (عليه السلام) يمصّه ، ثمّ قال لعليّ (عليه السلام) : ما سمّيته ؟ قال : ما كنت لأسبقك باسمه ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : ما كنت لأسبق ربّي باسمه ، فأوحى الله عزّ ذكره إلى جبرئيل (عليه السلام) أنّه قد ولد لمحمد ابن ، فاهبط إليه فأقرئه السلام وهنّئه منّي ومنك ، وقل له : إنّ عليّاً منك بمنزلة هارون من موسى فسمّه باسم ابن هارون .

فهبط جبرئيل على النبيّ وهنّأه من الله عزّ وجلّ ومنه ، ثمّ قال له : إنّ الله عزّ وجلّ يأمرك أن تسمّيه باسم ابن هارون ، وقال : وما كان اسمه ؟ قال : شبّر ، قال : لساني عربيّ ، قال : سمّه الحسن ، فسمّاه الحسن .

فلمّا ولد الحسين (عليه السلام) أوحى الله إلى جبرئيل أنه قد ولـد لمحمّد ابن ، فـاهبط إليه فهنّئه وقل له : إنّ عليّاً منك بمنزلة هـارون من موسى ، فسمّـه باسم ابن هـارون الآخر ؛ فنزل جبرئيل (عليه السلام) ، وبعد أن أبلغ خير الأنام تهنئة الملك العلّام ، قـال (صلّى الله عليه وآله) : ومـا كان اسمـه ؟ قال : شبّير ، قال (صـلّى الله عليه وآلـه) : لساني عـربيّ ، قال : فسمّه الحسين ، فسمّاه الحسين .

ويروي الشيخ الجليل عليّ بن عيسى الإربلي (ره) في (كشف الغمة) أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان أبيض مشرباً حمـرة ، أدعج العينين ، سهل الخـدّين ، دقيق المسربة كثّ اللحية ذا وفرة ، كأنّ عنقه إبريق فضّة ، عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، ربعـة ليس بالطويـل ولا القصير ، مليحـاً من أحسن الناس وجهـاً ، وكان يخضب بـالسواد ، وكـان جعد الشعر ، حسن البدن .

ويروى عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال : كان الحسن بن علي أشبه بـرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما بين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه فيما كان أسفل ذلك .

ويروي ثقة الإسلام الكليني (ره) بسند معتبر عن الحسين بن خالد أنـه قال : سـألت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) عن التهنئة بالولد متى ؟ فقال : « أما إنـه لمّا ولـد الحسن بن علي هبط جبـرئيل عـلى النبيّ (صلّى الله عليـه وآله) بـالتهنئة في اليـوم السابـع ، وأمره أن يسمّيـه ويكنّيـه ، ويحلق رأسـه ، ويعقّ[1] عنـه ، ويثقب أذنـه ، وكـذلـك كـان حـين ولـد الحسـين (عليه السلام) أتاه في اليوم السابع فأمره بمثل ذلك » .

وقـال : « وكان لهما ذؤابتان في القـرن الأيسر ، وكان الثقب في الجهـة اليمنى في شحمة الأذن ، وفي اليسرى في أعلى الأذن » .

وفي رواية أخرى أن النبي (صلّى الله عليه وآله) ترك لهما ذؤابتين في وسط الرأس ، وهو الأصحّ .

---

(١) العقيقة : الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه عند حلق شعره .

الفصل الثاني

في مناقب الإمام الحسن (عليه السلام)

يروي صاحب (كشف الغمّة) عن كتاب حلية الأولياء أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وضع الحسن (عليه السلام) يوماً على عاتقه وقال : من أحبني فليحبّه .

وعن أبي هريرة قال : ما رأيت الحسن قطّ إلاّ فاضت عيناي دموعاً ، وذلك أنّه أتى يوماً يشتدّ حتّى قعد في حجر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) يفتح فمه، ثم يدخل فمه في فمه ويقول: اللهمّ إنّي أحبّه، وأحبّ من يحبّه؛ يقولها ثلاث مرات .

ويقول ابن شهر اشوب : جاء في أكثر التفاسير أن النبي (صلّى الله عليه وآله) كان يعوّذ الحسنين (عليهما السلام) بسورتي ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ و﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ ولهذا سمّيتا بالمعوّذتين .

وعن أبي هريرة قال : رأيت النبي (صلّى الله عليه وآله) يمصّ لعاب الحسن والحسين كما يمصّ الرجل التمرة .

ويروى أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يصلّي فجاء الحسن والحسين فارتدفاه ، فلمّا رفع رأسه أخذهما أخذاً رفيقاً ، فلمّا عاد عادا ، فلمّا انصرف أجلس هذا على فخذه الأيمن ، وهذا على فخذه الأيسر : ثم قال : من أحبني فليحبّ هذين .

كما يروى عنه (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال : « إنّ الحسن والحسين شنفا[1] العرش وإنّ الجنّة قالت : يا رب اسكنتني الضعفاء والمساكين ، فقال لها الله تعالى : ألا ترضين أنّي

---

(١) الشنف : الحلية (القرط) .

زيّنت أركانك بالحسن والحسين ؟ قال : فماست كما تميس العروس فرحاً » .

ويروى عن أبي هريرة أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سمع بكاء الحسن والحسين وهو على المنبر ، فقام فزعاً ، ثم قال : أيّها الناس ، ما الولد إلاّ فتنة ، لقد قمت إليهما وما معي عقلي .

والأحاديث عن محبّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للحسنين (عليهما السلام) ، وركوبهما على عاتقه ، وأمره بمحبّتهما ، وقوله إنّهما سيّدا شباب أهل الجنّة ، وأنّهما ريحانتاه ، وهذه الأحاديث وردت في كتب الشيعة والسنّة بشكل مستفيض ، وسيرد بعضها عند الحديث عن أحوال الإمام الحسين (عليه السلام) إن شاء الله تعالى .

ونقل عن (حلية) أبي نعيم أن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) كان يصلّي ، فإذا سجد يجيء الحسن (عليه السلام) وهو صبيّ صغير حتّى يصير على ظهره أو رقبته ، فيرفعه رفعاً رفيقاً ، فلمّا صلّى صلاته قالوا : يا رسول الله ، إنّك تصنع بهذا الصبيّ شيئاً لم تصنعه بأحد ، فقال : إن هذا ريحانتي ، وإنّ ابني هذا سيّد وعسى أن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين .

ويروي الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« قال أبي عن أبيه : كان الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أعبد الناس في زمانه ، وأزهدهم وأفضلهم ، وكان إذا حجّ ، حجّ ماشياً ، وربّما مشى حافياً ؛ وكان إذا ذكر الموت بكى ، وإذا ذكر القبر بكى ، وإذا ذكر البعث والنشور بكى ، وإذا ذكر الممرّ على الصراط بكى ، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها .

وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربّه عزّ وجلّ ، وكان إذا ذكر الجنّة والنار اضطرب اضطراب السليم (لدغته حية أو عقرب) ، وسأل الله الجنّة ، وتعوّذ به من النار .

وكان (عليه السلام) لا يقرأ من كتاب الله عزّ وجلّ : « يا أيّها الذين آمنوا » إلاّ قال : لبيّك اللهمّ لبيّك ، ولم يُر في شيء من أحواله إلا ذاكراً لله سبحانه ، وكان أصدق الناس لهجة ، وأفصحهم منطقاً . . » الخ .

ويروى في مناقب ابن شهر آشوب وروضة الواعظين أنه (عليه السلام) كان إذا توضّأ ارتعدت مفاصله واصفرّ لونه ؛ فقيل له في ذلك فقال : « حقّ على كلّ من وقف بين يدي ربّ العرش أن يصفرّ لونه وترتعد فرائصه » .

وكان إذا بلغ باب المسجد رفع رأسه وقال :

« إلهي ضيفك ببابك ، يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم » .

كما روى ابن شهر اشوب عن الصادق (عليه السلام) أن الإمام الحسن (عليه السلام) حجّ خمساً وعشرين مرّة ماشياً ، وأن النجائب لتقاد معه ، وقاسم الله تعالى ماله مرّتين ، وروي ثلاث مرّات (أي كان يستبقي النصف لنفسه ، ويوزع النصف الآخر على الفقراء » .

ومن حلمه ما روى المبرّد وغيره أنّ شامياً رآه راكباً فجعل يلعنه ، والحسن (عليه السلام) لا يردّ ، فلمّا فرغ أقبل الحسن (عليه السلام) فسلّم عليه وضحك ، فقال : أيّها الشيخ أظنّك غريباً ، ولعلّك شبّهت ، فلو استعتبتنا أعتبناك[1] ، ولو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ، ولو استحملتنا أحملناك ، وإن كنت جائعاً أشبعناك ، وإن كنت عرياناً كسوناك ، وإنّ كنت محتاجاً أغنيناك ، وإن كنت طريداً آويناك ، وإن كان لك حاجة قضيناها لك .

فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك ، لأنّ لنا موضعاً رحباً ، وجاهاً عريضاً ، ومالاً كثيراً .

فلمّا سمع الرجل كلامه بكى ، ثم قال : أشهد أنّك خليفة الله في أرضه ، والله أعلم حيث يضع رسالته ، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ .

وحوّل رحله إليه ، وكان ضيفه إلى أن ارتحل ، وصار معتقداً لمحبّتهم .

يروي الشيخ رضيّ الدين عليّ بن يوسف بن المطهّر الحلّي أنّ رجلاً وقف على الحسن بن عليّ (عليه السلام) فقال : يا بن أمير المؤمنين بالذي أنعم عليك بهذه النعمة التي ما تليها منه بشفيع منك إليه ، بل إنعاماً منه عليك إلاّ ما أنصفتني من خصمي فإنّه غشوم ظلوم ، لا يوقّر الشيخ الكبير ، ولا يرحم الطفل الصغير ؛ وكان متكئاً فاستوى جالساً ، وقال له : من خصمك حتّى انتصف لك منه ؟ فقال له : الفقر .

فاطرق (عليه السلام) ساعة ، ثمّ رفع رأسه إلى خادمه وقال له : أحضر ما عندك من موجود ، فأحضر خمسة آلاف درهم فقال : ادفعها إليه ، ثمّ قال له : بحقّ هذه الأقسام التي أقسمت بها عليّ متى أتاك خصمك جائراً إلاّ ما أتيتني منه متظلّماً .

---

(١) أعتبناك : أزلنا عنك العتبة ، والعتبة : المكروه والشدّة .
او يمكن أن يكون المعنى: لو استرضيتنا أرضيناك (المعرب) .

كما يروى أيضاً أن رجلاً أتاه يشكو الفقر والفاقة ، وأنشد :

لم يبق لي شيء يباع بدرهم ... يكفيك منظر حالتي عن مخبري
إلّا بقايا ماء وجهٍ صنته ... ألاّ يباع وقد وجدتك مشتري

فدعا الرجل خادمه وقال له : ما مقدار ما عندك ؟ قال : اثنا عشر ألف درهم ، قال : ادفعها إلى هذا الرجل ، وأنا منه خجل ، قال : لم يتبقّ للنفقة شيء ، قال : ادفعها إليه وأحسن ظنك بالله تعالى ، ثم دعا الرجل ودفع إليه المال واعتذر قائلاً : لم نعطك حقّك ، بل أعطيناك بقدر الموجود ، ثم أنشد :

عاجلتنا فأتاك وابل برّنا ... طلاً ولو أمهلتنا لم تمطر
فخذ القليل وكن كأنّك لم تبع ... ما صنته وكأنّنا لم نشتر

نقل العلاّمة المجلسي (ره) عن بعض كتب المناقب المعتبرة عن رجل اسمه نجيح قال : رأيت الحسن بن علي (عليه السلام) يأكل وبين يديه كلب ، كلّما أكل لقمة طرح للكلب مثلها ، فقلت له : يا بن رسول الله ، ألا أرجم هذا الكلب عن طعامك ؟ قال : دعه ، إنّي لأستحيي من الله عزّ وجلّ أن يكون ذو روح ينظر في وجهي وأنا آكل ثمّ لا أطعمه .

وروي أنّ غلاماً له (عليه السلام) جنى جناية توجب العقاب فأمر به أن يضرب ، فقال : يا مولاي ، « والكاظمين الغيظ » ، قال : كظمت غيظي ، قال : « والعافين عن الناس » ، قال : عفوت عنك ، قال : « والله يحب المحسنين » قال : أنت حرّ لوجه الله ، ولك ضعف ما كنت أعطيك .

ويروي ابن شهر اشوب عن كتاب محمد بن إسحاق أنّه قال : ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما بلغ الحسن ، كان يبسط له على باب داره ، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق ، فما مرّ أحد من خلق الله إجلالاً له ، فإذا علم قام ودخل بيته ، فمرّ الناس .

ولقد رأيته في طريق مكّة ماشياً ، فما من خلق الله أحد رآه إلاّ نزل ومشى ، حتّى رأيت سعد بن أبي وقّاص يمشي .

وأورد ابن شهر اشوب في (المناقب) عنه (عليه السلام) أشعاراً منها :

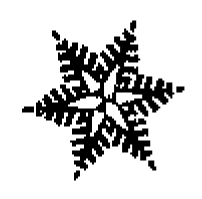
قل للمقيم بغير دار إقامة ... حان الرحيل فودّع الأحبابا
إنّ الذين لقيتهم وصحبتهم ... صاروا جميعاً في القبور ترابا

يقول العلاّمة المجلسي (ره) في (الجلاء) عن الشيخ الطوسي ، عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

كتب إلى الحسن بن علي (عليهما السلام) قوم من أصحابه يعزّونه عن ابنة له ، فكتب إليهم :

« أمّا بعد ، فقد بلغني كتابكم تعزّوني بفلانة ، فعند الله أحتسبها تسليماً لقضائه ، وصبراً على بلائه ؛ فقد أوجعتنا المصائب وفجعتنا النوائب بالأحبّة التي كانت بنا حفيّة ، والإخوان المحبّين الذين كان يسرّ بهم الناظرون ، وتقرّ بهم العيون .

أضحوا قد اخترمتهم الأيّام ، ونزل بهم الحمام ، فخلّفوا الخلوف ، وأودت بهم الحتوف ، فهم صرعى في عساكر الموتى، متجاورون في غير محلّة التجاور، ولا صلات بينهم ولا تزاور ، ولا يتلاقون عن قرب جوارهم ، أجسامهم نائية من أهلها ، خالية من أربابها ، قد أجشحها إخوانها ، فلم أر مثل دارها داراً ، ولا مثل قرارها قراراً ، في بيوت موحشة ، وحلول مضجعة ، قد صارت في تلك الديار الموحشة ، وخرجت عن الدار المؤنسة ، ففارقتها من غير قلى ، فاستودعتها للبلى ، وكانت أمة مملوكة ، سلكت سبيلاً مسلوكة صار إليها الأوّلون ، وسيصير إليها الآخرون ، والسلام » .



الفصل الثالث

في طرف من أحوال الإمام الحسن (عليه السلام) وصلحه مع معاوية

ما جرى بعد استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) وعلة صلح الإمام الحسن (عليه السلام) مع معاوية

اعلم أنه بعد ثبوت عصمة أئمة الهدى وجلالتهم (عليهم السلام) ، فعلى المؤمنين أن يسلّموا بما يصدر عنهم (عليهم السلام) وينقادوا له ، وأن لا يقعوا في مواقع الشبهة والاعتراض ، ذلك إنّ ما يفعلونه إنما هو عن ربّ العالمين ، والاعتراض عليهم اعتراض على الله ، وقد جاء برواية معتبرة أنّ الله عزّ وجلّ أنزل على النبيّ (صلّى الله عليه وآله) صحيفة من السماء فيها اثنا عشر ختماً ، لكلّ إمام ختمه ، ومكتوب تحت الختم ما يعمله ؛ فكيف يجيز امرؤ لنفسه أن يعترض بعقله الناقص على رهطٍ هم حجج الله في أرضه ، قولهم من قول الله وفعلهم من فعله ؟

يروي الشيخان الصدوق والمفيد وآخرون أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) خطب بعد استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) خطبة بليغة تشتمل على المعارف الربانيّة والحقائق السبحانيّة ، فقال :

« نحن حزب الله الغالبون ، وعترة رسوله الأقربون ، وأهل بيته الطيّبون الطاهرون ، وأحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أمّته » فقال : « إنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي » ، فالتالي كتاب الله ، والمعوّل علينا في تفسيره ، لا نتظنّى تأويله بل نتيقّن حقائقه ، فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله عزّ وجلّ ورسوله مقرونة ، قال الله عزّ وجلّ .

﴿ يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ .

ثم قال (عليه السلام) : « لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل ، ولم يدركه الآخرون بعمل ، لقد كان يجاهد مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيقيه بنفسه ، وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوجّهه برايته ، فيكتنفه جبرئيل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله ، ولا يرجع حتّى يفتح الله على يديه .

ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها بعيسى ابن مريم ، والتي قبض فيها يوشع بن نون وصيّ موسى ، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمئة درهم فضلت عن عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله » .

ثمّ خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس من حوله معه ، ثم قال :

« أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه ، أنا السراج المنير ، أنا من أهل بيتٍ فرض الله مودّتهم في كتابه ، فقال تعالى :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى ، ومن يقترف حسنةً نزد له فيها حسناً ﴾ ، فالحسنة مودّتنا أهل البيت » ثمّ جلس .

فقام عبد الله بن العبّاس رحمه الله بين يديه فقال :

« معاشر الناس ، هذا ابن نبيكم ووصيّ إمامكم فبايعوه » ، فاستجاب له الناس فقالوا : ما أحبّه إلينا وأوجب حقّه علينا ، وبادروا إلى البيعة له بالخلافة ، على حرب من حارب ، وسلم من سالم ؛ وكان ذلك يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة أربعين من الهجرة ، وكان عمره الشريف سبعاً وثلاثين سنة .

ثم نزل عن المنبر فرتّب العمّال ، وأمّر الأمراء ، وأنفذ عبد الله بن العبّاس إلى البصرة ، ونظر في الأمور .

ووفقاً لرواية الشيخ المفيد وغيره من المحدّثين العظام فإنّه لما بلغ معاوية خبر استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) وبيعة الناس للحسن (عليه السلام) أرسل عينين له أحدهما من بني القين إلى البصرة والآخر من بني حمير إلى الكوفة يتجسّسان ويكتبان إليه بما يجري ، كما يقومان بإفساد أمور الخلافة على الإمام الحسن (عليه السلام) ، غير أن الإمام (عليه السلام) عرف بأمرهما فاستدعى الحميريّ فضرب عنقه ، كما بعث إلى البصرة يأمرهم بالعثور على الجاسوس الآخر وضرب عنقه ، وكان كما أمر .

وكتب إلى معاوية : « أمّا بعد ، فإنّك دسست الرجال للاحتيال والاغتيال ، وأرصدت العيون كأنّك تحبّ اللقاء ، وما أشكّ في ذلك ، فتوقّعه إن شاء الله » .

ولما بلغ الكتاب معاوية كتب جواباً فظّاً أرسله إلى الإمام الحسن (عليه السلام) ، واستمرّ الترامل بينهما في هذا الصدد دون انقطاع ، حتى هيّأ معاوية جيشاً كبيراً توجّه به نحو العراق ، كما راح يرسل بعيونه إلى نفر من المنافقين والخوارج في الكوفة ممّن كانوا في صفوف جيش الإمام (عليه السلام) ، والذين انضمّوا إليه مكرهين خوفاً من سيفه ، كعمرو بن حريث ، والأشعث بن قيس ، وشبث بن ربعيّ وأمثالهم من المنافقين ، وكتب إلى كلّ منهم على حدة يعده بمئتي ألف درهم ، وبنت من بناته ، وإمارة على جيش من جيوش الشام ، إن هو استطاع قتل الحسن (عليه السلام) ؛ واستمال إلى جانبه بهذه الحيلة أكثر المنافقين ، وضمن انحرافهم عنه (عليه السلام) ، حتى أنه (عليه السلام) صار يلبس درعاً تحت ثيابه عند الصلاة ليأمن غدرهم وقد رماه أحد الخوارج يوماً بسهم في الصلاة ، لكنه لم يترك أثراً بفضل الدرع التي كان يلبسها .

وجعل أولئك المنافقون يبعثون بكتبهم إلى معاوية سرّاً يبدون له موافقتهم على ما عرضه عليهم .

بلغت أخبار خروج معاوية إلى العراق مسامع الإمام (عليه السلام) ، فصعد المنبر وبعد أن حمد الله وأثنى عليه جعل يدعو الناس إلى القتال ، فلم يجبه أحد منهم بحرف ، وما تكلّم أحدٌ منهم .

فلما رأى ذلك عديّ بن حاتم قام فقال : سبحان الله ما أقبح هذا المقام ، ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ؟ أين خطباء مصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة ، فإذا جدّ الجدّ فروّاغون كالثعالب ؟ أما تخافون مقت الله ولاعنتها وعارها .

ثم قام آخرون فقالوا : نحن السامعون المطيعون لك ، فمرنا بأمرك ؛ فقال (عليه السلام) : كذبتم ، والله ما وفيتم لمن كان خيراً منّي ، فكيف تفون لي ؟ إن كنتم صادقين فموعد ما بيني وبينكم معسكر النخيلة ، فوافوا إلى هناك .

فركب وركب معه من أراد الخروج ، وتخلّف عنه كثير ، فما وفوا بما قالوه ، وبما وعدوه ، فقام بهم خطيباً وقال : غررتموني كما غررتم من كان قبلي ، مع أيّ إمام تقاتلون بعدي ؟ مع الكافر الظالم الذي لم يؤمن بالله ولا برسوله قطّ ، ولا أظهر الإسلام هو وبني أميّة إلاّ فرقاً من السيف ؟

ثم وجّه قائداً من كندة يقال له الحكم في أربعة آلاف ، وأمره أن يعسكر بالأنبار ولا يحدث شيئاً حتى يأتيه أمره ، فلمّا توجّه إلى الأنبار ونزل بها ، وعلم معاوية بذلك ، بعث إليه رسلاً ، وكتب إليه معهم أنّك ان أقبلت إليّ أُوَلِّك بعض نواحي الشام والجزيرة ، وأرسل إليه

بخمسمئة ألف درهم ، فقبض الكنديّ عدوّ الله المال ، وانقلب على الحسن (عليه السلام) ، وصار إلى معاوية في مئتي رجل من خاصّته وأهل بيته .

فبلغ ذلك الحسن (عليه السلام) فقام خطيباً وقال : هذا الكنديّ توجّه إلى معاوية ، وغدر بي وبكم ، وقد أخبرتكم مرّة بعد مرّة أنّه لا وفاء لكم ، أنتم عبيد الدنيا ، وأنا موجّه رجلاً آخر مكانه ، وإنّي أعلم أنّه سيفعل بي وبكم ما فعل صاحبه ؛ فبعث إليه رجلاً من مراد في أربعة آلاف ، وتقدّم إليه بمشهد من الناس وتوكّد عليه ، وأخبره أنّه سيغدر كما غدر الكنديّ ، فحلف له بالأيمان التي لا تقوم لها الجبال أنّه لا يفعل ؛ فلما توجّه في سبيله قال الحسن (عليه السلام) : إنّه سيغدر .

فلمّا توجّه إلى الأنبار أرسل معاوية إليه رسلاً ، وكتب إليه بمثل ما كتب إلى صاحبه ، وبعث إليه بخمسة آلاف درهم ، ومنّاه أيّ ولاية أحب من ولايات الشام ، فانقلب على الحسن (عليه السلام) وأخذ طريقه إلى معاوية ، وبلغ الحسن (عليه السلام) ما فعل المراديّ ، فقام خطيباً فقال : قد أخبرتكم مرّة بعد أخرى أنّكم لا تفون لله بعهد ، وهذا صاحبكم المراديّ غدر بي وبكم ، وصار إلى معاوية .

وإجمالاً ، فإنّ الإمام الحسن (عليه السلام) عزم على الخروج إلى قتال معاوية ، فاستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث ، وأمره بحثّ الناس على اللحوق به ؛ ثمّ سار في عسكره حتى نزل دير عبد الرحمن ، فأقام به ثلاثاً حتّى اجتمع الناس ، ثمّ عرض جيشه فإذا هو أربعون ألفاً بين فارس وراجل .

ثمّ دعا عبيد الله بن العبّاس فقال له : يا بن عمّ ، إنّي باعث معك اثني عشر ألفاً من الفرسان ، فامض بهم حتى تستقبل معاوية ، وشاور هذين :

يعني قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس ، فأنت أمير الجيش ، فإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، فإن أصيب فسعيد بن قيس على الناس .

وسار الإمام (عليه السلام) حتى وافى ساباط المدائن فنزل بها وبات هناك ، فلمّا أصبح أراد (عليه السلام) أن يمتحن أصحابه ، ويستبرىء أحوالهم له في الطاعة ، ليتميّز بذلك أولياؤه من أعدائه ، ويكون على بصيرة من لقاء معاوية وأهل الشام ، فأمر أن ينادى في الناس بالصلاة جامعة ، وصعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أمّا بعد ، فإنّي والله لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ، ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة ، ألا وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم ممّا تحبّون في الفرقة ، ألا وإنّي ناظركم خيراً من نظركم لأنفسكم ،

فلا تخالفوا أمري ، ولا تردّوا عليّ رأيي ، غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإيّاكم لما فيه المحبّة والرضى » .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ وكان بينهم كثير من المنافقين ، وممّن كانوا باطناً على مذهب الخوارج ، فقالوا : نظنّه والله يريد أن يصالح معاوية ، ويسلّم الأمر إليه ، كفر والله الرجل !

ثم شدّوا على فسطاطه وانتهبوه ، حتّى أخذوا مصّلاه من تحته ، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي ، فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقي (عليه السلام) جالساً متقلّداً بالسيف بغير رداء ، ثمّ دعا بفرسه وركبه ، وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته ومنعوا منه من أراده .

ثم أخذ طريقه نحو المدائن ، فلمّا مرّ في مظلم ساباط بدر إليه رجل من بني أسد يقال له الجرّاح بن سنان ، وأخذ بلجام بغلته وقال : الله أكبر ، وأشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل ! وكان بيده مِغْوَل[1] فطعنه في فخذه فشقّه حتى بلغ العظم ، ويقال إنّه كان خنجراً مسموماً ، فأمسك به (عليه السلام) في عنقه وخرّا جميعاً إلى الأرض ، فوثب إليه جماعة من شيعته (عليه السلام) فقتلوه ، وحُمل الحسن (عليه السلام) على سرير إلى المدائن ، فأنزل به على سعد بن مسعود الثقفي ، وكان عامل أمير المؤمنين (عليه السلام) بها ، وهو عمّ المختار بن عبيد الثقفي ، فأشار المختار على عمّه بتسليم الحسن (عليه السلام) إلى معاوية ، فيعطيه ولاية العراق ، فقال له : قبّح الله رأيك ، أنا عامل أبيه وقد ائتمنني وشرّفني ، أأنسى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولا أحفظه في ابن ابنته وحبيبه ؟!

لمّا سمع شيعة الإمام (عليه السلام) ما قاله المختار أرادوا قتله ، لكنّهم عفوا عنه بشفاعة عمّه ، ثم إنّ سعداً أتاه بطبيب وقام عليه حتّى برىء .

وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له في السرّ ، واستحثّوه على المسير نحوهم ، وضمنوا له تسليم الحسن (عليه السلام) إليه عند دنوّهم من عسكره ، أو الفتك به ، وبلغ الإمام الحسن (عليه السلام) ذلك ، وورد عليه كتاب قيس بن سعد ، وكان قد أنفذه مع عبيد الله بن العبّاس عند مسيره من الكوفة ، وجاء فيه : أنهم قابلوا جيش معاوية بقرية يقال لها الحَبُونِيّة بإزاء مَسكِن[2] ، وأنّ معاوية أرسل إلى عبيد الله بن العبّاس

---

(١) المِغْوَل : نصل طويل ، أوسوط في جوفه سيف دقيق يُغتال به .

(٢) مَسكِن : موضع على نهر دجيل قريب من دير الجاثليق كما يذكر الخطيب في تاريخه ، وفي هذا المكان قتل عبد الملك بن مروان مصعبَ بن الزبير ، وفيه قبر مصعب وإبراهيم بن الأشتر النخعي .

يرغّبه في المصير إليه ، وضمن لـه ألف ألف درهم يعجّل لـه منها النصف ، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله إلى الكوفة ، فانسلّ عبيد الله في الليل إلى معسكر معاوية ، وأصبح النـاس قد فقدوا أميرهم ، فصلّى بهم قيس بن سعد ، ونظر في أمورهم .

فازدادت بصيرة الحسن (عليه السلام) بخذلان القوم لـه ، وعدم وفـائهم ، ومسيرهم في طريق النفاق ، ولم يجد معه ممّن يـأمن غوائله إلاّ خـاصّة من شيعـة أبيه وشيعتـه ، وهم لا يقومون لأجناد الشام .

ومن ناحية أخرى فقد كتب إليه معاوية في الهدنة والصلح ، وأنفذ إليـه بكتب أصحابـه الذين ضمنوا له فيها الفتك به وتسليمه إليه ، وممّا كتبه إليه قولـه : فإن النـاس قد غـدروا بك وبأبيك من قبلك ، وعرض عليه الصلح بشروط أخذها معاوية على نفسه .

ولما رأى الإمام (عليه السلام) كتب أصحابه أيقن أنّه لا مفرّ من الصلح مـع معاويـة ، مع إيقانه بغدر معاوية وكذبه وعدم وفائه ، غير أنّه لا حيلة لديه في ذلك لما كان عليـه أصحابـه من ضعف البصيرة في حقّـه ، ومـا انـطوى عليـه كثير منهم في استحـلال دمـه وتسليمـه إلى خصمـه ، ومـا كـان من خـذلان ابن عمّـه لـه ومصيره إلى عـدوّه ، وميل الجمهـور منهم إلى العـاجلة ، وزهدهم في الآجلة ، إلاّ قليـلاً منهم سيكـونـون أول وقـود للحـرب إن هـو ذهب إليها .

يقـول العلاّمـة المجلسي (ره) في (جلاء العيـون) : لما وصـل كتاب معـاوية إلى الإمـام (عليه السلام) وقرأه وقرأ ما معه من رسـائل أصحـابه ، واطّلع عـلى هروب عبيـد الله ونفاق رجاله قال ثانية إتماماً للحجّة عليهم : إنّي لأعلم أنّكم غادرون ما بيني وبينكم ، والله لا تفـون لي بعهدي ، ولتنقضنّ الميثاق بيني وبينكم .

ثم إنـه (عليه السـلام) عسكر عشرة أيـام فلم يحضره إلاّ أربعة آلاف ، فـانصرف إلى الكوفة ، فصعد المنبر وقال :

« يا عجباً من قوم لا حياء لهم ولا دين ، لو سلّمت له الأمر فأيم الله لا ترون فرجاً أبداً مع بني أميّة ، والله ليسومونكم سوء العذاب ، ولـو وجدت أعـواناً مـا سلّمت له الأمـر ، لأنّه محرّم على بني أميّه ، فأفّ وترحاً يا عبيد الدنيا » .

الصلح مع معاوية

لّما يئس (عليه السـلام) من أصحابـه كتب إلى معاويـة : أمّا إنّي أريـد أن أحيي الحقّ وأميت الباطل ، وأجري كتاب الله وسنّة نبيّه (صلّى الله عليه وآله) ، لكنّ النـاس لم يوافقوني ،

والآن فأنا أصالحك على شروط أعرف أنّك لن تفي بها ، فلا يسرّك أنّ الملك ميسّر لك ، فسرعان ما ستندم كما ندم من غصبوا الخلافة ، لكنّ ندمهم لم يعقب لهم نفعاً .

ثم أرسل ابن عمّه عبد الله بن الحارث[1] إلى معاوية ليأخذ عليه العهود والمواثيق ، ويكتب كتاب الصلح ، وكان الكتاب كالآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) معاوية بن أبي سفيان ، صالحه على أن لا يتعرّض لـه ، على أن يعمل في الناس بكتاب الله وسنّة رسوله (صلّى الله عليه وآله) ، وسيرة الخلفاء الصالحين ، وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً ، وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله : في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وعلى أنّ أصحاب عليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه ، وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) غائلة ، سرّاً ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق ، وأن يترك سبّ عليّ (عليه السلام) والقنوت عليه بالصلاة ، وأن لا يذكر عليّاً (عليه السلام) وشيعته إلاّ بخير .

ولما كتب الصلح شهد عليه بذلك ـ وكفى بالله شهيداً ـ عبد الله بن الحارث ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة[2] ، وآخرون .

ولمّا تمّ عقد الصلح توجّه معاوية إلى الكوفة ، ولما بلغ النخيلة نزل فيها ، وكان يوم جمعة ، فصلّى بالناس وخطب خطبة قال في آخرها :

« إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا ، إنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون ؛ ألا وإنّي كنت منّيت الحسن (عليه السلام) وأعطيته أشياء ، وجميعها تحت قدميّ لا أفي بشيء منها » .

ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنخيلة ، وبعد أيام قضاها في الكوفة أتى

---

(١) هو عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطّلب .

(٢) هو عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ ، ويكنّى أبا سعيد ، أسلم يوم الفتح ، وسكن البصرة ، واستعمله عبد الله بن عامر لّما كان أميراً على البصرة ، وتوفّي بالبصرة سنة خمسين ، وقيل سنة إحدى وخمسين ، وكان متواضعاً .

المسجد ، والتمس من الحسن (عليه السلام) أن يتكلم فوق منبر ويقول للناس إنّه قد بايع معاوية بالخلافة ، فصعد (عليه السلام) المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على نبيّه وأهل بيته ، ثمّ قال :

أيّها الناس ، إنّ أكيس الكيس التقى ، وأحمق الحمق الفجور ، وإنّكم لو طلبتم بين جابلق وجابرس رجلاً جدّه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما وجدتموه غيري وغير أخي الحسين ، وقد علمتم أنّ الله هداكم بجدّي محمد فتنكّرتم لأهل بيته ، وإنّ معاوية نازعني حقّاً هو لي دونه ، فنظرت لصلاح الأمّة وحقن الدماء ، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالموا من سالمت ، وتحاربوا من حاربت ، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه ، ورأيت أن حقن الدماء خير من سفكها ، ولم أرد بذلك إلّا صلاحكم وبقاءكم ، وأن يكون ما صنعت حجّة على من كان يتمنّى هذا الأمر ، «وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين» .

فوقف معاوية فخطب الناس ، وذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) ونال منه ، ونال من الحسن (عليه السلام) ما نال ، فقام الحسين (عليه السلام) ليردّ عليه ، فأخذ بيده الحسن (عليه السلام) فأجلسه ثم قام فقال :

« أيّها الذاكر عليّاً ، أنا الحسن وأبي عليّ ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمّي فاطمة وأمّك هند ، وجدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وجدّك حرب ، وجدّتي خديجة ، وجدّتك فتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً ، وألأمنا حسباً ، وشرّنا قدماً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً ، فقالت طوائف من أهل المجلس : آمين ، آمين .[1]

ويروى أنّه لمّا أبرم الصلح بين معاوية والإمام الحسن (عليه السلام) طلب معاوية البيعة من الحسين (عليه السلام) ، فقال الحسن (عليه السلام) :

يا معاوية لا تكرهه ، فإنّه لا يبايع أبداً أو يقتل ، ولن يقتل حتى يقتل أهل بيته ، ولن يقتل أهل بيته حتّى يقتل أهل الشام » .

ثم طلب معاوية قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة ، فجاء وكان رجلاً طوالاً يركب الفرس المشرف ، ورجلاه يخطّان في الأرض ، فلمّا أرادوا إدخاله إليه قال : حلفت ألّا ألقاه إلّا وبيني وبينه الرمح والسيف ، فأمر معاوية برمح وبسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه .

وقد روي أنّه اعتزل في أربعة آلاف وأبى أن يبايع ، فلما صالح الحسن (عليه السلام) معاوية أدخل قيس ليبايع ، فأقبل على الحسين (عليه السلام) فقال : هل أبايع ؟ فأشار إلى

---

(١) يقول مؤلف الكتاب : وأنا أقول آمين ثمّ آمين ثم آمين ، ويرحم الله عبداً قال آميناً (ع س) .

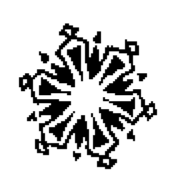
الحسن (عليه السلام) وقال : هو الإمام ، فوضع يده على فخذه ولم يمدّها إلى معاوية ، فجثا معاوية على سريره وأكبّ على قيس حتى مسح يده على يده ، وفي رواية أخرى أنه بايع بعد أن أمره الإمام الحسن (عليه السلام) بالبيعة .

ويروي الشيخ الطبرسي في (الاحتجاج) أنّه لمّا صالح الحسن بن عليّ بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان دخل عليه الناس فلامه بعضهم على بيعته ، فقال (عليه السلام) :

« ويحكم ما تدرون ما عملت ، والله للذي عملت لشيعتي خير ممّا طلعت عليه الشمس أو غربت ، ألا تعلمون أنّي إمامكم ومفترض الطاعة عليكم ، وأحد سيّدي شباب أهل الجنّة بنصّ من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عليّ ؟ » .

قالوا : بلى ، قال :

« أما علمتم أنّ الخضر لمّا خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران (عليه السلام) إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك ، وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمةً وصواباً ؟ أما علمتم أنّه ما منّا أحد إلاّ يقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلاّ القائم (عج) ، الذي يصلّي خلفه روح الله عيسى ابن مريم (عليه السلام)؟



الفصل الرابع

في استشهاد الإمام المجتبى (عليه السلام)
وخبر جنادة

اعلم أنّ هناك اختلافاً في يوم وفاة ذلك الإمام المظلوم ، فالبعض يقول : توفّي في السابع من صفر سنة خمسين للهجرة ، وقيل : في الثامن والعشرين منه ؛ كما أنّ هناك اختلافاً في مبلغ عمره الشريف ، والمشهور أن عمره سبع وأربعون سنة كما يروي صاحب (كشف الغمّة) عن ابن الخشّاب عن الإمام الباقر عن الإمام الصادق (عليهما السلام) قالا :

« مضى أبو محمّد الحسن بن عليّ (عليهما السلام) وهو ابن سبع وأربعين سنة ، وكان بينه وبين أخيه الحسين مدّة الحمل ، وكان حمل أبي عبد الله ستّة أشهر ، فاقام أبو محمّد مع جدّه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سبع سنين ، وأقام مع أبيه بعد وفاة جدّه ثلاثين سنة ، وأقام بعد وفاة أمير المؤمنين (عليه السلام) عشر سنين » .

استشهاده (عليه السلام) مسموماً

يروي القطب الراوندي (ره) عن الصادق (عليه السلام) أنّ الحسن (عليه السلام) قال لأهل بيته : إنّي أموت بالسمّ كما مات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، قالوا : ومن يفعل ذلك ؟ قال : امرأتي جعدة بنت الأشعث بن قيس ، فإنّ معاوية يدسّ إليها ويأمرها بذلك ، قالوا : أخرجها من منزلك وباعدها من نفسك ، قال : كيف أخرجها ولم تفعل بعد شيئاً ؟ ولو أخرجتها ما قتلني غيرها ، وكان لها عذر عند الناس .

فما ذهبت الأيّام حتّى بعث إليها معاوية مالاً جسيماً ، وجعل يمنّيها بأن يعطيها مئة ألف درهم أيضاً ، ويزوّجها من يزيد ، وحمل إليها شربة من سمّ لتسقيها الحسن (عليه السلام) .

وذات يوم انصرف الحسن (عليه السلام) إلى منزله وهو صائم ، وكان يوماً حارّاً ، فأخرجت وقت الإفطار شربة لبن وقد ألقت فيها ذلك السمّ ، فشربها ، فلمّا أحسّ السم

استرجع وحمد الله تعالى على التحوّل من هذه الدنيا الفانية إلى الجنان الباقية ، للقاء جدّه وأبيه وأمّه وعمّيه حمزة وجعفر ، ثم التفت إلى جعدة وقال لها : أي عدوّة الله ! قتلتني قتلك الله ، والله لا تصيبين منّي خلفاً ولقد غرّك وسخر منك ، والله يخزيك ويخزيه .

فمكث (عليه السلام) يومين ثم مضى . أما معاوية فغدر باللعينة ، ولم يف لها بما وعد . وفي رواية أنّه أدّى إليها ما وعدها به من مال ، لكنه لم يزوّجها من يزيد ، وقال : من لم تف مع الحسن فلا وفاء لها مع يزيد .

ويروي الشيخ المفيد رضوان الله عليه أنّه لمّا استقرّ الصلح بين الحسن (عليه السلام) ومعاوية خرج الحسن (عليه السلام) إلى المدينة ، فأقام بها كاظماً غيظه ، لازماً منزله ، منتظراً لأمر ربّه عزّ وجلّ ، إلى أن تمّ لمعاوية عشر سنين من إمارته ، وعزم على البيعة لابنه يزيد ، وإذ إن هذا يخالف شروط الصلح الذي أبرمه مع الإمام الحسن (عليه السلام) ، ثم بسبب ما كان الحسن (عليه السلام) يلقاه من إجلال وتوقير وإقبال من الناس ، فلم يكن عليه شيء أثقل من أمره (عليه السلام) فصمّم على قتله .

ثم إنّه أحضر سمّاً من عند ملك الروم دسّه إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس مع مئة ألف درهم ، وضمن لها تزويجها من يزيد إن قامت بتسميم الحسن (عليه السلام) ، فسقته جعدة السمّ ، فبقي أربعين يوماً مريضاً ، والسمّ يفعل فيه فعله ، ثم مضى لسبيله في شهر صفر سنة خمسين من الهجرة ، وله يومئذ ثمانية وأربعون عاماً ، وكانت خلافته عشر سنين ، وتولّى أخوه ووصيّه الحسين (عليه السلام) غسله وتكفينه ودفنه عند جدّته فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها) بالبقيع .

وجاء في (الاحتجاج) عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد قال : حدّثني رجل منّا قال : أتيت الحسن بن علي (عليه السلام) فقلت : يا بن رسول الله أذللت رقابنا وجعلتنا معشر الشيعة عبيداً ، ما بقي معك رجل ، فقال : وممّ ذاك ؟ قال : قلت : بتسليمك الأمر لهذا الطاغية ، قال : والله ما سلّمت الأمر إليه إلاّ أنّي لم أجد أنصاراً ، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه ، ولكنّي عرفت أهل الكوفة وبلوتهم ، ولا يصلح لي منهم ما كان فاسداً ، إنّهم لا وفاء لهم ولا ذمّة في قول ولا فعل ، إنّهم لمختلفون ، ويقولون لنا : إن قلوبهم معنا ، وإن سيوفهم لمشهورة علينا .

قال : وهو يكلّمني إذ تنخّع الدم ، فدعا بطست ، فحمل من بين يديه ملآن ممّا خرج من جوفه من الدم ، فقلت له : ما هذا يا بن رسول الله ؟ إنّي لأراك وجعاً ، قال : أجل ، دسّ إليّ هذا الطاغية من سقاني سمّاً فقد وقع على كبدي فهو يخرج قطعاً كما ترى ؛ قلت له :

أفلا تتداوى؟ قال: قد سقاني مرّتين وهذه الثالثة لا أجد لها دواء.

وصايــاه (ع)

روى صاحب (كفاية الأثر) بسند معتبر عن جنادة بن أبي أميّة قال : دخلت على الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في مرضه الذي توفّي فيه وبين يديه طست يقذف عليه الدم ، ويخرج كبده قطعة قطعة من السمّ الذي أسقاه معاوية ، فقلت : يا مولاي ، مالك لا تعالج نفسك ؟ فقال : يا عبد الله بماذا أعالج الموت ؟ قلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ثمّ التفت إليّ فقال : والله لقد عهد إلينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّ هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من ولد عليّ وفاطمة ، ما منّا إلاّ مسموم أو مقتول ، ثم رُفعت الطست ، وبكى صلوات الله عليه .

قال : فقلت له : عظني يا بن رسول الله ، قال :

« نعم ، استعدّ لسفرك ، وحصّل زادك قبل حلول أجلك ، واعلم أنّك تطلب الدنيا والموت يطلبك ، ولا تحمل همّ يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه ، واعلم أنّك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاّ كنت فيه خازناً لغيرك ، واعلم أنّ في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب ، وفي الشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك ، فإن كان ذلك حلالاً كنت قد زهدت فيها ، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر ، فأخذت كما أخذت من الميتة (ما تحلله الضرورة) ، وإن كان العتاب فإنّ العتاب يسير .

واعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنّما تموت غداً ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فاخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعة الله عزّ وجلّ ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك ، إذا خدمته صانك ، وإذا أردت منه معونة أعانك ، إنْ قلت صدّق قولك ، وإنْ صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدّها ، وإن بدت عنك ثلمة سدّها ، وإن رأى منك حسنةً عدّها ، وإنْ سألته أعطاك ، وإنْ سكتّ عنه ابتدأك ، إن نزلت إحدى الملمّات به ساءك ، من لا يأتيك منه البوائق ، ولا يختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق . وإن تنازعتما منقسماً آثرك . . . . » .

قال : ثم انقطع نفسه ، واصفرّ لونه ، حتّى خشيت عليه ؛ ودخل الحسين (عليه السلام) والأسود بن أبي الأسود ، فانكبّ عليه حتّى قبّل رأسه وبين عينيه ، ثمّ قعد

عنده فتساترا جميعاً ، فقال أبو الأسود : إنّا لله وإنّا إليـه راجعون ، إنّ الحسن (عليـه السلام) قد نعيت إليه نفسه .

وقـد أوصى إلى الحسين (عليـه السلام) وسلّم إليـه أسرار الإمامـة وودائـع الخـلافـة ، وصعدت روحه إلى رياض القدس يوم الخميس في آخر صفر سنة خمسين من الهجرة ، وله سبع وأربعون سنة ، ودفن بالبقيع . انتهى .

ووفقاً لرواية الشيخ الطوسي وغيره أن الحسين بن عليّ (عليـه السلام) دخـل على أخيـه الحسن بن عليّ (عليه السلام) في مرضه الذي توفّي فيه فقال له : كيف تجدك يا أخي ؟ قال : أجدني في أوّل يوم من أيّام الآخرة ، وآخر يوم من أيّام الدنيا ، واعلم أنّي لا أسبق أجلي ، وإنّي وارد عـلى أبي وجدّي عـلى كره منّي لفراقك وفـراق إخوتـك وفراق الأحبّـة ، وأستغفر الله من مقالتي هذه وأتوب إليه ، بـل على محبّـةٍ منّي للقاء رسول الله وأمير المؤمنين وأمّي فاطمـة وحمزة وجعفر صلوات الله عليهم ، وفي الله عزّ وجلّ خلف من كلّ هالك ، وعزاء من كلّ مصيبـة ، ودرك من كلّ ما فات .

رأيت يـا أخي كبدي في الـطشت ، ولقد عـرفت من دهـا بي ومن أين أُتيت ، فـما أنت صانع به يا أخي ؟ فقال الحسين (عليه السلام) : أقتله والله ، قال : فلا أخبرك به أبـداً حتّى نلقى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لكن أكتب يا أخي :

« هذا ما أوصى به الحسن بن عليّ إلى أخيه الحسين بن عـليّ : أوصى أنّه يشهـد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأنّه يعبـده حقّ عبادتـه ، لا شريك لـه في الملك ، ولا وليّ له من الذلّ ، وأنّه خلق كلّ شيء فقدّره تقديـرا ، وأنّـه أولى من عُبد ، وأحقّ من حمـد ، من أطاعـه رشد ، ومن عصاه غوى ، ومن تاب إليه اهتدى .

فإنّي أوصيك يا حسين بمن خلّفت من أهلي وولدي وأهل بيتك أن تصفح عن مسيئهم ، وتقبل من محسنهم ، وتكون لهم خلفاً ووالداً ، وأن تدفنني مع رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه) فإنّي أحقّ به وببيته ممّن أدخل بيته بغير إذنه ، ولا كتاب جـاءهم من بعده ، قـال الله فيما أنـزله على نبيّه في كتابه :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم ﴾ .

فوالله ما أذن لهم في الدخول عليه في حياته بغير إذنه ، ولا جاءهم الإذن في ذلك من بعد وفاته ، ونحن مأذون لنا في التصرّف في ما ورثناه من بعده .

فإن أبت عليك الامـرأة فأنشـدك الله بالقـرابة التي قـرّب الله عزّ وجـلّ منك ، والـرحم

الماسّة من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أن تهريق فيّ محجمة من دم ، حتّى نلقى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فنختصم إليه ، ونخبره بما كان من الناس إلينا بعده » .

ووفقاً لرواية الكافي وغيره أنه قال : ثمّ احملني إلى البقيع حتّى تدفنّي مع أمّي فاطمة الزهراء (عليها السلام) ، ولمّا فرغ من وصاياه قبض (عليه السلام) .

تشييعه ودفنه (عليه السلام)

قال ابن عبّاس : لمّا قبض الحسن (عليه السلام) ، دعاني الحسين بن علي (عليه السلام) وعبد الله بن جعفر وعليّاً ابني ، فغسّلناه وحنّطناه وألبسناه أكفانه ، ثمّ خرجنا به حتّى صلّينا عليه في المسجد ، وإنّ الحسين أمر أن يفتح البيت فحال دون ذلك مروان بن الحكم وآل أبي سفيان ، ومن حضر هنالك من ولد عثمان بن عفان وقالوا : يدفن أمير المؤمنين الشهيد القتيل ظلماً بالبقيع بشرّ مكان ، ويدفن الحسن مع رسول الله ؟ لا يكون ذلك أبداً حتّى تكسر السيوف بيننا ، وتنقصف الرماح وينفذ النبل .

فقال الحسين (عليه السلام) : أما والله الذي حرّم مكّة للحسنُ بن عليّ وابن فاطمة أحقّ برسول الله (صلّى الله عليه وآله) وببيته ممّن أدخل بيته بغير إذنه ، وهو والله أحقّ به من حمّال الخطايا مسيّر أبي ذرّ (رحمه الله) ، الفاعل بعمّار ما فعل ، وبعبد الله بن مسعود ما صنع ، الحامي الحمى ، المؤوي لطريد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

ووفقاً لمضامين روايات أخرى فإن مروان ركب بغلته وأتى عائشة فقال لها : يا أمّ المؤمنين ، إنّ الحسين يريد أن يدفن أخاه الحسن مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، والله إن دفن معه ليذهبّن فخر أبيك وصاحبه عمر إلى يوم القيامة ، قالت : فما أصنع يا مروان ؟ قال : الحقي به وامنعيه من أن يدفن معه ، قالت : وكيف ألحقه ؟ قال : اركبي بغلتي هذه ؛ فنزل عن بغلته وركبتها ، وكانت تؤزّ الناس وبني أميّة على الحسين (عليه السلام) ، وتحرّضهم على منعه عمّا همّ به .

قال ابن عبّاس : بينا نحن في ذلك إذ سمعت اللغط وخفت أن يعجل الحسين على من قد أقبل ، ورأيت شخصاً علمت الشرّ فيه ، فأقبلت مبادراً فإذا أنا بعائشة في أربعين راكباً على بغل مرحّل تقدمهم وتأمرهم بالقتال .

فلمّا رأتني قالت : إليّ إليّ يا بن عبّاس ، لقد اجترأتم عليّ في الدنيا ، تؤذونني مرّة بعد أخرى تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أهوى ولا أحبّ ؛ فقلت : واسوءتاه ! يوم على بغل ،

ويوم على جمل[1] ، تريدين أن تطفئي نور الله ، وتقاتلي أولياء الله ، وتحولي بين رسول الله وبين حبيبه أن يدفن معه !

فرمت بنفسها عن البغلة وقالت : والله لا يدفن الحسن ههنا أبداً أوتجزّ هذه ، وأومأت بيدها إلى شعرها .

وبرواية أخرى أنّهم رموا بالنبال جنازته حتى سلّ منها سبعون نبلاً ، فأراد بنو هاشم المجادلة ، فقال الحسين (عليه السلام) : الله الله لا تضيّعوا وصيّة أخي ، ولا تهرقوا دماً ، والله لولا عهد الحسن إليّ بحقن الدماء وأن لا أهريق في أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها .

ومضوا بالحسن (عليه السلام) فدفنوه بالبقيع عند جدّته فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها) .

ويروي أبو الفرج أنه لّما مات الحسن (عليه السلام) أخرجوا جنازته ، فحمل مروان بن الحكم سريره ، فقال له الحسين (عليه السلام) : تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ ؟ قال مروان : نعم كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

ويروي ابن شهر اشوب أنّه لّما وضع الحسن (عليه السلام) في لحده ، قال الحسين (عليه السلام) فيه أشعاراً منها :

أأدهن رأسي أم تطيب محاسني ورأسك معفور وأنت سليب
بكائي طويل والدموع غزيرة وأنت بعيد والمزار قريب

وفي فضل البكاء عليه وزيارته يروى عن ابن عبّاس أنّ النبي (صلّى الله عليه وآله) قال : إذا قتل ابني الحسن بالسم « تبكي الملائكة والسبع الشداد لموته ، ويبكيه كل شيء حتى الطير في جوّ السماء ، والحيتان في جوف الماء ، فمن بكاه لم تعم عينه يوم تعمى العيون ، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب ، ومن زاره في بقيعه ثبتت قدمه على الصراط يوم تزلّ الأقدام » .

---

(١) ولنعم ما قال الصقريّ البصريّ :

ويوم الحسن الهادي على بغلك أسرعتِ وبايعتِ ومانعتِ وخاصمتِ وقاتلتِ
وفي بيت رسول الله بالظلم تحكّمتِ هل الزوجة أولى بالمواريث من البنتِ
لك التسع من الثمن وبالكلّ تصرّفتِ تجمّلتِ تبغّلتِ وإن عشتِ تفيّلتِ

الفصل الخامس[1]

في طغيان معاوية واضطهاده لشيعة علي (عليه السلام)

لا يخفى أنه طالما كان الإمام الحسن (عليه السلام) حياً لم يتسنّ أبداً لمعاوية ـ وهو الطاغية المعروف ـ أن يظهر اضطهاده لشيعة عليّ (عليه السلام) كما كان يتمنّى ويرجو ، ذلك أن قلوب الناس ـ محبّهم وعدوّهم ـ كانت حافلة بالاحترام والهيبة من الإمام الحسن (عليه السلام) ، ونفوس المسلمين طافحة بالشغف والإشفاق من ذلك الصلح الذي أبرمه مع معاوية ، كما جعلوه (عليه السلام) باستمرار غرضاً لسهام الملامة ، يحثّونه على قتال معاوية طلباً لحقّه المسلوب .

كان معاوية متخوّفاً ، فكان لذلك يعامل أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) بالرفق والمداراة كلّما اتفق لأحدهم السفر إلى الشام والتنديد بمعاوية ، وحتى شتمه والتعريض به ، ثم يتركه ليعود سالماً غانماً محمّلاً بعطاياه الوفيرة من بيت المال ، ولم يكن هذا من معاوية حلماً وسخاءً بقدر ما كان مكراً ومهارة منه تقتضيهما موجبات المصلحة والتدبير ، واستمرّ هذا منه حتى سنة خمسين للهجرة ، السنة التي استشهد فيها الإمام الحسن (عليه السلام) .

قدم معاوية المدينة حاجّاً ، فاستقبله أهل المدينة ، فإذا الذين استقبلوه ما منهم إلّا قرشيّ ، فلما نزل قال : ما فعلت الأنصار ، وما لهم لم يستقبلوني ؟ فقيل له : إنّهم محتاجون ليس لهم دوابّ ، فقال معاوية : وأين نواضحهم ؟

ولا يخفى أنه إنّما أراد بقوله هذا تحقيرهم والحطّ من شأنهم ، ذلك أنه يقال : الإبل النواضح للماء كناية عن أن أصحابها من الأجراء الفقراء ، فالسقّاء لا يمكن أن يكون في عداد الأكابر والأعيان .

---

(1) لا يخفى أنه في هذا الكتاب المبارك يتمّ النقل عن ناسخ التواريخ بكثرة ، ومن قبيل ذلك هذا الفصل .

كان لهذا السؤال وقع شديد على قيس بن سعد بن عبادة ، وكان سيِّد الأنصار وابن سيِّدها ، فقال : أفنوها يوم بدر وأحد ، وما بعدهما من مشاهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، حين ضربوك وأباك على الإسلام حتّى ظهر أمر الإسلام وأنتم كارهون ، فسكت معاوية .

أردف قيس يقول : أما إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عهد إلينا أنّا سنلقى بعده أثرة ، قال معاوية : فما أمركم به ؟ فقال : أمرنا أن نصبر حتّى نلقاه ، قال : فاصبروا حتى تلقوه !!

ولا يخفى ما في إجابته هذه من التعريض بهم وبمعتقدهم باليوم الآخر ، فكأنّما يقول لهم : يا لبساطتكم إذ تظنون أنّكم ملاقو رسول الله في عالم آخر !!

ثم قال قيس : أي معاوية ، أبنواضحنا تعرّض ؟ أما والله لقد كنتم في بدر تقاتلون على النواضح ، تريدون أن تطفئوا نور الله وتثبّتوا سيرة الشيطان ، لكنّك وأباك وقومك قبلتم الإسلام بالسيف وأنتم كارهون .

ثم راح يعدّد مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) حتى قال : لمّا أجمع الأنصار على بيعة أبي قامت قريش تخاصمنا وتحتجّ علينا بقرابتها من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وبعد ذلك أنزلت ظلمها وجورها بالأنصار وآل محمد (عليهم السلام) معاً ، أما والذي نفسي بيده لا حقّ بالخلافة لأحد من الأنصار ومن قريش ، ولا لأحد من العرب والعجم سوى لعليّ المرتضى وأولاده .

أغضبت كلماته هذه معاوية فقال : يا بن سعد ، ممّن تعلّمت هذا الكلام ؟ هل أخبرك به أبوك وعنه أخذته؟ قال قيس: سمعته ممّن هو أفضل من أبي، وممّن حقّه أكبر من حقّ أبي، قال : ومن يكون ؟ قال : هو عليّ بن أبي طالب عالم هذه الأمّة ، وصدّيق هذه الأمّة ، ومن أنزل الله تعالى بحقّه قوله :

﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب ﴾

ثمّ تلا آيات كثيرة نزلت بشأن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، قال معاوية : صدّيق الأمّة أبو بكر ، وفاروق الأمّة عمر ، ومن عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام ؛ قال قيس : لا ، ليس الأمر كذلك ، بل الأحقّ والأولى بهذه الأسماء من نزلت هذه الآية فيه :

﴿ أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ﴾ .

والأحقّ والأولى هو من نصبه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في غدير خمّ وقال :

« من كنت مولاه وأولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه » .

ومن قال له في غزوة تبوك :

« أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نبيّ بعدي » .

ولمّا وصل قيس بكلامه إلى هذا المدى أمر معاوية فنادى مناديه : أن برئت الذمّة ممّن روى حديثاً في مناقب عليّ وفضل أهل بيته .

ثم إنّ معاوية مرّ بحلقة من قريش ، فلمّا رأوه قاموا من غير عبد الله بن عبّاس ، فقال : يا بن عبّاس ، ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلاّ لموجدة أنّي قاتلتكم بصفّين ؟ فلا تجد من ذلك يابن عبّاس ، فإنّ عثمان قتل مظلوماً .

قال ابن عبّاس : فعمر بن الخطّاب قد قتل مظلوماً ، قال : عمر قتله كافر ، قال ابن عبّاس : فمن قتل عثمان ؟ قال : قتله المسلمون ، قال : فذاك أدحض لحجّتك .

قال معاوية : إنّا قد كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته ، فكفّ لسانك ؛ فقال : يا معاوية ، أتنهانا عن قراءة القرآن ؟ قال : لا ، قال : أفتنهانا عن تأويله ؟ قال : نعم ! قال : فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به ؟

ثم قال : فأيّهما أوجبُ علينا قراءته أو العمل به ؟ قال : العمل به ، قال : كيف نعمل به ولا نعلم ما عنى الله ؟ قال : سل عن ذلك من يتأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك ، قال : إنّما أنزل القرآن على أهل بيتي ، أنسأل عنه آل أبي سفيان (وآل أبي معيط ، واليهود والنصارى والمجوس) ؟ قال معاوية : أو تقرنني مع هذه الطوائف ؟ قال : نعم ، لأنّك تنهى الناس عن العلم بالقرآن ، أتنهانا يا معاوية أن نعبد الله بالقرآن ، بما فيه من حلال وحرام ، فإن لم تسأل الأمّة عن ذلك حتى تعلم تهلك وتختلف .

قال معاوية : اقرأوا القرآن وتأوّلوه ، ولا ترووا شيئاً ممّا أنزل الله فيكم ، وارووا ما سوى ذلك ، قال : فإنّ الله يقول في القرآن :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

قال معاوية : يا بن عبّاس ، اربع على نفسك ، وكفّ لسانك ، وإن كنت لا بدّ فاعلاً فليكن ذلك سرّاً لا يسمعه أحدٌ علانية .

ثم رجع إلى بيته فبعث إليه بمئة ألف درهم ، أو خمسين ألفاً على رواية .

منع معاوية ذكر فضائل عليّ (عليه السلام)

ثمّ نادى منادي معاوية: أن برئت الذمّة ممّن روى حديثاً في مناقب عليّ وأهل بيته، وأعلن انّ كلّ من صعد منبراً خطيباً عليه ان يسبّ عليّاً وأن يبرأ منه، وأن يلعن أهل بيته.

ثم عرج معاوية إلى مكّة، وبعد أن فرغ من الحج قفل راجعاً إلى الشام، وشرع في تشييد قواعد ملكه، وإفساد شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام)، فكتب إلى جميع عمّاله في الأمصار يأمرهم بتشديد الرقابة على كل من تثبت محبّته لعليّ وأهل بيته، وأن يمحوا اسمه من ديوان العطاء، ولم يكتف بذلك فكتب ثانية بأن يأخذوا أنصار علي (عليه السلام) على التهمة والظنّ، فيقتلوهم، ولما شاع أمر معاوية هذا جعل عمّاله يتتبّعون الشيعة في كلّ مكان بالإخافة وقطع الأيدي والأرجل، وتخريب بيوتهم حتى اشتدّ الأمر على شيعة عليّ (عليه السلام)، فإذا أراد أحدهم الحديث مع صاحب له يثق به، قدم بيته فسارّه مسارّة خفية عن خدمه بعد أن يأخذ عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلّظة على ألا يذيع ما يقوله له، فإذا حدّثه بعد كلّ ذلك حدّثه وهو خائف فزع.

وكثر وضع الأحاديث الكاذبة الملفّقة التي جعلت أمير المؤمنين وأهل بيته (عليهم السلام) غرضاً للتجريح والبهتان، ويعلّمونها لصبيانهم، وكان أشدّ الناس في ذلك القرّاء المراؤون المتصنّعون للخشوع والورع، فكذبُوا وانتحلوا الأحاديث وولّدوها، ليحظون بذلك عند الولاة والقضاة، ويدنون منهم مجالسهم، ويصيبون بذلك الأموال والقطائع والبيوت، حتى صارت أحاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقاً، فرووها وقبلوها، ثم صارت في يد المتديّنين منهم الذين لا يستحلّون الافتعال لمثلها، فقبلوها وهم يرون أنّها حقّ، ولو علموا بطلانها لأعرضوا عن روايتها، وهكذا صار الحقّ عندهم في ذلك الزمان باطلاً، والباطل حقاً، والكذب صدقاً، والصدق كذباً.

فلمّا مات الإمام الحسن (عليه السلام) ازداد البلاء والفتنة، فلم يبق لله وليّ إلّا خائف على نفسه، أو مقتول أو طريد أو شريد؛ فإذا اتّهم أحدهم بأنّه يهودي أو نصراني كان أهون عليه من أن يقال له شيعي.

ويروى أن شخصاً يقال إنّه جدّ الأصمعي[1] قدم على الحجّاج أيام عبد الملك بن مروان وشكا إليه أن أمّه وأباه قد عقّاه وأسمياه عليّاً، وقال: أنا فقير محتاج، ولا غنى لي عن عطاء الأمير، فضحك الحجّاج وأرضاه.

---

(١) اسم الأصمعي ونسبه عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن عليّ بن الأصمع، والشخص المذكور هو عليّ بن الأصمع كما يذكر ابن خلكان.

اضطهاد شيعة علي (عليه السلام)

ونتيجة لتدابير معاوية فقد بلغ الأمر حداً كبيراً، حتى صار الخطيب إذا صعد المنبر افتتح خطبته بسبِّ عليٍّ (عليه السلام) والبراءة منه ، وعمّ ذلك كلّ قطر وناحية ، وكان أشدَّ الناس بليّة أهل الكوفة ، لكثرة من بها من الشيعة ، وكان عامل معاوية عليها زياد بن أبيه ، فضمّ إليها ولاية البصرة ، وجعل يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف ، يقتلهم تحت كلّ حجر ومدر ، يخيفهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ، ويسمل عيونهم ، ويصلبهم في جذوع النخل ، حتى نفوا عن العراق ، فلم يبق بها أحد معروف ، فهم بين مقتول أو مصلوب أو محبوس أو طريد أو شريد .

كما كتب معاوية إلى عمّاله : أن لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة ، وانظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه ومحبّي أهل بيته ، والذين يروون فضله ومناقبه ، فأدنوا مجالسهم ، وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا بمن يروي من مناقبه باسمه واسم أبيه وقبيلته ، ففعلوا حتّى كثرت الرواية في عثمان وافتعلوها لما كان يبعث إليهم من الصلات والخلع والقطائع ، من العرب والموالي ، فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في الأموال والدنيا ، فليس أحد يجيء من مصر من الأمصار فيروي في عثمان منقبة أو فضيلة إلاّ كتب اسمه ، وقرّب وأجيز .

فلبثوا بذلك ما شاء الله ، حتى كتب معاوية إلى عمّاله أنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر ، فادعوا الناس إلى الرواية في معاوية وفضله وسوابقه ، فإنّ ذلك أحبّ إلينا وأقرّ لأعيننا ، وأدحض لحجّة أهل البيت وأشدّ عليهم .

فقرأ كلّ أمير وقاض كتابه على الناس ، فأخذ الناس في الروايات في فضائل معاوية على المنبر ، في كلّ كورة وكلّ مسجد زوراً ، وألقوا ذلك إلى معلّمي الكتاتيب فعلّموا ذلك صبيانهم كما يعلّمونهم القرآن ، حتّى علّموه بناتهم ونساءهم وحشمهم ، حتى استقرّت محبّة معاوية وأهل بيته في القلوب .

واستمرّ الأمر على هذا المنوال حتّى سنة سبع وخمسين من الهجرة ، أو قبل موت معاوية بسنة واحدة ، حين عزم الإمام الحسين (عليه السلام) على الحج ، فتوجّه إلى مكة وبصحبته عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عبّاس ، وقد جمع الحسين (عليه السلام) بني هاشم ورجالهم ونساءهم ومواليهم وشيعتهم حتى اجتمع إليهم بمنى أكثر من ألف رجل ، كما اجتمع إليهم أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والتابعون والأنصار المعروفون بالصلاح والنسك ، ومن أمكن الوصول إليهم من أبنائهم ، وقام الحسين (عليه السلام) بهم خطيباً في سرادقه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال :

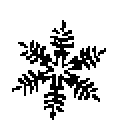
« أمّا بعد ، فإنّ هذا الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ، ورأيتم ، وشهدتم ، وبلغكم ؛ وإنّي أريد أن أسألكم عن أشياء ، فإن صدقتُ فصدّقوني ، وإن كذبت فكذّبوني ، اسمعوا مقالتي واكتموا قولي ، ثمّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم ، من أمنتم ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون ، فإنّي أخاف أن يندرس هذا الحقّ ويذهب ، والله مُتمّ نوره ولو كره الكافرون » .

وبعد أن أنهى هذه الوصيّة انتقل إلى التذكير بفضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) واحدة واحدة ، فما ترك شيئاً أنزل القرآن فيهم إلّا قاله وفسّره ، ولا شيئاً قاله الرسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أبيه وأمّه وأهل بيته إلّا رواه ، كُلّ ذلك والحاضرون يؤمّنون على أقواله .

ثم قال : أما سمعتم أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : من كان يظنّ أنه يحبّني ويعادي عليّاً (عليه السلام) فقد كذب ، فعدوّ علي لا يمكن أن يكون لي محبّاً؟ فقال رجل : وكيف ذاك ؟ وأي ضرر في أن يحبّك رجل ويكره عليّاً ؟ قال (صلّى الله عليه وآله) : ذاك لأني وعليّاً جسد واحد ، فعليّ منّي وأنا من عليّ ، فكيف يُحبّ جسد واحد ويكره في آن ؟! لا غرو أنّ من أحبّ عليّاً فقد أحبّني ، ومن عادى عليّاً فقد عاداني[1] ، فأمّن الحاضرون . والصحابة يقولون : اللهمّ نعم قد سمعناه وشهدناه ، ويقول التابعون : اللهمّ قد حدّثناه من نصدّقه ونأتمنه .

وهكذا لم يترك شيئاً إلّا قاله ، ثم قال :

أنشدكم بالله إلّا رجعتم وحدّثتم به من تثقون به ، ثمّ سكت ، وتفرّق الناس على ذلك .



(١) لا يخفى أن هذا الحديث جاء مضموناً لا نصّاً ، كالعديد من أمثاله (المعرّب) .

الفصل السادس

في بيان أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) وطرف من أحوالهم

أبناء الإمام الحسن (عليه السلام)

اعلم أن أرباب التاريخ والسير وعلماء فن الخبر أوردوا أقوالاً كثيرة ، واختلفوا اختلافاً بيّناً في تعداد أبناء السبط الأكبر لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) الإمام الحسن (عليه السلام) .

فقد جاء عن الواقدي والكلبي أن أبناءه (عليه السلام) كانوا خمسة عشر ولداً وثماني بنات ، أما الجوزي فقد عدّ منهم ستة عشر ولداً وأربع بنات ، بينما يقول ابن شهر اشوب إنهم كانوا خمسة عشر ولداً وستّ بنات ، وأورد الشيخ المفيد رحمه الله أنهم كانوا ثمانية أولاد وسبع بنات ؛ ونحن نختار تقديم قوله مع إيرادنا لأقوال الكتب الأخرى .

يقول الشيخ الأجلّ في (الإرشاد) : أولاد الحسن بن علي (عليهما السلام) خمسة عشر ولداً ، ذكراً وأنثى :

الأول والثاني والثالث : زيد بن الحسن وأختاه أم الحسن وأم الحسين ، وأمّ الثلاثة أمّ بشير بنت أبي مسعود عقبة الخزرجيّ .

الرابع : الحسن بن الحسن ، ويقال له : الحسن المثنّى ، وأمّه خولة بنت منظور الفزاريّة .

الخامس والسادس والسابع : عمر بن الحسن وأخواه الشقيقان القاسم وعبد الله ، وأمّهم أمّ ولد .

الثامن : عبد الرحمن ، وأمّه أمّ ولد أيضاً .

التاسع والعاشر والحادي عشر : الحسن الأثرم وطلحة وفاطمة ، وأمّهم أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيميّ .

والباقون : أربع بنات أسماؤهنّ : أمّ عبد الله ، وفاطمة ، وأمّ سلمة ، ورقية ، وكلّ منهنّ لأمّ .

أمّا ما جاء في الكتب الأخرى ففيه أنّ أولاد الإمام الحسن (عليه السلام) الذكور ، فعشرون ، والإناث إحدى عشرة ، وذلك بزيادة عليّ الأكبر ، وعليّ الأصغر ، وجعفر ، وعبد الله الأكبر ، وأحمد ، وإسماعيل ، ويعقوب ، وعقيل ، ومحمّد الأكبر ، ومحمّد الأصغر ، والحمزة ، وأبي بكر ، وسكينة ، وأمّ الخير ، وأمّ عبد الرحمن ، ورملة .

ومنهم أبو الحسن زيد بن الحسن (عليه السلام) أول أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) ويقول الشيخ المفيد إنّه كان يلي صدقات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وهو أسنّ أبناء الحسن (عليه السلام) ، وكان جليل القدر ، كريم الطبع ، ظريف النفس ، كثير البرّ ؛ مدحه الشعراء ، وقصده الناس من الآفاق لطلب فضله ، وذكر أصحاب السير أنه لمّا ولي سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة :

« أما بعد ، فإذا جاءك كتابي هذا فاعزل زيداً عن صدقات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وادفعها إلى فلان ابن فلان (رجل من قومه) ، وأعنه على ما استعانك عليه ، والسلام » .

فعمل والي المدينة بما أمره به سليمان وعزل زيداً عن تولّي الصدقات وولّى الآخر مكانه ، فلمّا استخلف عمر بن عبد العزيز إذا كتاب جاء منه ؛ :

« أمّا بعد ، فإنّ زيد بن الحسن شريف بني هاشم وذو سنّهم ، فإذا جاءك كتابي هذا فاردد عليه صدقات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأعنه على ما استعانك عليه ، والسلام » .

وهكذا ردّ تولّي الصدقات إلى زيد ، ومات زيد وله تسعون سنة ، فرثاه جماعة من الشعراء ، وذكروا مآثره وتلوا فضله ؛ وممّن رثاه قدامة بن موسى الجمحي ، قال في رثائه قصيدة مطلعها :

فإنْ يكُ زيدٌ غالتِ الأرضُ شخصَهُ   فقد بانَ معروفٌ هناك وجودُ

وظاهر للعيان أنّ زيد بن الحسن (رحمة الله عليه) خرج من الدنيا ولم يدّع الإمامة ، ولا ادّعاها له مدّعٍ من الشيعة ولا غيرهم ، وذلك أنّ الشيعة فريقان : إماميّ وزيديّ .

فالإماميّ يعتمد في الإمامة على النصوص ؛ وهي معدومة في ولد الحسن (عليه السلام) باتفاق العلماء ، ولم يدّع ذلك أحد منهم لنفسه .

أمّا الزيدي فيراعي في الإمامة بعد عليّ والحسن والحسين (عليهم السلام) الدعوة والجهاد ، وزيد بن الحسن (رحمة الله عليه) كان مسالماً لبني اميّة ، ومتقلداً الأعمال من قبلهم ، وكان رأيه التقيّة لأعدائه ، والتألّف لهم والمداراة ، وهذا يضادّ عند الزيديّة علامات الإمامة .

وأمّا الحشويّة فإنّها تدين بإمامة بني أميّة ، ولا ترى لولد الرسول (صلّى الله عليه وآله) إمامة على حال .

والمعتزلة لا ترى الإمامة إلّا فيمن كان على رأيها في الاعتزال ومن تولّوا العقد بالشورى والاختيار .

والخوارج لا ترى إمامة من تولّى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وزيد كان متوالياً أباه وجدّه بلا خلاف .

فلا غرو أنّ زيداً ـ باتفاق هذه الطوائف الشهيرة ـ خارج عن موضوع الإمامة .

ومن المعلوم أنّ زيداً لم يصحب عمّه في سفره إلى العراق ، وبعد استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) ، ولمّا ادّعى عبد الله بن الزبير الخلافة بايعه وقدم إليه ، بداعي أن أخته أمّ الحسن غدت زوجاً له ، فلما قتل عبد الله أخذ أخته وقدم بها المدينة من مكّة .

ويروي أبو الفرج الاصبهاني أن زيداً لازم عمّه ، وأنه أسر فيمن أسر من أهل البيت ، وبعث به إلى يزيد ، ومن ثمّ عاد إلى المدينة مع سائر أهل البيت . انتهى .

وسيأتي الحديث عن أحوال أبناء زيد إن شاء الله ، ويقول صاحب (عمدة الطالب) إن زيداً عاش مئة سنة ، أو خمساً وتسعين على قول ، أو تسعين على قول آخر ، وتوفّي في موضع بين مكّة والمدينة يقال له : حاجز .

أمّا الحسن بن الحسن (عليه السلام) ، ويقال له الحسن المثنى فكان جليلاً رئيساً فاضلاً ورعاً ، وكان يلي صدقات جدّه أمير المؤمنين (عليه السلام) في وقته ، ولمّا ولي الحجّاج بن يوسف المدينة من قبل عبد الملك بن مروان أراد إدخال عمر بن عليّ (عليه السلام) في صدقات أبيه مع الحسن المثنّى ، لكنّ الحسن لم يقبل وقال : لا أغيّر شرط عليّ (عليه السلام) ، فأجابه الحجّاج : سأشركك معه سواء رضيت أم أبيت .

اضطر الحسن إلى السكوت ، ولم يلبث في غفلة من الحجّاج أن قدم إلى عبد الملك في

الشام ، فلمّا دخل عليه رحّب به وأحسن مساءلته ، فأخبره بأمر الحجّاج ، فقال عبد الملك : ليس ذلك له ، أكتب كتاباً إليه لا يجاوزه ، فكتب إليه ، ووصله وأحسن صلته ، وغادره مكرّماً .

وكان الحسن المثنّى حضر مع عمّه الحسين (عليه السلام) يوم الطفّ ، فلمّا قتل الحسين (عليه السلام) وأسر الباقون من أهله ، ومعهم الحسن ، جاءه أسماء بن خارجة الفزاري ، وكان أخاً لأمّه خولة ، فانتزعه من بين الأسارى وقال : والله لا يصل الأذى إلى ابن خولة أبداً ، فأمر عمر بن سعد بأن يترك لأبي حسّان ابن أخته ، وقيل إن سبب ذلك هو أنّ خولة أمّ الحسن المثنّى كانت من قبيلة فزارة ، كما أنّ أبا حسّان أسماء بن حارثة كان فزارياً من قبيلة خولة .

ووفقاً لبعض الأقوال فإنّ الحسن أسر وكانت به جراحات بليغة ، فصحبه أسماء معه إلى الكوفة وعالج جراحه حتّى شفي ، وذهب من هناك إلى المدينة ؛ وكان الحسن صهراً لعمّه سيّد الشهداء (عليه السلام) إذ زوّجه بابنته فاطمة ، ويروى أنّه لمّا خطب إلى عمّه الحسين (عليه السلام) إحدى ابنتيه قال له الحسين (عليه السلام) : اختر يا بنيّ أحبّهما إليك ، فاستحيى الحسن ولم يحر جواباً ، فقال له الحسين (عليه السلام) : فإنّي اخترت لك ابنتي فاطمة ، فهي أكثرهما شبهاً بفاطمة أمّي بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : فمهرها الحسن وتزوّج بها ، ورزق منها بعدّة أبناء سيأتي الحديث عنهم إن شاء الله ، وقد أحب الحسن فاطمة حبّاً جمّاً ، كما كانت فاطمة محبّة له عطوفاً به ، وعاشت معه خمس سنين ، ثم قبض في المدينة وله من العمر خمس وثلاثون سنة ، رحمه الله ، ووصّى إلى أخيه من أمّه إبراهيم بن محمّد بن طلحة ، ودفن في البقيع .

ولمّا مات الحسن بن الحسن ضربت زوجته فاطمة على قبره فسطاطاً ، وكانت تقوم الليل وتصوم النهار ، فلمّا كان رأس السنة قالت لمواليها : إذا أظلم الليل فقوّضوا هذا الفسطاط ، فلمّا أظلم الليل سمعت ـ كما يقال ـ صوتاً يقول : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فأجابه آخر يقول : بل يئسوا فانقلبوا .

ويروي البعض أن لبيداً الشاعر تمثّل بهذا في قوله :

إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وسيأتي بيان أحوال فاطمة ضمن الحديث عن أبناء الإمام الحسين (عليه السلام) إن شاء الله .

ومضى الحسن المثنّى ولم يدّع الإمامة ، ولا ادّعاها له مدّعٍ ، كما وصفنا من حال أخيه زيد (رحمه الله) .

وأمّا عمر والقاسم وعبد الله فإنهم استشهدوا بين يدي عمّهم الحسين (عليه السلام) بالطفّ ، كما يقول الشيخ المفيد ، غير أنّ ما يظهر من كتب المقاتل والتواريخ فإن القاسم وعبد الله هما من استشهد منهم ، أما عمر بن الحسن فلم يقتل ، بل أسر فيمن أسر ، وكانت له قصة في مجلس يزيد سيأتي الحديث عنها في موضع آخر إن شاء الله .

اعلم أنه غير أولئك الثلاثة والحسن المثنّى كان من أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) ممّن شهدوا كربلاء واستشهد منهم في مَنْ استشهد ثلاثة آخرون هم : أبو بكر بن الحسن ، وسيأتي الحديث عن استشهاده إن شاء الله ، وعبد الله الأصغر ، وسيأتي الحديث عن استشهاده كذلك ، وأحمد بن الحسن الذي ورد ذكر استشهاده يوم عاشوراء في بعض كتب المقاتل ، وقد ذكر أبو الفرج في غضون الحديث عن زيد بن الحسن أنه كان أيضاً ممّن شهد كربلاء ، فمجموع من كان بين يدي الحسين (عليه السلام) من أبناء أخيه الحسن (عليه السلام) في كربلاء ثمانية .

وأمّا عبد الرحمن بن الحسن (عليه السلام) فقد خرج مع عمّه الحسين (عليه السلام) إلى الحجّ فتوفيّ بالأبواء ، وهو محرم ، (رحمة الله عليه) .

وأمّا الحسين بن الحسن (عليه السلام) فكان له فضل ، ولم يكن له ذكر في ذلك ، وكان يلقّب بالأثرم ، والأثرم تقال لمن سقطت ثناياه ، أو لمن فقد أربعاً من أسنانه .

وأمّا طلحة بن الحسن (عليه السلام) فكان رجلاً جليلاً معروفاً بالجود والسخاء ، وكان يقال له : طلحة الجود ، وهو أحد ستّة[1] حملوا اسم طلحة وعرفوا بالسخاء والجود ، وكان لكلّ منهم لقبه .

وأمّا من بنات الإمام الحسن (عليه السلام) فقد تزوّج بعضهنّ ، واشتهرن ، وهنّ :

الأولى : أمّ الحسن ، وكانت مع زيد من أمّ واحدة ، تزوّجها عبد الله بن الزبير بن العوّام ، وبعد مقتل عبد الله أخذها زيد معه إلى المدينة .

---

(١) اعلم أن (الطلحات) الذين عرفوا بالجود كانوا ستّة :

الأول : طلحة بن عبيد الله التيميّ ، ولقبه : طلحة الفيّاض .

الثاني : طلحة بن عمر بن عبد الله بن المعمّر التيميّ ، ولقبه : طلحة الندى .

الثالث : طلحة بن عبد الله بن خلف ، ولقبه : طلحة الطلحات .

الرابع : طلحة بن عوف ، ولقبه : طلحة الخير .

الخامس : طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهو المعروف بطلحة الدراهم .

السادس : طلحة بن الحسن ، ولقبه : طلحة الجود .

الثانية : أمّ عبد الله ، التي امتازت بين بنات الإمام الحسن (عليه السلام) بالجلالة وعظمة الشأن ، وكانت زوج الإمام زين العابدين (عليه السلام) ، ورزق منها بأربعة أبناء هم : الإمام محمد الباقر (عليه السلام) ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله الباهر ؛ وسنشير إلى جلالة قدرها في غضون الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) .

الثالثة : أمّ سلمة ، التي تزوّجها عمر بن زين العابدين (عليه السلام) على قول بعض النسّابة .

الرابعة : رقيّة ، وكانت زوجاً لعمرو بن الزبير بن العوّام ؛ ولم يتزوّج من بنات الإمام الحسن (عليه السلام) غير تينك الأربعة ، وإن فعلن فلم يصلنا خبر عنهنّ ، والله هو العالم .

أحفاد الإمام الحسن (عليه السلام)

لا يخفى أنه لم يعقب من أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) سوى الحسين الأثرم ، وعمر ، وزيد ، والحسن المثنّى .

فأمّا الحسين وعمر فلم يعقبا ذكوراً ، وانقطع نسلهما ، وبقي من نسل الإمام الحسن (عليه السلام) أحفاده من زيد والحسن المثنّى ، فلا غرو أن السادة الحسنيّين يتّصلون بالإمام الحسن (عليه السلام) بواسطة زيد والحسن المثنّى ، وأشير الآن إلى أبناء زيد بن الحسن ، وطرف من سيرتهم ، ثم أعقب بالإشارة إلى أبناء الحسن المثنّى ، إن شاء الله تعالى .

ذكر بني أبي الحسن زيد بن الحسن بن عليّ (عليه السلام)

زوجة زيد هي لبابة بنت عبد الله بن عبّاس ، وكانت قبله تحت أبي الفضل العبّاس بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فلمّا استشهد تزوّجها زيد ، ورزق منها بولدين الحسن ونفيسة ، التي تزوّجها الوليد بن عبد الملك فولدت له ابناً ، ومن هنا ترحيب الوليد بزيد لمّا جاءه وإفساحه مكاناً له إلى جانبه ، وإعطاؤه ثلاثين ألف دينار دفعة واحدة .

ذكر الحسن بن زيد وأولاده : ويكنّى بأبي محمّد ، وقد ولّاه المنصور الدوانيقيّ على ورسانيق ، وهو أول من اتّخذ طريقة بني العبّاس من العلويّين في لبس السواد ، وعاش ثمانين عاماً ، وأدرك المنصور والهادي والمهدي والرشيد ، وكان بينه وبين بني عمه عبد الله المحض وولديه محمد وإبراهيم فرقة وتباعد ، ولمّا قتل إبراهيم وأتوا برأسه في طست إلى المنصور ، وكان الحسن بن زيد عنده ، سأله المنصور : أتعرف صاحب هذا الرأس ؟ فقال الحسن نعم أعرفه ، وأنشد :

فتىً كان يحميه من الضيم سيفه ... وينجيه من دار الهوان اجتنابها

قال هذا وبكى ، فقال المنصور : أما إني ما أحببت أن يقتل ، لكنه أراد أخذ رأسي عن جسدي فأخذت رأسه .

يقول الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) : كان الحسن بن زيد واحداً من الأسخياء ، ولي المدينة من قبل المنصور خمس سنوات ، فغضب عليه بعدها وعزله ، وصادر أمواله وحبسه في بغداد ، وبقي في سجنه حتى هلك المنصور وخلفه المهديّ ، فأخرجه من محبسه ، وأرجع له أمواله التي صودرت منه ، وبقي معه حتى توفيّ في الحاجر ، وهو موضع على طريق الحج ، وكان في طريقه إليه .

ويروي الخطيب أنّ إسماعيل بن الحسن بن زيد قال : كان أبي يصلّي الصبح في أوّل وقته ، وذات يوم صلّى الصبح كعادته ، وأراد الخروج إلى أملاك له ، فإذا بمصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير وابنه عبد الله بن مصعب يجيئان إليه ، قال مصعب : لقد قلت شعراً أحبّ أن تسمعه ، قال : ليست الساعة ساعة قراءة الشعر ، قال مصعب : أقسم عليك بقرابتك من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلاّ ما سمعته ، وأنشد :

يا بن بنت النبيّ وابن عليّ أنت أنت المجير من ذا الزمان

وكان مراده أن يؤدّي الحسن عنه دَيناً ، فأدّاه عنه .

وأعقب الحسن بن زيد أربعة أبناء ذكور ، أولهم وأكبرهم أبو محمّد القاسم ، وأمّه أمّ سلمة بنت الحسين الأثرم ، وكان رجلاً تقيّاً ورعاً ، وكانت له خصومة مع محمّد بن عبد الله ، النفس الزكيّة ، بالتوافق مع بني العبّاس ، وكان له أربعة أولاد وبنتان[1] ، وهم :

الأول : عبد الرحمن بن الشجريّ ، نسبةً إلى الشجرة ، وهي قرية من قرى المدينة ، وهو أبو قبائل وذو عشيرة وأبناء ، ومن أحفاده الداعي الصغير وهو القاسم بن الحسن بن عليّ بن عبد الرحمن الشجريّ ، وابنه محمّد نقيب بغداد في أيّام معزّ الدولة الديلميّ ، كان صاحب قضايا كثيرة ذكرت في (عمدة الطالب) ، وأمّا الداعي الكبير فمن بني أعمامه ، وينتهي نسبه إلى إسماعيل بن الحسن بن زيد ، كما سيرد في الحديث عنه .

الثاني : محمّد البطحائيّ ، أو البطحانيّ ، على وزن سبحانيّ ، على قول ، وهو اسم محلّة في المدينة ، وينسبه البعض إلى البطحاء وزادوا في النسبة نوناً كما يقال لأهل صنعاء : صنعاني ، ويقال لمحمّد بن القاسم : البطحانيّ لطول إقامته بالبطحاء ، أو لأنه كان من سكان

(١) وكان للحسن بن زيد بنت اسمها نفسة هي زوجة إسحاق بن جعفر الصادق(ع) ، وكانت معروفة بجلالة الشأن .

وسنتحدث عنها في المجلد الثاني في غضون الحديث عن أبناء الإمام الصادق (ع) .

بطحان ، وكان فقيهاً وأباً لقبائل وذا عشيرة وأولاد ، ومن أحفاده أبو الحسن عليّ بن الحسين أخي المسمعي صهر الصاحب بن عبّاد ، وكان من أهل العلم والفضل والأدب ، وكان رئيساً في همدان ، ولمّا ولد له عبّاد من بنت الصاحب بن عباد ، سرّ الصاحب كثيراً وقال أشعاراً بالمناسبة ، منها :

الحمد لله حمداً دائماً أبدا قد صار سبطُ رسول الله لي ولدا

كما أنّ نسب سادة اصفهان المعروفين بسادة (گلستانة)[1] ينتهي إلى محمّد البطحانيّ ، وقد جاء نسب جدّ سادة (گلستانه) التي هي إحدى حفيدات الصاحب بن عبّاد كالآتي :

هو شرف شاه بن عبّاد بن أبي الفتوح محمّد بن أبي الفضل الحسين بن عليّ بن الحسين بن الحسن بن القاسم بن البطحاني ، ومن أولاده السيد العالم الفاضل المصنّف الجليل مجد الدين عبّاد بن أحمد بن إسماعيل بن عليّ بن الحسن بن شرف شاه ، وكان المذكور صاحب قضاء إصفهان في عهد السلطان أولجايتو محمد بن أرغون .

يقول صاحب (عمدة الطالب) : « ومن الأشخاص الذين وجدتهم ينتسبون إلى البطحانيّ : ناصر الدين علي بن المهديّ بن محمّد بن الحسين بن زيد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن محمّد البطحانيّ ، وهو مدفون بشق[2] قمّ في المدرسة الواقعة بمحلّة سوزانيك .

ومن أولاد البطحاني أبو الحسن الناصر بن المهدي بن حمزة ، وزير رازيّ المنشأ ، مازندرانيّ المولد ، قدم بغداد بعد مقتل السيّد النقيب عز الدين يحيى بن محمّد نقيب الريّ وقمّ وآمل ، وكان معه محمّد بن يحيى النقيب المذكور ، ففوّضت النقابة إليه ، وبعدها فوّضت إليه نيابة الوزارة ، فترك النقابة لمحمّد بن يحيى ؛ ثم اكتمل له أمر الوزارة ؛ وكان أحد الوزراء الأربعة الذين اكتملت لهم أمور الوزارة في زمان الخليفة الناصر لدين الله العباسيّ ، وكان دوماً ذا شأن وسلطة ونفاذ أمر حتى عزل ، وتوفّي في بغداد سنة سبع عشرة وستّمئة .

الثالث : حمزة ، والرابع الحسن ، وبعضهم لا يذكر اسم الحسن بين أولاد القاسم ، بل يقولون إنّه أعقب ثلاثة أبناء ؛ وأمّا البنتان فأولاهما خديجة ، وهي زوجة ابن عمّها عبد العظيم الحسنيّ ، المدفون بالريّ ، والثانية عبيدة زوجة ابن عمّها الطاهر بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن .

---

(١) گلستانة : فارسيّة ، تعني الروضة .

(٢) شقّ : ناحية .

الثاني من أبناء الحسن بن زيد بن الحسن (عليه السلام) : هو أبو الحسن عليّ ، وأمّه أمّ ولد ، ولقبه الشديد ، وقد توفيّ في حبس المنصور ، وكان له ابنة باسم فاطمة ، كما كانت له جارية اسمها هيفاء ، حملت منه ، وكان لمّا تضع حملها حين توفي عليّ الشديد ، ولمّا أتمّت مدّة حملها وضعته ذكراً ، واسماه الحسن عبد الله ، وكان يحبّه كثيراً ، وجاء نسله جميعه منه ، إذ لمّا بلغ سنّ الرشد وتزوّج رزقه الله تسعة ذكور هم : أحمد ، والقاسم ، والحسن ، وعبد العظيم ، ومحمد ، وإبراهيم ، وعليّ الأكبر ، وعليّ الأصغر ، وزيد .

عبد العظيم ، وكنيته أبو القاسم ، وقبره في الريّ معروف ومشهور ، كما اشتهر بعلّو المقام والجلالة ، وكان من أكابر المحدّثين وأعاظم العلماء ، ومن العبّاد والزهّاد ، ومن أصحاب الامامين الجواد والهادي (عليهما السلام) ، ويقول المحقق الداماد في (الرواشح) إنْ أحاديث كثيرة رويت في فضيلة زيارة عبد العظيم ، وورد أنّ من زار قبره وجبت له الجنّة .

ويروي ابن بابويه وابن قولويه أنّ رجلاً من أهل الريّ قدم إلى الإمام عليّ النقيّ (عليه السلام) فسأله : من أين قدمت ؟ قال : كنت في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ، فقال : لو أنّك تزور قبر عبد العظيم وهو عندك ، تكن كمن زار الإمام الحسين (عليه السلام) .

وإجمالاً ، فالأحاديث في فضله كثيرة ، وقد أشرنا في (تحية الزائر) و(هديّة الزائرين) إلى بعضها ، وكتب الصاحب بن عبّاد رسالة مختصرة عنه ، ونقلها الشيخ المرحوم المحدّث المتبحّر النوري (نوّر الله مرقده) في خاتمة (المستدرك) ، وقد أوردتُ مضمونها في (المفاتيح) ؛ وكان لعبد العظيم ولد اسمه محمّد ، وكان بدوره رجلاً عظيم القدر ، عرف بالزهد وكثرة العبادة .

وممّا يجدر ذكره أنّي في أيّام مجاورتي في أرض الغريّ المقدّسة في وقت استفادتي من الشيخ الجليل علاّمة عصره وفريد دهره الميرزا فتح الله ، المشهور بالشريعة الإصفهاني ، دام ظلّه العالي ، سمعت أنّه قال : إنّ أحد العلماء النسّابة ألّف كتاباً وسمه بـ (المتنقّلة) ، شرح فيه أحوال كلٍّ من السادة الذين عُرفوا بالتنقّل من مكان إلى آخر ، ومما ورد فيه أنّ محمّد بن عبد العظيم انتقل إلى السامرة وتوفّي في أراضي بلد ودُجيل ، ولما كان نصّ أقواله لا يحضرني فإنّي أورد مضمونها ، وإجمالاً فهو يستظهر من نقل هذه القضيّة في (المتنقّلة) أنّ القبر المعروف بسليل الأئمة السيّد محمّد المنزل الواقع قرب السامرة ، والمشهور بجلالة الشأن وظهور الكرامات هو قبر محمّد بن عبد العظيم الحسني كما هو معروف ، لكنّ المشهور هو أنّه قبر محمد بن عليّ الهادي (عليه السلام) الذي يمتاز بجلالة شأنه ، وهو الذي مزّق الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) ثوبه بسبب موته ، وهذا نفس ما يعتقده الشيخ المرحوم العلاّمة

النوريّ طاب ثراه ، والعلماء عامّة ، بل علماء العصر السابق كما يقول الحموي في (معجم البلدان) ؛ وقال عبد الكريم بن طاووس : إنه قبر أبي جعفر محمد بن علي الهادي (عليه السلام) بالاتّفاق .

الثالث من أبناء الحسن بن زيد بن الحسن (عليه السلام) : أبو الطاهر زيد ، وكان لزيد ثلاثة أبناء : الأول : الطاهر ، وأمّه أسماء بنت إبراهيم المخزوميّة ، وللطاهر ولدان هما محمد ، وعليّ ، وكان لمحمّد ثلاث بنات : خديجة ، ونفيسة ، وحسناء ، ولم يعقب ذكوراً ؛ وأمّ البنات الثلاث كانت من أهل صنعاء ، وكانوا من سكّانها .

الثاني : عليّ بن زيد ، والثالث : أمّ عبد الله .

الرابع من أبناء الحسن بن زيد بن الحسن (عليه السلام) : اسحاق ، المعروف بالكوكبي ، وأعقب ثلاثة أبناءٍ هم : الحسن ، والحسين ، وهارون ، وأعقب هارون ابناً باسم جعفر ، وجعفر أعقب محمّداً ، وهو الذي استشهد على يد رافع بن ليث في مدينة آمل في مازندران ، ويقال إنّ قبره مزار .

الخامس من أولاد الحسن بن زيد بن الحسن (عليه السلام) : إبراهيم ، وقد اتّخذ زوجاً له من السادة الحسنيّين فأنجبت له ابناً سمّاه إبراهيم باسمه ، ورزق ابناً آخر باسم عليّ من أمة الحميد وكانت أمّ ولد ، وينتهي نسبها إلى عمر ، ويقال إنه رزق ابناً اسمه زيد ؛ وأعقب إبراهيم بن إبراهيم ولدين : محمّداً ، وحسناً ، وأعقب محمّد ثلاثة أبناء من سلمة بنت عبد العظيم المدفون بالريّ ، وأسماؤهم : الحسن ، وعبد الله ، وأحمد .

السادس من أولاد الحسن بن زيد بن الحسن (عليه السلام) : عبد الله ، وأعقب خمسة أبناءٍ هم على التوالي : عليّ ، ومحمّد ، والحسن ، وزيد ، وإسحاق .

يقول أبو نصر البخاريّ إنّ أحداً منهم لم يعقب سوى زيد ، وأمّ زيد أمّ ولد ، وكان أشجع أهل زمانه ، وكان خارج الكوفة مع أبي السرايا ، ولمّا اشتدّ الأمر عليه فرّ إلى الأهواز ، لكنّه أخذ هناك وقُتل صبراً .

وأعقب زيد أربعة أبناء ذكورٍ هم : محمد ، وعليّ ، والحسين ، وعبد الله ؛ وأمهم كانت من السادة العلويّين ، وأعقب محمّد بن زيد ثلاثة ذكورٍ هم : الحسن ، وعليّ ، وعبد الله ، وقد سكنوا الحجاز .

السابع من أولاد الحسن بن زيد بن الحسن (عليه السلام) : أبو محمّد إسماعيل ، وهو الأخير من أبناء الحسن بن زيد ، وكان يقال له : جالب الحجارة ، وأعقب ثلاثة ذكورٍ هم : الحسن ، وعليّ ، وهو أحدث أبنائه ، وقد رزق بستّة أبناءٍ هم : الحسين ، والحسن ،

وإسماعيل ، ومحمّد ، والقاسم ، وأحمد ، الثالث من أبناء إسماعيل هو محمّد ، وأمّه من السادة الحسينيّن ، وأعقب أربعة أبناء ، أولهم : أحمد ، وقد سافر إلى بخارى ، وأنجب هناك ابناً ، وقتل هناك أيضاً ، والثاني : عليّ ، ولم يعقب ، والثالث : إسماعيل ، وأمّه خديجة بنت عبد الله بن إسحاق بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، وكان يلقب بأبيض البطن ، ولم يعقب أيضاً ؛ ورابعهم : زيد بن محمّد ، وحسب رواية العمري فأمّه من أولاد عبد الرحمن الشجريّ ، وأعقب ولدين أحدهما : الأمير الحسن الملقّب بالداعي الكبير ، والآخر : محمّد ، وقد لقّب بعد أخيه بالداعي أيضاً .

ذكر أحوال الداعي الكبير الأمير الحسن بن زيد بن محمّد ابن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) : الحسن بن زيد ويقال له : الداعي الكبير والداعي الأوّل ، وأمّه بنت عبد الله بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) ؛ خرج في طبرستان سنة خمسين ومئتين للهجرة ، وتوفيّ سنة سبعين ومئتين وكانت مدّة سلطته عشرين سنة ؛ ويقول صاحب (ناسخ التواريخ) : إنّ الداعي الكبير حمل على سليمان بن الطاهر سنة اثنتين وخمسين ومئتين من الهجرة وأخرجه من طبرستان ، واستولى على تلك الممالك ، ولم يملّ من قتل العباد وهدم البلاد .

وقد تعرّض الكثيرون من وجوه الناس وأشراف السادة في أيّام حكمه للهلاك والدمار ، وممّن قتلهم اثنان من السادة الحسينيين أحدهما : الحسين بن أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن محمّد بن عبد الله الباهر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) ، والآخر : عبيد الله بن عليّ بن الحسين بن الحسين بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) ، وقد وليا حكومتي قزوين وزنجان من قبل الداعي ، فلمّا عزم موسى بن بغا على استخلاص زنجان وقزوين جهّز جيشاً كبيراً وحمل عليهما ، فلمّا لم يكن بمقدورهما صدّه هربا إلى طبرستان ، فأحضرهما الداعي وقاضاهما بجرم الهزيمة ، ثم أغرقهما في بركةٍ من الماء حتّى أسلما الروح ، فرمى بجثّتيهما في سرداب ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين ومئتين من الهجرة ، فلمّا قدم يعقوب بن ليث إلى طبرستان ، وفرّ الداعي إلى الديلم ، استخرج الجثّتين ودفنهما .

ومن ضحايا الداعي الكبير : السيّد العقيقي ، وهو ابن خالة الداعي واسمه الحسن بن محمّد بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهما السلام) ، وقد ولي حكومة ساري من قِبل الداعي ، وأثناء غياب الداعي لبس السواد ، وهو شعار العبّاسيّين ، ودعا باسم سلاطين خراسان في خطبة ؛ فلمّا رجع الداعي

وكان قد استعاد قوّته أحضر السيد العقيقي وقد قيّدت يداه إلى عنقه، فضرب عنقه.

كما اطّلع الداعي أن جماعة من أهل طبرستان يكيدون له ويضمرون العداء، فعزم على الخلاص منهم جميعاً، فلجأ إلى التمارض، وبعد أيام علا صوت الناعي يعلن موته، ثم سجّى نفسه في تابوت، وحمله رجاله إلى المسجد للصلاة عليه، ولما اجتمع الناس في المسجد أسرع لفيف من رجاله الذين أحكم خطّته معهم فاغلقوا أبواب المسجد، ثم شهروا سيوفهم؛ كما قفز الداعي من التابوت شاكّ السلاح، وأعمل مع رجاله سيوفهم في القوم حتى قتل منهم خلقاً كثيراً.

هذا ورغم أن الداعي كان سفّاكاً للدم مغموراً بالغضب والنزاع ففي درجات الفضائل كان في محلّ منيع، وكان محطّ رحال العلماء والشعراء، وهو ـ باتفاق علماء الأنساب ـ لم يعقب أبناء إلّا بنتاً اسمها كريمة، رزق بها من جارية له، وقد توفّيت ابنته أيضاً دون أن تتزوّج.

ذكر أحوال أخي الداعي محمّد بن زيد الحسني: محمّد بن زيد لقّب بالداعي أيضاً بعد أخيه، وبعد وفاة الداعي الكبير تسلّم لواء السلطنة زوج أخته أبو الحسين أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن عليّ بن عبد الرحمن الشجريّ الحسنيّ، واستولى على ملك طبرستان، لكنّ محمّد بن زيد خرج في جيش من جرجان واشتبك مع أبي الحسين في قتال انتهى بمقتله، واستعاد طبرستان، سنة إحدى وسبعين ومئتين من الهجرة، واستقرّت تحت حكمه سبعة عشر عاماً وسبعة شهور، وقد أحكم سيطرته وسلطته، حتى أنّ رافع بن هرثمة في نيشابور كان يدعو باسمه في خطبه، وكان أبو مسلم الإصفهاني وزيراً وكاتباً له، وانتهى الأمر به إلى القتل في جرجان على يد محمّد بن هارون السّرَخسيّ صاحب إسماعيل بن أحمد السامانيّ، وقطع رأسه وبعث به إلى مرو مع ابنه الأسير، ونقل من هناك إلى بخارى، أما جسده فتمّ دفنه في جرجان إلى جانب قبر محمّد بن الإمام الصادق (عليه السلام)، الملقّب بالديباج.

ومحمّد بن زيد من الفحول في العلم والفضل، كان كبيراً في سماحته وفي شجاعته، عرف العلماء والشعراء عنده الملجأ والملاذ الكريمين، وكان من عادته أن ينظر في بيت المال في آخر كلّ عام، فما فضل فيه عن النفقات أخذه فقسّمه على القرشيّين والأنصار والفقهاء والقرّاء وغيرهم، حتى لا يترك فيه نقيراً.

اتّفق له في نهاية عام من الأعوام أنه لمّا شرع بتوزيع عطاياه على بني عبد مناف بعد أن فرغ من عطايا بني هاشم، نادى في جماعة من بني عبد مناف أن يتقدّموا لاستلام عطاياهم، فتقدّم إليه رجل يريد عطاءه، فسأله: ممّن الرجل؟ قال: من بني عبد مناف، قال: فمن أيّ من أفخاذهم؟ قال: من بني أميّة، قال: فمن أي بيت؟ فسكت الرجل؛ فقال محمّد: كأنّك من بيت معاوية؟ قال: نعم، قال: فمن أيّ الأبناء؟ فسكت؛ قال محمد: فكأنّك

من أبناء يزيد : قال : نعم ، قال : الويل لك من رجل أحمق ! تطمع في عطاء بني طالب وهم يطلبون دمك ! إن كنت لا تعلم ما صنع جدّك فأنت جاهل غافل ، وإن كنت تعلم ما صنع فقد مشيت إلى الهلاك بظلفك !

ولمّا سمع السادة العلويون أقواله التمع بريق الشرّ في أعينهم ، وهمّوا بقتله ، فصرخ محمد بن زيد بهم وقال : إيّاكم وأفكار الشرّ في حقّ هذا الرجل ، فمن ناله منكم بسوء فسيلقى منّي جزاءه ، إن كنتم تظنون أنكم تأخذونه بدم الحسين (عليه السلام) فالله عزّ وجلّ لم يأمر بعقاب أحد بذنب غيره ، والآن اسمعوني أحدّثكم حديثاً فيه الغناء لكم .

أخبرني أبي زيد أنّ الخليفة المنصور قصد مكّة المعظّمة ، وأثناء توقّفه فيها جاؤوه برجل ليبيعه جوهرة ثمينة ، ولما تأمّل المنصور الجوهرة عرف أنّها تخصّ هشام بن عبد الملك ، وأن الرجل الذي جاء يبيعها هو ابن هشام ، وقد ورثها عن أبيه ، فنظر إلى الرجل نظرة عرف منها أن سرّه قد انكشف فخاف على نفسه وانطلق هارباً بين الناس ، فأمر المنصور حاجبه الربيع بإغلاق أبواب المسجد ، وأن يترك واحداً منها مفتوحاً ، فيقف عنده ، ثم يخرج الناس فرداً فرداً ، بعد أن يتعرّف على كلّ منهم قبل خروجه ، حتى إذا عثر على محمد بن هشام جاء به إليه .

ولمّا فعل الربيع ما أمره به المنصور عرف محمّد أنه مقبوض عليه لا محالة ، فأسقط في يده ، واتّفق في ذلك الوقت أن شاهده محمّد بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) ، ورأى ما هو فيه من خوف واضطراب ، فقال له : هوّن عليك يا رجل ، أراك في حيرة وخوف شديدين ، فمن أنت ؟ قال : أو تؤمنني ؟ قال : لك الأمان ، ونجاتك في ذمّتي ، قال : أنا محمّد بن هشام بن عبد الملك ، فمن تكون أنت ؟ فعرّفه بنفسه وقال : لا عليك فأنت لست قاتل زيد ، ولن أدرك بك دمه ، والآن دعني أدبّر لك النجاة ، فافعل ما آمرك به .

ثم ألقى رداءه على رأسه ووجهه ، وراح يجرّه إلى الربيع وهو ينزل عليه باللطمة إثر اللطمة ، حتى بلغ الربيع فقال له : يا أبا الفضل هذا الرجل جمّال من الكوفة ، وقد اكتريت منه جملاً في ذهابي وأوبتي ، لكنّه فرّ منّي ولم يف باتفاقنا فأعطى الجمل لرجل آخر ، فأسألك أن تعطيني حارسين يعينانني عليه كي أحضر أمام القاضي لينصفني منه .

أعطاه الربيع رجلين ، وخرجوا جميعاً من المسجد ، ولمّا خلا بهم الطريق التفت محمّد إلى ابن هشام وقال له : أيّها الأحمق ، لو أدّيت إليّ حقّي لأغنيتك عن متاعب الحرّاس والقاضي ، فماذا تقول ؟

قال محمّد بن هشام : لك ما أردت يا بن رسول الله ؛ وعند ذاك التفت محمد بن زيد إلى الحارسين وقال : الآن وقد أدّى الرجل لي حقّي فلا داعي لتكبّدكما المزيد من المشقّة ، ويمكنكما الرجوع .

فلما ابتعدا راح محمد بن هشام يقبّل رأس محمّد بن زيد ووجهه وهو يقول : فداك أبي وأمّي ، والله أعلم حيث يضع رسالته ، ثم أخرج الجوهرة ورجاه قبولها ، فقال له :

يا بن عمّ ، إنّا أهل بيت لا نأخذ على معروف بذلناه أجراً ، وقد أغضضت طرفي عن طلب دم زيد منك ، فاستبق لك جوهرتك ، وعليك بالاختفاء ، فالمنصور جادّ في طلبك .[١]

ولما بلغ الدّاعي في حديثه هذا المبلغ ، أمر للرجل بعطاء يوازي عطاء الواحد من بني عبد مناف ، كما أمر نفراً من رجاله أن يوصلوه سالماً إلى الريّ ، فوقف الأموي فقبّل رأسه ، ومضى .

وهذا الداعي المسمّى محمّد بن زيد أعقب ولدين أوّلهما زيد الملقّب بالرضيّ ، وقد أعقب بدوره ابناً باسم محمد ، وثانيهما الحسن .

والآن ، وبعد أن فرغنا من الحديث عن بني زيد بن الحسن نشرع بالحديث عن أبناء الحسن المثنّى .

ذكر أبناء الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)

أبو محمّد الحسن بن الحسن ، ويقال له : الحسن المثنّى ، أعقب عشرة أبناء بين ذكور وإناث ، وهم :

من الأول إلى الخامس : عبد الله ، وإبراهيم ، والحسن المثلّث ، وزينب ، وأمّ كلثوم ، وأمّهم فاطمة بنت الإمام الحسين (عليه السلام) .

السادس والسابع : داود ، وجعفر ، وأمهّما أمّ ولد ، واسمها حبيبة من أهل الروم .

الثامن : محمّد ، وأمّه رملة .

التاسع والعاشر : رقيّة ، وفاطمة .

يقول أبو الحسن العمري : كان للحسن بنت أخرى اسمها قسيمة ، ولا يعرف عن

---

(١) أورد السيّد الأجلّ السيد علي خان رضوان الله عليه هذه القصّة عن محمد بن زيد الشهيد ، وقال : إنّ محمّداً هذا هو جدّي ، وإليه ينتهي نسبي ، ثم ذكر نسبه ، ثم قال :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أحوال رقيّة وفاطمة شيء ، وأمّا زينب فعقد عليها عبد الملك بن مروان ، وكانت فاطمة زوجاً لمعاوية بن عبد الله بن جعفر الطيّار ، وأنجبت له أربعة ذكور وأنثى واحدة ، وقد أتت اسماؤهم بهذا الترتيب : يزيد ، وصالح ، وحمّاد ، والحسين ، وزينب .

وأما أبناء الحسن المثنّى فجميعهم أعقبوا أبناء سوى محمّد ، وسنشرع الآن بالحديث عن أبنائهم ، وسنذكر كتتمّة لهذا الحديث مقاتل المعروفين منهم إن شاء الله تعالى .

أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن المجتبى (عليه السلام) : أبو محمد عبد الله بن الحسن ويسمّى عبد الله المحض ، ذلك أنّ أباه الحسن بن الحسن (عليه السلام) ، وأمّه فاطمة بنت الحسين (عليه السلام) ، وكان شبيهاً برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان شيخ بني هاشم ومن أجمل الناس وأكرمهم وأسخاهم ، وكان شجاعاً قويّ النفس ، قتله المنصور وستتحدث عن مقتله في آخر هذا الباب إن شاء الله .

أعقب عبد الله المحض ستة أبناء :

الأول : محمّد بن عبد الله ، الملقّب بالنفس الزكيّة المقتول عند أحجار الزيت في المدينة سنة خمس وأربعين ومئة من الهجرة ، وسيأتي الحديث عن استشهاده في آخر الباب إن شاء الله ؛ وقد أعقب أحد عشر ابناً ، ستة ذكور وخمس إناث ، وأسماؤهم : عبد الله ، وعلي ، والطاهر ، وإبرهيم ، والحسن ، ويحيى ، وفاطمة ، وزينب ، وأمّ كلثوم ، وامّ سلمة ، وأمّ سلمة أيضاً .

عبد الله كان يلقّب بالأشتر ، وقد استشهد بالهند وبُعث برأسه إلى المنصور ، كما توفّي عليّ بن محمّد بن عبد الله المحض في مجلس المنصور ، أمّا الطاهر فهناك خلاف في أنّه أعقب أم لا .

وكان لإبراهيم ابن اسمه محمّد ، مع بضع إناث ، أمّهم امرأة من نسل الإمام الحسين (عليه السلام) ، وأعقب محمد بضعة أبناء ثمّ انقرضوا .

أما الحسن فقد حضر وقعة فخّ مع الحسين بن علي وأصيب بضربة رمح ، وأعطاه العبّاسيون الأمان ، فلمّا تخلّى عن الحرب ضربوا عنقه ، كما سيأتي الحديث عنه فيما بعد ولم يعقب ، كما أنّ يحيى لم يعقب أيضاً ، وسكن المدينة حتّى وفاته .

احتلت فاطمة مكانة منيعة ، وتزوّجت من ابن عمّها الحسن بن إبراهيم وتزوّجت زينب من محمّد بن السفاح في الليلة التي استشهد فيها أبوها ، ثم تزوّجها من بعده عيسى بن عليّ العبّاسيّ ، وعقد عليها من إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن المجتبى (عليه السلام)

وتزوّجها ، كما جاء في (تذكرة) السبط ، وإجمالاً فقد كان عقب النفس الزكيّة ونسله من عبد الله الأشتر .

الثاني : مَن أبناء عبد الله المحض : إبراهيم ، ويقال له قتيل باخمرا ، وسيأتي الحديث عن مقتله في آخر هذا الباب إن شاء الله ، وأعقب عشرة أبناء ذكور هم : محمّد الأكبر ، والطاهر ، وعليّ وجعفر ، ومحمّد الأصغر ، وأحمد الأكبر ، وأحمد الأصغر ، وعبد الله ، والحسن ، وأبو عبد الله .

وأمّا محمّد الأكبر المعروف بالقشّاش فكان بلا عقب ، وكذلك كان الطاهر وعليّ وأبو عبد الله ، وأحمد الأصغر ، وتوفّي عبد الله في مصر ، وأعقب ولداً هو محمد الشاعر وانقرض ، وأعقب أحمد الأكبر ولدين وانقرض ، وأعقب جعفر ولداً باسم محمّد ، وانقرض .

أمّا محمّد الأصغر فأمّه رقيّة بنت إبراهيم الغمر بن الحسن المثنّى ، وأعقب سبعة أبناء هم : إبراهيم ، وعبد الله ، وأمّ عليّ ، وزينب ، وفاطمة ، ورقيّة ، وصفيّة ؛ وأنجب إبراهيم ابناً لكنّه انقرض .

وإجمالاً فمن أحفاد إبراهيم قتيل باخمرا لم يبق أحد سوى من الحسن الذي كان رجلاً عظيماً وجيهاً ، والحديث عن أبنائه وأحفاده يخرج بنا عن موضوع الكتاب ، وعلى من يرغب الرجوع إلى كتب مشجّرات وأنساب الطالبيّين .

الثالث : من أبناء عبد الله المحض : أبو الحسن موسى ، ويلقّب بالجون ، وقد أخذ هذا اللقب عن أمّه ، وكانت قد ولدت سوداء الوجه ، كان موسى أديباً وشاعراً ولمّا حبس المنصور أباه عبد الله أمر بإحضاره وجلده ألف سوط ، ثم قال له : وكيف يكشف لي محمد وإبراهيم عن نفسيهما وعيونك تلازمني ؟ فكتب المنصور إلى والي الحجاز كتاباً يأمره بعدم التعرّض لموسى ، ثم توجّه إلى الحجاز ، وهرب إلى مكّة ، وبقي فيها حتى قُتل أخواه محمد وإبراهيم ، وانتهى الحكم في بغداد إلى المهدي ، وفي تلك السنة قام المهديّ بزيارة مكّة ، وبينما كان منشغلاً بالطواف إذا بموسى يصرخ : أيّها الأمير ، أنا موسى بن عبد الله ، أعطني الأمان حتى أظهر لك ، فقال المهديّ : لك الأمان على هذا الشرط .

ثم تقدّم منه وقال : أنا موسى بن عبد الله المحض ، قال المهدي : فمن يعرفك ويشهد بصدقك ؟ قال : هذا الحسن بن زيد وموسى بن جعفر (عليهما السلام) والحسن بن عبيد الله بن العبّاس بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) شهودي ، فشهدوا جميعاً أنه موسى الجون ابن عبد الله ، فأعطاه المهديّ كتاب الأمان .

وبقي كذلك حتّى أيّام الرشيد ، فقدم إليه يوماً وألقى بنفسه على بساطه ، فضحك

الرشيد ، فقال موسى : هذا من ضعف الصيام وليس من ضعف الشيخوخة ؛ ثم قصّ على الرشيد حكايته مع عبد الله بن مصعب الزبيري في سعايته به عند الرشيد ، وأقسم له ؛ وقد أورد المسعودي في (مروج الذهب) قصّة موت عبد الله بن مصعب بسبب هذا القسم ، وتوفّي موسى في سويقة المدينة ، وكان أبناؤه وأحفاده من ذوي الشأن .

ومن سلالته : موسى بن عبد الله بن جون ، ويقال له : موسى الثاني ، وأمّه أمامة بنت طلحة الفزاري ، ويكنّى بأبي عمر ، كان راوية للحديث مات مقتولاً سنة ستّ وخمسين ومئتين من الهجرة .

يقول المسعودي : إن سعيداً الحاجب حمل موسى من المدينة أيّام المعتزّ بالله ، وكان موسى من الزهّاد ، وكان معه ابنه إدريس بن موسى ، ولمّا وصلوا إلى ناحية ذبالة من أراضي العراق اجتمع رهط بني فزارة وغيرهم لتخليص موسى من سعيد الحاجب، لكنّ سعيداً دسّ له السمّ فتوفّي هناك، فخلّصوا ابنه إدريس من يدي سعيد.

أبناؤه كانوا كثيرين ، وكانت فيهم إمارة الحجاز ، ومن سلالة موسى الجون : صالح بن عبد الله بن الجون ، وكانت لصالح ابنة اسمها دلفاء ، وأربعة أبناء ، بقي ثلاثة منهم دون عقب ، أما الرابع واسمه أبو عبد الله محمّد ، والمعروف بالشهيد فكان صاحب ولد ، وقبره في بغداد مزار للمسلمين .

يقول ابن معيّة الحسني النسّابة : هو محمّد بن صالح الذي يقال له : محمّد الفضل ، وقبره في بغداد مزار للمسلمين ، وما يعرفه البعض من أنه قبر محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (عليه السلام) لا صحّة له ، ويقول صاحب (عمدة الطالب) : إنّ محمّد بن صالح كان رجلاً شجاعاً جريئاً ، يقول شعراً حسناً ، ومع كون الناس يرون بيعة غاصبي حقوق أهل البيت ويتّبعونهم فلم يكن هدفاً لغاراتهم حتى زمن المتوكّل العبّاسي حيث أُخذ أسيراً إلى المتوكّل الذي أمر بحبسه في سرّ من رأى ، بعد أن أغار على القوافل التي كانت تجتاز الطريق، إلى مكّة ، وطال به الحبس ، وقال في سجنه شعراً كثيراً ، كما مدح المتوكّل بعدّة قصائد ، وكان سبب خلاصه أنّ إبراهيم بن المدبر وكان أحد وزراء المتوكّل أخذ أبياتاً من أشعار محمد بن صالح فعلّمها لأحد مغنّيّ المتوكّل وأمره بغنائها عنده ، وهذا نصّها :

طرب الفؤاد وعاده أحزانه	وتشعّبت شعباته أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى	برق تألّق موهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه	صعب الذرى متمنّع أركانه
فدنا لينظر كيف لاح فلم يطق	نظراً إليه وردّه سجّانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه	والماء ما سمحت به أجفانه

ولما سمع المتوكّل الأبيات قال : من قائل هذا الشعر ؟ فقال إبراهيم : محمّد بن صالح بن موسى الجون هو قائلها ، وأخذ على نفسه عهداً أنّ محمداً لن يخرج على المتوكّل بعد الآن ، فأطلقه المتوكّل ، لكنّه لم يفز بالعودة إلى الحجاز ، فمات في سرّ من رأى .

أما السبب في شفاعة إبراهيم لمحمّد فهو أنّه نُقل عن محمد بن صالح أنّه قال : لما أغرت على القوافل المجتازة إلى الحجاز وقهرتهم صعدتُ تلاً أنظر إلى أصحابي وهم يجمعون الغنائم ، فإذا بامرأة تخرج من القافلة وتدنو مني ، فتسألني : من هو قائد هذه الجماعة ؟ قلت : وماذا تريدين منه ؟ قالت : سمعت أنّ رجلاً من سلالة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقود هذه الجماعة ، وأنا بحاجة إليه ، قال : أنا هو ، فما حاجتك ؟ قالت : أيّها الشريف أنا ابنة إبراهيم بن المدبّر ، ولي مال كثير في هذه القافلة من إبل وحرير وأشياء أخرى ، كما أن معي في هذا الهودج كثيراً من جواهر شاه وار ، فأقسم عليك بجدّك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأمّك فاطمة الزهراء (عليها السلام) إلاّ ما أخذت هذه الأموال منّي بالطريق الحلال فلا تدع أحداً يدنو من الهودج ، وعلاوة على ذلك فإن ما تطلبه من أموال التجار فأنا كفيلة بجمعه منهم وتسليمه إليك .

فلما سمعتُ قولها صرخت بأصحابي أن ارفعوا أيديكم عن السلب ، واحضروا إليّ كلّ ما سبقتم إليه ، فلما فعلوا قلت لها : إنّي أهبك كلّ هذا ، كما سأصرف النظر عن كلّ الآخرين ، ثم مضيت دون أن آخذ قليلاً أو كثيراً .

ولما كنت محبوساً في سرّ من رأى أتاني السجّان ذات ليلة وقال : إنّ عدداً من النساء يطلبن الإذن لزيارتك ، فأذنت لهنّ معتقداً أنهنّ من أهلي ، فدخلن وهنّ يحملن الكثير من مأكول وغيره ، وأظهرن من العطف عليّ والحفاوة بي الكثير ، كما قدّمن بعض العطايا للسجّان كي يعاملني برفق ومداراة ، وكانت بينهنّ واحدة تبدو عليها سيماء الاحتشام أكثر من الأخريات ، فسألتها : من تكون ؟ قالت : أو لا تعرفني ؟ قلت : لا ، قالت : إنني ابنة إبراهيم بن المدبّر ، وأنا لم أنس ما قمت به من أجلي ، وإنّ شكرك على إحسانك فرض عليّ ، ثم ودّعتني ومضت .

وطيلة بقائي في السجن لم تتوان عن رعايتي ومساعدتي ، كما طلبت من أبيها العمل على إطلاقي من السجن .

وتم الأمر بأن زوّج إبراهيم بن المدبّر ابنته من محمّد بن صالح[1] .

---

(١) لا يخفى أنّ أبا الفرج الإصفهاني ينسب حكاية ابنة إبراهيم بن المدبّر إلى حمدونة بنت عيسى بن موسى الخالدي ، لكنّنا أخذناها عن (عمدة الطالب) أوردناها بما يتفق مع ما ذكر هناك .

مناقب محمّد بن صالح كثيرة ، ومن أبنائه عبد الله بن محمد أبو الحسن الشهيد ، وفي الحجاز كثير من أعقابه ، ويقال لهم : الصالحيّون ، ومن هذه السلالة أيضاً آل أبي الضحّاك ، وآل هزيم ، وهم بنو عبد الله بن محمّد بن صالح .

الرابع : من أبناء عبد الله المحض : يحيى صاحب الديلم ، وكان له من الجلال والفضائل ما لا يحصى ، روى كثيراً عن الإمام الصادق (عليه السلام) ، وعن أبان بن تغلب وغيرهما ، كما روى عنه جماعة أيضاً ، وكان في وقعة فخّ مع الحسين بن عليّ ، وبعد مقتل الحسين خرج إلى الصحراء وبقي مدّة في خوف على حياته حتّى فرّ إلى الديلم هرباً من هارون الرشيد ، ودعا الناس هناك إلى نفسه ، فبايعه جمع كبير ، وعلا شأنه ، الأمر الذي سبّب للرشيد هولاً وفزعاً عظيمين ، فكتب إلى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أن يحيى بن عبد الله أضحى كالشوكة في عيني فسلبني النوم ، فاكفني أمره ، وحرّرني من التفكير فيه .

فجهّز الفضل جيشاً كبيراً تحرّك به نحو الديلم ، لكنّه سلك معه طريق الرفق والمداراة فتواترت كتبه إلى يحيى حاملة إليه الترهيب تارة والترغيب أخرى ، ولم يكن يحيى على قدر من القوة يمكّنه من قتال الفضل وهزيمته ، فاستجاب له وطلب الأمان منه ، فبعث إليه الفضل بكتاب أمان من الرشيد ، وحلف له الأيمان المغلظة والمواثيق المحكمة ، فصحبه إلى الرشيد في الرابع من صفر سنة سبعين ومئة من الهجرة .

فرحّب الرشيد به ، وأكرم وفادته ، وأنعم عليه بمئتي ألف دينار وبغيرها من العطايا ، فبادر يحيى إلى وفاء ديون الحسين بن علي شهيد فخّ بهذه الأموال ، وكانت تلك الديون مئتي ألف دينار .

وإجمالاً ، فقد لجأ الرشيد إلى السكون فترة بعد قدوم يحيى إليه ، لكنّ نار الحقد لم تكن لتنطفيء في قلبه ، وذات يوم دعا يحيى إليه وراح يعاتبه فأخرج يحيى كتاب الأمان وقال للرشيد : ما كان باعثك على التذرّع بهذا الكتاب ، ولماذا تنقض عهدك ؟! أخذ الرشيد الكتاب وأعطاه لمحمد بن الحسن صاحب أبي يوسف القاضي ليقرأه ، فقرأه وقال : هذا الكتاب في أمان يحيى بيّنٌ جليّ ، ولا تشوبه شائبة من خديعة ، فبعث بالكتاب إلى ابي البختريّ وهب بن وهب ، فقرأه ثم قال : هذا الكتاب باطل لعدة أسباب ، ولا طائل تحته في الأمان ، وقضى بهدر دم يحيى وقال : دمه في عنقي !!

طلب الرشيد مولاه مسروراً وقال له : قل لأبي البختريّ : إن كان هذا الكتاب باطلاً فمزّقه، فأخذ أبو البختريّ الكتاب فمزّقه إرباً إرباً بسكّين كانت عنده، وهو لا يتمالك نفسه من الغضب .

سرّ الرشيد لهذه النتيجة ، وأمر لأبي البختريّ بألف ألف وستّمئة ألف درهم ، وأسند إليه القضاء ، ثمّ أمر بيحيى فأودع السجن ، ثم أحضره إليه بعد أيّام ، مع القضاة والشهود ، متظاهراً بأنه لم يأمر بسجنه ، وأنّه لا يريد قتله ولم يأمر به .

واجه الحاضرون يحيى ، وراح كلّ منهم يدلي برأيه ، ويحيى صامت لا ينبس ولا يجيب ، فقيل له : لماذا لا تتكلّم ؟ فأشار إلى فمه ، وهو يعني أنه لا قدرة له على الكلام ، ثم مدّ لسانه فإذا به أسود اللون .

قال الرشيد : إنّك متظاهر كذباً بأنّك مسموم ، ثم أمر به فأعيد إلى السجن ، وبقي فيه حتى نال الشهادة .

ويروي أبو الفرج أنّ الشهود كانوا لم يبلغوا بيوتهم بعد حين سقط يحيى على الأرض من شدة السمّ وقوّته .

وفي استشهاد يحيى جاءت أقوال مختلفة ، فالبعض يقول : إنّه مات مسموماً ، والبعض الآخر يقول : إنّه مُنع من الطعام حتى مات جوعاً ، ويقول جماعة آخرون : إن الرشيد أمر به فسجّي حيّاً ، ثم بنوا فوقه عموداً من الحجارة والجصّ ، حتى فارق الحياة ، وأبو فراس الحمداني يشير إلى شهادة يحيى بقصيدة يعدّد فيها مثالب بني العبّاس ، وفيها يقول :

يا جاحداً في مساويها يكتّمها غدر الرشيد بيحيى كيف يكتتم
ذاق الزبيريُّ غبَّ الحنث وانكشفت عن ابن فاطمة الأقوال والتهم

ويشير الشاعر في أبياته إلى سعاية عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بيحيى عند الرشيد بأنه يطلب البيعة لنفسه ، وأنه طلب البيعة من عبد الله بن مصعب نفسه ، وأقسم على ذلك ، فتورّم بدنه بعد قسمه ذاك ، ثم غشّاه السواد وهلك .

أعقب يحيى أحد عشر ابناً : أربع بنات وسبعة ذكور ، وكانت سلالته كثيرة ، وقد استشهد كثير من أحفاده ؛ ومن أبنائه : محمّد بن يحيى الذي قيّده البكّار الزبيريّ بالحبال والسلاسل أيّام حكم الرشيد ، في المدينة ، وبقي في سجنه حتى فارق الحياة .

ومن أحفاده : محمّد بن جعفر بن يحيى ، الذي سافر إلى مصر ومنها إلى المغرب ، والتفّ حوله جماعة ائتمروا بأمره ، وعمل بينهم بالعدل والاعتدال ، وفي آخر مرة قتل مسموماً .

وإجمالاً فأعقاب يحيى كانوا من ابنه محمّد الذي بقي في حبس الرشيد حتّى مات .

الخامس من أبناء عبد الله المحض : أبو محمّد سليمان ، عاش ثلاثة وخمسين عاماً ،

واستشهد مع الحسين بن عليّ في موقعة فخّ ، أعقب ولدين هما : عبد الله ، ومحمد ، وكان عقب سليمان من محمّد ، وقد حضر محمّد موقعة فخّ ، ويقول صاحب العمدة : إنّه فرّ إلى المغرب بعد مقتل أبيه ، وأنجب هناك ، ومن أبنائه :

عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان الذي قدم الكوفة وروى الحديث ، وكان رجلاً جليل القدر ، راوية للحديث ، ولا متّسع في هذا المختصر للحديث عن أبناء سليمان .

السادس من أبناء عبد الله المحض : أبو عبد الله إدريس ، وقد اختلفت الأقوال في استشهاده ، وأصحّ ما قيل في هذا الصدد هو أنّ إدريس شهد موقعة فخّ مع الحسين بن عليّ ، وشارك في قتال العبّاسيّين ، وبعد مقتل الحسين ومقتل أخيه سليمان فرّ إلى فاس وطنجة ومصر ، برفقة غلامه راشد ، وكان رجلاً ذا حصافة وعقل ورأي راجح ، ثمّ سافر من مصر إلى المغرب ، وهناك بايعه الناس واتّسع سلطانه ، ولما بلغ الرشيد ذلك أظلمت الدنيا في عينيه ، وكان تجهيز جيش لقتاله أمراً عسيراً ، ذلك أن القتال مع إدريس ليس سهلاً لما عرف عنه من شجاعة ورجوله ، فما كان منه سوى أن أرسل إليه سليمان بن جرير متنكّراً ، وكان سليمان هذا الناطق باسم الزيديّة ، فبعث به إليه مع عطر ممزوج بالسمّ ، فلمّا قدم عليه أكرمه وقدّمه في الصلاة ، ذلك أنّ سليمان كان متكلّماً بليغاً يحسن المنادمة ، وكان قد أعدّ طريقة هروبه على مطيّة سريعة ، وقبع يتحيّن الفرصة ، حتى كان يوم خلا فيه المجلس من راشد وغيره ، فأهدى العطر المسموم إلى إدريس الذي راح يشمّه ويتطيّب به ، بينما كان سليمان قد امتطى فرسه ومضى .

أمّا إدريس فقد اضطرب وسقط ، ولما وصل راشد إليه ورأى ما هو فيه انطلق في أثر سليمان كالريح حتّى أدركه وأصابه بجراح في رأسه ووجهه وأصابعه ، ثم رجع فكان إدريس قد قضى .

وترك إدريس وراءه امرأة هي أمّ ولد بربريّه ، وكانت حاملاً ، وبناء على الرؤية الصائبة من راشد ألبس أهل المغرب تاج السلطنة لرحم أمّ ولد ، حتى إذا وضعت حملها وكان ذكراً سمّوه إدريس على اسم أبيه ، وقد ولد بعد موت أبيه بأربعة شهور .

هذا وقد أشاع جماعة أن هذا الطفل إنّما هو لراشد ، وأنّه احتال بذلك ليصل إلى الملك ، لكن هذا القول غير ثابت ، ذلك أنّ داود بن القاسم الجعفريّ ـ وهو من كبار العلماء ، وذو معرفة تامّة بالأنساب ـ يقول : كنت من شهود وفاة إدريس بن عبد الله وولادة إدريس في فراش أبيه ، وكنت معه في المغرب ، فلم أر له مثيلاً في الجمال والجلد والجود والجودة ، ويروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنّه قال : رحم الله إدريس بن إدريس فإنّه نجيب أهل البيت وشجاعهم ، أما والله لم يبق له مثيل بيننا .

لا غرو أنّ صحّة نسب إدريس ليست موضع شكّ ، والحديث عن حكمه وعن أولاده سيأتي في موضعه ، وقد أقام العديد من أحفاده في مصر ، وصاروا يعرفون بالفاطميّين .

يقول السيد الشهيد القاضي نور الله في (المجالس) في بيانه لاستشهاد إدريس بن عبد الله : إنّ هارون بعث برجل اسمه داود ويشتهر بالشماخ ، فالتحق بخدمة إدريس ، ودخل عن طريق المكر والتلبيس في سلك خاصّته ، وذات يوم شكا إدريس من ألم في أسنانه ، فأعطاه داود شيئاً على أنه دواء لأسنانه ، وعند السحر فعل به مفعوله ، وقضى بتأثيره ، وترك إدريس جارية حاملاً ، فألبس أولياء الدولة تاج السلطنة لرحم الجارية ، ولم يوسم أحد بالسلطنة ـ في الإسلام وهو بعد جنين في رحم أمّه ـ سواه ، وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بشأنه :

« عليكم بإدريس بن إدريس ، فإنّه نجيب أهل البيت وشجاعهم » .

ذكر أحوال إبراهيم بن الحسن بن الحسن المجتبى (عليه السلام) وأحوال أبنائه

أبو الحسن إبراهيم أخ شقيق لعبد الله المحض ، وكان من كثرة الجود ومناعة المكانة وشرف المحلّ أن لُقّب بالغمر ، وكان شبيهاً شبهاً تاماً برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقيل إنه وأخاه عبد الله كانا من رواة الحديث ، وله ضريح في الكوفة يقصده القاصي والداني للزيارة ، أخذه المنصور مع أخيه والعديد من إخوانه الآخرين وسجنهم في الكوفة ، وقضوا خمس سنين في عذاب السجن ومشقّته وآلامه ، وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومئة من الهجرة انتقلت روح إبراهيم إلى دار الجنان ، وهو في السجن ، وكان أوّل شهيد من المحبوسين ، وقيل : إنّه عاش تسعاً وستّين سنة ، وكان من أصحاب الفضائل الكثيرة والمكارم الشهيرة ، وكان السفّاح في أيّامه يقدّمه ويتبارك به .

أعقب إبراهيم أحد عشر ابناً هم على التوالي : يعقوب ، ومحمّد الأكبر ، ومحمّد الأصغر ، وإسحاق ، وعليّ ، وإسماعيل ، ورقيّة ، وخديجة ، وفاطمة ، وحسنة ، وأمّ إسحاق .

أي أحفاده من إسماعيل الديباج ، ومحمد الأصغر أمّه أمّ ولد تسمّى عالية ، وكان يقال له الديباج الأصغر لكمال حسنه ، ولمّا أمسكوا به وأخذوه إلى المنصور الدوانيقي سأله : أأنت الديباج الأصغر ؟ قال : أجل ، قال : أما والله لأقتلنّك قتلة ما قتلت مثلها أحداً من أهلك ، ثم أمر به فوضع داخل أسطوانة بنوها حوله ، ثم أغلقوها حول وجهه ، وترك فيها حيّاً حتى انتقل إلى رحمة ربّه .

أما إسماعيل المكنّى بأبي إبراهيم ، والملقّب بالديباج الأكبر ، فقد شهد موقعة فخّ ،

وقضى مدّة في سجن المنصور ، وكانت له ابنة تدعى أمّ إسحاق ، وولدان هما : الحسن وإبراهيم .

وكان الحسن بن إسماعيل من شهود موقعة فخّ ، وحبسه هارون الرشيد اثنتين وعشرين سنة ، ولما وصل الأمر إلى المأمون أطلقه ، وودّع الدنيا وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ومن أبنائه : السيّد السند النسّابة العالم الفاضل جليل القدر واسع الرواية أبو عبد الله تاج الدين محمّد بن أبي جعفر القاسم بن الحسين الحسني الديباجيّ الحليّ ، المعروف بابن معيّة ، وكان صاحب مصنّفات كثيرة في الأنساب ومعرفة الرجال ، والفقه ، والحساب ، والعروض ، والحديث وغيرها ، أخذ عنه السيّد السند النسّابة جمال الملّة والدين أحمد بن علي بن الحسين الحسني الداوديّ .

يقول صاحب (عمدة الطالب) إن إليه ينتهي علم النسب في زمانه ، وقد أدركت له إسنادات عالية ومسموعات شريفة في شيخوخته ، وقمت بخدمته ما يقرب من اثني عشر عاماً ، وقرأت عنده ما أمكن من الحديث ، والنسب ، والفقه ، والحساب ، والأدب ، والتاريخ ، والشعر ، إلى غير ذلك .

ثمّ ذكر مصنّفاته مع طرف من أحواله ، ثم قال : إنّ تعداد فضائل النقيب تاج الدين محمّد يحتاج إلى شرح لا يتسع له هذا المختصر .

أقول : ابن معيّة سيّد جليل أستاذ الشيخ الشهيد ، ويروي عنه الشهيد أيضاً ، وذكره في إحدى إجازاته وقال : «إنّه أعجوبة الزمان في جميع الفضائل والمآثر» ، وقال بشأنه في مجموعته : توفّي ابن معيّة في الثامن من ربيع الآخر سنة ست وسبعين وسبعمئة في الحلّة ، وحملت جنازته إلى مشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وقد أجازني السيّد هذا كما أجاز ولديّ أبا طالب محمداً وأبا القاسم علياً قبل وفاته .

أقول : مُعَيّة (بضمّ الميم وفتح العين المهملة على وزن سميّة) هو اسم والدة أبي القاسم عليّ بن الحسن بن الحسن بن إسماعيل الديباج ، وهي بنت محمد بن الحارثة بن معاوية بن إسحاق ، من بني عمرو بن عوف ، كوفيّة ، وأصلها من بغداد .

وأمّا إبراهيم بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر فأمّه أمّ ولد ، وكان يلقّب بطباطبا .

يروى عن أبي الحسن العمريّ أن إبراهيم لمّا كان طفلاً أراد أبوه إسماعيل أن يخيط لباساً له فسأله : إن شئت عملت لك قميصاً ، وإلاّ فأخيط لك قباءً ، ولمّا كان لسانه بعد عاجزاً عن إظهار مخارج الحروف ، وأراد أن يقول : قبا قبا فأتى اللفظ معه : طبا طبا ، ولقّب بذلك ، لكنّ أهل السواد يقولون : إنّ طبا طبا تعني باللغة النبطيّة : سيّد السادات .

وإجمالاً ، فقد كان إبراهيم رجلاً جليلاً راجح الرأي ، وقد عرضت آراؤه على الإمام الرضا (عليه السلام) فجاءت نقيّة من شوائب الشكّ والشبهة ، وأعقب أحد عشر ذكراً وبنتين ، وقد وردت أسماؤهم كالآتي : جعفر ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى ، وهارون ، وعليّ ، وعبد الله ، ومحمّد ، والحسن ، وأحمد ، والقاسم ، ولبابة ، وفاطمة .

كان عبد الله وأحمد لأمّ واحدة اسمها جميلة بنت موسى بن عيسى بن عبد الرحيم ، ومن أبناء عبد الله : أحمد الذي خرج في مصر سنة سبعين ومئتين من الهجرة ، وقتله أحمد بن طالون ، وانقرض ابناؤه .

وأمّا محمّد بن إبراهيم ، ويكنّى بأبي عبد الله ، فخرج في الكوفة بمعونة أبي السرايا أيام خلافة المأمون سنة تسع وتسعين ومئة من الهجرة ، ونزلت الكوفة على البيعة له ، وارتفع شأنه ، وتوفّي فجأة في السنة نفسها في الكوفة ، ودفن في الغرّي .

ويروي أبو الفرج عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال لجابر الجعفي إنّه في سنة تسع وتسعين ومئة وفي شهر جمادى الأولى يلي رجل من أهل البيت الكوفة ، ويخطب على منبرها ، يباهي الله عزّ وجلّ به ملائكته .

والقاسم بن إبراهيم طبا طبا يكنّى بأبي محمّد ، ويقال له : الرسيّ ، ذلك أنه اتّخذ في جبل الرسّ منزلاً له ، وكان سيّداً عفيفاً زاهداً ، صاحب تصانيف ، ودعا إلى الرضا من آل محمّد (عليهم السلام) ، توفّي سنة ستّ وأربعين ومئتين .

أعقب أولاداً كثيرين ، وكان كثير منهم رؤساء ومقدّمين ، وكانت مجموعة منهم من أئمّة الزيديّة ، كبني حمزة ، وأبي الحسن يحيى الهادي بن الحسين بن القاسم الرسيّ ، الذي ظهر في اليمن أيام المعتضد سنة ثمانين ومئتين من الهجرة ، ولقّب بالهادي إلى الحقّ ، وله تصنيفات كبار في الفقه القريب من مذهب أبي حنيفة ، توفّي سنة ثمان وتسعين ومئتين من الهجرة ، وكان أبناؤه من أئمّة الزيديّة ، ومن ملوك اليمن .

ومن أبناء القاسم الرسيّ : زيد الأسود بن إبراهيم بن محمّد بن الرسيّ ، الذي طلبه عضد الدولة الديلميّ من بيت المقدس ، وزوّجه من أخته ، ولمّا توفّيت أخته زوّجه من ابنته شاها ندخت ، وكانت لكثير من أبنائه ، وجاهة ورئاسة في شيراز ، كما كان العديد منهم نقباء وقضاة في شيراز أيضاً .

وإجمالاً فإنّ سادة طبا طبا لم ينقطعوا بحمد الله حتّى زماننا هذا ، وهم كثيرون في كلّ بلد وقرية ، في شرق العالم وغربه .

ذكر أحوال أبي عليّ الحسن بن الحسن بن الحسن المجتبى (عليه السلام) وأحوال أبنائه ، وشرح موقعة فخّ واستشهاد الحسين بن عليّ وغيره

الحسن بن الحسن المثنى يقال له الحسن المثلّث ، ذلك أنّه الابن الثالث الذي يسمى الحسن بلا واسطة ، وهو الأخ الشقيق لعبد الله المحض ، وتوفّي هو أيضاً في سجن المنصور في الكوفة في شهر ذي القعدة من سنة خمس وأربعين ومئة ، وكان عمره ثمانياً وستّين سنة .

ويروي أبو الفرج أنه لمّا حُبِس عبد الله أخو الحسن المثلّث أقسم الحسن أنّه لن يمسّ الدهن بدنه ، ولن يكتحل ، ولن يلبس ثوباً ناعماً ، ولن يطعم الطيّبات ما دام عبد الله في محبسه ؛ ولهذا كان المنصور يدعوه بالحادّ ، أي من هجر الزينة .

كان الحسن رجلاً فاضلاً متألّهاً ورعاً ، وكان يميل إلى مذهب الزيديّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أعقب ستة ذكور هم : طلحة ، والعبّاس ، والحمزة ، وإبراهيم ، وعبد الله ، وعليّ .

أمّا طلحة فلم يعقب ، وأمّا العبّاس فأمّه عائشة بنت طلحة الجود ، وكان من فتيان بني هاشم ، ولمّا أُخذ إلى السجن صاحت أمّه : دعوني أشمّه وأحتضنه ، فقيل لها : لن تنالي مرادك هذا ما دمت حيّة ، وتوفّي العبّاس في محبسه في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومئة ، وعمره خمس وثلاثون سنة ، وقد أعقب ، لكنّ أبناءه انقرضوا .

ومن أبنائه عليّ بن العبّاس الذي قدم بغداد ودعا إلى نفسه ، وأجاب دعوته جماعة من الزيديّة ، وحبسه المهديّ العبّاسيّ حتى أخرجه من الحبس بشفاعة الحسين بن عليّ صاحب فخّ ، لكنّ المهديّ سقاه سمّاً فبقي تأثيره فيه حتّى قدم المدينة ، وفسد لحم بدنه من أثر السمّ ، كما تآكلت أعضاؤه عن بعضها البعض ، وكان لم يمض على وجوده في المدينة سوى ثلاثة أيام حتى فارقته الحياة .

وأمّا الحمزة فقد توفّي في حياة أبيه ، بينما لا يُعرف عن أحوال إبراهيم شيء .

وأمّا عبد الله ، وكنيته أبو جعفر ، فأمّه ابنة عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر ملاعب الأسنّة ، وقد أخذه المنصور الدوانيقي مع أخيه عليّ ومجموعة من السادة من بني الحسن ؛ فلمّا خرجوا بهم من المدينة متوجّهين إلى الكوفة ، وبلغوا قصر نفيس بالقرب من الربذة على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، أمروا الحدّادين فقيّدوا كلاًّ منهم بالأغلال ، وكانت حلقات قيد عبد الله شديدة الضيق ، فسبّبت له ألماً شديداً فتأوّه ، فأقسم له أخوه عليّ على أن يبادله بقيده ، إذ كانت حلقاته أوسع ، ثم استبدل بقيده قيد أخيه ؛ وتوفّي عبد الله في السجن وله من العمر ستّ وأربعون سنة ، وذلك يوم الأضحى سنة خمس وأربعين ومئة .

وأمّا عليّ بن الحسن الأخ الشقيق لعبد الله فكان يكنّى بأبي الحسن ، ويلقّب بعليّ الخير ، وعليّ العابد ، وبلغ درجةً من حضور القلب في العبادة أنّه كان يصلّي ذات مرة وهم في الطريق إلى مكة فتسلّلت أفعى إلى ثيابه ، فصرخ فيه الناس ، لكنّه بقي مشغولاً بصلاته حتى خرجت الأفعى من ثيابه ، دون أن تندّ عنه حركة توحي بتبدّل حاله .

ويروى أنّ أبا جعفر المنصور أودع بني الحسن في سجن بلغ من ظلمته أنّ النهار فيه لم يكن يمتاز عن الليل ، وكانوا لا يعرفون وقت الصلاة إلاّ بواسطة تسبيح عليّ بن الحسن وأوراده ، ذلك أنه كان على الدوام مشغولاً بالذكر وكان بحسب توزيع الأوراد يميّز دخول أوقات الصلاة .

ذات يوم قال له عبد الله بن الحسن المثنّى ، وقد بلغ به الضجر من السجن ، والضيق من ثقل القيود مبلغه : ألا تسأل الله أن يخلّصنا ممّا نحن فيه من سجن وبلاء ؟ فلم يجبه عليّ من فوره ، وأخيراً قال له : يا عمّ ، إنّ لنا في الجنّة درجة لن نبلغها إلا بهذا البلاء ، أو بأشدّ منه ؛ كما أن للمنصور درجة في جهنّم لن يبلغها إلاّ بإنزاله بنا ما ترى من البلاء ، فإن شئت صبرنا على هذه الشدائد ، ثمّ ننال الراحة عاجلاً ، ذلك أنّ الموت منّا قريب ، وإنّ شئت دعونا للخلاص ، ولن يصل المنصور إلى درجته تلك في جهنّم ؛ قال : بل نصبر .

فلم تمض سوى أيام ثلاثة حتّى أسلم الروح في سجنه ، وفاز بالراحة وكان عليّ بن الحسن في حال السجود حين قضى ، وظنّ عبد الله أنّ النوم غلبه فقال : يا بن أخي ، أفق ، فلم يجب ، فلمّا حرّكوه ولم يفق عرفوا أنّه مات ، وكانت وفاته في السادس والعشرين من المحرّم سنة ست وأربعين ومئة ، وكان عمره الشريف خمساً وأربعين سنة .

يروي بعض سادة بني الحسن ممّن كانوا معه في سجنه ، قالوا : تركونا في القيود أشهراً كاملة ، وكانت حلقات قيودنا واسعة ، فكنّا إذا دخلت الصلاة ، أو إذا أردنا النوم ، أخرجنا أقدامنا من القيود ، فإذا حضر السجّانون سارعنا فاتّخذنا وضعنا السابق خوفاً منهم ؛ أمّا علي بن الحسن فكان يبقى في قيوده باستمرار ، فقال له عمّه ذات يوم : ماذا يبعثك على إبقاء القيد حول قدميك ، فلا تفعل كما نفعل ؟ قال : والله لا أخرجهما من القيد حتى أفارق الدنيا على هذه الحال ، ويجمع الله بيني وبين المنصور في محضره القدسيّ فأسأله لماذا قيّدني .

وإجمالاً ، فعليّ بن الحسن أعقب خمسة ذكور وأربع إناث ، وقد وردت أسماؤهم كالآتي : محمّد ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، والحسن ، والحسين ، ورقيّة ، وفاطمة ، وأمّ كلثوم ، وأمّ الحسن .

أمّهم زينب بنت عبد الله المحض ، وكان يقال عنها وعن زوجها عليّ بن الحسن :

الزوجان الصالحان ، لما تميّزا به من العبادة والصلاح ، ولمّا قتل المنصور أباها وإخوتها وعمّها وأبناء عمّها وزوجها لبست ثياباً رثّة بقيت فيها حتى فارقت الحياة ، وكانت لا تنقطع عن الندب والبكاء، وهي لم تلعن المنصور قطّ، لئلا تشتفي نفسها منه، فينقص ثوابها، إلاّ أنّها كانت تقول :

« يا فاطر السماوات والأرض ، يا عالم الغيب والشهادة والحاكم بين عباده ، احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين » .

محمّد وعبد الله توفيّا في حياة أبيهما ، وأنجب عبد الرحمن بنتاً اسمها رقيّة ، أمّا الحسن فكان معروفاً بالمكفوف ، وقد أعقب ، ولم يكن أبناء الحسن المثلّث إلاّ منه .

أمّا الحسين بن عليّ شهيد فخّ فكان ذا فضل وجلال عظيمين ، وقد تركت مصيبته أكبر الأثر في قلوب محبّيه .

وفخّ اسم موضع على بعد فرسخ من مكّة ، وهناك استشهد الحسين مع أهل بيته .

وعن أبي نصر البخاريّ عن الإمام الجواد (عليه السلام) أنه قال :

« لم يكن لنا بعد الطفّ مصرع أعظم من فخّ » .

وعن أبي الفرج بسنده عن أبي جعفر محمد بن عليّ (عليه السلام) أنه قال : مرّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بفخّ فصلّى ركعة ، فلمّا صلّى الثانية بكى وهو في الصلاة ، فلمّا رأى الناس النبيّ يبكي بكوا ، فلمّا انصرف قال : ما يبكيكم ،؟ قالوا : لّما رأيناك تبكي بكينا يا رسول الله ، قال : نزل عليّ جبرئيل لّما صلّيت الركعة الأولى فقال لي : يا محمّد ، إنّ رجلاً من ولدك يُقتل في هذا المكان ، وأجر الشهيد معه أجر شهيدين .

ويروى عن النصر بن فرداش (قرواش) قال : أكريت جعفر بن محمّد (عليه السلام) من المدينة ، فلمّا رحلنا من بطن مرّ (اسم موضع) قال لي : يا نصر ، إذا انتهيت إلى فخّ فأعلمني ، قلت : أولست تعرفه ؟ قال : بلى ، ولكن أخشى أن تغلبني عيني ، فلمّا انتهينا إلى فخّ دنوت من المحمل فإذا هو نائم ، فتنحنحت فلم ينتبه ، فحرّكت المحمل فجلس فقلت : قد بلغت ، قال : حُلّ محملي ، ثمّ قال : صِل القطار فوصلته ، ثم تنحّيت به عن الجادّة فأنخت بعيره فقال : ناولني الإداوة[1] والركوة ، فتوضّأ وصلّى ، ثم ركب ، فقلت له : جُعلت فداك ، رأيتك قد صنعت شيئاً ، أفهو من مناسك الحجّ ، قال : لا ، ولكن يُقتل ههنا رجل من أهل بيتي في عصابة تسبق أرواحهم أجسادهم إلى الجنّة .

---

(١) الإداوة: إناء صغير من جلد، وكذلك الركوة (المنجد).

كان الحسين بن عليّ رجلاً جليل القدر ، سخيّ الطبع ، وقصص جوده وسخائه معروفة .

يروى عن الحسن بن هذيل أنه قال : كان للحسين بن عليّ بستان باعه بأربعين ألف دينار ذهباً ، وطرح المال عند باب بيته ، وراح يعطيني منها شيئاً فشيئاً حتى أذهب به إلى فقراء أهل المدينة ، حتى وزّع المال جميعه دون أن يدخل بيته حبّة واحدة منه .

ويروى أيضاً أنّ سائلاً سأله شيئاً ، ولم يكن عنده ما يعطيه فقال له : اجلس ريثما أجد لك شيئاً ، ثم بعث إلى أهل بيته أن أخرجوا ما عندي من ثياب لغسلها ، فلمّا أخرجوها له جمعها وأعطاها للسائل .

شرح موقعة فخ

أما كيفيّة مقتله ، وبإيجاز ، فهي أنّ موسى الهادي العبّاسي ولّى المدينة إسحاق بن عيسى بن عليّ ، فاستخلف عليها رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب يعرف بعبد العزيز بن عبد الله ، فحمل على الطالبيّين وأساء إليهم ، وطالبهم بالعرض كلّ يوم أمامه في قصره ، كما جعل كلاً منهم كفيلاً للآخر ، وضمن له الحسين بن علي ، ويحيى بن عبد الله المحض ، والحسن بن محمد بن عبد الله المحض ، ضمنوا أن يحضروا له كلّ من أراده منهم .

وكان هذا إلى أن وافى أوائل الحاجّ ، وقدم منهم نحوٌ من سبعين رجلاً من بلادهم ، ونزلوا في منزل ابن أفلح في البقيع ، وكانوا يلقون الحسين بن علي وغيره من العلويّين باستمرار ، فبلغ ذلك العُمريّ فساءه ، وكان قبل ذلك قد استدعى الحسن بن محمّد بن عبد الله مع ابن جندب الهذلي الشاعر ، وغلام لآل الخطّاب ، وكان قد بلغه أنّهم شربوا الخمر ، فأقام عليهم حدّ الخمر ، فجلد الحسن ثمانين جلدة ، أو مئتي جلدة برواية ابن الأثير ، وجلد ابن جندب خمس عشرة جلدة ، وغلام آل الخطّاب سبع جلدات ! ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبال ، وطيف بهم المدينة تشهيراً .

ثمّ إن العمريّ أغلظ عليهم أمر العرض ، فولّى عليهم أبا بكر بن عيسى الحائك ، فأحضرهم للعرض يوم الجمعة ، ولم يأذن لهم بالعودة إلى بيوتهم حتى دخل وقت الصلاة ، ثم عاد فاستدعاهم بعد الصلاة وجمعهم في مقصورته حتّى صلاة العصر ، وافتقد الحسن بن محمد فلم يكن بينهم ، فسأل عنه كفيليه : الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن ، وأغلظ لهما القول مهدّداً بحبسهما ، فما كان من يحيى إلاّ أنّ شتمه وخرج من عنده ، فأخبر ابن الحائك العمريّ بما جرى فاستدعاهما إليه وهدّدهما ، وغلّظ عليهما بالكلام ، وبعد أخذ وردّ قال لهما : لا بدّ أن تأتياني بالحسن بن محمّد وإلاّ أمرت بتخريب السويقة أو إحراقها ، كما هدّد بجلد

الحسين بن عليّ ألف جلدة ، وضرب عنق الحسن بن محمد ؛ فحلف له يحيى ألّا ينام حتّى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره ؛ فلمّا خرجا قال له الحسين : سبحان الله ، ما دعاك إلى هذا؟ ومن أين تجد حسناً؟ حلفت له بشيء لا تقدر عليه! قال : إنّما حلفت لا نمت حتى أضرب عليه باب داره ، ولكن بالسيف ، فأضرب عنقه ؛ قال الحسين : تكسر بهذا ما تواعدنا عليه مع أصحابنا ، فلم يحن أوان خروجنا .

وراح الحسين يطلب حسناً فلقيه وروى لـه واقع الحـال ، وطلب منه الاختفـاء كي لا تصل يد هذا الفاسق إليـه ، فقال الحسن : لا والله ، مـا كنت لأدعكما تشقيـان بسببي وأبتعد أنا ، ولا بدّ أن أكون معكما ، فقال الحسين : لن نرضى أن ينزل العمريّ الأذيّة بـك ، ويكون رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خصمنا يوم القيامة ، فأرواحنا لك الفداء .

ثم بعث الحسـين بـطلب يحيى وسليـمان وإدريس بني عبـد الله المحض ، وعبـد الله بن الحسن بن عليّ بن الحسين المعروف بالأفطس ، وإبراهيم بن إسماعيل طبـا طبا وعمـر ابن أخيه الحسن ، وعبـد الله بن إسحـاق بن إبـراهيم الغمـر ، وعبـد الله بن الإمـام جعفـر الصـادق (عليه السلام) ، والعـديد من فتيـانهم ومواليهم ، حتى اجتمـع إليه ستّـة وعشرون رجلاً من أبناء عليّ (عليه السلام) وعشرة من الحاجّ ، وجماعة من الموالي .

فلمّا أذّن المؤذّن الصبح صعد عبد الله الأفطس المنارة ، وجبر المؤذّن على قول « حي عـلى خير العمل » فقالها تحت تهديد السيف ، فلمّا سمعهـا العمريّ أحسّ بـوقوع الشرّ ودهش ، ثمّ طلب بغلتـه ومضى هاربـاً على وجهـه ، يسعى ويضرط من خوفـه حتّى نجا ، وصـلّى الحسـين بالناس الصبح ، ثم أحضر الحسن بن محمّد وشهـوداً ممّن عيّنهم العمريّ وطلب إليهم إحضـار العمريّ لعرض الحسن عليه .

وإجمـالاً فقد حضر جميـع العلويّين هـذا الحدث عـدا الحسن بن جعفـر بن الحسن المثنّى والإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، فلما انصرف الحسين من الصلاة صعد المنـبر وخطب في الناس يحرّضهم على الجهاد ، وإذ ذاك أقبـل كما الـبريدي (حمّـاد البربـري) وكان مسلحـة للسلطان بالمدينة ومعه أصحـابه حتى وافـوا باب جـبرئيل ، فقصـده يحيى بن عبد الله وفي يـده السيف ، فأراد حمّاد أن ينـزل فبدره يحيى فضربـه على جبينـه وعليه البيضـة والمغفر والقلنسـوة فقطع ذلك كلّه وأطار قحف رأسه ، وسقط عن دابّته ، وحمل على أصحابه فتفرّقوا وانهزموا .

وحجّ في تلك السنة جمـاعة من العبّـاسيّين كـالعبّاس بن محمّـد ، وسليمان بن أبي جعفـر الدوانيقيّ ، وجعفر ومحمّد ابني سليمان ، ومـوسى بن عيسى ابن عمّ والدوانيقي في جمـع مسلّح كبـير وعرجـوا نحو مكّـة ، وقد تـولّى موسى الهـادي ومحمّد بن سليـمان أمر العسكـر ، وخـرج الحسين بن عليّ قاصداً إلى مكّة ومعه من تبعه من أهله وأصحابه ومواليـه ، وهـم زهاء ثـلاثمئة

رجل ، يريدون الحجّ ، فلمّا صار بفخ تلقّتهم ، عساكر العبّاسيّين ، فعرض العبّاس على الحسين الأمان والعفو والصلة فأبى ذلك أشدّ الإباء وطلب الناس إلى بيعته .

وهكذا فات أوان الصلح والسلم ، وحان أوان القتال ، واصطفّ الطرفان صباح يوم التروية ، فكان محمّد بن سليمان على ميمنة الجند ، وموسى على الميسرة ، وسليمان والعباس في القلب .

وكان أول من بدأهم موسى ، فحملوا عليه ، فتراجع أمامهم شيئاً ، فتعقّبوه حتى انحدروا في الوادي ، وحمل عليهم محمّد بن سليمان من خلفهم فطحنهم طحنة واحدة ، حتى قتل أكثر أصحاب الحسين ، وقاتل يحيى كالأسد الهصور حتّى قتل سليمان بن عبد الله المحض ، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم الغمر وأصابت الحسن بن محمّد نشّابة في عينه فتركها وجعل يقاتل أشدّ القتال حتى ناداه محمد بن سليمان يقول : يا بن الخال ، لك الأمان فلا تودِ بنفسك قال الحسن : والله إنّك لتكذب ، لكنّي أقبل أمانك ، ثم كسر سيفه وقدم إليهم ؛ فقال العبّاس لابنه : قتلك الله إن لم تقتل حسناً ، كما حرّض موسى بن عيسى على قتله ، فضرب عبد الله عنقه ، أو موسى بن عيسى على قول .

يروي شخص حضر واقعة فخّ فيقول : رأيت الحسين بن عليّ أثناء القتال وقد جلس على الأرض ودفن شيئاً في التراب ، ثم عاد إلى القتال ، فظننت أنه دفن شيئاً ذا قيمة يحرص كي لا يناله العبّاسيون بعد مقتله ، فتريّثت حتى إذا توقّف القتال جئت أتفحّص ما دفنه ، فلما بلغت الموضع وكشفت عنه التراب رأيت قطعة من جانب وجهه ، كان قد قُطعت فدفنها.

ثمّ إنّ حمّاداً التركي ، وكان في صفوف العبّاسيّين ، صاح في الناس ، أين الحسين بن عليّ ، فلمّا بدا له عاجله بسهم فقتله ، فكافأه محمّد بن سليمان بمئة ثوب ، ومئة ألف درهم ، وانهزم جيش الحسين ، وجرح بعض وأسر آخرون ، وجاء الجند برؤوس الشهداء وكانت تزيد على المئة إلى موسى ، ومعهم الأسرى ، فأمر بالأسرى فضربت أعناقهم ، ثمّ وضعوا أمامه رأس الحسين فقال : كأنّما جئتموني برأس طاغوت من الطواغيت ، إنّ أقلّ جزاء لكم هو أن أحرمكم العطاء .

يروي أبو الفرج عن إبراهيم القطّان أنّه قال : سمعت الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله يقولان : ما خرجنا إلّا بعد أن استشرنا مع أهل بيتنا موسى بن جعفر (عليهما السلام) ، فأمرنا بالخروج .

وروي أنّ محمّد بن سليمان لّما حضرته الوفاة جعل الحاضرون يلقّنونه الشهادة وهو يقول :

ألا لـيـت أمّـي لم تـلدني ولم أكـن   لـقيـت حـسيـنـاً يـوم فـخٍّ ولا الحـسن

فجعل يردّدها حتّى مات .

وكانت واقعة فخّ سنة تسع وستين بعد المئة ، وقد رثى أصحاب فخّ كثير من الشعراء ، وقد سُمع على مياه غطفان ليلة المقتل هاتف يقول :

ألا يـا قـوم لـلسـواد المـصبّـح   ومـقـتـل أولاد الـنـبـيّ بـبـلدح
لـيـبـك حـسيـنـاً كـلّ كـهـلٍ وأمـردٍ   مـن الجـنّ إن لم يـبـك مـن إنسٍ نـوّح
وإنّي لجـنّـيّ وإنّ مـعـرّسي   لـبـالـبرقـة الـسـوداء مـن دون زحـزح

فسمعها الناس لا يدرون ما الخبر حتى أتاهم قتل الحسين فعرفوا أنّ طائفة من الجنّ كانت ترثيه .

هذا وكان مع الحسين بن عليّ من الطالبيّين في وقعة فخّ : يحيى وسليمان وإدريس بني عبد الله المحض ، وعليّ بن إبراهيم بن الحسن ، وإبراهيم بن إسماعيل طبا طبا ، والحسن بن محمّد بن عبد الله المحض ، وعبد الله وعمر ابنا إسحاق بن الحسن بن علي بن الحسين ، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنّى ، طبق ما نقله أبو الفرج عن المدائني .

وبرواية المسعودي أن أجساد شهداء فخّ بقيت مطروحة على الأرض ثلاثة أيام لم يدفنها أحد حتى تناهبتها الطيور والوحوش المفترسة .

ذكر أحوال جعفر بن الحسن المثنى وأحوال أبنائه : أبو الحسن جعفر بن الحسن كان سيّداً ذلق اللسان طليقه ، وكان يعدّ من خطباء بني هاشم ، وهو أكبر إخوته ، حبسه المنصور ثم أطلقه ليعود إلى المدينة ، وتوفّي عن سبعين عاماً ، وأعقب أربعة أبناء وستّ بنات هم : عبد الله ، والقاسم ، وإبراهيم ، والحسن ، وفاطمة ، ورقيّة ، وزينب ، وأمّ الحسن ، وأمّ الحسين ، وأمّ القاسم .

أمّا عبد الله والقاسم فبقيا بلا عقب ، وأمّا إبراهيم فأمّه أمّ ولد من روميـة ، ومن أحفاده عبد الله بن جعفر بن إبراهيم ، وأمّه آمنة بنت عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين (عليهما السلام) ، وقد سافر عبد الله هذا إلى فارس أيّام خلافة المأمون ، وبينما كان نائماً في ظلّ شجرة عدا عليه جماعة من الخوارج فقتلوه ، ولم يخلّف سوى بنت عقد عليها محمد بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأصغر ، وتوفّيت في بيته ، وانقرض نسل إبراهيم بن جعفر .

أما الحسن بن جعفر فهو الذي تخلّف عن واقعة فخّ ، وأنجب بضع إناث وخمسة ذكور هم : سليمان ، وإبراهيم ، ومحمد ، وعبد الله ، وجعفر ؛ ومن بناته فاطمة الكبرى المعروفة

بـأمّ جعفر ، وقـد تـزوّج منها عمـر بن عبـد الله بن محمّـد بن عمـران بن عـليّ بن أبي طـالب (عليه السلام) ، وقد توفّي سليمان وإبراهيم في حياة أبيهما ، ومحمّد كان معروفاً بـالسيلق وأمّه مليكة بنت الحسن بن داود بن الحسن المثنّى ، وأعقب ابنة وذكرين هم :

عائشة ومحمّد وعليّ ، وعـليّ كان يعرف بابن المحمّديّة ، وأنجب سبعة أبناء ، وتفـرّق أحفاده في البلاد ، بعضهم في راونـد ، وآخـرون في همـدان ، وسكنت مجموعـة في قـزوين ومراغة ، ومنهم في راوند كاشان العالم الفاضل الكـامل الأديب المحدّث المصنّف ضياء الـدين أبـو الـرضـا فضـل الله بن عـليّ بن الحسين بن عبيـد الله بن محمّـد بن عبيـد الله بن محمّـد بن عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد السيلق ، صاحب (ضـوء الشهاب) ، تلميـذ أبي علي بن شيخ الطائفة .

أمّا عبد الله بن الحسن بن جعفر فأعقب أربعـة أبناءهم : محمّـد ، وجعفر ، والحسن ، وعبد الله ، وكانت أمّهم امرأة علويّة ، وأعقب محمّد ابناً اسمه عليّ ، ولقبّ بالباغر ، ذلك أنّه تصارع مع باغر ـ مولى المتوكّـل العبّاسيّ ، وكـان رجلاً قـوياً شهـر السيف على المتوكل وقتله ـ فتغلّب عليه ، فتعجّب الناس ولقّبـوا السيّد بـالباغـر ، وكان أبنـاؤه كثيرين ؛ وأمّـا أخو محمّـد عبد الله فكان أميراً جليلاً ، ولاّه المأمون الكوفة .

يقول أبو نصر البخاريّ ، كان في كاشان ونيشابور عـدد كثير من أبنـاء عبد الله[1] ، أمّـا جعفـر بن الحسن بن جعفر بن الحسن المثنّى فـأعقب سبعة أبنـاء وثـلاث بنـات وحمـل كـلّ من الذكور اسم محمد ، ولكلّ منهم كنيته كالآتي : أبـو الفضل محمـد ، وأبو الحسن محمّـد ، وأبو أحمد محمّد ، وأبو جعفر محمّد ، وأبو عليّ محمّد ، وأبو الحسين محمّد ، وأبو العبّاس محمّد ؛ أما أسماء الإناث : ففاطمة ، وزينب ، وأمّ محمّد .

خرج أبو الفضل محمّد أيّام المستعين بالكوفة ، وخدعه ابن الطاهـر بتوليتـه الكوفـة حتّى أخـذه ، ثم قصد إلى سرّ من رأى فحبسـه حتى مات في محبسـه ، وكان أبنـاؤه كثـراً ، وتـولّـوا الإمامة في بغداد .

وأمّا أبو الحسن محمّد فيقال لـه أبو قـيراط ، وأبناؤه أيضـاً كانـوا كثراً ، ومن أحفاده أبو

---

(١) اعلم أنّ من أحفاد عبد الله الأمير : السيد أبـو السعادات هبـةالله بن عليّ بن محمّـد بن عليّ بن عبـد الله بن الحمزة بن محمّد بن عبد الله بن أبي الحسن عبد الله الأمير بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عـليّ بن أبي طـالب (عليهم السـلام) ، المعروف بـابن الشجريّ النحـويّ ، صـاحب تصنيفـات في النحـو وغـيره كـ (شرح اللمع) و(الأمالي) و(الحماسة) تـوفّي سنة اثنتين وأربعين وخمسين ، ودفن في بيته في الكـرخ ببغداد ، رضوان الله عليه .

الحسن محمد بن جعفر نقيب الطالبيّين في بغداد ، ولقّب بأبي قيراط .

وأمّا أبو أحمد وأبو جعفر وأبو العبّاس فكانوا بلا عقب ، بينما أعقب أبو عليّ وأبو الحسين .

ذكر أحوال داود بن الحسن المثنّى وأحوال أبنائه : داود بن الحسن كنيته أبو سليمان ، وقد ولي صدقات أمير المؤمنين (عليه السلام) من قِبل أخيه عبد الله المحض . وقد سجنه المنصور أيضاً ، جاءت أمّه إلى الإمام الصادق (عليه السلام) وشكت ، فعلّمها (عليه السلام) دعاء الاستفتاح المعروف بدعاء أمّ داود ، وكانت أمّ داود ، نسيّةً فنسيت ما علّمها إيّاه ، ثم تذكّرته في منتصف رجب فكان سبب خلاص ولدها ، وصار داود إلى المدينة وتوفّي فيها ، وكان في الستين من عمره .

أعقب داود ولدين وبنتين هم : عبد الله ، وسليمان ، ومليكة ، وحمادة ، وأمّهم أمّ كلثوم بنت الإمام زين العابدين (عليه السلام) ، تزوّجت مليكة من ابن عمها الحسن بن جعفر بن الحسن المثنّى .

أمّا عبد الله فأنجب ولدين أحدهما : محمّد الأزرق ، وهو رجل فاضل زاهد ، أنجب وانقرض أبناؤه ، والآخر : عليّ ويقال له ، ابن المحمّديّة ، توفّي في سجن الخليفة المهديّ ، وأنجب أبناء منهم : سليمان ، وكان رجلاً مجيداً عظيماً .

وأمّا سليمان بن داود فأنجب ابناً اسمه محمد ، وقد خرج في المدينة في أيّام أبي السرايا ، ويقال إنه قُتل ، وقد أعقب ثمانية أبناء ذكوراً وإناثاً هم : سليمان وموسى ، وداود ، وإسحاق ، والحسن ، وفاطمة ، ومليكة ، وكلثم ، وأنجبوا ذرّيّة كبيرة ، والحسن هو جدّ طاوس أبو قبيلة آل طاوس ، ويجدر بنا هنا أن نتحدّث عن آل طاوس .

ذكر نسب طاوس وآله ، ونبذة عن أحوالهم : الطاوس هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليهما السلام) ، ولقّب بالطاوس لحسن وجهه ولطف شمائله ، وقد عاش أبناؤه جميعاً في العراق ، ومنهم : السيّد العالم الزاهد المصنّف جليل القدر جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن محمد الطاوس صاحب كتاب (البشرى) و (الملاذ) وغيرهما ، وأخوه هو السيّد الزاهد العالم صاحب الكرامات نقيب النقباء رضيّ الدين عليّ بن موسى ، وأمّهما هي ابنة الشيخ الزاهد الأمير ورّام[1] ابن أبي فراس ، ومن هنا جاء قول الشاعر :

---

(١) وكان الأمير ورّام ينتهي نسبه الشريف إلى مالك الأشتر النخعي صاحب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وله كتاب (تنبيه الخاطر وتنزيه الناظر) ، قرأ على سديد الدين محمود الحمصي بالحلّة .

وزام جدّهم لأمّهم ومحمّد لأبيهم جدُّ

وإجمالاً ، فبنو طاوس هم بين العلماء مجموعة ، ومن أفاضل آل طاوس وأشهرهم السيّد الأجلّ رضيّ الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد ، وهو المراد باسم ابن طاوس الذي يطلقونه في كتب الأدعية والزيارات والفضائل .

والثاني : أخوه العالم الجليل جمال الدين أحمد الذي يعدّ في علمي الفقه والرجال وحيد عصره وهو المراد باسم ابن طاوس الذي يطلقونه في كتب الفقه والرجال .

والثالث : هو ابن جمال الدين أحمد ، السيّد النبيل عبد الكريم صاحب كتاب (فرحة الغرّي) والذي هو من أجلّة العلماء ووحيد زمانه في الحفظ وجودة الفهم .

والرابع : ابن عبد الكريم رضيّ الدين أبو القاسم عليّ بن عبد الكريم .

الخامس : السيّد رضيّ الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد ، صاحب كتاب (زوائد الفوائد) الذي شرك أباه الأمجد بالاسم والكنية ، كما يطلقون أحياناً (ابن طاوس) أيضاً على أخيه السيّد جلال الدين محمّد الذي صنّف له أبوه الأمجد كتاب (كشف المحجّة) .

يقول صاحب كتاب (ناسخ التواريخ) في ذيل أحوال آل طاوس : إنّهم بلغوا الكمال في جلالة القدر ، أراد الخليفة الناصر تفويض نقابة الطالبيّين إلى رضيّ الدين لكنّه طلب إعفاءه بسبب اشتغاله بالعبادة والعلم ، وعندما تمّت الغلبة لهولاكو على بغداد وقتل المستعصم هبطت نقابة الطالبيّين على السيّد رضيّ الدين ، فأراد التماس الاستعفاء ، لكنّ الخواجة نصير الدين منعه ، فخشي رضيّ الدين إن هو أعرض عنها أن تغدو بيد هولاكو تافهة لا قيمة لها ، فقبلها مكرهاً .

له مصنّفات مفيدة مثل كتاب (مهج الدعوات) و(تتمّات مصباح المتهجّد) و(مهمّات صلاح المتعبّد) و(اللهوف على قتلى الطفوف) .

وكان مستجاب الدعوة ، ووردت أخبار كثيرة على صدق ذلك ، ويقال إنّه كان يعرف الاسم الأعظم ، وقال لأبنائه : ما أكثر ما استخرتُ على أن أعلّمكم فلم يؤذن لي ، ذلك أنه مكتوب عليكم في كتبي أن تبلغوا الإدراك بالمطالعة .

أمّا السيّد جمال الدين أحمد فقد أنجب ولداً اسمه عبد الكريم غياث الدين ، والسيّد العالم جليل القدر ، كانت له مكانة مرموقة عند الخاصّ والعامّ ، ومن مصنّفاته كتاب (الشمل المنظوم في أسماء مصنّفي العلوم) ، وعدا هذا الكتاب كانت مكتبته تضمّ عشرة آلاف مجلّد من الكتب النفيسة .

أمّــا النقيب رضيّ الله عليّ بن مــوسى فقـد انجب ولـدين أحـدهمـا : محمّـد الملقّب بصفيّ الـدين ، والمعـروف بـالمصـطفى ، والآخـر : عليّ الملقّب برضيّ الـدين ، والمعـروف بالمرتضى ، وكان صفيّ الدين رجلاً قديراً ، لكنّه توفّي بلا عقب وانقرض .

ولي رضيّ الـدين عليّ منصب نقيب النقبـاء بعد أبيـه ، أنجب ابنة تـزوّجت من الشيـخ بدر الدين المعروف بشيخ المشايخ ، وأنجبت لـه ابناً اسمـه قوام الـدين ، وكان لا يـزال طفلاً عندما فـارق أبوه الحيـاة ، وطلبه السلطان سعيـد أولجايتـو ، وكان يجلسـه على فخـذه ويحتضنه بسعادة ، وفي طفولته تلك صار نقيب النقباء مكان أبيه .

أما رضيّ الدين عليّ بن عليّ بن موسى فقد رزق ابنـة تزوّجت من فخـر الدين محمـد بن كتيلة الحسيني ، وأنجبت ولداً سمّوه عليّاً الهادي ، توفّي بلا عقب في حياة أبيه وأمّه .

وأعقب قـوام الدين ولـدين أحدهمـا عبـد الله المكنّى بـأبي بكـر والملقّب بنجم الـدين ، والآخر عمر ؛ أمّا نجم الدين فـولي نقابـة بغداد والحلّة وسرّ من رأى ، وصـار يُعرف بعـد أبيه بنقيب النقباء ، لكنّه كان رجلاً ضعيفاً ، فبعض أموال أسرتـه بدّدهـا قوام الـدين هدراً ، ومـا بقي منها أتلفه نجم الدين ، وتوفّي سنة خمس وسبعين وسبعمئة من الهجرة ، وولي أخوه النقابة مكانه .

ومن بني طاوس العراق السيّد مجد الدين ، صاحب كتـاب (البشارة) وفيـه ذكر أخبـار وآثار كغلبة المغول على البلاد ، والتذكير بانقـراض دولة بغـداد ؛ ولمّا اقـترب هولاكـومن بغداد خرج مجد الدين مع مجموعة من سادة الحلّة وعلمائها لاستقباله ، وأطلعـوه على ذلـك الكتـاب ، واعتبره هولاكو عظيم العظمة ، وكتب كتاب أمان للحلّة والمشهدين وتلك النواحي ، ولمـا بلغ بغـداد أمر بـأن ينادي المنـادي أنّ كلّ من هـو من أهل الحلّة وأعـمالها يمكنـه الخـروج بسـلام ، وأخذت تلك الجماعة طريق عودتها دون مشقّة .

غـير أنّ الشيخ الجليـل الحسن بن سليمان الحلّي تلميذ الشهيـد الأول ينسب ـ في كتـاب (منتخب البصائر) ـ كتاب (البشارة) إلى السيّد علي بن طاوس ، والله تعالى هو العالم .

خاتمة في ذكر مقتل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طـالب (عليه السـلام) ومقتـل ولـديـه محمّـد وإبـراهيم ، وفـاءً بمـا وعـدنـاه عند تعـداد أبنـاء الإمـام الحسن (عليه السلام) : لا يخفى أنّه لمّا قُتل الوليد بن يزيـد بن عبد الملك واتّجـه حكم بني أميّة نحـو الضعف والـزوال ، اجتمع رهط من بني العبّاس وبني هاشـم في الأبـواء ، وفيهم : أبو جعفـر المنصـور ، وأخـواه السفّـاح ، وإبـراهيم بن محمّـد ، وعمّـه صـالـح بن عـليّ ، وعبـد الله

المحض[1] ، وولداه محمّد وإبراهيم ، وأخوه محمّد الديباج ، وغيرهم ؛ اجتمعوا في الأبواء ، وتواثقوا على مبايعة ابني عبد الله المحض ، وإسناد الخلافة لأحدهما ، واختاروا من بينهما محمّد بن عبد الله على أنّه المهديّ كما زعموا ، وأنّه من أهل بيت الرسالة ، بعد أن بلغ أسماعهم أنّ مهديّ آل محمّد اسمه اسم النبيّ (صلى الله عليه وآله) وأنّه يملك الأرض ويملأ العالم شرقه وغربه قسطاً وعدلاً بعد أن ملىء ظلماً وجوراً ، فلا غرو أنّهم مدّوا أيديهم إلى محمّد وبايعوه ، ثم بعثوا يستدعون عبد الله بن محمّد بن عمر بن عليّ (عليه السلام) ، والإمام الصادق (عليه السلام) ؛ لكنّ عبد الله المحض قال : إن طلبكم للإمام الصادق (عليه السلام) لا فائدة له ، ذلك أنّه لا يرى الصواب فيما ترون ، فلمّا قدم (عليه السلام) إليهم أوسع له عبد الله مكاناً إلى جانبه وأطلعه على واقع الحال ، فقال (عليه السلام) : « لا تفعلوا ، فإنّ هذا الأمر لم يأت بعد ، إن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهديّ فليس به ، ولا هذا أوانه ، وإن كنت إنّما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإنّا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك في هذا الأمر » .

فغضب عبد الله بن الحسن وقال : لقد علمت خلاف ما تقول ، والله ما أطلعك على غيبه ، ولكن يحملك على هذا الحسد لابني ، فقال : « ما والله ذاك يحملني ، ولكن هذا وإخوته ، وأبناؤه دونكم » ، وضرب بيده على ظهر أبي العبّاس (السفاح) ثمّ ضرب على كتف عبد الله بن الحسن وقال : « إنّها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ، ولكنها لهم ، وإنّ ابنيك لمقتولان » .

ثمّ نهض فتوكّأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري وخرج ، ثم قال لعبد العزيز : أترى صاحب الرداء الأصفر ؟ (يعني أبا جعفر) فقال له : نعم ، قال : إنّا والله نجده يقتله » . (يعني أن أبا جعفر المنصور سيقتل عبد الله) . قال عبد العزيز : وهل سيقتل محمّد أيضاً ؟ قال : نعم .

قال : فقلت في نفسي : حسده وربّ الكعبة ثم قال : والله ما خرجت من الدنيا حتّى رأيته قتلهما .

قال : فلمّا قال جعفر (عليه السلام) ذلك ، ونهض القوم وافترقوا ، تبعه عبد الصمد وأبو جعفر فقالا : يا أبا عبد الله ، أتقول هذا ؟ قال : « نعم أقوله والله ، وأعلمه » .

عرف بنو العبّاس صحّة كلامه وثبوته ، وعقدوا النيّة من يومهم ذاك على الفوز بالحكم ،

---

(١) عبد الله المحض هو ابن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليهما السلام) وأمّه فاطمة بنت سيّد الشهداء (عليه السلام) كما تقدّم .

وراحوا يعدّون لذلك عدّتهم حتى أدركوه .

روى شيخنا المفيد عن عنبسة بن بجاد العابد قال : كان جعفر بن محمد (عليه السلام) إذا رأى محمداً بن عبد الله بن الحسن تغرغرت عيناه ، ثمّ يقول : « بنفسي هو ، إنّ الناس ليقولون فيه ، وإنّه لمقتول ، ليس هو في كتاب عليّ من خلفاء هذه الأمّة» .

يقول المؤلف : رغم أنّه يظهر من تخاطب عبد الله المحض مع الإمام الصادق (عليه السلام) سوء رأي عبد الله ، لكنّه وردت أخبار كثيرة في مدحهم ، كما يجب القول : إنّ الإمام الصادق (عليه السلام) بكى كثيراً عليهم لمّا خرجوا بهم أسارى من المدينة إلى الكوفة ، ولعن الأنصار ، ثم دخل بيته فحمّ عشرين ليلة لم يزل يبكي فيها الليل والنهار .

ثم كتابته (عليه السلام) معزّياً عبد الله وأهل بيته ، والتي عبّر فيها عن عبد الله بن الحسن بالعبد الصالح ، والدعاء له وبني عمّه بالسعادة ، هذه التعزية التي أوردها السيّد ابن طاوس في (الإقبال) وقال : هذا يدّل على أن الجماعة كانوا عند الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) معذورين ومظلومين وممدوحين ، وبحقّه عارفين .

وقال أيضاً : وقد يوجد في الكتب أنّهم كانوا للصادق (عليه السلام) مفارقين ، وذلك محمول على التقيّة لئلا ينسب خروجهم ـ للنهي عن المنكر ـ إلى الأئمة الطاهرين .

وممّا يدلّ عليه ما رواه خلّاد بن عمير الكندي قال : دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال : هل لكم علم بآل الحسن الذين أخرجهم المنصور من المدينة ؟ قال : وكان اتّصل بنا عنهم أنّهم استشهدوا فلم نحبّ أن نبدأه بخبرهم ، فقلنا : نرجو أن يعافيهم الله ، فقال : وأين هم من العافية؟ ثمّ بكى (عليه السلام) حتى علا صوته وبكينا .

ثم قال : حدّثني أبي عن فاطمة بنت الحسين (عليه السلام) قالت : سمعت أبي صلوات الله عليه يقول : يقتل منك (أي من ولدك) أو يصاب منك نفر بشطّ الفرات ما سبقهم الأوّلون ، ولا يدركهم الآخرون .

ثم قال الصادق (عليه السلام) : « إنّه لم يبق من ولدها غيرهم » . وهذا مصداق الحديث ، فلا غرو أنّهم المقتولون بشطّ الفرات .

ثم أورد السيّد ابن طاوس طرفاً من أخبارهم وعن جلالة قدرهم ، مبيّناً أنّهم لم يكونوا يعتقدون أنّ مهديّهم هو المهديّ الموعود (عليه السلام) .

ومن شاء المزيد فليرجع إلى أعمال شهر المحرّم في (إقبال الأعمال) .

وإجمالاً ، فإنّ محمداً وإبراهيم ابني عبد الله عاشا في هوى الخلافة والإعداد لها ، فلمّا آل

أمر الخلافة إلى أبي العبّاس السفّاح فرًا وتواريا عن الناس ، وكان السفّاح يُجلّ عبد الله المحض ويكرمه .

يقول السبط بن الجوزي : قال عبد الله لابن العبّاس يوماً : لم يتّفق لي قطّ أن رأيت ألف ... درهم مجتمعة عندي ، فقال له : الآن ستراها ، ثم أمر له بألف ألف درهم .

ويروي أبو الفرج أنّه لّما تسنّم السفّاح سدّة الخلافة وفد عليه عبد الله وأخوه الحسن المثلث ، فأكرمهما وأجزل لهما العطاء ، ورعاهما ، وزاد في إكرام عبد الله ؛ غير أنه كان يسأل عبد الله عن ولديه محمّد وإبراهيم ، وأين يكونان ؟ ولماذا لا يقدمان عليه ؟ فيقول عبد الله : لا يبعثها على الاستتار أمر فيه كره للخليفة ؛ وكان أبو العبّاس لا يفتأ يعيد تساؤله ويكرّره ، الأمر الذي نغّص على عبد الله عيشه ، حتّى كان يوم قال أبو العبّاس لعبد الله : لقد أخفيت ولديك يا عبد الله ، ولا بدّ أن يكون القتل مصيرهما .

رجع عبد الله إلى بيته كئيباً حزيناً ، فلما رأى الحسن المثلّث (جاء اسم إبراهيم الغمر مكان الحسن في عمدة الطالب) آثار الحزن على أخيه قال : ما يحزنك يا أخي ؟ فروى له مطالبة السفّاح بولديه ، فقال : إن سألك عنهما هذه المرة فقل : الخبر عنهما عند عمّهما ، وأنا كفيل بإسكاته .

فلمّا عاود العبّاس الحديث عنهما ذات يوم اخبره أنّ الخبر اليقين عنهما إنّما هو عند عمّهما ؛ فتريّث أبو العبّاس ، حتّى إذا كان عبد الله يوماً خارج بيته أرسل وراء الحسن المثلّث وسأله عنهما ، فقال :

أيّها الأمير ، أأحدّثك حديث الرعيّة مع السلطان ، أم حديث رجل مع ابن عمّه ؟ قال : بل حديث رجل مع ابن عمّه ، قال الحسن : أيّها الأمير ، لو شاء الله أنت تكون الخلافة من نصيب محمّد وإبراهيم ، أيكون في مقدورك ومقدور المخلوقات في السماء والأرض دفعها عن ذلك ؟ قال : لا والله ؛ قال الحسن : فلو لم يشأ الله ، هل في مقدور أهل السماء والأرض مجتمعين ضمان الأمر لهما ؟ قال : لا والله ؛ قال : فلماذا إذاً تطالب هذا الشيخ المسّن بهما ، وتنغّص عليه ما تنعم به عليه ؟ قال أبو العبّاس : لن أذكر اسميهما بعد اليوم قطّ .

ولم يأت على ذكرهما طيلة حياته ، ثم إنّه أمر عبد الله بالرجوع إلى المدينة ، وسار الأمر على ذلك حتى موت السفّاح ، وانتقال الخلافة إلى المنصور ؛ الذي عزم ـ لخبث طينته ودناءة فطرته ـ على قتل محمّد وإبراهيم ، وفي سنة أربعين ومئة قصد الحج ، وجعل رجوعه عن طريق المدينة ، فلما بلغها طلب عبد الله وسأله عن ولديه ، فقال : لا علم لي بمكانهما ، فشتمه وأغلظ له القول ، وأمر به فسجن في بيت مروان ، وكان سجّانه رياح بن عثمان ، وبعد عبد الله

أمسكوا بجماعة من آل أبي طالب واحداً إثر الآخر ، وأودعوهم السجن ، وفيهم الحسن وإبراهيم وأبو بكر ، أخوة عبد الله ، والحسن بن جعفر بن الحسن المثنّى ، وسليمان وعبد الله وعليّ والعبّاس أبناء داود بن الحسن المثنّى ، ومحمد وإسحاق ابنا إبراهيم بن الحسن المثنّى ، والعبّاس وعليّ العابد ابنا الحسن المثلّث ، وعليّ بن محمّد النفس الزكيّة ، وغيرهم ممّن تقدّم الحديث عنهم عند ذكر بني الإمام الحسن (عليه السلام) .

وإجمالاً فقد وضعهم رياح بن عثمان في الأغلال والقيود ، وراح يشتدّ ويقسو عليهم ، وكان بين وقت وآخر يبعث إلى عبد الله بمن ينصحه ويستشفّ منه ما قد يكون بلغه عن مكان ولديه ، فكانوا إذا حدّثوا عبد الله بذلك ، وألحوا عليه باللائمة لكتمانه أمرهما أجابهم بقوله :

ألا إن بليّتي أكبر من بليّة خليل الرحمن ، ذلك أنّه أُمر بذبح ولده ، وكان هذا الذبح في طاعة الله ، غير أنّي أومر بتقديم ولديّ للذبح ، وذبحهما في معصية الله

ومضت عليهم في سجنهم ثلاث سنوات ، حتّى إذا حلّت سنة أربع وأربعين ومئة حجّ المنصور ثانية ، لكنه لم يجعل عودته عن طريق المدينة بل أخذ طريقه إلى الرَّبذة ، فوافاه رياح بن عثمان إلى هناك لرؤيته ، فأمره بالعودة إلى المدينة ، وأن يعود إليه مع مسجونيه من بني الحسن ، فتوجّه رياح إلى المدينة يرافقه أبو الأزهر سجّان المنصور ، وكان رجلاً خبيثاً سيّىء الطويّة والخلق ، وهناك وضع بني الحسن بالقيود والأغلال والسلاسل ، وخرجوا بهم ومعهم محمّد الديباج أخو عبد الله المحض لأمّه ، مغلولاً كذلك ، ولمّا توجّهوا بهم نحو الربذة وقف الصادق (عليه السلام) ينظر إليهم من وراء ستر وقد هملت عيناه ، حتّى جرت دموعه على لحيته ، وهو يقول : لعنكم الله يا معشر الأنصار ، ما على هذا عاهدتم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولا بايعتموه ، فقد بايعتموه على أن تمنعوه وذرّيّته ممّا تمنعون منه أنفسكم وذراريكم ، وعلى رواية أنه (عليه السلام) دخل بيته فحمّ عشرين ليلة لم يزل يبكي فيهما الليل والنهار ، حتّى خيف عليه .

قدم الحرس ببني الحسن الربذة ، وتركوهم هناك تحت أشعّة الشمس ، ثم حضر رجل من قبل المنصور يقول : من هو محمّد بن عبد الله بن عثمان ، فلمّا أظهر محمد الديباج نفسه أخذه الرجل إلى المنصور .

يقول الراوي : لم نلبث طويلاً حتّى سمعنا أصوات السياط ، ولمّا أعادوا محمّداً عرفنا مبلغ ما أنزلوه به ، كان وجهه ولونه الذي يشبه سبيكة الفضة قد غدا أشبه بلون زنجي ، وكانت إحدى عينيه قد خرجت من محجرها ، ثم طرحوه إلى جانب أخيه عبد الله ، وكان عبد الله يحب أخاه أشدّ الحبّ ، وكان العطش قد بلغ من محمّد مبلغه ، فطلب شربة ماء ،

وكان الناس يحذرون الرحمة بهم خشيةً من المنصور ، فصاح عبد الله : من يسقي ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شربة ماء ؟ فسقاه رجل خراساني شربة ماء كما روي ، وقيل إن ثياب محمّد قد التصقت بجسده من تأثير السياط والدماء التي سالت عليها ، حتى ليصعب نزعها عنه ، ولما نزعوها بعد أن مرّغوه بالزيت كانت قطع من جلده ملتصقة بها

ويروي السبط بن الجوزي أنه لما أُدخل محمّد على المنصور سأله : أين الكاذبان الفاسقان محمّد وإبراهيم ؟ وكانت رقيّة أخت الديباج زوجة لإبراهيم ، قال محمد : والله لا أعلم مكانهما ، فأمر المنصور بجلده أربعمئة جلدة ، ثم أمر بإلباسه ثوباً خشناً ثم نزعه عنه بشدّة حتّى ينسلخ جلده معه ، وكان محمّد من أحسن الناس صورة وشمائل ، وهذا سبب تلقيبه بالديباج ؛ وقد اقتلع السوط إحدى عينيه ، ثم قيّدوه وجاؤوا به إلى أخيه عبد الله ، وكان محمّد إذ ذاك يشكو من العطش الشديد ، فلم يجرؤ أحد على تقديم الماء له ، فصاح أخوه : يا معشر المسلمين ، أيموت مسلم من أبناء النبيّ من العطش وأنتم تمنعونه الماء ؟

ثمّ تحرّك المنصور من الربذة في هودج يرافقه حاجبه الربيع ، أمّا بنو الحسن فقد أركبوهم إبلاً عارية وهم عطاش جوعى عراة الرؤوس والأجساد ، تثقلهم القيود والسلاسل ، وسار الركب متجهاً إلى الكوفة ، ولّما عبر المنصور على هودجه المغطّى بالحرير والديباج بجانبهم رآه عبد الله فقال : يا أبا جعفر ، أهذا ما صنعناه بأسراكم في بدر ؟ إشارة منه إلى أسر العبّاس جدّ المنصور يوم بدر ، ورحمة جدّهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) به وهو يشكو ثقل القيود ، وقوله إن شكوى العبّاس لن تدع للنوم إليه من سبيل ، وأمره (صلّى الله عليه وآله) بإطلاقه .

يروي أبو الفرج أنّ المنصور أراد أن يزيد في شقاء عبد الله ، فأمر بتسيير بعير محمد أمام بعير عبد الله ، فكان عبد الله ينظر باستمرار إلى ظهر أخيه ويرى آثار السياط فيزداد جزعه وشقاؤه ، واستمروا في سوء الحال هذا حتى بلغوا الكوفة ، وهناك طرحوهم في سجن الهاشميّة ، في أقبيةٍ لا يعرف الليل فيها من النهار ، وكان عددهم في كل محبس عشرين رجلاً وفقاً لرواية ابن الجوزي .

ويروي المسعودي أنّ المنصور أطلق سليمان وعبد الله ابني داود بن الحسن المثنّى مع موسى بن عبد الله المحض والحسن بن جعفر ، واستبقى الآخرين حتى يموتوا في سجنهم ، وكان محبسهم على شاطىء الفرات قرب قنطرة الكوفة ؛ وإنّ مواضعهم في الكوفة في أيامنا هذه ـ ونحن في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة ـ معروفة ، وهي محلّ زيارة ، وجميعهم في ذلك الموضع ، وقبورهم هي السجن نفسه الذي هدموا سقفه فوقهم ؛ ولّما كانوا في سجنهم كانوا لا يغادرونه لقضاء الحاجة ، فلا بدّ لهم من من قضاء حاجتهم حيث هم ، الأمر الذي جعل الروائح الكريهة تنتشر وتسبّب لهم أشدّ الشقاء ، وكان بعض مواليهم يأتونهم بالطيب ليدفعوا

بـه تلك الروائح ، وإجمالاً ، فبسبب تلك الروائح وبسبب كونهم في السجن وشدة القيود ظهرت الأورام في أرجلهم ، وسرت منها حتى بلغت قلوبهم فأهلكتهم ، وكانوا لا يعرفون دخول أوقات الصلاة لظلام السجن ، فلا غرو أنّهم لجأوا إلى طريقة تساعدهم ، فقد قسّموا القرآن الكريم إلى خمسة أقسام ، وكانوا يتناوبون على تلاوته ، فيختمون تلاوة الخمس الواحد بصلاة من الصلوات الخمس ، وهكذا كانوا يختمون القرآن مرة في اليوم .

أمّا إذا مات أحدهم فكان جسده يبقى على حاله في أغلاله حتى تفوح رائحته ويهترىء ، وكان الأحياء منهم يرون كلّ ذلك ويقاسون منه ما يقاسون .

وأورد ابن الجوزي شرحاً لمحبسهم دون أن يتطرّق إلى موضوع إحضار الطيب لهم ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذا المحبس عند حديثنا عن الحسن المثلّث وتعداد أبنائه ، وكان منهم عليّ بن الحسن المثلث المعروف بعليّ العابد ، وكان يمتاز بالعبادة والذكر والصبر على الشدائد .

وفي رواية أن بني الحسن كانوا لا يعرفون أوقات الصلاة إلاّ بتسبيح عليّ بن الحسن وقراءته لأوراده ، حيث كان يشغل يومه بالذكر وقراءة الأوراد المخصّصة لكل وقت من أوقات اليوم ، فيعرف عن طريقها أوقات الصلاة .

ويروي أبو الفرج عن إسحاق بن عيسى قال : بعث عبد الله المحض من سجنه يوماً يدعو أبي إليه ، فطلب أبي الإذن من المنصور فأذن له ، وقدم إليه ، فقال له : لقد دعوتك لتأتيني بالماء فقد غلبني العطش ، بعث له أبي بإبريق ماء ، فلمّا رفعه إلى فمه ليشرب وصل أبو الأزهر السجّان وراءه فغضب وركل الأبريق بقدمه فأصابت ثنايا عبد الله فهشّمتها .

وإجمالاً ، فحالهم في السجن كانت على هذا المنوال ، فبعضهم يموت وبعضهم يُقتل ، وبقي عبد الله مع آخرين من أهل بيته أحياء حتى خروج ابناه محمّد وإبراهيم وقُتلا ، وأرسل رأساهما إلى المنصور ، فبعث المنصور برأس إبراهيم إلى عبد الله ، ثم لحق بهم ما لحق بالآخرين من موت أو قتل .

ويروي السبط بن الجوزيّ وغيره أنّه قبل خروج محمّد بن عبد الله ومقتله بعث عامل المنصور على خراسان أبو عون يخبر الخليفة أنّ أهل خراسان يرتدّون عن بيعتهم لي بسبب خروج محمّد وإبراهيم ابني عبد الله ؛ فأمر المنصور بضرب عنق محمّد الديباج ويبعث برأسه إلى خراسان كي يخدعوا أهلها بعد أن يقسموا لهم بأن الرأس يعود إلى محمّد بن عبد الله بن فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، كي يرجعوا عن أوهامهم فيقطعوا الأمل بخروج محمّد بن عبد الله .

ونشرع الآن بالحديث عن مقتل محمّد بن عبد الله المحض .

ذكر مقتل محمّد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) الملقب بالنفس الزكيّة : كنيته : أبو عبد الله ، ولقبه : صريح قريش ، ذلك أنّه لم تكن أيّ من أمّهاته أو جدّاته أمّ ولد ، فأمّه هي هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطّلب ؛ ولُقّب بالنفس الزكيّة لكثرة زهده وعبادته ، وقد دعاه أهله بالمهديّ استظهاراً منهم للحديث النبويّ : « إنّ المهديّ من وُلدي ، اسمه اسمي » ، وقيل إنه المقتول عند أحجار الزيت ، وكانوا يمتدحونه بالفقه والعلم والشجاعة والسخاء وكثرة الفضائل ، وكان له بين كتفيه خال بحجم البيضة ، وهكذا اعتقدوا أنّه المهديّ الموعود من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ؛ ولهذا فقد بايعوه ، وكانوا يرصدون ظهوره وينتظرون خروجه .

وقد بايعه أبو جعفر المنصور مرّتين ، إحداهما في المسجد الحرام حيث سار بين يديه لدى خروجه من المسجد حتّى جلس ، مراعياً المزيد من الاحترام والإجلال له ، حتّى أنّ رجلاً سأل المنصور : من هذا الذي تبدي له كل هذا الإجلال ؟ فقال المنصور : ويحك ! ألا تعلم أنّ هذا الرجل هو محمّد بن عبد الله المحض ، وأنّه مهديّنا أهل البيت ؟! وبايعه ثانية في الأبواء وفقاً لما هو مرقوم في بيان أحوال عبد الله .

وقد أورد أبو الفرج والسيد ابن طاوس أخباراً كثيرة تفيد أنّ عبد الله المحض وسائر أهل بيته كانوا ينكرون أن محمّداً النفس الزكية هو المهديّ الموعود ، ويقولون إنّ المهديّ الموعود إنّما هو غيره .

وإجمالاً ، فلما استقرّت الخلافة في بني العبّاس ، عاش محمّد وابراهيم مختفيين ، وفي أيام المنصور قدما كلاهما إلى أبيهما في سجنه متخفيين بصورة أعرابيّين من عرب البادية ، وسألاه أن يأذن لهما بالظهور قائلين : لأن نظهر ونُقتل خير من أن يقتل رهط من أهل النبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقال عبد الله :

« إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين ، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين » .

ومراده أن الصواب هو في أن تنصرفا للإعداد لخروجكما على المنصور ، فإن لقيتما النصرة فذاك خير ، وإن قُتلتما فلستما ملومين .

وفي فترة اختفائهما لم يكن للمنصور من همّ سوى العثور عليهما ، وقد رصد لذلك العيون والجواسيس في كل الأنحاء لعلّه يعرف مكانهما .

ويروي أبو الفرج عن محمّد بن عبد الله أنه قال : لمّا كنت مختفياً في شعاب الجبال

اتخذت يوماً لي موضعاً في جبل رضوى مع أمّ ولدي ، وقد رُزقت منها بطفل ، وكان طفلي رضيعاً حين اكتشفت يوماً أنّ غلاماً جاء في طلبي من المدينة ، فركنت إلى الفرار ، كما أنّ أمّ ولدي احتضنت ابننا وهربت ، وفي غمرة هروبها أفلت الطفل منها وهوى من الجبل فقتل ، وقد ورد في الخبر أنّ طفلاً لمحمّد يهوي ويموت ، وقد قال محمّد في ذلك أبياتاً من الشعر :

مُنخرق الخفّين يشكو الوجى[1] … تنكبه أطراف مرو حداد
شرّده الخوف فأزرى به … كذاك من يكره حرّ الجلاد
قد كان في الموت له راحة … والموت حتمٌ في رقاب العباد

وإجمالاً ، فقد خرج محمّد سنة خمس وأربعين ومئة ، ودخل المدينة في شهر رجب على رأس مئتين وخمسين وهم يكبّرون ، فتوجّهوا إلى سجن المنصور فحطّموا بابه وأطلقوا السجناء ، وامسكوا رياح بن عثمان سجّان المنصور فألقوه في السجن ، ثم صعد منبر المسجد وخطب خطبة بيّن فيها مثالب المنصور وخبث سيرته ، ودعا الناس إلى بيعته .

استفتى الناس مالكاً بن أنس في ذلك ، وفي أن بيعة المنصور قد سبقت وهي في أعناقهم ، فأفتاهم بالإيجاب ، ذلك أن بيعة المنصور كانت عن كراهة منهم ، فسارع الناس إلى بيعة محمّد ، واستولى محمّد على المدينة ومكّة واليمن .

فلمّا علم المنصور بذلك كتب إلى محمّد يعرض عليه الصلح والمسالمة ، ويعطيه الأمان ، فردّ عليه محمّد ردّاً شافياً ختمه بقوله :

أيّ أمان هذا الذي تعرضه عليّ ؟ أهو الأمان الذي أعطيته لابن هبيرة ؟ أم هو الأمان الذي أعطيته لعمّك عبد الله بن عليّ ؟ أم هو الأمان الذي أرضيت به أبا مسلم ؟

ومراده : كيف يمكن الركون إلى أمانك ، وأنت قد أمّنت أولئك الثلاثة ولم تعمل بمقتضى أمانك لهم ؟

ثم كتب إليه أبو جعفر ثانية يؤنّبه عن طريق الحسب والنسب والقرابة ، (والمقام هنا لا يتّسع لذكر مراسلاتهما ، وعلى من يرغب الرجوع إلى (تذكرة السبط وغيرها) ولمّا يئس المنصور من احتواء محمّد عن طريق السلم والموادعة أمر عيسى بن موسى ـ وكان ابن أخيه ووليّ عهده ـ بالتجهّز لحربه ، وكان المنصور يبطن في نفسه أن لا فرق في من يقتل من ، ذلك أنّه لم يكن يريد لعيسى العيش ، إذ كان السفّاح عهد إليه أن يولّي عيسى الخلافة بعده ، وكان كارهاً لذلك .

---

[1] الوجى : مصدر وجي أي : حفي أو رقّت قدمه .

ثم إنّ عيسى خرج لقتال محمّد في أربعة آلاف فارس وألفي راجل ، وكان المنصور قد أوصاه بأن يعرض عليه الأمان أوّلاً ، لعلّه يعود إلى طاعته دون قتال ، وسار عيسى حتى بلغ فيد ، وهو موضع في الطريق إلى مكّة ، وبعث بكتاب إلى جماعة من أصحاب محمّد فخذّلهم عن نصرته ، فلمّا بلغ محمّداً ذلك انصرف إلى الإعداد للحرب ، وحفر خندقاً حول المدينة ؛ وفي شهر رمضان وصل عيسى مع جيشه ، وحاصر المدينة .

يروي السبط بن الجوزي أنه لمّا حاصر جيش المنصور المدينة لم يكن لمحمّد من همّ سوى أن يحرق جدول أسماء الناس الذين بايعوه وكاتبوه ، وبعد أن أحرقها قال : طاب الموت الآن ، ولو أنه لم يفعل ذلك إذاً لكان الناس في بلاء عظيم ، إذ لو وقعت هذه الأسماء بين أيدي العبّاسيّين لقتلوهم .

وأخيراً قدم عيسى ووقف على سلع ، وهو اسم جبل في المدينة ، وصاح قائلاً : يا محمّد ، لك الأمان ، قال محمّد : أمانكم لا وفاء له ، وللموت بعزّة خير من الحياة بذلّة ، وكان جيشه إذ ذاك قد تفرّق مبتعداً عنه ، ولم يبق معه من مئة ألف بايعوه سوى ستّة عشر وثلاثمئة[1] رجل ، بعدد أهل بدر .

ثمّ إنّ محمداً وأصحابه اغتسلوا ونثروا الحنوط ، ثم حثّوا مطاياهم وحملوا على عيسى وأصحابه ، وأجلوهم ثلاث مرّات ، ثم جمع عيسى صفوفه وأعدّها وحمل بها جميعاً حملة واحدة أنجزوا بها عملهم وأوردوهم مصارعهم ، واستشهد محمّد على يدي حميد بن قحطبة الذي احتزّ رأسه وذهب به إلى عيسى ، أمّا جسده فرفعته أخته زينب وابنته فاطمة ودفنتاه في البقيع ، ثمّ حُمل رأسه إلى المنصور فأمر بنصبه في الكوفة ، وأن يطاف به في البلاد .

وكان مقتل محمّد في أواسط شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومئة من الهجرة ، وكانت المدّة من ظهوره إلى مقتله شهران وسبعة عشر يوماً ، وبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً ، وكان مقتله عند أحجار الزيت مصداقاً لقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في جملة أخباره الغيبيّة : « وإنّه يُقتل عند أحجار الزيت » .

يروي أبو الفرج أنه بعد مقتل محمّد وهزيمة جيشه انطلق ابن خضير ـ وكان أحد أصحابه ـ إلى السجن ، فقتل رياح بن عثمان سجّان المنصور ، ثم أحرق ديوان محمّد الذي يشتمل على أسماء أصحابه ورجاله ، ثم عاد إلى قتال العبّاسيّين ، فقاتل حتى قُتل .

---

(١) لعلّ في العدد خطأ مطبعيّاً ، ذلك أن تعداد أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من أهل بدر كان ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً كما هو معروف . (المعرّب) .

كما يروي أيضاً أنه عند مقتله تلقّى على رأسه ضربات وجراحات كثيرة شلّت حركته ، وصار أشبه بكتلة لحم مطبوخة محمّرة ، فأي موضع وقعت عليه اليد من جسده يتلاشى .

ذكر مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) المعروف بقتيل باخمرا : ورد في (مروج الذهب) للمسعودي أنه لمّا أراد محمّد بن عبد الله المحض الخروج بعث بإخوته وأبنائه إلى الأمصار والبلدان ، يدعون الناس إلى بيعته ، ومنهم ابنه عليّ ، الذي بعث به إلى مصر فقتل هنالك ، ووفقاً لتذكرة السبط فقد مات في السجن ، كما بعث بابنه الآخر عبد الله إلى خراسان ، ولاحقه جيش المنصور فهرب إلى السند ، فقتل هنالك ؛ وأمّا ابنه الثالث الحسن فقد بعث به إلى اليمن ، فأخذوه هناك وسجنوه ، ومات في سجنه .

أقول : كان هذا كلام المسعودي ، لكنّ ما ورد في كتب أخرى فهو أنّ الحسن بن محمّد شهيد وقعة فخّ مع الحسين بن عليّ وقتل على يدي عيسى بن موسى العبّاسيّ ، كما تقدّم في غضون الحديث عن أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) ، وأنّ موسى أخا محمّد صار إلى الجزيرة ، وأن أخاه الآخر يحيى صار إلى الريّ وطبرستان ، ووقع أخيراً بيد الرشيد فقتله كما تقدّم ، أمّا أخوه الثالث إدريس فقد سافر إلى المغرب وبايعته جماعة هناك ، واستطاع الرشيد في آخر الأمر أن يقتله غيلة ، وبعده حلّ ابنه إدريس بن إدريس محلّه ، وسمّي بلدهما باسمه فقيل : بلد إدريس بن إدريس ، وقد تقدّم الحديث عن مقتله .

أمّا أخوه الرابع إبراهيم فقد توجّه إلى البصرة وخرج هنالك بعد أن اجتمع له خلق كثير من أهل فارس والأهواز وغيرهما ، إلى جانب كثيرين من الزيديّة والمعتزلة البغداديّين وغيرهم ، وكان معه من الطالبيّين عيسى بن زيد بن علي بن الحسين (عليهما السلام) .

أرسل المنصور بعيسى بن موسى وسعيد بن مسلم على رأس جيش كبير لحربه ، فاستشهد إبراهيم في أرض باخمرا من أراضي الطفّ ، وتقع على بعد ستة فراسخ من الكوفة ، وقتل من أصحابه من الزيديّة أربعمئة ، أو خمسمئة رجل على قول .

أمّا كيفيّة مقتل إبراهيم فقد ورد في (تذكرة) السبط ما يأتي :

خرج إبراهيم في غرّة شهر شوّال أو شهر رمضان على قول ، سنة خمس وأربعين ومئة في البصرة ، وبايعه خلق لا يحصى ، وفي تلك السنة شرع المنصور ببناء مدينة بغداد ، وفي غمرة انشغاله بالبناء بلغه نبأ خروج إبراهيم بالبصرة ، وغلبته على الأهواز وفارس ، والتفاف خلق كثير حوله ، ومبايعة الناس له طوعاً وعن رغبة ، وأنّه لا همّ له سوى الثأر لأخيه محمّد بقتل المنصور نفسه .

فلما سمع المنصور بكل هذا أظلمت الدنيا في عينيه ، فأوقف أعمال البناء ، وهجر

اللذات والنساء ، وقال : ـ شفّع قوله بالقسم ـ إنّه لن يقرب النسـاء ، ولن تشغله لذّة العيش حتى يأتوه برأس إبراهيم ، أو يحملوا رأسه هو إلى إبراهيم .

وتبدّى الهول للمنصور ، كيف لا ومئة ألف رجل يسيرون في ركاب إبراهيم بينما لم يكن جاهزاً لديه سوى ألفي فارس ، وعساكره وجيوشه موزّعة بين الشام وخراسان وإفريقية ؛ لكنه بعث بعيسى بن موسى بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس لقتال إبراهيم ؛ ومن ناحيته فإن إبراهيم خرج من البصرة متوجّهاً إلى الكوفة ، وقد وقع ضحيّة خداع أهل الكـوفة ذلـك أن وفداً منهم كان قد قدم إليه في البصرة يعرض عليه أنّ مئـة ألف مقاتـل يترقّبـون مقدمـه الشريف إليهم في الكوفة ليضعوا أرواحهم في تصرّفه .

حاول أهل البصرة منعه من الخروج إلى الكـوفة ، لكن كـلامهم لم يلق استجابـة منه ، وتوجّه إلى الكوفة ، وعلى بعد ستـة عشر[1] فرسخـاً منها ، وفي أرض الـطفّ المعروفـة بباخمرا تلاقى الجيشان واصطفّا للقتال ، وانتهت المعركة بهزيمة جيش المنصور .

وبرواية أبي الفرج : فإنّ هزيمة شنيعة نزلت بهم ، وركنوا إلى الفرار ، حتى أن طلائعهم بلغت الكوفة في فرارها .

أما برواية (التذكرة) : فإن عيسى بن موسى قائد جيش المنصور ثبت مـع مئة رجـل من أهـل بيته وخـاصّته ، حـين كان إبـراهيم قريباً من الظفـر عليهم ، وكاد يـرمي بهم في بيـداء العـدم ، وفي غمرة القتـال ، إذا بسهم لم يعرف من رماه ، كما لم يعـرف من أين أتى ، يصيب إبراهيم ، ويطيح به أرضاً وهو يقول :

« وكان أمر الله قدراً ، أردنا أمراً وأراد الله غيره » .

يقول أبو الفرج : إنّ مقتل إبراهيم جاء في وقت كان فيه عيسى بن موسى بدأ يدير ظهـره للمعركة ، ويركن إلى الفرار ، وكان إبراهيم قد أحس بالتعب والسخونة من حرارة المعركـة ، فشرع يخفّف عنـه من ثيابـه ، فنـزع قباءه ، وكشف الثوب عن صـدره ، لعلّه يكسر سـورة الحرارة ، حتى إذا أتاه سهم من رام مجهول غاص عميقاً في عنقه ، ممّا اضطّره إلى التشبّث بعنق فرسه ، وأحاط به الزيديّون من كل جانب .

وفي رواية أخرى أنّ بشيراً الرحّال ضمّه إلى صدره .

والحاصل أن هذا السهم هو الذي وضع خاتمة لعمل إبراهيم ، فتوفّي ، وعاد عيسى عن

---

(١) تقدّم أن باخمرا تبعد عن الكوفة ستة فراسخ ، فلاحظ (المعرّب) .

فراره ، واشتد أوار المعركة حتى جاءت نجدة رفدت جيش المنصور ، وتفرّق جيش إبراهيم بين مهزوم ومقتول ، كما قتل بشير الرحّال أيضاً .

جزّ العساكر رأس إبراهيم وجاءوا به إلى عيسى ، الذي هوى يسجد سجدة الشكر ، وبعث بالرأس إلى المنصور .

وكان مقتل إبراهيم عند ارتفاع النهار من يوم الاثنين من ذي الحجّة سنة خمس وأربعين ومئة ، وبرواية أبي نصر البخاريّ والسبط بن الجوزيّ أنه كان في الخامس والعشرين من ذي القعدة يوم دحوا الأرض ، وكان عمره ثمانية وأربعين عاماً .

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) أخبر في غضون أحاديثه الغيبيّة عن مآل إبراهيم فقال : « بباخمرا يُقتل بعد أن يظهر ، ويُقهر بعد أن يقهر » .

وقال : « يأتيه سهم غربٌ يكون فيه منيّته ، فيا بؤس الرامي شلّت يده ، ووهن عضده » .

وروي أنّه لما هُزم جيش المنصور ، ونُقل ذلك إليه ، أظلمت الدنيا في عينيه وقال : « أين قول صادقهم ؟ أين لعب الغلمان والصبيان ؟ » وفيه إشارة إلى قول الصادق (عليه السلام) : سيلعب صبيان بني العبّاس بالخلافة ، كما فيه إشارة إلى أخباره (عليه السلام) بصدد خلافة بني العبّاس ، واستشهاد ابني عبد الله محمّد وإبراهيم .

وقد عرفت فيما تقدّم عن اجتماع بني هاشم وبني العبّاس في الأبواء ، وعن بيعتهم لمحمّد بن عبد الله ، وأنّ الصادق (عليه السلام) لم يستصوب رأيهم ، وإخباره أن الخلافة ستكون للسفّاح والمنصور ، وأنّه لن يكون لعبد الله وإبراهيم نصيب فيها ، وكيف أراد المنصور قتلهما .

وكان المنصور من يومه ذاك قد أضمر الخلاف حتى يدرك مراده ، وكان يعلم أن الصادق (عليه السلام) لا يقول إلاّ صدقاً ، لذلك فلما انكشفت له هزيمة جيشه قال : أين قول صادقهم ؟ وجزع جزعاً شديداً ، فلم يلبث أن أتاه خبر استشهاد إبراهيم ، كما أتى برأسه إليه ، فلما رآه بكى حتى جرى الدمع على أطراف وجهه وقال : أما والله ، ما كنت أحبّ أن ينتهي الأمر بك إلى هذا !

ويروى عن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليهما السلام) أنّه قال : كنت عند المنصور حين أتي برأس ابراهيم وقد وضع على ترس ، وأحضر إليه ، فلما وقع نظري على الرأس أخذتني غصّة وجاش البكاء في حلقي حتى كاد صوتي يعلو بالبكاء ، لكني صبرت

فلم أدع البكاء يغلب عليّ حذراً من المنصور ، وإذا به يلتفت إليّ ويقول : أليس هذا رأس إبراهيم يا أبا محمّد ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، لكم وددت لو أطاعك فلا ينتهي الأمر به إلى هذا ، قال المنصور : أما والله ، لوددت أيضاً لو كان ذلك في طاعتي ولم ألق يوماً كهذا ، لكنّه آثر الخلاف وأراد أن يأخذ رأسي ، فجاءوني برأسه .

ثم أمر بالرأس فرفع في الكوفة ليراه الناس ، ثم أمر الربيع بحمله إلى سجن أبيه ، فأخذ الربيع الرأس إلى السجن ، وكان عبد الله في ذلك الوقت منشغلاً بالصلاة متوجّهاً إلى الله ، فقيل له : عجّل في صلاتك يا عبد الله فإنّ أمراً ينتظرك ، فلما انصرف من صلاته نظر فإذا رأس ابنه إبراهيم أمامه ، فأخذ الرأس وضمّه إلى صدره وقال :

« رحمك الله يا أبا القاسم ، وأهلاً بك وسهلاً ، لقد وفيت بعهد الله وميثاقه » ، مشيراً إلى الآية الكريمة : ﴿ الذين يوفون بعهد الله وميثاقه ﴾ .

قال الربيع : وكيف كان إبراهيم ؟ قال عبد الله : كان كما قال الشاعر :

فتىً كان تحميه من الذلّ نفسه ويكفيه سوءات الذنوب اجتنابها

ثم قال للربيع : أنبيء المنصور عنّي أنّ أيام محنتي وشدّتي آذنت بانتهاء ، وأنّ أيام نعمتك كذلك ، ولن تدوم ، وسيكون لقاؤنا يوم القيامة ، وسيحكم الله الحكيم فيما بيننا .

يقول الربيع : لمّا نقلت كلام عبد الله إلى المنصور رأيت عليه من الانكسار ما لم أره من قبل .

هذا وقد رثي محمد وإبراهيم على ألسنة كثير من الشعراء ، وقال دعبل الخزاعي من قصيدة تائيّة ، يرثي بها رهطاً من آل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ونشير إليها ، قال :

قبورٌ بكوفانٍ وأخرى بطيبةٍ وأخرى بفخٍّ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوزجانٍ محلّها وقبر بباخمرا لدى الغربات

كان إبراهيم قويّ اليد والساعد ، صاحب مقام معروف في فنون العلم ، وكان في البصرة متخفياً في بيت المفضّل الضبيّ ، فطلب منه أن يأتيه بكتب يأنس بها ، فأتاه المفضّل بدواوين لشعراء عرب اختار منها سبعين قصيدة فحفظها ، وبعد مقتله جمع المفضل تلك القصائد وأسماها : المفضّليّات واختيار الشعراء .

وكان المفضّل بين يدي إبراهيم يوم مقتله ، وروى عنه ضروباً من الشجاعة ، وأشعاراً قالها لا يتّسع المقام لذكرها ، وكان عند خروجه وبيعة الناس له يعاملهم بالعدل وحسن

السيرة ، ويقال إنّه كان في واقعة باخمرا يطوف ذات ليلة بين رجاله فسمع صوت موسيقى وغناء ، فعراه الهمّ والغمّ وقال : لست أحسب أن ينال الظفر جيش هذا شأنه .

وكان ممّن بايع إبراهيم كثير من أهل العلم ونقلة الآثار ، وكانوا يحثّون الناس على نصرته أمثال عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسن (عليهما السلام) ، وبشير الرحّال ، وسلام بن أبي واصل ، وهارون بن سعيد الفقيه ، مع جماعة من الوجوه والأعيان والأصحاب والتابعين ، وفيهم عبّاد بن منصور قاضي البصرة ، والمفضّل بن محمّد ، ومسعر بن كدام وغيرهم .

ويروى أنّ الأعمش بن مهران كان يحثّ الناس على نصرة إبراهيم ، وكان يقول : لو لم أكن أعمى لخرجت في ركابه .

القصيدة الغرّاء في مدح الإمام الحسن (عليه السلام) ورثائه

أترى يسوغ على الظما لي مشرع ... وأرى أنابيب القنا لا تشرع
ما آن أن تغتادها عربيّة ... لا يستحيل بها الروى والمرتع[1]
تعلو عليها فتية من هاشم ... بالصبر لا بالسابغات تدرّعوا
فلقد رمتنا النائبات فلم تدع ... قلباً تقيه أدرع أو أذرع
فإلام لا الهنديّ منصلت ولا الـ ... ـخطّيّ في رهج العجاج مزعزع
ومتى نرى لك نهضةً من دونها الـ ... ـهامات تسجد للمنون وتركع
يا بن الألى وشجت بِرابية العلى ... كرَماً عروق أصولهم فتفرّعوا
جحدت وجودك عصبة فتتابعت ... فِرقاً بها شمل الضلال مجمّع
جهلتك فانبعثت ورائد جهلها ... أضحى على سفه يسوع ويذرع
تاهت عن النهج القويم فضائع ... لا يستقيم وعاثر لا يقلع
فأنر بطلعتك الوجود فقد دجا ... والبدر عادتُهُ يغيب ويطلع
متطلباً أوتاركم من أمّة ... خفوا لداعية النفاق واسرعوا
خانوا بعترة أحمد من بعده ... ظلماً وما حفظوا بهم ما استُودعوا
فكأنّما أوصى النبيّ بثقله ... أن لا يصان فما رعوه وضيّعوا
جحدوا ولاء المرتضى ولكم وعى ... منهم له قلب وأصغى مسمع
وبما جرى من حقدهم ونفاقهم ... في بيته كُسرت لفاطم أضلع
وعدَوْا على الحسن الزكيّ بسالف الـ ... أحقاد حين تألّبوا وتجمّعوا
وتنكّبوا سنن الطريق وإنّما ... هاموا بغاشية العمى وتولّعوا

---

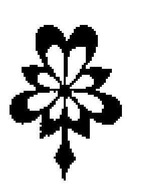
(١) اللوى والمربع .

نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... وسعوا لداعية الشقا لمّا دُعوا
عجباً لحلم الله كيف تآمروا ... جنفاً وأبناء النبوّة تخلع
وتحكّموا في المسلمين وطالما ... مرقوا عن الدين الحنيف وأبدعوا
أضحى يؤلّب لابن هندٍ حزبه ... بغياً وسرب ابن النبيّ مذعذع[1]
غدروا به بعد العهود فغودرت ... أثقاله بين اللئام توزّع
الله أيّ فتى يكابد محنة ... يشجى لها الصخر الأصمّ ويجزع
ورزيّة حزّت بقلب محمّد ... حزناً تكاد لها السما تتزعزع
كيف ابن وحي الله وهو به الهدى ... أرسى فقام له العماد الأرفع
أضحى يسالم عصبة أمويّة ... من دونها كفراً ثمود وتُبّع
ساموه قهراً أن يضام وما لوى ... ـ لولا القضاء ـ به عنان طيّع
أمسى مضاماً تستباح حريمه ... هتكاً وجانبه الأعزّ الأمنع
ويرى بني حرب على أعوادها ... جهراً تنال من الوصيّ ، ويسمع
ما زال مضطهداً يقاسي منهمُ ... غصصاً بها كأسَ الردى يتجرّع
حتّى إذا نفذ القضاء محتّماً ... أضحى يُدسّ إليه سمّ مُنقع[2]
وغدا برغم الدين وهو مكابد ... بالصبر علّة مُكمدٍ لا تنقع
وتفتّتت بالسمّ من أحشائه ... كبدٌ لها حتى الصفا يتصدّع
وقضى بعين الله يقذف قلبه ... قطعاً غدت ممّا به تتقطّع
وسرى به نعش تودّ بناته ... لو يرتقي للفرقدين ويرفع
نعش له الروح الأمين مشيّع ... وله الكتاب المستبين مودّع
نعش أعزّ الله جانب قدسه ... فغدت له زمر الملائك تخضع
نعش به قلب البتول ومهجة الـ ... ـهادي الرسول وثقله المستودع
تتلو له حقد الصدور فما يرى ... منها لمقوسٍ بالكنانة منزع
ورموا جنازته فعاد وجسمه ... غرض لرامية السهام وموقع
شكّوه[3] حتّى أصبحت من نعشه ... تُستلّ غاشية النبال وتُنزع
لم ترم نعشك إذ رمتك عصابة ... نهضت بها أضغانها تتسرّع

---

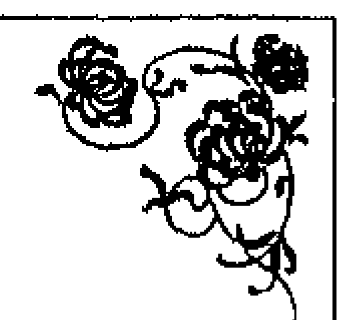
(١) مذعذع : مبدّد متفرّق .
(٢) مُنقع : أي سمّ ناقع : شديد السمّيّة .
(٣) شكّوه : خرّقوه ، وبه يشير الشاعر إلى ما في الزيارة المعروفة : « شهيد فوق الجنازة قد شكّت بالسهام أكفانه » ، وقرئت : شبكت ، وهو تصحيف .

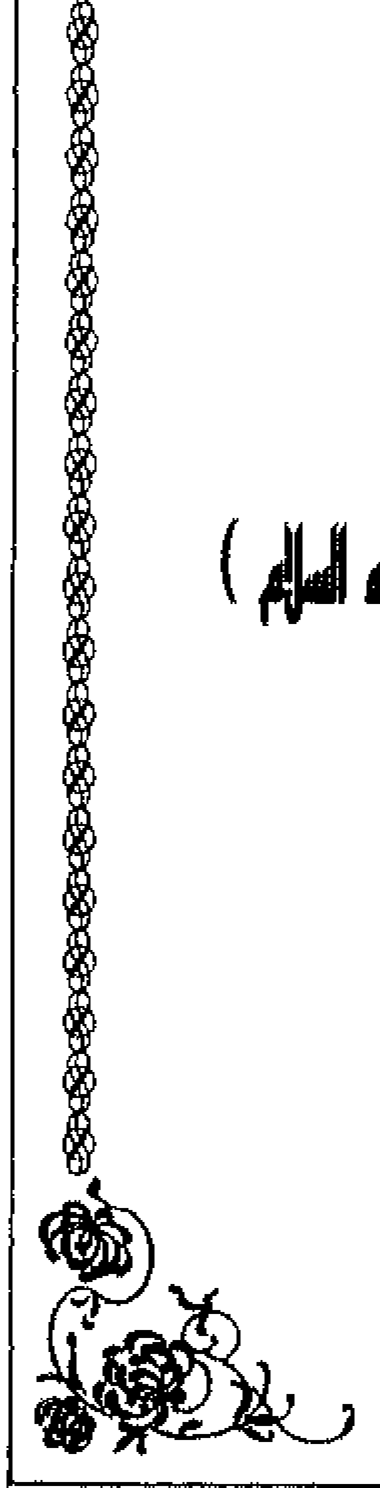
لكنّها علمت بأنك مهجة الـ ... زهراء فابتدرت لحربك تهرع
ورمتك كي تصمي حشاشة فاطم ... حتّى تبيت وقلبها متوجّع
ما أنت إلاّ هيكل القدس الذي ... بضميره سرّ النبوّة مودَع
جلبت عليه بنو الدعيّ حقودها ... وأتته تمرح بالضلال وتتلع[1]
منعته عن حرم النبيّ ضلالةً ... وهو ابنه ، فلأيّ أمر يمنع ؟
وكأنّه روح النبيّ وقد رأت ... بالبعد بينهما العلائق تقطع
فلذا قضت أن لا يُخطّ لجسمه ... بالقرب من حرم النبوّة مضجع
لله أيّ رزيّة كادت لها ... أركان شاخبة الهدى تتضعضع
رزءٌ بكت عين الحسين له ومن ... ذوب الحشا عبراته تتدفّع
يوم انثنى يدعو ولكن قلبه ... راوٍ ومقلته تفيض وتدمع
أترى يطيف بي السلوّ وناظري ... من بعد فقدك بالكرى لا يهجع
أأخيّ لا عيشي يجوس خلاله ... رغدٌ ولا يصفو لوردي مشرع
خلّفتني مرمى النوائب ليس لي ... عضدٌ أردّ به الخطوب وأدفع
وتركتني أسفاً أردد بالشجا ... نفَساً تصعّده الدموع الهمّع[2]
أبكيك يا ريّ القلوب لو انّه ... يجدي البكاء لظامىء أو ينفع



(١) تتلع العنق : تتطاول زهواً وتكبّراً .

(٢) همعت عينه : سالت بالدمع ، وسحاب همِع : ماطر ، ودموع هوامع : سيّالة .

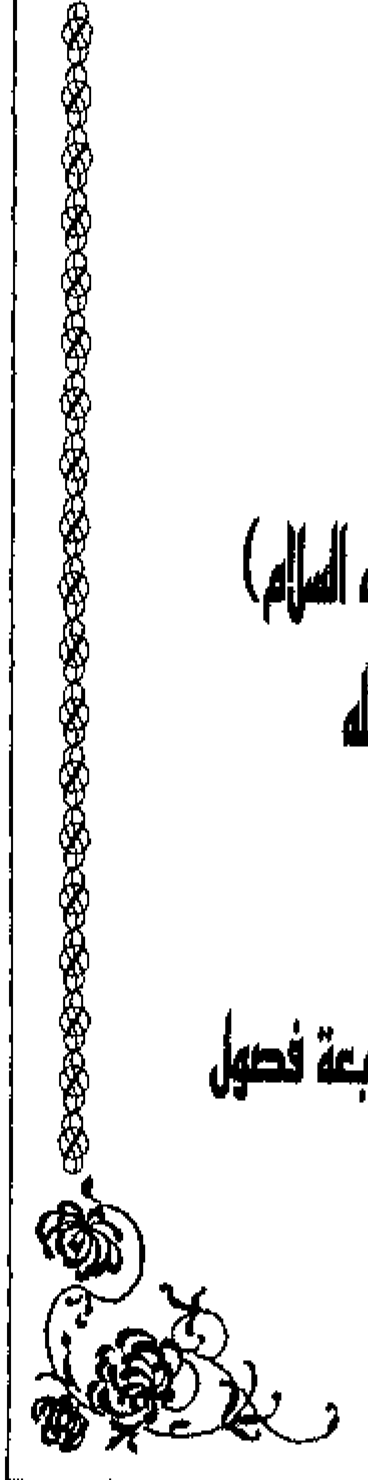




الباب الخامس

في تاريخ الإمام الحسين (عليه السلام)





المقصد الأول

في ولادة الإمام الحسين (عليه السلام) وذكر طرف من فضائله

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في الولادة السعيدة للإمام الحسين (عليه السلام)

المشهور أنّ ولادة الإمام الحسين (عليه السلام) كانت في المدينة لثلاث خلون من شعبان ، ويروي الشيخ الطوسيّ (ره) خروج التوقيع الشريف إلى القاسم بن علاء الهمدانيّ وكيل الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام) وفيه : ولد مولانا الإمام الحسين (عليه السلام) يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان، فعليك بصيام هذا اليوم والدعاء بهذا الدعاء :

« اللهمّ إنّي أسألك بحقّ المولود في هذا اليوم . . . » الخ .

ويذكر ابن شهر اشوب (ره) أنّ ولادته (عليه السلام) كانت بعد عشرة أشهر وعشرين يوماً من ولادة أخيه الإمام الحسن (عليه السلام) ، يوم الثلاثاء أو الخميس الخامس من شعبان من السنة الرابعة من الهجرة ، وقال : روي أنّه لم يكن بين الحسن والحسين إلّا مدّة الحمل ، وكانت ستّة أشهر .

ويقول السيد ابن طاوس ، والشيخ المفيد في (الإرشاد) أيضاً : إنّ ولادته (عليه السلام) كانت في الخامس من شعبان .

وذكر الشيخ المفيد في (المقنعة) والشيخ[1] في (التهذيب) والشهيد[2] في (الدروس) أنها كانت اخر شهر ربيع الأوّل ، ويوافق هذا القول رواية الكافي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) إذ قال :

---

(١) أي شيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي رحمه الله .

(٢) كلما ذكر الشهيد مطلقاً ـ أو بقيد : الأوّل ـ فهو الشهيد الأول أبو عبد الله محمّد بن المكّي العامليّ المتوفّى سنة ٧٨٦هـ . راجع ترجمته في (الكنى والألقاب) .

« كان بين الحسن والحسين (عليهما السلام) طهر ، وكان بينهما في الميلاد ستّة أشهر وعشراً » .

وإجمالاً ، فقد وقع اختلاف كبير في يوم ولادته (عليه السلام) ، والله هو العالم .

أمّا كيفيّة ولادته (عليه السلام) : فيروي الشيخ الطوسي (ره) وآخرون بسند معتبر عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه قال :

لمّا ولد الإمام الحسين (عليه السلام) قال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) لأسماء بنت عميس : يا أسماء ، هلميّ ابني ، فدفعته إليه في خرقة بيضاء فأذّن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، ووضعه في حجره فبكى ، فقالت أسماء : قلت : فداك أبي وأمّي ، ممّ بكاؤك ؟ قال : على ابني هذا ، قلت : انّه ولد الساعة يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقال : تقتله الفئة الباغية من بعدي ، لا أنالهم الله شفاعتي .

ثمّ قال : يا أسماء ، لا تخبري فاطمة بهذا فإنّها قريبة عهد بولادته .

فلمّا كان يوم سابعه دعا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بابنه ، فلمّا أتوه به عقّ عنه (صلّى الله عليه وآله) كبشاً أملح ، وأعطى القابلة وركاً ، ثمّ حلق رأسه ، وتصدّق بوزن الشعر ورقاً[1] ، وخلّق رأسه بالخلوق[2] ، ثمّ احتضنه وقال : يعزّ عليّ قتلك يا أبا عبد الله ، ثم بكى ، فقالت أسماء :

بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، لقد صنعت هذا في اليوم الأول وفي هذا اليوم ، فما هو ؟ قال : « أبكي على ابني هذا ، تقتله فئة باغية كافرة من بني أميّة لعنهم الله ، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة ، يقتله رجل يثلم الدين ويكفر بالله العظيم » ، ثمّ قال :

« اللهمّ إنّي أسألك فيهما ما سألك إبراهيم في ذرّيته ، اللهمّ أحبّهما وأحبّ من يحبّهما ، والعن من يبغضهما ملء السماء والأرض » .

يروي الشيخ الصدوق وابن قولويه وآخرون عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه لمّا ولد الحسين (عليه السلام) أمر الله تعالى جبرئيل أن يهبط في ملأ من الملائكة فيهنّيء محمّداً (صلّى الله عليه وآله) ، فهبط فمرّ بجزيرة فيها ملك يقال له : فطرس ، (وكان من حملة العرش) بعثه الله في شيء فأبطأ ، فكسر جناحه ، فألقاه في تلك الجزيرة ، فعبد الله سبعمئة عام ، (حتى ولد الحسين (عليه السلام)) .

---

(١) الورق : الفضّة .

(٢) الخلوق : ضرب من الطيب .

وبرواية أخرى أنّ الله تعالى خيّره بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختار عذاب الدنيا ، فعلّقه بأهداب عينيه في تلك الجزيرة ، في مكان لم يعبر منه حيوان قطّ ، وكان يخرج منه ريح نتن باستمرار ، فلمّا رأى جبرئيل هابطاً معَ الملائكة قال لجبرئيل : إلى أين ؟ فقال : إلى محمّد (صلّى الله عليه وآله) (أهنئه بما أنعم الله به عليه) ، قال : احملني معك لعلّه يدعو لي .

فلمّا دخل جبرئيل وأخبر محمّداً (صلّى الله عليه وآله) بحال فطرس قال له النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : قل له يتمسّح بهذا المولود ، فتمسّح فطرس بمهد الحسين (عليه السلام) فأعاد الله عليه في الحال جناحه ، ثمّ ارتفع مع جبرئيل إلى السماء بعد أن قال :

يا رسول الله ، ما أسرع ما ستقتل أمّتك هذا المولود ، وله عليّ بما أنعم الله عليّ ببركته أنّ من زاره فسأوصل إليه زيارته ، وأنّ من سلّم عليه فسأوصل إليه سلامه ، وأنّ من صلّى عليه فسأوصل إلى صلاته .

ووفقاً لرواية أخرى أنّ فطرس لمّا ارتفع إلى السماء كان يقول : من هو مثلي وقد نلت حرّيّتي بفضل الحسين بن عليّ وفاطمة ومحمّد (عليهم السلام) ؟

ويروي ابن شهر اشوب أنّ فاطمة الزهراء (عليها السلام) اعتلّت بعد أن ولدت الحسين (عليه السلام) وجفّ لبنها ، فطلب له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من ترضعه فلم يجد له مرضعة ، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه فيمصّها وفي رواية أخرى أنّه كان يلقمه لسانه فيزقّه كما تزقّ الدجاجة فرخها ، فكان غذاؤه منه أربعين يوماً حتّى نبت لحمه من لحم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، والمرويّات بهذا المضمون كثيرة .

وروي في (علل الشرايع) أنّ حال الإمام الحسين (عليه السلام) في الرضاع بقيت كذلك حتّى نبت له لحم من لحم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأنّه (عليه السلام) لم يرضع من ثديي أمّه ولا من غيرها .

ويروي الشيخ الكليني في (الكافي) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« لم يرضع جدّي الحسين من ثدي فاطمة ولا من أنثى غيرها ، بل كان يؤتى به النبيّ فيضع إبهامه في فيه فيمتصّ منها ما يكفيه اليومين والثلاثة » .

فلحم الحسين ودمه إذاً من لحم رسول الله ودمه ، ولم يولد لستّة أشهر سوى عيسى ابن مريم (عليها السلام) والحسين بن عليّ (عليهما السلام) ، وبعض الروايات تذكر اسم يحيى مكان عيسى .

يقول السيّد بحر العلوم :

لله مُـرتـضِـعٌ لم يـرتـضـع أبـداً   مـن ثـدي أنثى ، ومن طـه مـراضـعـه



الفصل الثاني

في فضائل الإمام الحسين (عليه السلام) ومناقبه ومكارم أخلاقه

جاء عن (الأربعين) للمؤذن وعن (التاريخ) للخطيب وعن غيرهما عن جابر عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال : « إنّ الله عزّ وجلّ جعل ذرّيّة كلّ نبيّ من صلبه خاصّة ، وجعل ذرّيّتي من صلبي وصلب عليّ بن أبي طالب ؛ إنّ كلّ بني بنت ينسبون إلى أبيهم إلاّ أولاد فاطمة فإنّي أنا أبوهم » .

محبّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للحسنين (عليهما السلام)

يقول المؤلّف : أحاديث كثيرة من هذا القبيل تدلّ على أنّ الحسنين (عليهما السلام) إنّما هما ابنا النبي (صلّى الله عليه وآله) ؛ وأمير المؤمنين سلام الله عليه يقول في بعض أيّام صفّين حين رأى ابنه الحسن (عليه السلام) يتسرّع إلى الحرب :

املكوا عنّي هذا الغلام لا يهدّني ، فإنّي أنفس بهذين ـ يعني الحسن والحسين ـ عن الموت لئلاّ ينقطع بهما نسل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) » .

يقول ابن أبي الحديد : إذا قيل إنّ الحسن والحسين ابنا النبي أقول : إنّهما لكذلك ، فالله عزّ وجلّ في قوله في آية المباهلة : ﴿ أبناءنا ﴾ إنّما أراد الحسن والحسين ؛ وقد عدّ الله تعالى عيسى من ذرّيّة إبراهيم ؛ ولا خلاف بين أهل اللغة في أنّ أبناء البنت هم من نسل أبيها ؛ فإن قيل إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ﴾ فأقول : إنّ محمّداً أبو ابراهيم ابن مارية عرفت أم لم تعرف ، ومهما كان القول فجوابي في حقّ الحسن والحسين هو ذاك .

لقد نزلت هذه الآية المباركة بشأن زيد بن حارثة إذ عُدّ ابناً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) على سنّة الجاهليّة ، فنزلت تنقض هذا الاعتقاد وتقول إنّ محمّداً ليس أبا أحدٍ من

رجالكم ، لا أنّها تقول إنّ محمّداً ليس أباً لابنيه الحسن والحسين .

وروي في العديد من كتب العامّة أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أخذ بيد الحسن فقال :

« من أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي في الجنّة يوم القيامة » . وقد نظم بعضهم هذا الحديث فقال :

أخذ النبيّ يد الحسين وصنوه يوماً وقال وصحبه في مجمع
من ودّني يا قوم أو هذين أو أبويهما فالخلد مسكنه معي

وروي أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حمل الحسن والحسين على ظهره : الحسن على أضلاعه اليمنى ، والحسين على أضلاعه اليسرى ، ثم مشى وقال : « نعم المطيّ مطيّكما ، ونعم الراكبان انتما ، وأبوكما خير منكما » .

ويروي ابن شهر اشوب أنّ رجلاً أذنب ذنباً في حياة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فتغيّب حتّى وجد الحسن والحسين (عليهما السلام) في طريق خالٍ فأخذهما فاحتملهما على عاتقيه وأتى بهما النبيّ (صلّى الله عليه وآله) فقال : يا رسول الله ، إنّي مستجير بالله وبهما ، فضحك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتّى ردّ يده إلى فمه ؛ ثمّ قال للرجل : اذهب فأنت طليق ؛ وقال للحسن والحسين : قد شفّعتكما فيه أي فتيان ، فأنزل الله تعالى :

﴿ ولو انّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً ﴾ (النساء/٦٤) .

ويروي ابن شهر اشوب أيضاً عن سلمان الفارسيّ أنّ الحسين (عليه السلام) كان على فخذ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكان يقبّله ويقول :

« أنت السيّد ابن السيّد أبو السادة ، أنت الإمام ابن الإمام أبو الأئمّة ، أنت الحجّة ابن الحجّة أبو الحجج تسعة من صلبك ، وتاسعهم قائمهم » .

ويروي الشيخ الطوسيّ بسند صحيح أنّ الحسين (عليه السلام) تأخّر في الكلام ، فصحبه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوماً إلى المسجد فأوقفه إلى جانبه ثم كبّر للصلاة فلم يردّ الحسين (عليه السلام) التكبير ، ولم يزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يكبّر والحسين يعالج التكبير فلم يفلح حتّى أكمل سبع تكبيرات ، فردّ الحسين التكبير في السابعة ، وهكذا صار التكبير للصلاة سبع مرّات سنّة .

ويروي ابن شهر اشوب أن جبرئيل نزل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوماً

بصورة دحية الكلبيّ ، وبينما هو عنده إذا بالحسن والحسين (عليهما السلام) يدخلان ، فتقدّما من جبرئيل ـ وهما يظنّانه دحية الكلبيّ ـ وطلبا منه هديّة ، فرفع جبرئيل يده إلى السماء وأعادها وفيها تفّاحة وسفرجلة ورمّانة فقدّمها لهما ، ففرحا بها وقدّماها إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأخذها وشمّها ثمّ ردّها إليهما ، وقال : امضيا بها إلى أمّكما ، ولو ذهبتما بها إلى أبيكما أولاً فهو خير .

فعملا بقوله (صلّى الله عليه وآله) ، وبقيا عند أبويهما حتّى وافاهما رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأكلوا منها جميعاً ، وكانت كلّما أكلوا منها عادت كما كانت في حالها الأولى ، لم تنقص ، حتى إذا ارتحل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى الملكوت الأعلى كانت الفاكهة عند أهل البيت لم يطرأ عليها طارىء ، فلما توفّيت فاطمة (عليها السلام) اختفت الرمّانة ولمّا استشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) اختفت السفرجلة وبقيت التفّاحة عند الإمام الحسن (عليه السلام) حتى استشهد مسموماً دون أن تصاب بسوء ، وانتقلت بعده إلى الإمام الحسين (عليه السلام) .

يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) : لمّا حوصر أبي بأهل الجور والجفاء في بيداء كربلاء كانت تلك التفاحة معه ، وكان كلّما غلبه العطش أخرجها فشمّها لكي تخفّف عطشه ، فلمّا اشتدّ عليه العطش وأيقن أنّه ميّت عضّها ، ولمّا استشهد (عليه السلام) لم يُعثر لها على أثر .

ثم قال : « . . . فبقي ريحها بعد الحسين (عليه السلام) ، ولقد زرت قبره فوجدت ريحها يفوح من قبره ، فمن أراد ذلك من شيعتنا الزائرين للقبر فليلتمس ذلك في أوقات السحر فإنّه يجده إذا كان مخلصاً » .

ويروى عن أماليّ المفيد النيشابوري عن الرضا (عليه السلام) أنّه قال :

« عري الحسن والحسين صلوات الله عليهما وأدركهما العيد ، فقالا لأمّهما : قد زيّنوا صبيان المدينة إلّا نحن ، فما لك لا تزيّنينا ؟ فقالت : إنّ ثيابكما عند الخيّاط ، فإذا أتاني زيّنتكما .

فلمّا كانت ليلة العيد أعادا القول على أمّهما فبكت ورحمتهما ، فقالت لهما ما قالت في الأولى .

فلمّا أخذ الظلام قرع الباب قارع ، فقالت فاطمة : من هذا ؟ قال : يا بنت رسول الله أنا الخيّاط جئت بالثياب ، ففتحت الباب فإذا رجل ومعه من لباس العيد ، قالت فاطمة : والله لم أر رجلاً أهيب سيمة منه ، فناولها منديلاً مشدوداً ثمّ انصرف .

فدخلت فاطمة ففتحت فإذا فيه قميصان ودرّاعتان ، وسروالان ، ورداءان ، وعمامتان ، وخفّان أسودان معقّبان بحمرة ، فأيقظتهما وألبستهما ، فدخل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهما مزيّنان فحملهما وقبّلهما ثمّ قال : رأيتِ الخيّاط ؟ قالت : نعم يا رسول الله ، والذي أنفذته من الثياب ، قال : يا بنيّة ، ما هو خيّاط ، إنّما هو رضوان خازن الجنّة ، قالت : فمن أخبرك يا رسول الله ؟ قال : ما عرج حتّى جاءني وأخبرني بذلك » .

ويقرب من هذا الحديث ما ورد في الأثر عن (المنتخب) من أنّ الحسن والحسين (عليهما السلام) حضرا إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوم عيد ، وكانا يريدان لباساً جديداً ، فأحضر لهما جبرئيل ثوبين مخيطين أبيضين ، فالتمسا لباساً ملوّناً ، فأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بطست فأحضر وصبّ جبرئيل فيه الماء ، فاختار الحسن (عليه السلام) اللون الأخضر ، بينما اختار سيّد الشهداء (عليه السلام) اللون الأحمر ، فبكى جبرئيل وأخبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) باستشهاد سبطيه ، وأنّ الحسن (عليه السلام) يموت بالسمّ فيخضرّ لونه عند موته ، وإنّ الحسين (عليه السلام) يقتل فيختضب بالدم .

يروي العياشي وغيره أن الإمام الحسين (عليه السلام) مرّ يوماً بمساكين قد بسطوا كساءً لهم وألقوا عليه كسراً ، فقالوا : هلّم يا بن رسول الله ، فثنى وركه فأكل معهم ، ثمّ قال : إنّ الله لا يحبّ المستكبرين ، ثمّ قال : قد أجبتكم فأجيبوني ، قالوا : نعم يا بن رسول الله ، فقاموا معه حتّى أتوا منزله ، فقال للجارية : أخرجي ما كنت تدّخرين . (ثم ضيّفهم وأنعم عليهم ولاطفهم) .

سخاء الإمام الحسين (عليه السلام) وجوده

مما يروى عن جوده وسخائه (عليه السلام) أنّ أعرابيّاً وفد المدينة فسأل عن أكرم الناس بها ، فدُلّ على الحسين (عليه السلام) ، فدخل المسجد فوجده مصلّياً ، فوقف بإزائه وأنشأ :

لم يخب الآن من رجاك ومن	حرّك من دونك بابك الحلقة
أنت جواد وأنت معتمد	أبوك قد كان قاتل الفسقة
لولا الذي كان من أوائلكم	كانت علينا الجحيم منطبقة

قال : فسلّم الحسين وقال : يا قنبر ، هل بقي من مال الحجاز شيء ؟ قال : نعم أربعة آلاف دينار ، فقال هيّئها فقد جاء من هو أحقّ بها منّا .

ثمّ إنّه ذهب إلى بيته فنزع برده ولفّ الدنانير به ، وأخرج يده من شقّ الباب حياءً من الأعرابي ، وأنشأ :

خذها فإني إليك معتذر   واعلم بأني عليك ذو شفقة
لو كان في سيرنا الغداة عصا[1]   أمست سمانا عليك مندفقة
لكن ريب الزمان ذو غير   والكف مني قليلة النفقة

قال : فأخذها الأعرابي وبكى ، فقال له : لعلك استقللت ما أعطيناك ، قال : لا ، ولكن كيف يأكل التراب جودك .

وروي شبيه هذه الحكاية عن الإمام الحسن (عليه السلام) .

يقول المؤلف : كثيراً ما تروى المناقب عن الإمام الحسن (عليه السلام) حيناً ، وعن الإمام الحسين حيناً آخر ، وعلّة ذلك التقارب بين اسميهما ، الأمر الذي يدعو إلى التصحيف ، ما لم يُحرص على تحرّي الضبط والدقة .

ويروى في بعض الكتب عن عصام بن المصطلق أنه قال :

وفدت المدينة فلقيت الحسين بن عليّ فأعجبني حسن وجهه وجمال مظهره ، فدفعني الحسد إلى إظهار البغض والعداوة اللتين أكنّهما في صدري لأبيه ، فدنوت منه وقلت : ألست ابن أبي تراب ؟

(يقول المؤلّف : يدعو أهل الشام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه الكنية ظنّاً منهم أنهم إنّما ينتقصون منه ، في حين أنّهم إنّما يلبسونه الحلي والحلل إذ يدعونه بها) .

وعلى العموم : فقد سأله عصام : ألست ابن أبي تراب ؟ قال : بلى .

قال : فبالغت في شتمه وشتم أبيه ، فنظر إليّ نظرة عاطف رؤوف ، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴾ . . . الآيات إلى قوله : **﴿ ثمّ لا يُقصِرون ﴾** (الأعراف/١٩٩/ ٢٠٢) .

(في هذه الآيات إشارة إلى مكارم الأخلاق التي أدّب الله تعالى بها نبيّه الكريم ، ومنها أن يكتفي بالميسور من سلوك الناس ، وأن لا يتوقّع المزيد ، وأن لا يقابل السيّئة بالسيّئة ، وأن يعرض عن الجاهلين ، وأن يعوذ بالله عند وسوسة الشيطان) .

ثم قال (عليه السلام) : خفّض عليك ، استغفر الله لي ولك ، فإن سألت العون أعناك ، وإن رجوت عطاءً أعطيناك ، وإن استرشدتنا أرشدناك .

---

(١) العصا هنا كناية عن القوّة والإمارة والحكم .

قال عصام : فخجلت من قوله ومن تقصيري ، ولما رأى خجلي قال :

﴿ لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ .

(وهذه الآية الشريفة جرت على لسان النبيّ يوسف (عليه السلام) لإخوته ، قالها في معرض العفو عنهم ، وأنه لا يلومهم ولا يعتب عليهم ، وأنّ الله يغفر لهم ، فهو أرحم الراحمين) .

ثمّ قال (عليه السلام) : أأنت شاميّ ؟ قال : أجل ، قال : شِنْشِنة أعرفها من أخزم » .

(وهذا مثل تمثّل به (عليه السلام) ، ومفاده أن هذه عادة ألفناها من أهل الشام بعد أن استنّها معاوية لهم) .

ثمّ قال : حيّانا الله وإيّاك ، إن كانت لك عندنا حاجة فقلها دون حرج ، ولا تظنّنّ بنا إلاّ خيراً إن شاء الله تعالى .

قال عصام : مع هذه الأخلاق الحسنة ـ وما قابلتها به من جرأة وعداء ـ ضاقت بي الأرض ، وتمنّيت لو أنّها تنشقّ وتبتلعني ؛ ثمّ خرجت من عنده متمهّلاً أداري نفسي بالناس حذراً من أن يراني ، ولم يكن عندي ـ بعد هذا المجلس ـ من هو أحبّ إليّ منه ومن أبيه .

ويروى عن (مقتل آل الرسول) للخوارزميّ وعن (جامع الأخبار) أنّ أعرابيّاً جاء إلى الحسين بن عليّ (عليهما السلام) فقال :

يا بن رسول الله ، قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها ، فقلت في نفسي : أسأل أكرم الناس ، وما رأيت أكرم من أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) . فقال الحسين (عليه السلام) : يا أخا العرب ، أسألك عن ثلاث مسائل ، فإن أجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال ، وإن أجبت عن اثنتين أعطيتك ثلثي المال ، وإن أجبت عن الكلّ أعطيتك الكلّ . . . فقال الأعرابيّ : يابن رسول الله ، أمثلك يسأل مثلي وأنت من أهل العلم والشرف ؟ فقال الحسين (عليه السلام) : بلى ، سمعت جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : المعروف بقدر المعرفة ؛ فقال الأعرابيّ : سل عمّا بدا لك ، فإن أجبت وإلاّ تعلّمت منك ، ولا قوّة إلاّ بالله .

فقال الحسين (عليه السلام) : أيّ الأعمال أفضل ؟ فقال الأعرابيّ : الإيمان بالله .

فقال الحسين (عليه السلام) : فما النجاة من المهلكة ؟ فقال الأعرابيّ الثقة بالله .

فقال الحسين : فما يزين الرجل ؟ فقال الأعرابي : علم معه عمل .

فقال : فإن أخطأه ذلك ؟ فقال : مال معه مروءة .

فقال : فإن أخطأه ذلك ؟ فقال : فقر معه صبر .

فقال : فإن أخطأه ذلك ؟ فقال : فصاعقة تنزل من السماء وتحرقه ، فإنه أهل لذلك .

فضحك الحسين (عليه السلام) ورمى بصرّة إليه فيها ألف دينار ، وأعطاه خاتمه وفيه فصّ قيمته مئتا درهم ، وقال : يا أعرابيّ ، أعط الذهب إلى غرمائك ، واصرف الخاتم في نفقتك .

فأخذها الأعرابيّ وقال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

طرف من زهده ومناقبه (عليه السلام)

يروي ابن شهر اشوب أنه شوهد على ظهر الإمام الحسين (عليه السلام) بعد استشهاده ندوب خشنة ، ولما سئل الإمام زين العابدين (عليه السلام) عنها قال : إنّها آثار ما كان يحمله من طعام وغيره ليوصله إلى بيوت الأيامى من النساء ، واليتامى من أطفال الفقراء والمساكين .

ويروى أنّه (عليه السلام) حجّ خمساً وعشرين حجّة ماشياً والنجائب تقاد خلفه .

ومن زهده (عليه السلام) أنّه قيل له : ما أعظم خوفك من ربّك ! قال : « لا يأمن يوم القيامة إلاّ من خاف الله في الدنيا » .

وذكر ابن عبد ربّه في (العقد الفريد) أنّه قيل لعليّ بن الحسين (عليهما السلام) : ما أقلّ ولد أبيك ! فقال : « العجب كيف وُلدت ، كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة » .

ويروي السيّد الشريف الزاهد عبد الله محمّد بن الحسن بن عبد الرحمن العلويّ الحسيني في كتاب(النفازي) عن أبي حازم الأعرج أنّه قال : كان الإمام الحسن (عليه السلام) يعظّم الإمام الحسين (عليه السلام) كما لو أنه كان أكبر منه .

وينقل عن ابن عبّاس أنّه قال : سألت الإمام الحسن (عليه السلام) عن السبب فقال إنّه يحسّ من الإمام الحسين (عليه السلام) هيبةً أشبه بهيبة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وقال ابن عبّاس : كنّا جلوساً مع الإمام الحسن في مجلس ، فحضر الإمام الحسين (عليه السلام) فتغيّرت حال الإمام الحسن (عليه السلام) احتراماً لأخيه (عليهما السلام) .

وكان الحسين بن عليّ (عليهما السلام) زاهداً حقّاً في الدنيا منذ طفولته وصغر سنّه وابتداء أمره ومقتبل شبابه ، كان يأكل مع أمير المؤمنين (عليه السلام) من قرته ، وكان يشاركه الضيق والشدّة والصبر ، وكانت صلاته تقرب من صلاته ، والله تعالى قضى بأن يكون

الحسنان (عليهما السلام) قدوة للأمّة ، لكنّه جعل الفرق بين إرادتيهما من أجل هذا الاقتداء ، إذ لو كانا على نحو واحد وطريقة واحدة لوقع الناس في الضيق .

ويروى عن مسروق أنّه قال : وردت يوم عرفة على الحسين بن عليّ (عليهما السلام) قد وضعت أقداح السويق أمامه وأمام أصحابه ، والمصاحف إلى جانبهم (يريد أنّهم كانوا صائمين منشغلين بقراءة القرآن ينتظرون موعد الإفطار ليفطروا بذلك السويق) ، قال : سألته عن مسائل فأجابني عنها ، وانصرفت .

ثم وردت على الإمام الحسن (عليه السلام) فرأيت الناس يتوافدون إليه ، وقد مدّت الموائد وعليها ألوان من الطعام ، وكان الناس يأكلون ويحملون معهم منها ؛ فلمّا رأيت ذلك تغيّرت حالي ، فرأى الإمام الحسن (عليه السلام) ما بي ، فقال : أي مسروق لم لا تأكل ؟ قلت : إنّي صائم يا مولاي وقد ذكرت أمراً ، قال : وما ذاك ؟ قلت : أستعين بالله عمّا أرى (أي ما يراه من اختلاف بينهما) ، دخلت على الحسين (عليه السلام) فإذا به صائم يرقب الإفطار ، ولما أتيتك رأيتك على هذه الحال !

قال : فلمّا سمع (عليه السلام) قولي ضمّني إلى صدره وقال : يا بن الأشرس ، أما تعلم أنّ الله قضى بأن نكون كلينا قدوة للأمّة ، فجعلني قدوة لمفطريكم ، وجعل أخي قدوة لصائميكم كي تكونوا في سعة ؟

ويروى أن الإمام الحسين (عليه السلام) كان أشبه في الصورة والسيرة برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأنّه كان يقعد في المكان المظلم فيهتدى إليه ببياض جبينه ونحره .

ومن مناقب ابن شهر اشوب وكتب أخرى روي أن فاطمة (عليها السلام) أتت بابنيها الحسن والحسين إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقالت : انحل ابنيّ هذين ـ وفي رواية : هذان ابناك فورّثهما شيئاً ـ فقال : « أمّا الحسن فله هيبتي وسؤددي ، وأمّا الحسين فله جرأتي وجودي » ، فقالت : رضيت يا رسول الله .

وفي رواية أنّه قال : « أمّا الحسن فأنحله الهيبة والحلم (والعلم) ، وأمّا الحسين فأنحله الجود والرحمة » .

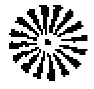
ويروي ابن طاوس عن حذيفة أنّه قال :

سمعت الحسين بن عليّ (عليهما السلام) يقول : « والله ليجتمعنّ على قتلي طغاة بني أميّة ، ويقدمهم عمر بن سعد » ، وذلك في حياة النبيّ (صلّى الله عليه وآله) ، فقلت له : أنبأك بهذا رسول الله ؟ فقال : لا ، فأتيت النبيّ فأخبرته فقال : « علمي علمه وعلمه علمي » .

ويروي ابن شهر اشوب عن عليّ بن الحسين (عليهما السلام) أنّه قال :

« خرجنا مع الحسين فما نزل منزلاً ولا ارتحل عنه إلاّ وذكر يحيى بن زكريّا ، وقال يوماً : من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل » .

وجاء في أحاديث معتبرة عن طريق الخاصّة والعامّة أنّ جبرئيل (عليه السلام) نزل يوماً فوجد الزهراء (عليها السلام) نائمة ، والحسين في مهده يبكي ، فجعل يناغيه ويسلّيه حتى استيقظت ، فسمعت صوت من يناغيه ، فالتفتت فلم تر أحداً ، فأخبرها النبيّ (صلّى الله عليه وآله) أنّه كان جبرئيل (عليه السلام) .



الفصل الثالث

في ثواب البكاء على الحسين (عليه السلام) ورثائه وإقامة مجالس العزاء

يروي الشيخ الجليل الكامل جعفر بن قولويه في (كامل الزيارات) عن ابن خارجة أنّه قال : كنّا عند الإمام الصادق (عليه السلام) فذكرنا الحسين بن عليّ (عليهما السلام) فبكى أبو عبد الله (عليه السلام) وبكينا ، ثمّ رفع رأسه فقال :

« قال الحسين بن عليّ (عليه السلام) : أنا قتيل العبرة ، لا يذكرني مؤمن إلاّ بكى » .

ويروي أيضاً أنّه ما ذكر الحسين بن علي عند أبي عبد الله في يوم قطّ فرئي أبو عبد الله (عليه السلام) متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل ، وكان أبو عبد الله (عليه السلام) يقول : « الحسين عبرة كلّ مؤمن » .

ويروي الشيخ الطوسي والشيخ المفيد عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال : نَفَس المهموم لظلمنا تسبيح ، وهمّه لنا عبادة ، وكتمان سرّنا جهاد في سبيل الله » .

ثمّ قال (عليه السلام) : « يجب أن يكتب هذا الحديث بالذهب » .

ويروى بأسناد معتبرة عن أبي عمارة المنشد (أي قارىء الشعر) أنّه قال :

قال لي أبو عبد الله (عليه السلام) : يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن عليّ (عليهما السلام) ، فأنشدته فبكى ، ثمّ أنشدته فبكى ، فوالله ما زلت أنشده ويبكي حتى سمعتُ البكاء من الدار .

وبرواية أخرى أنّه (عليه السلام) قال :

أنشدني كما تنشدون وتنوحون ، فلمّا أنشدته بكى ، وارتفع صوت بكاء نسائه من وراء

الستر ، فلمّا فرغت قال (عليه السلام) :

« من أنشد في الحسين بن علي (عليهما السلام) شعراً فأبكى خمسين فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرين فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى واحداً فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنّة » .

ويروي الشيخ الكشي عن زيد الشحّام أنّه قال :

كنّا عند أبي عبد الله (عليه السلام) ونحن جماعة من الكوفيّين ، فدخل جعفر بن عفّان على أبي عبد الله (عليه السلام) ، فقرّبه وأدناه ، ثمّ قال : يا جعفر ، قال : لبّيك ، جعلني الله فداك ، قال : بلغني أنّك تقول الشعر في الحسين وتجيد ، فقال له : نعم جعلني الله فداك ، قال : قل ، فأنشده صلّى الله عليه فبكى ومن حوله حتّى صارت الدموع على وجهه ولحيته . ثمّ قال :

« يا جعفر ، والله لقد شهدتْ ملائكةُ الله المقرّبون ههنا يسمعون قولك في الحسين (عليه السلام) ، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر ، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعتك الجنّة بأسرها ، وغفر الله لك » .

ثم قال : « يا جعفر ، ألا أزيدك ؟» قال : نعم يا سيّدي ، قال :

« ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به إلاّ أوجب الله له الجنّة ، وغفر له » .

يروي حامي حوزة الإسلام السيّد الأجلّ مير حامد حسين طاب ثراه ، في العقبات عن (معاهد التنصيص) أنّ محمّد بن سهل صاحب الكميت قال :

دخلت أنا والكميت على أبي عبد الله (عليه السلام) أيام التشريق ، فقال الكميت : جعلت فداك ، أتأذن لي أن أقول شعراً في محضرك ؟ فقال : هذه أيّام عظيمة مباركة (ومراده أنّه لا يليق قول الشعر في هذه الأيّام الشريفة) ، قال الكميت : هذا الشعر فيكم ، قال : فقل ، ثم بعث وراء بعض أهله ليستمعوا .

ثم إنّ الكميت راح ينشد والحضور يبكون ، حتى بلغ قوله :

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم فيا آخراً أسدى له الغيُّ أوّله

فرفع (عليه السلام) يديه وقال : « اللهمّ اغفر للكميت ما قدّم وأخّر ، وما أسرّ وأعلن ، وأعطه حتّى يرضى » .

ويروي الشيخ الصدوق في (الأمالي) عن إبراهيم بن أبي محمود أنه قال : قال الرضا (عليه السلام) :

« إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال ، فاستُحلّت فيه دماؤنا ، وهتكت فيه حرمتنا ، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا ، وأضرمت النيران في مضاربنا ، وانتهب ما فيها من ثقلنا ، ولم ترع لرسول الله حرمة في أمرنا .

إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا ، وأسبل دموعنا ، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء ، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون ، فإنّ البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام » .

ثمّ قال (عليه السلام) : « كان أبي إذا دخل شهر المحرّم لا يُرى ضاحكاً ، وكانت الكآبة تغلب عليه حتّى يمضي منه عشرة أيّام ، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ، ويقول : هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلّى الله عليه » .

كما روى الشيخ الصدوق عنه (عليه السلام) أنّه قال :

« من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عزّ وجلّ يوم القيامة يوم فرحه وسروره ، وقرّت بنا في الجنان عينه ؛ ومن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة ، وادّخر فيه لمنزله شيئاً لم يبارك له في ما ادّخر ، وحشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار » .

ويروي أيضاً بسند معتبر عن الريّان بن شبيب (وهو خال المعتصم الخليفة العبّاسيّ) أنّه قال :

دخلت على الرضا (عليه السلام) في أوّل يوم من المحرّم ، فقال لي : « يا بن شبيب ، أصائم أنت ؟ » فقلت : لا ، فقال : « إن هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريّا ربّه عزّ وجلّ فقال : ﴿ ربّ هب لي من لدنك ذرّيّة طيّبة ، إنّك سميع الدعاء ﴾ ، فاستجاب الله له ، وأمر الملائكة فنادت زكريّا وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى ، فمن صام هذا اليوم ثمّ دعا الله عزّ وجلّ استجاب الله له كما استجاب لزكريا (عليه السلام) » .

ثمّ قال : « يا بن شبيب ، إنّ المحرّم هو الشهر الذي كان أهل الجاهليّة فيما مضى يحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته ، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها ولا حرمة نبيّها ، لقد قتلوا في هذا الشهر ذرّيّته ، وسبوا نساءه ، وانتهبوا ثقله ، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً .

يـا بن شبيب ، إن كنت بـاكياً بشيء فـابـك للحسين بن عـليّ بـن أبي طـالب (عليهما السلام) فإنّه ذبح كما يذبح الكبش ، وقتـل معه من أهـل بيته ثـمانية عشر رجـلاً ، ما لهم في الأرض شبيهون ، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله ، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فوجدوه قد قتل ، فهم عند قبره شُعث غُبْر إلى أن يقـوم القائم فيكونون من أنصاره وشعارهم : « يا لثارات الحسين » .

يا بن شبيب ، لقد حدّثني أبي عن أبيه ، عن جـدّه أنّه لّما قتل جـدّي الحسين أمطرت السماء دماً وتراباً أحمر ، يابـن شبيب ، إن بكيت على الحسين حتّى تصير دموعـك على خـدّيك غفر الله لك كلّ ذنب أذنبته صغيراً كان أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً .

يـا بن شبيب ، إن سرّك أن تـلقى الله عـزّ وجـلّ ولا ذنـب عليـك فـزر الحسين (عليـه السـلام) ، يـا بن شبيب ، إن سرّك أن تسكن الغرف المبنيّـة في الجنّـة مـع النبيّ (صلّى الله عليه وآله) فالعن قتلة الحسين (عليه السلام) .

يا بن شبيب ، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثـل ما لمن استشهـد مع الحسين فقل متى ما ذكرته : « يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

يا بن شبيب ، إن سرّك أن تكون معنا في الدرجـات العلى من الجنـان فاحـزن لحزننـا ، وافرح لفرحنا ، وعليك بولايتنا ، فلو أنّ رجلاً تولّى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة » .

ويروي ابن قولويه بسند معتبر عن أبي هارون المكفوف أنّه قال :

دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال لي : أنشدني ، فأنشدتـه فقال : لا ، كما تنشدون ، وكما ترثيه عند قبره ، فأنشدته :

امـرر عـلى جـدث الحسـيـن فـقـل لأعـظُـمـه الـزكـيّـة

(ستأتي تتمّة هذا الشعر في آخر الباب ، عند ذكر المراثي إن شاء الله) .

قال : فبكى (عليه السلام) فأمسكت أنا ، فقال : مُرّ (أي تابع) فمررت فأنشدت .

يـا مـريـم قـومـي فـانـدبي مـولاك وعـلى الحسـين فـاسعَـدي بـبـكـاك

فبكى وتهايج النساء ، فلما أن سكتن قال لي : ·

« يا أبا هارون ، من أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنّة » .

ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتّى بلغ الواحد فقال :

« من أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنّة » .

ثمّ قال : « من ذكره فبكى فله الجنّة » .

ويروى بسند معتبر كذلك عن عبد الله بن بكر أنّه قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) فقلت : يا بن رسول الله ، لو نُبش قبر الحسين بن عليّ (عليهما السلام) هل كان يصاب في قبره شيء ؟ (أي هل يُعثر في قبره على شيء) فقال :

«يابن بكر، ما أعظم مسائلك! إنّ الحسين بن علي (عليهما السلام) مع ابيه وأمّه وأخيه في منزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ومعه يرزقون ويحبرون ، وإنّه لعن يمين العرش متعلّق به ويقول : يا ربّ ، انجز لي ما وعدتني ، وإنّه لينظر إلى زوّاره فهو أعرف بهم ، وبأسمائهم وأسماء آبائهم وما في رحالهم ، من أحدهم بولده ؛ وإنّه لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له ، ويسأل أباه الاستغفار له ، ويقول : أيّها الباكي ، لو علمت ما أعدّ الله لك لفرحت أكثر ممّا حزنت، وإنّه ليستغفر له من كلّ ذنب وخطيئة».

ويروى بسند معتبر كذلك عن مسمع كردين أنّه قال :

قال لي أبو عبد الله (عليه السلام) : « يا مسمع ، أنت من أهل العراق ، أما تأتي قبر الحسين » ؟ قلت : لا ، أنا رجل مشهور من أهل البصرة ، وعندنا من يتّبع هوى هذا الخليفة ، وأعداؤنا كثيرة من أهل القبائل من النصّاب وغيرهم ، ولست آمنهم أن يرفعوا عليّ عند ولد سليمان (الوالي) فيميلون عليّ .

قال لي : أفما تذكر ما صُنع به ؟ قلت : بلى ، قال : فتجزع ؟ قلت : إي والله ، واستعبر لذلك حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ ، فأمتنع من الطعام حتّى يستبين ذلك في وجهي .

قال : « رحم الله دمعتك ، أما إنّك من الذين يُعدّون من أهل الجزع لنا ، والذين يفرحون لفرحنا ، ويحزنون لحزننا ، ويخافون لخوفنا ، ويأمنون إذا أمنّا ؛ أما إنّك سترى عند موتك ـ وحضور آبائي لك ، ووصيّتهم ملك الموت بك ، وما يلقّونك به من البشارة ـ ما تقر به عينك قبل الموت ، فملك الموت أرقّ عليك وأشدّ رحمة لك من الأمّ الشفيقة على ولدها » .

ثمّ استعبر واستعبرت معه . . . إلى آخر الحديث الذي ينير البصر والبصيرة .

ويروى بسند معتبر كذلك عن زرارة أنّه قال : قال أبو عبد الله (عليه السلام) :

« يا زرارة ، إنّ السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدم (بالحمرة) ، وإنّ الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد ، وإنّ الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة ، وإنّ الجبال تقطّعت وانتثرت ، وإنّ البحار تفجّرت ، وإنّ الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين ، وما اختضبت منّا امرأة ، ولا ادّهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت (شعرها) حتّى أتانا

رأس عبيد الله بن زياد لعنه الله ، وما زلنا في عَبرةٍ بعده .

وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته ، وحتى يبكي رحمةً له من رآه ، وإنّ الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كلّ من في الهواء والسماء من الملائكة . . » .

ويروي ابن قولويه بسند معتبر كذلك عن داود الرقّيّ أنّه قال : كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) إذ استسقى الماء ، فلمّا شربه رأيته قد استعبر ، واغرورقت عيناه بدموعه ، ثمّ قال لي :

« يا داود ، لعن الله قاتل الحسين (عليه السلام) ، فما من عبد شرب الماء فذكر الحسين ولعن قاتله إلاّ كتب الله له مئة ألف حسنة ، وحطّ عنه مئة ألف سيّئة ، ورفع له مئة ألف درجة ، وكأنّما أعتق مئة ألف نسمة ، وحشره الله يوم القيامة ثلج الفؤاد » .

ويروي الشيخ الطوسي (قده) بسند معتبر عن معاوية بن وهب أنّه قال : كنت جالساً عند جعفر بن محمد (عليه السلام) إذ جاءه شيخ قد انحنى من الكبر فقال : السلام عليك ورحمة الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله يا شيخ ، ادن منّي ، فدنا منه وقبّل يده وبكى ، فقال له : وما يبكيك يا شيخ ؟ قال له : يا بن رسول الله ، أنا مقيم على رجاء منكم منذ نحو من مئة سنة أقول : هذه السنة ، وهذا الشهر ، وهذا اليوم ، ولا أراه فيكم (يريد أنه لا يرى رجاءه وهو خروجهم على أعدائهم) ، فتلومني أن ابكي ؟

فبكى أبو عبد الله (عليه السلام) ثمّ قال : يا شيخ ، إنْ أخرت منيّتك كنت معنا ، وإن عُجّلت كنت يوم القيامة مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقال الشيخ : ما أبالي ما فاتني بعد هذا يا بن رسول الله ، فقال له أبو عبد الله (عليه السلام) : يا شيخ ، إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال :

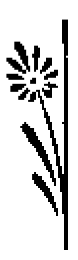
« إني تارك فيكم الثقلين ، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا : كتاب الله المنزل ، وعترتي أهل بيتي » . تجيء وأنت معنا يوم القيامة .

ثمّ قال : يا شيخ ، ما أحسبك من أهل الكوفة ، قال : لا ، قال : فمن أين ؟ قال : من سوادها جعلت فداك ، قال : أين أنت من قبر جدّي المظلوم الحسين ؟ قال : إنّي لقريب منه ، قال : كيف إتيانك له ؟ قال : إنّي لآتيه وأُكثر ، قال :

« يا شيخ ، ذاك دم يطلب الله تعالى به ، ما أصيب ولد فاطمة ولا يصابون بمثل الحسين ، ولقد قتل (عليه السلام) في سبعة عشر من أهل بيته ، نصحوا لله وصبروا في جنب الله ، فجزاهم الله أحسن جزاء الصابرين .

إنّه إذا كان يوم القيامة أقبل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ومعه الحسين (عليه السلام) ويده على رأسه يقطر دماً ، فيقول : يا ربّ سل أمّتي فيم قتلوا ابني » .

وقال (عليه السلام) : « كلّ الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين » . صلوات الله وسلامه عليه .



الفصل الرابع

في الإخبار بشهادة الإمام الحسين (عليه السلام)

يروي الشيخ جعفر بن قولويه عن سلمان أنه قال :

لم يبق في السماوات ملك لم ينزل إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يعزّيه في ولده الحسين (عليه السلام) ويخبره بثواب الله إيّاه ، ويحمل إليه تربته مصروعاً عليها ، مذبوحاً مقتولاً ، طريحاً مخذولاً ، فيقول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

« اللهمّ اخذل من خذله ، واقتل من قتله ، واذبح من ذبحه ، ولا تمتّعه بما طلب » .

قال الراوي : فوالله لقد عوجل الملعون يزيد ولم يتمتّع بعد قتله ، ولقد أُخذ مغافصة[1] ، بات سكران وأصبح ميّتاً متغيّراً كأنّه مطليّ بالقار ؛ وما بقي أحد ممّن تابعه على قتله أو كان في محاربته إلاّ أصابه جنون أو جذم أو برص ، وصار ذلك وراثة في نسلهم .

ويروي كذلك عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال :

« كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذا دخل الحسين (عليه السلام) (في طفولته) اجتذبه إليه ، ثمّ يقول لأمير المؤمنين (عليه السلام) : أمسكه ، ثمّ يقع عليه فيقبّله ويبكي ، فيقول : يا أبه لم تبكي ؟ فيقول : يا بنيّ ، أقبّل موضع السيوف منك وأبكي ، قال : يا أبه وأقتل ؟ قال : إي والله ، وأبوك وأخوك وأنت ، قال : يا أبه فمصارعنا شتّى ؟ قال : نعم يا بنيّ ، قال : فمن يزورنا من أمّتك ؟ قال : لا يزورني ويزور أباك وأخاك وأنت إلاّ الصدّيقون من أمّتي » .

ويروي كذلك عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

---

(١) أخذ مغافصةً : أخذ فجأة على غرّة .

« كان الحسين بن عليّ (عليهما السلام) ذات يوم في حجر النبيّ (صلّى الله عليه وآله) يلاعبه ويضاحكه ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما أشدّ اعجابك بهذا الصبيّ ! فقال لها : ويلك ، وكيف لا أحبّه ولا أعجب به وهو ثمرة فؤادي وقرّة عيني ؟ أما إنّ أمّتي ستقتله ، فمن زاره بعد وفاته كتب الله له حجّة من حججي .

قالت : يا رسول الله ، حجّة من حججك ؟! قال : نعم ، وحجّتين من حججي ، قالت : يا رسول الله ، حجّتين من حججك ؟! قال : نعم ، وأربعة .

قال : فلم تزل تزاده ويزيد ويضعّف حتى بلغ تسعين حجّة من حجج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بأعمارها[1] » .

يروي الشيخ المفيد والطبرسي وابن قولويه رضوان الله عليهم بأسناد معتبرة عن الأصبغ بن نباتة وغيره أنّه قال : بينا أمير المؤمنين (عليه السلام) يخطب الناس وهو يقول :

« سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالله لا تسألوني عن شيء مضى ولا عن شيء يكون إلّا نبّأتكم به » .

فقام إليه سعد[2] بن أبي وقاص[3] فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني كم في رأسي ولحيتي من شعرة؟ فقال له :

« أما والله لقد سألتني عن مسألة حدّثني خليلي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّك ستسألني عنها ، وما في رأسك ولحيتك من شعرة إلّا وفي أصلها شيطان يستفزّك ، وإن في بيتك لسخلاً يقتل الحسين ابني ، ولولا أنّ الذي سألت يعسر برهانه لأخبرتك به ، وآية ذلك مصداق ما خبّرتك به » . وكان عمر بن سعد يومئذ يحبو ويدرج بين يديه .

---

(١) أي : مع كل حجّة عمرة .

(٢) يظهر أن هذه الحادثة وقعت في الكوفة أيّام الخلافة الظاهريّة لأمير المؤمنين (ع) ، وبناء على ذلك فعمر بن سعد كان في كربلاء في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً ، فكان قد انقضى من عمره المشؤوم ستّ سنوات ، وإنّ ما ورد في الكتب غير المعتبرة من أنّ ابن سعد كان على أيّام رسول الله (ص) لا أصل له ، وإن كان بعض علماء العامّة قد ذكروا أنّ ولادته كانت يوم مقتل عمر ، فلعلّ الأمر اشتبه على الناقل ، والمراد هو يوم مقتل عثمان ، وهذا ما يتناسب مع عبارة :
« يحبو ويدرج » الواردة في هذه الرواية المعتبرة .
وعلى فرض صحّتها فقد كان عمر بن سعد في كربلاء في السابعة والثلاثين من عمره تقريباً ، وعلى أيّ حال فما هو مشهور على ألسنة العامّة من تعبيرهم عن عمر بن سعد بـ(شيخ فلاة كربلاء) لا مأخذ عليه ، والله هو العالم .

(٣) يراجع المقصد الثالث : في وقائع يوم عاشوراء .

(وفي رواية الإرشاد والاحتجاج لم يرد اسم سعد ، إنّما ورد : « فقام إليه رجل » وسأل السؤال ، وأجابه (عليه السلام) بما أجاب به في الرواية المتقدّمة) .

ويروي الحميري في (قرب الأسناد) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

مرّ عليّ (عليه السلام) بكربلاء في اثنين من أصحابه ، فلمّا مرّ بها ترقرقت عيناه للبكاء ثمّ قال :

« هذا مناخ ركابهم ، وهذا ملقى رحالهم ، وها هنا تهراق دماؤهم ؛ طوبى لك من تربة عليك تهراق دماء الأحبّة » .

ويروي الشيخ المفيد أنّ عمر بن سعد قال للحسين (عليه السلام) : يا أبا عبد الله ، إنّ قِبَلَنا ناساً سفهاء يزعمون أنّي أقتلك ، فقال له الحسين (عليه السلام) :

إنّهم ليسوا سفهاء ولكنّهم حلماء ، أما إنّه يقرّ عيني أن لا تأكل برّ العراق بعدي إلاّ قليلاً » .

ويروي الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّ الحسين بن عليّ (عليهما السلام) دخل يوماً إلى الحسن (عليه السلام) ، فلمّا نظر إليه بكى ، فقال له : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ قال : أبكي لما يصنع بك ، فقال له الحسن (عليه السلام) :

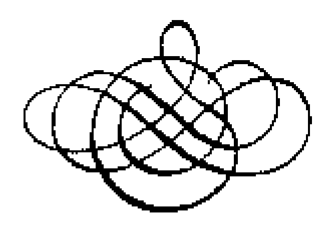
« إنّ الذي يؤتى إليّ سمّ يدسّ إليّ فأقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدّعون أنّهم من أمّة جدّنا محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وينتحلون دين الإسلام ، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك ، وانتهاك حرمتك ، وسبي ذراريك ونسائك ، وانتهاب ثقلك ؛ فعندها تحلّ ببني أميّة اللعنة ، وتمطر السماء رماداً ودماً ، ويبكي عليك كلّ شيء ، حتّى الوحوش في الفلوات ، والحيتان في البحار » .

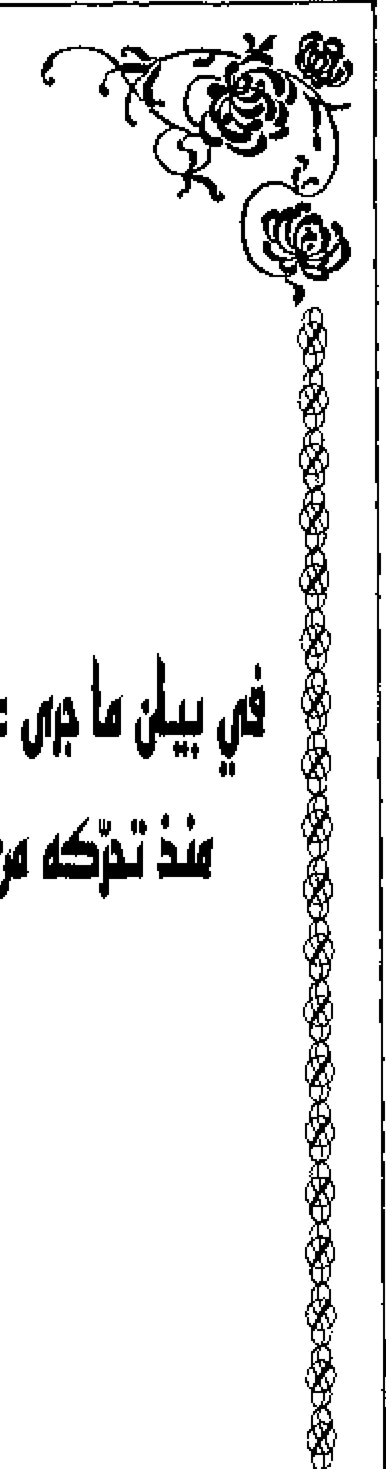
يقول المؤلّف : الحقّ أنّه لو تأمّل المتأمّل البصير لما رأى مصيبة أعظم من هذه المصيبة ، من بدء العالم وحتّى الآن ؛ فبعد الرجوع إلى التواريخ والسير لم نجد واقعة بهذا الهول : أن يقتلوا ابن النبيّ مع أصحابه وأهل بيته في يوم واحد ، وينتهبوا رحلهم ومتاعهم ، ويحرقوا خيامهم ، ويحملوا رأسه ورؤوس أصحابه ، وأولاده مع العيال والأطفال من مدينة إلى مدينة ، وأن يركلوا بأقدامهم دفعة واحدة الملّة والدين الذي يتظاهرون بالانتساب إليه ، ويستمدّون سلطتهم وقوّتهم من هذا الدين نفسه لا من دين آخر وملّة أخرى !!

ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأنكاها لقلوب المحبّين .

ولله درّ مهيار حيث قال :

يعظّمون له أعواد منبره   وتحت أرجلهم أولاده وضعوا
بأيّ حكم بنوه يتبعونكمُ   وفخركم أنكم صحب له تبع





المقصد الثاني

في بيان ما جرى على الإمام الحسين (عليه السلام) منذ تحرّكه من المدينة حتى نزوله في كربلاء

وفيه سبعة فصول



في توجّه الإمام الحسين (عليه السلام) إلى مكّة

إن بيان الأمور التي جرت على سيّد الشهداء وأصحابه منذ تحرّكه من المدينة المنوّرة وحتّى نزوله في كربلاء ، إلى استشهاد مسلم بن عقيل واستشهاد طفليه ، هذا البيان لتلك الواقعة الهائلة قد ورد بأشكال مختلفة في كتب الفريقين ، وفي هذه الرسالة سنكتفي بإيجاز ما ورد عن أكابر العلماء في الكتب المعتبرة ، كما أننا ـ وبقدر الإمكان ـ لن نتجاوز عن روايات الشيخ المفيد والسيّد ابن طاوس وابن نما والطبري ، وسنختار رواياتهم إلى روايات سائر الآخرين ، وسنشير في صدر المطالب ـ على الغالب ـ إلى الناقل ومحلّ الاختلاف ، فنقول :

اعلم أنّه بعد ارتحال الإمام الحسن (عليه السلام) إلى رياض القدس تحرّك شيعة العراق فبعثوا بكتاب إلى الإمام الحسين (عليه السلام) عرضوا فيه عزمهم على خلع معاوية وبيعة الإمام الحسين (عليه السلام) ، فرأى أنّ المصلحة تقتضي التريّث ، وأمرهم بأن يتريّثوا في هذا حتّى تنقضي خلافة معاوية .

وفي ليلة النصف من رجب سنة ستين من الهجرة هلك معاوية ، وتولّى الأمر بعده ابنه يزيد ، فانصرف إلى إعداد شؤون ملكه ، فكتب كتاباً إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، وكان عامل معاوية على المدينة ، يأمره فيه بأخذ البيعة له من أبي عبد الله الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير[1] ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، كما يأمره فيه بأن يشتدّ عليهم ، وأن لا يقبل أعذارهم ، وأن يضرب عنق كلّ من يأبى البيعة منهم ، ويبعث برأسه إليه .

ولمّا ورد الكتاب على الوليد أحضر مروان واستشاره في الأمر ، فقال مروان : أرى أن

---

(١) ذكرُ أولئك الثلاثة حتى آخر كلامهم بعد وصول رسول الوليد يوافق رواية ابن شهر اشوب وغيره ، إنّما لا يخفى أنّ ما يثبته التاريخ هو أن موت عبد الرحمن بن أبي بكر كان في عهد معاوية .

تعجّل في إحضارهم وأخذ البيعة منهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فمن يأبى عليك منهم فاضرب عنقه .

فأرسل الوليد في تلك الليلة يطلبهم إليه ، وكانوا إذ ذاك مجتمعين في روضة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلمّا ورد رسول الوليد عليهم قال الحسين (عليه السلام) بأنّه سيجيب دعوة الوليد إذا ما رجع إلى داره ، ورجع رسول الوليد ، وكان عمر بن عثمان .

قال عبد الله بن الزبير : يا أبا عبد الله ، إن دعوة الوليد لنا في هذا الوقت تعني شيئاً ، وإنّه يضمر لنا السوء ، فماذا تقول ؟

قال (عليه السلام) : أظنّ أن معاوية الطاغية قد هلك ،والوليد يدعونا لأخذ البيعة ليزيد .

فلمّا تبيّن لهم ما يكنّه الوليد قال عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر : ندخل دورنا ونغلق أبوابنا ، فقال ابن الزبير : والله ما أبايع يزيد أبداً ، وقال الحسين (عليه السلام) : أنا لا بدّ لي من الدخول على الوليد .

ثم صار (عليه السلام) إلى بيته ، فدعا ثلاثين نفراً من أهل بيته ومواليه ، وأمرهم بحمل السلاح ، وأوصاهم أن يكونوا معه ، فإذا دخل إلى الوليد فعليهم أن يجلسوا على الباب ، فإن سمعوا صوته فعليهم أن يدخلوا ليمنعوه .

ثم صار (عليه السلام) إلى الوليد فوجد مروان بن الحكم عنده ، فنعى إليه الوليد معاوية فاسترجع الحسين (عليه السلام) ، ثم قرأ عليه كتاب يزيد وما أمره فيه من أخذ البيعة له منه ، فقال الحسين (عليه السلام) .

« إنّي لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً حتّى أبايعه جهراً فيعرف ذلك الناس ، فقال له الوليد : أجل ، قال (عليه السلام) : فتصبح وترى رأيك في ذلك » ، فقال له الوليد : انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا مع جماعة من الناس .

فقال له مروان : والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً ، حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبس الرجل ، ولا يخرج من عندك حتى يبايع ، أو تضرب عنقه .

فوثب الحسين (عليه السلام) عند ذلك وقال : « أنت يا بن الزرقاء تقتلني أم هو ؟ كذبت والله وأثمت » ، ثمّ أقبل على الوليد فقال :

« أيّها الأمير ، إنّا أهل بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وبنا فتح الله ،

وبنا ختم الله ، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر ، قاتل النفس المحرّمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون » .

قال هذا ثمّ خرج ، وصار إلى بيته مع مواليه .

وقد جرت هذه الواقعة ليلة السبت لثلاث بقين من شهر رجب ، ولّما خرج الحسين (عليه السلام) قال مروان للوليد : عصيتني ؟ لا والله لا يمكّنك مثلها من نفسه أبداً ؛ فقال الوليد :

ويح لك يا مروان ، اخترت لي التي فيها هلاك ديني ودنياي ، والله ما أحبّ أنّ لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنّي قتلت حسيناً ، سبحان الله ، أقتل حسيناً أن قال لا أبايع ؟! والله إنّي لأظنّ أنّ امرأً يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

فقال له مروان (متظاهراً) : فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت في ما صنعت ، يقول هذا وهو غير حامد له على رأيه .

واشتغل الوليد بن عتبة بمراسلة ابن الزبير في البيعة ليزيد ، وامتناعه عليهم ؛ وخرج ابن الزبير من ليلته عن المدينة متوجّهاً إلى مكّة ، فلمّا أصبح الوليد سرّح في أثره ثمانين راكباً من موالي بني أميّة ، فطلبوه فلم يدركوه ، فرجعوا .

فلمّا أصبح الحسين (عليه السلام) خرج من منزله ، فلقيه مروان بن الحكم ، فقال له : يا أبا عبد الله ، إنّي لك ناصح ، فأطعني ترشد ؛ فقال الحسين (عليه السلام) : وما ذاك ؟ قل حتّى أسمع ، فقال مروان : إنّي آمرك ببيعة يزيد ، فإنّه خير لك في دينك ودنياك ؛ فقال الحسين (عليه السلام) :

« إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمّة براعٍ مثل يزيد ، ولقد سمعت جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان » .

وطال الحديث بينه وبين مروان حتّى انصرف مروان وهو غضبان .

فلمّا كان آخر نهار السبت بعث الوليد إلى الحسين (عليه السلام) برجال ليحضر فيبايع ، فقال لهم (عليه السلام) : أصبحوا ثمّ ترون ونرى ، وفي ليلته وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب خرج متوجّهاً نحو مكّة .

كيفيّة خروجه (عليه السلام) من المدينة

وحين عزم على الخروج من المدينة راح إلى قبر جدّه رسول الله وأمّه فاطمة وأخيه الحسن صلوات الله عليهم فودّعهم ، ثمّ خرج ومعه بنوه وبنو أخيه وإخوته وجلّ أهل بيته إلّا محمد ابن الحنفيّة رحمه الله ، فإنّه لمّا علم عزمه على الخروج عن المدينة جاءه فقال :

« يا أخي ، أنت أحبّ الخلق إليّ وأعزّهم عليّ ، ولست والله أدّخر النصيحة لأحد من الخلق ، وليس أحد أحقّ بها منك لأنّك مزاج مائي ونفسي وروحي وبصري ، وكبير أهل بيتي ، ومن وجب طاعته في عنقي لأنّ الله قد شرّفك عليّ وجعلك من سادات أهل الجنّة .

يا أخي ، تنحّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، والحق بالبادية ، ثمّ ابعث رسلك إلى الناس ، ثم ادعهم إلى نفسك ، فإن بايعك الناس وبايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن اجتمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك ، إنّي أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم ، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك ، فيقتتلون ، فتكون إذاً لأوّل الأسنّة غرضاً ، فإذا خير هذه الأمّة كلها نفساً أباً وامّاً أضيعها دماً ، وأذلها أهلاً » .

فقال له الحسين (عليه السلام) : فأين أنزل يا أخي ؟ قال :

« تخرج إلى مكّة ، فإن اطمأنّت بك الدار فذاك ، وإن تكن الأخرى خرجت إلى بلاد اليمن ، فإنّهم أنصار جدّك وأبيك ، وهم أرأف الناس وأرقّهم قلوباً ، وأوسع الناس بلاداً ، فإنّ اطمأنّت بك الدار ، وإلّا لحقت بالرمال وشعوب الجبال ، وجزت من بلد إلى بلد ، حتّى تنظر ما يؤول إليه أمر الناس » .

فقال (عليه السلام) : « يا أخي ، قد نصحت وأشفقت ، وأرجو أن يكون رأيك سديداً موفّقاً » .

ووفقاً لبعض الروايات : فقطع محمّد ابن الحنفيّة الكلام وبكى ، فبكى الحسين (عليه السلام) معه ساعة ، ثم قال :

« يا أخي جزاك الله خيراً ، فقد نصحت وأشرت بالصواب ، وأنا عازم على الخروج إلى مكّة ، وقد تهيّأت لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي ، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي ، وأمّا أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً لا تخفي عنّي شيئاً من أمورهم » .

ثم دعا الحسين (عليه السلام) بدواة وبياض وكتب وصيّته لأخيه محمّد ، ثمّ مهرها بخاتمه ودفعها إلى أخيه محمّد ، ثمّ ودّعه وخرج في جوف الليل .

ووفقاً لرواية الشيخ المفيد فإنّ الحسين (عليه السلام) سار إلى مكّة وهو يقرأ قول موسى عند خروجه إلى مدين خوفاً من فرعون :

﴿ فخرج منها خائفاً يترقّب ، قال ربّ نجني من القوم الظالمين ﴾ .

ولزم الطريق الأعظم ، فقال له أهل بيته : لو تنكّبت عن الطريق كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب ، فقال : « لا والله لا أفارقه حتّى يقضي الله ما هو قاض » .

ويروى عن سكينة (عليها السلام) انها قالت : لمّا خرجنا من المدينة لم يكن أهل بيت قطّ أشدّ منا ـ نحن بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ـ خوفاً وفزعاً .

يروى عن الإمام محمّد الباقر (عليه السلام) أنّه لمّا عزم الإمام الحسين (عليه السلام) على الخروج من المدينة علم نساء بني عبد المطلّب بما عزم عليه فأسرعن إليه تعلو أصواتهنّ بالعويل والنواح ، فوقف بينهنّ وأقسم عليهنّ بالسكوت والامتناع عن البكاء ، فقلن له : إنّها لمحنة تفطّر الأكباد ، إنّما نبكي يوماً سيمّر علينا هو والله أشبه باليوم الذي مضى فيه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأشبه باليوم الذي مضى فيه أمير المؤمنين وفاطمة ورقيّة وزينب وأمّ كلثوم بنات رسول الله ، جعل الله أرواحنا لك الفداء يا حبيب قلوب المؤمنين ، ويا ذكرى العظماء .

ثم تقدّمت منه إحدى عماته تنوح وتقول : أشهد يا نور عيني إنّي سمعت الجنّ الآن ينوحون ويقولون :

وإنّ قتيل الطفّ من آل هاشم أذلّ رقاباً من قريش فذلّت

وفقاً لرواية القطب الراوندي وآخرين أنّ أمّ سلمة زوج الرسول الطاهرة أتت الحسين (عليه السلام) لمّا عزم على الخروج فقالت : يا بنيّ ، لا تحزنّي بخروجك إلى العراق ، فإنّي سمعت جدّك يقول :

« يقتل ولدي الحسين بأرض العراق ، في أرض يقال لها كربلاء » فقال لها :

« يا أمّاه ، وأنا والله أعلم ذلك ، وإنّي مقتول لا محالة ، وليس لي من هذا بدّ ، وإنّي والله لأعرف اليوم الذي أقتل فيه ، وأعرف من يقتلني ، وأعرف البقعة التي أدفن فيها ، وإنّي أعرف من يقتل من أهل بيتي وقرابتي وشيعتي ، وإن أردت يا أمّاه أريك حفرتي ومضجعي » .

ثمّ أشار (عليه السلام) إلى جهة كربلاء فانخفضت الأرض حتّى أراها مضجعه ومدفنه ، وموضع عسكره ، وموقفه ومشهده ، فعند ذلك بكت أمّ سلمة بكاء شديداً ، فقال لها :

« يا أمّاه ، قد شاء الله عزّ وجلّ أن يراني مقتولاً مذبوحاً ظلماً وعدواناً ، وقد شاء أن يرى حرمي ورهطي ونسائي مشرّدين ، وأطفالي مذبوحين مظلومين ، مأسورين مقيّدين ، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معيناً » .

ثمّ قال : « يا أماه ، والله إنّي مقتول كذلك ، وإن لم أخرج إلى العراق يقتلوني أيضاً » .

عند ذلك قالت أمّ سلمة عندي تربة دفعها إليّ جدّك في قارورة ، فمدّ الحسين (عليه السلام) يده ، ثم أخذ كفّاً من تربة كربلاء فجعلها في قارورة وأعطاها إيّاها ، وقال : « اجعليها مع قارورة جدّي ، فإذا فاضتا فاعلمي أنّي قد قتلت » .

كلامه (عليه السلام) مع الملائكة والجن

يقول العلامة المجلسيّ في (الجلاء) برواية الشيخ المفيد وآخرين بسند معتبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« لمّا سار أبو عبد الله من المدينة لقيه أفواج من الملائكة المسوّمة ، في أيديهم الحراب ، على نُجب من نجب الجنّة ، فسلّموا عليه وقالوا : يا حجّة الله على خلقه بعد جدّه وأبيه وأخيه ، إنّ الله سبحانه أمدّ جدّك بنا في مواطن كثيرة ، وإنّ الله أمدّك بنا ؛ فقال لهم : الموعد حفرتي وبقعتي التي أستشهد فيها ، وهي كربلاء ، فإذا وردتها فأتوني ؛ فقالوا : يا حجّة الله ، مرنا نسمع ونطع ، فهل تخشى من عدوّ يلقاك فنكون معك ؟ فقال : لا سبيل لهم عليّ ، ولا يلقوني بكريهة أو أصل إلى بقعتي .

وأتته أفواج مسلمي الجنّ فقالوا : يا سيّدنا ، نحن شيعتك وأنصارك ، فمرنا بأمرك وما تشاء ، فلو أمرتنا بقتل كلّ عدوّ لك وأنت بمكانك لكفيناك ذلك ، فجزاهم الحسين (عليه السلام) خيراً وقال لهم : أو ما قرأتم كتاب الله المنزل على جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة ﴾ ؟

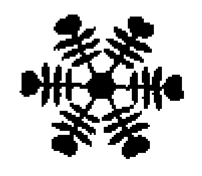
وقال سبحانه :

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ .

وإذا أقمت بمكاني فبماذا يبتلى هذا الخلق المتعوس ؟ وبماذا يختبرون ؟ ومن ذا يكون ساكن حفرتي بكربلاء ؟ وقد اختارها الله يوم دحا الأرض وجعلها معقلاً لشيعتنا ، وتكون لهم أماناً في الدنيا والآخرة ؛ ولكن تحضرون يوم عاشوراء الذي في آخرة أُقتل ، ولا يبقى بعدي مطلوب من أهل بيتي ، ويُسار برأسي إلى يزيد لعنه الله .

فقالت الجنّ : نحن والله يا حبيب الله وابن حبيبه ، لولا أنّ أمرك طاعة ، وأنّه لا يجوز لنا مخالفتك ، قتلنا جميع أعدائك قبل أن يصلوا إليك ؛ فقال صلوات الله عليه : نحن والله أقدر عليهم منكم ، ولكن ليهلك من هلك عن بيّنة ، ويحيا من حيّ عن بيّنة » . انتهى .

وقد قال الشيخ الحاج ميرزا محمد القمي صاحب (الأربعين) في هذا المقام أبياتاً من الشعر ضمّنها مفاد الحديث الشريف المتقدّم ، وأوضح أن المراد هو الابتلاء وإلقاء الحجة ، إلى ما يمتحن به المحبّون الزائرون ، وما ينالون من أجر وثواب ، وما يفوزون به من شفاعة .



الفصل الثاني

في قدوم الإمام الحسين (عليه السلام) الى مكّة وورود كتب أهل الكوفة اليه

تقدّم القول بأن خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة كان ليلة الأحد ليومين بقيا من شهر رجب .

وكان قدومه إلى مكّة المكرّمة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شهر شعبان ، ولمّا دخل (عليه السلام) مكّة تمثّل بقول موسى (عليه السلام) في الآية الكريمة :

﴿ ولمّا توجّه تلقاء مدين قال : عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل﴾ .

لمّا علم الوليد بن عتبة والي المدينة بخروج الإمام الحسين (عليه السلام) إلى مكّة بعث يدعو عبد الله بن عمر ليحضر فيبايع ، فأجابه عبد الله بأنه حين يبايع الآخرون فسيتبعهم بدوره ويبايع ، ورأى الوليد أنّ في الأناة نفعاً ، وليس فيها من ضرر ، فتركه لحاله ، فبادر عبد الله متوجهاً إلى مكّة أيضاً .

نزل الحسين (عليه السلام) مكّة ، فأقبل أهلها يختلفون إليه ، مع من كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق ، وكان عبد الله بن الزبير قد ألقى عصا ترحاله في مكّة ، وقد لزم جانب الكعبة يصلّي عندها ويطوف أمام الناس ، وراح يأتي الحسين (عليه السلام) فيمن يأتيه ، فيأتيه اليومين المتواليين ، ويأتيه بين كلّ يومين مرّة ، وهو (عليه السلام) أثقل خلق الله على ابن الزبير لأنّه عرف أنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين في البلد .

وبلغ أهل الكوفة هلاك معاوية ، فأرجفوا بيزيد[1] ، وعرفوا خبر الحسين (عليه السلام) وامتناعه من بيعته ، وما كان من أمر ابن الزبير في ذلك ، وبخروجهما إلى

---

(١) أرجفوا بيزيد : خاضوا في سوء سيرته .

مكّة ، فاجتمعت الشيعة بالكوفة في منزل سليمان بن صُرَد الخزاعيّ ، فذكروا هلاك معاوية والبيعة ليزيد ، ثم قام سليمان بهم خطيباً فقال :

إنّكم قد علمتم بموت معاوية واستيلاء ولده يزيد على الملك ، وقد خالفه الحسين (عليه السلام) وخرج إلى مكّة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرّوا الرجل في نفسه .

فقالوا : لا ، بل نقاتل عدوّه ، ونقتل أنفسنا دونه ؛ ثمّ كتبوا إليه كتاباً باسم سليمان بن صرد ، والمسيّب بن نَجَبة ، ورفاعة بن شدّاد البجليّ ، وحبيب بن مظاهر (ره) وشيعته المؤمنين من أهل الكوفة ، وممّا جاء فيه بعد الحمد والثناء :

« سلامٌ عليك ، أمّا بعد ، فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد . . إنّه ليس علينا إمام ؛ فأقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا جماعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نلحقه بالشام إن شاء الله » .

ثمّ سرّحوا بالكتاب مع عبد الله بن مِسمَع الهمداني ، وعبد الله بن وأل ، وأمروهما بالتعجيل . فخرجا مسرعين حتّى قدما على الحسين بمكّة لعشر مضين من شهر رمضان .

ثمّ لبث أهل الكوفة يومين بعد تسريحهم بالكتاب ، وأنفذوا قيس بن مُسهر الصيداويّ ، وعبد الله بن شدّاد ، وعُمارة بن عبد الله السلوليّ إلى الحسين (عليه السلام) ومعهم نحو مئة وخمسين صحيفة من الرجل والاثنين والأربعة ، ثمّ لبثوا يومين وسرّحوا إليه هانىء بن هانىء السبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي وكتبوا إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى الحسين بن عليّ (عليه السلام) من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أمّا بعد ، فحيّ هلا فإنّ الناس ينتظرونك لا أرى لهم غيرك ، فالعجل العجل ، ثمّ العجل العجل والسلام » .

ثمّ كتب شبث بن ربعيّ ، وحجّار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث بن رويم ، وعروة بن قيس ، وعمرو بن الحجّاج الزبيدي ، ومحمّد بن عمرو التيميّ ، يقولون :

« أمّا بعد ، لقد اخضرّ الجناب ، وأينعت الثمار ؛ فإذا شئت فأقبل على جند لك مجنّدة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده في يوم واحد ستّمئة كتاب من عديمي الوفاء أولئك ، وهو مع ذلك يتأنّى ولا يجيبهم ، حتى اجتمع عنده اثنا عشر ألف كتاب .

الفصل الثالث

في إيفاد الإمام الحسين (عليه السلام) مسلم بن عقيل إلى الكوفة

لمّا جاوزت رسل ورسائل أهل الكوفة عديمي الوفاء الحدّ ، حتّى اجتمع عند سيّد الشهداء (عليه السلام) منها اثنا عشر ألف كتاب ، لا جرم أنّه (عليه السلام) بعث إليهم كتاباً جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن عليّ إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة .

«أمّا بعد ، فإنّ هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم ، وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم ، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلّكم أنّه ليس علينا إمام ، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ والهدى .

«وأنا باعث إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، فإن كتب إليّ بأنّه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، وقرأت في كتبكم فإنّي أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمري ما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب ، القائم بالقسط ، الدائن بدين الحقّ ، الحابس نفسه على ذلك لله ، والسلام .» .

ودعا الحسين (عليه السلام) مسلم بن عقيل ، وكان من ذوي الرأي والخبرة والشجاعة ، فسرّحه مع قيس بن مسهر الصيداوي ، وعمارة بن عبد الله السلوليّ ، وعبد الرحمن بن عبد الله الأرحبيّ ؛ وأمره بالتقوى وكتمان أمره واللطف ، فإن رأى الناس مجتمعين مستوسقين عجّل إليه بذلك .

ثمّ إنّ مسلماً ودّعه وانصرف خارجاً من مكّة .

قال السيد ابن طاوس والشيخ ابن نما وآخرون : كان الإمام الحسين (عليه السلام) قد

كتب كتاباً إلى وجوه أهل البصرة منهم : الأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ويزيد بن مسعود النهشلي ، وقيس بن الهيثم ، جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي ، أمّا بعد ، فإنّ الله تبارك وتعالى اختار محمّداً المصطفى (صلّى الله عليه وآله) للنبوّة والرسالة ، فنصح للناس وبلّغهم رسالة ربه ، ثم قبضه إليه تكرّماً ، وكان أهل بيته بعده الأحقّ بمقامه والأولى ، لكن جماعة عدوا علينا وسلبونا حقّنا ، فسكتنا حتى لا توري الفتنة أو تسفك الدماء .

إنّي أدعوكم إلى الله ونبيّه ، فإنّ السنّة قد أميتت ، فإن تجيبوا دعوتي وتطيعوا أمري أهدكم سبل الرشاد ، والسلام .

ثم سرّح الكتاب مع مولى له اسمه سليمان ، ويكنّى أبا رزين ، فلمّا وصلت رسالة الحسين (عليه السلام) جمع يزيد بن مسعود بني تميم وبني حنظلة وبني سعد ، فلمّا حضروا قال :

«يا بني تميم ، كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ فقالوا : بخ بخ ! أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر ، حللت في الشرف وسطاً ، وتقدّمت فيه فرطاً ؛ قال : فإنّي قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه ؛ وأستعين بكم عليه ؛ فقالوا : إنّما والله نمنحك النصيحة ، ونحمد لك الرأي ، فقل نسمع .

فقال : إنّ معاوية مات ، فأهون به والله هالكاً ومفقوداً ، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم ، وتضعضعت أركان الظلم ؛ وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظنّ أنّ قد أحكمه ، هيهات والذي أراد ، اجتهد والله ففشل ، وشاور فخُذل ، وقد قام يزيد شارب الخمور ، ورأس الفجور ، يدّعي الخلافة على المسلمين ، ويتأمّر عليهم ، مع قِصر حلم وقلّة علم ، لا يعرف من الحقّ موطىء قدمه .

فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهادُه على الدين أفضل من جهاد المشركين ، وهذا الحسين بن عليّ بن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذو الشرف الأصيل ، والرأي الأثيل ، له فضل لا يوصف ، وعلم لا ينزف ، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمته وقرابته ، يعطف على الصغير ، ويحنو على الكبير ، فأكرم به راعي رعيّة ، وإمام قوم وجبت لله به الحجّة ، وبلغت به الموعظة .

أيّها الناس ، لا تعشوا عن نور الحقّ ، ولا تسكّعوا في وهدة الباطل ، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل ، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ونصرته ، والله لا يقصّر أحد عن نصرته إلّا أورثه الله الذلّ في ولده ، والقلّة في عشيرته ، وها أنا قد لبست للحرب

لأمتها ، وأدّرعت لها بدرعها ؛ من لم يقتل يمت ، ومن يهرب لم يفت ، فأحسنوا ـ رحمكم الله ـ ردّ الجواب » .

فتكلّمت بنو حنظلة فقالوا : « أبا خالد ، نحن نبل كنانتك ، وفرسان عشيرتك ، إن رميت بنا أصبت ، وإن غزوت بنا فتحت ، لا تخوض والله غمرة إلاّ خضناها ، ولا تلقى والله شدّة إلاّ لقيناها ، ننصرك بأسيافنا ، ونقيك بأبداننا إذا شئت » .

وتكلّمت بنو سعد بن زيد فقالوا : « أبا خالد ، إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك والخروج من رأيك ؛ وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال فحمدنا أمرنا ، وبقي عزّنا فينا ؛ فأمهلنا نراجع المشورة ، ويأتيك رأينا » .

وتكلّمت بنو عامر بن تميم فقالوا : « يا أبا خالد ، نحن بنو أبيك وحلفاؤك ، لا نرضى إن غضبت ، ولا نقطن إن ظعنت ، والأمر إليك ؛ فادعنا نجبك ، ومرنا نطعك ، والأمر لك إذا شئت » .

فقال : « والله يا بني سعد ، لئن فعلتموها لا رفع الله السيف منكم أبداً ، ولا زال سيفكم فيكم » .

هذا ، وبعد أن اطّلع أبو خالد على مكنون خواطر القوم كتب إلى الإمام الحسين (عليه السلام) كتاباً جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمّا بعد ، فقد وصل إليّ كتابك ، وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من الأخذ بحظّي من طاعتك ، والفوز بنصيبي من نصرتك ؛ وإنّ الله لم يخل الأرض قطّ من عامل عليها بخير ، أو دليل على سبيل نجاة ، وأنتم حجّة الله على خلقه ، ووديعته في أرضه ، تفرّعتم من زيتونة أحمديّة ، هو أصلها وأنتم فرعها ، فأقدم سعدت بأسعد طائر ، فقد ذلّلت لك أعناق بني تميم ، وتركتهم أشدّ تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها[1] ؛ وقد ذلّلت لك رقاب بني سعد ، وغسّلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استحلّ برقها فلمع » .

فلمّا قرأ الحسين الكتاب قال : « ما لك آمنك الله يوم الخوف ، وأعزّك وأرواك يوم العطش » .

وأمّا الأحنف بن قيس فكتب إليه (عليه السلام) يقول :

---

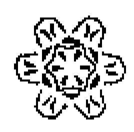
(١) هو أن ترعى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع .

أمّا بعد ، ﴿ فاصبر إنّ وعد الله حقّ ، ولا يستخفّنّك الذين لا يوقنون ﴾ .

ومراده الإشارة إلى غدر أهل الكوفة وعدم وفائهم .

وأمّا المنذر بن جارود فإنّه جاء بالكتاب والرّسول إلى عبيد الله بن زياد ، لأنّه خاف أن يكون الكتاب دسيسة من ابن زياد نفسه ، كما أراد معرفة كنه تفكير القوم ، وأن يضع كلاًّ أمام عمله ؛ وقد كانت بحريّة بنت المنذر بن جارود تحت عبيد الله بن زياد ، فأخذ عبيد الله الرسول فضرب عنقه ، وبرواية أخرى : صلبه ؛ وهذا الرسول هو ابو رزين سليمان مولى الإمام الحسين (عليه السلام) ، وكان جليل الشأن ، وإن شيخنا قد وضعه قبل هانىء بن عروة بمراتب عديدة في كتاب (اللؤلؤة والمرجان) ، وبعد أن فرغ ابن زياد من قتله صعد المنبر فخطب وتوعّد أهل البصرة على الخلاف وإثارة الأراجيف ، ثمّ استناب عليهم أخاه عثمان بن زياد ، وأسرع هو إلى الكوفة .

والخلاصة : فحين تجهّز أهل البصرة للخروج لنصرة الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء بلغهم مقتله قبل مسيرهم ، فجزعوا لانقطاعهم عنه .



الفصل الرابع

في قدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة وأمر البيعة

تقدّم الكلام في الفصل السابق عن ردّ الإمام الحسين (عليه السلام) على كتب أهل الكوفة ، وأنّه أوفد مسلم بن عقيل حاملاً ردّه هذا إلى أهل الكوفة ، بعد أن ودّعه .

تحرّك مسلم من مكّة نحو المدينة (كان خروجه من مكّة في منتصف شهر رمضان ، ووصوله إلى الكوفة في الخامس من شوّال ، وفقاً لبعض كلمات مسلم) .

ولمّا أتى المدينة صلّى في مسجد الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، وودّع من أحبّ من أهله ، واستأجر دليلين من قيس ، فأقبلا به يتنكّبان الطريق فضلاّ ، ونفد الماء الذي كان معهم ، فغلبهما العطش وماتا عطشاً .

فبعث مسلم مسهر بن قيس بكتاب إلى الحسين (عليه السلام) جاء فيه :

« أمّا بعد ، فإنّي أقبلت من المدينة مع دليلين لي ، فجارا عن الطريق فضّلاّ ، واشتدّ علينا العطش فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلنا حتّى انتهينا إلى الماء ، فلم ننج إلاّ بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق ، وقد تطيّرت من توجّهي هذا ، فإن رأيت أعفيتني وبعثت غيري ، والسلام » .

بيعة أهل الكوفة لمسلم وانكشاف أمره لابن زياد

لكن الحسين (عليه السلام) رفض إعفاءه ، وأمره بالمضيّ لوجهه الذي وجّهه فيه ، ولما استلم مسلم الأمر سارع بالمسير إلى الكوفة حتى بلغها ، ونزل في دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي ، وكانت تعرف بدار مسلم بن المسيّب ، ويروي الطبريّ أنّه نزل في دار مسلم بن عوسجة ، فلمّا سمع أهل الكوفة بقدوم مسلم أقبلوا يختلفون إليه ، ويظهرون سرورهم بمقدمه فيبايعونه .

وجاء في تاريخ الطبري أنه كان ممّن اختلف إلى مسلم عابس بن شبيب الشاكري ، فبعد أن قرأ عليهم مسلم كتاب الحسين (عليه السلام) أخذوا يبكون ، فقام عابس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنّي لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما في أنفسهم ، وما أغرّك منهم ، والله أحدّثك عمّا أنا موطّن نفسي عليه ، والله لأجيبنّكم إذا دعوتم ، ولأقاتلنّ معكم عدوّكم ، ولأضربنّ بسيفي دونكم حتّى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلاّ ما عند الله » .

فقام حبيب بن مظاهر فقال :

« رحمك الله ، فقد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي لا إله إلاّ هو على مثل ما هذا عليه » .

ثم وقف الحنفيّ فقال مثل ذلك (يظهر أن مراده سعيد بن عبد الله الحنفيّ) .

يقول الشيخ المفيد وآخرون :

ويايعه الناس حتّى بايعه منهم ثمانية عشر ألفاً ، فكتب مسلم إلى الحسين (عليه السلام) يخبره ببيعة ثمانية عشرة ألفاً ، ويأمره بالقدوم .

فبلغ النعمان بن بشير ذلك ، وكان والياً على الكوفة من قبل معاوية ، فاقرّه يزيد عليها ، فراح يهدّد الناس ويتوعّدهم بأن ينفضوا أيديهم من أمر مسلم والاختلاف إليه ، غير أن كلامه لم يترك وقعاً لديهم .

وخرج عبد الله بن مسلم حليف بني أميّة بعدما رآه من ضعف النعمان فكتب إلى يزيد بن معاوية كتاباً يبلغه فيه خبر قدوم مسلم إلى الكوفة ومبايعة أهلها له ، ويسعى لديه في أمر النعمان ويحثّه على أن يستبدل به رجلاً مقتدراً قويّاً ، كما كتب إليه ابن سعد وآخرون في ذلك .

فلمّا وصلت الكتب إلى يزيد اللعين استشار سرجون مولى معاوية في الأمر ، وكان ذا حظوة وتقدير عند معاوية وابنه ، فأشار عليه سرجون بضم إمارة الكوفة إلى عبيد الله بن زياد علاوة على إمارة البصرة ، فقال له يزيد : أفعل ، ثم كتب إلى عبيد الله يأمره بالمسير من فوره إلى الكوفة ، وأن يطلب ابن عقيل حتّى يضع عليه يده بأي وسيلة ممكنة ، فيوثقه أو يقتله أو ينفيه من الكوفة .

ولما استلم عبيد الله اللعين كتاب يزيد استخلف أخاه عثمان على البصرة ، وتهيّأ للمسير

من الغد إلى الكوفة يصحبه مسلم بن عمرو الباهليّ ، وشريك بن الأعور الحارثيّ ، مع حشمه وأهل بيته .

فلمّا أشرف على الكوفة نزل حتّى أمسى ليلاً ، ثمّ دخلها وعليه عمة سوداء وهو متلثّم ، والناس قد بلغهم إقبال الحسين (عليه السلام) إليهم ، فهم ينتظرون قدومه ، فظنّوا حين رأوا عبيد الله أنّه الحسين (عليه السلام) ، فأخذ لا يمرّ على جماعة من الناس إلاّ سلّموا عليه وقالوا : مرحباً بك يا بن رسول الله ، قدمت خير مقدم ، فرأى من تباشرهم بالحسين ما ساءه ، فقال مسلم بن عمرو لمّا أكثروا : تأخّروا ، هذا الأمير عبيد الله بن زياد .

وتفرّق الناس ، وبلغ ابن زياد القصر فدخله ، لكنّه لم ينم ليلته ، فلمّا أصبح أمر بجمع الناس ، ثم صعد المنبر وراح يهدّد الناس ويتوعّدهم بالويل والثبور إن هم عصوا أميرهم يزيد ، كما راح يعدهم بالعطاء والإحسان إن هم سمعوا وأطاعوا .

ثمّ نزل عن المنبر ودعا إليه العرفاء وطلب أن تكتب له أسماء كلّ من يخالف يزيد ، ومن يُرتاب فيه بذلك ، وأمر أن يُعرضوا عليه ، وتوعّدهم بهدر دمائهم وأموالهم إن بدا منهم ضعف أو تقاعس في هذا الأمر .

وبرواية الطبريّ وأبي الفرج أن مسلماً لمّا سمع بمجيء عبيد الله إلى الكوفة خرج من دار المختار ـ وقد عُلم به ـ حتى انتهى إلى دار هانىء بن عروة ، فدخل بابه وأرسل إليه أن اخرج ، فخرج إليه هانىء فكره مكانه حين رآه ، فقال له مسلم : أتيتك لتجيرني وتضيّفني ، فقال : رحمك الله ، لقد كلّفتني شططاً ، ولولا دخولك داري وثقتك لأحببت ولسألتك أن تخرج عنّي ، غير أنّه يأخذني من ذلك ذمام ، وليس مردود مثلي على مثلك عن جهل ، ادخل .

وبرواية سابقة أنّ الشيعة أخذت تختلف إليه في دار هانىء على تستّر واستخفاء فتبايعه ، وكان يأخذ على كلّ من بايعه القسم بالكتمان ، وسار الأمر على هذا المنوال حتّى بلغ من بايعه خمسة وعشرين ألف رجل ، وابن زياد يجهل موضعه ، فدعا مولىً له يقال له معقل وطلب منه أن يلتمس مسلماً وأصحابه ، واستطاع معقل بالمكر والحيلة أن يعرف أن مسلماً في دار هانىء ، وكان معقل يتردد يوميّاً على دار هانىء بوصفه واحداً من شيعتهم ، ثم يخبر ابن زياد بأخبارهم .

وخاف هانىء عبيدَ الله على نفسه ، فتمارض وانقطع عن حضور مجلسه ، فدعا ابن زياد يوماً محمد بن الأشعث ، وأسماء بن خارجة ، وعَمْراً بن الحجّاج أبو زوجة هانىء فقال لهم : ما يمنع هانىء بن عروة من إتياننا ؟ فقالوا : ما ندري ، وقد قيل إنّه يشتكي ، قال : قد بلغني أنّه قد برىء ، وهو يجلس على باب داره ، ولو أعلم بمرضه لعدته ، فالقوه ومُروه أن لا يدع ما

عليه من حقّنا ، فإنّي لا أحبّ أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب .

فأتوه وجعلوه بشتّى الوسائل يرضى بأن يرافقهم إلى قصر ابن زياد ، وفي الطريق قال هانىء لأسماء بن خارجة : يا بن الأخ ، إنّي والله لهذا الرجل لخائف ، فماذا ترى ؟ فقال : والله ما أتخوّف عليك شيئاً ، ولِمَ تجعل على نفسك سبيلاً ؟ ولم يزل به يسلّيه ويطمئنه حتّى وصلوا به إلى ابن زياد ، فما أن بصر به ابن زياد حتّى قال : « أتتك بحائن[1] رجلاه » .

ثم راح يعتب عليه بداية حتى قال : ما هذه الأمور التي تربّص في دارك لأمير المؤمنين وعامّة المسلمين ؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له الجموع والسلاح والرجال ، وظننت أنّ هذا يخفى عليَّ ؟ قال : ما فعلت ذلك ، وما مسلمٌ عندي ، قال : بلى قد فعلت ، ثمّ دعا ابن زياد معقلاً فجاء حتّى وقف بين يديه ، وقال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم .

وعلم هانىء عند ذلك أنّه كان عيناً عليهم ، وأنّه قد أتاه بأخبارهم ، فأسقط في يده ؛ ثمّ راجعته نفسه فقال : اسمع منّي وصدّق مقالتي ، فوالله ما كذبت ، والله ما دعوته إلى منزلي ولا علمت بشيء من أمره حتى جاءني يسألني النزول ، فاستحييت من ردّه ، وداخلني من ذلك ذمام فضيّفته وآويته ، وقد كان من أمره ما بلغك ، فإن شئت أن أعطيك الآن موثقاً مغلّظاً أن لا أبغيك سوءاً ولا غائلة ، ولآتينّك حتى أضع يدي في يدك ؛ وإن شئت أعطيتك رهينة تكون في يدك حتّى آتيك ، وأنطلق إليه فآمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض ، فأخرج من ذمامه وجواره .

فقال له ابن زياد : والله لا تفارقني أبداً حتّى تأتيني به ، قال : لا والله لا أجيئك به أبداً ، أجيئك بضيفي تقتله ؟! قال : والله لتأتينّي به ، قال : والله لا آتيك به .

فلمّا كثر الكلام بينهما قام مسلم بن عمرو الباهليّ فقال : أصلح الله الأمير ، خلّني وإيّاه حتّى أكلّمه ؛ فقام فخلا به ناحيةً من ابن زياد ، وهما منه بحيث يراهما ويسمع ما يقولان .

فقال له مسلم بن عمرو : يا هانىء أنشدك الله أن تقتل نفسك ، وأن تدخل البلاء في عشيرتك ، إنّ هذا (أي مسلم بن عقيل) ابن عمّ القوم ، وليسوا قاتليه ولا ضائريه ، فادفعه إليهم فإنّه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة :

فقال هانىء : والله إنّ عليّ في ذلك الخزي والعار ، أن أدفع جاري وضيفي (رسول ابن

---

(١) الحائن من الحَين وهو الهلاك ، ومراده أنّه أتى إلى هلاكه برجليه ، وقوله هذا مثلٌ قديم تمثّل به .

رسول الله) وأنا حيّ صحيح أسمع وأرى ، شديد الساعد كثير الأعوان ، والله لو لم أكن إلاّ واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتّى أموت دونه .

فسمع ابن زياد ذلك فقال : أدنوه منّي ، فأدنوه منه فقال : والله لتأتيني بـه أو لأضربنّ عنقك ، فقال هانيء : وهل لك القدرة على ضرب عنقي ؟ إذاً والله تكثر البارقة[1] حول دارك ؛ وهانيء يظن أن عشيرته سيمنعونه .

قال ابن زياد : والهفاه عليك ، أبا البارقة تخوّفني ؟ أدنوه منّي .

فأدني منه ، فاستعرض وجهه بالقضيب ، فلم يزل يضرب به أنفه وجبينه وخدّه حتّى كسر أنفه ، وسالت الدماء على وجهه ولحيته ، ونثر لحم جبينه وخدّه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، وضرب هانيء يده على قائم سيف شرطيّ ، فجاذبه الرجل ومنعه .

فصاح ابن زياد برجاله ، وأمرهم أن يجرّوه فيحبسوه ، فجرّوه فألقوه في بيت من بيوت الدار ، وأغلقوا عليه بابه .

وبرواية الشيخ المفيد فإنّ حسّان بن أسماء بن خارجة قام إلى ابن زياد فقال : أمرتنا أن نجيئك بالرجل ، حتّى إذا أتيناك به هشّمت أنفه ووجهه ، وسيّلت دماءه على لحيته ، وزعمت أنّك تقتله ؟ فقال له عبيد الله :

وإنّك لها هنا ؟ فأمر به فلُهز وتُعتع وأُجلس ناحية ؛ فقال محمد بن الأشعث : قد رضينا بما رأى الأمير ، لنا كان أم علينا ، إنّما الأمير مؤدّب .

وبلغ عَمْراً بن الحجّاج أنّ هانئاً قد قتل ، فأقبل في مذحج حتّى أحاط بالقصر ، فأوجس عبيد الله فدعا شريحاً القاضي فأمره أن يدخل على هانيء فينظر إليه ، ثم يعود ليخبر القوم أنّه حيّ لم يقتل ؛ فدخل شريح عليه فإذا بالدماء تسيل على لحيته ويقول : يا لله ! أين أهل الدين ! أين مذحج وشيعتي من المسلمين ؟ إنّه إن دخل عليّ عشرة نفر أنقذوني .

ثمّ إنّ شريحاً خرج إليهم فقال : لقد أتيت هانئاً فنظرت إليه ، وأعرّفكم أنّه حيّ ، وإنّ الذي بلغكم من قتله باطل ؛ فقالوا : أمّا إذا لم يقتل فالحمد لله ، ثمّ انصرفوا .

ولمّا بلغ مسلماً خبر هانيء أمر أصحابه بالنداء للاجتماع ، فتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا عليه ، فعقد الرايات لرؤوسهم ، ولم يمض إلاّ القليل حتّى امتلأ المسجد والسوق بالناس ، وضاق بعبيد الله أمره ، إذ لم يكن معه أكثر من خمسين نفراً ، وبعض أنصاره الذين كانوا

---

(١) البارقة : السيوف.

خارجاً لم يجدوا طريقاً للوصول إليه ، وأحاط أصحاب مسلم بالقصر ، وراحوا يرمون من يشرف عليهم بالحجارة ويشتمونهم ، ويفترون على عبيد الله وعلى أمّه .

فدعا ابن زياد كثير بن شهاب وأمره أن يخرج في من أطاعه من مذحج ، فيسير في الكوفة ويخذّل الناس عن ابن عقيل ، ويخوّفهم الحرب ، ويحذّرهم عقوبة يزيد ، وأمر محمّد بن الأشعث أن يخرج في من أطاعه من كندة وحضرموت ، فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس ؛ وقال مثل ذلك للقعقاع الذهليّ ، وشبث بن ربعيّ ، وحجّار بن أبجر ، والشمر بن ذي الجوشن ، وأخرجهم لتخذيل أولئك الغَدَرة وخداعهم .

ثمّ إنّ محمد بن الأشعث نصب راية فالتفّ جماعة حولها ، وراحوا بوساوس شيطانيّة يردّون الناس عن اللحوق بمسلم ، ويفرّقون جموعهم ، حتّى اجتمع إليهم عدد كثير من قومهم وغيرهم ، والتحقوا بابن زياد من باب خلفيّ للقصر .

ولمّا رأى ابن زياد كثرة من التحق به عقد لشبث بن ربعيّ لواء وأخرجه مع مجموعة من المنافقين ومن أشراف الكوفة ورؤوس القبائل ، فجعلوا يخوّفون أتباع مسلم ، ويمنّون أهل الطاعة الزيادة والكرامة ، ويخوّفون أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم وصول الجند من الشام إليهم ، وأنّهم لا قبل لهم بمواجهتهم ، وقد أعطى الأمير عهداً لئن لم ينصرفوا وأصرّوا على حربه أن يحرم ذرّيّتهم العطاء ، وأن يأخذ البريء منهم بالسقيم ، والشاهد بالغائب .

وتكلّم ابن شهاب والأشراف بمثل ذلك ، فلمّا سمع الناس مقالتهم أخذوا يتفرّقون ، ويدفع كلّ منهم الآخر ممّن يلوذ به إلى الانصراف .

غدر أهل الكوفة بمسلم بن عقيل

يروي أبو مخنف عن يونس بن إسحاق ، وهو عن عبّاس الجدليّ أنّه قال :

كنّا مع مسلم بن عقيل أربعة آلاف رجل حين خرجنا لدفع ابن زياد ، وكنّا لم نبلغ القصر حين صرنا ثلاثمئة ، وهكذا كان الناس يتفرّقون عن مسلم ، وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول : انصرف ، الناس يكفونك ، ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول : غداً يأتيك أهل الشام ، فما تصنع بالحرب والشرّ ؟ انصرف ، فيذهب به فينصرف ؛ فما زالوا يتفرّقون حتّى أمسى ابن عقيل ، وصلى المغرب وما معه إلّا ثلاثون نفساً في المسجد .

فلمّا رأى أنّه قد أمسى وليس معه إلّا أولئك النفر خرج متوجّهاً إلى أبواب كندة ، فلم يبلغ الأبواب إلّا ومعه منهم عشرة ، ثمّ خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان يدلّه ، فالتفت

فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق إلى منزله ، ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدوّ .

مضى مسلم على وجهه في أزقّة الكوفة لا يدري أين يذهب ، حتّى خرج إلى دور بني بجيلة من كندة ، فمضى حتى أتى إلى باب امرأة يقال لها طوعة ، أمّ ولد كانت للأشعث بن قيس وأعتقها وتزوّجها أسيد الحضرميّ ، فولدت له بلالاً ، وكان قد خرج مع الناس وأمّه قائمة تنتظره .

فسلّم عليها ابن عقيل فردّت عليه السلام ، فقال لها : يا أمة الله اسقيني ماءً ، فسقته ودخلت ، ثم خرجت فقالت : يا عبد الله ألم تشرب ؟ قال : بلى ، قالت : فاذهب إلى أهلك ، فسكت ، ثمّ أعادت مثل ذلك ، فسكت ، ثمّ في الثالثة : سبحان الله يا عبد الله ، قم عافاك الله إلى أهلك فإنّه لا يصلح لك الجلوس على بابي ، ولا أحلّه لك ، فقام وقال : يا أمة الله ما لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة ، فهل لك في أجر ومعروف ، ولعلّي مكافيك بعد هذا اليوم ؟ قالت : يا عبد الله وما ذاك ؟ قال : أنا مسلم بن عقيل ، كذّبني هؤلاء القوم وغرّوني وأخرجوني ، قالت : أنت مسلم ؟! قال : نعم ، قالت : ادخل .

فدخل إلى بيت غير البيت الذي تكون فيه ، وفرشت له ، وعرضت عليه العشاء فلم يتعشّ ؛ ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج ، فقال لها : والله إنّه ليريبني كثرة دخولك إلى هذا البيت وخروجك منه ، إنّ لك لشأناً ؟ قالت له : أقبل على شأنك ، ولا تسألني عن شيء ، فألحّ عليها ، فأخذت عليه الأيمان أن لا يخبر أحداً ، فحلف لها ، فأخبرته فاضطجع وسكت .

وأمّا ابن زياد اللعين ، فلمّا لم يعد يسمع الغوغاء والخلواء ، ولا يسمع لأصحاب ابن عقيل صوتاً خيّل إليه أنّهم قد كمنوا تحت الظلال للانقضاض عليه على حين غرّة ، وخاف أن يفتح الباب إلى المسجد ، ثم أمر رجاله أن ينزعوا ألواح الخشب عن سقف المسجد ففعلوا ، فلم يروا شيئاً ، فأعلموا ابن زياد بتفرّق القوم .

ففتح باب السدّة التي في المسجد ، ودخل مع أصحابه ، ثم أمر مناديه فنادى : ألا برئت الذمّة من رجل ـ من الشرط أو العرفاء أو المناكب أو المقاتلة ـ صلّى العتمة إلاّ في المسجد . فلم يكن إلاّ ساعة حتّى امتلأ المسجد من الناس ، ثمّ أمر مناديه فأقام الصلاة ، وأقام الحرس خلفه وأمرهم بحراسته ، وصلّى بالناس ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق ، وقد فرّ الآن ، فبرئت ذمّة الله من رجل وجدناه في داره ، ومن جاء به فله ديته ، ثم هدّد وتوعّد .

ثمّ التفت إلى الحصين بن تميم وقال له : ثكلتك أمك إن ضاع باب سكّة من سكك

الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلّطتك على دور أهل الكوفة ، فابعث مراصد عليهم ، وأصبح غداً واستبرىء الدور وجس خلالها حتّى تأتيني بهذا الرجل ؛ ثمّ دخل القصر .

فلمّا أصبح جلس مجلسه ، وأذن للناس فدخلوا عليه ، فبشّ لمحمّد بن الأشعث وأقعده إلى جنبه ، وأصبح ابن تلك العجوز ، فغدا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان مسلم بن عقيل عند أمّه ، فأقبل عبد الرحمن حتّى أتى أباه فسارّه بالخبر وهو إلى جنب ابن زياد ، فعرف ابن زياد الأمر وقال لمحمّد : قم فأتني به الساعة .

ثمّ بعث معه عبيد الله بن عبّاس السلميّ في سبعين رجلاً من قيس حتّى أتوا دار طوعة ، فلمّا سمع مسلم وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال علم أنّه قد أتي ، فخرج إليهم بسيفه ، واقتحموا عليه الدار دون حياه ، فشدّ عليهم يضربهم بسيفه حتّى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه فشدّ عليهم كذلك حتى خرج من البيت في أثرهم .

وجاء في (كامل البهائي) أنّه لما سمع مسلم صهيل الجياد كان يقرأ دعاء ، فعجّل بدعائه حتّى أتمّه ، ثم لبس سلاحه وقال : لقد بررت يا طوعة وأحسنت ، أسألك الله شفاعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، لقد رأيت في المنام تلك الليلة عمّي أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال لي : غداً ستكون معي .

وقال المسعودي وأبو الفرج : لمّا خرج مسلم من الدار ورأى القوم قد أشرفوا عليه من فوق البيت ، وأخذوا يرمونه بالحجارة ، ويلهبون النار في رزم القصب فيرمونها عليه ، قال :

« أكلّ ما أرى من الأجلاب لقتل ابن عقيل ؟ يا نفس اخرجي إلى الموت الذي ليس منه محيص » .

ثم شهر سيفه فشدّ على القوم وهو يرتجز ويقول :

أقسمت لا أُقتل إلاّ حرّا	وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
كلّ امرىء يوماً ملاقٍ شرّا	أو يخلط البارد سخناً مرّا
ردّ شعاع النفس فاستقرّا	أخاف أن أُكذب أو أُغرّا

قتال مسلم مع أهل الكوفة ووقوعه في الأسر

يقول العلاّمة المجلسيّ (ره) في (جلاء العيون) : لمّا سمع مسلم صوت حوافر الخيل عرف أنّهم جاؤوا في طلبه ، وقال : ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ ، ثمّ تناول سيفه وخرج من البيت ، فلمّا بصر بهم شهر سيفه واشتدّ عليهم ، وجندل العديد منهم صرعى ، وكان ابنها

توجّه إليهم فرّوا أمامه ، حتّى قتل منهم خمسة وأربعين رجلاً ، كان مسلم في الشجاعة كالأسد ، وكان من قوّته أنّه يأخذ الرجل بيده ، فيرمي به فوق البيت .

ثمّ إنّ بكر بن حمران بادره بضربه على وجهه فقطع شفته العليا ، وأسرع السيف في السفلى ففصلت ثنيّتاه ، لكنّه مع ذلك اشتدّ عليهم فكانوا ينهزمون بين يديه ، فلمّا أعياهم أمره أشرفوا عليه من فوق البيت وأخذوا يرمونه بالحجارة ، ويلهبون النار في القصب ثمّ يرمونه عليه من فوق البيت ، فقال له محمّد بن الأشعث : لك الأمان يا مسلم ، لا تقتل نفسك ، فأنا أؤمّنك وأذهب بك إلى ابن زياد فهو ليس بقاتلك ؛ قال مسلم : أنتم أهل الكوفة لا أمان لكم ، ولا يُتوقّع الوفاء من منافقين لا دين لهم .

لكنّ مسلماً كان قد اثخن بالجراح ، فأسند ظهره إلى جدار الدار ، وأحسّ بالضعف ، فأعاد ابن الأشعث عليه القول : لك الأمان يا مسلم ، وإذ ذاك استجاب مسلم للأمان فقال له : آمنٌ أنا ؟ قال : نعم ، فقال للقوم الذين معه : ألِيَ الأمان ؟ قالوا : نعم ، فعندها نفض من القتال يديه .

وبرواية السيّد ابن طاوس : فإن مسلماً رفض عروضهم بالأمان ، بل أخذ في قتال القوم حتى أثخنته الجراح ، ثم طعنه جبانٌ منهم بالرمح في ظهره فوقع على وجهه ، فتكاثروا عليه وأمسكوا به . انتهى .

ثمّ أتي ببغلة فحمل عليها ، واجتمعوا حوله ونزعوا سيفه ، عند ذلك يئس من نفسه ، فدمعت عيناه ثمّ قال : هذا أوّل الغدر ، فقال له محمد بن الأشعث : أرجو أن لا يكون عليك بأس ، قال : ما هو إلاّ الرجاء ، أين أمانكم ؟ وبكى(١) وقال : ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ ، فقال له عبيد الله بن عبّاس السلمي : يا مسلم ، إنّ من يطلب مثل الذي طلبت إذا ينزل به مثل ما نزل بك لم يبك ، قال : والله إنّي ما لنفسي بكيت ، ولكنّي أبكي لأهلي المقبلين ، إنّي أبكي للحسين وآل الحسين (عليه السلام) .

ثمّ أقبل على محمّد بن الأشعث فقال : إنّي أراك والله ستعجز عن أماني ، فهل عندك خير؟ تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً على لساني أن يبلّغ حسيناً ويقول له :

« إنّ ابن عقيل بعثني إليك وهو أسير في يد القوم ، لا يرى أنّه يمسي حتى يقتل ، وهو

---

(١) قد أمّنته ولا أمان لغدرهم فبدت له ممّا يجن علائم
أسرته ملتهب الفؤاد من الظما وله على الوجنات دمع ساجم
لم يبك من خوف على نفس له لكنّه أبكاه ركبٌ قادم
يبكي حسيناً أن يلاقي ما لقي من غدرهم فتباح منه محارم

يقول لك : ارجع فداك أبي وأمّي بأهل بيتك ، ولا يغررك أهل الكوفة فإنّهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنّى فراقهم بالموت أو القتل ، إنّ أهل الكوفة كذبوك ، وليس لمكذوب رأي » .

ثم قال لابن الأشعث : لا أرى الحسين إلاّ وقد خرج اليوم ، أو هو خارج غداً وأهل بيته ، فهل ستفعل ؟

فقال ابن الأشعث : والله لأفعلنّ ، ولأعلمنّ ابن زياد أنّي قد أمّنتك .

ثم أقبل ابن الأشعث بابن عقيل إلى باب القصر ، واستأذن فأذن له ، فدخل على ابن زياد فأخبره خبر ابن عقيل ، وما كان من أمانه له ، فقال له ابن زياد : وما أنت والأمان ؟ كأنّا أرسلناك لتؤمّنه ، إنّما أرسلناك لتأتينا به ، فسكت ابن الأشعث .

أمّا مسلم فقد انتهوا به إلى باب القصر ، وقد اشتدّ به العطش ، وعلى باب القصر ناس جلوس ينتظرون الإذن ، وإذاقلّة باردة موضوعة على الباب ، فقال مسلم : اسقوني من هذا الماء ، فقال له مسلم بن عمرو : أتراها ما أبردها ؟ والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتّى تذوق الحميم في نار جهنّم ، فقال له ابن عقيل : ويحك ، من أنت ؟ فقال : أنا الذي عرف الحقّ إذ انكرته ، ونصح لإمامه (يزيد) إذ غششته ، وأطاعه إذ خالفته ، أنا مسلم بن عمرو الباهليّ .

فقال له ابن عقيل : « لأمّك الثكل ، ما أجفاك وأقطعك وأقسى قلبك ، أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنّم منّي » .

ثم جلس فتساند إلى حائط ، وبعث عمرو بن حريث غلاماً له فأتاه بقلّة وقدح فصبّ فيه ماء فقال له : اشرب ، فأخذه وأراد أن يشرب فامتلأ القدح دماً من فمه ؛ ولم يقدر أن يشرب ، ففعل ذلك مرّتين ، وفي الثالثة سقطت ثناياه في القدح ، فقال : « الحمد لله ، لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته » .

وخرج رسول ابن زياد فأمر بإدخاله إليه ، فلمّا دخل لم يسلّم عليه بالإمرة ، فقال له الحرسيّ : ألا تسلّم على الأمير ؟ فقال : صه ويحك ، فوالله ليس لي بأمير ؛ وبرواية أخرى أنّه قال : إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه ؟ وإن كان لا يريد قتلي فليكثرنّ سلامي عليه ؟ فقال له ابن زياد : لعمري لتقتلنّ ، سواء سلّمت أم لم تسلّم ، قال : كذلك ؟ قال : نعم ، قال : فدعني أوصي إلى بعض قومي ، قال : افعل .

فنظر مسلم إلى جلساء عبيد الله وفيهم عمر بن سعد ، فقال : ياعمر ، إنّ بيني وبينك قرابة ، ولي إليك حاجة ، وقد يجب عليك نجح حاجتي ، فامتنع عمر أن يسمع منه إرضاء لابن زياد ، فقال له عبيد الله : لم تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمّك ؟ فقام معه فجلس حيث ينظر إليهما ابن زياد ، فقال له مسلم :

« إنّ عليّ بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة ، سبعمئة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عنّي ؛ وإذا قتلت فاستوهب جثّتي من ابن زياد فوارها ، وابعث إلى الحسين (عليه السلام) من يردّه ، فإنّي قد كتبت إليه أعلمه أنّ الناس معه ، ولا أراه إلّا مقبلاً » .

فقال عمر لابن زياد : أتدري أيّها الأمير ما قال لي ؟ إنّه ذكر كذا وكذا ، فقال ابن زياد ؛ إنّه لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن ؛ أمّا ماله فهو له ، ولسنا نمنعك أن تصنع به ما أحبّ ؛ وأمّا جثّته فإنّا لا نبالي إذا قتلناه ما صُنع بها .

وبرواية أبي الفرج فإنّ ابن زياد قال : أمّا جثّته فإنّا لا نقبل شفاعتك بشأنها ، ذلك أنّه لا يستحقّ أن يوارى لأنّه طغى وسعى في هلاكي .

وأمّا الحسين فإنّه إن لم يردنا لم نرده ، ثم التفت إلى مسلم وأسمعه كلاماً جريئاً ، فردّ عليه مسلم برباطة جأش ، واختلفا كلاماً كثيراً حتّى عيّ ابن زياد فراح يتناول أمير المؤمنين والحسين (عليهما السلام) وعقيلاً بالشتم ، ثم دعا بكر بن حمران[1] ، وكان مسلم قد ضرب رأسه بالسيف ، فأمره أن يصعد به فوق القصر فيضرب عنقه ، فقال مسلم : « والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني » .

ومراده من هذا القول التعريض بابن زياد بأنه وأباه زياد بن أبيه سلالة زنى ، وليس بينهما وبين قريش أيّ قرابة أو نسب .

استشهاد مسلم وهانيء رحمهما الله

فصعد به اللعين بكر بن حمران ومسلم يكبّر ويستغفر الله ، ويصلّي على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويقول : « اللهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذبونا وخذلونا » .

ثمّ إنّ بكراً لعنه الله أشرف به من فوق القصر على سوق الحذّائين ، فضرب عنقه ، ورمى برأسه ، ثم أتبع رأسه جثّته ، ونزل مذعوراً ، فقال له ابن زياد : ما شأنك ؟ فقال : أيّها الأمير ، رأيت ساعة قتلته رجلاً أسود سيء الوجه حذائي ، عاضاً على أصبعه ، ففزعت فزعاً لم أفزعه قطّ ! فقال ابن زياد : لعلك دهشت ، أي صوّر لك الخيال ما أفزعك .

ثم إنّ ابن زياد أمر بإحضار هانيء لقتله ، ورغم مناشدة محمّد بن الأشعث وآخرون له ، وشفاعتهم فيه ، فإن ذلك لم يؤدّ إلى نتيجة ؛ ثم أمر به فأخذ إلى مكان من السوق كان يباع فيه الغنم وهو مكتوف ، ويقول : وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم ، يا مذحجاه وأين مذحج .

---

(١) دعوة اللعين بكر بن حمران لا تتّفق مع رواية ابن شهر آشوب ، إذ نقل أن مسلماً قتل بكراً أثناء القتال .

وينقل عن (حبيب السير) أنّ هانيء بن عروة[1] يعدّ من أشراف الكوفة وأعيان الشيعة ، ويروى أنه تشرّف بصحبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان له يوم استشهاده تسعة وثمانون عاماً ؛ وفي (مروج الذهب) للمسعودي جاء أنّه بلغ من قدر هانيء وسمّو مكانه في قومه أنّ أربعة آلاف دارع كانوا يركبون معه ، وأن ثمانية آلاف راجل يمتثلون أمره ، وأنه إن دعا أحلافه من كندة وغيرها أجاب دعوته ثلاثون ألف دارع ؛ أمّا الآن وهم يأخذونه إلى السوق ليقتلوه فإنه مهما صاح ونادى ، ومهما ناشد رؤوس العشائر بأسمائهم ، ومهما قال : وامذحجاه ، فإن أحداً لم يجبه ، فلا غرو أنّه قويَ على نزع يده من القيد وقال : أما من عصا أو سكّين أو حجارة أو عظم يحاجز به رجل عن نفسه ؟

ولمّا رأى أعوان ابن زياد منه ذلك وثبوا إليه فشدّوه وثاقاً ، ثمّ قيل له : امدد عنقك ، فقال : ما أنا بها بسخيّ ، وما أنا بمعينكم على ضربي ، فضربه مولى لعبيد الله بن زياد ، تركيٌّ يقال له رشيد ، بالسيف فلم يصنع شيئاً ، فقال هانيء : « إلى الله المعاد ، اللهمّ إلى رحمتك ورضوانك » ، ثمّ ضربه أخرى فقتله .

وفي ما يوافق بعض المقاتل المعتبرة أنّ ابن زياد أمر أن يطاف بجثّتي مسلم وهانيء في الأزقّة والسوق ، ثمّ يصلبان حيث يباع الغنم .

ويقول السبط بن الجوزي إنّ جثّة مسلم صلبت عند باب الكناسة ، وبالرواية المتقدّمة أن قبيلة مذحج لمّا رأوا ذلك تقدّموا فأنزلوا الجثّتين عن الخشبة (المشنقة) وصلّوا عليهما وواروهما .

ثم إنّ ابن زياد بعث برأسيهما إلى يزيد وكتب إليه بما كان من أمر مسلم وهانيء ، ولما بلغ

---

(١) في رؤيا صادقة للميرزا يحيى الأبهري أنه رأى الإمام الحسين (عليه السلام) في الحرم المطهّر واقفاً بين الضريح والباب الأوسط ، ونور جلاله يحول دون رؤية جماله ، وأن شيخاً بلحية بيضاء كان يقف أمامه بكلّ أدب وظهره إلى الحائط ، فلمّا أراد دخول الحرم منعه ذلك الشيخ ، فلحظ أنّ فاطمة وخديجة الكبرى ورسول الله وأمير المؤمنين عليهم الصلاة والسلام كانوا في الحرم ، وقال : عرفت أن أجداده الأنبياء والأئمّة كانوا داخل الحرم ، يقول : فرجعت القهقرى خارجاً من الحرم حتى باب الرواق ، فوقفت هناك ، ثمّ تحدّثت عن التماس شفائه منه (عليه السلام) حتّى قال : رأيت بجانبي شيخاً جليلاً أبيض اللحية فقلت له : يا شيخنا ، هذا الشيخ ذو اللحية البيضاء ، والذي خرج من الحرم أهو المتولّي ؟ قال : ألم تعرفه مع أنّك توسّلت به أكثر من ساعة ؟ قلت : لم أعرفه وحقّ هذا الإمام ، فقال : إنّه حبيب بن مظاهر ، قلت وكيف عرفت أنّي توسّلت بحبيب بن مظاهر لأكثر من ساعة ؟ قال : كنت أراك لكنّي خجلت أن أسأل عن اسمه ، ولمّا راح عنّي ، سألت عن اسمه شخصاً آخر فقال : إنّه هانيء بن عروة ، فأسفت على أنّي لم أعرفه حتى أتمسّك بأذياله .

الكتاب والرأسان إلى يزيد سرّ كثيراً ، وأمر أن يعلّقا على باب دمشق ؛ وكتب إلى عبيد الله يمتدح فعلته ويكثر من ملاطفته ، ويقول له : بلغني أنّ حسيناً قد توجّه نحو العراق ، فضع المناظر والمسالح ، واحترس واحبس على الظنّة ، واقتل على التهمة ، واكتب إليّ في كلّ يوم ما يحدث والسلام .

وكان خروج مسلم يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجّة سنة ستين ، وكان قتله ـ رحمه الله ـ يوم الأربعاء لتسع خلون منه يوم عرفة .

يقول أبو الفرج : كانت أمُّ مسلم أمُّ ولد ، واسمها عليّة ، وكان عقيل قد ابتاعها في الشام .

يقول المؤلّف : لم أعثر على عدد لأبناء مسلم ، لكّن ما ظفرت به كان خمسة : الأول : عبد الله بن مسلم ، أول شهيد من بني أبي طالب في وقعة الطفّ ، بعد عليّ الأكبر ، وأمّه رقيّة بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) .

الثاني : محمّد ، وأمّه أمّ ولد ، وقد استشهد في كربلاء بعد عبد الله . ثمّ هناك اثنان من أبناء مسلم برواية المناقب القديمة : محمّد وإبراهيم ، وأمّهما من أبناء جعفر الطيّار ، وسيرد الحديث عن حبسهما واستشهادهما إن شاء الله .

الخامس من أبناء مسلم ابنة ذات ثلاثة عشر عاماً برواية الأعثم الكوفيّ ، وكانت في صحبة بنات الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء .

كان مسلم بن عقيل رجلاً ذا فضل وجلال أكثر من أن يتّسع هذا الموجز للحديث عنها ، ويكفي في هذا المقام ملاحظة الحديث الذي تقدّم في آخر الفصل الخامس من الباب الأوّل ، ومطالعة الكتاب الذي بعث به الإمام الحسين (عليه السلام) إلى أهل الكوفة ردّاً على كتبهم ؛ ويقع قبره الشريف إلى جانب مسجد الكوفة ، وهو مزار للحاضر والبادي ، والقاصي والداني .

وقد أورد السيد ابن طاوس زيارتين له ، وقد نقلنا كلتيهما في كتابنا (هديّة الزائرين) ؛ ويقع قبر هانيء رحمه الله مقابلاً لقبر مسلم .

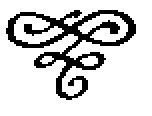
وقد رثى عبد الله بن الزبير الأسدي مسلماً وهانئاً بأبيات مطلعها :

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانيء في السوق وابن عقيل

وإنّي لأستحسن قول بعض السادة في رثاء مسلم بن عقيل :

سقتك دماً يا بن عمّ الحسين ... مدامع شيعتك السافحة

ولا برحَتْ هاطلات الدمو ع تحيّيك غادية رائحة
لأنك لم تروَ من شربة ثناياك فيها غدت طائحة[1]
رمَوْك من القصر إذ أوثقو ك فهل سلمت فيك من جارحة ؟
تُجرُّ بأسواقهم بالحبا ل ألست أميرهم البارحة ؟
أتقضي ولم تبكك الباكيا ت أمالك في المصر من نائحة ؟
لئن تقض نحباً فكم في زرو د[2] عليك العشيّة من صائحة



(١) كساقطة لفظاً ومعنى .

(٢) زرود : اسم المنزل الذي ورد فيه الخبر عن استشهاد مسلم ، كما سيرد في الفصل السادس إن شاء الله .

الفصل الخامس

في كيفية أسر طفلي مسلم واستشهادهما

تقدّم الحديث في الفصل السابق عن استشهاد مسلم بن عقيل رحمه الله ، لذا رأينا من المناسب أن نتحدّث عن استشهاد طفليه ، مع أن استشهادهما وقع بعد سنة مضت على استشهاد أبيهما .

يروي الشيخ الصدوق بسنده عن شيخ من أهل الكوفة أنّه قال :

لمّا قتل الحسين بن علي (عليهما السلام) أسر من عسكره غلامان صغيران ، فأتي بهما عبيد الله بن زياد ، فدعا سجّاناً له فقال : خذ هذين الغلامين إليك ، فمن طيّب الطعام فلا تطعمهما ، ومن البارد فلا تسقهما ، وضيّق عليهما سجنهما !!

وكان الغلامان يصومان النهار ، فإذا جنّهما الليل أُتيا بقرصين من شعير وكوز من ماء ، فلمّا طال بالغلامين المكث حتى صارا في السنة قال أحدهما لصاحبه : يا أخي ، قد طال بنا مكثنا ، ويوشك أن تفنى أعمارنا ، وتبلى أبداننا ، فإذا جاء الشيخ فأعلمه مكاننا ، وتقرّب إليه بمحمّد (صلّى الله عليه وآله) لعلّه يوسع علينا في طعامنا ، ويزيد من شرابنا .

فلمّا جنّهما الليل أقبل إليهما الشيخ بقرصين من شعير وكوز من ماء جري عادته ، فقال له الغلام الصغير : يا شيخ ، أتعرف حقاً محمّد ؟ قال : فكيف لا أعرف محمّداً وهو نبيّ ؟ قال : أفتعرف جعفر بن أبي طالب ؟ قال : وكيف لا أعرف جعفراً وقد أنبت الله له جناحين يطير بهما مع الملائكة كيف يشاء ؟ قال : أفتعرف عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ؟ قال : وكيف لا أعرف عليّاً وهو ابن عمّ نبيّي وأخوه ؟ قال له : يا شيخ ، نحن من عترة نبيّك محمّد (صلّى الله عليه وآله) . ونحن من ولد مسلم بن عقيل بن أبي طالب . بيدك أُسارى ، نسألك من طيّب الطعام فلا تطعمنا ، ومن بارد الشراب فلا تسقينا ، وقد ضيّقت علينا سجننا ؟

فانكبّ الشيخ على أقدامهما يقبّلهما ويقول : نفسي لنفسيكما الفداء ، ووجهي لوجهيكما الوقاء ، يا عترة نبيّ الله المصطفى ، هذا باب السجن بين أيديكما مفتوح ، فخذا أيّ طريق شئتما ، فلمّا جنّهما الليل أتاهما بقرصي الشعير وكوز الماء ، ووقفهما على الطريق ، وقال لهما : سيرا يا حبيبيّ الليلَ ، واكمنا النهار حتى يجعل الله عزّ وجلّ لكما من أمركما فرجاً ومخرجاً .

ففعل الغلامان ذلك ، فلمّا جنّهما الليل انتهيا إلى عجوز على باب ، فقالا لها : يا عجوز ، إنّا غلامان صغيران غريبان حدثان غير خبيرين بالطريق ، وهذا الليل قد جنّنا ، أضيفينا سواد ليلتنا هذه ، فإذا أصبحنا لزمنا الطريق ، فقالت لهما : فمن أنتما يا حبيبيّ ؟ فقد شممت الروائح كلّها فما شممت رائحة أطيب من رائحتكما ، فقالا لها : يا عجوز ، نحن من عترة نبيّك محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، هربنا من سجن عبيد الله بن زياد من القتل ، قالت : يا حبيبيّ ، إنّ لي ختناً فاسقاً شهد واقعة كربلاء مع عبيد الله بن زياد ، أتخوّف أن يصيبكما هيهنا فيقتلكما ، قالا : هي ليلة نقضيها ، ونرجو أن لا يحضر هذا الرجل الليلة ، فإذا أصبحنا لزمنا الطريق ، فقالت : سآتيكما بطعام ، ثم أتتهما بطعام فأكلا وشربا ، ثمّ ولجا الفراش ليناما .

ووفقاً لرواية أخرى فإنهما قالا : لا حاجة بنا للطعام ، بل أعدّي لنا مكاناً للصلاة لنقضي ما فاتنا من صلوات ، ثم صلّيا بعضاً منها وأويا إلى فراشهما .

قال الصغير للكبير : يا أخي ، إنّا نرجو أن نكون قد أمنّا ليلتنا هذه ، فتعال حتى أعانقك وتعانقني ، وأشمّ رائحتك ، وتشمّ رائحتي قبل أن يفرّق الموت بيننا ، ففعل الغلامان ذلك ، واعتنقا وناما .

فلمّا كان في بعض الليل أقبل ختن العجوز الفاسق ، فقرع الباب قرعاً خفيفاً ، فقالت العجوز : من هذا ؟ قال : أنا فلان ، قالت : ما الذي أطرقك هذه الساعة ، وليس هذا لك بوقت ؟ قال : ويحك ، افتحي الباب قبل أن يطير عقلي وتنشق مرارتي في جوفي ، فجهد البلاء قد نزل بي ، قالت : ويحك ، ما الذي انزل بك ؟ قال : هرب غلامان صغيران من عسكر عبيد الله بن زياد ، فنادى الأمير في معسكره : من جاء برأس واحد منهما فله ألف درهم ، ومن جاء برأسيهما فله ألفا درهم ، وقد أتعبت وتعبت ولم يصل في يدي شيء ، فقالت العجوز : يا ختني ، احذر أن يكون محمّد خصمك في القيامة ، قال : ويحك ، إنّ الدنيا محرصٌ عليها ! فقالت : وما تصنع بالدنيا وليس معها آخرة ؟ قال : إنّي لأراك تحامين عنهما كأنّ عندك من طلب الأمير شيء ، فقومي فإنّ الأمير يدعوك ، قالت : ما يصنع الأمير بي ، وإنّما أنا عجوز في هذه البرية؟ قال : إنّما لي الطلب ، افتحي حتى أريح وأستريح .

ففتحت له الباب ، وأتته بطعام وشراب ، فأكل وشرب ، فلمّا كان في بعض الليل سمع

غطيط الغلامين في جوف الليل ، فأقبل يهيج كما يهيج البعير ، ويخور كما يخور الثور ، ويلمس بكفّه جدار البيت حتّى وقعت يده على جنب الغلام الصغير ، فقال الغلام : من هذا ؟ قال : أمّا أنا فصاحب البيت ، فمن أنتما ؟

فأقبل الصغير يحرّك الكبير ويقول : قم يا حبيبي فقد والله وقعنا في ما كنّا نحاذره .

ثم قال لهما : من أنتما ؟ قالا : يا شيخ ، إن نحن صدقناك فلنا الأمان ؟ قال : نعم ، قالا : أمان الله وأمان رسوله ، وذمّة الله وذمة رسوله ؟ قال : نعم ، قالا : ومحمّد بن عبد الله على ذلك من الشاهدين ؟ قال : نعم ، قالا : والله على ما نقول وكيل وشهيد ؟ قال : نعم ، قالا : فنحن من عترة نبيّك محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، هربنا من سجن عبيد الله بن زياد من القتل ، فقال لهما : من الموت هربتما وإلى الموت وقعتما ! الحمد لله الذي أظفرني بكما .

ثم قام إلى الغلامين فشدّ أكتافهما ، فبات الغلامان ليلتهما مكتّفين ، فلمّا انفجر عمود الصبح دعا غلاماً له أسود يقال له : فليح ، فقال : خذ هذين الغلامين فانطلق بهما إلى شاطيء الفرات ، فاضرب عنقيهما وائتني برأسيهما .

فمضى العبد بهما كما أمره مولاه ، ولما وصلوا الشاطيء أطلعاه على حقيقة أمرهما ، فلما عرف أنّهما من عترة النبي (صلّى الله عليه وآله) امتنع عن قتلهما ، ثمّ طرح نفسه في الفرات وعبر إلى الجانب الآخر .

فما كان من الرجل إلاّ أن كلّف ابنه بقتلهما ، لكنه امتنع عن قتلهما ، وسلك سبيل العبد ، فقال الشيخ : لا يلي قتلكما أحد غيري ، وسلّ سيفه من جفنه ، فلما نظر الغلامان إلى السيف مسلولاً اغرورقت أعينهما ، وقالا له : يا شيخ ، انطلق بنا إلى السوق فبعنا واستمتع بأثماننا ، ولا تجعل محمّداً خصمك في القيامة غداً ، فقال : لا ، ولكن أقتلكما وأذهب برأسيكما إلى ابن زياد وآخذ جائزة الألفين ، فقالا له : يا شيخ ، أما تحفظ قرابتنا من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ؟ فقال : ما لكما من رسول الله قرابة ، قالا : فأت بنا إلى عبيد الله بن زياد حتّى يحكم فينا بأمره ، قال : ما لي إلى ذلك سبيل إلاّ التقرّب إليه بدمكما ، قالا : يا شيخ ، ألا ترحم صغر سنّنا قال : ما جعل الله لكما في قلبي من الرحمة شيئاً ، قالا : إن كان ولا بدّ من قتلنا فدعنا نصلّ ركعات ، قال : فصلّيا ما شئتما إن نفعتكما الصلاة .

فصلّى الغلامان أربع ركعات ، ثم رفعا طرفيهما إلى السماء فناديا :

« يا حيّ يا حكيم ، يا أحكم الحاكمين ، احكم بيننا وبينه بالحقّ » .

فقام إلى الأكبر فضرب عنقه ، وأخذ رأسه ووضعه في المخلاة .

وأقبل الغلام الصغير يتمرّغ في دم أخيه وهو يقول : حتّى ألقى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأنا مختضب بدم أخي ، فقال له الرجل : لا عليك ، سوف ألحقك بأخيك ، ثم قام إليه فضرب عنقه ، وأخذ رأسه ووضعه في المخلاة ، ورمى ببدنيهما في الماء وهما يقطران دماً .

ثمّ مرّ حتّى أتى عبيد الله بن زياد وهو قاعد على كرسيّ وبيده قضيب خيزران ، فوضع الرأسين بين يديه ، فلمّا نظر إليهما قام ثمّ قعد ثلاثاً ، ثمّ قال : الويل لك ، أين ظفرت بهما ؟ قال : أضافتهما عجوز لنا ، قال : فما عرفت حقّ الضيافة ؟! قال : لا ، قال : فأيّ شيء قالا لك ؟ فقصّ عليه اللعين خبرهما إلى أن قال : طلبا أن يصلّيا ركعات ، فصلّيا أربع ركعات ، ثم رفعا طرفيهما إلى السماء ، وقالا :

« يا حيّ يا حكيم ، يا أحكم الحاكمين ، احكم بيننا وبينه بالحقّ » .

قال ابن زياد : فإن أحكم الحاكمين قد حكم ، فمن لهذا الفاسق يجري عليه حكم الله ؟ فانتدب له رجل من أهل الشام فقال : أنا له ، قال : فانطلق به إلى الموضع الذي قتل فيه الغلامين فاضرب عنقه ، ولا تترك أن يختلط دمه بدمهما ، وعجّل برأسه .

ففعل الرجل ذلك ، وجاء برأسه فنصبه على قناة ، فجعل الصبيان يرمونه بالنبل والحجارة وهم يقولون : هذا قاتل ذرّيّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

ويقول المؤلّف : إن استشهاد هذين الطفلين بهذه الكيفيّة مستبعد عندي ، لكن بما أن الشيخ الصدوق هو ناقله ، وهو كبير محدّثي الشيعة ومروّج أخبار الأئمّة عليهم السلام وعلومهم ، وفي سنده جملة من أصحابنا العلماء الأجلاّء ، فلا غرو أن نتبع خطاه ونورد هذه القصّة ، والله تعالى هو العالم .

الفصل السادس

في توجّه الإمام الحسين (عليه السلام) إلى كربلاء

توجّه سيد الشهداء (عليه السلام) إلى مكّة المكرّمة لثلاث مضين من شهر شعبان سنة ستّين من الهجرة ، خوفاً من إيذاء المخالفين له ، وأقام بمكّة بقيّة شعبان وشهر رمضان وشوّالاً وذا القعدة وثماني ليالٍ خلون من ذي الحجّة ، وكان قد اجتمع إليه مدّة مقامه بمكّة نفر من أهل الحجاز ، ونفر من أهل البصرة ، ضمّهم إلى أهل بيته ومواليه .

ولمّا كان يوم التروية لثمان خلون من ذي الحجّة قدم عمرو بن سعيد بن العاص مع جماعة إلى مكّة بذريعة الحجّ ، وقد أمرهم يزيد بالقبض عليه وإنفاذه إليه ، أو قتله ، فلمّا وقف على حقيقة ما يرمون إليه جعل حجّه عمرة فطاف البيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، وأحلّ من إحرامه ، ثمّ توجّه من يومه نحو العراق .

ويروى عن ابن عبّاس أنه قال : رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) قبل أن يتوجّه إلى العراق وقد وقف على باب الكعبة ، وكانت يد جبرئيل في يده ، وجبرئيل يدعو الناس إلى بيعته ويقول : « هلمّوا إلى بيعة الله » .

خطبته (عليه السلام) في مكّة وحديثه مع محمّد ابن الحنفية

يروي السيّد ابن طاوس أنّ الحسين ـ صلوات الله عليه ـ لمّا عزم على الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال :

« الحمد لله ، وما شاء الله ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله ، وصلّى الله على رسوله وسلّم .

خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق

يعقوب إلى يوسف ، وخير لي مصرع أنا لاقيه ، كأنّي بأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات[١] بين النواويس وكربلاء ، فيملأن منّي أجوافاً وأجربة سغباً ؛ لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم .

رضى الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ، ويوفّينا أجور الصابرين .

لن تشذّ عن رسول الله لحمته ، وهي مجموعة له في حظيرة القدس ، تقرّ بهم عينه ، وتنجز لهم وعده .

من كان فينا باذلاً مهجته ، موطّناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا ، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله » .

وروى أيضاً بسند معتبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« جاء محمّد بن الحنفيّة إلى الحسين (عليه السلام) في الليلة التي أراد الحسين الخروج في صبيحتها عن مكّة فقال له : يا أخي ، إنّ أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك ، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى ، فإن رأيت أن تقيم فأنت أعزّ من بالحرم وأمنعه ؛ فقال : يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم ، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت ؛ فقال له ابن الحنفيّة : فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البرّ ، فإنّك أمنع الناس به ، ولا يقدر عليك أحد ، فقال : أنظر في ما قلت .

فلمّا كان السحر ارتحل الحسين (عليه السلام) ، فبلغ ذلك ابن الحنفيّة فأتاه فأخذ بزمام ناقته ـ وقد ركبها ـ فقال : يا أخي ، ألم تعدني النظر في ما سألتك ؟ قال : بلى ، قال : فما حداك على الخروج عاجلاً ؟ قال : أتاني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعدما فارقتك فقال : يا حسين أخرج ، فإنّ الله شاء أن يراك قتيلاً ، فقال محمّد بن الحنفيّة : ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ ، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال ؟ قال : إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا ، فسلّم عليه ومضى » .

وممّا يتّفق مع مرويّات معتبرة أنّ كلاًّ من العبادلة[٢] قد جاءه (عليه السلام) يمنعه من التوجّه إلى العراق ، ويلحّ عليه في ترك هذا السفر ، فردّ (عليه السلام) على كلّ منهم ، فودّعه ومضى .

ويروي أبو الفرج الإصبهانيّ وغيره أنّ عبد الله بن عبّاس لما رأى تصميم الحسين (عليه السلام) على المسير إلى العراق ألحّ عليه أن يبقى في مكّة ويتخلّى عن الخروج إلى

(١) عسلان الفلوات : ذئاب الفيافي ، إشارة إلى جيش الكوفة .

(٢) المراد بالعبادلة : عبد الله بن عبّاس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر .

العراق ، لأن أهل الكوفة أهل غدر ، فهم قتلوا أباه وجرحوا أخاه ، ويظنّ أنهم سيمكرون به ويخذلونه ويدعونه وحيداً .

فأجابه الحسين (عليه السلام) بأنّ كتبهم ها هي عنده ، وأنّ مسلماً كتب إليه اجتماعهم على بيعته .

فقال ابن عبّاس : فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله إنّي خائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه .

لكنه (عليه السلام) أعرض عن نصيحة ابن عباس وسار بأهله وعياله إلى كربلاء .

ويروى عن بعض من شهدوا واقعة كربلاء أنّ الحسين (عليه السلام) نظر يوم استشهاده إلى النساء وقد خرجن من الخيام جزعات يندبن قتلاهنّ ، وينظرن إلى ما هو فيه فيبكين ، فذكر إذ ذاك كلام ابن عبّاس وقال : « لله درّ ابن عبّاس في ما أشار عليّ به » .

وإجمالاً فلما أيقن ابن عبّاس أنّ الحسين (عليه السلام) مجمع على المسير ولن يثنيه عن عزمه شيء خفض بصره إلى الأرض وبكى ، ثم ودّعه وانصرف .

ولقي من منصرفه عبد الله بن الزبير فقال : قرّت عينك يا بن الزبير ، ثمّ قال :

يا لك من قنبرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقّري ... هذا الحسين خارجٌ فاستبشري

وكان الحسين (عليه السلام) لمّا خرج من مكّة اعترضه يحيى بن سعيد بن العاص ، ومعه جماعة أرسلهم إليه أخوه عمرو بن سعيد ليمنعوه من المسير ، فأبى عليهم وتدافع الفريقان ، ثم مضى إلى سبيله .

بلوغه (عليه السلام) منزل التنعيم وتسلّمه كتاب عبد الله بن جعفر

وسار الحسين (عليه السلام) حتّى أتى التنعيم ، فرأى عيراً قد أقبلت من اليمن تحمل الورس والحلل هديّة بعث بها إلى يزيد عامله على اليمن ، فأخذها الحسين (عليه السلام) ، ذلك أنّ حكم أمور المسلمين يعود إلى إمام زمانهم ، وهو أحقّ بالتصرّف بها ؛ وقال لأصحاب الإبل : من أحبّ أن ينطلق معنا إلى العراق أوفينا كراءه وأحسنّا صحبته ، ومن أحبّ أن يفارقنا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الطريق ، ولن نُكرهه ؛ فمضى معه قوم وامتنع آخرون .

يقول الشيخ المفيد : لمّا سار الحسين (عليه السلام) من مكّة كتب إليه ابن عمه عبد الله بن جعفر كتاباً بعثه مع ابنيه عون ومحمّد ، جاء فيه :

« أمّا بعد ، فإنّي أسألك بالله لمّا انصرفت حين تنظر في كتابي هذا ، فإنّي مشفق عليك من هذا التوجّه الذي توجّهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، فإنّك إن هلكت خفت أن يطفأ نور الله في الأرض ، فإنّك علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنّي في أثر كتابي ، والسلام » .

وصار عبد الله إلى عمرو بن سعيد وسأله أن يكتب إلى الحسين (عليه السلام) أماناً ويمنّيه ليرجع عن وجهه ، فكتب إليه عمرو بن سعيد كتاباً يمنّيه فيه الصلة ، ويؤمنه على نفسه ، وأنفذه مع يحيى بن سعيد أخيه ؛ فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر بعد نفوذ ابنيه ، ودفعا إليه الكتاب وجهدا به في الرجوع ، فقال :

« إنّي رأيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في المنام وأمرني بما أنا ماضٍ له » .

قالا : وما تلك الرؤيا ؟ فقال :

« ما حدّثت أحداً بها ، ولا أنا محدّث بها أحداً حتى ألقى ربّي عزّ وجلّ » .

فلمّا يئس منه عبد الله بن جعفر أمر ابنيه عوناً ومحمّداً بلزومه والمسير معه ، والجهاد دونه ، ورجع مع يحيى بن سعيد إلى مكّة ، وتوجّه الحسين (عليه السلام) إلى العراق مغذّاً لا يلوي على شيء ، حتّى نزل ذات عرق .

ووفقاً لرواية السيّد فقد لقي الحسين (عليه السلام) هناك بشر بن غالب قادماً من العراق، فسأله عن أهلها فقال: خلّفت القلوب معك، والسيوف مع بني أميّة، فقال: «صدق أخو بني أسد، إنّ الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد».

مقتل قيس بن مسهر الصيداوي
رسول الحسين (عليه السلام)

ويروي الشيخ المفيد أنّه لمّا بلغ عبيدَ الله بن زياد إقبال الحسين (عليه السلام) من مكّة إلى الكوفة بعث الحصين[1] بن تميم على رأس جيش كبير حتّى نزل القادسيّة ، ونظّم الخيل ما

(١) حصين بضمّ الحاء المهملة وفتح الصاد ، ابن تميم ، وبعضهم يقول : ابن نمير ، ولعلّ هذا خطأ .
يقول ابن أبي الحديد : تميم بن أسامة بن الزبير بن دريد التميمي هو الرجل الذي سأل ـ لمّا قال (عليه السلام) : « سلوني قبل أن تفقدوني ـ عن عدد الشعر في رأسه ، فأجابه (عليه السلام) : أما =

بين القادسيّة إلى خفّان ، وما بين القادسيّة إلى القُطقُطانة ، وقال للناس : هذا الحسين يريد العراق ، ولمّا بلغ الحسين الحاجر من بطن الرُّمّة بعث قيس بن مسهر الصيداوي ـ وبرواية عبد الله بن يقطر ـ إلى أهل الكوفة ، ولم يكن (عليه السلام) علم بخبر مسلم رحمه الله ، وكتب إليهم[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي إلى إخوانه المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو .

أمّا بعد ، فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقّنا ؛ فسألت الله أن يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من مكّة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجّة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم وجدّوا ، فإنّي قادم عليكم في أيّامي هذه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وسبب كتابته لهذا الكتاب هو أنّ مسلماً كتب إليه قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة ، وكتب إليه أهل الكوفة : إنّ لك ها هنا مئة ألف سيف ، فلا تتأخّر .

فلما بلغ رسوله (عليه السلام) القادسيّة أمسك به الحصين بن تميم ، وبرواية السيّد أنّ الحصين أراد أن يفتّشه ، فأخرج الكتاب ومزّقه ، فحمله الحصين إلى ابن زياد ، فلمّا مثل بين يديه قال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه عليهما السلام ، قال : فلم خرقت الكتاب ؟ قال : لئلاّ تعلم ما فيه ، قال : وممّن الكتاب ، وإلى من ؟ قال : من الحسين بن عليّ إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم ؛ فغضب

= والله إنّي لأعلم ذلك ، ولكن أين البرهان ؟ ومراده (عليه السلام) : من أين أجعلك تعلم أن عددها هو ما هو ؟ وقد حُدّثت بشأنك وبما ستسألني عنه ، وأُخبرت أنّ في أصل كلّ شعرة ملك يلعنك وشيطان يستفزّك ، وآية ذلك مصداق ما خبّرتك به من أنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله (ص) أو يحرّض على قتله ، وهكذا كان كما قاله (ع) من أنّه ابن تميم ؛ والحصين هو ذلك الطفل الذي كان يوم ذاك يحبو ، وعاش حتى أصبح قائداً عند ابن زياد ، وبعث به ابن زياد إلى ابن سعد يمنعه عن التسامح بشأن الحسين (ع) ويحثّه على قتاله ، ويخاف ابن سعد من التأخّر في قتل الحسين (ع) ، فلا غرو أنه في صبيحة اليوم الذي أتاه فيه الحصين بن تميم بهذا الكتاب ثمّ قتل الحسين (ع) . انتهى .

أقول : إن السبط بن الجوزيّ نقل في (التذكرة) أنّه قيل : إن الحصين كان أحد قتلة الإمام الحسين (ع) وقد رماه بسهم ، ثم أتاه ففصل رأسه عن جسده .

وعلّق رأسه في عنق ليتقرّب به إلى ابن زياد عليه لعائن الله » .

(١) وبرواية السيّد أنه (ع) كتب إلى سليمان بن صرد ، والمسيّب بن نجبة ، ورفاعة ، ومجموعة ، من الشيعة .

ابن زياد فقال : والله لا تفارقني حتّى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم ، أو تصعد المنبر وتلعن الحسين بن عليّ وأباه وأخاه وإلاّ قطّعتك إرباً إرباً .

فقال : أمّا القوم فلا أخبرك بأسمائهم ، وأمّا الأمر الآخر فأفعل ، فصعد المنبر وحمد الله ، وصلّى على النبيّ ، وأكثر من الترحّم على عليّ وولده صلوات الله عليهم ، ثمّ لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، ولعن عتاة بني أميّة عن آخرهم ، ثم قال أنا رسول الحسين إليكم ، وقد خلّفته بموضع كذا فأجيبوه .

فلما بلغ ابن زياد مقالته أمر به أن يرمى من فوق القصر ، فرمي به وتقطّع .

وروي أنّه وقع إلى الأرض مكتوفاً ، فتكسّرت عظامه ، وبقي به رمق ، فأتاه رجل يقال له : عبد الملك بن عمير اللخميّ فذبحه .

يقول المؤلّف : قيس بن مسهر الصيداويّ الأسديّ رجل شريف شجاع ، وذو قدم راسخة في محبّة أهل البيت (عليهم السلام) ، وسيرد فيما بعد أنه لما بلغ الحسين (عليه السلام) خبر مقتله اغرورقت عيناه وقال :

﴿ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلاً ﴾ .

وإليه أشار الكميت بن زيد الأسدي ، ولقّبه في شعره بشيخ بني الصيداء بقوله : « وشيخ بني الصيداء قد فاظ بينهم . . » (فاظ : مات) .

دعوته (عليه السلام) زهير بن القين لنصرته ومعرفته بمقتل مسلم

يقول الشيخ المفيد (ره) : ثمّ أقبل الحسين من الحاجر يسير نحو الكوفة ، فانتهى إلى ماء من مياه العرب ، فإذا عليه عبد الله بن مطيع العدويّ وهو نازل به ، فلمّا رأى الحسين قام إليه فقال : بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ، ما أقدمك ؟ فقال له الحسين (عليه السلام) : كان من موت معاوية ما قد بلغك ، وكتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم .

فقال له عبد الله بن مطيع : أذكّرك الله يا بن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك ، أنشدك الله في حرمة قريش ، أنشدك الله في حرمة العرب ، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أميّة ليقتلنّك ، ولئن قتلوك لا يهابوا بعدك أحداً أبداً ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ، ولا تعرّض نفسك لبني أميّة .

فأبى الحسين (عليه السلام) إلاّ أن يمضي لما أمره الله به ، فمضى عنه وهو يقول : ﴿ لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا ﴾ .

وكان عبيد الله بن زياد أمر فأخذ (سُدّ) ما بين واقصة إلى طريق الشام ، وإلى طريق البصرة ، فلا يَدَعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج ، فأقبل الحسين (عليه السلام) لا يشعر بشيء (في الظاهر) حتى لقي الأعراب فسألهم فقالوا : لا والله ما ندري غير أنّا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج .

وحدّث جماعة من فزارة ومن بجيلة قالوا :

كنّا مع زهير بن القين البجليّ حين أقبلنا من مكّة ، وكنّا نساير الحسين (عليه السلام) ، فلم يكن شيء أبغض علينا من أن ننازله (ننزل معه) في منزل ، فكنّا إذا سار الحسين تخلّف زهير ، وإذا نزل الحسين (عليه السلام) تقدّم زهير ، حتى إذا كنّا في أحد المنازل نزل الحسين (عليه السلام) في جانب ، وكان لا بدّ أنّ ننزل في الجانب الآخر ، ففعلنا .

وبينا نحن جلوس نتغدّى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين (عليه السلام) حتّى سلّم ، ثمّ دخل ، فقال : يا زهير بن القين ، إنّ أبا عبد الله الحسين بعثني إليك لتأتيه ، فطرح كلّ منّا ما في يده حتّى كأنّما على رؤوسنا الطير ؛ فقالت له زوجته واسمها دلهم : سبحان الله ، أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه ؟! لو أتيته فسمعت كلامه .

فأتاه زهير بن القين ، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه ، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقوض ، وحمل إلى الحسين (عليه السلام) ، ثم قال لامرأته : أنت طالق ! الحقي بأهلك فإنّي لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خير .

ووفقاً لرواية السيّد أن زهيراً أضاف قوله : وقد عزمت على صحبة الحسين (عليه السلام) لأفديه بروحي ، وأقيه بنفسي .

ثمّ أعطاها مالها ، وسلّمها إلى بعض بني عمّها ليوصلها إلى أهلها ، فقامت إليه وبكت وودّعته وقالت : خار الله لك ، أسألك أن تذكرني في القيامة عند جدّ الحسين (عليه السلام) .

ثمّ قال زهير لأصحابه : من أحب منكم أن يتبعني ، وإلاّ فهو آخر العهد ، ثمّ ودّعهم والتحق بالحسين (عليه السلام) ؛ ويقول بعض أرباب السير إن ابن عمّه سلمان بن مضارب بن قيس وافقه ، واستشهد بعد ظهر يوم عاشوراء في كربلاء .

ويروي الشيخ المفيد (ره) عن عبد الله بن سليمان الأسديّ والمنذر بن المشمعل الأسديّ أنّهما قالا :

لمّا قضينا حجّنا لم تكن لنا همّة إلاّ اللحاق بالحسين في الطريق لننظر ما يكون من أمره ، فأقبلنا ترقل بنا ناقاتنا مسرعين حتى لحقناه بزرود ، وهو موضع قريب من الثعلبيّة ؛ فلمّا دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين (عليه السلام) ، فوقف الحسين (عليه السلام) كأنّه يريده ، ثمّ تركه ومضى ، ومضينا نحوه ، فقال أحدنا لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا نسأله فإن كان عنده خبر الكوفة علمناه ، فمضينا حتى انتهينا إليه فقلنا : السلام عليك ، قال : وعليكما السلام ، قلنا : ممّن الرجل ؟ قال : أسديّ ، فقلنا : ونحن أسديّان فمن أنت ؟ ثم انتسب وانتسبنا له ، ثم قلنا : أخبرنا عن الناس وراءك ، قال : نعم ، لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ؛ ورأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق .

بلوغه (عليه السلام) منزل الثعلبية

فأقبلنا حتى لحقنا بالحسين ، فسايرناه حتى نزل الثعلبيّة ممسياً ، فجئناه حين نزل فسلّمنا عليه ، فردّ علينا السلام فقلنا له : يرحمك الله ، إنّ عندنا خبراً إن شئت حدّثناك به علانية ، وإن شئت سرّاً ، فنظر إلينا وإلى أصحابه ثمّ قال : ما دون هؤلاء سرّ ؛ فأخبرناه الخبر المؤلم الذي سمعناه من الأسديّ ، فقال : ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ ، رحمة الله عليهما ، يردّد ذلك مراراً .

فقلنا له : ننشدك الله في نفسك وفي أهل بيتك إلاّ انصرفت من مكانك هذا ، وإنّ أهل الكوفة إن لم يكونوا عليك فلن يكونوا معك ؛ فنظر إلى بني عقيل فقال : ما ترون ؟ فقالوا : والله ما نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق .

فأقبل علينا الحسين (عليه السلام) فقال : لا خير في العيش بعد هؤلاء ، فعلمنا أنّه قد عزم رأيه على المسير ، فقلنا له : خار الله لك ، فقال : يرحمكم الله ؛ فقال له بعض أصحابه : إنّك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع ، فسكت ولم يجب ، ذلك أنّه كان يعلم العاقبة .

وبرواية السيّد أنّه (عليه السلام) لما بلغه خبر مقتل مسلم استعبر باكياً ثمّ قال : « رحم الله مسلماً ، فلقد صار إلى روح الله وريحانه ، وتحيّته ورضوانه ، أما إنّه قد قضى ما عليه ، وبقي ما علينا » ، ثمّ أنشأ يقول :

فإن تكن الدنيا تعدّ نفيسة ... فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرىء بالسيف في الله أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدّراً ... فقلّة حرص المرء في الكسب أجمل

وإن تكـن الأمـوال للـترك جمـعـهـا فـما بـال مـتروك بـه المـرء يـبـخـل

ورد في بعض التواريخ أنّه كان لمسلم بن عقيل (عليه السلام) بنت كان لها من العمر ثلاث عشرة سنة أو أقلّ ، وكانت تعيش في بيت الحسين (عليه السلام) وتدرج مع بناته لا تفارقهنّ .

ولمّا أخبر الحسين (عليه السلام) في ذلك المكان بقتل مسلم جاء ودخل خيمة النساء ودعا بتلك البنت وجعل يلاطفها ويعطف عليها ، فاستشعرت البنت من ذلك المصيبة ، فقالت : يا عمّ ، أراك تعطف عليّ عطفك على الأيتام ، أفأصيب أبي مسلم ؟ فرّق لها الحسين (عليه السلام) وجرت دمعته ، وقال لها : يا بنيّة لا تحزني ، فلئن أصيب أبوك فأنا أبوك ، وبناتي أخواتك ؛ فلمّا سمعت البنت هذا الكلام من الحسين (عليه السلام) صرخت وأعولت ، فسمع صراخها آل عقيل ، فارتفعت أصواتهم بالبكاء ، وشاركهم أهل بيت الحسين (عليه السلام) ، وعظم على أبي عبد الله المصاب ، واشتدّ به الحزن .

ويروي الشيخ الكلينيّ (قده) أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لمّا بلغ الثعلبيّة يريد كربلاء ، لقيه رجل فسلّم عليه ، فقال له الحسين (عليه السلام) : من أيّ البلاد أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : أما والله يا أخا أهل الكوفة لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل (عليه السلام) من دارنا ، ونزوله بالوحي على جدّي ، يا أخا أهل الكوفة ، أفمستقى العلم من عندنا ، فعلِمُوا وجَهِلنا ؟ هذا ما لا يكون .

يروي السيّد ابن طاوس أيضاً أنّ الحسين صلوات الله عليه سار حتّى نزل الثعلبيّة وقت الظهيرة ، فوضع رأسه فرقد ، ثمّ استيقظ فقال :

« قد رأيت هاتفاً يقول : أنتم تسرعون ، والمنايا تسرع بكم إلى الجنّة » .

فقال له ابنه عليّ (عليه السلام) : يا أبه ، أفلسنا على الحقّ ؟ فقال : بلى يا بنيّ والذي إليه مرجع العباد ؛ فقال : يا أبه ، إذن لا نبالي بالموت ، فقال له الحسين (عليه السلام) : جزاك الله يا بنيّ خير ما جزى ولداً عن والد .

ثمّ بات (عليه السلام) في الموضع ، فلمّا أصبح إذا برجل من أهل الكوفة يكنّى أبا هرّة الأزديّ قد أتاه فسلّم عليه ثمّ قال : يا بن رسول الله ، ما الذي أخرجك عن حرم الله وحرم جدّك محمّد (صلّى الله عليه وآله) ؟ فقال الحسين (عليه السلام) :

« ويحك أبا هرّة ، إنّ بني أميّة أخذوا مالي فصبرت ، وشتموا عرضي فصبرت ، وطلبوا دمي فهربت ؛ وايم الله لتقتلني الفئة الباغية ، وليلبسنّهم الله ذلاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ؛

وليسلّطنّ عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة منهم ، فحكمت في أموالهم ودمائهم » .

يقول الشيخ المفيد وغيره : ثمّ انتظر حتّى إذا كان السحر قال لفتيانه وغلمانه : أكثروا من الماء ، فاستقوا وأكثروا ؛ ثم ارتحلوا ، فسار حتّى انتهى إلى زبالة ، فأتاه خبر عبد الله بن يقطر ، فجمع أصحابه ، فأخرج للناس كتاباً قرأه عليهم ، فإذا فيه :

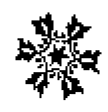
« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمّا بعد ، فإنّه قد أتانا خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل ، وهانىء بن عروة ، وعبد الله بن يقطر ؛ وقد خذلنا شيعتنا ، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج ، ليس عليه ذمام » .

فتفرّق الناس عنه ممّن اتّبعوه طمعاً في مغنم وجاه ، حتّى بقي في أهل بيته وأصحابه ممّن اختاروا ملازمته عن يقين وإيمان .

فلمّا كان السحر سار حتّى مرّ ببطن العقبة فنزل عليها ، فلقيه شيخ من بني عكرمة فقال له : أين تريد ؟ قال (عليه السلام) : الكوفة ، فقال له الشيخ : أنشدك الله لمّا انصرفت ، فوالله ما تقدم إلاّ على الأسنّة وحدّ السيوف ؛ فقال له : « يا عبد الله ، ليس يخفى عليّ الرأي ، ولكنّ الله تعالى لا يُغلب على أمره » .

ثمّ قال : « والله لا يدعونني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي ، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ فرق الأمم » .

ثمّ سار (عليه السلام) في سبيله .



الفصل السابع

في لقاء الامام الحسين (عليه السلام) الحرّ بن يزيد الرياحي

سار الحسين (عليه السلام) من بطن العقبة حتّى نزل شراف ، فلمّا كان السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء واكثروا ، ثمّ سار حتى انتصف النهار ، فبينما هو يسير إذ كبّر رجل من أصحابه ، فقال له الحسين (عليه السلام) : الله أكبر ، لم كبّرت ؟ فقال : رأيت النخل ، قال جماعة ممّن صحبه : والله انّ هذا المكان ما رأينا فيه نخلة قطّ ، فقال : فما ترونه ؟ قالوا : والله نراه أسنّة الرماح وأعناق الخيل ، قال : وأنا والله أرى ذلك .

فلمّا تبيّن له أنّهم الجند مال إلى ذات اليسار بجانب جبل هناك يقال له ذا حُسُم ، حتّى إذا احتاج إلى القتال جعله في ظهره ، واستقبل القوم من وجه واحد ، ولمّا بلغ الموضع أمر (عليه السلام) بأبنيته فضُربت .

وما لبث أن جاء القوم ، زهاء ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي ، حتّى وقف هو وخيله مقابل الحسين (عليه السلام) في حرّ الظهيرة ، والحسين وأصحابه معتمّون متقلّدون أسيافهم .

فقال الحسين (عليه السلام) لفتيانه : اسقوا القوم وارووهم من الماء ، ورشّفوا الخيل ترشيفاً ، ففعلوا ، وأقبلوا يملأون القصاع من الماء ثمّ يدنونها من الفرس فإذا عبّ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر ، حتى سقوا الخيل كلّها .

يقول عليّ بن الطعّان المحاربيّ ، كنت مع الحرّ يومئذ ، فجئت في آخر من جاء من أصحابه ، فلمّا رأى الحسين (عليه السلام) ما بي وبفرسي من العطش قال : انخ الراوية ، والراوية عندي السقاء ، فقال : يا بن أخي انخ الجمل (مراده الجمل الذي يحمل الماء) فأنخته ، فقال : اشرب ، فجعلت كلّما شربت سال الماء من السقاء ، فقال الحسين : اخنث

السقاء أي : اعطفه ، فلم أدر كيف أفعل ، فقام فخنثه ، وسقيت فرسي .

صلاة الحرّ مع الحسين (عليه السلام)

فلم يزل الحرّ موافقاً للحسين (عليه السلام) حتّى حضرت صلاة الظهر ، فأمر الحسين (عليه السلام) الحجّاج بن مسروق أن يؤذّن ، فلمّا حضرت الإقامة خرج الحسين (عليه السلام) في إزار ورداء ونعلين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيّها الناس ، إنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم أن : « أقدم علينا فليس لنا إمام ، لعلّ الله يجمعنا وإيّاكم على الهدى والحقّ » ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فأعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم » .

فسكتوا عنه ولم يتكلّموا كلمة .

فقال للمؤذن : أقم ، فأقام الصلاة فقال للحرّ : أتريد أن تصلّي بأصحابك ؟ فقال الحرّ : لا بل تصلّي أنت ونصلّي بصلاتك ، فصلّى بهم الحسين (عليه السلام) .

ثمّ دخل فاجتمع عليه أصحابه ، وانصرف الحرّ إلى مكانه الذي كان فيه ، وعاد الباقون إلى صفّهم ، ثمّ أخذ كلّ رجل منهم بعنان فرسه وجلس في ظلّها اتقاءً لشدّة الحرّ .

فلمّا كان وقت العصر أمر الحسين (عليه السلام) أن يتهيّأوا للرحيل ، ففعلوا ؛ ثمّ أمر مناديه فنادى بالعصر وأقام ، فاستقدم الحسين وقام فصلّى بالقوم ، ثمّ سلّم وانصرف إليهم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أمّا بعد ، أيّها الناس فإنّكم إن تتّقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله عنكم ، ونحن أهل بيت محمّد أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان ، فإن أبيتم إلاّ الكراهة لنا ، والجهل بحقّنا ، وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم ، وقدمت عليّ به رسلكم انصرفت عنكم » .

فقال له الحرّ : أنا والله ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر ، فقال الحسين (عليه السلام) لبعض أصحابه : يا عقبة بن سمعان ، أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليّ ، فأخرج عقبة خرجين مملوءين صحفاً فنشرت بين يديه ، فقال له الحر : لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ، وقد أمرنا أنّا إذا لقيناك لا نفارقك حتّى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد ، فقال الحسين (عليه السلام) : « الموت أدنى إليك من ذلك » .

ثمّ قال (عليه السلام) لأصحابه : قوموا فاركبوا ، فركبوا ، وانتظر حتى ركبت نساؤه

فقال لأصحابه : انصرفوا ، فلمّا ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف .

فقال الحسين (عليه السلام) للحرّ : « ثكلتك أمّك ما تريد » ؟

فقال له الحر : أما والله لو غيرك يقولها لي ما تركت ذكر أمّه بالثكل كائناً من كان ، ولكن والله ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلاّ بأحسن ما نقدر عليه .

فقال له الحسين (عليه السلام) : فما تريد ؟ قال : أريد أن انطلق بك إلى الأمير عبيد الله بن زياد ، فقال : إذاً والله لا أتبعك ، فقال : إذاً والله لا أدعك ، فترادّا القول ، فلمّا كثر الكلام بينهما قال له الحرّ : إنّي لم أومر بقتالك إنّما أُمرت أن لا أفارقك حتّى أُقدمك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ، ولا يردّك إلى المدينة حتّى أكتب إلى الأمير عبيد الله بن زياد فلعلّ الله أن يرزقني العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك .

ثمّ إن الحسين (عليه السلام) تياسر عن طريق القادسيّة وعُذَيب ، وسار الحرّ في أصحابه يسايره ، فيسير بأصحابه في ناحية ويسير الحسين (عليه السلام) في ناحية أخرى حتى انتهوا إلى عذيب الهجانات ، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم ، ويقودون فرساً لنافع بن هلال يقال له الكامل ، ومعهم دليلهم الطرمّاح بن عديّ (كون الطرمّاح هذا ابن عديّ بن حاتم غير معروف ، بل إنّ أباه هو عدّي آخر كما يظهر) ، والتحقوا بركب الحسين (عليه السلام) .

وأقبل إليهم الحرّ بن يزيد فقال : إنّ هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا ممّن أقبل معك ، وأنا حابسهم أو رادّهم ؛ فقال له الحسين (عليه السلام) : لأمنعنّهم ممّا أمنع منه نفسي ، إنّما هؤلاء أنصاري وأعواني ، فإن بقيت على العهد الذي بيني وبينك فيها ، وإلاّ ناجزتك ، فكفّ عنهم الحرّ .

ثمّ قال لهم الحسين (عليه السلام) : أخبروني خبر الناس وراءكم ، فقال له أحدهم وهو مجمّع بن عبد الله : أمّا أشراف الناس فقد أُعظمت رشوتهم ، وملئت غرائزهم ، فهم إلبٌ[1] واحد عليك ؛ وأمّا سائر الناس فإنّ أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك ! قال : أخبرني ، فهل لكم برسولي إليكم قيس بن مسهّر ؟ قالوا : نعم ، أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد ، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك ، فصلّى عليك وعلى أبيك ، ولعن ابن زياد وأباه ، ودعا الناس إلى نصرتك ، وأخبرهم بقدومك ، فأمر به ابن زياد فألقي من طمار القصر ، فترقرقت عينا الحسين (عليه السلام) ولم يملك دمعه ، ثم قال :

---

(١) الإلب : قوم تجمعهم عداوة واحدة .

﴿ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ .

« اللهمّ اجعل لنا ولهم الجنّة نزلاً ، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك ، وغائب مذخور ثوابك » .

ثم دنا منه الطرمّاح فقال : والله إنّي لأنظر فما أرى معك أحداً ، ولو لم يقاتلك إلاّ هؤلاء (جنود الحرّ) الذين أراهم ملازميك لكان كُفي بهم ، وقد رأيت قبل خروجي إليك بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه ، فسألت عنهم فقيل : اجتمعوا ليُعرَضوا ثمّ يسرّحون إلى الحسين ، فأنشدك الله إن قدرت على أن لا تقدم إليهم شبراً إلاّ فعلت ، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به ـ حتّى ترى رأيك ويستبين لك ما أنت صانع ـ فسر حتّى أنزلك مناع جبلنا الذي يدعى (أجأ) ، منزل لبطن من بطون طيّىء ، فأقم فينا ما بدا لك ، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم ، والله لقد امتنعنا بهذا الجبل من ملوك غسّان وحمير ، ومن النعمان بن المنذر ، ومن العرب والعجم ، والله ما دخل علينا ذلّ قطّ .

فقال له الحسين (عليه السلام) : « جزاك الله وقومك خيراً إنّه كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف ، ولا ندري علام تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقبه » .

وكان الطرمّاح قد امتار لأهله ميرة من الكوفة ، ومعه نفقة لهم ، فودّع الحسين (عليه السلام) على أن يأتي أهله بالميرة ثم يعود إليه ليكون من أنصاره ، وقد فعل ، غير أنّه لمّا بلغ عذيب الهجانات في طريق عودته لقي سماعة بن بدر ، فنعى إليه الإمام الحسين (عليه السلام) فقفل راجعاً .

بلوغه (عليه السلام) قصر بني مقاتل ولقاؤه عبيد الله بن الحرّ الجعفي

ثمّ سار الحسين (عليه السلام) من عذيب الهجانات ، والحرّ يسايره ، حتى انتهى إلى قصر بني مقاتل ، فنزل به ، فإذا هو بفسطاط مضروب ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لعبيد الله بن الحرّ الجعفي ، قال : ادعوه إليّ ، فلمّا أتاه الرسول قال له : هذا الحسين بن عليّ (عليهما السلام) يدعوك ، فقال : ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ ، والله ما خرجت من الكوفة إلاّ كراهية أن يدخلها الحسين وأنا فيها ، والله ما أريد أن أراه أو يراني .

فأتاه الرسول فأخبره ، فقام إليه الحسين فجاءه فسلّم عليه وجلس ، ثم دعاه إلى الخروج

معه ، فأعاد عليه عبيد الله تلك المقالة ، واستقاله ممّا دعاه إليه ، فقال له الحسين (عليه السلام) : « إلاّ تنصرنا فاتقِ الله أن تكون ممّن يقاتلنا ، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثمّ لا ينصرنا إلاّ هلك » .

فقال له : أمّا هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله .

ثمّ قام الحسين (عليه السلام) من عنده حتّى دخل رحله ، ولمّا كان في آخر الليل أمر فتيانه بالاستقاء من الماء والرحيل .

قال عقبة بن سمعان : لمّا ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرنا ساعة خفق الحسين (عليه السلام) وهو على ظهر فرسه خفقة ثم انتبه وهو يقول : ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ ، ﴿ والحمد لله ربّ العالمين ﴾ ، وفعل ذلك مرّتين أو ثلاثاً ، فأقبل إليه ابنه عليّ بن الحسين (عليهما السلام) فقال : ممّ حمدت الله واسترجعت ؟ قال :

« يا بنيّ إنّي خفقت خفقة فعنّ لي فارس وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم ، فعلمت أنّها أنفسنا نُعيت إلينا » .

فقال له : يا أبت ، لا أراك الله سوءاً ، ألسنا على الحقّ ؟ قال : بلى والله على الحقّ ، قال : فإنّنا إذاً ما نبالي أن نموت محقّين ، فدعا له (عليه السلام) بالخير[1] .

فلمّا أصبح نزل وصلّى بهم الغداة، ثمّ عجّل الركوب وأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّقهم ، فيأتيه الحرّ فيردّه وأصحابه نحو الكوفة فيمتنعون عليه ، فلم يزالوا يتسايرون كذلك حتّى انتهوا إلى نينوى في أرض كربلاء ، فإذا راكب على نجيب له متنكّباً قوسه مقبلاً من الكوفة ، فوقفوا جميعاً ينتظرونه ، فلمّا انتهى إليهم سلّم على الحرّ وأصحابه ولم يسلّم على الحسين ، ودفع إلى الحرّ كتاباً من عبيد الله بن زياد لعنه الله ، فإذا فيه :

أمّا بعد ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلاّ بالعراء في غير خضرة وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتّى يأتيني بإنفاذك أمري ، والسلام .

قرأ الحرّ عليهم كتاب ابن زياد ، وأخذهم بالنزول في ذلك المكان ، فقال له الحسين (عليه السلام) : دعنا ويحك ننزل هذه القرية أو هذه ، يعني نينوى والغاضريّة ، أو قرية أخرى حيث العمران والماء ؛ فقال الحرّ : لا والله ما أستطيع ذلك ، هذا رجل قد بُعث إليّ عيناً عليّ .

---

(١) ورد قريب من هذه الواقعة في أواخر الفصل السابق ، مع اختلاف طفيف في النصّ (المعرب) .

قال زهير بن القين : يا بن رسول الله ، إنّ قتال هؤلاء القوم الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به .

فقال الحسين (عليه السلام) : ما كنت لأبدأهم بالقتال ، ثمّ نزل ، وضربت الأبنية ، وكان ذلك يوم الخميس الثاني من المحرّم الحرام .

ويروي السيّد ابن طاوس أنّ كتاب ابن زياد ورسوله وصلا إلى الحرّ في عذيب الهجانات ، ولمّا ضيّق الحرّ على الحسين (عليه السلام) امتثالاً للأمر الذي تلقّاه جمع أصحابه وأهل بيته ، وقام فيهم خطيباً ، وقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ :

« أمّا بعد ، فإنّه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون ، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت ، ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء ، ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء ربّه محقّاً ، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا برماً » .

فقام إليه من بين أصحابه زهير بن القين البجليّ ، فقال :

« قد سمعنا يا بن رسول الله مقالتك ، ولو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنّا فيها مخلّدين ، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها » .

وقام من بعده نافع بن هلال فقال :

« والله ما كرهنا لقاء ربّنا . وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا ، نوالي من والاك ، ونعادي من عاداك » .

ثم قام بُرَيْر بن خُضَير فقال :

« والله يا بن رسول الله لقدمنّ الله تعالى بك علينا أن نقاتل بين يديك ، تقطّع فيك أعضاؤنا ، ثمّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة » .



المقصد الثالث

في قدوم الإمام الحسين (عليه السلام) إلى كربلاء

وفيه أربعة فصول



الفصل الاول

في نزول الامام الحسين (عليه السلام) أرض كربلاء

اعلم انّ هناك اختلافاً في اليوم الذي ورد فيه الإمام الحسين (عليه السلام) إلى كربلاء وأصحّ الأقوال هو انه قدم كربلاء في الثاني من المحرّم الحرام سنة إحدى وستين من الهجرة ، ولمّا انتهى إليها قال : ما اسم هذه الأرض ؟ فقيل له : هي كربلاء ، فقال : « اللهمّ إنّي أعوذ بك من الكرب والبلاء » .

ثمّ قال : « هذا موضع كرب وبلاء ، انزلوا ، ها هنا محطّ رحالنا ، ومناخ ركابنا ، ومقتل رجالنا ، ومسفك دمائنا ، وهنا محلّ قبورنا ، بهذا حدّثني جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) » .

ثمّ نزلوا ، ونزل الحر على الجانب الآخر ، فلمّا كان من الغد قدم عليهم عمر بن سعد اللعين من الكوفة في أربعة آلاف فارس ، فنزلوا في مواجهتهم .

ويروي ابو الفرج أنّه قبل خروج ابن سعد إلى الحسين (عليه السلام) بكربلاء كان ابن زياد قد ولاّه ، إمارة الريّ ، فلمّا بلغه ما كان من قدوم الحسين (عليه السلام) دعا عمر بن سعد فقال : سر إلى الحسين ، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه سرت إلى عملك ؛ فقال له عمر بن سعد : إن رأيت رحمك الله أن تعفيني فافعل ، فقال له ابن زياد : نعم ، على أن تردّ لنا عهدنا .

وقع عمر بن سعد في الحيرة والتردّد بين قتال الحسين (عليه السلام) وفقدانه ملك الريّ ، فلا غرو أنّه قال لابن زياد : أمهلني اليوم حتّى انظر ، ثم أعمل فكره ، وأخيراً غلبت عليه شقوته فاختار حرب الحسين (عليه السلام) مع أمل الفوز بملك الري ، ولما كان من الغد أقبل إلى ابن زياد وقال له : إنّي سائر إلى الحسين .

ورواية السبط بن الجوزي قريبة من هذا المضمون ، غير أنّ محمّد بن سيرين نقل عنه قوله : إن إعجاز أمير المؤمنين (عليه السلام) ظاهر في هذا الأمر ، ذلك أنه (عليه السلام) لقي عمر بن سعد وهو شابٌ فقال له : ويلك يا بن سعد ، ماذا تقول في يوم تتردّد فيه بين الجنّة النار ، وتختار النار ؟

ثم إن عمر بن سعد بعث إلى الحسين (عليه السلام) عروة بن قيس الأحمسيّ فقال : ائته فسله ما الذي جاء به ، وماذا يريد ؟

وكان عروة ممّن كتب إلى الحسين (عليه السلام) ، فاستحيا منه أن يأتيه ، فطلب من ابن سعد أن يعفيه ويندب رجلاً آخر ، فعرض ابن سعد ذلك على رؤساء جيشه فأبوا ذلك وكرهوه ، ذلك أنّهم كانوا ممّن كاتب الحسين (عليه السلام) ، فقام إليه كثير بن عبد الله ، وكان فارساً شجاعاً لا خوف ولا حياء عنده ، فقال : أنا أذهب إليه ، والله لئن شئت لأفتكنّ به ، فقال له عمر بن سعد : ما أريد أن يفتك به ، ولكن ائته فسله ما الذي جاء به .

حديث أبي ثمامة الصائديّ مع كثير بن عبد الله

أقبل كثير بن عبد الله إلى الحسين (عليه السلام) ، فلمّا رآه أبو ثمامة الصائديّ قال للحسين (عليه السلام) : أصلحك الله أبا عبد الله ، قد جاءك شرّ أهل الأرض ، وأجرأه على دم وأفتكه ، ثمّ قام إليه فقال له : ضع سيفك ، قال : لا والله ولا كرامة ، إنّما أنا رسول ، فإن سمعتم منّي أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم ، وإنّ أبيتم انصرفت عنكم ، فقال له : فإنّي آخذ بقائم سيفك ، ثمّ تكلّم بحاجتك ، قال : لا والله لا تمسّه ، فقال له : أخبرني ما جئت به وأنا أبلغه عنك ، ولا أدعك تدنو منه ، فإنّك فاجر .

فتسابّا ، ثمّ انصرف هذا الخبيث إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ، فدعا عمر قرّة بن قيس الحنظليّ فبعث به برسالته ، فلمّا رآه الحسين (عليه السلام) مقبلاً قال : أتعرفون هذا ؟ فقال حبيب بن مظاهر : نعم ، هذا رجل من حنظلة ، تميميّ ، وهو ابن اختنا ، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي ، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد .

فجاء حتّى سلّم على الحسين (عليه السلام) وبلغه رسالة ابن سعد إليه ، فقال الحسين (عليه السلام) : كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم ، فأمّا إذا كرهوا قدومي فإنّي انصرف عنهم .

فقال له حبيب بن مظاهر : ويحك يا قرّة بن قيس ، أنّى ترجع إلى القوم الظالمين ؟ انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك الله بالكرامة ، وإيّانا معك ، فقال له قرّة : أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته ، وأرى رأيي .

فانصرف إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ، فقال له : إنّي لأرجو أن يعافيني الله في حربه وقتاله .

ثم إنّه كتب إلى ابن زياد كتاباً يخبره فيه بما جرى .

يقول حسّان بن فائد العبسي : أشهد أنّي كنت عند ابن زياد حال وصول كتاب ابن سعد إليه ، فلمّا قرأه قال :

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

وكتب إلى عمر بن سعد يقول : بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت ، اعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام .

فلمّا أتى عمرَ بن سعد الكتاب ، لم يقرأه على الحسين (عليه السلام) ، ذلك أنّه يعلم أنّ الحسين (عليه السلام) لن يرضى بالبيعة ليزيد .

ثمّ جاء إلى عمر بن سعد كتاب آخر من ابن زياد يقول فيه : أمّا بعد ، فلا تمهلنّ الحسين بن عليّ وخذ بكظمه ، وحل بين الماء وبينه كما حيل بين الزكيّ النقيّ عثمان بن عفّان[1]

---

(١) المعلوم أنّ عثمان بن عفّان حوصر في المدينة من قبل المصريّين ، ومنع عنه الماء ، فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين (ع) غضب وبعث له بالماء ، وهذا مسطور في كتب التاريخ . لكنّ بني أميّة اتّخذوها ذريعة قديمة ، وأظهروا للناس أنّ عثمان قتل عطشان وينبغي الانتقام له ، وصوّروا لأخيلة الناس أن ثورة الناس على عثمان كانت في نظر أمير المؤمنين (ع) عملاً صائباً ، ومن هذا الباب تسلّل أهل الفتنة والبغي والنواصب فدبّروا المجازر للمسلمين حتّى كانت واقعة كربلاء ، فكان أوّل قرار اتّخذه ابن زياد هو منعه الماء عن عترة النبيّ (ص) وما أن اتّخذ هذا القرار حتى سارع عمر بن سعد إلى وضعه موضع التنفيذ فأوصى أصحابه وعساكره أن لا يسمحوا لأصحاب الحسين بحمل الماء من الفرات ومع أنّ الفرات كان طويلاً عريضاً غير أنّ أصحاب الحسين (ع) كانوا محاصرين ، كما أكّد ابن زياد تكراراً وجوب منع الماء ، فبعث عمر بن سعد عَمْرَ بن الحجّاج الزبيديّ على خمسمئة فارس وأمره بالنزول على الشريعة ، ومنع أصحاب الحسين من ورودها .

وجاء في المناقب أنّهم منعوهم عن الماء ثلاثة أيام ، فحيناً حفروا عيناً للشرب فأعاد القوم ملأها دون حياء ، وحيناً كذلك حفروا بئراً من أجل الماء المستعمل لغير الشرب ، وحيناً كان أبو الفضل العبّاس (ع) يأتيهم بالماء خلال الليل ، ويروى في الأماليّ عن الإمام السجّاد (ع) أنّ عليّاً الأكبر (ع) خرج إلى الشريعة ليلة عاشوراء في خمسين نفراً فاستقوا ماءً ، فقال الإمام الأكبر (ع) لأصحابه : قوموا فاشربوا من الماء يكن آخر زادكم ، وتوضّأوا واغتسلوا واغسلوا ثيابكم فستكون أكفانكم ، ومنذ ذلك كان آخر عهد حرم رسول الله (ص) بالماء ، ومعلوم أن الجوّ كان شديد الحرارة ، ومسير ساعة واحدة كان يكفي لإيقاد نار العطش ، فكيف بعمل صعب شديد ، وقد ورد في الأخبار والسير كيف أنّ ذراري رسول الله (ص) قتلوا =

وبين الماء يوم الدار ، فلا يُسقوا منه قطرة ، فبعث عمر بن سعد عَمْرَ بن الحجّاج على خمسمئة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين (عليه السلام) وأصحابه وبين الماء ، وذلك قبل قتل الحسين (عليه السلام) بثلاث ؛ ومنذ اليوم الذي وصل فيه عمر بن سعد إلى كربلاء كان ابن زياد يرفده بالمقاتلين حتى تكامل عنده في السادس من المحرّم - برواية السيد - عشرين ألف فارس .

ووفقاً لبعض المرويّات فقد كان العسكر يفدون باستمرار حتى اكتملوا ثلاثين ألفاً ، وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد : إنّي لم أجعل لك علّة في كثرة الخيل والرجال ، فانظر أنّي لا أصبح ولا أمسي إلاّ وخبرك عندي غدوة وعشيّة .

ولمّا رأى الحسين (عليه السلام) نزول العساكر مع عمر بن سعد بنينوى ومددهم لقتاله أنفذ إلى عمر بن سعد : إنّني أريد أن ألقاك ، فاجتمعا ليلاً فتناجيا طويلاً ، ثمّ رجع عمر إلى مكانه ، وكتب إلى عبيد الله بن زياد :

« أمّا بعد ، فإنّ الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر الأمّة ؛ هذا الحسين قد أعطاني عهداً أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن يسير إلى ثغر من الثغور ، فيكون رجلاً من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ؛ أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيه ؛ وفي هذا لك رضى وللأمّة صلاح » .

يقول المؤلّف : ينقل أهل السير والتواريخ عن عقبة بن سمعان مولى الرباب زوجة الإمام الحسين (عليه السلام) أنّه قال :

= وهم عطاشى قد يبست شفاههم ، فكم يكون من المناسب إذا ذكرت قصته عليه السلام - عند شرب الماء - أن يذكر بعطش أولئك السادة المظلومين .

وينقل عن (المصباح) للكفعمي أنّ سكينة عند مقتل أبيها جاءت إليه واحتضنته في حجرها وجعلت تبكي وتنوح حتى ذهلت ، ثمّ أنشدت عن أبيها :

شيعتي ما إن شربتم رَيّ عذب فاذكروني   أو سمعتم بغريب أو شهيد فاندبوني

ويظهر أن ما يرادف هذا الشعر من أشعار تقال في المراثي إنّما هي من ملحقات الشعراء وليست من شعره (ع) .

وجاء في (كامل البهائيّ) أنّ ابن زياد جاء إلى مسجد الكوفة وأمر مناديه فنادى أنّ على الرجال كافّة الخروج بسلاحهم لحرب الحسين بن عليّ ، وأنّ من يبقى في الكوفة سيقتل ، وجاء فيه أيضاً أنّه لم يبق رجل إلاّ أخرجه ابن زياد طوعاً وكرهاً حتى يتمّ له - بالنبل والسيف والحجر والعصا - الانتهاء من الحسين وأصحابه ، وجاء فيه أن رواة أحوالهم هم حميد بن مسلم الكندي ، وكان في جيش الطاغية ، وزينب أخت الإمام الحسين (ع) ، وعليّ زين العابدين (ع) ، وكان حميد من بينهم رجلاً فاضلاً لكنّ ابن زياد أخرجه مكرهاً .

« صحبت الحسين من المدينة إلى مكّة ، وَمنهـا إلى العراق ، ولم أفـارقه حتّى قُتـل ، وقد سمعت جميع كلامه مع النـاس ، فما سمعت منـه ما يتـذاكر فيـه الناس : من أن يضـع يده في يد يزيـد، ولا أن يسير إلى ثغـر من الثغور، ولكنّـه قال: دعـوني أرجع إلى المكـان الذي أقبلت منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير إليه أمر الناس».

أقول : الظاهر أنّ هذا الكلام أضافه ابن سعد إلى الكتـاب من عنده ، وافتعـل ما كـان يرجو به إصلاح الأمر ، حيث كان كارهاً ـ منذ البداية ـ للقتال .

وإجمالاً فلما قرأ عبيد الله الكتاب قـال : « هذا كتـاب رجل نـاصح لأمـيره ، مشفق على قومه » ، وأراد أن يجيب ابن سعد بالقبول ، فقام إليـه الشمر بن ذي الجـوشن فقال: « أتقبـل هذا منه، والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكـوننّ أولى بالقـوّة والعزّة، ولتكـوننّ أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنّها من الـوهن ، ولكن لينزل عـلى حكمك هـو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت وليّ العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك » .

فقال ابن زياد : نعم ما رأيت ، اخرج بهذا الكتاب إلى عمـر بن سعد ، فليعـرض على الحسـين وأصحـابـه النـزول عـلى حكمي ، فـإن فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً ، وإن هـم أبـوا فليقـاتلهم ؛ فإن فعـل فاسمـع له وأطـع ، وإن أبى أن يقاتلهم فـأنت أمير الجيش ، فـاضرب عنقه ، وابعث إليّ برأسه .

ثمّ كتب إلى ابن سعد كتاباً جاء فيه :

أمّـا بعد ، فـإنّي لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه ، ولا لتـطاولـه ، ولا لتمنّيـه الســلام والبقاء ، ولا لتعتذر عنه ، ولا لتكون له عندي شفيعاً ؛ انظر ، فإنّ نزل الحسين وأصحابه على حكمي فـابعث بهم إليّ سلماً ، وإن أبوا فـازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثّل بهم ، فـإنّهم لذلـك مستحقّون .

فإن قتلت حسيناً فأوطىء الخيل صـدره وظهره ، فـإنّه عـاقّ شاقّ قـاطع ظلوم ، ولست أرى أن يضرّ هذا بعد الموت ، ولكن على قول قد قلته : لو قتلتُه لفعلتُ هذا به .

فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخلّ بين الشمر بن ذي الجوشن وبين العسكر ، فإنّا قد أمرنا بذلك ، والسلام » .

الفصل الثاني

في وقائع التاسع من المحرّم وورود الشمر بن ذي الجوشن

لمّا كان يوم الخميس التاسع من المحرّم الحرام أقبل الشمر بن ذي الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد ، فلما قرأه ابن سعد قال له : « ما لك ويلك ، لا قرّب الله دارك ، وقبّح الله ما قدمت به عليّ ؛ والله إنّي لأظنّك نهيته عمّا كتبت به إليه ، وأفسدت علينا أمراً قد كنّا رجونا أن يصلح ، والله لا يستسلم حسين ، إنّ نفس أبيه لبين جنبيه » .

فقال له الشمر : أخبرني ما أنت صانع ؟ أتمضي لأمر أميرك وتقاتل عدوّه ، وإلاّ فخلّ بيني وبين الجند والعسكر .

قال ابن سعد : لا ، ولا كرامة لك ، ولكن أنا أتولّى ذلك ، فدونك فكن أنت على الرجّالة .

ثم نهض ابن سعد لقتال الحسين (عليه السلام) ، فجاء الشمر حتى وقف على أصحاب الحسين وقال : اين بنو أختنا ؟ (ذلك لأنّ أمّ البنين ، أمّ العبّاس وعثمان وجعفر وعبد الله كانت كلابيّة ، والشمر بن ذي الجوشن كلابيّ) أين العبّاس وإخوته ؟ فأعرضوا عنه ولم يجيبوه ، فقال الحسين (عليه السلام) : أجيبوه ولو كان فاسقاً ، فقالوا له : ما شأنك وما تريد ؟ قال : يا بني أختي أنتم آمنون ، لا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين ، والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية .

فقال له العبّاس : تبّت يداك ، ولعنك الله ولعن أمانك يا عدوّ الله ، أتؤمّننا وابن رسول الله لا أمان له ؟ وتأمرنا أن نترك أخانا وسيّدنا الحسين بن فاطمة وندخل في طاعة اللعناء أولاد اللعناء ؟ فرجع الشمر إلى عسكره مغضباً .

ثمّ إنّ عمر بن سعد نادى : يا خيل الله اركبي ، ويالجنّة أبشري ! وزحف ابن سعد

على مخيّم الحسين ، عصر اليوم التاسع من المحرّم الحرام ، وكان الحسين (عليه السلام) جالساً أمام بيته محتبياً بسيفه ، وقد خفق برأسه .

ويروي الشيخ الكليني عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« تاسوعاء يوم حوصر فيه الحسين (عليه السلام) وأصحابه بكربلاء ، واجتمع عليه خيل الشام وأناخوا عليه ، وفرح ابن مرجانة وعمر بن سعد بتوافر الخيل وكثرتها ، واستضعفوا فيه الحسين (عليه السلام) وأصحابه ، وأيقنوا أنّه لا يأتي الحسين ناصر ، ولا يمدّه أهل العراق » .

ثم قال (عليه السلام) : « بأبي المستضعف الغريب » .

وإجمالاً فلمّا زحف جيش الطغيان سمعت العقيلة زينب (عليها السلام) الصيحة ، فدنت من أخيها وقالت : يا أخي ، أما تسمع هذه الأصوات قد اقتربت منّا ؟ فرفع الحسين (عليه السلام) رأسه وقال :

« إنّي رأيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الساعة في المنام ، وهو يقول : إنّك صائر إلينا عن قريب » .

فلطمت زينب وجهها ونادت بالويل ، فقال لها : ليس لك الويل يا أخيّة ، اسكتي رحمك الله .

وجاءه العبّاس بن عليّ (عليه السلام) فقال له : يا أخي أتاك القوم ، فقال : اركب ـ بنفسي أنت ـ حتى تلقاهم ، فتقول لهم : ما لكم ، وما بدا لكم ، وماذا تريدون ؟ فركب العبّاس (عليه السلام) في نحو من عشرين فارساً من أصحابه ، وفيهم زهير بن القين ، وحبيب بن مظاهر ، فقال العبّاس : ما بدا لكم ، وما تريدون ؟ قالوا : جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو ننساجزكم ، فقال : لا تعجلوا حتّى أرجع إلى أبي عبد الله ، فأعرض عليه ما ذكرتم ؛ فوقفوا ، فرجع العبّاس إلى أخيه بالخبر ، ووقف أصحابه يعظون القوم ويكفّونهم عن قتال الحسين .

قال الحسين (عليه السلام) لأخيه : « ارجع إليهم ، فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غد ، وتدفعهم عنّا العشيّة لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره ، فهو يعلم انّي أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه ، وكثرة الدعاء والاستغفار » .

يقول السيّد : إنّ ابن سعد أراد التضييق على الحسين (عليه السلام) ، فقال له عمرو بن الحجّاج الزبيديّ : سبحان الله ، والله لو كانوا من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك

لأجبناهم ، فكيف وهم آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) .

وفي رواية الطبريّ أنّ قيس بن الأشعث قال : أجبهم إلى ما سألوك ، فلعمري ليصبحنّك بالقتال غدوة ، فقال ابن سعد : والله لو أعلم أنّهم يفعلون ما أخّرتهم العشيّة .

ورجع العبّاس ومعه رسول من قبل عمر بن سعد يقول : إنّا قد أجّلناكم إلى غد ، فإن استسلمتم سرّحنا بكم إلى ابن زياد ، وإن أبيتم فلسنا بتاركيكم .

وقائع ليلة عاشوراء وخطابه (عليه السلام) في أصحابه

وهكذا دنت ليلة عاشوراء ، فجمع الحسين (عليه السلام) أصحابه ، يقول الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) :

جمع أبي أصحابه ليلة العاشر من المحرّم ، فدنوت منه لأسمع ما يقول لهم ، وأنا إذ ذاك مريض ، فسمعت أبي يقول لأصحابه :

«أثني على الله تعالى أحسن الثناء ، وأحمده على السرّاء والضرّاء ، اللهمّ إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة ، وعلّمتنا القرآن ، وفقّهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، فاجعلنا لك من الشاكرين .

أمّا بعد ، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً عنّي خيراً .

ألا وإنّي لأظنّ يومنا من هؤلاء غداً ، ألا وإنّي قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم منّي حرج ولا ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً ، وذروني وهؤلاء القوم فإنّهم لا يريدون غيري ، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري » .

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر : ولِمَ نفعل ذلك ، لنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبداً .

بدأهم بهذا القول العبّاس بن عليّ (عليهما السلام) ، واتّبعته الجماعة فتكلّموا بهذا ونحوه .

ثمّ نظر الحسين (عليه السلام) إلى بني عقيل وقال : حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم بن عقيل ، فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم ، فقالوا :

« سبحان الله ، ما يقول الناس وماذا نقول لهم ؟ إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وكبيرنا ، وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم

بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ؟ لا والله ما نفعل ذلك ، ولكنّا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبّح الله العيش بعدك » .

وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال :

« أنحن نخلّي عنك ، وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقّك ؟ لا والله لا أفارقك حتّى أطعن في صدورهم برمحي ، وأضرب فيهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة ، والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا حرمة رسول الله فيك ، أما والله لو علمت أنّي أُقتل ثمّ أُحيى ، ثمّ أُحرق ثمّ أذرّى ، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك ، وكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة ، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً » .

ثم قام زهير بن القين فقال :

« والله لوددت أنّي قُتلت ثمّ نُشرت ، حتّى أقتل هكذا ألف مرّة ، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك » .

وتكلّم بقيّة أصحاب الحسين (عليه السلام) بكلام يشبه بعضه بعضاً ، فجزاهم الحسين خيراً ، وانصرف إلى مضربه .

ويروي العلاّمة المجلسي (ره) أنّ مواضعهم في الجنّة كشفت لهم ، فرأوا قصورهم فيها والحور والنعيم ، وكثر بذلك يقينهم ، فلم يكونوا ليحسّوا للرمح أو للسيف أو للسهم ألماً ، وكانوا يسارعون للفوز بالشهادة .

يروي السيّد ابن طاوس أنّه قيل لمحمّد بن بشير الحضرميّ ـ في تلك الحال ـ : قد أُسر ابنك بثغر الريّ ، فقال : عند الله أحتسبه ونفسي ، ما كنت أحبّ أن يؤسر ، وأبقى أنا بعده حيّاً .

فلمّا سمع الحسين (عليه السلام) قوله قال له : « رحمك الله ، أنت في حلّ من بيعتي ، فاعمل في فكاك ابنك » فقال : أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك ، فقال : « فاعط ابنك هذه الأثواب والبرود يستعين بها في فكاك أخيه » ، فأعطاه خمسة أثواب قيمتها ألف دينار .

ويروي الشيخ المفيد (ره) أن الحسين (عليه السلام) تحدّث مع أصحابه في تلك الليلة ثم انصرف إلى مضربه ، وعن الإمام زين العابدين (عليه السلام) أنّه قال :

« إنّي لجالس في تلك العشيّة التي قتل أبي في صبيحتها ، وعندي عمّتي زينب تمرّضني إذ

اعتزل أبي في خباء له ، وعنده جون مولى أبي ذرّ[1] وهو يعالج سيفه ويصلحه ، وأبي يقول :

يا دهر أفٍّ لك من خليل   كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل
وإنّما الأمر إلى الجليل   وكلّ حيٍّ سالك سبيلي

فأعادها أبي مرّتين أو ثلاثاً ، فعرفت ما أراد ، فخنقتني العبرة فرددتها ، ولزمت السكوت ، وعلمت أنّ البلاء قد نزل .

وأمّا عمّتي زينب ، فإنّها لمّا سمعت ما سمعت ـ وهي امرأة ومن شأن النساء الرقّة والجزع ـ فلم تملك نفسها دون أن وثبت تجرّ ثوبها وهي حاسرة حتّى انتهت إليه ، وقالت : واثكلاه ، ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت أمّي فاطمة ، وأبي عليّ ، وأخي الحسن ، يا خليفة الماضين وثمال الباقين .

فنظر إليها الحسين (عليه السلام) وقال : يا أخيّة ، لا يذهبنّ بحلمك الشيطان ، وترقرقت عيناه بالدموع ، وقال متمثّلاً : « لو ترك القطا لنام » ، أي : لو ترك الصيّاد طير القطا وشأنه لأمن ولاستطاع النوم .

قالت زينب (عليها السلام) : يا ويلتاه ! ذلك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي .

ثمّ لطمت وجهها وأهوت إلى جيبها فشقّته ، وخرّت مغشيّاً عليها .

فقام إليها الحسين (عليه السلام) فصبّ على وجهها الماء حتّى أفاقت ، فقال لها :

« يا أخيّة ، اتّقي الله ، وتعزّي بعزاء الله ، واعلمي أنّ أهل الأرض يموتون ، وأنّ أهل السماء لا يبقون ، وأنّ كلّ شيء هالك إلّا وجه الله تعالى الذي خلق الخلق بقدرته فيعودون ، وهو فرد وحده ، أبي خير منّي ، وأمّي خير منّي ، وأخي خير منّي ، ولي ولكلّ مسلم برسول الله أسوة » .

فعزّاها بهذا ونحوه ، ثم قال لها :

« يا أختاه ، إنّي أقسم عليك فأبرّي قسمي ، إذا أنا قتلت فلا تشقّي عليّ جيباً ، ولا تخمشي عليّ وجهاً ، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور » .

قال زين العابدين (عليه السلام) : ثمّ إنّ أبي جاء بعمّتي وأجلسها عندي .

---

(١) جاء في (الكامل البهائيّ) أن جون مولى أبي ذرّ كان خبيراً في صناعة السلاح .

ويروى أن الحسين (عليه السلام) أمر أصحابه أن يقرّبوا بيوتهم من بعضها ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، وأن يحفروا حول البيوت خندقاً يملأونه بالحطب ، وأن يستقبلوا القوم من وجه واحد .

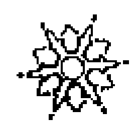
ثمّ إنّه (عليه السلام) أرسل في تلك الليلة ولده عليّاً الأكبر مع ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً وبعث معهم عدّة قرب إلى الماء ، فجاؤوا به بعد جهدٍ شديد ، فقال (عليه السلام) لأصحابه : « قدموا واشربوا من هذا الماء فهو آخر زادكم ، وتطهّروا واغسلوا أثوابكم فإنّها ستكون أكفانكم » .

ثم قام ليلته كلّها يصلّي ويستغفر ويدعو ويتضرّع ، وقام أصحابه كذلك يصلّون ويدعون ويستغفرون ، « فباتوا ولهم دويّ كدويّ النحل ، ما بين راكع وساجد ، وقائم وراكع » .

فباتوا فمنهم ذاكر ومسبّح وداعٍ ، ومنهم ركّع وسجود

قالوا : وعبر في تلك الليلة اثنان وثلاثون رجلاً من عسكر عمر بن سعد إلى جهة الحسين (عليه السلام) ، فنالوا السعادة والشهادة بين يديه .

ويروى أنّه لما كان السحر أمر الحسين (عليه السلام) بخباء فضُرب ، وأمر بجفنة فيها مسك كثير فجعل فيها نورة ، ثم دخل ليطلي ، وروي أنّ بُرير بن خُضير الهمداني وعبد الرحمن بن عبد ربّه الأنصاري وقفا على باب الخباء ليطليا بعده ، فجعل برير يضاحك عبد الرحمن ، فقال له عبد الرحمن : يا بُرير أتضحك ؟ ما هذه ساعة باطل ، فقال برير : لقد علم قومي أنّي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شابّاً ، وإنّما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير إليه ، فوالله ما هو إلاّ أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا نعالجهم ساعة ، ثمّ نعانق الحور العين .



الفصل الثالث

في وقائع يوم عاشوراء

اصطفاف الجيشين صباح يوم عاشوراء ، واحتجاجه (عليه السلام) على القوم

ما أن آذنت ليلة عاشوراء بالانتهاء ، وآذن صبح اليوم العاشر من المحرّم بالطلوع ، حتّى كان سيّد الشهداء (عليه السلام) يعبّيء صفوف أصحابه بعد صلاة الفجر .

ويروى أنّه قال لأصحابه : اليوم أُقتل وتقتلون كلّكم معي ، ولا يبقى منكم أحد إلّا ولدي عليّ زين العابدين ، ولما عبّأ (عليه السلام) أصحابه كان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً ، وفي رواية أخرى : اثنان وثمانون راجلاً ، وروي عن الباقر (عليه السلام) أنّهم كانوا خمسة وأربعين فارساً ومئة راجل ، وقد اختار السبط بن الجوزي هذا العدد في (التذكرة) .

وكان مع ابن سعد ستّة آلاف رجل ، ووفقاً لبعض المقاتل : كانوا عشرين ألفاً أو اثنين وعشرين ألفاً ، وفي رواية أخرى : ثلاثين ألفاً ؛ وهناك اختلاف كبير في مرويّات أرباب السير والمقاتل في عدد أصحاب الحسين (عليه السلام) وعسكر ابن سعد .

وعلى أيّ حال فقد عبّأ (عليه السلام) أصحابه فجعل زهير بن القين على الميمنة ، وحبيب بن مظاهر على الميسرة ، وأعطى رايته العبّاس أخاه .

وفي رواية : جعل عشرين رجلاً مع زهير في الميمنة ، وعشرين مع حبيب في الميسرة ، وهو مع سائر أصحابه في القلب ؛ وجعلوا البيوت في ظهورهم ، وأمر بحطب وقصب أن يرمى في خندق كان قد حُفر وراء البيوت ، وأن يُحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم .

وعبّأ ابن سعد عسكره فجعل على ميمنته عَمْرَ بن الحجّاج ، وعلى ميسرته الشمر بن ذي

الجوشن ، وعلى الخيل عروة بن قيس ، وعلى الرجّالة شبث بن ربعيّ ، وأعطى الراية دريداً مولاه .

وروي أن الحسين (عليه السلام) رفع يديه بالدعاء فقال :

«اللهمّ أنت ثقتي في كلّ كرب، وأنت رجائي في كلّ شدّة، وأنت لي ـ في كلّ أمر نزل بي ـ ثقة وعدّة ؛ كم من همّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقلّ فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدوّ ، أنزلته بك وشكوته إليك رغبةً منّي إليك عمّن سواك ففرّجته عنّي وكشفته ، فأنت وليّ كلّ نعمة ، وصاحب كلّ حسنة ، ومنتهى كلّ رغبة » .

ثمّ أقبل القوم يجولون حول بيت الحسين ، فيرون الخندق والنار تضطرم فيه . فنادى الشمر بن ذي الجوشن بأعلى صوته : يا حسين ، أتعجّلت بالنار قبل يوم القيامة ؟ فقال الحسين (عليه السلام) : من هذا ؟ كأنّه الشمر ، قالوا : نعم ، قال : يا بن راعية المعزى ، أنت أولى بها صِلِيّاً .

ورام مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم ، فمنعه الحسين (عليه السلام) من ذلك ، فقال له : دعني حتّى أرميه فإن الفاسق من أعداء الله وعظماء الجبّارين ، وقد أمكن الله منه ؛ فقال الحسين (عليه السلام) : لا ترمه فإنّي أكره أن أبدأهم بقتال .

ثم إنّه (عليه السلام) دعا بفرسه فاستوى عليه ، وتقدّم نحو القوم ، ونادى بأعلى صوته :

« أيّها الناس ، اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى أعظكم بما هو حقّ لكم عليّ ، وحتّى اعتذر إليكم من مقدمي عليكم ، فإن أعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد ، وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم **﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثمّ اقضوا إليّ ولا تنظرون ﴾ ﴿ إنّ وليّي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ﴾** .

فلمّا سمعت النساء هذا منه صحن وبكين ، وارتفعت أصواتهنّ ، فوجّه إليهنّ أخاه العبّاس وابنه عليّاً الأكبر وقال لهما : « سكّتاهنّ ، فلعمري ليكثر بكاؤهنّ » .

ولمّا سكتن ، حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلّى على النبيّ محمّد ، وعلى الملائكة والأنبياء ، فلم يُسمع متكلّم قطّ قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه ، ثم قال :

« أمّا بعد ، فانسبوني فانظروا من أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها ، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيّه وابن عمّه ، وأوّل المؤمنين بالله ، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه ؟ أوَ ليس حمزة سيّد الشهداء عمّي ؟ أوَ ليس

جعفر الشهيد الطيّار في الجنّة عمّي ؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لي ولأخي : هذان سيّدا شباب أهل الجنّة ؟ فإن صدّقتموني في ما أقول فهو الحقّ ، فوالله ما تعمّدت كذباً من علمت أنّ الله يمقت عليه أهله ، وإن كذّبتموني فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم ؛ سلوا جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وأبا سعيد الخدريّ ، وسهل بن سعد الساعديّ ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لي ولأخي ، أما في هذا حاجز عن سفك دمي » ؟

فقال له الشمر بن ذي الجوشن : أنا أعبد الله على حرف إن كنت أدري ماتقول .

فقال حبيب بن مظاهر للشمر : والله إنّك لتعبد الله على سبعين حرفاً ، وأشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول ، قد طبع الله على قلبك .

ثم قال الحسين (عليه السلام) :

« فإن كنتم في شكّ من هذا ، أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ، ولا في غيركم ؛ ويحكم! أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة » .

فأخذوا لا يكلّمونه ، فنادى : يا شبث بن ربعيّ ، ويا حجّار بن أبجر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا يزيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إليّ أن « قد أينعت الثمار ، واخضرّ الجناب ، وإنّما تقدم على جند لك مجنّد ، فأقبل » ؟

فقال قيس بن الأشعث : ما ندري ما تقول ! ولكن انزل على حكم بني عمّك ، فإنّهم لن يروك إلّا ما تحبّ .

فقال لهم الحسين (عليه السلام) : « لا والله ، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد » .

« ثم نادى : ﴿ إني عذت بربيّ وربّكم أن ترجمون ﴾ ، أعوذ بربيّ وربكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب » .

ثم إنّه أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها .

موعظة زهير بن القين لأهل الكوفة

يروي أبو جعفر الطبري عن عليّ بن حنظلة بن أسعد الشبامي عن كثير بن عبد الله الشعبي أنه قال : لمّا كان يوم عاشوراء ، وكنّا نقابل الحسين بن عليّ خرج إلينا زهير بن القين

على فرس ذنوب[١] ، شاك[٢] السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نذار لكم من عذاب الله نذار ، إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد وملّة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة ، وكنّا أمّة وكنتم أمّة .

إنّ الله ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه محمّد (صلّى الله عليه وآله) لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ السوء ، يسملان أعينكم ، ويقطّعان أيديكم وأرجلكم ، ويمثّلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتّلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عديّ وأصحابه ، وهانيء بن عروة وأشباهه » .

فسبّوه وأثنوا على ابن زياد ودعوا له ، وقالوا : لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير ابن زياد سلماً .

فقال لهم : « عباد الله ، إنّ وُلد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة ، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، فخلّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية ، فلعمري إنّه ليرضى من طاعتكم دون قتل الحسين (عليه السلام) » .

فرماه الشمر اللعين بسهم وقال : اسكت ، اسكت الله نأمتك ، فلقد أبرمتنا بكثرة كلامك .

فقال له زهير : « يا بن البوّال على عقبيه ، ما إيّاك أخاطب ، إنّما أنت بهيمة ، والله ما أظنّك تحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم » .

فقال له الشمر : إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة .

فقال له زهير : « أبا الموت تخوّفني ؟ فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم ؛ ثمّ أقبل على القوم رافعاً صوته فقال :

« عباد الله ، لا يغرّنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعة محمّد (صلّى الله عليه وآله) قوماً أهرقوا دماء ذرّيّته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم » .

---

(١) الفرس الذنوب : الوافرة الذنب .

(٢) شاك السلاح : لابس سلاحه الكامل .

يقول الراوي : فناداه رجل من أصحاب الحسين وقال له : إنّ أبا عبد الله يقول لك : اقبل ، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء فلقد نصحت وأبلغت ، لو نفع النصح والإبلاغ .

خطبته (عليه السلام) أمام القوم وإتمامه الحجّة عليهم

يقول السيّد ابن طاوس : لمّا ركب أصحاب ابن سعد استعداداً لقتال الحسين (عليه السلام) بعث إليهم برير بن خضير يعظهم ويبصّرهم ، فلمّا أتاهم وتحدّث إليهم لم يلق حديثه عندهم أذناً صاغية ؛ فركب (عليه السلام) فرسه ـ وقيل ناقته ـ وتقدّم نحو القوم فاستنصتهم ، فأنصتوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ محمّد وعلى الملائكة والأنبياء والرسل ، وأبلغ في المقال ، ثمّ قال :

تبّاً لكم أيّتها الجماعة وترحاً ، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين ، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم ، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم ، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم ، ويداً عليهم لأعدائكم بغير عدلٍ أفشوه فيكم ، ولا أمل أصبح لكم فيهم ، فهلاّ لكم الويلات إذ كرهتمونا وتركتمونا والسيوف لم تُشهر ، والجأش طامن ، والرأي لم يُستصحَف ، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبي ، وتداعيتم كتداعي الفراش ، فقبحاً لكم يا عبيد الأمّة ، وشذّاذ الأحزاب ، ونَبَذة الكتاب ، ونفثة الشيطان ، وعصبة الآثام ، ومحرّفي الكتاب ، ومطفئي السنن ؛ وأنتم ابن حرب وأشياعه تعتمدون ، وعنّا تتخاذلون ؛ أجل والله ، غدرٌ فيكم قديم ، وشجت عليه أصولكم ، وتأزّرت عليه فروعكم ، فكنتم أخبث ثمر شجى للناظر ، وأكلةً للغاصب .

ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين : بين السَّلّة[1] والذلّة ، وهيهات منّا الذلّة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون ، وحجور طابت وطهرت ، وأنوف حميّة ، ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام .

ألا وقد أعذرت وأنذرت ، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد ، وخذلان الناصر » .

ثمّ تمثّل بأبيات لفروة بن مُسيك المرادي :

فإن نَهزم فهزّامون قِدماً وإن نُغلَب فغير مغلّبينا

---

(١) السَّلّة : بمعنى استلال السيوف .

وما إن طِبّنا[1] جبن ولكن	منايانا ودولة آخرينا[2]
إذا ما الموت رَفّع عن أناس	كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي	كما أفنى القرون الأوّلينا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا	ولو بقي الكرام إذاً بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا	سيلقى الشامتون كما لقينا

ثمّ قال : « أما والله ، لا تلبثون بعدها إلّا كريثما يُركب الفرس حتى تدور بكم دوران الرحى ، وتقلق بكم قلق المحور ، عهدٌ عهده إليّ أبي عن جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثمّ اقضوا إليّ ولا تنظرون** ﴾ ، ﴿ **إنّي توكّلت على الله ربي وربكم ، ما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها ، إنّ ربي على صراط مستقيم** ﴾ .

ثم رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهمّ احبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف ، وسلّط عليهم غلام ثقيف[3] يسقيهم كأساً مصبّرة ، فإنّهم كذّبونا وخذلونا ، وأنت ربّنا عليك توكّلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

ثم نزل عن راحلته وطلب (المرتجز) فرس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فركبه وعبّأ أصحابه .

ويروي الطبري عن سعد بن عبيدة أنّ شيوخ الكوفة كانوا يقفون على تلّة ويبكون على سيّد الشهداء (عليه السلام) ويقولون : اللهمّ أنزل نصرك ، فقلت : يا أعداء الله ، لماذا لا تنزلون وتنصرونه ؟

قال سعيد : رأيت الحسين (عليه السلام) إذ خطب القوم ووعظهم وعليه ثوب من بُرد ، فلمّا أقبل إلى أصحابه رماه رجل ـ من بني تميم يقال له : عمر الطهويّ ـ بسهم وقع في كتفه وتعلّق بثوبه ؛ ولما بلغ أصحابه نظرت إليهم فرأيتهم نحواً من مئة نفر ، بينهم من صلب علي (عليه السلام) خمسة ، ومن بني هاشم ستّة عشر نفراً ورجل من بني سليم ، ورجل من بني كنانة حليفهم ، وابن عمير بن زياد . انتهى .

وجاء في بعض كتب المقاتل أن الحسين (عليه السلام) لمّا فرغ من خطبته استدعى

(١) الطُّب : الإرادة والعادة .

(٢) يعني : إنّ قتلنا لم يكن عن جبن وعدم إقدام ، ولكن : منايانا ودولة آخرينا ، ومثل هذا ليس عاراً .

(٣) في هذا إشارة إلى ظهور الحجّاج بن يوسف الثقفيّ ، ويمكن أن يكون المراد المختار بن أبي عبيدة الثقفي ، كما يقول العلاّمة المجلسيّ .

عمر بن سعد ، وكان كارهاً لا يحبّ أن يأتيه ، فلمّا حضر قال له :

« أتزعم أنّك تقتلني ويولّيك الدعيّ ابن الدعيّ بلاد الريّ وجرجان ؟ والله لا تتهنّأ بذلك أبداً ، عهد معهود ، فاصنع ما أنت صانع ، فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة ، وكأنّي برأسك على قصبة قد نُصب بالكوفة يتراماه الصبيان ويتّخذونه غرضاً بينهم » .

فغضب ابن سعد من كلامه ، وصرف وجهه عنه ، ثمّ نادى بأصحابه : ما تنتظرون به ؟ احملوا بأجمعكم ، إنّما هي أكلة واحدة .

توبة الحرّ ورجوعه إلى الإمام (عليه السلام)

كان الحسين (عليه السلام) يعتلي فرس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويسمّى المرتجز ، فوقف أمام الصفوف وأخذ ينادي : « أما من مغيث يغيثنا لوجه الله ؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله » ؟

فلمّا رأى الحرّ بن يزيد الرياحيّ أنّ القوم مصمّمون على قتال الحسين (عليه السلام) وسمع استغاثته ، أقبل على ابن سعد وقال له :

أمقاتلٌ أنت هذا الرجل ؟ قال : إي والله ، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي ! قال : أفما لكم في واحدة ممّا عرضه عليكم رضى ؟ قال عمر : لو كان الأمر إليّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى .

فأقبل الحرّ حتّى وقف مع الناس ، ومعه رجل من قومه يقال له : قرّة بن قيس ، فقال له : يا قرّة ، هل سقيت فرسك اليوم ؟ قال : لا ، قال : أما تريد أن تسقيه ؟

قال قرّة : فظننت والله أنّه يريد أن يتنحّى فلا يشهد القتال ، ويكره أن أراه حين يصنع ذلك ، فقلت له : لم أسقه ، وأنا منطلق فأسقيه ؛ فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه ، فوالله لو أنّه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين .

وأخذ الحرّ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً ، فقال له رجل من قومه يقال له : المهاجر بن أوس : أتريد أن تحمل يا أبا يزيد ؟ فلم يجبه ، وأخذته مثل الرعدة ، فقال له المهاجر : والله إنّ أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل ما أراه الآن ، ولو قيل لي : من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك ، فما هذا الذي أرى منك ؟

فقال له الحرّ : إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنار ، ولا أختار على الجنّة شيئاً ولو قطّعت وأحرقت .

ثمّ ضرب جواده وأقبل نحو الحسين (عليه السلام) واضعاً يديه على رأسه ، وهو يقول : « اللهمّ إليك أنيب فتب عليّ ، فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيّك » .

يقول أبو جعفر الطبري : لمّا أقبل الحرّ نحو الحسين (عليه السلام) وأصحابه ظنّوا أنّه يريد القتال ، فلمّا قرب منهم قلب درقته ، ونكس رمحه كهيئة المستأمن .

يقول المؤلّف : رأيت من المناسب في هذا المقام أن أنقل شعراً لعلّ لسان حال الحرّ بقوله مخاطباً الإمام (عليه السلام) :

لن أبرح الباب حتى تصلحوا عوجي ... وتقبلوني على عيبي ونقصاني

فإن رضيتم فيا عزّي ويا شرفي ... وإن أبيتم فمن أرجو لغفراني[1]

ثمّ إنّ الحرّ أقبل فلحق الحسين (عليه السلام) فقال :

« جعلت فداك يا بن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسايرتك في الطريق ، وجعجعت بك في هذا المكان ، وما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم ، ولا يبلغون بك هذه المنزلة ، والله لو علمت أنّهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، وأنا تائب إلى الله ممّا صنعت ، أفترى لي من ذلك توبة ؟

قال الحسين (عليه السلام) : نعم ، يتوب الله عليك ويغفر لك ، فانزل .

قال : أنا لك فارساً خير منّي راجلاً ، أقاتلهم على فرسي ساعة ، وإلى النزول ما يصير آخر أمري .

فقال له (عليه السلام) : اصنع ـ يرحمك الله ـ ما بدا لك .

فتوجّه الحرّ نحو القوم وقال :

« يا أهل الكوفة ، لأمّكم الهبل والعبر[2] أدعوتم هذا العبد الصالح حتّى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم أنّكم قاتلوا أنفسكم دونه ، ثمّ عدوتم عليه لتقتلوه ؟ وأمسكتم بنفسه ، وأخذتم بكلكله ، وأحطتم به من كلّ جانب لتمنعوه من التوجّه إلى بلاد الله العريضة ، فصار كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنها ضرّاً ، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأهل بيته عن ماء الفرات الجاري ، تشربه اليهود والنصارى والمجوس ، وتمرغ فيه خنازير السواد

---

(١) هذان البيتان نقلاً عن كتاب (مقتل الحسين) للسيّد محمّد تقي آل بحر العلوم ، ولعلّهما يلخصان بعض أفكار تضمّنتها أبيات سبعة أوردها المؤلّف بالفارسيّة (المعرب) .

(٢) أي : الثكل والبكاء .

وكلابهم ، وها هم قد صرعهم العطش ، بئسما خلفتم محمّداً في ذرّيّته !!

شفاه بني الزهراء عطشى وتُمنع فراتاً أحلّوا للطغاة وأترعوا[1]

فحملت عليه الرجّالة ترميه بالنبل ، فأقبل حتى وقف أمام الحسين (عليه السلام) .

وتقدم عمر بن سعد ونادى : يا دريد ، أدن الراية ، فأدناها ، فوضع سهماً في كبد قوسه ثمّ رمى وقال : اشهدوا لي أنّي أوّل من رمى .

من قتل من أصحابه (عليه السلام) في الحملة الأولى

يقول السيّد ابن طاوس : بعد أن رمى سعد رميته رمى أصحابه كلّهم ، وأقبلت السهام من القوم كأنّها المطر ، فقال (عليه السلام) لأصحابه : « قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بدّ منه ، فإنّ هذه السهام رسل القوم إليكم » .

فحمل أصحابه (عليه السلام) حملة واحدة ، واقتتلوا ساعة من النهار حملة وحملة ، حتّى قتل من أصحاب الحسين (عليه السلام) جماعة ، وفي رواية محمّد بن أبي طالب : قتل في هذه الحملة خمسون شهيداً من أصحابه (عليه السلام) .

يقول المؤلّف : إنّ لأصحابه (عليه السلام) حقّاً علينا ، فإنّهم عليهم السلام :

السابقون إلى المكارم والعلى والحائزون غداً حياض الكوثر
لولا صوارمهم ووقع نبالهم لم تسمع الآذانُ صوتَ مكبّر

وكعب بن جابر ، وهو من أعدائهم يقول :

فلم تر عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدُّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كلّ من يحمي الذمار مُقارع
وقد صبروا للطعن والضرب حُسّراً وقد نازلوا لو أنّ ذلك نافع

ومن المناسب ذكر أولئك الأبرار الذين استشهدوا في الحملة الأولى ، وسأذكر أسماءهم الكريمة إذ اطّلعت عليها ، وهي طبقاً للترتيب الذي اعتمده ابن شهر اشوب في (المناقب) :

نُعَيْم بن عجلان : أخو النعمان بن عجلان صاحب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وعامله على البحرين وعمان ؛ ويقال إنّ هذين الأخوين مع أخيهما الثالث : النضر كانوا من الشجعان وكانوا شعراء ، وقد شهدوا صفّين معه (عليه السلام) .

---

(١) تعريب بيت بالفرسيّة (المعرّب) .

عمران بن كعب بن الحارث الأشجعيّ ، وقد ذكره الشيخ الطوسي في رجاله .

حنظلة بن عمرو الشيبانيّ .

قاسط ومقسط ابنا زهير : وقد ذكر أبوهما عبد الله في رجال الشيخ .

كنانة بن عتيق التغلبيّ : وكان يُعدّ من الأبطال ومن قرّاء وعبّاد الكوفة .

عمرو بن ضُبَيْعة بن قيس التميميّ : وكان فارساً مقداماً ، ويقال إنّه خرج مع ابن سعد ثم ازدلف إلى الحسين (عليه السلام) .

ضرغامة بن مالك التغلبيّ : ويقول البعض إنّه ممّن حضروا صلاة الظهر ، ثم خرج مبارزاً واستشهد .

عامر بن مسلم العبديّ ، ومولاه سالم : كانا من شيعة البصرة ، وقد خرجا مع يزيد بن ثبيط وبنيه لنصرة الحسين (عليه السلام) وكانا من شهداء الحملة الأولى ، وقد قال الفضل بن العبّاس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطّلب في عامر ، وزهير بن سليم ، وعثمان بن علي (عليه السلام) ، والحرّ ، وزهير بن القين ، وعمرو الصيداويّ ، وبشر الحضرميّ ، قال فيهم رضوان الله عليهم ، يخاطب بني أميّة ويطعن في أفاعيلهم :

أرجعوا عامراً وردّوا زهيراً	ثمّ عثمان فارجعوا غارمينا
وارجعوا الحرّ وابن قين وقوماً	قُتلوا حين جاوزوا صفّينا
أين عمرو وأين بشر وقتلى	منهمُ بالعراء ما يُدفنونا

سيف بن عبد الله بن مالك العبديّ : يقال إنه ممّن حضروا صلاة الظهر ، ثمّ استشهد بالمبارزة .

عبد الرحمن بن عبد الله الأرحبيّ الهمدانيّ : وكان رسول أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداويّ إلى الحسين (عليه السلام) في مكّة ، بعثا بهما يحملان كتبهم إليه (عليه السلام) وكان بلوغهما مكّة في الثاني عشر من شهر رمضان .

الحبّاب بن عامر التيميّ : من شيعة الكوفة ، بايع مسلماً ، ولمّا خذله أهل الكوفة خرج إلى الحسين (عليه السلام) والتحق به .

عمرو الجُندَعيّ : ذكره ابن شهر اشوب من المقتولين في الحملة الأولى ، ويقول بعض أهل السير : إنّه جُرح بعد أن تلقّى ضربة شديدة ووقع ، فأخرجه قومه من المعركة ، وبقي مريضاً ومات متأثّراً بجراحه بعد سنة ، ويؤيّد هذا ما ورد في زيارة الشهداء :

« السلام على المرتّب معه عمرو بن عبد الله الجندعيّ » .

الحُلاس بن عمرو الأزديّ الراسبيّ ، وأخوه النعمان بن عمرو: من أهل الكوفة ، ومن أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) بل كان من قادة جيشه (عليه السلام) في الكوفة .

سوّار بن أبي عمير النهميّ : جُرح في الحملة الأولى ، وأُسر وأُخذ إلى ابن سعد الذي أراد قتله ، فشفع به قومه فتركه بين الأسرى ، وتوفّي متأثراً بجراحه بعد ستّة أشهر ، كما وقع للمُوقَّع بن ثمامة الذي جرح بدوره ، ثم أخذه قومه إلى الكوفة وأخفوه ، فعرف ابن زياد أمره وأراد قتله ، ثم تركه بشفاعة قومه بني أسد ، وبعث به أسيراً مكبّلاً إلى زارة ، وهي موضع بعمان ، وتوفّي فيها بعد سنة متأثراً بجراحه .

وإليه يشير الكميت الأسديّ بقوله : « وإنّ أبا موسى أسير مكبّل . . » . أبو موسى كنيته ، وجاء في زيارة الشهداء : « السلام على الجريح المأسور سوّار بن أبي عمير النهميّ » .

عمّار بن أبي سلامة الدالانيّ الهمدانيّ : من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وعُدّ من المجاهدين معه ، بل إنّه وفقاً لبعض الأقوال : أدرك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

زاهر مولى عمرو بن الحمق : جدّ محمّد بن سنان الزاهريّ ، حجّ سنة ستّين ، وفاز بصحبة سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وبقي معه حتّى استشهد في الحملة الأولى .

ويروى عن القاضي النعمان المصريّ أنّه لما هرب عمرو بن الحمق من معاوية إلى الجزيرة كان بصحبته رجل من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) اسمه زاهر ، ولمّا لدغت حيّة عَمْراً تورّم بدنه ، وقال له زاهر : إنّ حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أخبرني أنّه سيشترك الإنس والجنّ في دمي ، ولا بدّ أنّي مقتول ؛ وإذ ذاك ظهر لهما فرسان كانوا في أثره ، فقال له عمرو: اختبىء يا زاهر، فإنّ القوم يطلبونني، وسيأخذونني ويقتلونني ويذهبون برأسي معهم، فإذا كان ذلك فاخرج وادفنّي؛ فقال له زاهر: سأقاتلهم ما بقي سهم في كنانتي حتى أقتل معك ، فقال له عمرو : اصنع ما أقوله لك ، فإن الله يعطيك نفعاً بي فصنع زاهر ما أمره به ، وبقي حيّاً حتّى استشهد في كربلاء رحمه الله .

جَبَلة بن عليّ الشيبانيّ : وكان من شجعان أهل الكوفة .

مسعود بن الحجّاج التيميّ ، وابنه عبد الرحمن بن مسعود : وكانا من الشجعان المعروفين ، خرجا مع ابن سعد ، والتحقا بالإمام الحسين (عليه السلام) أيّام المهادنة ، وقتلا بين يديه في الحملة الأولى .

زهير بن بشر الخثعميّ .

عمّار بن حسّان بن شريح الطائيّ ؛ كان من الشيعة المخلصين ، صحب الحسين (عليه السلام) من مكّة إلى كربلاء .

وأبوه حسّان ، كان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) واستشهد بين يديه في صفّين ، وذكر عمّار في (الرجال) باسم عامر ، ومن أحفاده عبد الله بن أحمد بن عامر بن سليمان بن وهب بن عامر المقتول بكربلاء ، ابن حسّان ؛ وعبد الله يكنّى بأبي القاسم ، وله كتب منها كتاب (قضايا أمير المؤمنين) (عليه السلام) ، يرويها عن أبيه أبي الجعد أحمد بن عامر .

ويروي الشيخ النجاشيّ عن عبد الله بن أحمد المذكور أنّه قال :

ولد أبي سنة سبع وخمسين ومئة ، ولقي شيخنا الإمام الرضا (عليه السلام) سنة أربع وتسعين ومئة ، وتوفّي الرضا (عليه السلام) في طوس سنة اثنتين ومئتين يوم الثلاثاء لثمانية عشر مضين من جمادي الأولى ؛ ولقيتُ أبا الحسن بن أبي محمّد عليهما السلام ، وكان أبي مؤذّنهما . . الخ ، ويعلم من هذا أنهم كانوا من أجلاّء الشيعة قدّس الله أرواحهم .

مسلم بن كثير الأزديّ الكوفيّ التابعيّ ؛ يقال إنّه كان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأصيب بجرح في رجله في بعض مواقعه (عليه السلام) ، والتحق بالحسين (عليه السلام) من الكوفة ، وكان من قتلى الحملة الأولى يوم عاشوراء ، كما استشهد نافع مولاه بعد صلاة الظهر .

زهير بن سليم الأزدي : وكان من السعداء الذين عبروا من معسكر ابن سعد إلى الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء .

عبد الله وعبيد الله ابنا يزيد بن ثُبَيْط العبديّ البصريّ .

يروي أبو جعفر الطبري أن جماعة من شيعة البصرة اجتمعوا في منزل امرأة من عبد القيس هي مارية بنت منقذ ، وكانت من الشيعة ، وكان منزلها منتدى للشيعة ، وكان هذا حين صار عبيد الله بن زياد إلى الكوفة بعد أن بلغه مسير الإمام الحسين (عليه السلام) إلى العراق ، وكتابته لعامله على البصرة يأمره ببثّ العيون وأخذ الطرق والمسالك لئلاّ يلتحق أحد بالحسين (عليه السلام) .

كان يزيد بن ثبيط من عبد القيس ، وكان ممّن جمعهم منزل تلك المرأة من الشيعة ، فعزم على اللحوق بالحسين (عليه السلام) ، وكان له عشرة أبناء ، فعرض أن يصحبه منهم من شـ ذلك ، فاختار اثنان منهم صحبته . وأخبر القوم بعزمه ، فخافوا عليه ابن زياد ، لكنّه

قال : والله اينها بلغ بي بعيري أو أبلغتني قدماي أهون عليّ وآمن من أن يأتي أصحاب ابن زياد في طلبي ؛ ثم خرج من البصرة وتنكّب عن الطريق إلى فلاة قفراء خالية حتى بلغ منزل الإمام (عليه السلام) في الأبطح ، فنزل وضرب خباءه ، ثم توجّه إلى مضارب الإمام (عليه السلام) الذي بلغه خبر مقدمه فخرج ليلقاه ، فلما بلغ الإمام (عليه السلام) مضارب يزيد قيل له بأنه توجّه نحو منزلك ، فجلس ينتظر .

أما يزيد فلما بلغ مضارب الإمام (عليه السلام) قيل له بأنّه توجّه إلى منزلك ، فسارع بالعودة ، فبصر به جالساً يتلو : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ .

فسلّم عليه وأخبره برغبته ، فدعا له (عليه السلام) بخير ؛ وهكذا بقي بصحبته حتى استشهد في كربلاء بين يديه ، مع ولديه عبد الله وعبيد الله .

ويروي بعض أهل السير أن يزيد لّما خرج من البصرة صحبه عامر العبديّ ومولاه سالم ، وسيف بن مالك ، وأدهم بن أميّة ، وقد نالوا الشهادة جميعاً في كربلاء ، وقد رثى عامر بن يزيد أباه وأخويه فقال :

يا فروُ ، قومي فاندبي   خير البريّة في القبور
وابكي الشهيد بعبرة   من فيض دمع ذي درور
وارثي الحسين مع التفجّـ   ـع والتأوّه والزفير
قتلوا الحرام من الأئمّـ   ـة في الحرام من الشهور
وابكي يزيد مجدّلاً   وابنيه في حرّ الهجير
متزمّلين دماؤهم   تجري على لبب النحور
يا لهف نفسي لم تفز   معهم بجنّات وحور

ومن شهداء الحملة الأولى من القتال أيضاً :

جندب بن حجر الكنديّ الخولانيّ : وكان يعدّ من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) .

جنادة بن كعب الأنصاريّ : صحب الإمام (عليه السلام) من مكة مع أهله وعياله ، وابنه :

عمرو بن جنادة : وقد قاتل بتشجيع من أمّه وقتل بعد استشهاد أبيه .

سالم بن عمرو .

القاسم بن الحبيب الأزديّ .

بكر بن حيّ التيميّ .

جُوَين بن مالك التيميّ

أميّة بن سعد الطائيّ .

عبد الله بن بشر : وكان من مشاهير الشجعان .

بشر بن عمرو .

الحجّاج بن بدر البصريّ : حامل كتاب مسعود بن عمرو من البصرة ، التحق بالإمام الحسين (عليه السلام) مع رفيقه :

قعنب بن عمرو النمريّ البصريّ .

عائذ بن مجمّع بن عبد الله العائذي ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وعشرة أنصار من موالي الإمام الحسين (عليه السلام) ، مع موليين لأمير المؤمنين (عليه السلام) .

يقول المؤلّف : إنّ أسماء بعض أولئك الموالي هي على هذا الضبط :

أسلم بن عمرو : كان كاتباً للإمام الحسين (عليه السلام) ، وأبوه تركيّ .

قارب بن عبد الله الدؤليّ : كانت أمّه جارية للإمام الحسين (عليه السلام) .

مُنجح بن سهم : مولى للإمام الحسن (عليه السلام) ، قدم كربلاء مع أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) واستشهد .

سعد بن الحرث : مولى أمير المؤمنين (عليه السلام) .

نصر بن أبي نيزر : مولى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان أبوه يعمل في نخل أمير المؤمنين (عليه السلام) .

الحرث بن نبهان : مولى الحمزة بن عبد المطّلب . إلى غير ذلك .

هذا ولمّا قتل في هذه الحملة من أنصار الحسين (عليه السلام) من قتل ، تأثّر (عليه السلام) كثيراً لمقتلهم ، فضرب بيده على كريمته وقال :

« اشتدّ غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً ، واشتدّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة ، واشتدّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر ، واشتدّ غضبه على قوم

اتّفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيّهم ، أما والله لا أجيبهم إلى شيء ممّا يريدون حتّى ألقى الله تعالى وأنا مخضّب بدمي » .

هذا ولا يخفى أن فريقاً من وجوه عسكر الكوفة لم يكن ليرضيهم أن يقاتلوا الحسين (عليه السلام) ، فراحوا يماطلون ويسوّفون من أمر القتال ، ويبعثون بالرسل والكتب ، حتّى كان يوم عاشوراء ، واتّضح للناس أنّ ابن بنت رسول الله لن يلبس لباس الذلّ ، وأنّ عبيد الله بن زياد لن يترك الحسين وشأنه ، فلا غرو أنّهم عزموا على القتال .

مبارزات أصحاب الحسين (عليه السلام) مع عسكر ابن سعد

كان أوّل من برز من عسكر ابن سعد يسار مولى زياد بن أبيه ، وسالم مولى عبيد الله بن زياد ، فطلبا المبارزة .

فبرز إليهما عبد الله بن عمير الكلبيّ ، فقال له يسار : من أنت ؟ فانتسب له ، فقالا : لسنا نعرفك ، ليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير ، وكان يسار قريباً منه ، فقال له عبد الله : يا بن الفاعلة ، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ؟ ثمّ شدّ عليه بسيفه فقتله ، وإنّه لمنشغل به إذ شدّ عليه سالم مولى ابن زياد ، فصاح أصحابه : قد رهقك العبد ، فلم يصغ عبد الله حتّى بدره سالم بضربة اتّقاها ابن عمير بيده اليسرى فأطارت أصابعه ، ومال عبد الله على سالم فقتله ، ثمّ أقبل إلى الحسين (عليه السلام) وقد قتلهما جميعاً وهو يرتجز ويقول :

إن تنكروني فأنا ابن كلب حسبي ببيتي في عُلَيْم حسبي
إنّي امرؤ ذو مِرّة وعَضَب[1] ولست بالخوّار[2] عند النكب

وحمل عمرو بن الحجّاج ـ فيمن كان معه من أهل الكوفة ـ على ميمنة أصحاب الحسين (عليه السلام) ، فلمّا دنا منهم جثوا له على الركب وأشرعوا الرماح ، فلم تقدم خيلهم ، فلمّا تراجعت الخيل رشقهم أصحاب الحسين بالنبل فصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين .

وجاء رجل من بني تميم يقال له عبد الله بن حوزة ، فأقدم على عسكر الحسين (عليه السلام) وقال : يا حسين ، يا حسين ، قال : وماذا تريد ؟ أبشر بالنار ! فقال : كلاّ ، إنّي أقدم على ربّ رحيم وشفيع مطاع ، ثمّ سأل (عليه السلام) : من هذا ؟ فقيل له : هذا

---

(١) المِرّة والعضب : القوّة والشدّة .
(٢) الخوّار : الضعيف .

ابن حوزة التميميّ ، فقال : اللهم حزه إلى النار ، فاضطرب به فرسه فوقع ، وتعلّقت رجله اليسرى في الركاب وارتفعت اليمنى ، فشدّ عليه مسلم بن عوسجة فضرب رجله اليمنى فطارت ، وعدا به فرسه فضرب رأسه كلّ حجر وشجر حتّى مات ، وعجّل الله بروحه إلى النار .

مبارزة الحرّ الرياحيّ (ره)

وحمل الحرّ على أصحاب ابن سعد كالأسد الغاضب وهو يتمثّل بقول عنترة :

ما زلت أرميهم بثُغرة[1] نحره ولبانه[2] حتّى تسربل بالدم

ثم قال مرتجزاً :

إنّي أنا الحرّ ومأوى الضيف أضرب في أعناقكم بالسيف
عن خير من حلّ بأرض الخيف[3] أضربكم ولا أرى من حيف

قال الراوي : فبينما هو يقاتل رأيت فرسه وهو مضروب على أذنيه وحاجبيه والدماء تسيل منه ، إذ التفت الحصين بن تميم إلى يزيد بن سفيان ـ وكان يزيد هذا يتهدّد الحرّ بالقتل حين خروجه إلى معسكر الحسين (عليه السلام) ـ وقال له : يا يزيد ، هذا الحرّ الذي كنت تتمنّاه ، فهل لك به ؟ قال : نعم ، وخرج إليه يطلب المبارزة ، فما لبث الحرّ أن قتله ، وقال الحصين : أما والله لكأنّ روح يزيد في يد الحرّ .

ثمّ لم يزل الحرّ يقاتل حتى أمر ابن سعد الحصين بن تميم مع خمسمئة من الرماة بإمطار أصحاب الحسين بسهامهم ، ففعلوا ، وما أسرع من أن أصيبت خيولهم ، فجعلوا يقاتلون راجلين .

يروي أبو مخنف عن أيّوب بن مشرح الخيوانيّ أنّه كان يقول : أنا والله عقرت بالحرّ بن يزيد فرسه ، أصبت بطن الفرس بسهم فما لبث أن أرعد واضطرب وكبا .

يقول المؤلّف : كأنّ حسّان بن ثابت قال في هذا المقام :

ويقول للطِّرْف[4] لشبا[5] القنا فهدمت ركن المجد إن لم تعقر

---

(١) الثُغرة : الثلمة .

(٢) اللُبان : الصدر .

(٣) الخيف : اسم موضع بمكّة سمّي به مسجد الخيف .

(٤) الطِّرْف : الفرس الكريم .

(٥) الشبا : جمع شباة وهي حدّ السلاح القاطع .

وكم من المناسب أن نستشهد هنا بقول الصادق (عليه السلام) قال :

« الحرّ حرّ على جميع أحواله ، إن نابته نائبة صبر لها ، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره ، وإن أُسر وقهر واستبدل باليسر عسراً » .

قال الراوي : ثمّ إنّ الحرّ وثب عن فرسه كأنّه ليث ، والسيف في يده وهو يقول :

إن تعقروا بي[1] فأنا ابن الحرّ أشجع من ذي لبد هزبر

فما رأيت أحداً قطّ يفري فريه .

يقول أهل السير والتاريخ إنّ الحرّ وزهيراً برزا معاً يحمي كلّ منهما ظهر الآخر ، فكان إذا شدّ أحدهما فاستُلحم[2] شدّ الآخر واستنقذه ، ففعلا كذلك ساعة ، والحرّ يرتجز ويقول :

آليت لا أُقتل حتّى أَقتلا ولن أصاب اليوم إلّا مقبلا
أضربهم بالسيف ضرباً مفصلا لا ناكلاً منهم ولا مهلّلا

وكان السيف في يد الحرّ والموت يلوح من شباته ، وكأنّ ابن المعتز قال فيه قولته :

ولي صارم فيه المنايا كوامن فما يُنتضى إلّا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند[3] كأنّه بقيّة غيم رقّ دون سماء

ثمّ شدّت عليه جماعة من عسكر ابن سعد فصرعته .

ويقال إنّ الحسين (عليه السلام) أتاه وبه رمق ، فجعل يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول : « أنت الحرّ كما سمّوك ، حرّ في الدنيا وحرّ في الآخرة» ، ثم أنشد (عليه السلام) :

لنعم الحرّ حرّ بني رياح ونعم الحرّ عند مختلف الرماح
ونعم الحرّ إذ نادى حسيناً فجاد بنفسه عند الصياح

مبارزة بُرير ووهب وعمرو بن خالد

ثم برز بُرير بن خُضَيْر رحمه الله ، وكان من عباد الله الصالحين زاهداً عابداً ، وكانوا يسمّونه سيّد القرّاء ؛ كان من أشراف أهل الكوفة من الهمدانيّين ، وهو خال أبي إسحاق

---

(١) تعقروا بي : تقطعوا قوائم فرسي .

(٢) استُلحم : نشب في الحرب فلم يجد مخلّصاً .

(٣) الفرند : اسم من أسماء السيف ، أو هو جوهر السيف ووشيه ، وسيف فرند : لا مثيل له .

عمرو بن عبد الله السبيعيّ الكوفيّ التابعيّ الذي قيل إنّه صلّى الصبح أربعين عاماً بوضوء صلاة العشاء ، وكان يختم القرآن كلّ ليلة ، وكان أعبد أهل زمانه ، وأوثقهم حديثاً عند الخاصّة والعامّة ، وكان من ثقاة عليّ بن الحسين (عليه السلام) .

ولمّا برز بُرير خرج إليه يزيد بن معقل فقال لبرير : أشهد إنّك من المضلّين ، فقال له برير : هلمّ فلأباهلك ، ولندع الله أن يقتل المحقُّ منّا المبطل ، ثم تبارزا فاختلفا ضربتين ، فضرب يزيد بن معقل بريراً ضربة لم تضرّه شيئاً ، وضربه برير ضربة قدّت مغفره وبلغت الدماغ ، فخرّ كأنّما هوى من حالق .

فحمل عليه رضيّ بن منقذ العبديّ فاعتنقا واعتركا ساعة ، فأوقعه برير أرضاً وقعد على صدره ، فاستغاث رضيّ بأصحابه فأقبل إليه كعب بن جابر بالرمح حتّى وضعه في ظهر برير ، فلمّا وجد مسّ الرمح عضّ رضياً في وجهه فقطع له طرف أنفه ، فطعنه كعب بن جابر حتى غيّب السنان في ظهره ، ثمّ أقبل يضربه بسيفه حتّى قتله .

يقول الراوي : قام العبديّ ينفض التراب عن قبائه وهو يقول لكعب : أنعمت عليّ يا أخا الأزد نعمة لن أنساها أبداً .

فلمّا رجع كعب بن جابر قالت له امرأته أو أخته النوّار بنت جابر : أعنْتَ على ابن فاطمة ، وقتلت سيّد القرّاء ، لقد أتيت عظيماً من الأمر ، والله لا أكلّمك من رأسي كلمة أبداً .

استشهاد وهب عليه الرحمة

ثمّ برز بعده وهب بن عبد الله بن حباب الكلبيّ ، وكانت معه أمّه وزوجه ، فقالت له أمّه : قم يا بنيّ فانصر ابن بنت رسول الله ، فقال : أفعل يا أمّاه ولا أقصّر ، فبرز وهو يقول :

إن تنكروني فأنا ابن الكلب سوف تروني وترون ضربي
وحملتي وصولتي في الحرب أدرك ثاري بعد ثار صحبي
وأدفع الكرب أمام الكرب ليس جهادي في الوغى باللعب

ثمّ حمل فلم يزل يقاتل حتّى قتل منهم جماعة ، فرجع إلى أمّه وامرأته ، فوقف عليهما فقال : يا أمّاه أرضيت ؟ فقالت : ما رضيت أو تقتل بين يدي الحسين (عليه السلام) ، فقالت امرأته : بالله لا تفجعني في نفسك ! فقالت أمّه : يا بنيّ لا تقبل قولها ، وارجع فقاتل بين يدي ابن رسول الله ، فيكون غداً في القيامة شفيعاً لك بين يدي الله ؛ فرجع وهو يقول :

إنّي زعيم لك أمّ وهب بالطعن فيهم تارة والضرب
ضرب غلام مؤمن بالربّ

فلم يزل يقاتل حتّى قتل تسعة عشر فارساً ، واثني عشر راجلاً ، ثمّ قطعت يداه ، فأخذت أمّه عموداً وأقبلت نحوه وهي تقول : فداك أبي وأمّي ، قاتل دون الطيّبين حرم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأقبل كي يردّها فأخذت بجانب ثوبه وقالت : لن أعود أو أموت معك ، فقال الحسين (عليه السلام) جزيتم من أهل بيت خيراً ، ارجعي إلى النساء رحمك الله ، فانصرفت ، ولم يزل الكلبيّ يقاتل حتّى قتل رضوان الله عليه .

يقول الراوي : فمشت إليه زوجته تمسح الدم عن وجهه فبصر بها الشمر اللعين فأمر غلاماً له فضربها بعمود فشدخها وقتلها ، وهي أوّل امرأة قتلت في عسكر الحسين (عليه السلام) .

استشهاد عمرو بن خالد وابنه : ثم تقدّم عمرو بن خالد الأزديّ الأسديّ الصيداويّ من الحسين (عليه السلام) وقال : جعلت فداك يا أبا عبد الله ، قد هممت أن ألحق بأصحابي ، وكرهت أن أتخلّف وأراك وحيداً من أهلك قتيلاً ، فقال له الحسين (عليه السلام) : تقدّم فإنّا لاحقون بك عن ساعة ، فحمل عمرو وهو يرتجز ويقول :

إليك يا نفس من الرحمن فأبشري بالروح والريحان
اليوم تجزين على الإحسان

فلم يزل يقاتل حتّى قتل .

ثم تقدّم ابنه خالد بن عمرو وهو يقول :

صبراً على الموت بني قحطان كيما تكونوا في رضى الرحمن
يا أبتا قد صرت في الجنان في قصر درّ حسن البنيان

فلم يزل يقاتل حتّى قتل .

استشهاد سعد بن حنظلة ، وعمير

ثم تقدّم سعد بن حنظلة التميميّ وهو يرتجز ويقول :

صبراً على الأسياف والأسنّه صبراً عليها لدخول الجنّه
وحور عين ناعمات هنّه يا نفس للراحة فاجهدنّه
وفي طلاب الخير فارغبنّه[1]

---

(١) الهاء : في هنّه واجهدنّه وارغبنّه : للسكت .

ثمّ حمل وقاتل قتالاً شديداً حتّى قتل رحمه الله .

ثم برز من بعده عُمير بن عبد الله المذحجيّ وهو يرتجز ويقول :

قد علمت سعدٌ وحيٌ مذحج أنّي لدى الهيجاء ليثٌ محرج
أعلو بسيفي هامة المدجَّج وأترك القرن لدى التعرج
فريسة الضبع الأزلّ الأعرج[1]

ولم يزل يقاتل حتّى قتله مسلم الضبابيّ وعبد الله البجليّ .

مبارزة نافع بن هلال ومسلم بن عوسجة

ثم برز من أصحاب الحسين (عليه السلام) نافع بن هلال البجليّ وهو يرتجز ويقول :

أنا ابن هلال البجليّ أنا على دين عليّ

فبرز إليه رجل هو مزاحم بن حريث ، فقال : أنا على دين عثمان ، فقال له نافع : أنت على دين الشيطان ، فحمل عليه نافع فقتله .

فصاح عمرو بن الحجّاج بالناس : يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان أهل المصر وأهل البصائر ، وقوماً مستميتينّ لا يبرز منكم إليهم أحد إلاّ قتلوه على قلّتهم ، والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم .

فقال له عمر بن سعد : الرأي ما رأيت ، فأرسل في الناس من يعزم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم .

ودنا عمرو بن الحجّاج من أصحاب الحسين (عليه السلام) فقال :

يا أهل الكوفة ، الزموا طاعتكم وجماعتكم ، ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الإمام .

ثمّ حمل عمرو بن الحجّاج في ميمنته نحو الفرات ، فاضطربوا ساعة ، وفيها قاتل مسلم بن عوسجة الأسديّ ، وانصرف عمرو وأصحابه ، وانجلت الغبرة فإذا مسلم صريع على الأرض وبه رمق ، فمشى إليه الحسين (عليه السلام) ـ ومعه حبيب بن مظاهر ـ فقال له

(١) الأزلّ : السريع ، والأعرج : من صفات الضبع .

(عليه السلام)، : رحمك الله يا مسلم ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** ﴾ .

فدنا منه حبيب فقال له : يعزّ عليّ مصرعك يا مسلم ، أبشر بالجنّة ، فقال له مسلم بصوت ضعيف : بشّرك الله بخير ، فقال له حبيب : لولا أعلم أنّي في الأثر لاحق بك لأحببت أن توصيني بكلّ ما أهمّك ، فقال مسلم : فإنّي أوصيك بهذا ـ وأشار إلى الحسين ـ أن تموت دونه ! قال حبيب : أفعل وربّ الكعبة ، ولأنعمنّك عيناً ؛ ثم فاضت نفسه .

ولما حمل ووضع مع القتلى صاحت جارية له : يا بن عوسجاه ، يا سيّداه !! ومن المعروف أنّ مسلم بن عوسجة كان من شجعان عصره المعروفين ، وقد شهد له شبث بن ربعيّ في (آذربيجان) موقفاً كريماً ، فراح يذكّر بهذا من حوله .

وكان ابن عوسجة وكيلاً لمسلم بن عقيل في قبض الأموال وشراء الأسلحة وأخذ البيعة ، وكان من عبّاد عصره ، يلازم الاعتكاف بمسجد الكوفة متعبّداً كما يشير الدينوريّ في (الأخبار الطوال) ، ويضعه أهل السير في مقدّمة أصحاب الحسين (عليه السلام) ، وقد تقدّم الحديث عن أقواله للحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء ، وقد أبلى في كربلاء أحسن البلاء ، كان إذا حمل يقول :

إن تسألوا عنّي فإنّي ذو لبد من فرع قوم في ذرى بني أسد
فمن بغانا حائدٌ عن الرّشد وكافرٌ بدين جبّار صمد

كان هذا الرجل الكبير يكنّى بأبي حجل ، كما أشار إليه الكميت الأسديّ بقوله :

« إن أبا حجل قليل مُجحَل[1] ... » .

وكان مقتله ـ رحمه الله ـ على يدي مسلم الضبابيّ وعبد الرحمن البجليّ .

ثمّ اشتبك الفريقان ، فحمل الشمر ـ لعنه الله ـ في جماعة من أصحابه على ميسرة أصحاب الحسين (عليه السلام) فثبتوا لهم ، بعد أن أحاطوا بهم من كلّ جانب ، وإنّما هم اثنان وثلاثون فارساً ، فكانوا لا يحملون على جانب من أهل الكوفة ، إلّا كشفوهم .

فلمّا رأى عروة بن قيس ، وهو على خيل الكوفة ، أن خيله تنكشف من كلّ جانب ، بعث إلى عمر بن سعد يقول : أما ترى ما تلقى خيلي من هذه العدّة اليسيرة ؟ ابعث إليهم الرجال والرماة .

(١) الحجل : اليعسوب العظيم ، ومُجحَل : الصريع على الأرض .

يقول الراوي : وقاتلهم أصحاب الحسين (عليه السلام) قتالاً شديداً حتّى انتصف النهار ، ثمّ دعا الحصين بن تميم أصحابه ، وكانوا خمسمئة من الرماة ، فأقبلوا حتّى دنوا من الحسين وأصحابه ، فرشقوهم بالنبال ، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم .

يقول الراوي : واشتدّ القتال ، ولم يقدر أصحاب ابن سعد أن يأتوهم إلاّ من جانب واحد ، لاجتماع أبنيتهم وتقارب بعضها من بعض ، فلمّا رأى عمر بن سعد ذلك أرسل رجالاً يقوّضونها عن أيمانهم وشمائلهم ليحيطوا بهم ، وأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخلّلون البيوت فيشدّون على الرجل وهو يقوّض وينهب فيقتلونه ، ويرمونه من قريب ويعقرونه ، فصاح بهم عمر بن سعد أن أحرقوها بالنار ، ولا تدخلوا بيتاً ولا تقوّضوه ، فجاؤوا بالنار وأخذوا يحرّقون ، فقال الحسين (عليه السلام) : دعوهم فليحرّقوها ، فإنّهم إذا فعلوا لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم ، فكان كما قال .

يقول الراوي : وحمل الشمر حتّى طعن فسطاط الحسين برمحه ، ونادى عليّ بالنار حتّى أحرق هذا البيت وأهله ، فصاح النساء وخرجن من الفسطاط ، فصاح به الحسين (عليه السلام) : يا بن ذي الجوشن ، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي ؟ حرّقك الله بالنار .

يقول حميد بن مسلم : قلت للشمر بن ذي الجوشن : سبحان الله ، إنّ هذا لا يصلح لك ، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين : تعذّب بعذاب الله (يريد الإحراق) ، وتقتل الولدان والنساء ؟! والله إنّ في قتلك الرجال لما تُرضي به أميرك .

فقال لي الشمر : من أنت ؟ قلت : لا أخبرك من أنا ، وخشيتُ والله ان لو عرفني أن يضرّني عند السلطان ؛ فجاءه شبث بن ربعيّ فقال له : ما رأيت مقالاً أسوأ من قولك ، ولا موقفاً أقبح من موقفك ، أمرعباً للنساء صرت ؟! فأشهد أنّه استحيى فذهب لينصرف ، فحمل عليه زهير بن القين (ره) في عشرة من أصحابه فكشفهم عن البيوت ، وقتلوا منهم أبا عزّة الضبابيّ ، وكان من أصحاب الشمر ، فعطف عليهم عسكر ابن سعد فكاثروهم ، فكانوا إذا قُتل الرجل والرجلان من أصحاب الحسين تبيّن فيهم لقلّة عددهم ، ولا يتبيّن في أولئك لكثرتهم ؛ وإجمالاً فقد اشتدّ القتال وتساقط كثيرون بين قتيل وجريح حتّى دخل الزوال .

تذكير أبي ثمامة للحسين (عليه السلام) بالصلاة
واستشهاد ابن مظاهر

أبو ثمامة الصيداوي ، واسمه : عمرو بن عبد الله ، قال للحسين (عليه السلام) لمّا رأى دخول الزوال : يا أبا عبد الله ، نفسي لك الفداء ، إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك ، ولا والله لا تُقتل حتّى أُقتل دونك ، وأحبّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت هذه الصلاة ، فرفع الحسين رأسه إلى السماء وقال : « ذكرت الصلاة ، جعلك الله من المصلّين والذاكرين ، نعم هذا أوّل وقتها » .

ثم قال : « سلوهم أن يكفّوا عنّا حتّى نصلّي » ، فقال الحصين بن تميم :

إنّها لا تقبل ، فقال له حبيب بن مظاهر : لا تقبل زعمت الصلاة من ابن رسول الله وتقبل منك يا حمار ؟

فحمل عليه الحصين ، وحمل عليه حبيب فضرب وجه فرسه بالسيف فشبّ به الفرس ووقع عنه الحصين ، فاحتوشه أصحابه فاستنقذوه ، وأخذ حبيب يقول :

أقسم لو كنّا لكم أعدادا أو شطركم ولّيتمُ أكتادا[1]
يا شرّ قوم حسداً وآدا[2]

ثم جعل يقول :

أنا حبيب وأبي مظاهر فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعدّ عدّة وأكثر ونحن أوفى منكمُ واصبر
ونحن أعلى حجّة وأظهر حقّاً وأتقى منكمُ وأعذر

وقاتل قتالاً شديداً حتى صرع ـ وفقاً لرواية ـ اثنين وستّين رجلاً ، ثمّ حمل عليه رجل من بني تميم يقال له : بديل بن صُريم فضربه بالسيف على رأسه ، وحمل عليه آخر من بني تميم فطعنه بالرمح فوقع ، فذهب ليقوم فضربه الحصين بن تميم على رأسه بالسيف فوقع ، ونزل إليه التميميّ فاحتزّ رأسه .

فقال له الحصين : إنّي لشريكك في قتله ، فقال الآخر : والله ما قتله غيري ، فقال الحصين : أعطنيه أعلّقه في عنق فرسي كيما يرى الناس ويعلموا أنّي شركت في قتله ، ثمّ خذه

(١) أكتاد : جمع كتد ، وهو مجتمع الكتفين من الإنسان ، وولّيتم أكتاداً أي : فرقاً وأرسالاً .
(٢) الآد : الشدّة والقوّة .

أنت بعد فامض به إلى عبيد الله بن زياد ، فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إيّاه ؛ ثم أخذ الرأس فعلّقه في عنق فرسه وجال به في العسكر ، ثم ردّه إليه .

فلمّا رجعوا إلى الكوفة أخذ التميميّ الآخر رأس حبيب فعلّقه في لبان فرسه ، وأقبل به إلى ابن زياد في القصر ، فبصر به ابنه القاسم بن حبيب وهو يومئذ قد راهق ، فأقبل مع الفارس لا يفارقه ، فإذا دخل القصر دخل معه ، وإذا خرج خرج معه ، فارتاب به فقال : ما لك يا بنيّ تتبعني ؟ قال : لا شيء ، قال : بلى يا بنيّ أخبرني ، قال : إنّ هذا الرأس الذي معك رأس أبي ، أفتعطينيه حتّى أدفنه ؟ قال : يا بنيّ ، الأمير لا يرضى أن يدفن ، وأنا أريد أن يثيبني الأمير على قتله ثواباً حسناً ؛ قال له الغلام : لكنّ الله لا يثيبك على ذلك إلاّ أسوأ الثواب ، أما والله لقد قتلت من هو خير منك ، وبكى .

ومكث الغلام وهمّه الانتقام ، حتى كان زمان مصعب بن الزبير ، فقتله ثأراً لأبيه .

يروي أبو مخنف عن محمّد بن قيس قال : لّما قتل حبيب بن مظاهر هدّ ذلك حسيناً وقال : « عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي » .

وفي بعض المقاتل أنّه قال : « لله درّك يا حبيب ، فقد كنت فاضلاً تختم القرآن في ليلة واحدة » .

ولا يخفى أن حبيباً كان من حَمَلة علوم أهل البيت ، وكان من خاصّة أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ويروى أنّه لقي ميثم التمّار فتحادثا طويلاً ، فقال حبيب : « لكأنّي بشيخ أصلع ضخم البطن يبيع البطّيخ عند دار الرزق ، قد صُلب في حبّ أهل بيت نبيّه ، ويبقر بطنه على الخشبة » ؛ ومراده بالشيخ ميثم ، وقد وقع كما قال حبيب .

وفي آخر الرواية أنّ حبيباً كان من بين سبعين نفراً نصروا الإمام المظلوم ، وواجهوا جبال الحديد ، وتلقّوا بصدورهم آلاف السيوف والسهام ، وإنّ القوم يعطونهم الأمان ، ويعدونهم المال الكثير ، لكنّهم يأبون ويقولون : وهذا الإمام المظلوم يقتل وفينا عين تطرف ، فلن يكون لنا عذر عند الله ، حتّى افتدوه جميعاً بأرواحهم ، وسقطوا حوله قتلى . رحمة الله وبركاته عليهم أجمعين .

وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله حبيب وعابس عند الحديث عن أحوال مسلم بن عقيل عليه الرحمة ، وقد أشار الكميت الأسديّ إلى استشهاد حبيب بقوله :

سوى عصبة فيهم حبيب معفّر قضى نحبه والكاهليّ مرمّل

وأراد بالكاهليّ أنس بن الحرث الأسدي الكاهليّ ، أحد كبار الصحابة ، وقد كتب أهل السنّة في أحواله أنّه قال :

« سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول ـ والحسين بن علي في حجره ـ : إنّ ابني هذا يقتل بأرض في العراق ، ألا فمن شهده فلينصره » .

وبقي أنس حتى أدرك واقعة كربلاء واستشهد في نصرة الحسين (عليه السلام) .

يقول المؤلّف : يقول البعض : إنّ حبيب بن مظاهر ، ومسلم بن عوسجة ، وهانيء بن عروة ، وعبد الله بن يقطر كانوا من صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

وقد جاء في شرح قصيدة أبي فراس أنّ جابر بن عروة الغفاري ـ وكان شيخاً مسناً ـ وقد تشرّف بصحبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، كما شهد بدراً وحنيناً ـ جاء يوم عاشوراء لنصرة الحسين (عليه السلام) ، فشدّ حزامه بعمامته ، وربط حاجبيه بمنديل ، وكانا قد طالا ونزلا على عينيه بحكم تقدّمه بالسنّ ، فرآه الإمام الحسين (عليه السلام) فقال له : « شكر الله سعيك يا شيخ » ، ثم حمل على القوم وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل منهم ستّين نفراً ، ثم استشهد ، رحمة الله عليه ورضوانه .

استشهاد سعيد بن عبد الله الحنفيّ

جاء في الرواية أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) دعا زهير بن القين وسعيد بن عبد الله فقال : تقدّما أمامي حتى أصلّي الظهر ، فتقدّما أمامه في نحوٍ من نصف أصحابه حتى صلّى بهم صلاة الخوف ، بينما كان النصف الآخر يدفع القوم عنه .

وروي أنّ سعيد بن عبد الله الحنفيّ تقدّم أمام الحسين (عليه السلام) فاستهدف له يرمونه بالنبل ، فكلّما أخذ الحسين (عليه السلام) يميناً وشمالاً قام بين يديه ، فما زال يتلقّى النبل حتّى أثخن بالجراح وسقط إلى الأرض ، وهو يقول :

اللهمّ العنهم لعن عاد وثمود ، اللهمّ أبلغ نبيّك عنّي السلام ، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح ، فإنّي أردت بذلك نصرة ذرّيّة نبيّك » .

ثمّ مات رضوان الله عليه ، فوجد به ثلاثة عشر سهماً ، سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح .

وقال ابن نما : وقيل : صلّى الحسين (عليه السلام) وأصحابه فرادى بالإيماء .

يقول المؤلّف : إنّ سعيد بن عبد الله كان من وجوه شيعة الكوفة ، مقداماً عابداً وقد

عرفت في ما تقدّم أنّه بعث هو وهانيء بن هانيء السبيعي كتاباً إلى الإمام الحسين (عليه السلام) مع رسولين من أهل الكوفة يسألانه المسير من مكّة إليهم ، وأنّهما كانا آخر رسل أهل الكوفة إليه ، كما عرفت كلماته ليلة عاشوراء حين أذن (عليه السلام) لأصحابه بالانصراف ، وكلّ هذا جاء في المقاتل وفي الزيارة المشتملة على أسماء الشهداء .

وفي سعيد هذا ، وفي مواساة الحرّ وزهير بن القين يقول عبيد الله بن عمرو البدّيّ الكنديّ :

سعيد بن عبد الله لا تنسينّه	ولا الحرّ إذ آسى زهيراً على قسر
فلو وقفت صمّ الجبال مكانهم	لمارت على سهل ودكّت على وعر
فمن قائم يستعرض النبل وجهه	ومن مُقدم يلقى الأسنّة بالصدر

حشرنا الله معهم في المستشهدين ، ورزقنا مرافقتهم في أعلى علّيّين .

استشهاد زهير بن القين

يقول الراوي : وخرج زهير بن القين إلى الحرب وهو يقول :

أنا زهير وأنا ابن القين	أذودكم بالسيف عن حسين
إنّ حسيناً أحد السبطين	أضربكم ولا أرى من شين

ثم اندفع بين القوم كما الصاعقة المحرقة ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، حتّى قتل على رواية محمّد بن أبي طالب مئة وعشرين رجلاً ، فشدّ عليه كثير بن عبد الله الشعبيّ ، والمهاجر بن أوس التميميّ فقتلاه ، فوقف عليه الحسين (عليه السلام) وقال :

« لا يبعدنّك الله يا زهير ، ولعن قاتلك لَعْن الذين مُسخوا قردة وخنازير » .

يقول المؤلّف : إن جلال شأن زهير أعظم من أن يوصف ، ويكفي في هذا المقام أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) جعله على ميمنته يوم عاشوراء ، ودعاه عند الصلاة مع سعيد بن عبد الله ليقوما دونه يقيانه بنفسيهما ، وقد سبق احتجاجه على القوم ، كما مرّ الحديث عن إقدامه وشجاعته مع الحرّ ، إلى غير ذلك مّما يتعلّق به .

استشهاد نافع بن هلال

نافع بن هلال بن نافع بن جمل كان أحد أبطال الحسين (عليه السلام) ، كان يرمي بسهام مسمومة كتب اسمه عليها ، وقد برز وهو يقول :

أرمي بها معلمة أفواقها مسمومة تجري بها أخفاقها[1]
ليملأنّ أرضها رشاقها[2] والنفس لا ينفعها إشفاقها

فلم يزل يرميهم حتى فنيت سهامه ، ثمّ جرّد سيفه ، فحمل به على القوم وهو يقول :

أنا الغلام اليمنيّ الجملي ديني على دين حسين وعلي
إن أقتل اليوم فهذا أملي فذاك رأيي ، والاقي عملي

فقتل اثني عشر رجلاً ، وفي رواية سبعين ، سوى المجروحين ؛ فأحاطوا به حتّى كسروا عضديه ، وأخذوه أسيراً .

يقول الراوي : فأمسكه الشمر ومعه أصحابه يسوقونه إلى عمر بن سعد ، والدماء تسيل على وجهه ولحيته ، فقال له ابن سعد : ويحك يا نافع ، ما حملك على ما صنعت بنفسك ؟ فقال : إنّ ربيّ يعلم ما أردت ، وما ألوم نفسي على الجهد ، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني .

فقال الشمر لابن سعد : أقتله أصلحك الله ، فقال له : أنت أتيت به ، فاقتله إذا شئت ، فانتضى الشمر سيفه ليقتله ، فقال له نافع :

« أما والله يا شمر ، لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا ، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يد شرار خلقه » .

ثم ضرب الشمر اللعين عنقه .

هذا وممّا يجب معرفته أنّه ورد في بعض كتب المقاتل اسم هلال بن نافع بدلاً من هذا الرجل الكبير ، وأظنّ أن كلمة نافع سقطت من أوّل اسمه لتكرار نافع ، وكان نافع سيّداً في قومه شريفاً مقداماً ، وقد عرفتَ سابقاً أنّه التحق بالحسين (عليه السلام) في الطريق ، وكان دليله الطرمّاح ، والتحق معه المجمّع بن عبد الله وآخرون ؛ وكان فرس نافع واسمه (الكامل) معهم يقودونه .

وينقل الطبريّ أنّه لمّا اشتدّ العطش على الحسين وأصحابه دعا العبّاس أخاه فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً ، وبعث معهم بعشرين قربة ؛ فجاؤوا ـ يتقدّمهم باللواء نافع بن هلال الجمليّ ـ حتى دنوا من الماء ليلاً ، فقال عمرو بن الحجّاج (وهو موكل بالشريعة) : من

---

(١) الأخفاق : الصرع ، يقال : أخفق زيد عَمْراً في الحرب ، أي : صرعه ، فكأنّ النبل يجري بها الصرع .
(٢) الرشاق : جمع رشيق ، وهو السهم اللطيف .

الرجل ؟ قال : أنا نافع بن هلال ، قال : مرحباً بك يا أخي ، ما الذي جاء بك ؟ قال نافع : جئنا نشرب من الماء الذي حلأتمونا عنه ، قال : فاشرب هنيئاً ، قال : لا والله ، لا أشرب قطرة وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه ، فطلعوا عليه ، فقال : لا سبيل إلى سقي هؤلاء ، إنّما وُضعنا في هذا المكان لنمنعهم الماء .

قال نافع لرجاله : املأوا قربكم ، فملأوا قربهم ، وثار إليهم عمرو بن الحجّاج وأصحابه ، فحمل عليهم العبّاس بن عليّ ونافع بن هلال فكفّوهم ، ثمّ انصرفوا إلى رحالهم ، فقال : امضوا ، ووقفوا دونهم حتى انصرفوا بالماء إلى الحسين (عليه السلام) .

ونافع بن هلال هو القائل لسيّد الشهداء (عليه السلام) :

« وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا نوالي من والاك ، ونعادي من عاداك » .

استشهاد عبد الله وعبد الرحمن الغفاريّين

لمّا رأى أصحاب الحسين (عليه السلام) أنّهم كثُروا ، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسيناً ولا أنفسهم ، تنافسوا في أن يُقتَلوا بين يديه ، فجاءه عبد الله وعبد الرحمن ابنا عروة الغفاريّ فقالا : يا أبا عبد الله ، عليك السلام ، حازنا العدوّ إليك فأحببنا أن نُقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك ، قال : مرحباً بكما ، ادنوا منّي ، فدنوا منه فجعلا يقاتلان قريباً منه ، وعبد الرحمن يقول :

قد علمتْ حقّاً بنو غفار وخندفٌ بعد بني نزار
لنضربنّ معشر الفجّار بكلّ عضب صارم بتّار
يا قوم ذودوا عن بني الأحرار بالمشرفيّ والقنا الخطّار

فما زالا يقاتلان حتّى قتلا .

سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع

وهما ابنا عمّ ، وأخوان لأمّ ، أتيا الحسين (عليه السلام) وهما يبكيان ، فقال لهما : أي ابني أخي ، ما يبكيكما ؟ فوالله إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين ، قالا : جعلنا الله فداك ، لا والله ما على أنفسنا نبكي ، ولكنّا نبكي عليك ، نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن ندفع عنك ؛ فقال : « جزاكما الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك ، ومواساتكما إيّاي بأنفسكما أحسن جزاء المتّقين » .

فودّعاه ، وقاتلا حتّى قتلا .

استشهاد حنظلة بن أسعد الشبامي

وجاء حنظلة بن أسعد فوقف بين يدي الحسين (عليه السلام) يقيه السهام والرماح والسيوف بوجهه ونحره ، وأخذ ينادي :

﴿ يا قوم ، إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد * ويا قوم إنّي أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب **﴿ وقد خاب من افترى ﴾** .

ووفقاً لبعض المقاتل فإن الحسين (عليه السلام) قال له :

« رحمك الله يا بن أسعد ، إنّهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحقّ ، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين »!

قال : صدقت جعلت فداك ، أفلا نروح إلى ربّنا فنلحق بإخواننا ؟

فقال له : رح إلى ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ، وإلى ملك لا يبلى .

فقال : السلام عليك يا بن رسول الله ، صلّى الله عليك وعلى أهل بيتك وجمع بيننا في جنّته .

قال : آمين ، آمين .

ثمّ استقدم فقاتل قتالاً شديداً ، فحملوا عليه فقتلوه ، رضوان الله عليه .

يقول المؤلّف : كان حنظلة وجهاً من وجوه الشيعة وشجعانهم ، وكان يعدّ من الفصحاء ، ويقال له الشباميّ نسبة إلى شبام ، وبنو شبام بطن من همْدان .

استشهاد شوذب وعابس

لمّا عزم عابس بن أبي شبيب الشاكريّ الهمْدانيّ على الفوز بسعادة الشهادة أقبل ومعه شوذب مولى شاكر ، أي حليفهم ، كان شوذب هذا من رجال الشيعة الأوائل ومن الفرسان المعدودين ، وكان حافظاً للحديث وحاملاً له ، وروي أنّه كان يقيم مجلساً يفد الشيعة إليه ويأخذون عنه ، وكان رحمه الله وجهاً فيهم .

قال عابس لشوذب : يا شوذب ، ما في نفسك أن تصنع ؟ قال : أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله حتّى أقتل ، فقال له عابس :

« ذلك الظنّ بك ، تقدّم بين يدي أبي عبد الله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه ، فإنّ هذا يوم نطلب فيه الأجر بكلّ ما نقدر عليه ، فإنّه لا عمل بعد اليوم ، وإنّما هو الحساب » .

فتقدّم شوذب إلى الحسين (عليه السلام) فسلّم عليه ، وقاتل بين يديه حتى قتل ، رحمة الله ورضوانه عليه .

قال الراوي : ووقف عابس بعد ذلك أمام الحسين (عليه السلام) وقال :

« يا أبا عبد الله ، والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ ولا أحبّ إليّ منك ، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلت ، السلام عليك يا أبا عبد الله ، أشهد الله أنّي على هداك وهدى أبيك » .

ثمّ مشى نحو القوم مصلتاً سيفه وبه ضربة على جبينه .

قال ربيع بن تميم ، وهو أحد عساكر ابن سعد : فلمّا رأيت عابساً مقبلاً عرفته وقد كنت شاهدته في المغازي ، وكان أشجع الناس ، فقلت :

أيّها الناس ، هذا أسد الأسود ، هذا عابس بن أبي شبيب ، لا يخرجنّ إليه أحد منكم !

وراح عابس يجول كالشعلة وهو ينادي : ألا رجلٌ لرجل ؟ فلم يجرؤ أحد على الخروج إليه ، ولمّا رأى ابن سعد هذا قال : ارضخوه بالحجارة من كلّ جانب . فرضخوه ؛ فلمّا رأى عابس ذلك ألقى درعه ومغفره ، ثم شدّ على الناس .

وكأنّ حسّان بن ثابت يقول في هذا المقام :

يلقى الرماح الشاجرات بنحره	ويقيم هامته مقام المغفر
ما أن يريد إذا الرماح شجرنه	درعاً سوى سربال طيب العنصر
ويقول للطّرْف[1] اصطبر لشبا القنا	فهدمت ركن المجد إن لم تعقر

قال ربيع : فوالله رأيته يطرد أكثر من مئتين من الناس ، ثمّ إنّهم تعطّفوا عليه من كلّ جانب فقتل رضوان الله عليه ، فاحتزّوا رأسه ، وتنازع عدّة من الرجال في رأسه ، كلّ يقول : أنا قتلته ؛ فقال ابن سعد : لا تختصموا ، هذا والله لم يقتله إنسان واحد .

يقول المؤلّف : نُقل أنّ عابساً كان من رجال الشيعة رئيساً شجاعاً خطيباً ناسكاً متهجّداً ، وحديثه مع مسلم بن عقيل عند قدومه إلى الكوفة ، معروف وقد تقدّم .

---

(١) الطِّرْف : الفرس الكريم .

ويروي الطبري أنّ مسلماً كتب إلى الإمام الحسين (عليه السلام) ـ بعد بيعة أهل الكوفة له ـ يستقدمه ، وبعث بكتابه مع عابس

استشهاد أبي الشعثاء البهدلي

يقول الراوي : يزيد بن زياد البهدليّ ، ويقال له : أبو الشعثاء ، وكان رامياً مهدّفاً ، فجثا على ركبتيه بين يدي الحسين (عليه السلام) فرمى بمئة سهم ما سقط منها خمسة أسهم ، وكان كلّما رمى بسهم يقول : أنا بن بهدلة ، فرسان العرجلة ، والحسين (عليه السلام) يدعو له ويقول : « اللهمّ سدّد رميته ، واجعل ثوابه الجنّة » .

ثم جعل يرتجز ويقول :

أنا يزيد وأبي مهاصر أشجع من ليث بغيل[1] خادر
يا ربّ إنّي للحسين ناصر ولابن سعد تارك وهاجر

فلم يزل يقاتل حتى قتل .

يقول المؤلّف : ورد الشطر الثاني من البيت الأوّل كالآتي :

« ليث هصور في العرين خادر » .

وهذا لطيف لالتفاته إلى مقارنة هصور ومهاصر .

ويقول الفيروز آبادي : إنّ يزيد بن مهاصر كان من المحدّثين .

استشهاد جماعة من أصحابه (عليه السلام)

روي أنّ عمْرَ بن خالد الصيداويّ ، وجابر بن الحارث السلمانيّ ، وسعد مولى عمرو بن خالد ، ومجمّع بن عبد الله العائذيّ قاتلوا في أوّل القتال ، فشدّوا مقدمين بأسيافهم على الناس ، فلمّا وغلوا عطف عليهم الناس فأخذوا يحوزونهم وقطعوهم عن أصحابهم غير بعيد ؛ فحمل عليهم العبّاس بن عليّ فاستنقذهم ، فجاؤوا وقد جُرّحوا ، فلمّا دنا منهم عدوّهم أثناء الطريق شدّوا بأسيافهم فقاتلوا حتّى قُتلوا في مكان واحد ؛ رحمة الله عليهم .

وروي عن مهران الكاهليّ أنّه قال : شهدت كربلاء مع الحسين (عليه السلام) فرأيت رجلاً يقاتل قتالاً شديداً لا يحمل على قوم إلّا كشفهم ، ثمّ يرجع إلى الحسين (عليه السلام) فيرتجز ويقول :

---

(١) الغيل : الأجمة أو موضع الأسد .

أبشر هُـديـت الـرشـد تـلـقـى أحـمـدا في جـنّـة الـفـردوس تـرقـى صـعـدا

فقلت : من هذا ؟ فقالوا : أبو عمرة الحنظليّ ، ثمّ اعترضه عامر بن نهشل التيميّ فقتله واحتزّ رأسه .

يقول المؤلّف : قيل إنّ أبا عمرة اسمه زياد بن غريب ، وكان أبوه من الصحابة ، وقد أدرك هو رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان رجلاً متهجّداً كثير الصلاة ، شجاعاً ناسكاً .

استشهاد جون مولى أبي ذرّ

بـدر غـفـاريّ وشـمـس في الـسـمـاء روح المحبـة هـو ، وسـروٌ في العـلاء[1]

كـان جون مـولىً لأبي ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه ، وكـان عبداً أسـود صحب الحسين (عليه السلام) ، ولمّا جاء يستأذنه في البراز قال له (عليه السلام) : « يا جـون ، أنت في إذن منّي ، إنّما تبعتنا طلباً للعافية ، فلا تبتل بطريقنا » .

فقال : « يا بن رسول الله ، أنا في الرخاء ألحق قصاعكم ، وفي الشدّة أخذلكم ! والله إنّ ريحي لنتن ، وإنّ لـوني لأسود ، فتنفّس عـليّ بـالجنّـة ليـطيب ريحي ، ويشرف حسبي ، ويبيضّ لوني ، لا والله لا أفارقكم حتّى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم[2] » .

فأذن له الحسين (عليه السلام) فبرز إلى القتال وهو يقول :

كـيـف يـرى الـكـفّـار ضرب الأسـود بـالـسـيـف ضربـاً عـن بـني محـمّـد
أذبّ عـنـهـم بـالـلـسـان والـيـد أرجـو بـه الجـنّـة يـوم المـورد

ولم يزل يقاتل حتى قتل خمسة وعشرين رجلاً ، ثم قتل ، رحمة الله عليه .

وجاء في بعض المقاتل أنّ الحسين (عليه السلام) وقف عليه وقال :

« اللهمّ بيّض وجهه ، وطيّب ريحه ، واحشره مع الأبرار ، وعرّف بينه وبين محمّد آل محمّد » .

وروي عمّن حضر لدفن القتلى أنّهم وجدوا جسد جون ـ بعد عشرة أيّام ـ تفوح منه رائحة طيّبة أذكى من المسك ، رضوان الله عليه .

---

(١) تعريب بيت بالفارسيّة (المعرب) .

(٢) عـن حمـاكـم كـيـف أنصرف وهـواكـم لي بـه شرف
سـيّـدي لا عـشـت يـوم أرى في سـوى أبـوابـكـم أقـف

استشهاد الحجّاج بن مسروق

وكان مؤذّن الإمام الحسين (عليه السلام) ، برز إلى القتال وهو يقول :

أقدم حسين هادياً مهدياً اليوم ألقى جدّك النبيّا
ثمّ أباك ذا الندى عليّا ذاك الذي نعرفه وصيّا

وقاتل حتى قتل خمسة وعشرين رجلاً ، ثم قتل رحمة الله عليه .

استشهاد غلام قُتل أبوه

قالوا : كان في عسكر الحسين (عليه السلام) غلام قُتل أبوه في الحملة الأولى ، فقالت له أمّه : يا بنيّ ، اخرج وقاتل بين يدي ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فخرج الغلام واستأذن الحسين (عليه السلام) في القتال ، فأبى الحسين (عليه السلام) أن يأذن له وقال : هذا غلام قُتل أبوه ، ولعلّ أمّه تكره خروجه ، فقال الغلام : إنّ أمّي هي التي أمرتني بذلك ، فأذن له ، فبرز إلى القتال وهو يقول :

أميري حسين ونعم الأمير سرور فؤاد البشير النذير
عليّ وفاطمة والدا ه فهل تعلمون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى له غرّة مثل بدر منير

وقاتل فما أسرع أن قُتل ، واحتُزّ رأسه ورمي به إلى جهة معسكر الحسين (عليه السلام) ، فأخذت أمّه الرأس وضمّته إلى صدرها وقالت : أحسنت يا بنيّ ، يا سرور قلبي ويا قرّة عيني .

ثم رمت بالرأس غاضبة رجلاً من جيش العدوّ فقتلته ، وعادت إلى المخيّم فانتزعت عمود خيمة ، وحملت على القوم وهي تقول :

أنا عجوز سيّدي[1] ضعيفة خاوية بالية نحيفة
أضربكم بضربة عنيفة دون بني فاطمة الشريفة

وضربت رجلين بالعمود فقتلتهما ، فأمر الحسين (عليه السلام) بصرفها ودعا لها ، وردّها إلى المخيّم .

(١) جاء في بعض النسخ : عجوز في النساء ، بدل : سيّدي في النساء ، وهذا أنسب وأولى .

استشهاد غلام تركيّ

كان للحسين (عليه السلام) غلام تركيّ ، وكان في مرتبة عالية من الصلاح والسداد ، قارئاً للقرآن ، وفي يوم عاشوراء تقدّم للقتال وهو يقول :

البحر من طعني وضربي يصطلي والجوّ من سهمي ونبلي يمتلي
إذا حسامي في يميني ينجلي ينشقّ قلب الحاسد المبجّل

ثم حمل على القوم وقاتل فقتل جماعة كثيرة ، ويقول البعض إنه قتل سبعين رجلاً ، ثم سقط صريعاً ، فأتاه الحسين فاعتنقه وبكى عليه ، ففتح الغلام عينيه ورأى الحسين (عليه السلام) فتبسّم ثمّ فاضت نفسه والحسين واضع خدّه على خدّه .

استشهاد عمرو بن قرظة

وجاء عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاريّ الخزرجيّ ، ووقف أمام الحسين (عليه السلام) فاستأذنه في الخروج ثم أنشأ يقول :

قد علمت كتيبة الأنصار أنّي سأحمي حوزة الذمار[1]
ضرْب غلام غير نكس شارِ دون حسين مهجتي وداري

وأقبل عمرو يقاتل بكلّ الشوق حتّى قتل جماعة من القوم ، ووقف أمام الحسين (عليه السلام) يقيه من العدّو ويتلقّى السهام بصدره ووجهه ، فلم يصل إلى الحسين سوء ، فلمّا كثرت فيه الجراح التفت إلى الحسين (عليه السلام) وقال له : أوفيت يا بن رسول الله ؟ قال الحسين (عليه السلام) : نعم ، أنت أمامي في الجنّة ، فاقرىء رسول الله عنّي السلام ، وأعلمه أنّي في الأثر .

ثمّ قاتل حتى قتل ، رضوان الله عليه .

يقول المؤلّف : قَرَظة أبو عمرو من كبار الصحابة ، ومن أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، كان رجلاً كفؤاً مقداماً ، اشترك مع أبي موسى في فتح الريّ سنة أربع وعشرين ، وفي صفّين أسند إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) راية الأنصار ، توفّي سنة إحدى وخمسين .

أنجب قرظة ولداً غير عمرو اسمه عليّ ، كان مع عسكر ابن سعد في كربلاء ، فلما شهد

---

(١) الذمار : ما يلزم حمايته وحفظه والدفاع عنه ، يقال : حامي الذمار لمن يقوم بذلك ، والحوزة : تعني الناحية ، وحوزة المملكة : ما بين تخومها.

مقتل أخيه صاح ينادي الحسين (عليه السلام) فقال : يا حسين ، يا كذّاب ابن الكذّاب ، أضللت أخي وغررته حتّى قتله ، فأجابه (عليه السلام) قائلاً :

« إنّ الله لم يضلّ أخاك ، ولكنّه هدى أخاك وأضلّك » .

فقال عليّ : قتلني الله إن لم أقتلك ، إلاّ إن هلكت قبل وصولي إليك ، ثم حمل عليه فتلقّاه نافع بن هلال برمحه فصرعه أرضاً ، فحمل أصحاب ابن سعد فاستنقذوه ، ثم عولج فشفي .

كان عمرو بن قرظة رسول الإمام الحسين (عليه السلام) في مفاوضته مع ابن سعد ، وأراد (عليه السلام) أن يلقى ابن سعد ذات ليلة ، ويقال إنهما تلاقيا فدعاه الحسين (عليه السلام) إلى نصرته ، فاعتذر عمر أعذاراً منها أنّ داره ستهدم ، فقال له : أنا أبنيها لك ، قال : إذن تؤخذ ضياعي ، قال : أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز ، لكنّ عمر أبى .

وكان ما قاله عمرو بن قرظة وهو يرتجز يوم عاشوراء تعريضاً بابن سعد في ذلك إذ قال : « دون حسينٍ مهجتي وداري » ، ومراده الإشارة إلى مخاوف ابن سعد من هدم داره ، فقال عمرو إن روحي وداري فداء للحسين (عليه السلام) .

استشهاد سُويد بن عمرو

تقدّم سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعميّ ، وكان شريفاً كثير الصلاة ، فقاتل قتال الأسد الباسل ، وبالغ في الصبر على الخطب النازل ، حتّى سقط بين القتلى وقد أثخن بالجراح ، فلم يزل كذلك حتى سمعهم يقولون : قُتل الحسين ، فتحامل وأخرج سكيناً من خفّه ، وجعل يقاتل حتّى قتل ، قتله عروة بن بكّار التغلبيّ وزيد بن ورقاء .

وكان سويد هذا آخر من استشهد من أصحاب الحسين (عليه السلام) ، رحمة الله ورضوانه عليهم أجمعين ، وأشركنا معهم إله الحقّ ، آمين .

يقول أرباب المقاتل : كان كلّ من أراد القتال من أصحاب الحسين (عليه السلام) يأتيه فيودّعه ويقول : السلام عليك يا بن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فيجيبه الحسين : وعليك السلام ، ونحن في الأثر ، ويقرأ : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلاً** ﴾ .

في استشهاد فتيان بني هاشم

ولمّا قتل أصحاب الحسين (عليه السلام) ، ولم يبق إلاّ أهل بيته فتيان بني هاشم ، وهم

وُلد أمير المؤمنين (عليه السلام) وولد جعفر وعقيل ، وولد الإمام الحسن (عليه السلام) وولد الحسين (عليه السلام) اجتمعوا يودّع بعضهم بعضاً ، وعزموا على الحرب وملاقاة الحتوف ببأس شديد ونفوس أبيّة .

استشهاد أبي الحسن عليّ بن الحسين سلام الله عليهما : أمّه ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي ؛ وكان عروة بن مسعود أحد السادات الأربعة في الإسلام ، ومن العظماء المعروفين ، وقيل هو مثل صاحب ياسين وأشبه الناس بعيسى ابن مريم .

وعليّ الأكبر (عليه السلام) كان فتى جميل الصورة ، طلق اللسان ، صبيح الوجه ، حسن السيرة والخلقة ، أشبه الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أخذ الشجاعة عن عليّ المرتضى (عليه السلام) وجمع المحامد والمحاسن .

يروي أبو الفرج عن المغيرة أنّ معاوية قال ذات يوم من أيّام ملكه : من أحقّ الناس بهذا الأمر (يريد الخلافة ؟) قالوا : أنت ، قال : لا ، أولى الناس بهذا الأمر عليّ بن الحسين بن عليّ ، جدّه رسول الله ، وفيه شجاعة بني هاشم ، وسخاء بني أمية ، وزهو ثقيف .

وإجمالاً فلمّا عزم على القتال ، أقبل مستأذناً أباه ، فأذن له ؛ فلمّا تقدّم إلى الميدان نظر إليه أبوه نظر آيس منه ، وبكى ، ورفع شيبته إلى السماء وقال :

اللهمّ اشهد على هؤلاء القوم ، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك ، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجهه ، اللهمّ امنعهم بركات الأرض ، وفرّقهم تفريقاً ، ومزّقهم تمزيقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ، ولا تُرضِ الولاة عنهم أبداً ؛ فإنّهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا يقاتلوننا » .

ثمّ صاح بابن سعد : « ما لَكَ ؟ قطع الله رحمك ، ولا بارك الله لك في أمرك ، وسلّط عليك من يذبحك بعدي على فراشك ، كما قطعت رحمي ، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله » .

ثمّ رفع صوته وتلا : **﴿ إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرّيّة بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾** .

ثمّ إنّ عليّاً الأكبر (عليه السلام) توجّه نحو القوم ، وجلا عليهم كالشمس الضاحية بطلعته التي تذكّر بطلعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

لمّا بدا بين الصفوف وكبّروا ذكروا بطلعته النبيّ فهلّلوا
يومي إليه بها وعين تنظر فافتنّ فيه الناظرون فإصبع

وشدّ عليهم شدّة الليث الغاضب وهو يرتجز ويقول :

أنا علي بن الحسين بن علي نحن - وبيت الله - أولى بالنبي
أضربكم بالسيف حتّى ينثني ضرب غلام هاشميّ علوي
ولا أزال اليوم أحمي عن أبي تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وشدّ على القوم ، فكان أينما دار ضرب منهم ، حتّى قتل منهم مقتلة عظيمة ، فضجّ الناس من كثرة من قتل منهم ، وروي أنّه قتل مئة وعشرين رجلاً .

واشتدّ به العطش من حرارة الشمس ، وثقل السلاح وكثرة الجراح ، فرجع إلى أبيه فقال : يا أبه ، العطش قد قتلني ، وثقل الحديد أجهدني ، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوّى بها على الأعداء ؟

فبكى الحسين (عليه السلام) وقال : واغوثاه ! قاتل قليلاً ، فما أسرع ما تلقى جدّك رسول الله ، فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً .

وفي رواية أخرى أنّه قال له : يا بنيّ ، هات لسانك ، فأخذ لسانه فمصّه ، ودفع إليه خاتمه ، وقال : أمسكه في فيك وارجع إلى قتال عدوّك ، فإنّي أرجو أنّك لا تمسي حتّى يسقيك جدّك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً .

فرجع إلى القتال آيساً من الحياة عازماً على الموت وهو يقول :

الحرب قد بانت لها الحقائق وظهرت من بعضها مصادق
والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تغمد البوارق

وجعل يقاتل أشدّ قتال ، حتّى قتل من القوم ثمانين رجلاً ، ثمّ ضربه مرّة بن منقذ العبديّ على مفرق رأسه ضربة صرعته ، وفي رواية أنّ مرّة بن منقذ لمّا رأى عليّاً (عليه السلام) يشتدّ ويرتجز قال : عليّ لعنة العرب إن جازني هذا الغلام إلاّ أثكلت عليه أباه ، فلمّا مرّ (عليه السلام) بمرّة اللعين في حملته طعنه بالرمح فصرعه ، وفي الرواية المتقدّمة : ثم ضربه الناس بأسيافهم ، فاعتنق فرسه من فرط الجهد ، فاحتمله الفرس إلى معسكر الأعداء فقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً .

وقال أبو الفرج : وجعل يكرّ كرّة بعد كرّة حتى رُمي بسهم فوقع في حلقه فخرقه ، وأقبل يتقلّب في دمه ، فلمّا بلغت الروح التراقي قال رافعاً صوته :

« يا أبتاه ، عليك منيّ السلام ، هذا جدّي رسول الله يقرئك السلام ، ويقول : عجّل القدوم إلينا » .

وفي رواية أخرى أنه نادى :

« يا أبتاه ، هذا جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً ، وهو يقول : العجل العجل ، فإنّ لك كأساً مذخورة حتّى تشربها الساعة » .

ثم إنّ الحسين (عليه السلام) أتاه ، وفي رواية السيّد ابن طاوس : وضع خدّه على خدّه وقال :

« يا بنيّ ، قتل الله قوماً قتلوك ، ما أجرأهم على الله وعلى رسوله ، وعلى انتهاك حرمة الرسول » .

وانهملت عيناه بالدموع وهو يقول : « يا بني ، على الدنيا بعدك العفاء » .

يقول الشيخ المفيد (ره) : وخرجت زينب ابنة عليّ مسرعة ، وهي تندب ابن أخيها حتى وصلت إليه فانكبّت على وجهه ، فأتى الحسين (عليه السلام) فرفع رأسها عن جسده ، وأخذ بيدها وردّها إلى الفسطاط ؛ ثم قال لفتيان بني هاشم : احملوا أخاكم ، فحملوه من مصرعه وجاؤوا به إلى الفسطاط الذي كانو يقاتلون أمامه .

يقول المؤلّف : وقع اختلاف بشأن عليّ الأكبر (عليه السلام) في ناحيتين :

الأولى : في ترتيب استشهاده ، فالشيخ المفيد والسيّد ابن طاوس والطبري وابن الأثير وأبو الفرج وغيرهم ذكروا أنّ أوّل شهيد من أهل البيت (عليهم السلام) هو عليّ الأكبر ، ويؤيد قولهم زيارة الشهداء المعروفة ، وفيها : « السلام عليك يا أوّل قتيل من نسل خير سليل » ، وغير أنّ بعض أرباب المقاتل يرون أنّ أوّل شهيد من أهل البيت هو عبد الله بن مسلم ، وأن استشهاد عليّ الأكبر يأتي في أواخر من استشهد منهم .

الثانية : في سنّه عند استشهاده ، هل كان في الثامنة عشرة أم في التاسعة عشرة ؟ وهل كان أصغر من الإمام زين العابدين (عليه السلام) أم أكبر ، وكان في الخامسة والعشرين ؟

هناك اختلاف في أقوال فحول العلماء في هذا الصدد ، وقد أشرنا في موضع آخر إلى هذا الاختلاف ، كما أشرنا إلى ما اخترناه فيه ، وفي كلّ تقدير فمن المسلّم به أنه قضى عمره الشريف زاهداً ناسكاً ، يطعم المساكين ويكرم الوافدين ، وكان ذا سعة في الخلق وتوسعة في الرزق ، حتى قيل فيه :

لم تر عين نظرت مثله   من محتف يمشي ولا ناعل

(الأبيات)

ويُقرأ في زيارته :

« السلام عليك أيّها الصدّيق ، والشهيد المكرّم ، والسيّد المقدّم ، الذي عاش سعيداً ، ومات شهيداً ، وذهب فقيداً ، فلم تتمتّع من الدنيا إلاّ بالعمل الصالح ، ولم تتشاغل إلاّ بالمتجر الرابح » .

وكيف لا يكون هذا الفتى كذلك وهو أشبه الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وهو من تلقّى الأدب عن سيّدي شباب أهل الجنّة ، كما توحي بذلك هذه العبارة من الزيارة المرويّة المعتبرة : « السلام عليك يا بن الحسن والحسين » .

ثمّ ، هل كانت أمّه في كربلاء أم لم تكن ؟ الظاهر أنّها لم تكن ، فأنا لم أعثر على شيء من هذا في الكتب المعتبرة .

أمّا ما هو مشهور ـ من أنه بعد خروجه إلى الميدان ، توجّه أبوه إلى أمّه ليلى وطلب منها أن تخلو بنفسها . فتدعو له ، لأنه سمع من جدّه أن دعاء الأم لابنها مستجاب الخ ـ فهو ـ بقول شيخنا ـ باطل كلّه .

استشهاد عبد الله بن مسلم بن عقيل (ره) : يقول محمّد بن أبي طالب : أوّل من برز من أهل بيت الحسين (عليه السلام) عبد الله بن مسلم ، وهو يرتجز ويقول :

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وفتية بادوا على دين النبي

ليسوا بقوم عُرفوا بالكذب لكن خيار وكرام النسب

من هاشم السادات أهل النسب

فقاتل حتى قتل ثمانية وتسعين رجلاً ، ثمّ قتله رحمة الله عليه عمرو بن صبيح .

وقال أبو الفرج : أمّه رقيّة بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويروي الشيخ المفيد والطبريّ أن عَمْر بن صبيح رمى عبد الله بسهم أصابه وهو واضع يده على جبينه فأثبته في راحته وجبهته ، فما استطاع أن يزيلها ، ثم حمل عليه لعين آخر برمحه فطعنه في قلبه فقتله .

يقول ابن الأثير : بعث المختار بجماعة لأخذ زيد بن رقاد ، وزيد هذا كان يقول : رميت فتى من أهل بيت الحسين اسمه عبد الله بن مسلم بسهم ، وكان واضعاً يده على جبهته ، فسمعته يقول : « اللهمّ إنّهم استقلّونا واستذلّونا ، فاقتلهم كما قتلونا » . ثم أصابه سهم آخر ، فأتيته فرأيته قد مات ، فانتزعت سهمي الذي أصابه في قلبه ، وأردت انتزاع السهم الذي وقع في جبهته فلم يطاوعني ، « ولم أزل أنتضض الآخر عن جبهته حتى أخذته وبقي النصل » .

وإجمالاً فقد جاء أصحاب المختار لأخذ زيد بن رقاد ، فخرج إليهم بسيفه ، فأمر ابنُ

كامل قائدُ المهاجمين رجاله أن لا يضربوه بسيف أو رمح ، بـل أن يرضخـوه بالحجـارة ويرمـوه بالسهام ، ففعلوا ، فسقط فأحرقوه حيّاً .

يقـول بعض المؤرخين : لما قتل عبد الله بن مسلم حمـل آل أبي طـالب حملة واحـدة ، فصاح الحسين (عليه السلام) : « صبراً على الموت يا بني عمومتي » . فلم يعودوا من الميـدان إلاّ وسقط منهم محمّد بن مسلم فقُتل ، وقاتله أبو مرهم الأزديّ ولقيط بن إياس الجهنيّ .

استشهاد محمّد بن عبد الله بن جعفر : ثم برز محمّد بن عبد الله بن جعفر إلى القتال وهو يرتجز ويقول :

أشكـوا إلى الله مـن العـدوان فعـال قـوم في الـردى عميـان
قـد بـدّلـوا معـالم القـرآن ومحكـم التـنـزيـل والتـبيـان
واظـهـروا الـكـفـر مـع الـطغيـان

فقتل عشرة أنفس ، ثم شدّ عليه عامر بن نهشل التميميّ فقتله .

يقـول أبو الفـرج : أمّه الخوصاء ابنة حفص من بكر بن وائـل ، وإلى شهـادتـه أشـار سليمان بن قِتّة في مرثيته إذ قال :

وسـمـيّ الـنـبـيّ غـودر فـيـهـم قـد عـلـوه بـصـارم مـصـقـول
فـإذا مـا بـكـيـتِ عـيـني فـجـودي بـدمـوع تـسـيـل كـلّ مـسـيـل

استشهاد عون بن عبد الله بن جعفر : قال الطبريّ : فاعتورهم الناس من كلّ جانب ، فحمل عبد الله بن قطنة الطائي ، ثمّ النبهانيّ على عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طـالب ، رضي الله عنهم .

وجاء في المناقب أن عوناً برز إلى القتال وهو يرتجز ويقول :

إن تـنـكـروني فـأنـا ابـن جـعـفـر شـهـيـد صـدق في الجـنـان أزهـر
يطير فـيـهـا بـجـنـاح أخضر كـفـى بـهـذا شرفـاً في المـحشر

وجعل يقاتل فقتل ثلاثة فـوارس وثمانيـة عشر راجلاً ، ثم حمـل عليه عبـد الله بن قطنـة فقتله .

يقول أبو الفرج : أمّه العقيلة زينب ابنة عليّ (عليه السلام) ابنة فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ؛ وإليه أشار سليمان بن قتّة في قوله :

وانـدبي إن بـكـيـت عـونـاً أخـاه لـيـس في مـا يـنـوبـهـم بـخـذول

فلعمري لقد أصيب ذوو القر ... بى فابكي على المصاب الطويل

وجاء في الزيارة التي زار بها المرتضى علم الهدى رحمه الله :

« السلام عليك يا عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، السلام عليك يا بن الناشيء في حجر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، والمقتدي بأخلاق رسول الله ، والذابّ عن حريم رسول الله صبيّاً ، والذائد عن حرم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مباشراً للحتوف ، مجاهداً بالسيوف ، قبل أن يقوى جسمه ، ويشتدّ عظمه ، ويبلغ أشدّه » . . إلى أن قال :

« فتقرّبتَ والمنايا دانية ، وزحفت والنفس مطمئنّة طيّبة ، تلقى بوجهك بوادر السهام ، وتباشر بمهجتك حدّ الحسام حتّى وفدت إلى الله تعالى بأحسن عمل . . » الخ .

ومن شهداء أهل البيت عليهم السلام : عبد الرحمن بن عقيل ، الذي حمل على القوم وهو يرتجز ويقول :

أبي عقيل فاعرفوا مكاني ... من هاشمٍ وهاشمٌ إخواني
كهول صدق سادة الأقران ... هذا حسين شامخ البنيان
وسيّد الشيب مع الشبّان

فقتل سبعة عشر فارساً ، ثمّ قتله ، رحمه الله ، عثمان بن خالد الجهنيّ .

يقول الطبريّ : أخذ المختار إلى البيداء اثنين شركا في دم عبد الرحمن بن عقيل وتركوه عرياناً ، فضرب عنقيهما ، ثمّ أحرقهما .

ثم برز بعده جعفر بن عقيل رحمه الله ، وهو يرتجز ويقول :

أنا الغلام الأبطحيّ الطالبيّ ... من معشر في هاشم من غالب
ونحن حقّاً سادة الذوائب ... هذا حسين أطيب الأطايب

وقاتل حتى قتل رجلين ، وعلى قول : خمسة عشر فارساً ، ثم قتله بشر بن حوط الهمدانيّ .

وبرز بعده عبد الله الأكبر بن عقيل ، فقتله عثمان بن خالد ورجل من همدان .

ثمّ محمّد بن مسلم بن عقيل رضي الله عنه ، وقتله أبو مرهم الأزديّ ولقيط بن أياس الجهنيّ بسهم فقتله .

ثمّ محمّد بن أبي سعيد بن عقيل رحمه الله ، رماه لقيط بن أياس الجهنيّ .

يقول المؤلف : بعد استشهاد عليّ الأكبر (عليه السلام) جاء ذكر استشهاد عبد الله بن مسلم بن عقيل ؛ غير أنّ من استشهد في نصرة الإمام الحسين (عليه السلام) من آل عقيل بلغوا بالروايات المعتبرة سبعة مع مسلم ، وكذلك عدّهم سليمان بن قتّة في مرثية الحسين (عليه السلام) إذ قال :

يا عين جودي بعبرة وعويل فاندبي إن بكيتِ آل الرسول
ستّة كلّهم لصلب عليّ قد أصيبوا وسبعة لعقيل

استشهاد القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام : عزم القاسم بن الحسن عليهما السلام على القتال فأقبل إلى عمّه يستأذنه ، نظر إليه الحسين (عليه السلام) فلم يملك نفسه دون أن تقدّم إليه واعتنقه ، وجعلا يبكيان حتى أنهما كما في رواية : غشي عليهما .

ثمّ إنّ القاسم استأذن عمّه في المبارزة ، فأبى أن يأذن له ، فلم يزل يتوسّل إليه ، ويقبّل يديه ورجليه حتّى أذن له ، فخرج ودموعه تسيل على خدّيه وهو يقول :

إن تنكروني فأنا ابن الحسن سبط النبيّ المصطفى والمؤتمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أناسٍ لا سُقوا صوب المزن

فقاتل قتالاً شديداً حتّى قتل على صغر سنّه خمسة وثلاثين رجلاً .

قال حميد بن مسلم : كنت في عسكر ابن سعد فخرج علينا غلام كأنّ وجهه شقّة قمر طالع ، وعليه قميص وإزار ، وفي رجليه نعلان انقطع شسع أحدهما ، ما أنسى أنّها كانت اليسرى ، فقال عمرو بن سعد الأزديّ : والله لأشدّنّ عليه ، فقلت ؛ سبحان الله ، وما تريد بذلك؟ فوالله لو ضربني ما بسطت إليه يدي ، يكفيه هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه ، فقال: والله لأفعلنّ.

فشدّ عليه ، فما ولّى حتّى ضرب رأس الغلام بالسيف ففلقه ، فوقع الغلام لوجهه وصاح : يا عمّاه ! فأتاه الحسين كالصقر المنقضّ ، وتخلّل الصفوف ، ثمّ شدّ شدّة الليث إذا غضب ، حتّى إذا وصل إلى عمرو اللعين ضربه بالسيف ، فاتّقاه عمرو بيده فأطنّها من المرفق ، فصاح صيحة عظيمة .

وحملت خيل أهل الكوفة ليستنقذوا عمْراً من الحسين ، فاستقبلته بصدورها ، ووطئته بحوافرها حتى مات .

فانجلت الغبرة ، فإذا بالحسين قائم على رأس الغلام ، وهو يفحص برجليه والحسين يقول :

« يعزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فـلا يعينك ، أو يعينـك فلا يغني عنك ، بعداً لقوم قتلوك ، هذا يوم والله كثر واتره ، وقلّ ناصره » .

ثمّ احتمله ، وكـأنّي أنظر إلى رجـلي الغلام تخـطّان في الأرض ، وقد وضـع صدره عـلى صدره ، فجاء به حتى ألقاه مع ولده عليّ والقتلى من أهل بيته ، ثمّ قال :

« اللهمّ أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغـادر منهم أحداً ، ولا تغفـر لهم أبداً » . ثم قال :

« صبراً يا بني عمومتي[1] ، صبراً يا أهل بيتي ، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً » .

لا يخفى أنّ قصة مصاهرة القاسم (عليـه السلام) في كـربلاء وتـزويجه من فـاطمة ابنـة الحسين (عليه السلام) لا صحّة لها ، ذلك أنّها لا وجـود لها في الكتب المعتـبرة ، وعلاوة عـلى ذلك ، فقد كانت للحسين (عليه السلام) بنتان كما ورد في الكتب المعتـبرة ، إحداهمـا سكينة وعنها يقول الشيخ الطبرسيّ : زوّجها سيّد الشهـداء من عبد الله ، وقـد استشهـد عبـد الله قبل الزفاف ؛ والثانية فاطمة ، وكانت زوجة للحسن المثنى الذي شهد كربلاء كما تقدّم القـول عند الحديث عن أحواله .

أمّـا إذا قيل ـ واستنـاداً إلى الكتب غير المعتـبرة ـ : إنـه كـانت لـلإمـام الحسين (عليـه السلام) فاطمة أخرى يقال لها فاطمة الصغرى ، وكانت في المدينة ، وأنـه (عليه السـلام) لم يستطع أن يعقد للقاسم بن الحسن عليها ، فالله تعالى هو العالم .

يقول الشيخ المتحدّث القدير ثقة الإسلام الحاج ميرزا حسين النوري ، نوّر الله مرقده ، في كتاب (اللؤلؤ والمرجان) :

« بمقتضى الكتب المعتمـدة السالفـة كافّـة ، المؤلّفة في فنّ الحـديث والأنساب والسـير لا يمكن العثور لسيّد الشهداء (عليه السلام) على بنت قابلة للتزويج وهي دون زوج ، ذلـك أنّه قُطع النظر ـ عن صحّة هذا الأمر ، وإنّ سقمه ـ كما تمّ نقل وقوعه ـ ممكن .

أمّا قصّة زبيدة وشهر بانو والقاسم الثاني في أرض الريّ وأطرافها ، والـدائرة عـلى ألسنة العوّام ، فهي من الخيالات الـواهية التي وضعت في ظهـر كتاب (رمـوز حمزة) وسـائر الكتب الموضوعـة ، والشواهـد على زيفهـا كثيرة ، وقـد اتّفق علماء الأنسـاب جميعهم أن القـاسم بن الحسن (عليه السلام) لم يعقب . انتهى كلامه ، رفع مقامه .

---

(١) بنو عمومته (ع) : بنو عقيل ومسلم ، وبنو جعفر ، وعبد الله بن جعفر .

يقول بعض أرباب المقاتل : وبعد مقتل القاسم (عليه السلام) خرج **عبد الله بن الحسن (عليه السلام)** وهو يقول :

إن تنكروني فأنا ابن حيدرة ضرغام آجام وليث قسورة
على الأعادي مثل ريح صرصرة أكيلكم بالسيف كيل السندرة[1]

ثم حمل على القوم فقتل أربعة عشر رجلاً ، ثمّ قتله هانىء بن ثبيت الحضرميّ ، فاسودّ وجهه .

قال أبو الفرج : كان أبو جعفر الباقر (عليه السلام) يذكر أن حرملة بن كاهل الأسديّ قتله .

يقول المؤلّف : ستتحدّث عن مقتل عبد الله ضمن الحديث عن مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) إن شاء الله تعالى .

ثمّ **أبو بكر بن الحسن (عليه السلام)** ، وأمّه أمّ ولد ، وكان أخاً شقيقاً للقاسم[2] ، وقد قتله عقبة الغنويّ ؛ وإلى هذا يشير سليمان بن قتّة في قوله :

وعند غنيّ قطرة من دمائنا وفي أسد أخرى تُعدّ وتُذكر

يقول المؤلّف : رأيت مكتوباً في بعض المشجّرات : أبو بكر بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قتل في الطفّ ، ولا عقب له ، وقد زوّجه الإمام الحسين (عليه السلام) ابنته سكينة ، ودمه في بني غنيّ .

استشهاد أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام)

لمّا رأى أبو الفضل العبّاس بن عليّ (عليهما السلام) كثرة القتلى في أهل بيته دعا إخوته عبد الله وجعفراً وعثمان بني أمير المؤمنين (عليه السلام) لأمّهم أمّ البنين ، وقال لهم :

« تقدّموا بنفسي أنتم فحاموا عن سيّدكم حتّى تموتوا دونه » .

فاستجاب إخوة أبي الفضل لدعوة أخيهم ، وأقبلوا جميعاً فوقفوا أمام الحسين (عليه السلام) وقدّموا أرواحهم وقاءً لروحه (عليه السلام) ، واستقبلوا السهام والرماح والسيوف بوجوههم وأعناقهم .

---

(١) السندرة : مكيال كبير .

(٢) قيل : يقال إنّ أمّ القاسم هي أمّ أبي بكر ، واسمها رملة .

« فحمل هانىء بن ثبيت الحضرميّ على عبد الله بن عليّ (عليه السلام) فقتله ، ثمّ حمل على أخيه جعفر بن عليّ (عليه السلام) فقتله أيضاً ، ورمى يزيد الأصبحيّ عثمان بن عليّ (عليه السلام) بسهم فقتله ، ثمّ خرج إليه فاحتزّ رأسه ؛ وبقي العبّاس بن علي قائماً أمام الحسين يقاتل دونه ، ويميل معه حيث مال حتّى قُتل سلام الله عليه » .

يقول المؤلّف : نقلت هذه الأسطر التي قيلت في مقتل أبناء أمير المؤمنين (عليه السلام) عن كتاب أبي حنيفة الدينوري الذي كان قد كتبه قبل أكثر من ألف سنة ، لكنّه جاء في المقاتل الأخرى أنّ عبد الله بن عليّ (عليه السلام) تقدّم وهو يقول :

أنا ابن ذي النجدة والإفضال ذاك عليّ الخير ذو الفعال
سيف رسول الله ذو النكال في كلّ يوم ظاهر الأهوال

ثمّ قاتل قتالاً شديداً حتّى قتله هانىء بن ثبيت الحضرميّ بعد أن اختلفا ضربتين ، ويقول أبو الفرج : كانت سنّه في ذلك اليوم خمساً وعشرين سنة .

ثمّ برز جعفر بن عليّ (عليه السلام) وهو يقول :

إنّي أنا جعفر ذو المعالي ابن عليّ الخير ذي النوال
حسبي بعمّي جعفر والخال أحمي حسيناً ذا الندى المفضال

فحمل عليه هانىء بن ثبيت فقتله ، ويقول ابن شهر آشوب : رماه خوليّ بن يزيد الأصبحيّ بسهم فأصاب شقيقته أو عينه فقتله ، ويروي أبو الفرج عن الباقر (عليه السلام) أنّ قاتل جعفر هو خوليّ .

ثمّ تقدّم عثمان بن عليّ (عليه السلام) إلى القتال وهو يقول :

إنّي أنا عثمان ذو المفاخر شيخي عليّ ذو الفعال الطاهر
هذا حسين سيّد الأخاير وسيّد الصغار والأكابر

وقاتل حتّى رماه خوليّ الأصبحيّ بسهم وقع في جبينه فسقط عن فرسه إلى الأرض ، فجاءه رجل من بني دارم فاحتزّ رأسه ؛ وكانت سنّه في ذلك اليوم إحدى وعشرين سنة ؛ وروي عن عليّ (عليه السلام) أنّه قال : « إنّما سمّيته باسم أخي عثمان بن مظعون » .

يقول المؤلّف : عثمان بن مظعون واحد من أجلاّء الصحابة الكبار ، ومن خاصّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان يحبّه كثيراً ، كان عظيم الجلالة ناسكاً زاهداً يصوم النهار ويقوم الليل ، وجلالة شأنه أعظم من أن تذكر ، توفّي في المدينة في ذي الحجّة من السنة الثانية من الهجرة ، ويقال إنّه أوّل مدفون في مقبرة البقيع ، ويروى أنّ الرسول (صلّى الله

عليه وآله) قام يقبّله بعد موته ؛ ولما توفّيَ إبراهيم ابنه (صلّى الله عليه وآله) قال : « والحقك بسلفك الصالح عثمان بن مظعون » .

يقول السيّد السمهوري في تاريخ المدينة : الظاهر أن بنات النبيّ (صلّى الله عليه وآله) جميعهنّ قد دفنّ حيث دفن عثمان بن مظعون ، ذلك أنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) وضع حجراً عند رأس عثمان بن مظعون بعد دفنه وقال ما مؤدّاه : بهذا الحجر أضع علامة لقبر أخي ، وأدفن عنده من يموت من بنيّ .

استشهاد أبي بكر بن عليّ (عليه السلام) : اسمه غير معلوم ، وأمّه ليلى ابنة مسعود بن خالد ، وجاء في (المناقب) أنه برز إلى القتال وهو يقول :

شيخي عليّ ذو الفخار الأطول	من هاشم الخير الكريم المفضل
هذا حسين ابن النبيّ المرسل	عنه نحامي بالحسام المصقل

تفديه نفسي من أخ مبجّل

وقاتل حتّى قتله زجر بن بدر ، وعلى قول : عقبة الغنويّ ، ويُنقل عن المدائنيّ أنّه وُجد مقتولاً في ساقية[1] لا يدرى من قتله .

ويروي السيد ابن طاوس أنّ الحسن المثنّى قاتل بين يدي عمّه الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء ، وقتل سبعة عشر رجلاً من الأعداء ، وأصيب بثماني عشرة جراحة ، وسقط على الأرض ، فأتى به أسماء بن خارجة ـ وكان قريبه لأمّه ـ إلى الكوفة فداواه فشفي ، ثمّ حمله إلى المدينة .

إستشهاد غلام من آل الحسين (عليه السلام) : قال أرباب المقاتل : إنّ غلاماً خرج من الفسطاط لمّا كان الإمام الحسين (عليه السلام) خارجاً ، وهو يضع قرطين من الدرّ في أذنيه ، وهو يلتفت يميناً وشمالاً حيران خائفاً ، وكان من هول الواقعة يرتجف مضطرباً ، وكان القرطان في أذنيه يتذبذبان كلّما التفت ، ثمّ وهو على هذه الحال من الذعر ـ حمل عليه اللعين هانىء بن ثبيت فقتله ، وقيل إنّ شهر بانو لمّا شهدت مصرعه وقفت لدهشتها لا تستطيع حراكاً ولا طلباً للنصرة .

ولكن لا يخفى أن شهر بانو هذه هي غير أمّ زين العابدين (عليه السلام) ، فتلك إنّما توفّيت أيام ولادته (عليه السلام) .

---

(١) الساقية : الجدول ، ويظهر أنّ المراد منه هنا نهر متفرّع عن الفرات لسقاية النخل .

وقد أورد الطبري قصة مصرع هذا الغلام بنحو أبسط ، ونحن ننقل هنا عباراته بعينها :

« روى أبو جعفر الطبري عن هشام الكلبيّ ، قال : حدّثني أبو هُذيل ـ رجلٌ من السَّكون ـ عن هانيء بن ثبيت الحضرميّ ، قال : رأيته جالساً في مجلس الحضرميين في زمان خالد بن عبد الله وهو شيخ كبير ، فسمعته وهو يقول :

« كنت ممّن شهد قتل الحسين (عليه السلام) ، قال : فوالله إنّي لواقف عاشر عشرة ليس منّا رجل إلاّ على فرس ، وقد جالت الخيل وتصعصعت ، إذ خرج غلام من آل الحسين (عليه السلام) وهو ممسك بعود من تلك الأبنية ، عليه إزار وقميص ، وهو مذعور يلتفت يميناً وشمالاً ، فكأنّي أنظر إلى درّتين في أذنيه تذبذبان كلّما التفت ، إذ أقبل رجل يركض ، حتى إذا دنا منه مال عن فرسه ، ثمّ اقتصد الغلام فقطعه بالسيف .

قال هشام : قال السَّكونيّ : هانيء بن ثبيت هو صاحب الغلام ، فلمّا عُتب عليه كنّى عن نفسه » .

استشهاد أبي الفضل العبّاس (عليه السلام) : كان العبّاس (عليه السلام) أكبر أبناء امّ البنين ، والابن الرابع لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، يكنّى بأبي الفضل ، ويلقّب بالسقّاء[1] ، وكان صاحب لواء الإمام الحسين (عليه السلام) .

كان العبّاس رجلاً وسيماً جميلاً حتّى كان يدعى بقمر بني هاشم ، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطّان في الأرض لطوله ، كان أخاً من أب وأمّ لثلاثة إخوة وكانوا ثلاثتهم بلا عقب ، بعث بهم أبو الفضل أمامه حتّى يراهم قتلى ويحتسبهم .

ولمّا قتل إخوته الثلاثة على النحو الذي تقدّم جاء إلى أخيه الحسين (عليه السلام) يستأذنه ويسأله الرخصة في القتال ، فبكى الحسين بكاء شديداً وقال :

« يا أخي ، أنت صاحب لوائي ، وإذا مضيت تفرّق عسكري » .

فقال له العبّاس : « يا أخي ، قد ضاق صدري وسئمت الحياة ، وأريد أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين » .

---

(١) قال إبراهيم بن محمّد البيهقي أحد أعلام القرن الثالث في كتاب (المحاسن والمساويء) عند ذكر نزول الحسين (ع) وأصحابه كربلاء ما لفظه : «فنزلوا وبينهم وبين الماء يسير، قال: فأراد الحسين (عليه السلام) وأصحابه الماء فحالوا بينهم وبينه، فقال له شمر بن ذي الجوشن: لا تشربون أبداً حتى تشربوا من الحميم، فقال العبّاس بن علي (ع) للحسين (ع): ألسنا على الحقّ؟ قال: نعم، فحمل عليهم فكشفهم عن الماء حتّى شربوا واستقوا.

فقال الحسين (عليه السلام) : إذا فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء .

فذهب العبّاس إلى القوم ووعظهم وحذّرهم غضب الجبّار ، وطلب منهم شيئاً من الماء للأطفال ، فلم ينفعهم وعظه ، فرجع إلى أخيه وأخبره ، فسمع الأطفال ذلك فراحوا ينادون : العطش ، العطش .

فركب فرسه وأخذ رمحه والقربة وقصد الفرات ، فأحاط به أربعة آلاف ممّن كانوا موكّلين بالفرات ، فرموه بالنبال ، فحمل عليهم وهو يرتجز ويقول :

لا أرهب الموت إذ الموت زقا[1] حتى أوارى في المصاليت[2] لقى
نفسي لنفس المصطفى الطهر وقا إنّي أنا العبّاس أغدوا بالسقا
ولا أخاف الشرّ يوم الملتقى

وكان لا يحمل على جانب منهم إلاّ كشفهم حتى قتل منهم ـ على ما روي ـ ثمانين رجلاً ، حتّى دخل الشريعة ، ثمّ اغترف من الماء غرفة وأدناها من فمه ليشرب ، فتذكّر ـ لشدّة عطشه وضرام كبده ـ عطش أخيه الحسين وأهل بيته ، فرمى الماء من يده ، ثمّ ملأ القربة وحملها على كتفه الأيمن ، وركب جواده وتوجّه نحو الخيام مسرعاً ليوصل الماء إلى العطاشى من الأطفال ، فأخذوا عليه الطريق وأحاطوا به من كلّ جانب ، فقاتلهم حتى كمن له نوفل الأزرق ـ وفي رواية : زيد بن ورقاء ـ خلف نخلة ، وأعانه حكيم بن الطفيل ، فضربه على يده اليمنى فقطعها ، فحمل القربة على كتفه الأيسر ، وأخذ السيف بشماله ، وحمل عليهم وهو يقول :

والله إن قطعتمُ يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبيّ الطاهر الأمين

وقاتل سلام الله عليه ، حتّى ضعف عن القتال ، فكمن له حكيم بن الطفيل وراء نخلة وضربه على شماله فقطعها من الزند ، فأنشأ يقول :

يا نفسي لا تخشي من الكفّار وأبشري برحمة الجبّار
مع النبيّ السيّد المختار قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلهم يا ربّ حرّ النار

---

(١) زقا : صاح ، تزعم العرب أنّ للموت طائراً يصيح ويسمّونه الهامة ، ويقولون : إذا قتل الإنسان ولم يؤخذ بثأره زقت هامته حتّى يثأر له .

(٢) المصاليت : جمع مصلات ، وتعني الرجل الشجاع المصلت سيفه .

أخذ القربة بأسنانه ، وجعل يسرع نحو المخيّم ، فجاء سهم فأصاب القربة فأريق ماؤها ، وجاءه سهم فأصاب صدره ، فسقط عن جواده .

عمّوه بالنبل والسمر العواسل والبيض الفواصل من فرق إلى قدم
فخرّ للأرض مقطوع اليدين له من كل مجد يمين غير منجذم

وصاح إلى أخيه الحسين : أدركني يا أخي ، وفي رواية المناقب : أن لعيناً ضربه بعمود حديدي على رأسه فقتله ، ولمّا سمع الحسين (عليه السلام) نداءه سارع إليه ، فإذا به يجده مثخناً بالجراح ، مقطوع اليدين ، فبكى وقال :

« الآن انكسر ظهري ، وقلّت حيلتي » .

وفي رواية أنّه أخذ ينشد :

تعدّيتمُ يا شرّ قوم ببغيكم وخالفتمُ دين النبيّ محمّد
أما كان خير الرسل وصّاكم بنا أما نحن من نسل النبيّ المسدّد
أما كانت الزهراء أمّي دونكم أما كان من خير البريّة أحمد
لعنتم وأخزيتم بما قد جنيتمُ فسوف تلاقون حرّ نار توقّد

ويروى في حديث عن الإمام السجّاد (عليه السلام) أنّه قال :

« رحم الله عمّي العبّاس ، لقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتّى قطعت يداه ،فأبدله الله عزّ وجل بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة ، وإنّ للعبّاس عند الله منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة » .

قالوا : وكان للعبّاس (عليه السلام) حين استشهد أربع وثلاثون سنة من العمر ، وكانت أمّ البنين تخرج إلى البقيع فترثي العبّاس وإخوته ، وتندبهم بأشجى ندبة وأحرقها ، فيجتمع لسماع رثائها أهل المدينة ، ويبكون لشجيّ الندبة ورقّة الرثاء ، وليس بكاؤهم بعجيب ، فهذا مروان بن الحكم ، العدوّ اللدود لأهل بيت النبوّة ، يبكي لبكائها .

ونقل من رثاء أم البنين لأبنائها قولها :

يا من رأى العبّاس كرّ على جماهير النقد
ووراه من أبناء حيدر كلّ ليث ذي لبد
أنبئت أنّ ابني أصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمال برأسه ضرب العمد

لو كان سيفك في يديك لما دنا منك أحد

ومن رثائها لهم أيضاً :

لا تدعوني ويك أمّ البنين تذكّريني بليوث العرين
كانوا بنون لي أدعى بهم واليوم أصبحت ولا بنين
اربعة مثل نسور الربى قد واصلوا الموت بقطع الوتين
يا ليت شعري أكما أخبروا بأنّ عبّاساً قطيع اليمين

هذا وسترد مراثٍ لأبي الفضل سلام الله عليه في فصل المراثي إن شاء الله تعالى ، ومن المناسب هنا إيراد بعض منها .

وما زال في حرب الطغاة مجاهداً إلى أن هوى فوق الصعيد مجدّلا
وقد رشقوه بالنبال وخرّقوا له قربة الماء الذي كان قد ملا
فنادى حسيناً والدموع هوايل أيا بن أخي[1] قد خاب ما كنتُ آملا
عليك سلام الله يا بن محمّد على الرغم منّي يا أخي نزلت البلا
فلمّا رآه السبط ملقى على الثرى يعالج كرب الموت والدمع أهملا
فجاء إليه والفؤاد مقرّح ونادى بقلب بالهموم قد امتلا
أخي كنت عوني في الأمور جميعها أبا الفضل يا من كنت للنفس باذلا
يعزّ علينا أن نراك على الثرى طريحاً ومنك الوجه أضحى مرمّلا

في مبارزات أبي عبد الله الحسين واستشهاده (عليه السلام)

ينقل عن بعض أرباب المقاتل أنّ الحسين (عليه السلام) لمّا بقي وحيداً ، ونظر إلى اثنين وسبعين من أصحابه وأهل بيته صرعى مجدّلين على وجه الأرض عزم على الموت وملاقاة الحتوف ، فجاء حتّى وقف بباب خيمة النساء مودّعاً مخدّرات الرسالة وعقائل النبوّة ونادى :

« يا سكينة ويا فاطمة ويا زينب ويا أمّ كلثوم عليكنّ منّي السلام » .

فقمن وأرسلن الدموع تلهّفاً وأسكنّ منه الذيل منتحبات
إلى أين يا بن المصطفى كوكب الدجى ويا كهف أهل البيت في الأزمات
فيا ليتنا متنا ولم نر ما نرى ويا ليتنا لم نمتحن بحياة
فمن لليتامى إذ تهدّم ركنهم ومن للعذارى عند فقد ولاة

---

(١) لعلّها : أيا بن أبي (المعرّب) .

فنادته سكينة : يا أبه ، أستسلمت للموت ؟

فقال : وكيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين ؟

فقالت : رُدّنا إلى حرم جدّنا رسول الله .

فقال : هيهات ! (لو تُرك القطا لنام) ، متمثّلاً بمضمون قول الشاعر :

لقد كان القطاة بأرض نجد   قرير العين لم تجد الغراما
تولّته البزاة فهيّمته   ولو تُرك القطا لغفا ونـاما

فارتفعت أصوات النساء بالبكاء ، فالتفت (عليه السلام) إلى أمّ كلثوم وقال :

« أوصيك يا أخيّة بنفسك خيراً ، وإنّي بارز إلى هؤلاء القوم » .

وداعه (عليه السلام) لأهل بيته : يقول المؤلّف : إنّ مصائب الإمام الحسين (عليه السلام) كلّها لها في القلب حرقة ، وفي العين دمعة ، لكنّ مصيبة الوداع لعلّها أشدّ تأثيراً وإيلاماً في النفس ، خاصّة وأن صغاره وأطفاله ، وبني قرباه ممّن كانوا منه بمنزلة أولاده (عليه السلام) ، كانوا يحيطون به جميعاً وهم يبكون ويعولون .

ويشهد على هذا ما روي من أنّ الحسين (عليه السلام) لمّا بلغ قصر بني مقاتل ورأى فسطاط عبد الله بن الحرّ الجعفي ، فبعث إليه الحجّاج بن مسروق يدعوه إليه ، فلم يستجب ، فمشى إليه (عليه السلام) بنفسه في جماعة من أهل بيته وصحبه .

وينقل عن عبيد الله بن الحرّ قوله : تقدم عليّ الحسين ولحيته كأنّها جناح غراب ، فما رأيت أحداً قطّ أحسن منه ، ولا أملأ للعين منه ، فما رققت على أحد رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله . انتهى .

كما يؤيد قولنا حكاية الميرزا يحيى الأبهريّ قال :

رأيت في منامي العلاّمة المجلسي (ره) في صحن سيّد الشهداء المطهّر ، في الطرف الأدنى عند باب قبّة الصفا ، وهو مشغول بالتدريس ، فبعد أن قال موعظة ، وأراد الشروع في الحديث عن المصائب أتاه شخص فقال : إنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تقول لك :

« اذكر المصائب المشتملة على وداع ولدي الشهيد » .

فأقبل المجلسيّ يتحدّث عن مصيبة الوداع ، وأخذ الناس يبكون بكاءً شديداً لم أر مثله عمري .

أقول : ورد في الرؤيا نفسها أن الحسين (عليه السلام) قال له :

« قولوا لأوليائنا وأمنائنا يهتمّون في إقامة مصائبنا » .

وصيّته لزين العابدين (عليه السلام) : هذا ويروى عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) دعا ابنته الكبرى فاطمة وأعطاها كتاباً مطوّياً ووصيّة ظاهرة ، وأنّ عليّ بن الحسين كان مريضاً ، فأخذت فاطمة الكتاب إليه ، وأعطته إيّاه ، ثمّ وصل إلينا (إلى الباقر (عليه السلام)) .

وجاء في (إثبات الوصيّة) أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) احضر عليّاً ابنه ، وكان عليلاً ، فأوصاه بالاسم الأعظم ومواريث الأنبياء عليهم السلام ، وأطلعه أنّ العلوم والصحف والمصاحف والسلاح التي هي من مواريث الأنبياء ، مودعة عند أمّ سلمة رضي الله عنها ، وأمره باستعادتها عند رجوعه .

وجاء في (دعوات الراوندي) عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) أنّه قال :

«ضمّني أبي إلى صدره في اليوم الذي قتل فيه ، والدماء تغلي ، وقال :

« أي بنيّ ، احفظ عنّي دعاء علّمتنيه فاطمة صلوات الله عليها ، وعلّمها إيّاه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) علّمه إيّاه جبرئيل ، من أجل الحوائج والمهمّات العظيمة والبلايا الشديدة إذا نزلت ، وقال له : قل :

« بحقّ ياسين والقرآن الحكيم ، وبحقّ طه والقرآن العظيم ، يا من يقدر على حوائج السائلين ، يا من يعلم ما في الضمير ، يا منفّساً عن المكروبين ، يا مفرّجاً عن المغمومين ، يا راحم الشيخ الكبير ، يا رازق الطفل الصغير ، يا من لا يحتاج إلى التفسير ، صلّ على محمّد وآل محمّد ، وافعل بي كذا وكذا » .

وجاء في (الكافي) أنّ الإمام زين العابدين (عليه السلام) ضمّ الباقر (عليه السلام) إلى صدره لمّا حضرته الوفاة وقال له :

أي بني ، أوصيك بما أوصاني به أبي لمّا حضرته الوفاة ، وقال : لقد أوصاني أبي فقال :

« يا بنيّ ، إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلّا الله » .

يقول الراوي : وعزم الحسين (عليه السلام) على الموت بنفسه المقدّسة ، فلمّا رآه ابنه زين العابدين (عليه السلام) وحيداً لا ناصر له خرج ـ وكان عليلاً لا يقدر على حمل سيفه لضعفه ـ فنادته أمّ كلثوم من خلفه : يا بنيّ ارجع ، فقال : يا عمّتاه ، ذريني أقاتل بين يدي

ابن رسول الله ، فصاح الحسين (عليه السلام) : يا أمّ كلثوم ، خذيه لئلّا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) .

ثم نادى الحسين (عليه السلام) بأعلى صوته :

« هل من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله ؟ هل من موحّد يخاف الله فينا ؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا »؟

فارتفعت أصوات النساء بالبكاء والعويل[١] .

استشهاد الطفل الرضيع : ثم تقدّم سلام الله عليه إلى باب الخيمة ، فطلب من أخته زينب سلام الله عليها أن تأتيه بطفله ليودّعه ، فأخذه في حجره يقبّله ويقول : « ويل لهؤلاء القوم إذا كان جدّك المصطفى خصمهم » ! فرماه حرملة بن كاهل الأسديّ بسهم فذبحه ـ وهو في حجر أبيه ـ فتلقّى الحسين دمه بكفّه ورمى به نحو السماء وقال : « هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله » ، ثمّ ناوله لعمّته زينب (عليها السلام) .

وينقل السبط بن الجوزيّ في (التذكرة) عن هشام بن محمّد الكلبيّ أنّ الحسين (عليه السلام) لمّا رأى إصرار القوم على قتله رفع القرآن المجيد فوق رأسه بعد أن فتحه وقال :

« بيني وبينكم كتاب الله ، وجدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أيّها القوم ، لماذا تستحلّون دمي ، ألست ابن بنت نبيكم ، ألم يبلغكم قول جدّي في حقّي وحقّ أخي الحسين : هذان سيّدا شباب أهل الجنّة ؟ » .

ثمّ إنّ نظره وقع على طفل له يبكي من شدّة العطش ، فأتى به وهو يقول : « يا قوم ، إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل » ، فرماه أحدهم بسهم فجاء في نحره ، فبكى الحسين (عليه السلام) وقال: «اللهمّ احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا» . فسمع (عليه السلام) هاتفاً يقول : « دعه يا حسين فإنّ له مرضعاً في الجنّة » .

وجاء في (الاحتجاج) أنّه نزل (عليه السلام) عن فرسه ، وحفر به بجفن سيفه ، ودفنه مرّملاً بدمه .

---

(١) جاء في كتاب (الحدائق الورديّة) أنّه لما استشهد أنصار الحسين وأصحابه يوم عاشوراء جعل (ع) ينادي : « ألا ناصر فينصرنا ؟» فسمع النساء والأطفال صوته فراحوا يصرخون ويعولون .
ولّما سمع سعد بن الحرث الأنصاري العجلاني وأخوه أبو الحتوف نداءه ـ وكانا في عسكر ابن سعد ـ وسمعا صياح العيال ، مالا إلى جانبه ، فقاتلا فقتلا جماعة وجرحا آخرين حتى استشهدا أخيراً ، رحمة الله عليهما .

ويروي الطبريّ عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنّ سهماً أتى الصبيّ وهو في حجره فذبحه ، فجعل يمسح الدم عنه[1] ويقول : « اللهمّ احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا »[2].

ثمّ دعا عليه السلام بحبرة ـ وهي ثوب يمانيّ ـ فمزّقها ولبسها ، وتقدّم إلى القتال بسيفه . انتهى .

قتال الحسين (عليه السلام) : بعد أن انتهى (عليه السلام) من أمر الطفل ركب فرسه ، وتوجّه نحو القوم وهو يقول :

كفر القوم وقدماً رغبوا عن ثواب الله ربّ الثقلين
قتل القوم عليّاً وابنه حسنَ الخير كريم الأبوين
حنقاً منهم وقالوا : اجمعوا واحشروا الناس إلى حرب الحسين

ثمّ تقدّم (عليه السلام) نحو القوم مصلتاً سيفه ، آيساً من الحياة ، عازماً على الموت ، وأنشأ يقول :

أنا ابن عليّ الطهر من آل هاشم كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدّي رسول الله أكرم من مشى ونحن سراج الله في الخلق يزهر
وفاطم أمّي من سلالة أحمد وعمّي يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أُنزل صادقاً وفينا الهدى والوحي بالخير يذكر
ونحن أمان الله للناس كلّهم نُسِرّ بهذا في الأنام ونجهر
ونحن ولاة الحوض نسقي ولاتنا بكأس رسول الله ما ليس ينكر
وشيعتنا في الناس أكرم شيعة ومبغضنا يوم القيامة يخسر

ثمّ إنّه دعا الناس إلى البراز ، فلم يزل يقتل كلّ من برز إليه حتى قتل منهم جمعاً كثيراً من شجعانهم وأبطالهم حتى لم يجرؤ على الخروج إليه أحد ؛ فحمل على الميمنة وهو يقول :

الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

ثمّ حمل على الميسرة وهو يقول :

---

(١) هذا المضمون ليس في (الطبريّ) بل فيه : أنّه (ع) تلقّى دمه ، فلمّا ملأ كفّيه صبّه في الأرض . (المصحّح) .

(٢) هذه العبارة لم ترد في الطبريّ والاحتجاج والإرشاد أبداً ، بل نقلها السبط في (التذكرة) فقط . (المصحّح) .

أنـا الحـسـين بـن عـلي آلـيـت أن لا أنـثـني
أحـمي عـيـالات أبي أمضي عـلى ديـن الـنـبـي

قال بعض الرواة : فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ ـ قد قُتل ولده وأهل بيته وصحبه ـ أربط جأشاً منه ، ولا أمضى جناناً ، ولا أجرأ مقدماً ، ولم أر قبله ولا بعده مثله ، ولقد كانت الرجال لتشدّ عليه ، فيشدّ عليها فتنكشف بين يديه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب ؛ ولقد كان يحمل فيهم ـ وقد تكاملوا ثلاثين ألفاً ـ فينهزمون بين يديه كأنّهم الجراد المنتشر ، ثم يرجع إلى مركزه وهو يقول : «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم».

هندي يصف شجاعته (عليه السلام) : يقول المؤلّف : من المناسب في هذا المقام أن ننقل كلاماً لجيمز كاركرن ، الهندي الهندوسيّ في شجاعة الإمام الحسين (عليه السلام) ، وقد نقل الشيخ المرحوم في (اللؤلؤ والمرجان) عن هذا الشخص الذي كتب كتاباً في تاريخ الصين بلسان الـ (أوردو) اللسان المتعارف في الهند في أيّامنا هذه ، وقد تمّ طبعه ، وقد جاء في المجلّد الثاني منه في الصفحة ١١١ ـ في معرض الحديث عن الشجاعة ـ هذا الكلام الذي ندرج فيما يلي ترجمته عيناً :

« مع أنّ شجاعة رستم وبطولته كانت مشهورة في زمانه إلاّ أنّ بضع بطولات مضت جعلت اسم رستم أمامها لا شيء ، كالحسين بن عليّ (عليهما السلام) ، الذي فاق كلّ الشجعان فاحتلّ مرتبة متقدّمة عنهم ، ذلك أنّ شخصاً تصدر عنه ضروب البطولة في كربلاء ، فوق الرمال المحرقة ، مع قسوة العطش والجوع ؛ ثمّ يأتي أحدهم ليذكر اسم رستم في مقابله ، فإنّ من يفعل ذلك لم يقرأ التاريخ .

أين القلم القادر على تصوير حال الحسين ، واللسان الذي يمتلك الطاقة على وصف ثبات اثنين وسبعين رجلاً أمام ثلاثين ألفاً من سفّاكي أهل الشام ، وشهادة كلّ منهم كما يجب أن تكون الشهادة ، فأين الخيال الدقيق القادر على تصوير أحوالهم وقلوبهم وكلّ ما حلّ بهم منذ أن حاصرهم عمر بن سعد بعشرة آلاف رجل حتّى احتزّ الشمر (اللعين) الرأس الأقدس عن جسده .

هناك مثل مشهور : دواء الواحد اثنان ، ويعني أنّه لا يتأتّى عن إنسان وحيد إنجاز ما لم تمدّه بآخر ، وليس اكثر مبالغة من أن يقال : إن فلاناً أحيط به من الجهات الأربع إلاّ الحسين (عليه السلام) الذي أحيط به مع اثنين وسبعين رجلاً من قبل ثمانية صنوف من الأعداء ، ومع ذلك لم يهتزّ رسوخ أقدامهم ، ومع أنّهم أحاط بهم من الجهات الأربع عشرة آلاف من

---

(١) المكثور : هو الذي كثر عليه الناس لقهروه .

عسكر يزيد من حملة الأسنّة والرماة الذين تنبعث سهامهم مثل رياح الظلام ، فقد كان لهم عدوّ خامس ألا وهو حرارة شمس بلاد العرب التي لا يمكن وجود نظير لها تحت قبّة الفلك ، حتى ليمكن القول إنّ الحرارة عندهم هي غيرها عند غيرهم ؛ أمّا العدوّ السادس فكان رمال أرض كربلاء المحرقة التي تزيدها حرارة الشمس ضراماً وحرقة ، فتنبعث منها النار كما تنبعث من رماد تنور مشتعل ، بل يمكن القول إنّها بحرٌ قهّار تنقلب حبّاته حباباتٍ حارقة في أرجل بني فاطمة .

والواقع أنّ هناك ضربين آخرين من العدوّ هما أشدّ ظلماً وقسوة من غيرهما ، ألا وهما العطش والجوع ، وكانا معاً كعقربي ساعة لا يفترقان ، وكان الأمل بانحسار هذين العدوّين يضعف مع الوقت حتى تشققت الألسنة من العطش ، فرجالٌ يخوضون معركة كهذه ضدّ آلاف مؤلّفة من الكفار تختتم بهم كلّ شجاعة وبطولة حقاً .

لقد تمّ نقلُ محلّ الحاجة من كلام هذا الهندوسيّ عابد الأصنام ، الذي استعاض عن وشمه الأسود الجذّاب بوجه ناصع البياض ، وهو أهل لأن يقال في الثناء عليه : بوشمه الهندوسيّ أغضب سمرقند وبخاري.

ويرجع الكلام إلى سياقه الأول :

يقول ابن شهر آشوب وغيره : ولم يزل يقاتل حتّى قتل منهم ألفاً وتسعمئة وخمسين رجلاً سوى المجروحين ، فعند ذلك عرف عمر بن سعد اللعين أنه ليس في الكون العريض الواسع تلك القوة والقدرة التي تقوم للإمام الحسين (عليه السلام) ، ولو ان الأمر استمرّ على هذا المنوال لجعل (عليه السلام) جيش ابن سعد كلّه طعمة لسيفه ، فلا غرو أنّه صاح بعسكره : الويل لكم ، أتدرون لمن تقاتلون ؟ هذا ابن الأنزع البطين ، هذا ابن قتّال العرب ، فاحملوا عليه من كلّ جانب .

أعياهمُ أن ينالوه مبارزة ... فصوّبوا الراي لمّا صعّدوا الفكرا
أن وجّهوا نحوه في الحرب أربعة ... السيف والسهم والخطّيّ والحجرا

فحملوا عليه من كلّ جانب ، ورشقه الرماة بالسهام وكان عددهم أربعة آلاف ، ثم أحاطوا به فحالوا بينه وبين رحله وعياله ، فصاح بهم :

« ويحكم يا شيعة أبي سفيان ، إن لم يكن لكم دين ، وكنتم لا تخافون المعاد ، فكونوا أحراراً في دنياكم ، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون » .

فناداه الشمر : ما تقول يا بن فاطمة ؟

فقال : « أقول : أنا الذي أقاتلكم وتقاتلونني ، والنساء ليس عليهنّ جناح ، فامنعوا عتاتكم عن التعرّض لحرمي ما دمت حيّاً » .

فقال الشمر : لك هذا ، ثم صاح بالقوم : إليكم عن حرم الرجل ، فاقصدوه بنفسه ، فلعمري فهو كفؤ كريم .

فقصده القوم ، واشتدّ القتال ، فجعل يحمل عليهم ويحملون عليه ، وهو كالأسد الغضوب يحمل فيهم سيفه ، فيتساقطون صرعى ، وكلّما حمل على جانب منهم انكشفوا أمامه ، وكلّما حمل بفرسه على الفرات حملوا عليه حتّى أجلوه عنه ، وقد بلغ العطش به أشدّه ، فحمل من نحو الفرات على الأعور السلميّ وعمرو بن الحجّاج ، وكانا في أربعة آلاف على المشرعة ، فكشفهم عن الماء ، وأقحم الفرس على الفرات ، فلمّا ولغ الفرس ليشرب قال الحسين (عليه السلام) : أنت عطشان وأنا عطشان ، والله لا ذقت الماء حتى تشرب ، فرفع الفرس رأسه كأنّه فهم الكلام ، فقال الحسين : اشرب فأنا أشرب ، فمدّ يده فغرف من الماء ، فناداه فارس : يا حسين ، أتتلذّذ بشرب الماء وقد هُتكت حرمك ؟ فنفض الماء من يده ، وحمل على القوم فكشفهم ، وقصد الخيمة فإذا هي سالمة ، واجتمع الأهل حوله بقلوب منكسرة وحال قلقة يتعذّر وصفها .

وداعه الثاني للأهل والعيال : ثمّ إنّه (عليه السلام) ودّع عياله وأهل بيته ، وأمرهم بالصبر ولبس الأُزر ، ووعدهم بالثواب والأجر ، وقال لهم :

« استعدّوا للبلاء ، واعلموا أنّ الله تعالى حاميكم وحافظكم ، وسينجيكم من شرّ الأعداء ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، ويعذّب عدوّكم بأنواع العذاب ، ويعوّضكم عن هذه البليّة بأنواع النعم والكرامة ، فلا تشكوا ، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم » .

ثمّ تقدّم (عليه السلام) إلى القتال ، فحمل على القوم يحصد رؤوس أولئك المنافقين فراحوا يتساقطون تساقط الأوراق في الخريف حتى تراكمت أجساد القتلى كالتلال ، وسالت دماء الفجّار على الأرض من ضربات سيفه البتّار فاختلطت بترابها ، كان لا يلحق أحداً إلّا بعجه بسيفه فقتله ، أو طعنه برمحه فصرعه ، والسهام تأخذه من كلّ جانب وهو يتّقيها بصدره ونحره ، حتّى غدت السهام في درعه كالشوك في جلد القنفذ .

ويروى عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال :

« أصيب الحسين (عليه السلام) ووجد به ثلاثمئة وبضع وعشرون جراحة .

كما روي أنّ الجراحات كلّها كانت في مقدّمه الشريف .

ولما ضعف عن القتال وقف ليستريح ساعة ، فبينما هو واقف إذ رماه رجل بحجر وقع في

جبهته الشريفة ، فسالت الدماء على وجهه ، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن وجهه وعينيه ، فأتاه سهم محدّد مسموم له ثلاث شعب ، فوقع السهم في صدره ، وفي بعض المرويّات : وقع في قلبه ! فقال (عليه السلام) : « بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله » ، ورفع رأسه إلى السماء وقال :

« إلهي ، إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن نبيّ غيره » .

ثم أخذ السهم فاخرجه من قفاه ، فانبعث الدم كالميزاب ، فوضع يده على الجرح ، فلمّا امتلأت دماً رمى به نحو السماء فما رجعت من ذلك الدم قطرة ؛ ثمّ وضع يده ثانياً فلمّا امتلأت لطّخ بها رأسه ولحيته وقال :

« هكذا أكون حتّى ألقى جدّي رسول الله وأنا مخضوب بدمي ، وأقول : يا رسول الله قتلني فلان وفلان » .

يقول المؤلّف : نظم صاحب (معراج المحبّة) هذه المصيبة بنظم جيّد أرى من المناسب إيراده هنا ، قال ما مضمونه :[1]

عاد إلى مكانه سيّد الأبرار ، ليوقف دماً يسيل من جراحات النزال

فإذا بيد عدوّ لعين ، ترميه بحجر وقع على جبين أحسن الله صنعه

حجر أطلقته يد الحقد والجور فهشم شمساً أبدعتها يد خالق الكون

وانتثرت شقائق ورد على وجه عشق سرمد كان يوم أُحد وجه محمّد

أراد الشاه مسح الدم عن وجهه مُودعاً إيّاه كمّ الكرامة

وفجأة بان قلب أكثر إشراقاً من الشمس تحت درع

قلب كما الماس تلقّى سهماً من يد الحقد ، طفح منه دماً

وانتزع حافظ أهل الإيمان من قفاه نصلاً حديداً مشرباً سمّاً

مقام الخالق الأوحد الذي لا يماثله شيء ملأه النصل بالدم

وأطلق (سنان) في جنبه سنانه ، فانتقل إلى جنب الله من سنانه

---

(١) أورد المؤلف اثني عشر بيتاً بالفارسيّة ، نورد نحن مضمونها ، ثم أعقب تلك الأبيات ببيتين اثنين بالعربية ، هما لسان حال سيّد الشهداء (ع) . (المعرّب) .

ورفع القلب لمرآه راية السكون ، وجواد العشق أوقر عشقاً

وسقط مفخرة نسل آدم قرير العين بسعادة الوصل ، يقول :

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
ولو قطعتني في الحب إرباً لما حن الفؤاد إلى سواكا

ثم ضعف رضوان الله عليه عن القتال فوقف ، فكلما أتاه رجل وانتهى إليه ، انصرف عنه رهبة أو خجلاً ، حتى جاءه رجل من كندة يقال له : مالك بن اليسر ، فشتم الحسين (عليه السلام) وضربه بالسيف على رأسه وعليه (بُرنُس) وامتلأ البرنس دماً ، فقال له الحسين (عليه السلام) : « لا أكلت بيمينك ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين » ثم ألقى البرنس ، وشدّ رأسه بمنديل ، ودعا بقلنسوة أخرى فلبسها واعتمّ عليها .

وأخذ الكندي ذلك البرنس ، وكان من خزّ ، فلمّا قدم بعد الوقعة على امرأته جعل يغسل الدم عنه ، فقالت له امرأته أمّ عبد الله ابنة الحرّ البدّي : أتدخل بيتي بسلب ابن رسول الله ؟ اخرج عني ، حشا الله قبرك ناراً ؛ فلم يزل بعد ذلك فقيراً بأسوأ حال ، ويبست يداه ، وكانتا في الشتاء تنضحان دماً ، وفي الصيف تصيران يابستين كأنّهما عودان ، إلى أن أهلكه الله تعالى

مصرع عبد الله بن الحسن (عليه السلام) : وقال السيّد (ره) والمفيد (ره) : إن القوم لبثوا هنيئة ثمّ عادوا إلى الحسين (عليه السلام) وأحاطوا به ؛ فلمّا رأى عبد الله بن الحسن (عليه السلام) عمّه على هذه الحال خرج ـ وهو غلام لم يراهق ـ من عند النساء يشتدّ حتى وقف إلى جنب الحسين (عليه السلام) ، فلحقته زينب سلام الله عليها لتحبسه فقال الحسين لأخته : احبسيه يا أختاه ، فأبى وامتنع امتناعاً شديداً وقال : لا والله ، لا أفارق عمّي وأهوى أبجر بن كعب إلى الحسين (عليه السلام) بالسيف ، فصاح به الغلام : ويلك يا بن الخبيثة ، أتقتل عمّي ؟

فضربه أبجر بالسيف فاتّقاه الغلام بيده فأطنّها إلى الجلد، فإذا هي معلّقة، فصاح الغلام : يا عمّاه !! يا أبتاه !! فأخذه الحسين (عليه السلام) فضمّه إلى صدره وقال :

« يا بن أخي ، اصبر على ما نزل بك ، واحتسب في ذلك الخير ، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين » .

فرماه حرملة بن كاهل بسهم فذبحه وهو في حجر عمّه .

يقول حميد بن مسلم : سمعت الحسين يقول :

« اللهمّ أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض . . » الخ .

يقول الشيخ المفيد (ره) : حمل الرجّالة من يمين وشمال على من بقي مع الإمام الحسين (عليه السلام) فقتلوهم ، فلم يبق معه سوى ثلاثة أو أربعة .

يقول السيّد ابن طاوس وآخرون : قال الحسين (عليه السلام) : ابعثوا إليّ ثوباً لا يُرغب فيه ، أجعله تحت ثيابي لئلاّ أجرّد ، فأتي بتبّان فقال : لا ، ذاك لباس من ضربت عليه الذلّة ، وكان ضيّقاً ، فأتي بأوسع منه فلبسه .

وفي رواية السيّد أنه أتي بثوب خلق فخرقه وجعله تحت ثيابه ، فلمّا قتل جرّدوه منه .

وقائع استشهاده (عليه السلام) : يقول الشيخ المفيد (ره) : ولمّا لم يبق مع الحسين (عليه السلام) سوى ثلاثة نفر من أهله ، أي من غلمانه ، وقف يدفع عنه حملات القوم ، وقام الثلاثة يحمونه حتى قتلوا ، وبقي وحيداً .

ومن كثرة الجراحات التي أصابته في رأسه وبدنه أعياه وثقل عن القتال فرفع سيفه في وجه القوم يدفعهم عنه فيتفرّقون يميناً وشمالاً ، فلما رأى الشمر اللعين ذلك ـ وكان أساس كلّ شرّ وبليّة ـ دعا الخيّالة وأمرهم بالاصطفاف خلف الرجّالة ، ثم أمر الرماة فأمطروه بوابل من سهامهم حتى غدا بدنه كجلد القنفذ .

عند ذاك توقّف (عليه السلام) عن القتال ، وتوقّف القوم ؛ وخرجت زينب (عليها السلام) من الفسطاط وهي تنادي : « ويحك يا عمر ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه » ؟ فلم يجبها ، وفي رواية للطبري أن دموع عمر سالت على خدّيه ولحيته ، وصرف بوجهه عنها .

ثم التفتت (عليها السلام) نحو القوم تقول : الويل لكم ، أما بينكم مسلم ؟! فلم يجبها أحد .

يروي السيّد ابن طاوس أنّه لمّا أثخن (عليه السلام) بالجراح وبقي كالقنفذ ، وضعف عن القتال ، طعنه صالح بن وهب المزنيّ على خاصرته طعنة ، فسقط (عليه السلام) عن فرسه إلى الأرض على خدّه الأيمن وهو يقول : « باسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله » ، ثم قام صلوات الله عليه .

« فلمّا خلا سرج الفرس من هيكل الوحي والتنزيل ، وهوى على الأرض عرش الملك الجليل ، جعل يقاتل وهو راجل قتالاً أقعد الفوارس ، وأرعد الفرائص ، وأذهل عقول فرسان العرب ، وأطار عن الرؤوس الألباب واللبب » .

وكانت العقيلة (عليها السلام) ، وكلّها توجّه إلى أخيها ، قد خرجت وهي تنادي :

« واأخاه ! واسيّداه ! وا أهل بيتاه ! ليت السماء أطبقت على الأرض ، وليت الجبال تدكدكت على السهل » .

قال الراوي : وصاح الشمر اللعين : ما تنتظرون بالرجل ؟ فحملوا عليه من كلّ جانب ، ورماه الحصين بن تميم بسهم في فمه ، ورماه أبو أيّوب الغنويّ بسهم آخر وقع في نحره ، وضربه زرعة بن شريك على كفّه اليسرى فقطعها ، وضربه لعين آخر على عاتقه المقدّس بالسيف ضربة كبا بها لوجهه ، وكان قد أعيا ، فجعل ينوء ويكبو؛ فطعنه سنان بن أنس اللعين بالرمح في ترقوته ، ثمّ انتزع الرمح فطعنه في بواني صدره ، ثم رماه سنان أيضاً بسهم وقع في نحره ، فسقط .

وفي رواية ابن شهر آشوب أن ذلك السهم وصل إلى صدره المبارك ، فسقط على الأرض ، وأخذ الدم بكفّيه فخضّب رأسه ولحيته ؛ فقال عمر بن سعد لرجل عن يمينه : انزل ويحك إلى الحسين فأرحه ! فبدر إليه خوليّ بن يزيد ليحتزّ رأسه المبارك ، فأرعد وارتجف ؛ فقال له الشمر اللعين : فتّ الله عضدك ، لماذا ترعد ؟ ثم احتزّ هو الرأس المقدّس .

يقول السيّد ابن طاوس : إنّ سنان بن أنس لعنه الله نزل إليه فضربه بالسيف في حلقه الشريف وهو يقول : والله إنّي لأجتزّ رأسك وأعلم أنّك ابن رسول الله ، وخير الناس أباً وأماً ، ثم اجتزّ رأسه المقدّس .

وفي رواية الطبري أنّ سنان بن أنس جعل لا يدنو أحد من الحسين إلاّ شدّ عليه مخافة أن يغلب على رأسه أحد ، حتى أخذ رأس الحسين فدفعه إلى خوليّ .

فاجعة إن أردت أكتبها مجملة ذكرها لمذّكر
جرت دموعي وحال حائلها ما بين لحظ الجفون والزبر

في ذلك الوقت ارتفعت في السماء غبرة شديدة سوداء مظلمة ، فيها ريح حمراء ، لا تُرى فيها عين ولا أثر ، حتى ظنّ القوم أنّ العذاب قد جاءهم ، فلبثوا كذلك ساعة ثمّ انجلت عنهم .

ويروي ابن قولويه القمّي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« لمّا قتل الحسين (عليه السلام) أتاهم آتٍ في العسكر (معسكر بن سعد) فصرخ ، فزُبر ، فقال لهم : وكيف لا أصرخ ورسول الله قائم ينظر إلى الأرض مرّة ، وينظر إلى حربكم مرّة ؟ وأنا أخاف أن يدعو الله على الأرض فأهلك فيهم .

فقال بعضهم لبعض : هذا إنسان مجنون !

فقال التوّابون : تالله ما صنعنا بأنفسنا ؟ قتلنا لابن سميّة سيّد شباب أهل الجنّة ؛ فخرجوا على عبيد الله بن زياد، فكان من أمرهم الذي كان».

قال الراوي : قلت له : جعلت فداك ، من هذا الصارخ ؟

قال : « ما نراه إلّا جبرئيل . . . » .

يقول الشيخ المفيد (ره) في (الإرشاد) : مضى الحسين (عليه السلام) في يوم السبت العاشر من المحرّم سنة إحدى وستّين من الهجرة ، بعد صلاة الظهر منه ، قتيلاً مظلوماً صابراً محتسباً ، وسنّه يومئذ ثمان وخمسون سنة ، أقام بها مع جدّه سبع سنين ، ومع أبيه أمير المؤمنين ثلاثين سنة ومع أخيه الحسن عشر سنين ، وكانت مدّة خلافته بعد أخيه أحد عشر عاماً .

وكان (عليه السلام) يخضب بالحنّاء والكتَم ، وقتل (عليه السلام) وقد نصل الخضاب من عارضيه .

وقد وردت مرويّات كثيرة في فضل زيارته (عليه السلام) بل في وجوبها ، ويروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« زيارة الحسين بن علي (عليهما السلام) واجبة على كل من يعتقد ويقرّ للحسين (عليه السلام) بالإمامة من الله عزّ وجلّ » .

وقال (عليه السلام) : « زيارة الحسين (عليه السلام) تعدل مئة حجّة مبرورة ، ومئة عمرة متقبّلة » .

وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

« من زار الحسين بعد موته فله الجنّة » .

والأخبار في هذا الباب كثيرة ، وقد أوردنا جملة منها في كتاب (مناسك المزار) . انتهى .

الفصل الرابع

في سلب الإمام الحسين (عليه السلام)

مجيء ذي الجناح إلى مخيّم الحسين (عليه السلام)

بعد أن استشهد الإمام الحسين (عليه السلام) أقبل فرسه يدور حوله ، ويلطّخ عرفه وناصيته بدمه ، ويصهل صهيلاً عالياً ، ثمّ قصد المخيّم بذلك الصهيل الحزين ، ولما بلغ فسطاط الحسين (عليه السلام) أخذ يصهل ويضرب رأسه بالأرض حتّى نفق .

فلمّا سمعت النساء صوته برزن مسرعات من خدورهنّ ، فرأين الفرس دون راكبه ، وقد تلطّخ بالدماء فعرفن ما جرى ، فارتفع عويلهنّ ونواحهنّ : واحسيناه ! وإماماه !!

وفي هذا المقام يقول الشاعر العربيّ :

وراح جواد السبط نحو نسائه ... ينوح وينعى الظامىء المترمّلا
خرجن بنيّات الرسول حواسراً ... فعاينّ مهر السبط والسرجُ قد خلا
فأدمين باللطم الخدود لفقده ... وأسكبن دمعاً حرّه ليس يُصطلى

ويقول شاعر العجم :

وبعد عروج الشاه قصد بسرجه الملويّ نحو الخيام

بعرفٍ تضمّخ بالدم وعين باكية تنعى قتيلاً بالنصال

صاحت بوجهه بنت النبيّ لمّا افتقدت راكبه :

أين ألقيت به ، وكيف حاله ؟ وماذا فعل به العدوّ اللئيم ؟

فانبرى الإنسان فيه يقول مهمهماً : الظليمة ! الظليمة !!

وانطلقت العقيلة إلى الميدان تبحث عن أخيها

يا ترى كيف حاله ، ولا يدري هذا سوى عارف الأحوال[١]

يقول الراوي : ووضعت أمّ كلثوم يديها على رأسها وأخذت تندب وتعول ، وهي تقول :

« وامحمّداه ، واجدّاه ، وانبيّاه ، وأبا القاسماه ، واعليّاه ، واجعفراه ، واحمزتاه ، واحسناه ، هذا حسين بالعراء ، صريع بكربلاء ، محزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة والرداء » .

وجعلت تندبه حتى غشي عليها ، أمّا حال أهل البيت الآخرين فكانت كحالها ، ويعلم الله ما جرى عليهم وما نزل بهم ليس بمقدور أحدٍ أن يتصوّره ، بله أن يصفه ويشرحه !!

جاء في الزيارة المرويّة عن الناحية المقدّسة :

« وأسرع فرسك شارداً إلى خيامك قاصداً ، مهمهماً باكياً ، فلمّا رأين النساء جوادك مخزيّاً ، ونظرن سرجك عليه ملويّاً برزن من الخدور ، ناشرات الشعور ، على الخدود لاطمات ، وعن الوجوه سافرات ، وبالعويل داعيات ، وبعد العزّ مذلّلات ، وإلى مصرعك مبادرات ، والشمر جالس على صدرك ، مولع سيفه على نحرك ، قابض على شيبتك بيده ، ذابح لك بمهنّده ، قد سكنت حواسّك ، وخفيت أنفاسك ، ورُفع على القناة رأسك » .

سلب الحسين (عليه السلام)

يقول الراوي : ثمّ أقبلوا على سلب الحسين (عليه السلام) فأخذ قميصه إسحاق بن حُويّة الحضرميّ ، فلبسه فصار أبرص ، وامتعط[٢] شعره ؛ وروي أنّه وُجد في قميصه مئة وبضع عشرة ما بين رمية وطعنة وضربة .

وأخذ عمامته الأخنس بن مرثد ، وقيل : جابر بن يزيد الأزديّ ، فاعتمّ بها فصار معتوهاً ، وقيل : مجذوماً .

وأخذ نعليه الأسود بن خالد ، وأخذ خاتمه الشريف بجدل بن سليم ، بعد أن قطع إصبعه مع الخاتم ؛ وهذا أخذه المختار فقطع يديه ورجليه وتركه يتشحّط في دمه حتى هلك .

وأخذ قطيفة له (عليه السلام) كانت من خزّ قيس بن الأشعث ، وسمّي لذلك : قيس

---

(١) مضمون أبيات بالفارسيّة (المعرّب) .

(٢) امتعط الشعر : سقط .

القطيفة ؛ وروي أنّه صار مجذوماً ، وهجره أهل بيته ، ورموه في الزبالة وهو حيّ ، فمزّقت الكلاب لحمه .

وأخذ درعه عمر بن سعد ، فلمّا قتله المختار وهب الدرع لأبي عمرة قاتله ، ويقال إنّه (عليه السلام) كانت له درعان ، ذلك أنّه قيل : وأخذ درعه الأخرى مالك بن يسر ، فجنّ .

وأخذ سيفه جميع بن الخلق الأوديّ ، وعلى قول : الأسود بن حنظلة التميميّ ، وفي رواية : القلافس النهشليّ ؛ وهذا السيف المنهوب ليس بذي الفقار ، لأنّه كان مصوناً ومذخوراً مع أمثاله من ذخائر النبوّة والإمامة .

يقول المؤلّف : لم يرد في كتب المقاتل ذكر لسلب ملابس وأسلحة سائر الشهداء ، لكنّ المعروف أنّ أجلاف الكوفة لم يبقوا على أحد ، حتى أنّهم سلبوهم ما كان على أبدانهم .

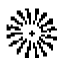
ويقول ابن نما : إنّ حكيم بن الطفيل سلب العبّاس (عليه السلام) ملابسه وأسلحته .

وجاء في زيارة الشهداء الصادقيّة المرويّة : « وسلبوكم لابن سميّة وابن آكلة الأكباد » .

وقد عرفت عند الحديث عن استشهاد عبد الله بن مسلم كيف أنّ قاتله لم يتخلّ عن السهم الذي وقع في جبهة ذلك المظلوم ، فانتزعه منها بصعوبة ، فكيف يُتصوّر أن قاتلاً لا يترك سهماً ، ويتخلّى عن لباس مقتوله وسلاحه ؟

وقد جاء في حديث معتبر مرويّ عن زائدة عن عليّ بن الحسين عليهما السلام تصريح بذلك ، إذ قال :

«وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرى سيّدي وإخوتي وعمومتي وولد عمّي وأهلي مصرّعين بدمائهم ، مرمّلين بالعراء ، مسلّبين ، لا يكفّنون ولا يوارون » ؟!



الفصل الخامس

في الإغارة على مخيم أهل البيت (عليهم السلام)

«وتسابق القوم على نهب بيوت آل الرسول، وقرّة عين البتول»

ما أن أنهى جيش ابن سعد أمر الحسين (عليه السلام) حتى مال الناس إلى ثقله ومتاعه ، يسلبون وينتهبون ما في الخيام ، وجعلوا يتسابقون في الوصول إليها ، ويتنازعون السلب والنهب ، فلم يتركوا شيئاً وصلت إليه أيديهم القذرة من الورس والحليّ والحلل ، حتى أنّهم كانوا ينتزعون ملحفة المرأة عن ظهرها دون رادع أو وازع ، حتى المواشي والمطايا لم تسلم منهم ، واقعة يصعب وصفها ، ويندى الجبين لذكرها .

وفرّت بنات الزهراء حاسرات حافيات باكيات ، فلم تتحرّك شعرة من مروءة أو شفقة في نفوس أولئك الأجلاف القساة ، بعد أن غاب الحياة .

غير أنّ امرأة من آل بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب عمر بن سعد ، وقد رأت ما تتعرض له بنات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أخذت سيفاً وأقبلت نحو القوم وهي تصيح :

« يا آل بكر بن وائل ، أتُسلب بنات رسول الله » ؟

ثم اندفعت شاهرة سيفها وهي تقول :

« لا حكم إلاّ لله ، يا لثارات رسول الله » .

فلما رأى زوجها ما فعلت أخذها وردّها إلى رحله .

قال الراوي : ثمّ أخرجوا النساء من الخيام وأشعلوا فيها النار .

« فخرجن حواسر مسلّبات ، حافيات باكيات ، يمشين سبايا في أسر الذلّة » .

وما أبلغ ما قاله صاحب (معراج المحبّة) أسكنه الله دار السلام :

بعد أن انتهى العسكر من أمر الشاه وشرعوا بالإغارة على الخيام

وغدا ميراث النبوّة نهباً في أيدي قوم من عديمي المروءة

وكلّ ما كان في خيمة الشاه وقع في أيدي أولئك الضُّلّال

وأضرموا فيها ناراً أحرق دخانها القمر والفلك

وأحاطت بالخيام شعلة نار فلم يسلم منها فسطاط الشاه

وبالبتول الثانية تلاطمت الأمور فلم تعد تعرف رجلاً لها من يد

فمرة هي في الخيمة وأخرى خارجها ، وقلبها بحر دمٍ من غصّة الألم

والعجز يغلبني عن وصف هذا الغم ، إذ في تصوّره ما يحرق الروح

إلّا إذا تصدّى لهذا الوصف عارف قادر يقول فيه الشعر البليغ

لو كان من ألمٍ واحد ألمي يا له ألماً ، أو كان غمّاً يا له من غمّ ![1] .

يقول حميد بن مسلم : عبرنا الخيام مع الشمر بن ذي الجوشن حتّى انتهينا إلى عليّ بن الحسين (عليه السلام) وهو شديد المرض منبسط على الفراش ، وكان مع الشمر جماعة من الرجّالة فقالو له : ألا نقتل هذا العليل ؟! فقلت : سبحان الله ، أتقتل الصبيان ؟! إنّما هذا صبي ، ويكفيكم ما هو فيه ، فلم أزل حتى دفعتهم عنه[2] ؛ غير أن أولئك الذين لا رحم لهم سحبوا النطع الذي كان تحته ، وتركوه مرمياً على الأرض .

وجاء عمر بن سعد فصاحت النساء في وجهه وبكين وأعولن ، فقال لأصحابه : ألا لا يدخلنّ أحد منكم بيوت هذه النسوة ، ولا تَعَرّضوا لهذا الغلام المريض ، وسألته النسوة أن يسترجع ما أُخذ منهنّ ليستترن به ، فقال : من أخذ من متاعهم شيئاً فليردّه فوالله ما ردّ أحد منهم شيئاً ، فوكّل بالفسطاط وبيوت النساء وعليّ بن الحسين جماعة ممّن كان معه ، وقال : احفظوهم لئلا يخرج منهم أحد ، ولا يُساء إليهم .

ثم نادى ابن سعد في أصحابه : ألا من يُنتَدب فيوطىء الخيل ظهره وصدره ؟ فانتدب

---

(١) مضمون أشعار بالفارسيّة (المعرّب) .

(٢) قال صاحب (روضة الصفاء) : قيل إنّ عمر بن سعد أخذ بيدي الشمر وقال : ألا تخجل من الله تعالى لتقدم على قتل هذا الغلام العليل ؟ فقال الشمر : قد صدر أمر الأمير عبيد الله بن زياد بقتل جميع أولاد الحسين ، وبالغ ابن سعد في منعه ، فامتنع ، وأمر بإحراق خيام أهل بيت المصطفى .

له عشرة من الفوارس (من أولاد الزنى) فداسوا الحسين (عليه السلام) بحوافر خيلهم حتّى رضّوا ظهره وصدره .

وجاء هؤلاء العشرة (اللعناء) حتّى وقفوا على ابن زياد ، فقال أحدهم وهو أسيد بن مالك مفتخراً ومباهياً :

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر بكلّ يعبوب شديد الأسر

فقال ابن زياد : من أنتم ؟ فقالوا : نحن الذين وطئنا بخيولنا ظهر الحسين حتّى طحنّا جناجن صدره ، فأمر لهم بجائزة يسيرة .

وفي حديث عن أبي عمرو الزاهد أنه قال : فنظرنا في هؤلاء العشرة فوجدناهم جميعا أولاد زناء ، وهؤلاء أخذهم المختار فشدّ أيديهم وأرجلهم بسكك الحديد وأوطأ الخيل ظهورهم حتّى هلكوا لعنهم الله وأخزاهم .

تنبيه وتتمّة : اعلم أنّ علماء الأخبار ومؤرّخي الآثار اختلفوا في عدد المستشهدين في واقعة كربلاء ، وهذا ما كنّا أشرنا إليه عند حديثنا عن تعداد أصحاب الحسين (عليه السلام) ، كما وقع الاختلاف كذلك في عدد شهداء أهل البيت عليهم السلام ، فقال البعض : إنّهم سبعة وعشرون ، وقال أبو الفرج : جميع من قتل يوم الطفّ من ولد أبي طالب ـ سوى من يختلف في أمره ـ اثنان وعشرون رجلاً ، وقال ابن نما عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال : « قتلوا سبعة عشر إنساناً كلّهم ارتكض في بطن فاطمة » يعني بنت أسد ، وقد تقدّم في حديث الريّان بن شبيب أنّه استشهد مع سيد الشهداء ثمانية عشر من أهل البيت ليس على وجه الأرض مثلهم .

وفي زيارة أوردها السيد ابن طاوس خرجت من الناحية المقدّسة ذُكر من أولاد الحسين (عليه السلام) : عليّ وعبد الله ، ومن أولاد أمير المؤمنين (عليه السلام) : عبد الله والعبّاس وجعفر وعثمان ومحمّد ، ومن أولاد الحسن (عليه السلام) : أبو بكر وعبد الله والقاسم ، ومن أولاد عبد الله بن جعفر : عون ومحمّد ، ومن أولاد عقيل : جعفر وعبد الرحمن ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل ، وعبد الله وأبو عبد الله ابني مسلم ؛ فيكون تعدادهم مع سيّد الشهداء (عليه السلام) ثمانية عشر ، وقد ذكر بالاسم في تلك الزيارة أربعة وستون غيرهم من الشهداء .

ويروي الشيخ الطوسي (ره) عن عبد الله بن سنان أنّه قال :

دخلت على سيّدي أبي عبد الله جعفر بن محمّد (عليه السلام) في يوم عاشوراء فألفيته كاسف اللون ، ظاهر الحزن ، ودموعه تنحدر من عينيه كاللؤلؤ المتساقط ، فقلت : يا بن

رسول الله ممّ بكاؤك ؟ لا أبكى الله عينيك ، فقال لي : أوفي غفلة أنت ؟ أما علمت أنّ الحسين بن عليّ (عليهما السلام) أصيب في مثل هذا اليوم ؟

قلت : يا سيّدي ، فما قولك في صومه ؟ فقال لي :

« صمه من غير تبييت[1] ، وأفطره من غير تشميت ، ولا تجعله يوم صوم كملاً ، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة ماء ، فإنّه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وانكشفت الملحمة عنهم وفي الأرض منهم ثلاثون صريعاً في مواليهم يعزّ على رسول الله مصرعهم ، ولو كان في الدنيا يومئذ لكان صلوات الله عليه وآله المعزّى بهم » .

قال : وبكى أبو عبد الله (عليه السلام) حتّى اخضلّت لحيته بدموعه .

يستفاد من هذا الحديث الشريف أنّ من استشهد في كربلاء من آل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كانوا ثمانية عشر ، ذلك أنّ ابن شهر اشوب يقول في (المناقب) : استشهد من موالي الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء عشرة ، ومن موالي أمير المؤمنين (عليه السلام) اثنان ، فيكون المجموع مع ثمانية عشر من آل الرسول (صلّى الله عليه وآله) ثلاثين شهيداً .

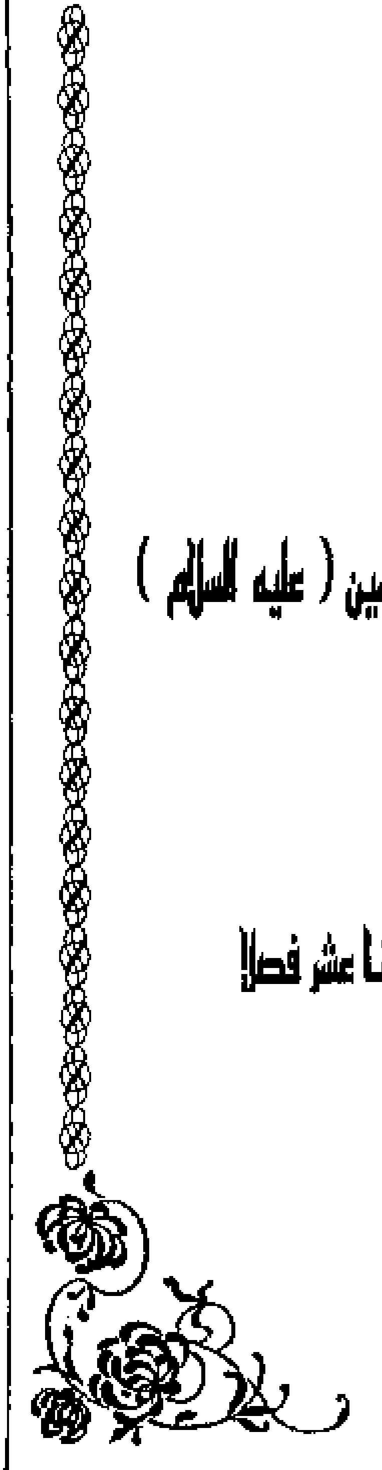
وإجمالاً ، فهناك اختلاف في عدد من استشهد من الطالبيّين ، والأقوى أن من صحب الحسين (عليه السلام) واستشهد منهم كان ثمانية عشر شهيداً ، تماماً كما جاء في رواية معتبرة عن (العيون) و(الأمالي) في حديث الرضا (عليه السلام) مع الريّان ، كما يطابق قول زجر بن قيس الذي شهد الواقعة ، وسيأتي كلامه .

وهذا العدد يتّفق كذلك مع رواية عن الإمام السجاد (عليه السلام) أنّه قال : شهدت مصرع أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي ، إلى غير ذلك ، وهو ما اختاره صاحب (كامل البهائيّ) ، ويمكن القول : لعلّ من عدّهم سبعة عشر لم يأخذ الطفل الرضيع بالحسبان ، كما نحمل خبر معاوية بن وهب الذي أوردناه في أوائل هذا الباب على ذلك ، والله تعالى هو العالم .

---

(١) من غير تبييت : الصوم دون نيّة .





المقصد الرابع

في الوقائع المتأخّرة عن استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)

وفيه اثنا عشر فصلا

الفصل الأول

في ارسال الرؤوس الى الكوفة

بعد الانتهاء من أمر الحسين (عليه السلام) بعث عمر بن سعد برأس الحسين (عليه السلام) مع خَوْليّ بن يزيد وحميد بن مسلم يوم عاشوراء إلى ابن زياد ، وعجّل خولي بالوصول إلى الكوفة مع الرأس المطهّر سائراً ليلاً ، حتى إذا انتهى إلى الكوفة في الليلة نفسها ، وكان لقاؤه ابن زياد متعذّراً أتى منزله .

ويروي الطبريّ وابن نما عن النوّار بنت مالك زوج خوليّ أنّها قالت :

أقبل خوليّ برأس الحسين فوضعه تحت إجّانة[1] في الدار ، ثم دخل البيت فأوى إلى فراشه ، فقلت له: ما الخبر، وما عندك؟ قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار !

فقالت : فقلت : ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضّة ، وجئت برأس ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ! لا والله ، لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً .

قالت : فقمت من فراشي فخرجت إلى الدار ، وأتيت الإجّانة التي كان الرأس المطهّر تحتها ، وجلست أنظر ، فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجّانة ، ورأيت طيوراً بيضاً ترفرف حولها .

قال : فلمّا أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد .

يقول المؤلّف : لم ينقل أرباب المقاتل المعتبرة أيّ شيء عن أحوال أهل بيت الحسين (عليه السلام) في ليل يوم عاشوراء ، ولم يتّضح شيء ممّا مرّ عليهم كي نقوم نحن بإيراده في

---

(١) الإجّانة : إناء تغسل فيه الثياب أو جرّة كبيرة .

كتابنا هذا ؛ نعم ، بعض الشعراء قالوا في هذا الباب أشعاراً نرى ذكر بعضها مناسباً .

قال صاحب (معراج المحبّة) ما مضمونه :

ولّما انقلبت مظلّة الشمس من ميدان السماء كما راية العبّاس

ورأت البتول الثانية أم المصائب نفسها دون سيد أو صاحب

احتضنت أيتام أخيها وجمعت بنات النعش كما الأم تحتضن ضناها

تعتني بالمريض منهم وتمسح أحزانهم لفقد الأب وتخفّف عنهم الألم

وتواسي كسيري القلب من أبناء النبي في خيام محترقة بجمر النار

وقامت من قسوة وجور الأمّة قيامةٌ على شفعاء الأمّة

ليلة مرّت على آل الرسول كدّرت في جنّتها الزهراء البتول

ليلة مرّت على خاتم الرسل في وصفها حارت العقول

يا للمجهّال وحكايات الجمّال . . فاللسان مقطوع والصوت أبكم

وعن الإصبع والخاتم فيها . . فالقول يجفو الأدب وكذا السماع[1]

وقال آخر بلسان العقيلة زينب سلام الله عليها ما مضمونه :

لو أنّ صبح القيامة كان ليلاً فهذه هي ليلته ملّ الطبيب منّي وبلغت روحي التراقي هذه الليلة

أخيّ ارفع رأسك من النوم مرّة وتفرّج زينب دونك فقدت النصير وتدعو يا ربّ

فالكون في ثورة وأنا غريبة في الفلاة مستوحشة وأنت في نوم هنيء ، والمريض في صبر على الحمّى

رأسك ضيف على خوليّ ، وبدنك أنيس الرعيان وفي قلبي من كليهما ألف شأن وشأن

فيا صَبا أخبر الزهراء عنّي غربتي فعيون العدوّ تبكي حال زينب هذه الليلة[2]

وقال المحتشم عليه الرحمة :

تعالي يا عروس الجنّة فانظري حالي ، وانظري كيف بآلاف البلايا قد ابتلينا

وانظري حال فتيان هاشم في ضعفهم ، فرجالهم قتلى ونساؤهم في عزاء[3]

(١ و٢ و٣) مضمون أشعار بالفارسيّة (المعرّب) .

هـذا وبعد أن سرّح عمـر بن سعد رأس الحسـين المقدّس مـع خـوليّ بن يـزيـد ، سرّح رؤوس أهل بيته وأصحابه وعـددها اثنـان وسبعون رأسـاً مـع الشمـر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجّاج إلى ابن زياد في الكوفة ، بعد أن نظّفوها مما علق بها من تراب .

وفي رواية أنّه أمر بقسمة الـرؤوس بين القبـائل من كنـدة ، وهوازن ، وبني تميم ، وبني أسد ، وبني مذحج وغيرهم ، جائزة يتقرّبون بها من ابن زياد .

عبور النساء على القتلى : وأقام ابن سعد في كـربلاء من عصر اليـوم العاشر من المحـرّم إلى زوال يوم الحادي عشر منه ، فجمع قتلاه ، وصلّى عليهم ودفنهم .

وبعـد زوال اليـوم الحـادي عشر من المحـرّم أمـر بتسيـير بنـات رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله) حواسر على أقتاب الجمال بغير رحل ولا وطـاء، وقد وضعـوا الأغلال الجـامعة[1] في عنق الإمام السجّاد (عليه السلام)، وساقوهم كما يساق السبي من الترك والديلم.

فلمّا عبروا بالسبـايا عـلى مصرع الحسين (عليـه السلام) ومصـارع القتلى من أهـل بيته وأصحابه ، ووقعت عليهم أنظارهنّ صحن وولولن ، ولطمن الخدود .

يقول صاحب (معراج المحبّة) ما مضمونه :

لما عبر السبايا بمصرع الإخوان اختلط عليهنّ نيسان وحزيران

فهذه تشدّ الشعر على ابن ثكلى ، وتلك على مصاب بحبيب

وأخرى تصبغ الخدّين بالدم ، وأخرى تجدّد « وشم علي »

في مأتم الصباحة للرأس والقامة أقمن عزاء كغوغاء القيامة

ولما رأت بنت النبي نور عينيها ساقي الكوثر

صاحت تنادي وهذ أخي بروح الخلد حلّت نار الجحيم

قلّب الغدر زرقة الفلك سواداً في يوم أهل العصمة

---

(١) اعلم أنّ الجامعة اسم نوع من الأغلال ، ووجه هذه التسمية أن اليدين تجمعان إلى العنق ، والغلّ : طوق حديدي يوضع حول العنق وله في طرفيه سلسلتان ، وباختلافهما يكتمل الطوق ، أي يتجّه الطرف الأيمن إلى اليد اليسرى ، والطرف الأيسر إلى اليد اليمنى ، فتغلّ اليدان ، ثم يُقفل طرفا السلسلة ، ويتم إقفالها بالإذابة أو الطرق ، فتبقى اليدان هكذا فلا تنفصلان أبداً ، ولهذا فعندما أراد يزيد اللعين فك طوقـه (ع) أمر بمبرد لذلك .

غدر لا طاقة على سماعه ، ومتى كان السماع كالرؤية العيان[١]؟

وقال آخر ما مضمونه :

ولما انفرط عقد الدرّ ترجّلت أقمار الجباه عن ظهور الجمال

وأقمن للمأتم حلقات العزاء ، وطرحن في الكون ثورة المحشر

وغدا النواح على كل وردة غضّة بلبلاً يصدح بلوعة الهجران

وقفت زينب على رأس الشاه ، فأقامت محشراً من قران الشمس والقمر

ولما انتهى نظرها تحت الجسد بجهد ، وكانت الشمس المباركة المهد

تبدّت لها جراحات لا تعدّ ، وبينها جرح المهانة لم يسدّ

وأين تنقّلت في فحصها رأت بالعيان آثار سيف أو سهم أو سنان[٢]

يروي الشيخ ابن قولويه القمّي بسند معتبر عن الإمام السجاد (عليه السلام) أنّه قال لزائدة :

« . . . إنّه لمّا أصابنا بالطفّ ما أصابنا ، وقُتل أبي (عليه السلام) وقتل من كان معه من ولده وإخوته وسائر أهله ، وحملت حرمه ونساؤه على الأقتاب يراد بنا الكوفة ، فجعلت أنظر إليهم صرعى ولم يواروا فعظم ذلك في صدري ، ويشتدّ لما أرى منهم قلقي ، فكادت نفسي تخرج ، وتبيّنت ذلك منّي عمّتي زينب بنت عليّ الكبرى فقالت :

ما لي أراك تجود بنفسك يا بقيّة جدّي وأبي وإخوتي ؟ فقلت :

وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرى سيّدي وإخوتي وعمومتي وولد عمّي وأهلي مضرّجين بدمائهم مرمّلين ، بالعراء مسلّبين ، لا يكفّنون ولا يوارَون ، ولا يعرج عليهم أحد ، ولا يقربهم بشر ، كأنّهم أهل بيت من الديلم والخزر ؟

فقالت : « لا يجزعنّك ما ترى ، فوالله إنّ ذلك لعهد من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى جدّك وأبيك وعمّك ، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمّة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون في أهل السماوات أنّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة فيوارونها ، وهذه الجسوم المضرّجة .

وينصبون لهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء ، لا يدرس أثره ، ولا يعفو رسمه

(١ و ٢) مضمون أبيات بالفارسيّة (المعرّب) .

على كرور الليالي والأيام ، وليجتهدنّ أئمّة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه ، فلا يزداد أثره إلّا ظهوراً ، وأمره إلّا علوّاً[1] » .

أقول : يمكن أخذ تتمّة هذا الحديث الشريف من مكان آخر ، وذلك توخّياً للاختصار .

حرق الخيام وأشعار المحتشم : نقل بعضهم أقوال السيّد ابن طاوس في باب إحراق الخيام وعبور أهل البيت (عليهم السلام) على مصارع الشهداء ، وأن ذلك وقع في اليوم الحادي عشر من المحرّم ، نرى من المناسب إيرادها .

لمّا أراد ابن سعد أن يبعث بالسبايا نحو الكوفة ، أمر فأخرجوا النساء من الخيمة ، وأشعلوا فيها النار ، فخرجن حواسر مسلّبات حافيات باكيات ، وقلن بحقّ الله إلّا ما مررتم بنا على مصرع الحسين (عليه السلام)، فلمّا نظرت النسوة إلى القتلى صحن وضربن وجوههنّ .

وما أحسن ما نظمه المحتشم عليه الرحمة ، في هذا المقام ، قال ما مضمونه :

لما عبرت القافلة في طريقها على المصارع ، ظُنّ أن يوم النشور قد وقع

كلما وقعت منهم على الشهداء العيون رأوا ما تركته السهام من جراح

وعلى غرة وقعت عين ابنة الزهراء على الجسد الشريف لإمام الزمان

فصاحت دون إرادة : هذا حسين مقطوع الرأس كأن النار تنزل في الدنيا

وبلسان تغمره الشكوى توجّهت بضعة الرسول إلى المدينة تقول أيها الرسول :

هذا القتيل ها هنا هو الحسين ، وهذا الصيد المصاب من اليد إلى القدم هو الحسين

هذا اليابس الشفاه الممنوع من الفرات ، من دمه غدا جيحون ، هو الحسين

هذه السمكة الغريقة ببحر الدم ، وجراحه فاقت النجوم عدّاً هو الحسين

هذا الشاه قليل الجند كثير الدمع والآه ، الملقيّ من خيمته في العراء هوالحسين

ثمّ توجّهت إلى البقيع تقول للزهراء طير الفضاء وسمك البحار بالشواء

أيا مؤنسة القلوب الكسيرة انظرينا نحن أغراب دون أحد دون عارف فانظري

---

(١) كلمات العقيلة زينب سلام الله عليها هذه ، إشارة لما بدر من هارون الرشيد والمتوكّل اللعين في محو آثار ذلك القبر الشريف ، كما جاء في (تتمة المنتهى) في شرح أحوال المتوكّل ، فليراجع هناك .

أولادك شفعاء الحشر ، يتردّون في هاوية عقوبة أهل الجور فانظري

انظري القتلى مرمّلين بالدماء ، ورؤوس الأبرار فوق الرماح فانظري

هذا الجسد الذي كان في كنفك متقلباً ، يتقلّب الآن فوق تراب كربلاء فانظري[1] .

وقال آخر ما مضمونه :

لما رأت زينب جسد ذلك الشاه فوق التراب رفعت من القلب أنّة يحرقها ألف ألم

أيّها الغافي هنيئاً في فراش الدم افتح عينيك وانظر حالنا ثمّ عد إلى النوم

يا وارث سرير الإمامة قم فصلّ على القتلى بلا أكفان

أطفالك في هاوية بحر دون قرار فامدد يد الغوث إليهم

قم فالصبح ليلاً قد غدا ، أيا أمير ، قد أركبونا جمالاً دون وطاء

أو خذ بأيدينا من بيداء الرعب هذه وعد بنا ثانية إلى الحجاز[2]

قال الراوي : فوالله لا أنسى زينب بنت عليّ (عليهما السلام) وهي تندب الحسين وتنادي بصوت حزين وقلب كئيب :

« يا محمّداه ، صلّى عليك مليك السماء ، هذا حسين مرمّل بالدماء ، مقطّع الأعضاء ، وبناتك سبايا ؛ وامحمّداه ، هذا حسين بالعراء تسفي عليه ريح الصبا ، قتيل أولاد البغايا ، واحزناه ، واكرباه ، اليوم مات جدّي رسول الله ، يا أصحاب محمّداه ، هؤلاء ذرّيّة المصطفى يساقون سوق السبايا » .

ووفقاً لرواية أخرى أنّها قالت (سلام الله عليها) .

« يا محمّداه ، هذا حسين مجزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة والرداء ، بأبي من فسطاطه مقطّع العرى ، بأبي من عسكره في يوم الاثنين نهباً ، بأبي المهموم حتى قضى ، بأبي العطشان حتى مضى ، بأبي من شيبته تقطر بالدماء ، بأبي من جدّه رسول إله السماء ، بأبي من لا هو غائب فيرتجى ، ولا جريح فيداوى » .

وجعلت زينب سلام الله عليها تندب أخاها بمثل هذه الكلمات حتّى أبكت كلّ عدوّ وصديق .

---

(١) و(٢) مضمون أبيات بالفارسيّة (المعرّب) .

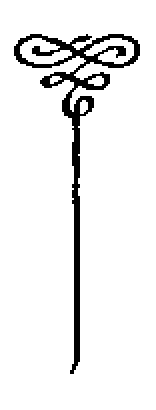
ثم إنّ سكينة اعتنقت جسد الحسين (عليه السلام) وهي تعول وتبكي ، ويروى أنّها لم تترك الجسد الشريف حتّى اجتمع علّة من الأعراب فجرّوها عنه .

وجاء في (المصباح) للكفعميّ أن سكينة قالت :

لّما قتل أبي أخذت جسده الحبيب في حجري ، فعرضت لي حالة من الإغماء ، وسمعت أبي يقول :

شيعتي ما إن شربتم ماء عذب فاذكروني
إن سمعتم بغريب أو شهيد فاندبوني

ثم أبعد أهل البيت عن المقاتل ، وأركبوا جمالاً دون أوطئة بتفصيل تقدّم ، وسيقوا إلى الكوفة .



الفصل الثاني

في دفن الأجساد الطاهرة للشهداء

لمّا أخذ ابن سعد طريقه إلى الكوفة جاء قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاضريّة حول كربلاء ، بعد أن خلت المنطقة من عسكر ابن سعد ، فتولّوا دفن الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه بعدما صلّوا عليهم ، في الأمكنة التي هي عليه الآن ، فقبر عليّ بن الحسين (عليه السلام) فيما يلي قبر أبيه ، أما سائر الشهداء والأصحاب فقد حفروا لهم حفرة واروهم فيها أدنى منه مما يلي قدميه ، وأفردوا للعبّاس (عليه السلام) ضريحاً وحده لم يشركوا معه أحداً ، وذلك حيث هو عليه مرقده المطهر في طريق الغاضريّة .

ويقول ابن شهر اشوب : إن قبوراً أقيمت لأكثر الشهداء ، وكانت طيور بيض تطوف حولها .

كما أشار الشيخ المفيد في (الإرشاد) إلى أسماء شهداء أهل البيت وعددهم ، وأردف يقول : إنهم جميعاً دفنوا في مشهد الحسين (عليه السلام) ممّا يلي قدميه ، إلاّ العبّاس (عليه السلام) فقد أضرح له حيث مقتله في المسنّاة على طريق الغاضريّة ، وقبره ظاهر ، أمّا قبور أولئك الشهداء المشار إليهم فلا يعرف لها أثر ، غير أنّ الزائر يشير نحو الأرض ممّا يلي قدمي الإمام الحسين (عليه السلام) ، ويسلّم عليهم ، وعليّ بن الحسين معهم كذلك ، ويقول إنّه أقرب إلى أبيه من سائرهم .

أمّا أصحاب الحسين (عليه السلام) الذين استشهدوا معه فقد دفنوا حوله ، وليس في مقدورنا تحديد قبورهم على التحقيق والتفصيل بتعيين مدفن كلّ منهم ، غير أنه لا يعرونا الشك في أنّ الحائر يحيط بهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأسكنهم جنّة النعيم .

يقول المؤلّف : يمكن القول : إنّ حكم الشيخ المفيد (ره) في شأن مدافن الشهداء يرى

الأغلب رأيه ، وهذا لا يتنافى مع كون حبيب بن مظاهر والحرّ بن يزيد قد دفنا في مدفن منفرد .

وينقل صاحب (كامل البهائيّ) أن عمر بن سعد أقام في كربلاء يوم الشهادة إلى زوال اليوم التالي ، ثمّ وكّل جماعة من المسنّين والمعتمدين بالإمام زين العابدين وبنات أمير المؤمنين (عليهم السلام) ، والنساء الأخريات ومجموعهنّ عشرون امرأة وكان زين العابدين (عليه السلام) في الثانية والعشرين من عمره ، والإمام الباقر (عليه السلام) في السنة الرابعة ، وكلاهما كانا في كربلاء ، وقد حفظهما الله تعالى .

ولمّا ارتحل عمر بن سعد من كربلاء كانت طائفة من بني أسد في ترحال ، فلمّا انتهوا إلى كربلاء ورأوا تلك الحالة بادروا إلى دفن الإمام الحسين (صلّى الله عليه وآله) في قبر وحده ، ووضعوا عليّ بن الحسين عند رجلي أبيه (عليه السلام) ، ودفنوا العبّاس (عليه السلام) إلى جانب الفرات حيث استشهد ، وحفروا للباقين قبراً كبيراً دفنوهم فيه ، أمّا الحرّ بن يزيد فقد دفنه ذوو قرباه في الموضع الذي استشهد فيه .

وقبور الشهداء غير مميّزة بحيث يعرف أين دفن كلّ شهيد ، إلاّ أنّه لا شكّ في أن الحائر يحيط بهم جميعاً . انتهى .

وقال الشيخ الشهيد في كتاب (الدروس) بعد الحديث عن زيارة أبي عبد الله (عليه السلام) : وكلّما زاره (عليه السلام) فليزر ابنه عليّ بن الحسين (عليهما السلام) ، وليزر الشهداء وأخاه العبّاس (عليه السلام) ، وليزر الحرّ بن يزيد (عليه السلام) . . الخ .

وهذا كلام ظاهر ، لا بل صريح بأن قبر الحرّ بن يزيد كان معروفاً هناك في عصر الشيخ الشهيد ، ويتّصف بصفة الاعتبار عند ذلك الشيخ الجليل ، ونكتفي بهذا القدر .

صلة الحديث : لا يخفى أنّه وفقاً للأحاديث الصحيحة التي وصلت إلى علماء الإماميّة لا بل ما يتّفق مع أصول المذهب ، أنّ الإمام لا يلي غسله وتكفينه ودفنه إلاّ إمام مثله ، فمع أنّ طائفة من بني أسد هي التي دفنت سيّد الشهداء (عليه السلام) بحسب الظاهر ، ففي الواقع أنّ الإمام زين العابدين (عليه السلام) قدم ودفنه (عليه السلام) ، كما صرّح الإمام الرضا (عليه السلام) في احتجاجه مع الواقفيّة ، بل يستفاد من حديث (بصائر الدرجات) المرويّ عن الإمام الجواد (عليه السلام) أنّ النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) حضر دفنه وكذلك أمير المؤمنين والإمام الحسن وسيّد العابدين مع جبرئيل والروح والملائكة الذين ينزلون إلى الأرض ليلة القدر .

وجاء في (المناقب) عن ابن عبّاس أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) رئي في عالم الرؤيا بعد مقتل الحسين (عليه السلام) وهو أشعث أغبر حافي القدمين يبكي وقد ضمّ حِجز قميصه إلى نفسه وهو يتلو : ﴿ ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون ﴾ ، وقال (ما مضمونه) : قدمت كربلاء فالتقطت دم ابني الحسين من أرضها ، وها هو في حجري أخاصم قتلته أمام الله تعالى .

وروي عن سلمة أنّه قال : دخلت على أمّ سلمة وهي تبكي ، فقلت لها : ما يبكيك ؟ قالت : رأيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في المنام وعلى رأسه ولحيته أثر التراب ، فقلت : ما لك يا رسول الله مغبّراً ؟ قال : شهدت قتل الحسين آنفاً .

وفي رواية أخرى : أنّ أمّ سلمة رضي الله عنها أصبحت يوماً تبكي ، فقيل لها : ممّ بكاؤك ؟ قالت : ما رأيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلّا الليلة ، فرأيته شاحباً كئيباً ، فسألته عن سبب ما هو فيه فقال : ما زلت أحفر القبور للحسين وأصحابه ، عليه وعليهم السلام .

وجاء عن (الجامع) للترمذيّ[1] وعن (الفضائل) للسمعانيّ[2] أنّ أم سلمة رأت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في المنام وعلى رأسه ولحيته أثر التراب ، فسألته عن سبب حالته فأجابها أنّه قادم من كربلاء .

وفي موضع آخر : أنّه (صلّى الله عليه وآله) كان مغبّراً وقال : إنّي فرغت من دفن الحسين .

ومن المعروف أن الأجساد الطاهرة بقيت ثلاثة أيام مرميّة على الأرض دون دفن ، ونُقل عن بعض الكتب أنّها دفنت بعد عاشوراء بيوم واحد ، وهذا مستبعد ؛ ذلك أن عمر بن سعد كان لا يزال في كربلاء في اليوم الحادي عشر لدفن القتلى من عسكره ؛ وكان أهل الغاضريّة قد ارتحلوا عن نواحي الفرات خوفاً من ابن سعد ، وبهذا الاعتبار فهم لا يجرؤون على العودة بهذه السرعة .

وجاء عن (مقتل) محمّد بن أبي طالب ، عن الباقر عن أبيه (عليهما السلام) أن الناس

(١) الترمذيّ : هو الشيخ الحافظ أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سورة المتوفّى سنة ٢٧٥ هـ . وجامع أحد الصحاح الستّة وترمذ قرية قديمة على طرف نهر بلخ .

(٢) السمعانيّ : هو أبو أسعد عبد الكريم بن محمّد المروزيّ الشافعيّ صاحب كتاب (الأنساب) و(فضائل الصحابة) وغيرهما ، توفّي بمرو سنة ٥٦٢ هـ .

الذين حضروا المعركة ودفنوا الشهداء عثروا على جسد جَوْن بعد عشرة أيّام يفوح منه كرائحة المسك .

ويؤيّد هذا الخبر ما جاء في (التذكرة) للسبط من أنّ زهيراً قتل مع الحسين (عليه السلام) فقالت زوجته لمولى زهير : اذهب فكفّن مولاك ، فقصد الرجل كربلاء ، فرأى الحسين (عليه السلام) عارياً ، فقال في نفسه : أكفّن سيّدي وأدع الحسين عارياً ! لا والله ، بل إنه جعل الكفن للحسين (عليه السلام) ، ثم كفّن مولاه بآخر .

ويعلم من أماليّ الشيخ الطوسي في خبر ديزجْ الذي قدم بأمر المتوكل لهدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام) أنّ بني أسد أتوا بقصب مقطّع فرشوا به أرض القبر ثم سجّوا الجسد الطاهر فوق ذلك القصب ، ووارَوه .



الفصل الثالث

في ورود أهل البيت الكوفة وخبر مسلم الجصّاص

لمّا بلغ ابن زياد قُربُ وصول أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة أمر برؤوس الشهداء التي سبق لابن سعد أن سرّحها من قبل ، فنصبت على الرماح وحملت أمام السبايا عند دخولهم الكوفة ، وطيف بهم في السوق والأزقّة إمعاناً في القهر وإظهاراً لغلبة يزيد ، وبثّاً للرهبة والرعب في نفوس الناس .

ولمّا علم أهل الكوفة بوصول السبي خرجوا للنظر إليهنّ ، وفي هذا المقام يقول المرحوم المحتشم ما مضمونه :

لمّا غدا آل النبيّ مشرّدين علا في الكوفة صوت المناحة والأنين

نصبت رؤوس السادة على الرماح وحملت أمام أهل الحرم

ومن أنين المخدّرات تقاطر سكّان العرش في كل ممرّ ومعبر

وامّة لم تخش ربّ العالمين هتكت ستر عترة النبي دون خجل

ويد الجور لا يمكن إلاّ أن تزيد على جرح أهل البيت جوراً آخر(1)

يروى عن مسلم الجصّاص أنّه قال : دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة ، فبينما أنا أجصّص الأبواب وإذا أنا بالزعقات قد ارتفعت من جنبات الكوفة ، فأقبلت على خادم كان معنا فقلت : ما لي أرى الكوفة تضجّ ؟ قال : الساعة أتوا برأس خارجيّ خرج على يزيد ، فقلت : من هذا الخارجيّ ؟ فقال : الحسين بن عليّ (عليهما السلام) .

---

(1) مضمون أشعار بالفارسيّة (المعرّب) .

قال : فتركت الخادم حتّى خرج ولطمت وجهي حتّى خشيت على بصري أن يذهب ، وغسّلت يديّ من الجصّ ، وخرجت من ظهر القصر ، وأتيت الكنّاسة ؛ فبينما أنا واقف والناس يتوقّعون وصول السبايا والرؤوس إذ أقبلت نحو أربعين شقّة[1] تُحمل على أربعين جملاً فيها الحرم والنساء وأولاد فاطمة (عليها السلام) ، وإذا بعليّ بن الحسين (عليهما السلام) على بعير بغير وطاء ، وأوداجه تشخب دماً ، وهو مع ذلك ينشد فيقول :

يا أمّة السوء لا رعياً لربعكم ... يا أمّة لم تراع جدّنا فينا
لو أنّنا ورسول الله يجمعنا ... يوم القيامة ما كنتم تقولونا ؟
تسيّرونا على الأقتاب عارية ... كأنّنا لم نشيّد فيكم دينا
بني أميّة ما هذا الوقوف على ... تلك المصائب لا ترعون داعينا
تصفّقون علينا كفّكم فرحاً ... وأنتم في فجاج تسبونا
أليس جدّي رسول الله ويلكمُ ... أهدى البريّة من سبل المضلّينا
يا وقعة الطفّ قد أورثتني حزناً ... والله يهتك أستار المسيئينا

قال : وصار أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين على المحامل بعض التمر والخبز والجوز ، فصاحت بهم أمّ كلثوم وقالت : يا أهل الكوفة ، إنّ الصدقة علينا حرام ، وصارت تأخذ ذلك من أيدي الأطفال وأفواههم وترمي به إلى الأرض .

كلّ ذلك والكوفيّات يبكين على ما أصابهم ، ثم إنّ أمّ كلثوم أطلعت رأسها من المحمل وقالت لهنّ : صه يا أهل الكوفة ، تقتلنا رجالكم ، وتبكينا نساؤكم ؟ فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء .

فبينما هي تخاطبهنّ إذا بضجّة قد ارتفعت ، فإذا هم أتوا بالرؤوس يقدمهم رأس الحسين[2] (عليه السلام) ، وهو رأس زهريّ قمريّ أشبه الخلق برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولحيته كسواد السبج[3] قد انتصل منها الخضاب ، ووجهه دارة قمر ، والرمح تلعب بها يميناً وشمالاً ، فالتفتت زينب فرأت رأس أخيها فنطحت جبينها بمقدّم المحمل حتّى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها ، وأومأت إليه بحرقة وجعلت تقول أشعاراً هذا مطلعها :

يا هلالاً لمّا استتمّ كمالا ... غاله خسفه فأبدى غروبا

---

(١) المراد بالشقّة : الهودج أو المحمل .

(٢) في (كامل البهائي) أنّه لمّا أمر ابن زياد بأن يطاف بالرأس المقدّس في أزقّة الكوفة وبين قبائلها اجتمع نحو من مئة ألف من الخلق بعضهم يعزّي وبعضهم يهنّئ .

(٣) السبج : حجر أسود شديد السواد .

يقول المؤلّف : لم يرد ذكر للمحامل والهوادج في غير خبر مسلم الجصّاص، ومع أن العلاّمة المجلسي قد نقل هذا الخبر فإنّ مصدره (المنتخب) للطريحي ، وكتاب (نور العين) ، وحال الكتابين لا تخفى على أهل الفنّ الحديث ، كما أنّ نسبة شيخ الراس ونسبة الأشعار المعروفة إلى السيدة زينب (سلام الله عليها) بعيدة أيضاً عن هذه المخدّرة ، عقيلة الهاشميينّ ، العالمة غير المعلّمة ، رضيعة ثدي النبوّة ، صاحبة مقام الرضى والتسليم

وما عُرف عن المقاتل المعتبرة هو أنّ حملهم كان على أقتاب الإبل دون وطاء ، بل إن ما قيل في ورودهم إلى الكوفة يتّفق مع رواية حذام بن ستير التي أوردها الشيخان من أنّهم كانوا محاصرين بالعسكر خوف الفتنة والثورة من أهل الكوفة ، ففي الكوفة الكثير من الشيعة ، النساء اللواتي خرجن من الكوفة يبكين ويشققن الجيوب في ثورة وبكاء ونواح ، وستأتي رواية حذام فيها بعد إن شاء الله .

وعلى العموم فقد صعدت الكوفيّات على أسطح البيوت يتفرّجن على أبناء المختار وفلذات كبد أمير المؤمنين وقد أتي بهم إلى الكوفة كأنهم اسرى يساقون مع رؤوس الشهداء ، وأشرفت امرأة من الكوفيات فقالت : من أي الكفّار الأسارى أنتنّ ؟ فقلن : نحن أسارى آل محمّد ، فنزلت عن سطحها وجمعت مُلاءً وأُزراً ومقانع فأعطتهنّ فتغطّين .

المرحوم النراقي ينقل واقعة كربلاء عن مراثي إرميا النبيّ

يقول المؤلّف : إنّ الشيخ العالم جليل القدر المرحوم الحاج ملاّ أحمد النراقي عطّر الله مرقده ، يروي في كتاب (سيف الأمّة) عن كتاب مراثي إرميا النبيّ الذي يقول في الإصحاح الرابع في الإخبار عن سيّد الشهداء (عليه السلام) ما خلاصته :

ما الذي جرى ، وما هو الحدث الذي وقع حتى اكدرّ الذهب ، وتغيّر الإبريز الجيّد ، وتناثرت أحجار بناء العرش الإلهي ، وغدا أبناء البيت المعمور وهم من كانوا من الذهب يأخذون زينتهم ، وهم من الخلق كافة أفضل النجباء ، فأصبحوا يخيّل إلى من يراهم أنّهم كجرار الخزف ، وفي حين أنّ الحيوانات كانت تقدّم أثداءها إلى صغارها ترضعها ، كان الأعزّة بين أمّة انتفت منها الرحمة ، وقست قلوبها فهي كالخشب ، وهم في القفار أسرى يقاسون العطش حتى صار لسان الطفل الرضيع يلتصق بسقف فمه من شدّة العطش ، والأطفال يتضوّرون جوعاً فإذا سألوا خبزاً لم يكن ليجيبهم أحد بعد أن أضحى كبارهم قتلى مجندلين ، وراح أولئك الذين شبّوا على موائد العزّ يتساقطون هلكى في الشوارع .

لهفي عليهم في غربتهم ، لهفي عليهم وقد نبذوا كما لم ينبذ قوم سدوم ، فهؤلاء لم تلق عليهم الأيدي ، أما أولئك فمع كونهم سلالة بيت الطهر والعصمة ، ومع أنّهم أنقى من

الثلج ، وأكثر بياضاً من اللبن الصافي ، وأكثر بريقاً من الياقوت فقد تغيّرت منهم الوجوه فلم يُعرفوا في الشوارع ، بعد أن لصقت جلودهم بعظامهم .

أقول : من هذه الفقرة في الكتاب السماويّ ، التي هي في الظاهر إشارة إلى هذه الواقعة في الكوفة ، يعرف السرّ في سؤال تلك المرأة إذ قالت : من أيّ الأسارى أنتم !؟ والله هو العالم .

خطبة العقيلة زينب (عليها السلام) بالكوفة

يروي الشيخان المفيد والطوسي عن حذام بن ستير أنّه قال :

قدمت الكوفة في المحرّم سنة إحدى وستين عندما وصل عليّ بن الحسين (عليهما السلام) مع نساء أهل البيت إلى الكوفة ، يحيط بهم عسكر ابن زياد ، وأهل الكوفة يخرجون من منازلهم للنظر إليهم ، وقد حُمل أهل البيت على إبل بغير وطاء ، فجعل أهل الكوفة ينوحون ويبكون ، ورأيت عليّ بن الحسين (عليهما السلام) ضعيفاً قد أنهكته العلّة ، وقد غلّت يداه إلى عنقه ، فقال بصوت ضعيف : « أتنوحون وتبكون من أجلنا ؟ فمن قتلنا » ؟!

قال : وشرعت زينب بنت عليّ (عليه السلام) تخطب في الناس ، فوالله لم أر خفرةً قطّ أنطق منها ، كأنّما تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا ، فارتدّت الأنفاس ، وسكتت الأجراس[1] ، ثمّ قالت :

« الحمد لله ، والصلاة على أبي محمّد ، وآله الطيّبين الأخيار .

أمّا بعد يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر ، أتبكون ؟! فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الزفرة ، إنّما مثلكم كمثل التي **﴿ نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً ، تتّخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم ﴾** ، ألا وهل فيكم إلّا الصلف والعجب ، والشنف والكذب ، وملق الإماء وغمز الأعداء كمرعى على دمنة أو كقصّة[2] على ملحودة ، ألا بئس ما قدّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون .

---

(١) أي لمّا أشارت زينب (ع) عليهم بالسكوت لتتكلّم ، سكتوا ، وتوقّفوا عن الذهاب ليسمعوا ما تقول ، فلمّا توقّف الناس فلا غرو أن سكتت الأجراس .
وأمّا البيانات الواردة عن البعض من أنّ هذه تعدّ واحدة من كرامات العقيلة زينب (ع) فإنّما هي مجرّد اجتهادات ، وجلالة قدر هذه المخدرة لا تحتاج لمثل هذا .

(٢) القصّة : الجصّة ، من تطيين القبور بالجصّ وتقصيصها ، أيّ : تجصيصها .

أتبكون وتنتحبون ؟ أجل والله فابكوا فإنّكم أحرى بالبكاء ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها[١] بغسل بعدها أبداً ، وأنّى ترحضون قتل سليل الأنبياء ، وسيّد شباب أهل الجنّة ، وملاذ خيرتكم ، ومفزع نازلتكم ، ومنار محجّتكم ، ومِدرة[٢] حججكم ؟ ألا ساء ما تزرون ليوم بعثكم ، فبعداً لكم وسحقاً ، فلقد خاب السعي ، وتبّت الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة .

أتدرون ويلكم أيّ كبد لرسول الله فريتم ؟ وأيّ كريمة له أبرزتم ؟ وأيّ حرمة له هتكتم ؟ وأيّ دم له سفكتم ؟!! لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السماوات يتفطّرن منه ، وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً ، لقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقهاء[٣]، كطلاع الأرض أو ملء السماء ، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً ؟ ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون ، فلا يستخفنّكم المهل ، فإنّه عزّ وجلّ لا يحفزه البدار ، لا يخاف فوت الثار ، وإنّ ربّكم لبالمرصاد » .

قال الراوي : فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون ، وقد ردّوا أيديهم في أفواههم؛ ورأيت شيخاً واقفاً يبكي وقد اخضلت لحيته، وهو يقول:

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عدّ نسلٌ لا يخيب ولا يخزي

وفي رواية صاحب (الاحتجاج) أن عليّ بن الحسين (عليهما السلام) قال :

« يا عمّة اسكتي ، ففي الباقي من الماضي اعتبار ، وأنت بحمد الله عالمة غير معلّمة ، فهمة غير مفهّمة ، إنّ البكاء والحنين لا يردّان من قد أباده الدهر » .

هذا وقد خطبت فاطمة بنت الحسين (عليه السلام) وأمّ كلثوم أيضاً خطبتين كما نُقل ، لا مجال هنا لإيرادهما .

وبعد أن نقل السيّد ابن طاوس الخطبة ، قال : فضجّ الناس بالبكاء والأنين والنوح ، ونشر النساء شعورهنّ ، ووضعن التراب على رؤوسهنّ ، وخمشن وجوههنّ ، وضربن خدودهنّ ، ودعون بالويل والثبور ، وبكى الرجال ، فلم ير باك وباكية أكثر من ذلك اليوم .

---

(١) رحض الثوب : غسله .

(٢) المدرة : سيّد القوم وزعيمهم .

(٣) أي الداهية المتفاقمة القبيحة التي أتوها .

خطبة السجّاد (عليه السلام)

ثمّ إنّ زين العابدين (عليه السلام) أومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا ، وهو قائم ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر النبيّ وصلّى عليه ، ثمّ قال :

« أيّها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم ، أنا ابن المذبوح بشطّ الفرات ، من غير ذحل ولا ترات[1] ، أنا ابن من انتهك حريمه ، وسلب نعيمه ، وانتهب ماله ، وسبي عياله ؛ أنا ابن من قتل صبراً ، وكفى بذلك فخراً .

أيّها الناس ، ناشدتكم بالله ، هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه ، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة ، ثمّ قاتلتموه وخذلتموه ؟ فتباً لكم ما قدّمتم لأنفسكم ، وسوأة لرأيكم ، بأيّ عين تنظرون إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذ يقول لكم : قتلتم عترتي ، وانتهكتم حرمتي ، فلستم من أمّتي » ؟!

قال : فارتفعت أصوات الناس من كلّ ناحية ، ويقول بعضهم لبعض : هلكتم وما تعلمون !

فقال عليّ بن الحسين (عليه السلام) : « رحم الله امرأ قبل نصيحتي ، وحفظ وصيّتي في الله ورسوله وأهل بيته ، فإنّ لنا في رسول الله أسوة حسنة » .

فقالوا بأجمعهم : نحن كلّنا يا بن رسول الله سامعون مطيعون ، حافظون لذمامك ، غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك ؛ فمرنا بأمرك رحمك الله ، فإنّا حرب لحربك ، وسلم لسلمك ، لنأخذنّ ترتك وترتنا ممّن ظلمك وظلمنا .

فقال (عليه السلام) : « هيهات هيهات ! أيّها الغدرة المكرة ، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم ، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلى آبائي من قبل ؟ كلاّ والله ، فإنّ الجرح لمّا يندمل ، قتل أبي بالأمس وأهل بيته معه ، فلم ينسني ثكل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وثكل أبي وبني أبي وجده في لهاتي ، ومرارته بين حناجري وحلقي ، وغصصه تجري في فراش صدري ، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا » .

ثمّ قال (عليه السلام) :

لا غرو أن قُتل الحسين ، فشيخه ... قد كان خيراً من حسين وأكرما

---

(١) الذحل : الثأر ، والترات : جمع ترة وهي الظلم والانتقام .

لا تفرحوا يا أهل كوفة بالذي أصيب حسين كان ذلك أعظما
قتيل بشطّ النهر روحي فداؤه جزاء الذي أرداه نار جهنّما

ثم قال (عليه السلام) :

« رضينا منكم رأساً برأس ، فلا يوم لنا ، ولا يوم علينا » .



الفصل الرابع

أهل البيت (عليهم السلام) في دار الإمارة بالكوفة

لمّا قدم أهل البيت صلوات الله عليهم الكوفة جلس ابن زياد في القصر ، وأذن للناس إذناً عامّاً ، فاجتمع في قصره كلّ حاضر وباد ، ثمّ إنّه أمر برأس سيّد الشهداء فوضع بين يديه ، فجعل ينظر إليه ويتبسم ، وفي يده قضيب[1] ، وقيل : سيف رقيق ، يضرب به ثناياه ويقول : إنّه كان حسن الثغر ؛ وكان إلى جانبه زيد بن أرقم صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وهو شيخ كبير ، فلمّا رآه يضرب بالقضيب ثناياه قال :

« ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين ، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عليهما يقبّلهما ما لا أحصيه » .

ثمّ انتحب باكياً ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك ، أتبكي لفتح الله ؟ والله لولا أنّك شيخ كبير قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك ، فنهض زيد بن أرقم من بين يديه ، وصار إلى منزله .

قال الراوي : وكانت زينب أخت الحسين (عليه السلام) في جملة من حضر المجلس ، وقد دخلت متنكرّة وعليها أرذل ثيابها ، ومضت حتّى جلست ناحية ، وحفّت بها إماؤها .

---

(١) لعلّ هذا القضيب هو الذي تحوّل إلى حيّة برزخيّة بما يلائم تجسّم الأعمال ، إذ نقل في العديد من كتب التاريخ أنّ رأس هذا الكافر كان مرمياً على الأرض بين رؤوس القتلى أيّام المختار ، والناس يتفرّجون ، وإذا بحيّة تدخل وتخرج من ثقبي عينيه وفمه ، والناس يقولون : قد جاءت ، قد جاءت ، وتكرّر ذلك منها .

ويستفاد من تاريخ الطبري أن ابن زياد جعل يضرب ثنايا الحسين بالقضيب ساعة ، ويكرر ذلك بضربات متتابعة كالمطر المتساقط على الأرض .

فقال ابن زياد : من هـذه التي انحازت وجلست نـاحية ، ومعهـا نسـاؤهـا ؟ فلم يلق جواباً، فأعاد القول ثانية وثالثة يسأل عنها فقالت له بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

فأقبل عليها ابن زياد وقال : الحمد لله الـذي فضحكم وقتلكم ، وأكذب أحـدوثتكم ؛ فقالت زينب سلام الله عليها :

« الحمـد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمّد (صـلّى الله عليه وآلـه) ، وطهّـرنـا من الـرجس تطهيراً ، إنّما يفتضح الفاسق ، ويكذّب الفاجر ، وهو غيرنا » .

فقال : كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك ؟

فقـالت : « مـا رأيت إلّا جميـلاً ، وهؤلاء قـوم كتب الله عليهم القتـل ، فـبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينـك وبينهم فتحاجّ وتخـاصَم ، فانـظر لمن الفلج يومئـذ ، ثكلتك أمّك يا بن مرجانة » .

قال : فغضب ، وكأنّه همّ بها ، فقـال له عمـرو بن حريث (وكـان في الحضور) : إنّها امـرأة ، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقهـا ؛ فقـال لهـا ابن زيـاد : لقـد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين ، والعصاة المردة من أهل بيتك ! فقالت وقد أخذتها الرقّة وهي تبكي :

« لعمري لقد قتلت كهلي ، وقطعت فرعي ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت » !!

فقال ابن زياد : هذه سجّاعة[1] ، ولعمري لقد كان أبوها سـجّاعاً شاعراً ، فقالت وهي لا تملك صبرها : « يا بن زياد ، وما للمرأة والسجاعة » !؟

وفي رواية ابن نما أنها قالت : « وإنّ لي عن السجاعـة لشغلاً ، وإنّي لأعجب ممّن يشتفي بقتل أئمّته ، ويعلم أنّهم منتقمون منه في آخرته » !

ثمّ التفت ابن زيـاد إلى عليّ بن الحسـين (عليهما السـلام) فقال : من هـذا ؟ فقيـل :

---

(١) السجّـاعة : التي تقـول السجع ، وهـو الكلام المقفّى ، ويحتمـل أن تكون الشجـاعة بشـين معجمة ، أي الجريئة ، وفي منتهى الأرب : الشجاعة بالتثليث : المرأة الجريئة في الشدّة .

أقول : يكفي في شجاعة زينب سلام الله عليها أنها في هذا التجمّع الكبير أنّها عيّرت ذلك الـدبّ الأكبر في أمّه مرجانة ، وكانت أمّه مشهورة بالزنى .

وقـد أشار إليهـا أمير المؤمنين (ع) في قولـه لميثم التمّار : «ليـأخذنّـك العتلّ الـزنيم ابن الأمـة الفـاجـرة عبيد الله بن زياد » وأشار إليها الشاعر أيضاً بقوله :

لـعـن الله حـيـث حـلّ زيـاداً ... وابـنـه والـعـجـوز ذات الـبـعـول

عليّ بن الحسين ، فقال : أليس قد قتل الله عليّ بن الحسين ؟ فقال عليّ (عليه السلام) : قد كان لي أخ يسمّى عليّ بن الحسين ، قتله الناس ، فقال : بل الله قتله ، فقال : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ﴾ .

فقال ابن زياد : ولك جرأة على جوابي ؟ اذهبوا به واضربوا عنقه .

فتعلّقت به عمّته زينب وقالت : « يا بن زياد ، حسبك من دمائنا » ، واعتنقته وقالت : «والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه».

فنظر ابن زياد إليها وإليه ساعة ثم قال : عجباً للرحم ، والله إنّي لأظنّها ودّت أنّي قتلتها معه ، دعوه فإنّي أراه لما به .

وفي رواية السيّد : أنّ عليّاً (عليه السلام) قال لعمّته : اسكتي يا عمّة حتّى أكلّمه ، ثم أقبل (عليه السلام) فقال : « أبا القتل تهدّدني يا بن زياد ؟ أما علمت أن القتل لنا عادة ، وكرامتنا الشهادة ؟»

وروي أن الرباب بنت امرىء القيس زوجة الحسين (عليه السلام) كانت في مجلس ابن زياد فأخذت الرأس المطهّر واحتضنته تقبّله وتندبه وتقول :

واحسينا فلا نسيت حسينا قصدته أسنّة الأدعياء
غادروه بكربلاء صريعاً لا سقى الله جانبي كربلاء

وقد أرادت بقولها : « لا سقى الله جانبي كربلاء » الإشارة إلى عطش الحسين (عليه السلام) ، والحقّ أنّها لم تنسه ، كما سيرد في فصل قادم إن شاء الله .

يقول الراوي : ثمّ أمر ابن زياد بعليّ بن الحسين (عليه السلام) وأهله فحملوا إلى دار إلى جنب المسجد الأعظم ، فقالت زينب سلام الله عليها : « لا يدخلنّ علينا عربيّة ، إلاّ أمّ ولد أو مملوكة ، فإنّهن سُبين وقد سبينا » .

قلت : ويناسب في هذا المقام أن أذكر شعر أبي قيس بن الأسلت الأوسيّ :

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتلّ عن إتيانهنّ فتُعذَر
وليس لها أن تستهين بجارة ولكنّها منهنّ تحيى[1] وتخفر

(١) تحيى : تحتشم وتخجل .

مقتل عبد الله بن عفيف الأزديّ

يقول الشيخ المفيد (ره) : ثمّ إن ابن زياد صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهله ، ونصر أمير المؤمنين وأشياعه ، وقتل الكذّاب (والعياذ بالله) ابن الكذّاب وأتباعه .

فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزديّ ، وكان من خيار الشيعة وزهّادها ، وكانت عينه اليسرى ذهبت في يوم الجمل ، والأخرى في يوم صفين ، وكان يلازم المسجد الأعظم فيصلّي فيه إلى الليل ، فقال :

يا بن مرجانة ، إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك ، ومن استعملك وأبوه ، يا عدّو الله ، أتقتلون أبناء النبيّين وتتكلّمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين ؟!

فغضب ابن زياد حتى انتفخت أوداجه ، وقال : عليّ به ، فبادر إليه الجلاوزة من كلّ ناحية ليأخذوه ، فقامت الأشراف من الأزد من بني عمّه فخلّصوه من أيدي الجلاوزة ، وأخرجوه من باب المسجد ، وانطلقوا به إلى منزله .

ولمّا لم تكن لابن زياد طاقة على قتالهم ، تربّص حتى كان الليل ، فأرسل إليه من أخرجه من بيته ، فضرب عنقه وصلبه في السبخة[1] ، رحمه الله .

ولمّا أصبح ابن زياد بعث برأس الحسين (عليه السلام) فدير به في سكك الكوفة وقبائلها .

وروي عن زيد بن الأرقم أنّه قال : مرّوا عليّ برأس الحسين (عليه السلام) وهو على رمح ، وأنا في غرفة لي ، فلمّا حاذاني سمعته يقرأ :

﴿ أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ ؟

فقفّ والله شعري عليّ ، وناديت : « رأسك يا بن رسول الله أعجب وأعجب » .

وروي أن أربعة مساجد جدّدت بالكوفة فرحاً بقتل الحسين (عليه السلام) : مسجد الأشعث ، ومسجد جرير ، ومسجد سماك ، ومسجد شبث بن ربعيّ .

---

(١) السبخة : أرض ذات نزّ وملح ، وهي اسم موضع في البصرة ، ويحتمل أنّ بالكوفة سبخة صُلب فيها عبد الله ، والبعض يذكر : « مسجد » مكان سبخة ، والله هو العالم .

[جاء في (البحار) أن المراد بالسبخة : الكُنَاسة (المعرّب)] .

يعرف من كتاب (الدرّ النظيم) أنّ خبر مقتل الحسين (ع) وصل إلى المدينة بعد أربعة وعشرين يوماً مضت على يوم عاشوراء ، والله هو العالم .

الفصل الخامس

في كتاب ابن زياد إلى يزيد ومبعوثه إلى المدينة

لمّا انجز عبيد الله بن زياد قتله ونهبه وأسره لأهل البيت صلوات الله عليهم ، كتب إلى يزيد بن معاوية يخبره بقتل الحسين ، وخبر أهل بيته ، وكتب أيضاً إلى عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة بمثل ذلك ، والشيخ المفيد لم يتعرّض لكتاب يزيد بل قال :

ثمّ إنّه بعد أن طيف برأس الحسين في سكك الكوفة ، بعث به مع سائر الرؤوس مع زحر بن قيس إلى يزيد .

ثمّ بعث بعبد الملك السلمي إلى المدينة بعد أن أوصاه بقوله : انطلق حتّى تأتي عَمْروَ بن سعيد بالمدينة ، فبشّره بقتل الحسين .

قال عبد الملك : فركبت راحلتي وسرت نحو المدينة ، فلقيني رجل من قريش ، فقال : ما الخبر؟ فقلت : الخبر عند الأمير تسمعه ، قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، قتل والله الحسين .

فلمّا دخلت على عمرو بن سعيد قال : ما وراءك ؟ فقلت : ما سرّ الأمير ! قتل الحسين بن عليّ ، فقال : اخرج فناد بقتله ، فناديت ، فلم أسمع والله واعية[1] قطّ مثل واعية بني هاشم في دورهم على الحسين بن عليّ حين سمعوا النداء بقتله .

ثمّ دخلت على عمرو بن سعيد ، فلمّا رآني تبسّم إليّ ضاحكاً ، ثمّ أنشأ متمثّلاً بقول عمرو بن معدي كرب :

---

(١) الواعية : الصراخ .

عجّت نساء بني زياد عجّة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[1]

ثمّ قال : هذه واعية بواعية عثمان ، ثمّ صعد المنبر فأعلم الناس بقتل الحسين .

ووفقاً لبعض الروايات فإن عَمْروَ بن سعيد قال كلاماً يذكّر به بدم عثمان ، ملوّحاً بأن بني هاشم كانوا سبب قتله ، وها هم الآن قتلوا حسيناً قصاصاً لدم عثمان ، قال : إنّها لدمة بلدمة ، وصدمة بصدمة .

ثمّ قال مراعياً المصلحة : والله لوددت أنّ رأسه في بدنه ، وروحه في جسده ، أحياناً كان يسبّنا ونمدحه ، ويقطعنا ونصله ، كعادتنا وعادته ، ولكن كيف نصنع بمن سلّ سيفه يريد قتلنا إلاّ أن ندفعه عن أنفسنا ؟

فقام عبد الله بن السائب فقال : لو كانت فاطمة حيّة فرأت رأس الحسين لبكت عليه ، فقال له عمرو : نحن أحقّ بفاطمة منك ، لو كانت حيّة لبكت عينها ، وحرّت كبدها ، وما لامت من قتله ودفعه عن نفسه .

قال : فدخل بعض موالي عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فنعى إليه ابنيه ، فقال عبد الله بن جعفر : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » .

ودخل بعض مواليه ودخل الناس يعزّونه ، فقال غلام له هو أبو اللسلاس : هذا ما لقينا من الحسين بن عليّ ! يريد أن الحسين (عليه السلام) سبب مصيبتهم .

فحذفه عبد الله بنعله ، ثمّ قال : « يا بن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتّى أقتل معه » .

ثمّ أقبل على جلسائه فقال : « عزّ عليّ مصرع الحسين ، فالحمد لله ، إن لا أكن آسيت حسيناً بيدي فقد آساه ولداي » .

قال الراوي : لمّا سمعت أمّ لقمان بنت عقيل بن أبي طالب نعي الحسين (عليه السلام) خرجت حاسرة ومعها أخواتها : أمّ هانيء ، وأسماء ، ورملة ، وزينب بنات عقيل تبكي قتلاها بالطفّ وهي تقول :

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وقتلى ضرّجوا بدم

(١) الأرنب : وقعة كانت لبني زبيد على بني زياد من بني الحرث بن كعب ، وهذا البيت لعمرو بن معدي كرب .

ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

يقول الشيخ الطوسي (ره) : لمّا أتى نعي الحسين (عليه السلام) المدينة خرجت أسماء بنت عقيل مع جماعة من نساء أهل البيت ، حتّى انتهت إلى قبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فلاذت به وشهقت عنده ، ثمّ التفتت إلى المهاجرين والأنصار وهي تقول :

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتم عترتي أو كنتمُ غيباً والحق عند وليّ الأمر مجموع
أسلمتموهم لأيدي الظالمين فما منكم له اليوم عند الله مشفوع

يقول الراوي : فما رأينا باكياً ولا باكية أكثر ممّا رأينا في ذلك اليوم ، الذي ما أن وصل إلى آخره وكان الليل ، حتى سمع أهل المدينة مُنادياً يسمعون صوته ولا يرون شخصه ينادي :

أيّها القاتلون جهلاً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل
كلّ أهل السماء يدعو عليكم من نبيٍّ ومرسل وقتيل
قد لُعنتم على لسان ابن داو د وموسى وصاحب الإنجيل



الفصل السادس

ردّ يزيد على كتاب ابن زياد والرحيل الى الشام

تسيير أهل البيت (عليهم السلام) إلى الشام

لمّا وصل كتاب ابن زياد إلى يزيد ووقف عليه أعاد الجواب إليه يأمره فيه بحمل رأس الحسين (عليه السلام) ورؤوس من قتل معه ، وحمل أثقاله ونسائه وعياله .

يقول أبو جعفر الطبريّ في تاريخه :

لمّا قتل الحسين وجيء بالأثقال والأسارى حتّى وردوا بهم الكوفة إلى عبيد الله بن زياد ، فبينا القوم محتبسون إذ وقع حجر في السجن معه كتاب مربوط ، وفي الكتاب :

« خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية ، وهو سائر كذا وكذا يوماً ، وراجع في كذا وكذا ؛ فإن سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل ، وإنّ لم تسمعوا تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله » .

فلمّا كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة ، إذا حجر قد ألقي في السجن ومعه كتاب مربوط وموسى ، وفي الكتاب :

« أوصوا واعهدوا ، فإنّما يُنتظر البريد يوم كذا كذا » .

فجاء البريد ، ولم يسمع التكبير ؛ وجاء كتاب بأن : « سرّح الأسارى إليّ » .

قال : فدعا عبيد الله بن زياد محفّر بن ثعلبة والشمر بن ذي الجوشن فقال : انطلقوا بالثقل والرأس إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية .

وفي رواية الشيخ المفيد : دفع ابن زياد رأس الحسين صلوات الله عليه . إلى زحر بن قيس ، ودفع إليه رؤوس أصحابه ، وسرّحه إلى يزيد بن معاوية ، وانفذ معه أبا بردة بن عوف

الأزديّ ، وطارق بن أبي ظبيان في جماعة من أهل الكوفة .

وعلى العموم فبعد إنفاذ الرؤوس أمر بإعداد أهل البيت (عليهم السلام) للرحيل ، وأمر بالسجّاد (عليه السلام) فغُلّ ، وبالمخدارت فحملن على الجمال كما يفعل بالأسرى ، وعيّن عليهم محفّر بن ثعلبة والشمر ، وأمرهما بالإسراع والالتحاق بزحر بن قيس ، فسارعوا يطوون الطرق حتّى انتهوا إلى زحر بن قيس .

قال المقريزيّ[1] في (الخطط والآثار) : وسيّر النساء والصبيان ، وغلّت يدا عليّ بن الحسين ، وحملوهم على الأقتاب .

وجاء في (كامل البهائي) أنّ إمام أهل البيت وحرمه خرجوا إلى الشام على رواحلهم ، ذلك أنّ الأموال انتهبت ، أمّا الرواحل فتركت معهم ؛ وجاء أيضاً أنّ الشمر بن ذي الجوشن ومحفّر بن ثعلبة وليا أمورهم ، فقرّنا عنق عليّ بن الحسين (عليه السلام) بالأغلال الثقيلة ، كما قيّدا يديه إلى عنقه ، واشتغل الإمام في الطريق بحمد الله والثناء عليه ، وفي الصلاة والاستغفار ، فلم يكن ليكلّم أحداً سوى مخدّرات أهل البيت عليهم السلام . انتهى .

وعلى العموم فإن أولئك المنافقين نصبوا رؤوس الشهداء على الرماح ، أمام أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وساروا بهم من مدينة إلى أخرى ، ومن منزل إلى آخر ، بكل شماتة وإذلال ، وكانوا يمرّون بهم على كل قرية وقبيلة تحذيراً لشيعة عليّ (عليه السلام) كي يقنطوا من أمر استخلاف بني هاشم ، ويخلصوا الميل إلى يزيد ، وكانت المرأة أو الطفل إذا ذكر أحدهما قتلاه فبكى أسكتته وخزة من رمح في رأسه ، من أحد حملة الرماح المحيطين بهم ، وما زال أولئك المظلومون في معاناتهم ، وهم لا ناصر لهم ، حتى انتهوا بهم إلى دمشق .

ويذكر السيد ابن طاوس في كتاب (الإقبال) نقلاً عن كتاب (مصابيح الأنوار) عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« قال لي أبي محمّد بن عليّ : سألت أبي عليّ بن الحسين عن حمل يزيد له ، فقال : حملني على بعير يظلع بغير وطاء ، ورأس الحسين على علم ، ونسوتنا خلفي على بغال وُكُف[2] ، والفارطة[3] خلفنا وحولنا بالرماح ، إن دمعت من أحدنا عين قرع رأسه بالرمح ، حتّى إذا

---

(١) المقريزي : تقيّ الدين أحمد بن عليّ المؤرّخ صاحب الكتب الكثيرة ، منها تاريخ مصر المسمّى بـ(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، أصله من بعلبك ، ويعرف بالمقريزيّ نسبة إلى حارة تعرف بحارة المقارزة ، وتوفّي سنة ٨٥٤ هـ .

(٢) وُكُف : جمع وكاف وإكاف ، وهو البرذعة دون سرج .

(٣) الفارطة : جمع فارط ، وهو الذي يتقدّم قومه إلى الماء ، والمراد هنا : الأفراد الموكّلون بالقافلة .

دخلنا دمشق صاح صائح : يا أهل الشام ، هؤلاء سبايا أهل البيت الملعون » . (نعوذ بالله)!!

ونقل عن (التبر المذاب) وغيره أن المؤكّلين بالرؤوس والأسارى كانوا إذا بلغوا منزلاً من المنازل أخرجوا الرأس المقدس من الصندوق المودع فيه ، فنصبوه على السنان ، فإذا ارتحلوا أعادوه ثمّ احتملوا ؛ وكانوا في أكثر المنازل يشربون الخمر إذا حلّوا ، ومنهم : مُحفّر بن ثعلبة ، وزحر بن قيس ، والشمر ، وخوليّ وغيرهم .

يقول المؤلّف : لم يورد أرباب المقاتل المعروفة والمعتمدة ذكراً لمواقع المنازل التي مرّ بها أهل البيت (عليهم السلام) في رحلتهم من الكوفة إلى الشام بترتيب وتسلسل منتظم إلا البعض منها ، مع أن مفردات تلك المواقع وردت صحيحة في الكتب المعتبرة .

وفي كتاب ينسب إلى أبي مخنف[1] ذكرت أسماء المنازل ، وجاء فيه أن الرؤوس والسبايا سيّروا من شرقي (الحصّاصة) ، فعبر بهم إلى (تكريت) ، ثمّ عبروا بهم طريقاً برّيّة إلى (أعمى) ، ثمّ مرّوا على (دير أعْور) فعلى (صليتا) ، وبعدها (وادي نخلة) ، وفي هذا المنزل تداعت إلى أسماعهم أصوات الجنّ وهنّ ينحن على الحسين (عليه السلام) ويرثينه ؛ ثم ساروا من وادي نخلة عن طريق (أرمينا) حتى بلغوا (لبا) ، وقد خرج أهلها ينوحون ويبكون ، ويصلّون على الحسين وأبيه وجدّه صلوات الله عليهم ، ويعلنون البراءة من قتلته ؛ ثم طردوا العسكر من بلدتهم .

---

(١) لا يخفى أنّ أبا مخنف لوط بن يحيى الأزديّ من أكابر المحدّثين ، ومعتمد أرباب السير والتواريخ ، و(مقتله) في غاية الاعتبار ، وذلك معلوم من أنّ أعاظم قدماء العلماء ينقلون عنه ، ولكن ممّا يؤسف له أنّ أصل (مقتله) الخالي عن أي عيب ليس في المتناول ، و(المقتل) الموجود الذي ينسب إليه يشتمل على بعض أمور منكرة لعلّ الأعادي والجهّال ضمّنوها هذا الكتاب لأغراض غير سليمة ، ولهذا السبب فقط سقط الكتاب عن مرتبة الاعتبار ، وبعدت مفرداته عن الوثوق .

غير أنّ ما جاء فيه عن مسير أهل البيت من الكوفة إلى الشام من أمور عديدة ـ ونقلنا نحن ملخّصاً عنها ـ لا يصحّ أن يقال بأنّها جميعها من دسّ الوضّاعين ، سيّما وأنّ بعضها لا داعي فيه للوضع ، علاوة على أن هناك شواهد على صدق أغلبها لوجوده في الكتب المعتبرة ، كقضية دير راهب قنّسرين وكان في منزل في حلب ، وآل إلى الخراب إثر غارة من الروم سنة ٣٥١ ، وقصّة اليهوديّ الحرّانيّ التي نقلها السيّد عطاء الله بن السيّد غياث الدين في (روضة الأحباب) ، كما نقل ابن شهرآشوب أموراً كثيرة ، وصرّح العالم الجليل الخبير عماد الدين الحسن بن عليّ الطبرسيّ في (كامل السقيفة) أنّ الركب مرّ في مسيره على مايّد والموصل ونصيبين وبعلبكّ وميافارقين وشيزر ؛ كما أنّ الفاضل الألمعيّ الملاّ حسين الكاشفي نقل أموراً متعلّقة عن المرور فيها بين منازل عديدة في (روضة الشهداء) ، ومن هذا بمجموعه يحصل الاطمئنان إلى أن المسير كان عن هذا الطريق ، كما أنّه لم يصلنا خلافه حتّى الآن من أصول الأصحاب وأقوالهم .

وتابع الركب سيره حتى عبروا (كحيل) ومنها إلى (جُهينه) ، ومن جهينة كتبوا إلى عامل الموصل ليكون في استقبالهم ، ويخبرونه أنّ رأس الحسين (عليه السلام) معهم ، فأمر عامل الموصل بإقامة الزينات ، وخرج مع جمع كبير من الناس لاستقبالهم على ستّة أميال من المدينة ، وتساءل البعض عن الأمر ، فقيل لهم : إنهم يحملون رأس خارجيّ إلى يزيد ! فقال أحدهم : أيّها القوم إنّه رأس الحسين بن عليّ (عليهما السلام) ، وليس رأس خارجيّ ، فما أن أدرك الناس ذلك حتّى تجهّز أربعة آلاف من الأوس والخزرج لقتال عسكر ابن زياد واستخلاص الرأس منهم ودفنه ، فبلغهم ذلك فامتنعوا عن دخول (الموصل) وعبروا من (تلّ أعفر) نحو جبل (سنجار) ، ومن هناك انتهوا إلى (نصيبين) ومنها إلى (عين الوردة) ثم إلى (دعوات) ، وقبل أن يبلغوا (دعوات) كتبوا إلى عاملها ، الذي أحسن استقبالهم ، ودخلوا البلدة ، ثم نصبوا الرأس المبارك من الظهر إلى العصر في الرحبة ، وانقسم الناس هناك إلى فريقين ، فريق أسعده الأمر وأفرحه ، وفريق أقام مأتم الحزن والعزاء .

وانصرف رجال يزيد تلك الليلة إلى الشراب ، ثم ارتحلوا من غدهم إلى (قنّسرين) ، فاستقبلهم أهلها باللعن والضرب بالحجارة ولم يسمحوا لهم بدخولها ، فانصرفوا منها إلى (معرّة النعمان) حيث استقبلهم أهلها بالترحاب ، وقدّموا لهم الطعام والشراب ، فقضوا هناك يومهم ، ثم توجّهوا إلى (شيْزَر) فمنعوا من دخولها ، فتابعوا مسيرهم إلى (كفر طاب) حيث منعوا من دخولها كذلك ، وقد نفد منهم الماء واشتدّ بهم العطش ، ولم يُجدِ الناس خوليّ ورجاؤه لهم نفعاً ، بل قيل لهم : لن تذوقوا قطرة ماء واحدة ، كما قتلتم الحسين وأصحابه عطاشى .

ثم انتقلوا منها إلى (سيبور) فانبرت طائفة من أهلها لقتال أولئك الكفرة ، فدعت لهم أمّ كلثوم بأن يسيغ الله مياههم ، ويرخص أثمان حوائجهم ، ويحجب الطغاة عنهم ؛ ثم توجّهوا إلى (حماة) فاغلق أهلها الأبواب في وجوههم .

فتوجّهوا نحو (حمص) ومنها إلى (بعلبكّ) حيث استقبلهم أهلها بالطبل والزمر ونقر الدفوف ، فدعت عليهم أمّ كلثوم نقيض ما دعت لأهل سيبور ، ثمّ انتقلوا منها إلى (الصومعة) ومنها إلى (الشام)[1] .

---

(١) إلى هذا التجوال بأهل البيت خير الأنام في ديار الإسلام أشارت السيدة زينب سلام الله عليها في خطبتها في مجلس يزيد بقولها :

« أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا ، قد هتكت ستورهنّ ، وأبديت وجوههنّ ، تحدوا بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهنّ أهل المناهل والمناقل . . . » الخ .

كما أشار الشاعر إلى إشهار الرأس المقدّس فقال :

قد أخذ هذا المختصر عن كتاب ينسب إلى أبي مخنف (ره)، وفي هذا الكتاب كما في (كامل البهائي) و(روضة الأحباب) و(روضة الشهداء) وغيرها قضايا ووقائع متعدّدة ، وكرامات كثيرة لأهل البيت (عليهم السلام) ، وكرامات صدرت عن الرأس المقدّس في أغلب هذه المنازل ، وإذ يتعارض نقلها مع هذا المختصر ، فنحن نكتفي بذكر بعضها ، مع أنّ ابن شهر اشوب يقول في (المناقب) :

«ومن مناقبه : ما ظهر من المشهد الذي يقال له : مشهد الرأس، من كربلاء إلى عسقلان وما بينها ، والموصل ونصيبين وحماة وحمص ودمشق وغير ذلك» .

ويعلم من هذه العبارة أنّ « مشهد الرأس » كان في كلّ من هذه المنازل ، وأنّ كرامة كانت تظهر من ذلك الرأس المقدّس .

وهذه إحدى الوقائع والكرامات التي وردت في (روضة الشهداء) للفاضل الكاشفيّ :

لمّا اقتربت قافلة السبايا من الموصل ، وأبلغ جند يزيد عاملها بوصولهم ، رفض أهلها إدخال الرؤوس وأهل البيت إلى مدينتهم ، وأرسلت إليهم الأطعمة والأعلاف وهم على بعد فرسخ منها ، حيث نزلوا هناك ، ووضعوا الرأس المقدّس على صخرة ، فوقعت قطرة دم من الحلقوم المقدّس على تلك الصخرة ، فصارت تلك الصخرة بعد ذلك ترشح دماً عبيطاً طريّاً كلّ عام في يوم عاشوراء ، فيتحلّق الناس حول الصخرة ويقيمون مأتماً للعزاء ، واستمرّ الأمر على ذلك حتّى عهد عبد الملك بن مروان الذي أمر باقتلاع تلك الصخرة وإخفائها ، فأقام الناس في مكانها مشهداً تعلوه قبّة ، وصار مزاراً يعرف بمشهد النقطة .

وكرامة أخرى هي واقعة حرّان ، وقد وردت في طائفة من الكتب إضافة إلى الكتاب المذكور ، وخلاصة الواقعة أنّه لمّا انتهت قافلة الأسرى والرؤوس إلى بلدة حرّان ، وما كان من خروج أهلها للفرجة ، شاهد أحد اليهود ، واسمه يحيى ، أنّ شفتي الرأس المقدّس تتحرّكان ، فدنا منه فسمعه يتلو : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ ، فأخذه العجب ممّا رأى ، وسأل عن قصّة الرأس فأخبر بأمره ، فترحّم على الحسين (عليه السلام) ثمّ نزع عمامته وقسّمها على نسوة أهل البيت ، وكان عليه ثوب من خزّ ثمنه ألف درهم قدّمه إلى

= رأس ابن بنت محمّد ووصيّه … للمسلمين على قناة يرفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع … لا جازعٌ منهم ولا متوجّع
أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى … وأنمت عيناً لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية … وأصمّ رزؤك كلّ أذن تسمع
ما روضة ، إلاّ تمنّت أنّها … لك مضجع ولخطّ قبرك موضع

الإمام السجّاد (عليه السلام) ، فمنعه الجند من ذلك ، فشهر سيفه وحمل عليهم فقتل خمسة قبل أن ينالوا منه ، ومات بعد أن شهر إسلامه ، إذ ثبتت لديه أحقيّة الدين الاسلامي ، وقبره قائم عند بوّابة حرّان ، ويعرف بقبر يحيى الشهيد ، والدعاء عنده مستجاب .

ونظير واقعة يحيى جرت واقعة (زرير) في عسقلان ، فقد رأى المدينة تملأها الزينات ، ولما سأل عن الأمر وعرف الحقيقة قدّم ثياباً عنده للإمام عليّ بن الحسين ومخدّرات أهل البيت (عليهم السلام) ، وقد جُرح على أيدي الجند .

كما نقل عن بعض الكتب أنه لما بلغت القافلة مدينة حماة ، وما كان من مبادرة أهلها لنصرة أهل البيت (عليهم السلام) ، قالت أمّ كلثوم :

ما يقال لهذه المدينة ؟ قالوا : حماة ، قالت : حماها الله من كلّ ظالم .

قصّة سقط الحسين (عليه السلام) في جبل جوشن : جاء في (معجم البلدان) للحمويّ أنّ (جوشن) جبل يقع إلى الطرف الغربيّ من حلب ، وفيه منجم يجمع منه النحاس الأحمر ، لكنّ ذلك المنجم توقّف عن العمل منذ عبرت من هناك قافلة أسرى أهل بيت الحسين بن عليّ (عليهم السلام) ، ذلك أنه كانت بين الأسرى زوجة للحسين (عليه السلام) وكانت حاملاً فأسقطت جنينها هناك ، فطلبت من عمّال المنجم ماءً ، أو خبزاً ، فامتنعوا وشتموها ، فلعنتهم ؛ فكان كلّ عملهم بعد ذلك في المنجم لا يأتي بفائدة أو نفع ، وإلى القبلة من هذا الجبل يقوم قبر ذلك السقط ، ويعرف بمشهد السقط ، ومشهد الدكّة ، وذلك السقط اسمه محسن بن الحسين (عليه السلام) .

يقول المؤلّف : تشرّفت بزيارة ذلك المشهد ، وهو بالقرب من حلب ، ويدعونه هناك بالشيخ محسّن ، وله عمارة رفيعه ومشهد قد شيّد على صخور كبيرة ، لكنه فعلاً عدا عليه الخراب بسبب الحروب التي وقعت هناك .

ويقول صاحب (نسمة السحر) نقلاً عن ابن طيّ قوله في (تاريخ حلب) : إن سيف الدولة قام ببناء مشهد خارج مدينة حلب ، لأنه شهد ذات ليلة نوراً ينبعث من ذلك المكان ، فلمّا أصبح ركب إلى هناك ، وأمر بحفر الموقع ، فوجد صخرة كتب عليها : « هذا محسّن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب » ، فأمر بجمع العلويّين والسادة فسألهم ، فقال بعضهم : لّما أخذوا أهل البيت أسرى أيام يزيد بن معاوية ، عبروا بهم من حلب ، وحدث أنّ إحدى زوجات الحسين (عليه السلام) أسقطت جنينها هناك ؛ فأمر سيف الدولة ببناء المشهد .

أقول : في هذا المكان الشريف تقع مدافن الشيعة ، وفيه قبر ابن شهر اشوب ، وابن

منير ، والسيّد العالم الفاضل الثقة الجليل أبي المكارم بن زهرة ، غير أنّ بني زهرة ، وهم بيت شريف ، لهم في حلب تربة مشهورة .

قصّة دير الراهب : واقعة أخرى جرت ، وقد نقلها أكثر المؤرّخين والمحدثين من الشيعة والسنّة في كتبهم ، بتفاوت بسيط فيما بينهم .

ومجمل الواقعة أنّه لما نزل جند ابن زياد بالقرب من دير الراهب ، وكان رأس الحسين (عليه السلام) موضوعاً في صندوق ، أو مركوزاً على رمح ، كما في رواية القطب الراوندي ، والحرّاس حوله يحرسونه وهم يشربون الخمر ليلاً ، ثمّ وضعوا الطعام وجعلوا يأكلون ، وإذا بكفّ تمتدّ من حائط الدير ، ومعها قلم من حديد ، فكتبت بالدم :

أترجو أمّة قتلت حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب ؟

فجزع القوم جزعاً شديداً ، وأهوى بعضهم إلى الكفّ ليمسك بها فغابت ، فعادوا إلى طعامهم ، فإذا الكف قد عادت تكتب :

فلا والله ليس لهم شفيع وهم يوم القيامة في العذاب

فقام بعضهم إليها فغابت من جديد ، فعادوا إلى ما كانوا فيه ، فإذا بها تظهر للمرّة الثالثة وتكتب :

وقد قتلوا الحسين بحكم جور وخالف حكمهم حكم الكتاب

فامتنعوا عن الطعام فما عادوا يستسيغونه ، وقبعوا في رعب شديد ، ثم غلبهم النعاس فناموا .

وعند منتصف الليل طرقت سمع راهب الدير أصوات ، فلمّا أصغى سمع تسبيحاً وتقديساً إلهيّين ، فقام ونظر من نافذة الدير فرأى نوراً يسطع نحو السماء من صندوق موضوع بجانب حائط الدير ، ورأى الملائكة تهبط من السماء فوجاً إثر فوج ، وهم يقولون :

« السلام عليك يا بن رسول الله ، السلام عليك يا أبا عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليك » .

تعجّب الراهب ممّا يشهد ، وأخذه الرعب والجزع الشديدان ليلته تلك ، فلمّا أسفر الصباح خرج من صومعته فدنا من الجند وسأل عن رئيسهم ، فقالوا : خوليّ الأصبحيّ ، وقادوه إليه ، فسأله : ما الذي في هذا الصندوق ؟

قال : رأس رجل خارجيّ ، خرج في العراق فقتله عبيد الله بن زياد ! قال : وما

اسمه ؟ قال : الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، قال : وما اسم أمّه ؟ قال : فاطمة الزهراء بنت محمّد المصطفى (صلّى الله عليه وآله)، فقال الراهب:

الويل لكم ممّا جنته أيديكم ، لقد صدق أحبارنا وعلماؤنا إذ قالوا : إذا قتل هذا الرجل أمطرت السماء دماً ، فليس هو سوى قتل نبيّ أو وصيّ نبيّ !!

ثمّ قال : إنّ لي إليكم حاجة ، دعوني آخذ هذا الرأس ساعة ثمّ أردّه إليكم ، قال خوليّ : لن نخرج هذا الرأس إلاّ عند يزيد بن معاوية ، حتّى نفوز منه بجائزتنا .

قال الراهب : وما هي جائزتكم ؟ قال : بدرة فيها عشرة آلاف درهم ، قال : أنا أعطيكم هذا المبلغ ، قال : علينا به .

أحضر الراهب كيساً فيه عشرة آلاف درهم ، فعدّها خولي ، ثم جعلها في جرابين ختمهما بختمه ، ودفعهما إلى خازن له ، وأمر أن يعطى الراهب الرأس .

أخذ الراهب الرأس إلى صومعته ، فغسله بماء الورد ، وحشاه بمسك وكافور كان عنده ، ووضعه على سجّادته ، وأخذ ينوح ويبكي ، ثمّ قال مخاطباً الرأس المنوّر :

« يا أبا عبد الله ، يعزّ عليّ والله أنّي لم أكن في كربلاء ، إذن لفديتك بنفسي ، فاشهد لي عند جدّك حين تلقاه بأنّي أسلمت على يديك ثم قال :

« أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ، وأشهد أنّ عليّاً وليّ الله »[1] .

ثمّ ردّ الراهب الرأس المقدّس ، ونزل من الدير بعد هذه الواقعة ، ولحق ببعض الجبال يعبد الله ، وصار زاهد عصره حتّى مضى .

وارتحل الجند ، حتى إذا اقتربوا من دمشق خافوا أن يأخذ يزيد المال منهم ، فجلسوا لاقتسامه ، فأمر خوليّ بإحضار الجرابين ، فلمّا استوثق من ختمه عليهما ، فتحهما ، فإذا الدراهم فيهما تحوّلت إلى خزف ، وإذا على أحد وجهيها مكتوب : ﴿ لا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون ﴾ ، وعلى وجهها الآخر : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ .

قال خولي : هذا سرّ مبهم ، ثمّ قال في نفسه : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، خسرت الدنيا والآخرة .

---

(١) وفي رواية (التذكرة) للسبط أنّه قال : « أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وإنّ جدّك محمّداً رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأشهد أني مولاك وعبدك » . ثم نزل من الدير ، وانصرف إلى خدمة أهل البيت .

ثمّ قال لغلمانه : اطرحوها في النهر ، فطرحوها في بردى ، وهو نهر في دمشق .

* * *



الفصل السابع

وصول الأسرى ورؤوس الشهداء الى الشام

يذكر الشيخ الكفعميّ والشيخ البهائيّ وغيرهما أن الرأس المقدّس وصل إلى دمشق في الأوّل من صفر ، وكان ذلك اليوم عيداً عند بني أميّة ، وكان يوماً تتجدّد فيه أحزان أهل الإيمان ، قلت : ويحقّ أن يقال :

كانت مآتم بالعراق تعدّها أمويّة بالشام من أعيادها

قال السيّد ابن طاوس (ره) :

وسار القوم برأس الحسين (عليه السلام) ونسائه والأسرى من رجاله ، فلمّا قربوا من دمشق دنت أمّ كلثوم من الشمر ، وكان من جملتهم ، فقالت : لي إليك حاجة ، فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : « إذا دخلت بنا البلد فاحملنا في درب قليل النظّارة ، وتقدّم إليهم ان يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل ، وينحّونا عنها ، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا ونحن في هذه الحال » .

فأمر في جواب سؤالها أن تجعل الرؤوس على الرماح في أوساط المحامل ، بغياً منه وكفراً ، وسلك بهم بين النظّارة على تلك الصفة حتّى أتى بهم باب دمشق .

حكاية سهل الساعديّ

يقول العلاّمة المجلسيّ (ره) في (جلاء العيون) : روي في بعض الكتب المعتبرة أنّ سهل بن سعد قال :

خرجت إلى بيت المقدس حتّى توسّطت الشام ، فإذا بمدينة مطّردة الأنهار ، كثيرة الأشجار ، في غاية العمران ، ذات قصور رفيعة ، ومنازل كثيرة ، قد علّقوا الستور والحجب الديباج ، وهم فرحون مستبشرون ، يلعبون بالدفوف والطبول ، فقلت في نفسي : لعلّه عيد

لهم ، فرأيت قوماً يتحدّثون فقلت : يا قوم ، لكم بالشام عيد لا نعرفه نحن ؟ قالوا : يا شيخ ، لعلّك غريب عن هذه المدينة ، فقلت : أنا سهل بن سعد قد رأيت محمّداً (صلّى الله عليه وآله) ، قالوا : إنّا لنعجب من أنّ السماء لا تمطر دماً ، والأرض لا تنخسف بأهلها ! قلت : ولم ذاك ؟ قالوا : هذا رأس الحسين (عليه السلام) عترة محمّد (صلّى الله عليه وآله) يهدى من أرض العراق ! فقلت : سبحان الله ، يهدى رأس الحسين ، والناس يفرحون ؟ ثم سألت : من أيّ باب يدخل ؟ فأشاروا إلى باب يقال له باب الساعات .

قال : فتوجّهت إلى الباب فما بلغته حتى رأيت الرايات يتلو بعضها بعضاً ، فإذا نحن بفارس بيده لواء منزوع السنان عليه رأس أشبه الناس وجهاً برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فإذا أنا أرى من ورائه نسوة على جمال بغير وطاء ، فدنوت من أولاهم فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا سكينة بنت الحسين ، فقلت لها : ألك حاجة إليّ ؟ فأنا سهل بن سعد ، ممّن رأى جدّك وسمع حديثه ، قالت :

يا بن سعد ، قل لصاحب هذا الرأس أن يقدّم الرأس أمامنا ، حتى يشتغل الناس بالنظر إليه ، ولا ينظروا إلى حرم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

قال سهل : فدنوت من صاحب الرأس فقلت له : هل لك أن تقضي حاجتي وتأخذ منّي أربعمئة دينار ؟ قال : ما هي ؟ قلت : تقدّم الرأس أمام الحرم ، ففعل ذلك ، فدفعت إليه ما وعدته .

وفي رواية ابن شهر اشوب : أنه لما أراد صرف الدنانير إذ بها تحوّلت إلى حجارة سوداء ، وقد كتب على أحد وجهيها : ﴿ **ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون** ﴾ ، وكتب على الوجه الآخر : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون** ﴾ .

ويروي القطب الراوندي عن المنهال بن عمرو أنه قال : « أنا والله رأيت رأس الحسين حين حمل وأنا بدمشق ، وبين يديه رجل يقرأ (الكهف) حتى بلغ قوله :

﴿**أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً**﴾؟

فأنطق الله الرأس بلسان ذرب ذلق فقال : « أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي » .

وهذه إشارة إلى رجعته (عليه السلام) للمطالبة بدمه .

قصّة الشيخ الشاميّ مع زين العابدين (عليه السلام)

ثم أقيم نساء الحسين (عليه السلام) وعياله على باب درج المسجد الجامع حيث يقام

السبي ، فدنا شيخ من أهل الشام منهم ، فقال : الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم ، وأراح البلاد من رجالكم ، وأمكن أمير المؤمنين منكم !

فقال له عليّ بن الحسين (عليه السلام) : يا شيخ ، هل قرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال فهل قرأت هذه الآية : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ﴾** ؟ قال الشيخ : قد قرأت ذلك ، فقال له عليّ (عليه السلام) : فنحن القربى يا شيخ !

ثمّ قال (عليه السلام) : فهل قرأت هذه الآية : **﴿ واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴾** ؟ قال نعم ، قال عليّ (عليه السلام) : فنحن القربى يا شيخ !

ثمّ قال (عليه السلام) : فهل قرأت : **﴿ وآت ذا القربى حقّه ﴾** ؟ قال : نعم ، قال (عليه السلام) : فنحن ذوو القربى يا شيخ !

ثمّ قال (عليه السلام) : فهل قرأت هذه الآية : **﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهّركم تطهيراً ﴾** ؟ قال : قد قرأت ذلك ، قال (عليه السلام) : فنحن أهل البيت الذين خصّصنا بآية الطهارة يا شيخ !

قال : فبقي الشيخ ساكتاً ، نادماً على ما تكلّم به ، ثمّ قال : بالله إنّكم هم ؟ فقال (عليه السلام) : تالله إنّا لنحن هم ، وحقّ جدّنا رسول الله إنّا لنحن هم ، فبكى الشيخ ورمى عمامته ، ورفع رأسه إلى السماء وقال :

اللهمّ إنّي أبرأ إليك من عدوّ آل محمّد من جنّ وإنس ، ثمّ قال : هل لي من توبة ؟ فقال له (عليه السلام) : نعم ، إن تبت تاب الله عليك ، وأنت معنا ، فقال : أنا تائب .

قال : فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ ، فأمر به فقتل .

ويروى عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال :

« لمّا قدم على يزيد بذراري الحسين (عليه السلام) أدخل بهنّ نهاراً ، مكشّفات وجوههنّ ، فقال أحد أهل الشام الجفاة : ما رأينا سبياً أحسن من هؤلاء ، فمن أنتم ؟ فقالت سكينة بنت الحسين : نحن سبايا آل محمّد » . انتهى .

رواية (كامل البهائي) في ورود أهل البيت (عليهم السلام) إلى الشام

الشيخ الجليل والعالم الخبير الحسن بن عليّ الطبري ، المعاصر للعلاّمة والمحقّق ، قال في كتاب (كامل البهائي) المصنّف قبل ما يزيد على ستّمئة وستّين سنة ، في صدد ورود أهل بيت الإمام الحسين (عليهم السلام) إلى الشام :

لقد سيّروا أهل البيت من الكوفة إلى الشام قرية فقرية حتى بلغوا بهم إلى مسافة أربعة فراسخ من دمشق ، ومن هناك حتى المدينة ، وفي كل قرية يمرّون بها كانوا ينثرون عليهم ما يتفّق لهم ، وعلى باب المدينة تركوهم ثلاثة أيام مهملين هناك قبل أن يدخلوهم المدينة ، فإذا بالحلي والزينات قد أقيمت فيها بصورة غير معهودة فقد خرج ما يقرب من خمسمئة ألف رجل وامرأة بالدفوف والطبول والأبواق ، مع آلاف الراقصين من رجال ونساء وفتية ، على نقر الدفوف وأنغام المزامير ، وقد خضب أهل المدينة كافّة أيديهم وأقدامهم ، وكحّلوا عيونهم ، وكان يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الأول ، يوم دخلوا المدينة كيوم الحشر من كثرة الخلق ، وكان دخولهم عند طلوع الشمس ، فما انتهوا إلى باب قصر يزيد إلاّ عند الزوال ، لكثرة ما اجتمع حولهم من الخلق .

وكان يزيد يجلس على سرير مرصّع في إيوان قصره المزدان ، وقد صفّت الكراسي المذهّبة على الجانبين والحجّاب يروحون ويغدون ، وتقدم اللعناء الذي قدموا بالرؤوس إلى يزيد ، يبشّرون أميرهم بأنّهم قضوا على آل أبي التراب ! وجاؤوا برؤوس أولاد الرسول (صلّى الله عليه وآله) ! وفي تلك الأيّام الستّة والستّين التي قضاها أهل البيت في أيدي أولئك الكفرة ، الكفّار لم يجرؤ أحد حتى على مبادرتهم بالتحية والسلام .

وروي أيضاً عن سهل بن سعد الساعديّ أنّه قال :

خرجت بعد الحج قاصداً زيارة بيت المقدّس ، حتى عرجت على الشام ، فإذا أنا بمدينة يعمّها البشر والفرح ، ورأيت جماعة وقد اختبأوا في المسجد ينوحون ويندبون ، فسألتهم عمّن يكونون ، فقالوا : نحن من موالي أهل البيت (عليهم السلام) ، وقد أتوا اليوم برأس الحسين وأهل بيته إلى المدينة .

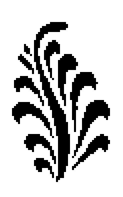
يقول سهل : خرجت إلى الفلاة (ظاهر المدينة) فرأيت يوماً كأنّه يوم الحشر من كثرة الخلق ، وصهيل الجياد ، وأصوات الطبول والدفوف ، ورأيتهم يسيرون بالرؤوس وقد ركزت فوق الرماح ، فأتوا أولاً برأس العبّاس[1] (عليه السلام) ، وأعقب الرؤوس نساء الحسين (عليه السلام) .

ورأيت رأس الحسين (عليه السلام) تلفّه العظمة ، ويسطع منه نور عظيم بلحية مدوّرة خالط سوادها البياض ، وقد وسمها الخضاب ، أسود العينين ، جميل سوادهما ، متّصل الحاجبين ، أقنى الأنف ، يتبسّم إلى السماء ، وعينه مفتوحة إلى الأفق ، يحرك الهواء محاسنه ذات اليمين وذات الشمال ، حتى لتحسبه أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) .

(١) في (نفس المهموم) وردت عبارة « كأنه يضحك » بعد كلمة العبّاس ، ولعلّها من سهو القلم .

يقول عمرو بن منذر الهمداني : رأيت أمّ كلثوم فتخيّلت الزهراء (عليها السلام) ، بعباءتها الخلقة السوداء على رأسها ، والغطاء يستر وجهها فدنوت من زين العابدين (عليه السلام) وأهل بيته ، فسلمت عليهم ، فقالوا لي : يا أخا الإيمان ، هلّا أعطيت صاحب رأس الحسين شيئاً ليقدّم الرأس أمامنا ، فيشتغل الناس بالنظر إليه ، فقد لقينا من النظّارة إيلاماً .

قال : فأعطيت اللعين حامل رأس الحسين (عليه السلام) مئة درهم ، فابتعد عن الحرم ، وساروا على هذا المنوال حتى انتهوا إلى يزيد . انتهى .



الفصل الثامن

في ورود أهل البيت (عليهم السلام) الى مجلس يزيد

لمّا علم يزيد بوصول الأسرى الأطهار اتّخذ مجلسه على سرير الملك في قصره المزدان بأنواع الزينة ، ومن حوله علوج بني أميّة وعلوج أهل الشام ، والأسرى على باب القصر ينتظرون الإذن بالدخول عليه ، وكان زحر بن قيس أوّل من أُذن لـه ، فدخل عليه ، فقال له يزيد : ويلك ، ما وراءك وما عندك ؟

قال : أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، ورد علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر من أهل بيته ، وستّين من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا أو ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله ، أو القتال ، فاختاروا القتال على الاستسلام ، فعدونا عليهم مع شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كلّ ناحية ، حتّى إذا أخذت السيوف مآخذها من هام القوم جعلوا يهربون إلى غير وَزَر[1] ، ويلوذون منّا بالآكام والحفر لواذاً كما لاذ الحمام من الصقر ، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلاّ جزر جزور ، أو نومة قائل[2] ، حتّى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجرّدة وثيابهم مرمّلة ، وخدودهم معفّرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفي عليهم الريح ، زوّارهم الرخم والعقبان .

فأطرق يزيد هنيئة ، ثم رفع رأسه وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم من دون قتل الحسين ، أما لو كنت صاحبه[3] لعفوت عنه .

ويقول بعضهم : لمّا أنهى زحر بن قيس مقالته ، غضب يزيد وقال : قبّح الله ابن

(١) الوَزَر : الملجأ ، الجبل المنيع .

(٢) القائل : من القالة وهي النوم في الظهيرة .

(٣) لو كنت صاحبه : أراد بها : لو كنت خصمه في تلك الوقعة .

مرجانة ، لا زال يبذر بذور عداوتي في القلوب ، وصرف ابن قيس دون أن يصله بشيء .

وكانت هذه معجزة من الحسين (عليه السلام) ذلك أنّه أثناء قدومه إلى كربلاء أخبر زهير بن القين أنّ زحر بن قيس يحمل رأسي إلى يزيد طمعاً بعطائه ، ولن يفوز بعطاء ؛ وهذا ما نقله محمد بن جرير الطبري .

ثم إنّ مخفّر بن ثعلبة الموكّل برحيل أهل البيت (عليهم السلام) ، قدم إلى باب يزيد فرفع صوته فقال : هذا مخفّر بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة !!

فأجابه الإمام السجّاد (عليه السلام) : « ما ولدت أمّ مخفّر أشرّ وألأم »! وفي رواية ابن نما أن يزيد صاحب القول ، وهذا أولى ، ذلك أن الإمام (عليه السلام) لم يكلّم أحداً منهم قطّ .

يقول الشيخ المفيد (ره) : فلم يكن عليّ بن الحسين (عليهما السلام) يكلّم أحداً منهم في الطريق كلمة .

وقيل : إنّ قول يزيد هذا النوع من المقال لعلّه إيحاء للناس بأنه هو لم يأمر بقتل الحسين (عليه السلام) ولم يكن به راضياً .

أشعار يزيد وسوء معاملته للأسرى

يقول بعض المؤرّخين : كان يزيد في قصر جيرون لمّا بلغه خبر ورود أهل البيت (عليهم السلام) ، وراح ينظر من بعيد إلى الرؤوس مركوزة على الرماح ، فطرب للمشهد وأنشد :

لمّا بدت تلك الحمول وأشرقت تلك الشموس على ربى جيرون
نعب الغراب فقلت صح أو لا تصح فلقد قضيت من الغريم ديوني

ومراده الكشف عن مكنون نفسه من الكفر والزندقة ، وإرادته الانتقام من الرسول (صلّى الله عليه وآله) عن مقتل آبائه وعشيرته في موقعة بدر بقتله لأبنائه (صلّى الله عليه وآله) ، وهذا يبدو جليّاً ممّا قاله عند ورود أهل البيت (عليهم السلام) إلى مجلسه ، مضيفاً إلى أشعار قالها ابن الزِّبعرى ، قوله :

قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

وعلى العموم فلما أتي بالرؤوس ، وضع رأس الحسين في طست من ذهب بين يدي يزيد ، وكان في مجلس شراب وقد غلب عليه السكر ، فجعل يشرب ويقول :

يا حسنه يلمع باليدين يلمع في طست من اللجين
كأنما حُفَّ بوردتين كيف رأيت الضرب بالحسين
شفيت غلّي من دم الحسين يا ليت من شاهد في حنين
يرون فعلي اليوم بالحسين

ويقول الشيخ المفيد (ره) : ولمّا وضعت الرؤوس بين يدي يزيد وفيها رأس الحسين (عليه السلام) ، قال يزيد :

نفلّق هاماً من أناس أعزة علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلما

فقال يحيى بن الحكم أخو مروان ، وكان مع يزيد في مجلسه :

لَهام بجنب الطفّ أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي النسب الوغل
سميّة أمسى نسلها عدد الحصى وبنت رسول الله ليست بذي نسل

فضربه يزيد بيده على صدره وقال : اسكت ، ومراده القول : أفي مثل هذا المجلس تشنّع على آل زياد ، وتأسف على قلّة آل المصطفى ؟

وروي عن المعصوم (عليه السلام) أنه قال :

« لمّا حمل رأس الحسين (عليه السلام) إلى يزيد أمر به فوضع ونصب عليه مائدة ، فأقبل هو وأصحابه يشربون الفقّاع ويلعبون الشطرنج ، فجعل يسقي أصحابه ويقول : اشربوا ، فهذا شراب مبارك ، ومن بركته أنّا تناولناه ورأس عدوّنا بين أيدينا ، ونحن نأكل ونفوسنا ساكنة ، وقلوبنا مطمئنّة ، ثم جعل يذكر الحسين وأباه وجدّه صلوات الله عليهم ، ويستهزىء بذكرهم .

وكان إذا قمر صاحبه[1] تناول الفقّاع فشربه ثلاث مرّات ، ثمّ صبّ فضلته ممّا يلي الطست من الأرض .

فمن كان من شيعتنا فليتورّع عن شرب الفقّاع ولعب الشطرنج ، ومن نظر إلى الفقّاع أو إلى الشطرنج فليذكر الحسين (عليه السلام) ، وليلعن يزيد وآل زياد يمحو الله عزّ وجلّ بذلك ذنوبه ، ولو كانت كعدد النجوم .

ونُقل في (كامل البهائي) عن حاوية أن يزيد شرب الخمر وصبّ فضلته على رأس

---

(١) قمر صاحبه : غلبه بالقمار .

الحسين (عليه السلام)!! فأخذت زوجة يزيد الرأس المنوّر وغسلته ونظّفتـه ، وفي تلك الليلة رأت فاطمة (عليها السلام) وسألتها العذر .

وعلى العموم فلمّا أدخلت الرؤوس على يـزيد ، وأدخـل ثقل الحسين (عليه السـلام) ونساؤه وأهله وهم مقرّنون في الحبال ، وقد غلّ عليّ بن الحسين (عليهما السلام) إلى عنقـه ، ورآهم يزيد على هذه الحال ، قال : قبّح الله ابن مرجانة ، لو كانت بينكم وبينـه قرابـة ورحم ما فعل هذا بكم ، ولا بعث بكم على هذا .

وفي رواية ابن نما عن عليّ بن الحسين (عليه السلام) أنّهم أُدخلوا على يزيد وكانـوا اثني عشر رجلاً مغلّلين ، فلمّا أوقفوا بين يديه قال عليّ بن الحسين (عليهما السلام) : أتـأذن لي في الكلام؟ فقال : قل ، ولا تقل هجراً! قال : لقد وقفت موقفاً لا ينبغي لمثلي أن يقـول الهجر ، ثم قال :

أنشدك الله يا يزيد ، ما ظنّك برسول الله لـو رآنا عـلى هذه الحـال ؟ وقالت فـاطمة بنت الحسين : يا يـزيد ، بنـات رسـول الله سبـايـا ؟ فبكى النـاس ، وبكى أهـل داره حتّى علت الأصوات ، فقال يزيد لمن حوله : حلّوا أغلالهم .

ويروي الشيخ الجليل عليّ بن إبراهيم القمّي عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« لمّا أدخل رأس الحسين بن عليّ (عليهـما السلام) عـلى يزيـد لعنه الله ، وأدخـل عليه عليّ بن الحسين وبنـات أمير المؤمنين (عليه وعليهم السـلام) ، وكان عـليّ بن الحسين مقيّـداً مغلولاً فقال يزيـد لعنه الله : يـا عليّ بن الحسين ، الحمد لله الـذي قتل أبـاك ! فقال عـليّ بن الحسين ، لعنة الله على من قتل أبي » .

قـال : « فغضب يزيـد وأمر بضرب عنقـه ، فقال عـليّ بن الحسين : فـإذا قتلتني فبنات رسـول الله من يردهنّ إلى منازلهنّ وليس لهنّ محرم غـيري؟ فقال : أنت تـردّهن إلى منازلهنّ؛ ثمّ دعا بمبرد فأقبل يبرد الجامعة من عنقه بيده .

ثمّ قال له : يا عليّ بن الحسين ، أتدري ما الذي أريد بذلك ؟ قال : بلى ، تريـد أن لا يكون لأحد عليّ منّة غيرك ، فقال يزيد : هذا والله ما أردت .

ثم قال يزيد : يا عـليّ بن الحسين ، **﴿ مـا أصابكم من مصيبـة فبما كسبت أيـديكم ﴾** . فقال عليّ بن الحسين : كلاّ ، ما هذه فينا نزلت ، إنّما نزلت فينـا : **﴿ ما أصـاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾** ، فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا ، ولا نفرح بما آتانا منها .

وعلى العموم فقد أمر يزيد بوضع رأس الحسين (عليه السلام) في طست بين يديه ، وأجلس النساء خلفه لئلاّ ينظرن إليه ، فلمّا رآه عليّ بن الحسين (عليه السلام) لم يأكل بعد ذلك أبداً ، والحزن يغمر نفسه ، أمّا زينب (عليها السلام) فإنّها لمّا رأته أهوت إلى جيبها فشقّته ، ثم نادت بصوت حزين يقرح القلوب : يا حسيناه ! يا حبيب رسول الله ! يا بن مكّة ومنى ! يا بن فاطمة الزهراء سيّدة النساء ! يا بن بنت المصطفى ! فأبكت والله كلّ من كان في المجلس ، ويزيد ساكت .

وممّا يزيل القلب عن مقرّها ويترك زند الغيظ في الصدر واريا
وقوف بنات الوحي عند طليقها بحال بها تشجين حتّى الأعاديا

ثمّ جعلت امرأة من بني هاشم في دار يزيد تندب الحسين وتنادي : يا حبيباه ! يا سيّد أهل بيتاه ! يا بن محمّداه ! يا ربيع الأرامل واليتامى ! يا قتيل أولاد الأدعياء ! فأبكت كلّ من سمعها .

أمّا يزيد فلم يترك لديه هذا الكلام أيّ أثر ، بل إنّه دعا بقضيب خيزران ، فجعل ينكت به ثنايا الحسين (عليه السلام) ، وينشد[1] أشعاراً يتمنّى فيها لو كان أشياخ بني أميّة

---

(١) الأبيات التي أنشدها يزيد ، وننقلها عن (ناسخ التواريخ) :

ليت أشياخي ببدر شهدوا وقعة الخزرج مع وقع الأسل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل
قد أخذنا من عليّ ثأرنا وقتلنا الفارس الليث البطل
وقتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل
فجزيناهم ببدر مثلها وبأحد يوم أُحد فاعتدل
لو رأوه لاستهلّوا فرحاً ثمّ قالوا يا يزيد لا تشلّ
وكذاك الشيخ أوصاني به فاتّبعت الشيخ فيما قد سأل

وغالباً فإنّ الأبيات لم تذكر بكاملها ، وما ذكروه ينسبون بعضه إلى يزيد والبعض الآخر إلى الزبعرى، دون أن يوضّح أحد أيّها ليزيد وأيّها لابن الزبعرى، فالواجب يقضي أن نذكر أبيات ابن الزبعري التي قالها يوم أُحد كي يمكن التمييز بين ما قاله كلّ منهما.

قال ابن الزبعرى :

يا غراب البين ما شئت فقل إنّما تندب أمراً قد فعل
إنّ للخير وللشرّ مدىً وسواء قبر مثرٍ ومقلّ
كلّ خير ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكلّ
أبلغا حسّان عنّي آية فقريض الشعر يشفي ذا العلل

الذين هلكوا في موقعة بدر حاضرين ، إذن لرأوا كيف ثار لمقتلهم بقتله أولاد من قتلهم ، ولكانوا سُرّوا لما فعل وقالوا له : لا شلّت يدك يا يزيد ، فقد أحسنت الثأر .

قال : وكان أبو برزة الأسلمي ، أحدُ أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ممّن شهد مجلس يزيد ، ورآه ينكت بالقضيب ثنايا الحسين (عليه السلام) ، فقال له : « ويحك يا يزيد ، أتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة ؟ أشهد لقد رأيت النبيّ يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول : « أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة ، فقتل الله قاتلكما ولعنه ، وأعدّ له جهنّم وساءت مصيراً » .

قال : فغضب يزيد وأمر بإخراجه ، فأخرج سحباً .

خطبة زينب (عليها السلام) في مجلس يزيد

فقامت زينب بنت عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فقالت :

« الحمد لله ربّ العالمين ، وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين .

كم ترى في الحرب من جمجمة … وأكف قد أبينت ورجل
وسرابيل حسان سلبت … عن كماة غودروا في المنتزل
كما قتلنا من كريم سيّد … ماجد الجدّين مقدام بطل
صادق النجدة قرم بارع … غير رعديد لدى وقع الأسل
فسَل المهراس مَن ساكنه … من كراديس وهام كالجمل
ليت أشياخي ببدر شهدوا … فزع الخزرج من وقع الأسل
حين ضلّت بقباء بركها … واستحرّ القتل في عبد الأشل
ثمّ حفّوا عند ذاكم رقَصاً … رقص الحفّان تعدوا في الجبل
فقتلنا النصف من ساداتهم … وعدلنا مثل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس إلاّ أنّنا … لو كررنا لفعلنا المفتعل
بسيوف الهند تعلو هامهم … تُبرد الغيظ ويشفين العلل

والآن بمقدورنا أن نميّز بين ما استشهد به يزيد وبين ما أنشأه إنشاء ، فقرأه بتفاوت بسيط .

وقد جاء هناك أيضاً أنّه لمّا أتي برؤوس الشهداء إلى يزيد سمع نعيب غراب ، فأنشد هذا الشعر الذي تسب إليه إنشاء :

لمّا بدت تلك الرؤوس وأشرقت … تلك الشموس على ربى جيرون
صاح الغراب فقلت صح أو لا تصح … فلقد قضيت من النبيّ ديوني

ولما وقع عليه نعيب الغراب على حين غرّة رأى فيه ـ بحكم التطيّر ـ دلالة على زوال الملك ، فاستشهد بهذين البيتين لابن الزبعرى مخاطباً الغراب :

يا غراب البين ما شئت فقل … إنّما تندب أمراً قد فعل
كلّ ملك ونعيم زائل … وبنات الدهر يلعبن بكلّ

- صدق الله إذ يقول : ﴿ ثمّ كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ .

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تساق الأسارى أنّ بنا هواناً على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده ؟ فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً ، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة ، والأمور متّسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا .

مهلاً مهلاً ، أنسيت قول الله تعالى : ﴿ ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّ ما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذاب مهين ﴾ ؟

أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا ، قد هتكت ستورهنّ ، وأبديت وجوههنّ ، تحدو بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهنّ أهل المناهل والمناقل ، ويتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد ، والدنيّ والشريف ، ليس معهنّ من رجالهنّ وليّ ، ولا من حماتهنّ حمّي ؟

وكيف يرتجى من لفظ فوه أكباد الأزكياء ، ونبت لحمه بدماء الشهداء ؟ وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن ، والإحن والأضغان ؟ ثمّ تقول غير متأثّم ولا مستعظم :

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثمّ قالوا يا يزيد لا تشلّ

منتحياً على ثنايا أبي عبد الله سيّد شباب أهل الجنّة ، تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشأفة ، بإراقتك دماء ذرّيّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، ونجوم الأرض من آل عبد المطّلب ؟

وتهتف بأشياخك ، زعمت أنّك تناديهم ، فلتَرِدَنّ وشيكاً موردهم ، ولتودّنّ أنّك شللت وبكمت ، ولم يكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت .

اللهمّ خذ بحقّنا ، وانتقم من ظالمنا ، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا ، وقتل حماتنا » .

ثم قالت (عليها السلام) : « فوالله ما فريت إلاّ جلدك ، ولا جززت إلاّ لحمك ، ولتردنّ على رسول الله بما تحمّلت من سفك دماء ذرّيّته ، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ، ويلمّ شعثهم ، ويأخذ بحقّهم ، ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربّهم يرزقون ﴾ ، حسبك بالله حاكماً ، وبمحمّد

خصيماً ، وبجبرئيل ظهيراً ، وسيعلم من سوّى لك ومكّنك من رقاب المسلمين ، ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ وأيكم ﴿ شرّ مكاناً وأضعف جنداً ﴾ .

ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك ، إنّي لأستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، وأستكبر توبيخك ، لكنّ العيون عبرى ، والصدور حرّى ؛ ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء ! فهذه الأيدي تنطف من دمائنا ، والأفواه تتحلّب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل ، وتعفوها أمّهات الفراعل ، ولئن اتّخذتنا مغنماً لتجدنّا وشيكاً مغرماً ، حين لا تجد إلاّ ما قدّمت ، ﴿ وما ربك بظلاّم للعبيد ﴾ .

فإلى الله المشتكى ، وعليه المعوّل ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أحدنا ، ولا ترحض عنك عارها ، وهل رأيك إلاّ فند ، وأيّامك إلاّ عدد ، وجمعك إلاّ بدد ، يوم ينادي المناد : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة ، ولآخرنا بالرحمة والشهادة ، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ، ويحسن علينا الخلافة ، إنّه رحيم ودود ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

لم يكن يزيد ليرتاح لكلام زينب (عليها السلام) ، هذا الكلام الخشن ، والقول الجارح المثير للسخط والغضب ، وأراد أن ينتحل عذراً بأن النساء النوائح لا يصدرن إلاّ عن عدم إدراك ، وإنّ هذا النوع من الكلام الصادر عن قلوب محترقة مقبول ، فلا غرو أنّه قال :

يا صيحة تُحمد من صوائح ما أهون الموت على النوائح

ثمّ إنّه استشار جلساءه من أهل الشام في ما يصنع بهم ، فقال أولئك الخبثاء كلاماً قبيحاً لا يصدر إلاّ عن أمثالهم ، ونأنف عن ذكره ، ومرادهم تحكيم السيف فيهم جميعاً .

فقال له النعمان بن بشير وكان حاضراً في المجلس : أنظر ما كان الرسول (صلّى الله عليه وآله) يصنعه بهم فاصنعه بهم .

ويروي المسعوديّ أنّه لمّا قال أهل المجلس قولتهم انبرى الباقر (عليه السلام) للكلام ، وكان آنذاك ابن سنتين وبضعة أشهر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم التفت إلى يزيد وقال : لقد أشار عليك أهل مجلسك برأي يخالف ما أشار به أهل مجلس فرعون إذ استشارهم في أمر موسى وهارون ، فأولئك قالوا : ﴿ أرجه وأخاه ﴾ ، وأشار هؤلاء بقتلنا ، وإنّما لهذا سبب ، قال يزيد : وما هو ؟ قال : لأن أهل مجلس فرعون كانوا أبناء حلال ، بينما هؤلاء ليسوا كذلك ، إذ لا يقتل الأنبياء وذراريهم إلاّ أولاد الزنى ؛ فسكت يزيد .

الشاميّ الأحمر وحديث زينب (عليها السلام) إليه

وفي رواية السيّد والمفيد أنّ رجلاً من أهل الشام أحمر نظر إلى فاطمة بنت الحسين (عليها السلام) ، ثم التفت إلى يزيد وقال : يا أمير المؤمنين هبْ لي هذه الجارية !

تقول فاطمة (عليها السلام) : ولمّا سمعت قوله أُرعدت ، وظننت أنّ ذلك جائز لهم ، فأخذت بثياب عمّتي زينب (عليها السلام) فقلت : يا عمّة ، أُوتمت وأُستخدم ؟! فقالت عمّتي للشامي :

كذبت والله ولؤمت ، والله ما ذلك لك ولا له » (تريد يزيد) .

فغضب يزيد وقال : كذبت والله ، إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعل لفعلت !

قالت : « كلاّ والله ، ما جعل الله لك ذلك ، إلاّ أن تخرج من ملّتنا وتدين بغيرها » .

فاستطار يزيد غضباً وقال : إيّاي تستقبلين بهذا ؟ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك !!

قالت زينب (عليها السلام) : « بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وأبوك وجدّك إن كنت مسلماً » .

قال : كذبت يا عدوّة الله !

قالت له : « أنت أمير تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك » .

فكأنّه استحيا وسكت ، وعاد الشاميّ فقال : هب لي هذه الجارية ، فقال له يزيد : اعزب ، وهب الله لك حتفاً قاضياً .

قال : فقال الشاميّ : من هذه الجارية ؟ فقال يزيد : هذه فاطمة بنت الحسين ، وتلك زينب بنت عليّ ، فقال الشاميّ : حسين ابن فاطمة ، وعليّ بن أبي طالب ؟ قال يزيد : أجل ، فقال الشامي :

لعنك الله يا يزيد ، تقتل عترة نبيّك ، وتسبي ذرّيّته ؟! والله ما توهّمت إلاّ أنّهم سبي الروم !

فقال يزيد : والله لألحقنّك بهم ، ثمّ أمر به فضربت عنقه .

يقول الشيخ المفيد (ره) : ثمّ إن يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين فحبسن مع عليّ بن الحسين (عليهما السلام) في دار منفصلة تتصّل بداره ، وفي قول : حبسهم في خربة لا يكنّهم من حرّ ولا قرّ ، حتّى تقشّرت وجوههم ، وكانوا طيلة وجودهم في الشام في بكاء ومناحة على الحسين (عليه السلام) .

ويروى أنّه في تلك الأيّام لم يرفع حجر على وجه الأرض ببيت المقدس إلّا وجد تحته دم عبيط .

ونقل عن جماعة أنّ يزيد أمر بأن يصلب الرأس على باب داره ، وأمر بأهل بيت الحسين (عليه السلام) فأدخلوا داره ، فلمّا دخلت النسوة دار يزيد لم يبق من آل معاوية ولا أبي سفيان أحد إلّا استقبلهنّ بالبكاء والصراخ والنياحة على الحسين (عليه السلام) ، وألقين ما عليهن من الثياب والحليّ ، وأقمن المأتم عليه ثلاثة أيّام .

وخرجت هند بنت عبد الله بن عامر امرأة يزيد ، وكانت قبل ذلك تحت الحسين (عليه السلام) ، حتّى شقّت الستر وهي حاسرة ، فوثبت إلى يزيد وهو في مجلس عامّ فقالت : يا يزيد ، أرأس ابن فاطمة بنت رسول الله مصلوب على فناء بابي ؟! فوثب إليها يزيد فغطّاها ، وقال : نعم ، فأعولي عليه يا هند ، وابكي على ابن بنت رسول الله وصريخة قريش ، عجّل عليه ابن زياد لعنه الله فقتله .

يقول العلّامة المجلسيّ (ره) في (جلاء العيون) : بعد أن نقل قصّة الرجل الشاميّ الأحمر الوجه : ثمّ إنّ يزيد أمر بأهل البيت (عليهم السلام) فحبسوا ، وصحب الإمام زين العابدين (عليه السلام) معه إلى المسجد ، ودعا الخطيب فأمره أن يصعد المنبر فيذمّ الحسين وأباه صلوات الله عليهما ، فصعد ، وبالغ في ذمّ أمير المؤمنين والحسين الشهيد صلوات الله عليهما ، والمدح لمعاوية ويزيد ، فصاح به عليّ بن الحسين (عليه السلام) :

« ويلك أيّها الخاطب ، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوّأ مقعدك في النار » .

خطبة الإمام السجّاد (عليه السلام) في مسجد الشام

ثمّ قال عليّ بن الحسين (عليه السلام) : يا يزيد ائذن لي حتّى أصعد هذه الأعواد ، فأتكلّم بكلمات لله فيهنّ رضى ، ولهؤلاء الجلساء فيهنّ أجر وثواب ، قال : فأبى يزيد عليه ذلك ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، ائذن له فليصعد المنبر ، فلعلّنا نسمع منه شيئاً ! فقال : إنّه إن صعد لم ينزل إلّا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما قدر ما يحسن هذا؟! فقال : إنّه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقّاً .

قال : فلم يزالوا به حتّى أذن له ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبيّ وأهل بيته صلوات الله عليهم ، ثمّ خطب خطبة أبكى منها العيون ، وأوجل منها القلوب[1] .

---

(١) جاء في (كامل البهائي) أنّه (ع) قال :

قلت : إنّي أحبّ في هذا المقام أن أتمثّل بهذه الأبيات التي لا يستحقّ أن يمدح بها إلّا هذا الإمام (عليه السلام) :

حتى أنرت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثر
فافتنّ فيك الناظرون فإصبع ... يومي إليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تُكفر
فمشيت مشية خاضع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبّر
فلوَ انّ مشتاقاً تكلّف فوق ما ... في وسعه لمشى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبي عن الحقّ المبين وتخبر

ثمّ قال (عليه السلام) : أيّها الناس ، لقد أُعطينا ستّاً وفضّلنا بسبع ، أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين ، وفضّلنا بأنّ منّا النبيّ المختار (صلّى الله عليه وآله) : ومنّا الصدّيق (الأعظم عليّ المرتضى (عليه السلام)) ، ومنّا جعفر الطيّار (الذي يطير بجناحيه مع الملائكة في الجنّة) ، ومنّا حمزة أسد الله وأسد رسوله (صلّى الله عليه وآله) ، ومنّا سبطا هذه الأمّة (الحسن والحسين عليهما السلام سيّدا شباب أهل الجنّة)[1] ، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي » .

« أيها الناس ، أنا بن مكّة ومنى ، أنا ابن زمزم والصفا . . . » ، وما زال يقول أنا أنا ، ويعدّد على الحضور مآثر جدّيه وأبيه ، إلى أن قال :

« أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن سيّدة النساء ، أنا ابن خديجة الكبرى ، أنا ابن المقتول ظلماً (بسيف أهل الجفا) ، أنا ابن العطشان في كربلاء ، أنا ابن من ناحت عليه الجنّ في الأرض والطير في الهواء ، أنا ابن من رأسه على السنان يهدى ، أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تسبى ، نحن أهل بيت المحنة والبلاء ، نحن محلّ نزول ملائكة السماء ، ومهبط علوم الله تعالى » .

وما زال يعدّد مآثر أجداده الكرام ، ومفاخر آبائه العظام حتّى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب ، وخشي يزيد أن تنتفض أهل الشام عليه ، فأمر المؤذّن أن يؤذّن ليقطع حديثه ، فلمّا

= « الحمد لله الذي لا بداية له ، والدائم الذي لا نفاد له ، والأوّل الذي لا أوّل لأوّليّته ، والآخر الذي لا مؤخّر لآخريّته ، والباقي بعد فناء الخلق ، قدّر الليالي والأيام ، وقسّم فيما بينهم الأقسام ، فتبارك الله الملك العلّام » .

(١) لم يرد ذكر للفضل السابع في المرويّات التي بين أيدينا ، والسابع هو صاحب الزمان (ع) الذي يقتل الدجّال ، وقد جاء ذكره في (كامل البهائي) ، والله هو العالم .

قال المؤذّن : « الله أكبر » قال (عليه السلام) : لا شيء أكبر من الله ، ولمّا قال : « أشهد أن لا إله إلّا الله » قال الإمام (عليه السلام) : شهد بها لحمي ودمي وبشري ، ولمّا قال : « أشهد أنّ محمّداً رسول الله » التفت عليّ بن الحسين (عليه السلام) إلى يزيد بن معاوية وقال : يا يزيد ، هذا جدّي أم جدّك ؟ فإن زعمت أنّه جدّك فقد كذبت وكفرت ، وإن قلت إنّه جدّي فلم قتلت عترته وسبيت حرمه ؟! فلم يحر يزيد جواباً ووقف للصلاة .

مصانعة يزيد لأهل البيت (عليهم السلام) خوف الفتنة

يقول المؤلّف : إنّ ما جاء في المقاتل والحكايات عن مسلك يزيد مع أهل البيت (عليهم السلام) يبدو منه أنّ يزيد كان يخشى اندلاع الفتنة ، وأن تتحولّ الشماتة بأهل البيت والتشنيع عليهم ، فراح يسلك معهم سبيل الرفق والمصانعة فأبعد الحرّاس عنهم ، وترك لهم الخيار في الحركة والسكون ، وجعل أحياناً يدعو الإمام السجّاد (عليه السلام) إلى مجلسه ، وينسب قتل الإمام الحسين (عليه السلام) إلى ابن زياد ، ويلعنه ، ويظهر الندامة ، وكان هذا كلّه لكسب قلوب العامّة ، والحفاظ على ملكه وحكمه ، وليس لأنه نادم وحزين ، ذلك أنّ المؤرّخين قد نقلوا أنّ يزيد كان وفقاً لبعض المقاتل يأمر بإحضار الرأس المقدّس عند كلّ غداء وعشاء إلى مائدته ؛ كما ذكروا أنّه كان يجلس إلى مائدة شرابه ، ويحضر المغنّين ، ويجلس ابن زياد إلى يمينه ، ويخاطب الساقي بقوله :

اسقني شربة تروّي حشاشي ثمّ صِل فاسْقِ مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي
قاتل الخارجيّ أعني حسيناً ومبيد الأعداء والحسّاد

ويروي السيّد ابن طاوس (ره) عن السجّاد (عليه السلام) أنّه لمّا أتي برأس الحسين (عليه السلام) إلى يزيد كان يتّخذ مجالس الشراب ، ويأتي برأس الحسين (عليه السلام) ويضعه بين يديه ويشرب عليه .[1]

وحضر في مجلس يزيد ذات يوم رسول ملك الروم ، وكان من أشراف الروم وعظمائهم ، فقال : يا ملك العرب ، هذا رأس من ؟ فقال له يزيد : ما لك ولهذا الرأس ؟ فقال : إنّي إذا رجعت إلى ملكنا يسألني عن كلّ شيء رأيته ، فأحببت أن أخبره بقصّة هذا الرأس وصاحبه حتّى يشاركك في الفرح والسرور .

فقال له يزيد : هذا رأس الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، فقال الروميّ : ومن أمّه ؟

---

(١) يحتمل أن الخبر المرويّ عن السجّاد (ع) ينتهي هنا ، والبقيّة ليست منه .

فقـال : فـاطمـة بنت رسـول الله ، فقـال النصرانيّ : أفّ لـك ولـدينـك ! لي دين أحسن من دينك ، إنّ أبي من أحفادداود (عليه السلام) وبيني وبينه آباء كثيرة ، والنصـارى يعظمّـونني ويـأخذون من تـراب قدمي تـبركاً ، وأنتم تقتلون ابن بنت رسـول الله وما بينـه وبين نبيّكم إلاّ أمّ واحدة ، فأيّ دين دينكم ؟!

ثمّ قصّ الروميّ على يزيد قصّة كنيسة الحافر ، فأمر يزيد بقتله لئـلاّ يفضحه في بـلاده ، فلمّا أحس النصرانيّ بـذلك قـال له : تـريـد أن تقتلني ؟ قـال : نعم ، قـال : اعلم أنّي رأيت البارحة نبيّكم في المنام يقول لي : يا نصرانيّ ، أنت من أهل الجنّة ، فتعجبّت من كلامـه ، وأنا أشهـد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّـداً رسول الله (صـلّى الله عليـه وآلـه) ، ثمّ وثب إلى رأس الحسين فضمّه إلى صدره ، وجعل يقبلّه ويبكي حتى قتل .

وجاء في (كامل البهائي) أنّ كبير تجّار الروم واسمه عبـد الشمس حضر مجلس يزيـد ، فـأقبل عليـه يقول : أيّهـا الأمير ، مضى عـليّ ستّون عـامـاً في مهنـة التجارة ، وقـدمت مرّة من القسطنطينيّة إلى المدينة ، وحملت معي عشرة أبراد يمـانيّة ، وعشرة أجـربة من المسـك ، ومنّين من العنبر ، فجئت بها إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو يومئذ في بيت زوجته أمّ سلمة رضي الله عنها ، فاستأذن أنس بن مالـك لي عليه ، فـدخلت وقدّمت الهـدايا المـذكورة إليـه ، فقبلهـا منّي بعد أن أسلمت ، وسمّاني عبـد الـوهّـاب ، وأنـا أخفي إسـلامي خشيـة من ملك الروم .

واعلم يـا يزيـد أنّي كنت يومـاً في حضرة النبي (صلّى الله عليـه وآلـه) فـدخـل الحسن والحسين (عليهـما السـلام) ، فـاحتضنهـما وجعـل يقبّلهـما ، وهـا أنت اليـوم تقتـل الحسـين (عليه السلام) وتنكت بقضيبك ثناياه موضع قبلات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) !

واعلم يا يزيد أنّ في بلادنا بحراً فيه جزيرة ، وفي الجزيرة دير فيه أربعة حـوافر يـزعمون أنّها حوافر حمار كان يـركبه عيسى (عليـه السلام) ، وقـد رصّعوا الحـوافر بـالذهب والـديباج ووضعـوها في صنـدوق ، وفي كلّ عـام يقصدهـا أمراء الـروم وعامّـة النصارى يطوفون حـولها ويجدّدون ديباجهـا ، ويتقاسمـون القديم منهـا قطعـاً يحتفظون بهـا للتبرّك ، وأنت تصنـع با بن نبيكم ما تصنع ؟!

قـال يزيـد : إنّه يفسـد عليّ أمري ، اضربـوا عنقـه ، فـأطلق عبـد الـوهـاب لسـانـه بالشهادتين ، مقرّاً بنبوّة محمّد (صلّى الله عليه وآلـه) وإمامـة الحسين (عليـه السلام) ، ولعن يزيد وآبائه وأجداده قبل أن يقتل[1] .

---

(١) أقول : إن حديث كنيسة الحافر والحكاية المنقولة عن (كامل البهائي) كلاهما مستبعدان في نظري ، وليسـا موضع اعتقاد منّي ، والله هو العالم .

حكاية المنهال بن عمرو وحديثه مع السجّاد (عليه السلام)

قال السيّد : خرج زين العابدين (عليه السلام) يوماً يمشي في أسواق دمشق ، فاستقبله المنهال بن عمرو فقال له : كيف أمسيت يا بن رسول الله ؟ قال :

« أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون ، يذبّحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، يا منهال ، أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً عربيّ ، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنّ محمّداً منها ، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشرّدون ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون» .

وقد نقل الشيخ الأجلّ عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسيره هذا الحديث مع المنهال في أحد أسواق دمشق مع تفاوت فيه ، فبعد تشبيهه (عليه السلام) حاله ببني إسرائيل قال : « . . وأصبح خير البريّة[1] يُلعن على المنابر ، وأصبح عدوّنا يعطى المال والشرف ، وأصبح من يحبّنا محقوراً منقوصاً حقّه ، وكذلك لم يزل المؤمنون ؛ وأصبحت العجم تعرف للعرب حقّها بأنّ محمّداً كان منها ، وأصبحت العرب تعرف لقريش حقّها بأنّ محمّداً كان منها ، وأصبحت قريش تفتخر على العرب بأنّ محمّداً كان منها ، وأصبحت العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً كان منها ، وأصبحنا ـ أهل بيت محمّد ـ لا يُعرف لنا حقّ !! فهكذا أصبحنا » .

وقد نقل المحدّث الجليل السيّد نعمة الله الجزائري في كتاب (الأنوار النعمانيّة) هذا الحديث بشكل أبسط ، وفيه أن المنهال رأى الإمام (عليه السلام) وهو متكيء على العصا ، وساقاه أشبه بعودين من القصب والدم يسيل منهما ، وكان مصفّر اللون ، ولمّا سأله عن حاله ، قال : كيف يصبح من كان أسيراً ليزيد بن معاوية ؟ أما نسوتنا فلم يشبعن طعاماً ولم يسترن رأساً ، وشغلهنّ النياحة والبكاء .

وبعد أن نقل شطراً ممّا جاء في رواية (تفسير القمّي) قال : ما دعانا يزيد إليه مرّة إلاّ وظننّا أنه يريد قتلنا ، وأنه إنّما يدعونا لذلك ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

---

(١) في قوله (ع) في الحديث الشريف : « خير البريّة يلعن على المنابر » إشارة إلى سيرة معاوية في ما سنّه من سبّ عليّ (ع) على منابر الإسلام ، وقد أجاد ابن سنان الخفاجيّ إذ قال :

يا أمّة كفرت وفي أفواهها الـ ... قرآن فيه ضلالها ورشادها
أعلى المنابر تعلنون بسبّه ... وبسيفه نصبت لكم أعوادها ؟
تلك الخلائق فيكم بدريّة ... قتل الحسين فما خبت أحقادها

واستمرّ أمر منابر المسلمين ومساجدهم على ذلك سنين طويلة كان سبّ أمير المؤمنين فيها سنّة لهم ، حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أوقف هذا العمل الشنيع بأساليب لطيفة ، وأقرّ بدلاً عنه تلاوة الآية الكريمة : ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان . .﴾ .

يقول المنهال : وسألته (عليه السلام) أين يريد الآن ؟ فأجاب : إلى حيث أعطونا داراً لا سقف لها ، وحيث الشمس تصهرنا ، وحيث لا نرى للهواء النقيّ أثراً ، وما خرجت الآن ـ على ما بي من ضعف ـ إلاّ لأستريح لحظة أعود بعدها خشية على النساء .

قال : فسمعت ـ وأنا أتحدث إليه ـ صوت امرأة تقول : أين انت ذاهب يا نور عيني ؟ وكانت تلك زينب (عليها السلام) .

وجاء في (مثير الأحزان) في وصف المساكن التي أنزل فيها أهل البيت (عليهم السلام) ، القول :

« وأسكنّ في مساكن لا يقين من حرّ ولا برد ، حتّى تقشّرت الجلود وسال الصديد ، بعد كنّ الخدور وظلّ الستور » .

ونقل عن بعض الكتب أنّ يزيد بن معاوية جعل السجّاد (عليه السلام) ومن معه في بيت خرب ، ومراده أن يقع البيت عليهم فيقتلهم .

وجاء في (كامل البهائيّ) نقلاً عن حاوية أن نساء بيت العصمة كنّ ـ في فترة الأسر ـ يخفين عن الأطفال حقيقة مقتل رجالهن في كربلاء ، فإذا سأل طفل عن أبيه أجبنه بأنه مسافر وسيعود ، حتّى جيء بهم إلى الشام وأنزلوهم في دار خربة إلى جنب قصر يزيد .

وكانت للحسين (عليه السلام) طفلة صغيرة لها من العمر أربع سنين ، وذات ليلة انتبهت من نومها مذعورة باكية تقول : أين أبي ؟ لقد رأيته الساعة وهو حزين مغموم ، أريد أبي !!

فتعالى الصراخ والبكاء من العيال والأطفال حتى وصل صراخهم إلى يزيد ، فانتبه من نومه وسأل : ما الخبر؟ فقيل له : إنّ طفلة للحسين رأت أباها في المنام ، فانتبهت من نومها تطلبه وتبكي عليه .

فأمر ـ لعنه الله ـ فجيء برأس الحسين (عليه السلام) ووضع أمام تلك الطفلة ذات الأربع ، فسألت : ما هذا ؟ قالوا : هذا رأس أبيك !! فذعرت وجعلت تبكي وتنوح وتندب أباها ، واعتلّت أيّاماً ، ثمّ فارقت الحياة .

ونقل بعضهم هذه الواقعة بشكل مبسّط ، فنظم واحد من الأكابر (ره) مضمونه بأبيات نكتفي بها في هذا المقام ، قال رحمه الله[1] :

---

(١) أورد المؤلف مجموعة أبيات للناظم ، وقد أوردنا نحن مضمونها نثراً (المعرّب) .

انتبهت وردة كالبرعم الغضّ في روضة الزهراء (عليها السلام) من نومها ، تقول بصوت أشبه بصوت البلبل ، ودمعها يجري من بين أهدابها دماً : عمّتاه ، أين أبي الذي كان يضمّني ، ويمسح وجهي ورأسي بيديه ، ثم غاب عنّي فجأة ، وتركني دامية القلب والعين ؟

أحاطت النسوة الحجازيّات بالطفلة الباكية فلم يملكن أنفسهنّ من البكاء في هذه الخربة ومع هذا الجور ، وانتبه يزيد الملعون من نومه على صراخهنّ ونياحتهنّ ، وسأل : ما هذا النواح وما سببه ؟ فقيل : أهل بيت النبيّ يبكون ، لأنّ طفلة للشهيد رأت أباها الساعة في نومها ، وهي تطلبه الآن من عمّتها ، الأمر الذي يفطّر الأكباد .

قال الطريد من رحمة الله : الحلّ سهل ، وعندي العلاج ، خذوا إليها رأس أبيها ، وهاكم الطست والرأس فيه ، فضعوه أمامها ، فأتوا بالرأس مغطّى وقدّموه ، فجدّدوا أحزان أهل البيت .

قالت الطفلة : أريد أبي، فماذا بهذا الطست تحت المنديل؟ قيل: في الطست ما تطلبين، فانظري إليه عسى ترضين!!

رفعت الغطاء عن الرأس فكادت روحها تطير لهول ما رأت ، وضمّت الرأس إلى صدرها وهي تقول :

يا أبه ، من فعل بك هذا ؟ لقد تقاطرت علينا المحن بعدك ، ويسير بنا في الفيافي والقفار ، والكلّ في الكوفة والشام يقولون : إنّهم على الإسلام خارجيّون !

يا أبه . لم نلق بعدك إلاّ ضرب السياط ، ووخز الأسنّة ، لقد جابوا برأسك هذا كل مكان ، فمن ذا الذي قطع وريدك وفصل رأسك عن الجسد ؟

يا أبه ، لقد أيتموني وأنا بعد طفلة ، فمن لليتيمة بعدك يا أبه ؟! وجعلوني أسيرة ، وفي الأغلال وضعوني ، ومن أبي حرموني .

قالت هذا وضمّت رأس أبيها ، وسكنت حركتها وهي تضمّه ، ثمّ طارت روحها إلى جنان الخلد . واتّخذت لها عشاً في حضن البتول .

ولّما رأى النسوة هذه الحال ، وكيف طارت دون ريش وجناح ، فمن عليها نادبات باكيات، وعادت إليهنّ هذه الواقعة واقعة كربلاء من جديد.

حلمٌ وانطوى واجهش تاريـ ـخ وظلّت مأساتها تنعاها

سكينة والمنام في خربة الشام

قال الشيخ ابن نما : ورأت سكينة في منامها وهي بدمشق ، في اليوم الرابع من وصولهم إليها ـ وفقاً لرواية السيّد ـ قالت : رأيت خمسة نُجب من نور قد اقبلت ، وعلى كلّ نجيب شيخ ، والملائكة محدقة بهم ، ومعهم وصيف يمشي ؛ وأقبل الوصيف إليّ ، وقرب منّي وقال : يا سكينة ، إنّ جدّك يسلّم عليك ، فقلت ؛ وعلى رسول السلام ، يا رسول من أنت ؟ قال : وصيف من وصائف الجنّة ، فقلت : من هؤلاء المشيخة الذين جاؤوا على النجب ؟ قال : الأول : آدم صفوة الله ، والثاني : إبراهيم خليل الله ، والثالث : موسى كليم الله ، والرابع : عيسى روح الله ، فقلت ؛ من هذا القابض على لحيته يسقط مرّة ويقوم أخرى (من الضعف) ؟ فقال : جدّك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقلت ؛ وأين هم قاصدون ؟ قال ؛ إلى أبيك الحسين (عليه السلام) ، فأقبلت أسعى في طلبه لأعرّفه ما صنع بنا الظالمون بعده .

فبينما أنا كذلك إذ أقبلت خمسة هوادج من نور ، في كلّ هودج امرأة ، فقلت : من هذه النسوة المقبلات ؟ قال : الأولى حوّاء أمّ البشر ، والثانية : آسية بنت مزاحم ، والثالثة : مريم ابنة عمران ، والرابعة : خديجة بنت خويلد ، فقلت : من الخامسة الواضعة يدها على رأسها تسقط مرّة وتقوم أخرى ؟ فقال : جدّتك فاطمة بنت محمّد ، أمّ أبيك ، فقلت : والله لأخبرنّها ما صُنع بنا .

فلحقتها ووقفت بين يديها أبكي وأقول : يا أمّتاه ، جحدوا والله حقّنا ؛ يا أمّتاه ، بدّدوا والله شملنا ؛ يا أمّتاه ، استباحوا والله حريمنا ؛ يا أمّتاه ، قتلوا والله الحسين أبانا .

فقالت : كفّي صوتك يا سكينة ، فقد أحرقت كبدي ، وقطعت نياط قلبي ، هذا قميص ابيك الحسين معي لا يفارقني حتّى ألقى الله به .

ثم انتبهت من نومي .

وروي عن سكينة (عليها السلام) منام آخر رأته في الشام ، وروي أنّه نقل إلى يزيد ، وقد ذكره العلاّمة المجلسيّ (ره) في (جلاء العيون) ، ثم قال : ويروي القطب الراونديّ عن الأعمش أنه قال :

كنت أطوف بالبيت فإذا أنا برجل يقول : اللهمّ اغفر لي وما أراك فاعلاً !! ولمّا سألته عن سبب قنوطه قال : اخرج بنا عن الحرم ، فخرجنا ، ثم قال : اعلم أنّنا كنّا في جيش ابن سعد ، وكنت أحد الأربعين الذين حملوا رأس الحسين من الكوفة إلى الشام ، وفي الطريق شاهدنا كرامات كثيرة تصدر عن هذا الرأس .

ولمّا دخلنا دمشق أتينا يوماً بالرأس إلى يزيد في مجلسه ، وابتدر قاتل الحسين إلى يزيد فقال :

أوقر ركابي فضّة وذهبا أنا قتلت السيّد المحجّبا
قتلت خير الناس امّاً وأبا وخيرهم إذ ينسبون النسبا

فقال يزيد : لو علمتَ أنّه خير الناس فلم قتلته ؟ ثمّ أمر به فضربت عنقه ، ثمّ أمر بالرأس فوضع بين يديه وهو فرح مسرور ، فحاجّه أهل المجلس وأقوا عليه الحجج ، فلم يجن أيّ فائدة .

ثم أمر بالرأس فنصب في قبّة بإزاء القبّة التي يشرب فيها ، وأوكل إلينا حراسته ، ولم أستطع النوم لما كنت شاهدته من كرامات تصدر عن هذا الرأس ، ولمّا مضى وهن من الليل ، وانصرف رفاقي إلى النوم ، سمعت دويّاً من السماء ، فإذا منادٍ ينادي : يا آدم اهبط ، فهبط أبو البشر ومعه كثير من الملائكة ؛ ثمّ سمعت منادياً ينادي : يا إبراهيم اهبط ، فهبط ومعه كثير من الملائكة ؛ ثمّ سمعت منادياً ينادي : يا موسى اهبط ، فهبط ومعه كثير من الملائكة ؛ ثمّ سمعت منادياً ينادي : يا عيسى اهبط ، فهبط ومعه كثير من الملائكة ، ثمّ سمعت دويّاً عظيماً ومنادياً ينادي : يا محمّد اهبط ، فهبط ومعه خلق كثير من الملائكة ، فأحدق الملائكة بالقبّة .

ثم إنّ النبيّ دخل القبّة وأخذ الرأس منها ، وفي رواية أنّ محمّداً قعد تحت الرأس ، فانحنى الرمح ووقع الرأس في حجر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأخذه وجاء به إلى آدم فقال : يا أبي آدم ، أترى ما فعلت أمّتي بولدي من بعدي ؟

قال : فاقشعرّ لذلك جلدي ، وإذا بجبرئيل ينزل إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويقول : يا محمّد ، أنا صاحب الزلازل ، فمرني لأزلزل بهم الأرض ، وأصيح بهم صيحة واحدة ، يهلكون فيها ، فقال : لا ، قال : يا محمّد ، دعني وهؤلاء الأربعين الموكّلين بالرأس ، قال : فدونك ، فجعل ينفخ بواحد إثر واحد ، فدنا منّي فقال : تسمع وترى ؟ فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) : دعوه دعوه ، لا يغفر الله له ؛ فتركني ، وأخذوا الرأس وولّوا ، فافتقد الرأس من تلك الليلة فما عرف له خبر .

ولحق عمر بن سعد بالريّ فما لحق سلطانه ، ومحق الله عمره ، وهلك في الطريق .

قال الأعمش : قلت للرجل : تنحّ عنّي ولا تحرقني بنارك ، وولّيت عنه[1] .

---

(١) هذا السطر الأخير لم يرد في كتاب المؤلف هذا ، ونظراً لوروده في الرواية عن الأعمش فقد رأيت من المناسب إدراجه ، وذلك لاستكمال النص (المعرّب) .

الاختلاف في مدفن الرأس المقدّس

يقول المترجم : اعلم أنّ هناك اختلافاً كبيراً بين العامّة في مدفن الرأس المبارك لسيّد الشهداء عليه آلاف التحيّة والثناء ، غير أنّه لا فائدة من ذكر أقوالهم في هذا الصدد ؛ أمّا المشهور بين علماء الشيعة فهو أنّ الإمام زين العابدين (عليه السلام) أتى به إلى كربلاء مع سائر رؤوس الشهداء ، حيث ألحقها بأجسادها في اليوم الأربعين ؛ وهذا القول بعيد وفقاً للمرويّات .

وتدل أحاديث كثيرة على أنّ رجلاً من الشيعة أخذ الرأس المبارك ، وجاء به فدفنه عند رأس أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولهذا السبب سنّت زيارته (عليه السلام) في ذلك الموضع ، ودلت تلك الرواية على أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حمل الرأس المقدّس معه .(١)

ولا شكّ في أنّ ذينك الرأس والبدن انتقلا بين أشرف المواضع ، وألحق أحدهما بالآخر في عالم المقدس ، ولو كانت الكيفية مجهولة ، انتهى كلام العلاّمة المجلسيّ (ره) .

أقول : إنّ ما ورد في آخر الخبر المرويّ عن الأعمش من أنّ ابن سعد هلك في طريقه إلى الريّ ليس صحيحاً، ذلك أن المختار قتله في منزله في الكوفة، واستجيب بذلك دعاء الحسين (عليه السلام) عليه إذ قال:

« وسلّط عليك من يذبحك بعدي على فراشك » .

يروي أبو حنيفة الدّينوريّ عن حميد بن مسلم أنّه قال :

كان عمر بن سعد صديقاً لي ، ولمّا رجع من كربلاء بعد أن فرغ من قتل الحسين (عليه السلام) قدمت لرؤيته وسألته عن حاله فقال : لا تسألني عن حالي ، فلم يعد مسافر إلى داره بأسوأ مما عدت به ، فقد قطعت القرابة القريبة ، وأتيت أمراً كبيراً .

وجاء في (تذكرة) السبط أن الناس أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ، وكان إذا مرّ بقوم أعرضوا بوجوههم عنه ، وإذا دخل مسجداً خرج الناس منه ، وكان من يراه يسبّه ، فلا غرو أنّه اختار التزام بيته حتى قتل ، لعنة الله عليه .

(١) أقول : إن قول يزيد لعليّ بن الحسين (ع) : « أمّا رأس أبيك فلن تراه أبداً » فإنّ ما سيأتي فيما بعد سيؤيّد هذه الرواية .

الفصل التاسع

في تسيير يزيد أهل البيت (عليهم السلام) الى المدينة

لمّا عرف أهل الشام حقيقة ما أحاط بقتل الحسين (عليه السلام) وظلم يزيد له ولأهل بيته ، وما نزل بهم من كوارث ومحن ، بدأت تلوح منهم آثار الكره ليزيد واستنكار أفعاله .

وأدرك يزيد أبعاد ذلك ، فراح يحاول باستمرار أن يمحو تلك الصورة من أذهان الناس ، وأن يوهمهم ببراءته ونظافة يديه من دم الحسين (عليه السلام) ، ويلصق قتله بابن مرجانه ، كما تظاهر بمعاملة أهل البيت (عليهم السلام) بالرفق والحسنى ، وجعل أولى اهتماماته العمل على مداواة جراحاتهم ، ومن هذا المنطلق دعا عليّ بن الحسين (عليه السلام) يوماً إليه ، وكان قد وعده أن يقضي له حاجات ثلاث ، فقال له : اذكر حاجاتك الثلاث اللاتي وعدتك بقضائهنّ .

قال (عليه السلام) : الأولى : أن تريني وجه سيّدي وأبي ومولاي الحسين ، فأتزوّد منه وأنظر إليه وأودّعه ؛ والثانية : أن تردّ علينا ما أخذ منّا ؛ والثالثة : إن كنت عزمت على قتلي أن ترسل مع هؤلاء النسوة من يردّهنّ إلى حرم جدّهنّ (صلّى الله عليه وآله) .

فقال يزيد : أمّا رأس أبيك فلن تراه أبداً ، وأمّا قتلك فقد عفوت عنك ، وأمّا النساء فلا يردّهنّ إلى المدينة غيرك ، وأمّا ما أخذ منكم فأنا أعوّضكم عنه أضعاف قيمته .

فقال له (عليه السلام) : أمّا مالك فلا نريده وهو موفّر عليك ، وإنّما طلبت منك ما أخذ منّا لأنّ فيه مغزل جدّتي فاطمة ومقنعتها وقلادتها وقميصها ، فأمر يزيد بردّ ذلك عليه ، وأضاف إليه مئتي دينار ، فأخذها زين العابدين (عليه السلام) وفرّقها في الفقراء والمساكين .

ويقول العلاّمة المجلسيّ وآخرون إنّ يزيد خيّر أهل البيت بين البقاء في الشام والرجوع إلى المدينة ، على أن يأذن لهم بإقامة مأتم عزاء للإمام الحسين (عليه السلام) فقال لهم : أنتم

وما شئتم ، ثم أفرد لهم بيتاً ، فلبسوا السواد ، وأقاموا مأتماً دام أسبوعاً ، وشاركهم فيه كلّ من كان بالشام من قريش وبني هاشم .

وفي اليوم الثامن دعاهم إليه ، وجدّد رغبته ببقائهم في الشام ، ولّما أبوا أمر بتزيين الهوادج لهم ، وخصّص أموالاً لنفقاتهم وقال لهم : هذا يعوّضكم عمّا وقع لكم ، فقالت له أمّ كلثوم سلام الله عليها : ما أقلّ حياءك يا يزيد ! تقتل إخوتنا وأهلنا ، وما على وجه الأرض لا يعدل شعرة منهم ، ثمّ تقول : هذا عوض عمّا فعلته ؟!

ثم دعا النعمان بن بشير صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال له : جهّز هؤلاء بما يصلحهم ، وابعث معهم رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً ، وابعث معهم خيلاً وأعواناً .

وفي رواية الشيخ المفيد (ره) أن يزيد دعا بعليّ بن الحسين (عليهما السلام) فقال له : لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو كنت صاحبه ما سألني خلّة إلاّ أعطيتها إيّاه ، ولدفعت عنه الحتف بكلّ ما قدرت عليه ، ولكن قضى الله ما رأيت ، فكاتبني وأنه إليّ كلّ حاجة تكون لك . ثم وهبه ثوباً ، كما قدم كسوة لأهل بيته .

ثمّ أوصى الرسول أن يرحل بهم من ليلته مع النعمان بن بشير ، فخرج بهم الرسول يسايرهم فيكون أمامهم ، فإذا نزلوا تنحّ عنهم ، وتفرّق هو وأصحابه كهيئة الحرس ، ثمّ ينزل بهم حيث أراد أحدهم الوضوء ، ويعرض عليهم حوائجهم ، ويلطف بهم .

ويروي القرمانيّ في (أخبار الدول) أنّ النعمان بن بشير خرج بأهل البيت في ثلاثين نفراً ، فسلك بهم الطريق الذي حدّده يزيد ، حتّى انتهى بهم إلى المدينة .

قالت فاطمة بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) : قلت لأختي زينب : قد وجب علينا حقّ هذا لحسن صحبته لنا ، فهل لك أن تصليه ؟ فقالت : والله ما لنا ما نصله به إلاّ أن نعطيه حليّنا ، فأخذت سواري ودملجي[1] أو سوار أختي ودملجها فبعثنا بها إليه ، واعتذرنا من قلّتها وقلنا : هذا بعض جزائك لحسن صحبتك إيّانا ، فقال : لو كان الذي صنعته للدنيا كان في دون هذا رضاي ، ولكن والله ما فعلته إلاّ لله ، وقرابتكم من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) .

ورود أهل البيت إلى كربلاء

يقول السيّد : ولّما رجعت نساء الحسين (عليه السلام) وعياله من الشام وبلغوا إلى العراق قالوا للدليل : مرّ بنا على طريق كربلاء ، فوصلوا إلى موضع المصرع ، فوجدوا

(١) الدملج : حلي يلبس في المعصم .

جابر بن عبد الله الأنصاريّ وجماعة من بني هاشم ، ورجالاً من آل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد وردوا لزيارة قبر الحسين ، فوافوا في وقت واحد ، وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم ، وأقاموا المآتم المقرح للأكباد ، واجتمع إليهم نساء ذلك السواد ، وأقاموا على ذلك أياماً .

يقول المؤلّف : غير خافٍ أنّ ثقاة المحدّثين والمؤرّخين متّفقون ، بل روى السيّد الجليل عليّ بن طاوس نفسه ، أنّه بعد استشهاد الحسين (عليه السلام) بعث عمر بن سعد برؤوس الشهداء أولاً إلى ابن زياد ، وبعد ذلك بيوم بعث بأهل البيت إلى الكوفة ، فأمر ابن زياد بحبسهم بعد أن شفى حقده منهم بالشماتة بهم والتشنيع عليهم ، ثمّ كتب إلى يزيد يستشيره في أمرهم ، فكتب إليه يزيد في الجواب أن يسيّرهم إلى الشام ، فجهّزهم ابن زياد وبعث بهم إلى الشام .

ويتّضح ممّا نقل عن مسيرهم إلى الشام من الكتب المعتبرة أنهم سُيّروا عبر الطريق الرئيسيّ ، فمروا بمدن وقرى مأهولة ، وقد نزلوا في ما يقرب من أربعين منزلاً ، وبصرف النظر عن ذكر تلك المنازل نقول : إنّ مسيرهم كان من البرّيّة وغربي الفرات يحتاج إلى ما يقرب من عشرين يوماً ، ذلك أن المسافة بين الكوفة والشام تبلغ بالخط المستقيم مئة وخمسة وسبعين فرسخاً ، كما توقّفوا في الشام ما يقرب من شهر وفقاً لما قاله السيّد في (الإقبال) : روي أنّ أهل البيت أقاموا في الشام شهراً في محبس لا يقيهم من حرّ ولا قرّ ، وبملاحظة كلّ هذه الأمور يستبعد كثيراً أن يعود أهل البيت إلى كربلاء فيصلوا إليها في اليوم العشرين من صفر الذي يوافق اليوم الأربعين ، كما يتّفق مع يوم وصول جابر بن عبد الله إلى هناك .

وقد اعتبر السيّد الأجلّ نفسه هذا الأمر مستبعداً ، وعلاوة على أنّ أحداً من أجلاّء فنّ الحديث والمعتمدين من أهل السير والتواريخ في المقاتل وغيرها ، لم يشر إلى هذا الأمر ، مع أنّ جهات لائقة أخرى أتت على ذكره ، غير أنّه يلاحظ من سياق كلامهم إنكارهم له ، كما في كلام الشيخ المفيد في صدد مسير أهل البيت (عليهم السلام) إلى المدينة ، ويقرب من كلامه ما ذكره ابن الأثير والطبريّ والقرمانيّ وآخرون ، وليس في كلام أيّ منهم ذكر للسفر إلى العراق .

غير أن الشيخ المفيد والشيخ الطوسيّ والكفعميّ قالوا إنّ حرم أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) رجعوا من الشام إلى المدينة ، وفي اليوم نفسه جاء جابر بن عبد الله إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ، وكان أول رجل يزور الإمام الحسين (عليه السلام) .

ولشيخنا العلاّمة النوري طاب ثراه في كتاب (اللؤلؤ والمرجان) كلام في الردّ على هذا النقل ، كما رأى عذراً لنقل ابن طاوس لهذا الأمر في كتابه ، والمجال لا يتّسع لبسط أقواله .

ويحتمل البعض أن أهل البيت عليهم السلام عرجوا إلى كربلاء خلال مسيرهم من الكوفة إلى الشام ، وهذا الاحتمال بعيد لأسباب عديدة ؛ كما احتمل آخرون أنهم عليهم السلام قدموا إلى كربلاء بعد رجوعهم من الشام ، ولكن ليس في اليوم الأربعين ، ذلك لأن السيّد والشيخ ابن نما اللذين ذكرا قدومهم إلى كربلاء دون أن يقيّداه باليوم الأربعين ، وهذا الاحتمال ضعيف أيضاً ، لأن آخرين كصاحب (روضة الشهداء) و(حبيب السير) وغيره قيّدوا في ما نقلوه ورودهم باليوم الأربعين ؛ كما يظهر من عبارة السيّد أيضاً أنهم وردوا كربلاء مع جابر في وقت واحد ويوم واحد ، في قوله : « فوافوا في وقت واحد » ، ومن المسلّم أن قدوم جابر إلى كربلاء كان في اليوم الأربعين .

وعلاوة على ما تقدّم فإنّ تفاصيل ورود جابر إلى كربلاء في كتاب (مصباح الزائر) للسيّد ابن طاوس ، و(بشارة المصطفى) ، وكلا الكتابين هما من الكتب المعتبرة ، هذه التفاصيل موجودة ، ولم يرد أبداً أي ذكر لورود أهل البيت في ذلك الحين ، مع أنّ المقام يقتضي ذكره ، ومن المناسب أن نذكر رواية ورود جابر إلى كربلاء لاشتمالها على فوائد جمّة .

زيارة جابر يوم الأربعين

يروي الشيخ جليل القدر عماد الدين أبو القاسم الطبريّ الآمليّ ، وهو من اجلاّء فنّ الحديث ، ومن تلامذة أبي علي بن الشيخ الطوسيّ في كتاب (بشارة المصطفى) وهو من الكتب البالغة النفاسة ، يروي مسنداً عن عطيّة بن سعد بن جنادة العوفيّ الكوفيّ ، وهو من رواة الإماميّة ، وممّن صرّح أهل السنّة في الرجال بصدقه في الحديث ، أنّه قال :

خرجنا مع جابر بن عبد الله الأنصاريّ لزيارة قبر الحسين (عليه السلام) ، فلمّا انتهينا إلى كربلاء دنا من الفرات فنزع مئزره ولبس ثوباً غيره ، ثم فتح ربطة فيها سُعد ، فنثر منه على بدنه ، ثمّ تقدّم نحو القبر ، ولم يكن يخطو خطوة إلاّ بذكر الله ، حتى دنا من القبر ، فقال لي : ضع يدي على القبر ، فوضعتها ، فما بلغت يده القبر حتّى وقع فوقه مغشياً عليه ، فرششت وجهه بالماء حتى استعاد وعيه ، فقال :

يا حسين ، ثلاثاً ، ثمّ قال : حبيب لا يجيب حبيبه ؟! ثمّ قال : من أين لك أن تجيب وقد زالت عروقك عن مواضعها ، وعنقك معلّق بين ظهرك وكتفيك ؟ وافترق رأسك عن جسدك ؟! إنّي أشهد أنّك ابن خير النبيّين ، وابن سيّد المؤمنين ، وابن حليف التقوى ، وسليل الهدى ، وخامس أصحاب الكسا ، وابن سيّد النقباء ، وابن فاطمة سيّدة النساء .

وكيف لا تكون كذلك وقد أُدّبت على يدي سيّد المرسلين ، ونشأت في كنف المتّقين ، ورضعت من ثدي الإيمان ، وفطمت بالإسلام ، وطهرت في الحياة وفي الممات ؟

إنّ قلوب المؤمنين جزعة لفراقك ، ولا يخامرها الشكّ في طهارة نفسك ، فسلام الله عليك وبركاته ، وأشهد أنّك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريّا .

ثمّ أدار جابر عينيه على قبور الشهداء فسلّم عليهم بقوله :

السلام عليكم أيّتها الأرواح التي حلّت بفناء قبر الحسين (عليه السلام) ، وأناخت برحله ، أشهد أنّكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ، وجاهدتم الملحدين ، وعبدتم الله حتّى أتاكم اليقين .

ثمّ قال : تالله لقد بعث محمّد (صلّى الله عليه وآله) بالنبوّة الحقّة ، ونحن شركاؤكم في ما دخلتم فيه .

قال عطيّة : فقلت له : وكيف نكون شركاءهم ونحن لم ننزل وادياً ، ولم نصعد جبلاً ، ولم نضرب بسيف ، بينما فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم ، وانتهى إلى اليتم أولادهم ، وإلى الثكل نساؤهم ؟

قال جابر : يا عطيّة ، سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول :

« من أحبّ قوماً حشر معهم ، ومن أحبّ عمل قوم كان فيه شريكاً » . فوالذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لأنا وأصحابي على ما مضى عليه الحسين (عليه السلام) وأصحابه .

ثمّ قال : امض بنا نحو بيوت الكوفة ، فلمّا طوينا قسماً من الطريق قال لي : أي عطيّة ، الا أوصيك ؟ فلا أعلم إن كنت سالقاك بعد سفري هذا ، ووصيّتي إليك : أن تحبّ محبّ آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) ما دام على محبّتهم مقيماً ، وأن تبغض عدوّ آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) ما دام لهم عدوّاً ، ولو صام وصلّى ، ودار محبّ آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) ولو زلّت قدمه بكثرة الآثام ، وثبتت قدمه الأخرى على محبّتهم ، فإنّ محبّهم إلى الجنّة ، ومبغضهم إلى النار .

تذييل : يُعلم من وصف جابر للإمام الحسين (عليه السلام) بخامس أصحاب الكساء أن هذا لقب من الألقاب المعروفة عنه (عليه السلام) ، وحديث اجتماع الخمسة الأطهار (عليهم السلام) تحت الكساء من الأحاديث المتواترة التي يرويها علماء الفريقين السنّة والشيعة على السواء ، وجاء في الأحاديث أن آية التطهير نزلت بعد اجتماعهم ، وكما ورد بكثرة في أحاديث المباهلة ؛ ولعلّ السرّ في جمع الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) للأنوار الطيّبة من أهل البيت تحت الكساء ، إنّما هو لرفع الشبهة ، فلا يستطيع أحد أن يزعم شمول آية التطهير أحداً غير المجتمعين تحت الكساء ، ومع أنّ طائفة من معاندي العامّة قالوا بتعميم الآية ، إلاّ أنّ أغراضهم الفاسدة من ذلك واضحة وبيّنة .

وجوه الشبه بين الحسين ويحيى عليهما السلام : وأمّا كلام جابر إذ قال : « ومضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريّا » فهو إشارة إلى التشابه التام بين الحسين ويحيى بن زكريا (عليهما السلام) ، كما صرّح بذلك الإمام الصادق (عليه السلام) إذ قال :

« زوروا الحسين (عليه السلام) ولا تجفوه ، فإنّه سيّد شباب الشهداء ـ أو سيّد شباب أهل الجنّة ـ وشبيه يحيى بن زكريّا . . . » .

وروى جماعة من أهل الحديث عن السيّد السجّاد (عليه السلام) أنّه قال :

خرجنا مع الحسين ، فما نزل منزلاً وما ارتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريّا وقتْله ، وقال يوماً : ومن هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحيى بن زكريّا أهدي إلى بغيّ من بغايا إسرائيل » .

ولا يبعد أنّ تكرار ذكر الإمام الحسين ليحيى (عليهما السلام) هو إشارة لهذا المعنى ، أمّا أوجه الشبه بين هذين المظلومين فكثيرة ، ونكتفي بذكر ثمانية منها :

الأوّل : أنّ اسمي هذين المعصومين كليهما لم يعرفا قبل أن يتسمّيا بهما ، وفقاً لما جاء في مرويّات عديدة من أنّ اسمي يحيى والحسين لم يتسمّ بهما أحد قبلهما .

الثاني : أنّ مدّة حمل كلّ منهما كانت ستّة أشهر ، كما ورد في المرويّات .

الثالث : ورود الأخبار ونـزول الوحي الإلهي يبشّران بولادة كلّ منهما قبل أن يولدا ، وبشرح مجريات أحوالهما ، كما تقدّم في صدد ولادة الإمام الحسين (عليه السلام) ، وما نقله المحدّثون والمفسّرون في تفسير الآية : ﴿ **حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً** ﴾ .

الرابع : بكاء السماء عليهما كليهما كما ورد في مرويّات الفريقين في تفسير الآية الكريمة : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ .

ويروي القطب الراوندي أنّه « بكت السماء عليهما أربعين صباحاً ﴾ الخ .

الخامس : أن قاتليهما كانا ولدي زنى ، وفي هذا الباب وردت مرويّات عدّة ، بل يروى عن الباقر (عليه السلام) أنه لم يقتل الأنبياء إلّا أولاد زنى .

السادس : أنّ كلاً من رأسيهما وضع في طست ذهبيّ ، وأهدي إلى زناة أو أولاد زنى كما جاء في المرويّات ، ولكن هناك تفاوتاً هو أن رأس يحيى جزّ في طست كي لا يقع دمه على الأرض فيكون ذلك مدعاة للغضب الإلهي ، غير أن كفّار الكوفة وأتباع بني أميّة لم يراعوا ذلك مع سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ولنعم ما قيل :

أسفاً فقد سفكوا دماك على الثرى   لكن يحيى في الإنا جمعوا دمه[1]

السابع : تكلّم رأس يحيى كما في تفسير القمّيّ ، وتكلّم رأس الحسين كما مرّ في موضعه .

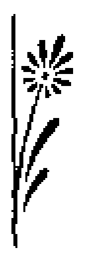
الثامن : الانتقام الإلهي لمقتل يحيى والإمام الحسين (عليهما السلام) بمقتل سبعين ألف نفر ، كما في خبر عن المناقب .

وفي المقارنة بين حال يحيى وحال الحسين يعرف كنه الأحاديث التي تفيد أنّ ما وقع للأمم السابقة لا بد واقع هذه الأمة : « حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة » ، والله هو العالم .

أمّا وصيّة جابر لعطيّة بأن يكون محبّاً لمحبّ آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) .. الخ فتشبه ما كتبه الإمام الرضا (عليه السلام) لجمّاله ، وما نصّه :

« كن محبّاً لآل محمّد وإن كنت فاسقاً ، ومحبّاً لمحبّيهم وإن كانوا فاسقين » .

يقول القطب الراوندي في (الدعوات) : إن هذا الكتاب موجود الآن عند بعض أهل كرمند ، وهي قرية في ظاهر إصفهان ، وقصّته أنّ رجلاً من أهل هذه القرية كان جمّالاً عند الإمام (عليه السلام) ، ولمّا عزم الإمام (عليه السلام) على التوجّه إلى خراسان وأراد صرف الرجل التمس من الإمام (عليه السلام) أن يكتب له بخطّه المبارك شيئاً يستمدّ منه البركة ، وكان هذا الرجل من العامّة ، فكتب له الإمام (عليه السلام) هذا الكتاب .



(١) تعريب بيت بالفارسيّة (المعرّب) .

الفصل العاشر

في ورود أهل البيت (عليهم السلام) إلى المدينة

انفصل أهل البيت (عليهم السلام) من الشام طالبين المدينة ، وبعد طيّ مراحل ونزول منازل انتهوا إلى موقع قريب من المدينة .

قال بشير بن جذلم ـ وكان يرافق الركب ـ : فلمّا قربنا منها نزل عليّ بن الحسين (عليهما السلام) فحطّ رحله ، وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال : يا بشير ، رحم الله أباك ، لقد كان شاعراً ، فهل تقدر على شيء منه ؟ قلت : بلى يا بن رسول الله ، إنّي لشاعر ، قال : فادخل المدينة وانع أبا عبد الله .

قلت : ويناسب أن أذكر في هذا المقام هذه الأبيات :

عج بالمدينة واصرخ في شوارعها	بصرخة تملأ الدنيا بها جزعا
ناد الذين إذا نادى الصريخ بهم	لبّوه قبل صدى من صوته رجعا
قل : يا بني شيبة الحمد الذين بهم	قامت دعائم دين الله وارتفعا
قوموا فقد عصفت بالطفّ عاصفة	مالت بأرجاء طود العزّ فانصدعا

قال بشير : فركبت فرسي وركضت حتّى دخلت المدينة ، فلمّا بلغت مسجد النبي (صلّى الله عليه وآله) رفعت صوتي بالبكاء ، وأنشأت أقول :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها	قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج	والرأس منه على القناة يدار

قال : ثمّ قلت : هذا عليّ بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم ، وأنا رسوله أعرّفكم مكانه .

(وكأنّ صرخة بشير كانت نفخة في الصور أقامت في المدينة صبح النشور) فما بقيت في المدينة مخدّرة ولا محجّبة إلّا برزن من خدورهنّ ، مكشوفة شعورهنّ ، مخمّشة وجوههنّ ، ضاربات خدودهنّ ، يدعون بالويل والثبور ؛ فلم أر باكياً أكثر من ذلك اليوم ، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه .

قال بشير : وسمعت جارية تنوح على الحسين وتنشد أشعاراً في رثائه (عليه السلام) ، ثم قالت : أيّها الناعي ، جدّدت حزننا بأبي عبد الله ، وخدشت منّا قروحاً لّما تندمل ، فمن أنت رحمك الله ؟

فقلت : أنا بشير بن جذلم ، وجّهني مولاي عليّ بن الحسين عليهما الصلاة والسلام ، وهو نازل في موضع كذا وكذا مع عيال أبي عبد الله ونسائه .

قال : فتركوني مكاني وبادروا ، فضربت فرسي حتى رجعت إليهم ، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع ، فنزلت عن فرسي وتخطّيت رقاب الناس حتّى قربت من باب الفسطاط ، وكان عليّ بن الحسين (عليهما السلام) داخلاً ومعه خرقة يمسح بها دموعه ، وخلفه خادم معه كرسي[1] ، فوضعه له وجلس عليه وهو لا يتمالك من العبرة ، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء ، وحنين الجواري والنساء ، والناس من كلّ ناحية يعزّونه ، فضجّت تلك البقعة ضجّة شديدة ، فأومأ بيده أن اسكتوا ، فسكنت فورتهم ، فقال (عليه السلام) .

خطبة السجّاد (عليه السلام) في ظاهر المدينة

﴿ الحمد لله ربّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ ، بارىء الخلائق

---

(١) يجدر العلم أنّ أول منبر نصب في الإسلام كان في المدينة إذ كان المسلمون القلّة ، فقد كان رسول الله (ص) إذا خطب يستند إلى جذع نخل إلى جانب المحراب يابس عتيق ، فلمّا كثر المسلمون أقاموا للرسول (ص) منبراً بثلاث درجات حيث هو المنبر اليوم في مسجد المدينة ، ولمّا كان يوم جمعة صعد رسول الله (ص) المنبر ، فحنّ ذلك الجذع كحنين الناقة إلى فصيلها ، وسمعه كلّ من كان في المسجد ، وأرى من المناسب في هذا المقام أن أتمثّل بقول البحتري :

فلو أنّ مشتاقاً تكلّف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

فنزل رسول الله (ص) فاحتضن الجذع ، فسكن من الحنين ، ثم عاد (ص) فصعد المنبر ، ثم أمّن ثلاث مرّات على دعوة جبرئيل على ثلاثة : عاقّ الوالدين ، ومن حرم من مغفرة الله في شهر رمضان ، ومن سمع اسم رسول الله (ص) ولم يصلّ عليه .

وعلى نحو ذلك نصب منبر لذكر مصائب سيّد الشهداء (ع) في المدينة إذ خرج الناس لاستقبال أهل البيت (ع) ، فجاء خادم بكرسيّ صعد عليه الإمام السجّاد (ع) وتحدّث عن استشهاد أبيه ، كما ورد في المتن .

أجمعين ، الذي بَعُد فارتفع في السماوات العلى ، وقَرُب فشهد النجوى ، نحمده على عظائم الأمور ، وفجائع الدهور ، وألم الفجائع ، وعضاضة اللواذع ، وجليل الرزء ، وعظيم المصائب القاضعة[1] ، والكاظّة الفادحة الجائحة .

أيّها الناس ، إنّ الله ـ وله الحمد ـ ابتلانا بمصائب جليلة ، وثلمة في الإسلام عظيمة ، قتل أبو عبد الله وعترته ، وسبي نساؤه وصبيته ، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان ، وهذه الرزيّة التي لا مثلها رزيّة .

أيّها الناس ، فأي رجالات منكم يسرّون بعد قتله ؟ أم أيّ عين منكم تحبس دمعها وتضنّ عن انهمالها ، فلقد بكت السبع الشداد لقتله ، وبكت البحار بأمواجها ، والسماوات بأركانها ، والأرض بأرجائها ، والأشجار بأغصانها ، والحيتان ولجج البحار ، والملائكة المقرّبون ، وأهل السماوات أجمعون .

أيّها الناس ، أيّ قلب لا ينصدع لقتله ، أم أيّ فؤاد لا يحنّ إليه ، أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ؟!

أيّها الناس ، أصبحنا مطرودين مشرّدين ، مذودين شاسعين عن الأمصار ، وكأنّا أولاد ترك وكابل ، من غير جرم اجترمناه ، ولا مكروه ارتكبناه ؛ والله لو أنّ النبيّ تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما ازدادوا على ما فعلوا بنا ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون ، من مصيبة ما أعظمها ، وأوجعها ، وأفجعها ، وأكظّها ، وأفظّها ، وأمرّها ، وأفدحها ، فعند الله نحتسب ما أصابنا وما بلغ بنا ، إنّه عزيز ذو انتقام » .

قال : فقام صوحان بن صعصعة بن صوحان ـ وكان زَمِناً ـ فاعتذر إليه صلوات الله عليه بما عنده من زمانة رجليه[2] ، فأجابه بقبول معذرته ، وحسن الظنّ فيه ، وشكر له ، وترحّم على أبيه .

ودخل الإمام (عليه السلام) المدينة مع أهل البيت ، فلما وقع نظرهم على الضريح المطهّر لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ارتفعت أصواتهم بالبكاء ، ويقولون : واجدّاه ، وامحمّداه ، هذا حسينك قتل عطشان ، وأهل بيتك أسرى لم يرحموا صغيراً منهم ولا كبيراً .

وعلا من جديد ضجيج أهل المدينة بالبكاء والعويل ، وروي أنّ زينب (عليها السلام)

(١) القاضعة : القاهرة المفرّقة .

(٢) الزمانة : العاهة ، والزَمِن : من أصيب بالزمانة ، واعتذار صوحان إليه (ص) كان لزمانة في رجليه عاقته عن الخروج معهم ونصرتهم عليهم السلام .

لمّا انتهت إلى المسجد أخذت الباب بيديها وصاحت : يا جدّاه ، إني ناعية إليك أخي الحسين (عليه السلام) .

« أي جدّاه قم واسأل عن حال زينب التي تفطّر الأكباد ، واسأل البنت المظلومة عن حال الولد ، فأنت لم تكن مع القتل ببيداء البلاء ، فدعني أقصّ عليك ما جرى ، وأروي لك عمّا جرى في الكوفة وعمّا وقع في الشام قصّة لم يُسمع بمثلها ، عن أطفالك يذرعون الأرض بين الكوفة والشام ، ويقاسون آلام السفر ، اسأل طيور السحر عن حال سكينة الوردة المتفتّحة ، واسأل عن العيون الباكية ، والقلوب الهلعة ، قم واسأل عن الطائر الكسير الجناح »[1] .

وما زالت تلك المخدّرة في بكاء لا ينقطع ، ودمع لا يجفّ ، فإذا نظرت إلى عليّ بن الحسين (عليه السلام) تجدّد حزنها وازدادت غصّتها .

ويروي الطبريّ عن الباقر (عليه السلام) أنّهم لمّا دخلوا المدينة خرجت امرأة من آل عبد المطلب مشوّشة الشعر ، وهي تبكي وتقول :

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

كثرة بكاء السجّاد (عليه السلام) بعد كربلاء

روي عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« إنّ زين العابدين (عليه السلام) بكى على أبيه أربعين سنة صائماً نهاره ، قائماً ليله ، فإذا حضر الإفطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه ، فيضعه بين يديه فيقول : كل يا مولاي ، فيقول : قتل ابن رسول الله جائعاً ، قتل ابن رسول الله عطشان ، فلا يزال يكرّر ذلك ويبكي حتّى يبلّ طعامه من دموعه ، ثم يمزج شرابه بدموعه ، فلم يزل كذلك حتّى لحق بالله عزّ وجلّ » .

وحدّث مولى له (عليه السلام) قال : إنّه برز يوماً إلى الصحراء ، فتبعته فوجدته قد سجد على حجارة خشنة ، فوقفت وأنا أسمع شهيقه وبكاءه ، وأحصيت عليه ألف مرّة :

« لا إله إلاّ الله حقّاً حقّاً ، لا إله إلاّ الله تعبّداً ورقّاً ، لا إله إلاّ الله إيماناً وصدقاً » .

ثمّ رفع رأسه من السجود وإنّ لحيته ووجهه قد غمرا بالماء من دموع عينيه ، فقلت : يا

(١) مضمون أبيات بالفارسيّة (المعرّب) .

سيّدي ، أما آن لحزنك أن ينقضي ، ولبكائك أن يقلّ ؟ فقال لي :

« ويحك إنّ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبيّاً ابن نبيّ ، وكان له اثنا عشر ابناً ، فغيّب الله سبحانه واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن ، واحدودب ظهره من الغمّ ، وذهب بصره من البكاء وابنه حيّ في الدنيا ! وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين ، فكيف ينقضي حزني ويقلّ بكائي » ؟

ويروى أنّه (عليه السلام) بعد مقتل أبيه اعتزل الناس فنزل في البادية في بيت من شعر يقال له الخباء الأسود ، وذلك لسنوات ، وكان يزور أحياناً جدّه أمير المؤمنين وأباه الحسين صلوات الله عليهما ، دون أن يعلم أحد .

وجاء في جملة من الكتب المعتبرة أن الرباب ابنة امرىء القيس أمّ سكينة (عليها السلام) ، وكانت حاضرة في وقعة الطفّ ، لم تنزل تحت سقف منذ عودتها إلى المدينة ، ولم تتقِّ حرّاً ولا قرّاً ، وكان يخطبها الأشراف من قريش فتقول :

« لا يكون لي حمو بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) » ، ولا زالت تبكي باستمرار حتى قضت .

وينقل عن أبي الفرج أن هذه الأبيات قالتها الرباب بعد مقتل الحسين (عليه السلام) ترثيه بها :

إنّ الذي كان نوراً يُستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون

سبطَ النبيّ جزاك الله صالحة ... عنّا وجُنّبت خسران الموازين

قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين

من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يغني ويأوي إليه كلّ مسكين

والله لا أبتغي صهراً بصهركم ... حتّى أغيب بين الرمل والطين

وروي أنّه ما اكتحلت هاشميّة ولا اختضبت ، ولا رُئي في دار هاشميّ دخان إلى خمس حجج ، حتّى قتل عبيد الله بن زياد لعنه الله تعالى .

يقول المؤلّف : بعث المختار برأس ابن زياد إلى عليّ بن الحسين (عليه السلام) فأدخل عليه وهو يتغدّى ، فسجد (عليه السلام) لله شكراً وقال :

« أدخلت على ابن زياد لعنه الله وهو يتغدّى ، ورأس أبي بين يديه ، فقلت : اللهمّ لا تمتني حتّى ترني رأس ابن زياد وأنا أتغدّى ، فالحمد لله الذي أجاب دعوتي ، وجزى الله المختار خيراً » .

ومن هنا يعلم حال المختار ، وكيف أفرح القلب المبارك للإمام (عليه السلام) ، بل شفى قلوب المصابين المظلومين الحزانى من أرامل آل النبيّ ويتاماهم ، الذين قضوا خمس سنين في الحزن والأسى وإقامة مآتم العزاء ، بل إنه أخرجهم من حالة العزاء ، وعمر دورهم ، وشفى صدورهم .

جاء في كتب الحديث المعتبرة أن رجلاً كافراً كان جاراً لرجل مسلم ، وكان الكافر يعامل جاره بالحسنى والمداراة ، فلمّا مات الكافر كان مآله إلى جهنّم طبقاً للموعيد الإلهي ، فبنى الله له وسط النار بيتاً من طين يحول دون وصول ضرر النار إليه ، وكان رزقه يأتيه من مكان غير جهنّم ، ويقال له : هذا جزاء حسن المعاملة الذي عاملت به جارك المسلم ، فإذا كان هذا حال كافر أحسن لمسلم ، فكيف يكون حال المختار الذي كانت سيرته على هذا النحو المرضيّ ؟

والأخبار المعتبرة في فضل إدخال السرور على قلب المؤمن أكثر من أن تحصى .

وكم هو سعيد حال المختار الذي أسعد قلوباً حزينة سحقها الألم من أهل بيت الرسالة ، وقد استجيبت للإمام السجّاد (عليه السلام) دعوتان تحقّقتا على يديه ، أولاهما مقتل ابن زياد كما تقدّم ، والأخرى مقتل حرملة بن كاهل حرقاً كما في الخبر عن المنهال بن عمرو الذي قال :

دخلت على عليّ بن الحسين (عليه السلام) منصرفي من مكّة ، فقال لي : يا منهال ، ما صنع حرملة بن كاهل الأسدي ؟ فقلت : تركته حيّاً بالكوفة ، قال : فرفع يديه جميعاً ثمّ قال (عليه السلام) : « اللهمّ أذقه حرّ الحديد ، اللهمّ أذقه حرّ النار » .

قال المنهال : فقدمت الكوفة وقد ظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفيّ ، وكان لي صديقاً ، فكنت في منزلي أياماً حتّى انقطع الناس عنّي ، وركبت إليه ، فلقيته خارجاً من داره ، فسايرته ونحن نتحدّث حتّى أتى الكناسة ، فوقف وقوفاً كأنّه ينتظر شيئاً ، فما لبثنا أن جيء بحرملة بن كاهل وقد أُخذ ، فلمّا نظر إليه المختار قال : الحمد لله الذي مكّنني منك ، ثم أمر به فقطعت يداه ورجلاه ، ثمّ ألقوا به في النار ، فقلت : سبحان الله ! فقال لي : يا منهال ، لم سبّحت ؟ فرويت له قصة دعوة الإمام السجّاد (عليه السلام) واستجابتها ، فنزل المختار عن دابّته وصلّى ركعتين فأطال السجود ، ثمّ قام فركب وقد احترق حرملة ، وركبت معه وسرنا ، فحاذيت داري فدعوته إلى الدخول وتناول الطعام ، فقال : يا منهال ، تعلمني أن عليّ بن الحسين (عليه السلام) دعا دعوات فأجابه الله على يدي ، ثم تأمرني أن آكل ؟ هذا يوم صوم شكراً لله عزّ وجلّ على ما فعلته بتوفيقه .

خاتمة في بكاء الكائنات على مصاب الحسين (عليه السلام)

اعلم أنّ أخباراً كثيرة وردت في صدد بكاء الملائكة والأنبياء وأوصيائهم سلام الله عليهم أجمعين ، وبكاء السماء والأرض ، والجنّ والإنس ، والوحش والطير في مصيبة سيّد المظلومين أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) .

كما نقلت مرويّات كثيرة في صدد ما ورد على أحوال الأشجار والنباتات والبحار والجبال عند شهادته (عليه السلام) ، وفي صدد الأشعار والمراثي ونواح الجنّ عليه ، وتبيان أنّ المصاب به فاق كلّ المصائب ، وبيان ثواب زيارته ، وكرامة أرض كربلاء وفوائد تربته المقدّسة (عليه السلام) ، كما في بيان الظلم والجور اللذين وقعا على قبره الشريف ، وبيان ثواب لعن قاتليه وكفرهم وما ينتظرهم من عذاب شديد ، وأنّهم لم يجنوا من دنياهم فائدة ، بل تذوّقوا العذاب الإلهيّ في الدنيا ، ولولا توخّي الإيجاز لحقّ التبرّك بإيراد مختصر عن كلّ من هذه المرويّات .

إنّما ما ينبغي معرفته هو أنّ الوقائع والآثار المنقولة إلينا عن التقلّبات الكلّيّة في أجزاء عالم الإمكان جرّاء استشهاد سيّد المظلومين ، إنّما هي غير مستبعدة وليست موضع استغراب في نظر أرباب الأديان والملل ، وفي نظر القائلين بالمبدأ والمعجزات والكرامات ، وإذا رجع المتتبّع الخبير إلى التواريخ والسير فسيصدّق أنّ وقائع سنة إحدى وستّين من الهجرة ، وهي سنة استشهاده (عليه السلام) ، إنّما كانت وقائع فوق العادة ، وقد حقّق الكثير منها أهل التاريخ ممّن لم يتّهموا بالتشيّع أو القول الجزاف .

فابن الأثير الجزري صاحب (كامل التواريخ) ، والذي هو معتمد أهل التاريخ ، والمعروف بالإتقان ، يقطع ويجزم في كتابه ذاك ، فيما كتبه من وقائع سنة إحدى وستّين أن الناس ظلّوا لشهرين أو ثلاثة بعد مقتل الحسين (عليه السلام) يشاهدون الجدران كأنّها ملطّخة بالدم ، وذلك منذ شروق الشمس إلى ارتفاعها ، ومن هذا القبيل جاء الكثير في الكتب المعتبرة .

ويذكر الفاضل الأديب الأريب اعتماد السطلنة في كتاب (حجّة السعادة في حجّة الشهادة) أنّ سنة شهادة السيّد المظلوم (عليه السلام) ، وهي سنة إحدى وستّين اضطرب فيها سطح الأرض بعد سكونه ، واصطبغت صفحة الممالك في أوربا وآسيا بلون الدم الأحمر ، أو هي اضطربت فعلاً فلم تستقرّ وتسكن ، وتقطّعت جذور السلم والصلاح ، وثار بين الناس غبار الفتن والثورات .

وقد اعتمد هذا الكتاب في مبناه على تواريخ الدنيا العتيقة ، وكانت بألسنة مختلفة

ولغات شتّى ، فجمعها في كتابه هذا بالفارسيّة ، ويمكن لمن أراد الاطّلاع الرجوع إليه .

ويكفي في هذا المقام مشاهدة آثار إقامة العزاء على ذلك المظلوم حتّى يوم القيامة ، إذ هي تتجدّد سنة بعد سنة ، ولن تمحى آثارها ولن يغادر الخواطر ذكرها ، كما أشير إلى هذا الأمر في أخبار أهل البيت (عليهم السلام) ، وهذه عقيلة خدر الرسالة ، ورضيعة ثدي النبوّة زينب الكبرى (عليها السلام) تقول في خطبتها في مجلس يزيد :

« فكِد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا » .

ويعدّ البعض من العلماء هذا الأمر من معجزاتها الباهرة ، فمنذ عهد الديالمة حتى الآن ، وفي كلّ سنة ، ترفع ألوية مجالس العزاء على هذا المظلوم في شرق العالم وغربه ، ويُشاهد كيف أنّ الشيعة في أيام عاشوراء لا يشغلهم في البلدان كافّة سوى إقامة مجالس العزاء واللطم ولبس السواد ، وما إلى ذلك من مستلزمات المصاب .

وقد نقل العديد من المؤرّخين أنّ معزّ الدولة الديلميّ ـ في سنة خمسين وثلاثمئة ، وفي يوم عاشوراء ـ أمر أهل بغداد بالنياحة واللطم وإقامة المآتم على الإمام الحسين (عليه السلام) ، وأنّ على النسوة أن يشعثن شعورهنّ ، ويسوّدن وجوههن ؛ وأن على الأسواق أن تغلق ، وأن تعلّق الرايات على الدكاكين ، وأن يتوقّف الطبّاخون عن عملهم .

وقد خرجت النسوة وقد مرّغن وجههنّ بسواد دخان القدور ، وهنّ يلطمن ويندبن ، وامتدّ الأمر لسنوات دون أن يستطيع أحد إيقافه أو منعه « لكون السلطان مع الشيعة » .

ومن غرائب ذلك أنه يترك تأثيره في نفوس العامّة ، حتّى المخالفين منهم لهذا المذهب ، أو الذين لا يهتمّون بطقوس الشريعة ، وأذكر أنّي عند مطالعتي لكتاب (تحفة العالم) تأليف الفاضل البارع عبد اللطيف الشوشتري[1] ، رأيت تفاصيل عجيبة عن مراسم تعزية يقيمها عبدة النار في الهند يوم عاشوراء .

يقول الشيخ الجليل والمحدّث الفاضل النبيل الحاج الميرزا محمّد القمّي رحمه الله تعالى في (الأربعين) : كنت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة وألف أيام عاشوراء في طريق كربلاء ، وفي

---

(١) السيد عبد اللطيف المذكور من أحفاد السيد نعمة الله الجزائريّ ، وقد ألّف هذا الكتاب في الهند في تاريخ شوشتر ، مضمّناً إياه مآثر سلفه من أحوال السيّد الجزائريّ وبنيه حتى زمانه هو ، وأدرج فيه كثيراً من أحوال سكّان الهند ، وقد وضع هذا الكتاب من أجل عمّه السيد أبي القاسم بن السيّد الرضيّ الملقّب بـ(مير العالم) بعنوان (تحفة) ، لذلك فهو موسوم بـ(تحفة العالم) والله هو العالم .

الأوّل من عاشوراء سمعت وأنا في اليعقوبيّة ، وأكثر أهلها من السنّة ، نغمة نواح أصوات أطفال ، فسألت طفلاً من أهلها عن ذلك ، فأجابني بلسان عربيّ : ينوحون على السيّد المظلوم ، قلت : ومن السيّد المظلوم ؟ قال : سيّدنا الحسين (عليه السلام) .

وفي ما تبقّى من أيّام عاشوراء ـ وكنت في كردستان ـ رأيت سكّان البادية ، وهم بعيدون عن طقوس الشريعة ، وقد تجمّعوا معاً ، ونداء يا حسين يرقى منهم نحو معارج الأفلاك .

والأعجب من هذا تأثير ذلك المصاب في الجمادات والنباتات والحيوانات ، كما تدلّ الأخبار الكثيرة على أنّ الكائنات كافّة تألّمت للمصاب المفجع الذي ألمّ بسيّد المظلومين ، وكلّ منها بكى على طريقته ، وجرت تقلّبات كلّيّة في أجزاء عالم الإمكان بواسطة ارتباط واقعيّ ومناسبة حقيقيّة هي عبارة عن تلقّي الفيض الإلهي بواسطة ذلك الوجود المقدّس ، والاستمداد من بركات تلك الذات الميمونة في نيل الترقّيات المرتقبة من كلّ أحد في كماله الطبيعيّ الذي يحوزه مع ذلك الجناب ، والذي هو واضح ظاهر على وجه لا يمكن معه إسدال ستار على حقيقة الأمر ، فالمحبّ والعدوّ والمؤمن والكافر كلّهم شاهدوا وشهدوا .

ولمّا كان استيفاء هذه الأخبار يستوجب وضع كتاب مستقلّ عنها ، كما أنّ نقل جزء منها لا يتناسب مع هذا المختصر ، فإنّنا نشير إلى محصّلة بعض من هذه الأخبار والآثار .

يروى عن باقر العلوم (عليه السلام) أنّه قال :

« بكت الإنس والجنّ ، والطير والوحش على الحسين بن عليّ (عليهما السلام) حتّى ذرفت دموعها » .

وينقل عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنّه سمع يقول :

« إنّ أبا عبد الله الحسين بن عليّ (عليهما السلام) لمّا مضى بكت عليه السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهنّ وما بينهنّ ومن يتقلّب عليهنّ ، والجنّة والنار ، ومن خلق ربّنا ، وما يُرى وما لا يرى » .

وجاء في ذيل خبر أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) قال للإمام الحسين :

« . . فعندها (أي بعد الشهادة) تحلّ ببني أميّة اللعنة ، وتمطر السماء دماً ، ويبكي عليك كلّ شيء حتّى الوحوش في الفلوات ، والحيتان في البحار » .

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في قوله لزرارة أنّ السماء والأرض والشمس بكت على الحسين أربعين صباحاً .

ويروي الشيخ الصدوق (ره) عن رجل من أهل بيت المقدس أنّه قال :

« والله لقد عرفنا (نحن) أهل بيت المقدس ونواحيها عشيّة قتل الحسين بن عليّ ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : مارفعنا حجراً ولا مدراً ولا صخراً إلّا ورأينا تحتها دماً يغلي ، واحمرّت الحيطان كالعلق ، ومُطرنا ثلاثة أيّام دماً عبيطاً ، وسمعنا منادياً ينادي في جوف الليل : أترجو أمّة قتلت حسيناً . . الأبيات .

وفي خطبة السيّد السجّاد (عليه السلام) عند وروده المدينة ، وفي طائفة من زيارات سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وفي مرويّات كثيرة إشارة إلى بكاء الموجودات ، وثورة المخلوقات ، كما أنّ أخبار العامّة وأقوال أهل السنّة تشهد بوقوع آثار غريبة لهذا المصاب العظيم في السماء والأرض .

وبملاحظة هذا كلّه يمكن القطع بدعوى عموم هذا المصاب ، ومن جملة مرويّاتهم كذلك ما جاء في تفسير الآية الكريمة : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ ، من أنّه « لمّا قتل الحسين بكت السماء ، وبكاؤها حمرتها » .

ونقل ابن عبد ربّه الأندلسيّ في ذيل الحديث عن وفود محمّد بن شهاب الزهريّ على عبد الملك بن مروان ، أن عبد الملك سأل الزهري عمّا وقع في بيت المقدس يوم قتل الحسين ، فقال الزهريّ : بلغني عن فلان أنّه لم يُقلب حجر ـ صبيحة مقتل عليّ بن أبي طالب والحسين بن عليّ ـ في بيت المقدس إلّا وجد تحته دم عبيط .

وجاء في (كامل الزيارة) مثل هذا الحديث عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قاله لهشام بن عبد الملك ؛ وكما أنّ ابن عبد ربّه يروي أنّه لمّا أُغير على معسكر الحسين وُجد فيه طيب ما ادّهنت به امرأة إلّا ابتليت بالبرص .

وحكاية القلم الحديدي الذي كتب على الجدار الأشعار المعروفة :

أترجو أمّة قتلت حسيناً . . الأبيات .

وكذلك الحكاية التي سبقت عن تحوّل الدنانير إلى خزف ، تلك الدنانير التي أعطاها الراهب لقاء أخذه الرأس المطهّر والتي نقلها علماء العامّة .

والحكايات عن مراثي الجنّ ونواحهم أكثر من أن تحصى ، وسماع أمّ سلمة ليلة مقتل الحسين (عليه السلام) مرثيّة الجنّ : « ألا يا عين فاحتفلي بجهد . . » ، وكذلك سماع الزهريّ لنواح الجنّ بهذه الأبيات :

نساء الجنّ يبكين نساء الهاشميات ويلطمن خدوداً كالدنانير نقيّات

ويلبسن ثياب السود بعد القصبيات

وكذلك مرثيتهم بهذه الكلمات :

مسح النبيّ جبينه ولـه بريق في الخـدود   أبـواه من عليـا قريش جـدّه خـير الجدود

وجاء في (تذكـرة) السبط وغيرهـا أن محمد بن سعد يقول في (الطبقات) : إن هـذه الحمرة لم تُر في السماء قبل مقتل الحسين (عليه السلام) .

وعن أبي الفرج ان جدّه نقـل في كتاب (التبصرة) أن وجـه السماء يكتسي بـالحمرة عنـد الغضب ، وأنّ هـذه الحمرة دليـل غضبهـا وأمـارة سخـطهـا ، والله تعـالى منـزّه عن الجسميّة وعوارض الأجسام ، وقد أظهر غضبه لمقتل الحسين (عليه السلام) بحمرة الأفق ، وهذا دليل على عظمة تلك الجناية .

وجاء في جملة من مرويّات العامّة أنّ الحيطان ظلّت شهرين بل ثلاثة أشهر وكأنّها ملطّخة بالدم ، وأمطرت السماء مطراً بقيت آثاره على الملابس مدّة .

وكتب إبراهيم بن محمّد البيهقيّ في كتاب (المحاسن والمساوىء) الذي تمّ تأليفه قبل ما يزيد على ألف سنة ، أنّ محمّد بن سيرين قال : لم تُر هذه الحمرة في السماء إلّا بعد قتل الحسين صلوات الله عليـه ، ولم تحض امرأة في الـروم حتّى أربعة شهـور إلّا أصيبت بالـبرص ، فكتب ملك الروم إلى ملك العرب : لقد قتلتم نبيّاً أو ابن نبيّ . انتهى .

كما نقل عن ابن سيرين قوله : إنّ حجراً وجد قبل البعثة النبويّة بخمسمئة سنـة ، وكان مكتوباً عليه بالسريانيّة ما تعريبه :

أتـرجـو امّـة قـتـلـت حـسـيـنـاً   شـفـاعـة جـدّه يـوم الحـسـاب

ويقول سليمان بن يسار : إنّ حجراً وجد مكتوباً عليه :

لا بـدّ أن تـرد الـقـيـامـة فـاطـمـة   وقـمـيـصـهـا بـدم الحـسـين مـلّطخ
ويـل لمـن شـفـعـاؤه خـصـمـاؤه   والـصـور في يـوم الـقـيـامـة يـنـفـخ

وجاء في مجموعة الشيخ الصدّوق و(الكشكول) و(زهر الربيع) وغيرها أنّ عقيقة حمراء وجدت وقد كتب عليها :

أنـا درّ مـن الـسـما نـثـروني   يـوم تـزويـج والـد الـسـبـطين
كـنـت أنـقـى مـن الـلجـين بـيـاضـاً   صـبـغـتـني دمـاء نـحـر الحـسـين

ويقول السيّد الجزائريّ في (زهر الربيع) : إنّه عُثر في مدينـة شوشـتر على حجـر صغير أصفر استخرجه الحفّارون من الأرض ، وقد كتب عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ، عليّ وليّ الله ، لمّا قتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كتب بدمه على أرض حصباء : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون** ﴾ .

إنّ العجب من وقوع أمور كهذه لينتفي إذا علمنا أن نظيراً لها يقع في زماننا ، فالشيخ المحدّث الجليل المرحوم ثقة الإسلام النوريّ ينقل عن شيخه المرحوم الشيخ عبد الحسين الطهرانيّ أنّه قد اتفّق حين كان في الحلّة أن قطعوا شجرة ، ثم نشروها طولانيّاً بالمنشار إلى نصفين ، فإذا قد نقش في باطن كلّ شقّ : « لا إله إلّا الله ، محمّد رسول الله ، عليّ وليّ الله » .

وقد نقل العالم الفاضل الأديب الماهر الحاج ميرزا أبو الفضل الطهرانيّ بتوسّط والده المحقّق هذه القصّة أيضاً عن المرحوم شيخ العراقين الشيخ عبد الحسين ، الذي قال بعد ذلك : إنّي كنت في طهران فرأيت قطعة ماس صغيرة بحجم لا يزيد عن نصف حبّة من العدس ، وقد نقش في باطنها ـ بطريقة يقطع من يراها أنّها ليست مصنوعة ـ الإسم المبارك « عليّ » بياء مقلوبة ، مع كلمة صغيرة تظهر كأنّها « يا » ، ويكون مجموعهما : « يا عليّ » ، والقصص من هذا القبيل كثيرة في التواريخ والسير .

وقد جاء في العديد من كتب العامّة أنّه سمع ليلة مقتل الحسين (عليه السلام) قائل يقول : أيها القاتلون جهلاً حسيناً .. الخ .

كما جاء في أحاديث عديدة أنّه لمّا قتل الحسين (عليه السلام) أمطرت السماء دماً ، كما ورد أن السماء انقلبت سوداء حتّى أن النجوم ظهرت فيها نهاراً ، وأنّه لم يرفع حجر إلّا وجد تحته دم عبيط .

وفي رواية ابن حجر أنّ السماء بكت سبعة أيام وصارت حمراء .

وينقل ابن الجوزيّ عن ابن سيرين أنّ الدنيا أظلمت ثلاثة أيّام ، ثم ظهرت بعدها حمرة في السماء .

وروي في (ينابيع المودّة) عن (جواهر العقدين) للسمهوري أنّ جماعة حضروا عزاء عند الروم ، فرأوا في الكنيسة مكتوباً : أترجو أمّة قتلت حسيناً .. الخ ، فسألوا عمّن كتبها ، فقالوا : لا نعلم .

وفيه أيضاً عن (مقتل أبي مخنف) مرويّات عديدة عن نواح الجنّ ومراثيهم فيما بين أهل البيت (عليهم السلام) في طريقهم بين الكوفة والشام ، وجاء فيه أنّهم لمّا انتهوا إلى دير الراهب نصب الجند رأس الحسين (عليه السلام) على رمح ، فسمعوا صوتاً يقول :

والله ما جئتكم حتّى بصرت به بالطفّ منعفر الخدّين منحورا
وحوله فتية تدمى نحورهم مثل المصابيح يغشون الدجى نورا
كان الحسين سراجاً يستضاء به الله يعلم أنّي لم أقل زورا

وقد نقل عن همزيّة ابن حجر أنه قال : من جملة الآيات التي ظهرت يوم مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) أن السماء أمطرت دماً ، وامتلأت الأواني بالدم ، واسودّ الأفق حتّى رئيت النجوم ، واشتدّت ظلمة الليل حتّى ظنّ الناس أنّها هي ، أي هي القيامة قد قامت ، والتقت النجوم واختلطت ، ولم يرفع حجر إلاّ ظهر تحته دم يغلي ، وأظلمت الدنيا ثلاثة أيام ، ثمّ ظهرت فيها الحمرة[1]. وقيل إنّ هذا امتدّ ستّة شهور، وكان يرى بعد ذلك على الدوام.

وذكر السيوطي في (تاريخ الخلفاء) ما يقرب من هذه المضامين ، ثم أضاف يقول : والورس[2] الذي كان في معسكرهم تحوّل إلى رماد ، ونحروا النوق التي كانت فيه فرأوا في لحمها ما يشبه النار ، وطبخوها فإذا مرارتها كالصبر .

وعلى العموم فإن من هذه المقولات الكثير في مطاوي كتب السنّة ، وهي أكثر من أن يتمّ حصرها والإحاطة بها .

حكاية غريبة في جبل الوند

نختتم كلامنا بحكاية غريبة : ينقل الشيخ المرحوم المحدّث النوريّ طاب ثراه بسند صحيح عن العالم الجليل صاحب الكرامات الباهرة والمقامات العالية العالم الملاّ زين العابدين السلماسيّ (ره) أنّه قال :

---

(١) يقول المؤلّف : قال شيخنا صاحب (أربعين الحسينيّة) : يمكن أن يكون هذا النوع من الأحاديث مستبعداً في نظر أهل العصر ، ويوسوس شيطان الخيال أنّ حمرة السماء والأفق من الأمور الطبيعيّة المعهودة ، التي ذكرت في كتب الهيئة (الجغرافية) كما ذكرت الأسباب الطبيعيّة لها ، غير أنّ هذا المعنى لا يتنافى مع ما نقل عن المعتمدين من أهل التاريخ ، ذلك أنّه يمكن أن يكون مرادهم حدوث حمرة خاصّة ، تظهر من الخارج أو وسط السماء في غير وقت الشروق ، لا حمرة الأفق عند الشروق والغروب التي تحدث عن انعكاس الأشعة ، فلا يذهبنّ الظنّ أنها مراد العلماء الأعلام والمؤرخين الكبار ، ذلك أنّ أيّ عاقل لا يمكن أن يعطي الأمر المعتاد صفة الحادثة الواقعة ، وخصوصاً علماء العامّة الذين لا يسلّمون ـ ما أمكنهم ذلك ـ بمناقب وفضائل تنسب إلى الأئمّة الأثني عشر عليهم السلام ، وقد حفلت سنة إحدى وستّين من الهجرة بوقائع عجيبة إلى الحد الذي لا يقبل الإنكار .
وقد تعرّض صاحب (شفاء الصدور) لهذا الأمر ببيان لا يتّسع المقام لذكره ، وعلى من يطلبه الرجوع إليه في مظانّه ، والله هو العالم .

(٢) الورس : نبات أصفر كالسمسم يزرع في اليمن ، وتصبغ به الملابس ، وقد ذكر البيهقيّ هذا الأمر أيضاً في (المحاسن والمساوىء) .

لمّا رجعنا من زيارتنا لمشهد الإمام الرضا (عليه السلام) اتّفق أن كان مرورنا بجبل آلوند على مقربة من همدان ، فنزلنا هناك ، كان الفصل ربيعاً ، وانصرف مرافقونا إلى نصب الخيام ، فرحت أنظر إلى سفح الجبل ، وإذا بي أرى شيئاً أبيض ، فلمّا أنعمت فيه نظري ظهر أنّه شيخ مسنّ ذو لحية بيضاء ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وقد جلس على صفّة (مصطبة مرتفعة) تعلو عن الأرض نحو أربعة أذرع ، وقد صفّت حولها حجارة كبيرة بحيث لم يعد يظهر منها سوى طرف موضع استراحته ، فدنوت منه وسلّمت عليه ببشاشة ، فأنس إليّ ونزل من مكانه ، ثم أخذ يخبرني عن أحواله ، وأنّه لم يتنكّب عن الطريق المشروعة الطبيعيّة ، فهو ذو أهل وأولاد ، لكنّه اختار الاعتزال عن تسيير شؤونهم ليتفرّغ تفرّغاً تاماً للعبادة ، وكانت لديه رسائل عمليّة لعلماء العصر ، وقد مضى عليه في مكانه ذاك ثمان عشرة سنة كما قال :

ومن العجائب التي شهدها ورواها لي ـ بعد استفسار منّي ـ هذه القصّة ، قال :

كانت بداية قدومي إلى هنا في شهر رجب ، وبعد مرور خمسة اشهر وبعض الشهر ، وكنت ذات ليلة مشغولاً بصلاة المغرب ، فإذا بي أسمع صدى عويل عظيم وجلبة عجيبة ، فعراني الخوف ، وخفّفت من صلاتي ، ثم نظرت إلى الفلاة فرأيتها مليئة بالحيوانات وهي تتجّه نحوي ، وكانت حيوانات مختلفة متضادّة ، ففيها الأسد والغزال والبقرة ووعل الجبل والنمر والذئب ، وقد اختلطت ببعضها وهي تصرخ بأصوات متباينة ، فزاد خوفي واضطرابي ، كما أخذني العجب في اجتماع هذا الخليط من الحيوانات بأصواتها الغريبة حولي في هذا المكان ، وقد اشرأبّت برؤوسها نحوي ، فقلت في نفسي : إنّ من المستبعد أن يكون السبب في اجتماع هذه الحيوانات والضواري المعادية هو رغبتها بافتراسي في حين أنّها لا تفترس بعضها البعض الآخر ، وليس اجتماعها إلاّ لأمر عظيم وحدث جلل ، وبعد التأمّل جرى في خاطري أن تلك الليلة كانت ليلة عاشوراء ، ولا بدّ أن يكون هذا الأنين والنواح وهذا الاجتماع إلاّ من أجل المصاب بأبي عبد الله (عليه السلام) .

ولمّا اطمأنّت نفسي إلى هذه الفكرة تناولت عمامتي ووضعتها فوق رأسي ، ونزلت من مكاني وأنا أقول : حسين حسين ، شهيد حسين ، وأمثال هذا الكلام ، فأفسحت لي الحيوانات مكاناً خالياً في وسطها ، وأحاطت بي كالحلقة ، وكان بعضها يضرب الأرض برأسه ، وبعضها يتمرّغ بالتراب ، واستمرّ الأمر على هذا النحو حتى بزغ الفجر ، فأخذت الحيوانات الأكثر وحشيّة تنسحب ، وتبعتها الحيوانات الأخرى حتّى تفرّقت وغابت ، وجرت عادتها على ذلك في كلّ سنة ، ومنذ ثماني عشرة سنة حتّى الآن ؛ وكنت أحياناً يشتبه عليّ يوم عاشوراء فيأتي اجتماعها هنا ليذكّرني به ، إلى آخر الحكاية[1] ممّا لا داعي لذكره !

---

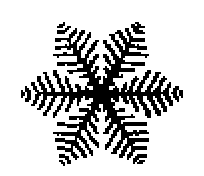
(١) أقول : هذا الحكاية موضع استغراب شديد عندي ، ومستبعدة أيضاً ، نظير الحكاية الثالثة في الباب الرابع ⇐

وجاء في السيرة الحلبيّة نقلاً عن بعض الزهّاد أنّه اعتاد على تفتيت الخبز طعاماً للنمل كلّ يوم ، فإذا كان عاشوراء امتنع النمل عن أكل هذا الخبز ؛ إلى حكايات كثيرة من هذا القبيل ، ونكتفي إلى هنا بهذا المقدار ، ومن أجل تصديق هذه الحكاية التي نقلها الشيخ المرحوم نورد هذا الحديث الشريف :

يروي الشيخ الأجلّ الأقدم أبو القاسم جعفر بن قولويه القمّيّ عن الحارث الأعور أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

« بأبي وأمّي الحسين المقتول بظهر الكوفة ، والله كأنّي أنظر إلى الوحش مادّةً أعناقها على قبره ، ومن أنواع الوحش ، يبكونه ويرثونه ليلاً حتّى الصباح ، فإذا كان كذلك فإيّاكم والجفاء » .

* * *



= عشر من المجلّد الثاني ، غير أنّ سندها في غاية الصحّة والاعتبار ، كلام مرويّ عنه ، والله هو العالم .

الفصل الحادي عشر

في مراثي الإمام الحسين (عليه السلام)

تقدّم القول في الفصول الأولى من الباب الخامس في أنّ رثاء الحسين (عليه السلام) والبكاء على مصابه موجب للثواب العميم ، وهو فعل محبوب لدى الأئمّة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ، وكان دأبهم عليهم السلام أن يحثّو الشعراء على قول المراثي والبكاء .

وحرصاً منّي على أن تكون هذه الرسالة الموجزة ذات نفع عميم ، فإنّي أتبرّك بذكر بعض من هذه المراثي ، ومع أن هذه المراثي عربيّة اللسان ، وأنّ هذا الكتاب المستطاب فارسيّ اللسان ، فلا بدّ أن تكون ذات نفع لأولئك الذين لا يحسنون العربيّة .

قال الشيخ الجليل محمّد بن شهر اشوب نقلاً عن أمالي المفيد النيشابوري : رأى ذرّة النائحُ فاطمة سلام الله عليها في نومه واقفة على رأس الحسين (عليه السلام) وأمرته أن يرثيه بهذه الأشعار :

أيّها العينان فيضا واستهلّا لا تغيضا
وابكيا بالطفّ ميتاً ميّتاً مبرك الصدر رضيضا
لم أمرّضه قتيلاً ولا كان مريضا

وجاء في ديوان السيّد الأجلّ العالم الكامل السيّد نصر الله الحائري أن رجلاً ثقة ومعتمداً من أهل البحرين حكى له أنّ بعض الأخيار رأى في عالم الرؤيا فاطمة الزهراء صلوات الله عليها مع جماعة من النساء ينُحن على أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) بهذا البيت :

واحسيناه ذبيحاً من قفا واحسيناه غسيلاً بالدما

فذيّله السيّد بهذه الأبيات :

واغريباً قطنه شيبته إذ غدا كافوره نسج الثرى
واسليباً نسجت أكفانه من ثرى الطف دبورٌ وصبا
واطعيناً ماله نعش سوى السّ مح في كفّ سنانٍ ذي الخنا
واوحيداً لم تغمّض طرفه كفّ ذي رفقٍ به في كربلا
واذبيحاً يتلظّى عطشاً وأبوه صاحب الحوض غدا
واقتيلاً حرّقوا خيمته وهي للدين الحنيفيّ وعا
آه لا أنساه فرداً ما له من معين غير ذي دمع أسى

ونقل شيخنا في (دار السلام) عن بعض الدواوين أن أحد الصلحاء رأى في نومه فاطمة الزهراء صلوات الله عليها فقالت له : قل لأحد الشعراء الموالين لنا أن ينظم قصيدة في رثاء سيِّد الشهداء (عليه السلام) يكون الشطر الأول من مطلعها :

من أيّ جرم الحسين يقتل

فامتثل السيِّد نصر الله الحائري للأمر وأنشد :

من أيّ جرم الحسين يقتل وبالدماء جسمه يغسّل
وينسج الأكفان من غفر الثرى له جنوب وصبا وشمأل
وقطنه شيبته ونعشه رمح له الرجسُ سنانٌ يحمل
ويوطئون صدره بخيلهم والعلم فيه والكتاب المنزل

أقول : إن البعض لم يرضوا عن تشبيه الشيب بالقطن كما جاء في أشعار السيِّد ، وكما في بعض الزيارات ، في حين أنّ هذا التشبيه بليغ إلى حدّ أن شعراء العرب العجم أوردوه في أشعارهم أيضاً ، وهذا الحكيم النظاميّ يقول :

إن خولطت سوداء شعرك بالبيا ض هو النذير إلى النهاية لا الرجاء
قطن المشيب غدا خيوطاً للكفن فالقطن هذا مؤذنٌ بالإنكفاء[1]

يقول ابن شهر اشوب والشيخ المفيد وآخرون : أوّل شعر رثي به الحسين بن عليّ (عليهما السلام) قول عقبة بن عمرو السهمي ، وهو :

إذ العين قرّت في الحياة وأنتمُ تخافون في الدنيا فأظلم نورها
مررت على قبر الحسين بكربلا ففاض عليه من دموعي غزيرها
ما زلت أرثيه وأبكي شجوه ويسعد عيني دمعها وزفيرها

---

(١) تعريب بيتين بالفارسيّة (المعرِّب) .

وبكيت من بعد الحسين عصابة أطاف به من جانبيها قبورها
سلام على أهل القبور بكربلا وقلّ لها مني سلام يزورها
سلام بآصال العشيّ وبالضحى تؤديه نكباء الرياح ومُورها[1]
ولا برح الوفّاد زوّار قبره يفوح عليهم مسكها وعبيرها

ويروي الشيخ ابن نما في (مثير الأحزان) أنّ سليمان بن قِتّة العدويّ مرّ بكربلاء بعد ثلاثة أيّام من مقتل الحسين (عليه السلام) ورأى مصارع الشهداء ، فاتّكأ على فرسه ، وأنشأ يقول :

مررت على أبيات آل محمّد فلم أرها أمثالها يوم حلّت
ألم تر أنّ الشمس أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرّت
وكانوا رجاء ثمّ أضحوا رزيّة لقد عظمت تلك الرزايا وجلّت

إلى أن يقول :

وإنّ قتيل الطفّ من آل هاشم أذلّ رقاب المسلمين فذلّت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده وأنجمها ناحت عليه وصلّت

يجدر القول : قد تقدّم عند الحديث عن خروج الحسين (عليه السلام) من المدينة إلى مكّة أن إحدى عمّات الحسين (عليه السلام) قالت له : يا بن رسول الله ، سمعت الجنّ ينوحون عليك ويقولون : « وإنّ قتيل الطفّ من آل هاشم » .

فإمّا أن يكون سليمان قد سمع هذا القول من رثاء الجنّ فأدرجه في أشعاره ، وإمّا أن يكون من توارد الخواطر الذي يتّفق وقوعه بكثرة ؛ وقد نقل أنّ أبا الرمح الخزاعيّ تشرّف بالحضور لدى فاطمة بنت الحسين (عليهما السلام) ، فأنشد يرثي الحسين (عليه السلام) بأبيات ختمها بقوله :

وإنّ قتيل الطفّ من آل هاشم أذلّ رقاباً من قريش فذلّت

فقالت له فاطمة (عليها السلام) : يجدر القول : أذلّ رقاب المسلمين فذلّت ، فقال أبو الرمح : سيكون ذلك .

يقول أبو الفرج في (الأغاني) نقلاً عن عليّ بن إسماعيل التميميّ عن أبيه أنّه قال : كنت في حضرة أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فدخل حاجبه يطلب الإذن للسيّد

(١) المور بالضمّ : الغبار تثيره الرياح .

الحميريّ بالدخول ، فأذن له ، وضرب ستراً فأجلس أهل بيته من وراء الستر ليسمعوا رثاء السيّد للإمام الحسين (عليه السلام) ، ثمّ دخل السيّد فسلّم وجلس ، فطلب منه أبو عبد الله (عليه السلام) أن يرثي الحسين (عليه السلام) ، فأنشد :

أمرر على جدث الحسيـ ... ـن فقل لأعظمه الزكيّة
يا أعظماً لا زلت من ... وطفاء ساكبة رويّة
فإذا مررت بقبره ... فأطل به وقف المطيّة
وابك المطهّر للمطـ ... ـهّر والمطهّرة النقيّة
كبكاء معولة[1] أتت ... يوماً لواحدها المنيّة

يقول الراوي : فرأيت دموع أبي عبد الله تنهمل على وجهه ، وارتفع الصراخ والبكاء من أهل بيته (عليهم السلام) حتّى أمر السيّد أن يمسك ، فأمسك .

يقول المؤلّف : لقد تقدّم القول بأنّ أبا هارون المكفوف أنشد هذه المرثية للصادق (عليه السلام) فما جاوز البيت الأوّل إلاّ وبكى الصادق (عليه السلام) فأمسك أبو هارون عن الإنشاد ، فأمره (عليه السلام) أن يستمرّ ففعل .

وما ألطف مرثية الوصال الشيرازي في هذا المقام إذ يقول :

لبسَ الخلوق عسى يعافوا سلبه ... من خوف أن يعرى الشهيد الأرفع
ما نفع ثوب ليس يستر تحته ... جسداً ولا كفن يقيه فينجع
لو جسمُ يوسف بالحوافر رضّضوا ... ريح القميص أباه لم تك تنفع[2]

مرثية مختارة من قصيدة للمرحوم السيّد جعفر الحلّي

وجه الصباح عليّ ليل مظلم ... وربيع أيّامي عليّ محرّم
والليل يشهد لي بأنّي ساهر ... إن طاب للناس الرقاد فهوّموا
من قرحة لو أنّها بيَلَمْلَمٍ ... نسفت جوانبه وساخ يلملم[3]
ما خلت أنّ الدهر من عاداته ... تروى الكلاب به ويظمى الضيغم
ويقدّم الأمويّ وهو مؤخّر ... ويؤخّر العلويّ وهو مقدّم
مثل ابن فاطمة يبيت مشرّداً ... ويزيد في لذّاته متنعّم

(١) إشارة إلى من أعولت على قتل طفلها الوحيد .
(٢) تعريب أبيات بالفارسيّة (المعرّب) .
(٣) اليَلَمْلَم : جبل يقال إنه ميقات أهل اليمن للحجّ .

وتضجّ الدنيا على ابن محمّد ... حتّى تقاذفه الفضاء الأعظم
خرج الحسين من المدينة خائفاً ... كخروج موسى خائفاً يتكتّم
وقد انجلى عن مكّة وهو ابنها ... وبه تشرّفت الحطيم وزمزم
لم يدر أين يريح بُدن ركابه ... فكأنّما المأوى عليه محرّم
فمشت تؤمّ به العراق نجائب ... مثل النعام به تخبّ وترسم[1]
حفّته خير عصابة مضريّة ... كالبدر حين تلفّ فيه الأنجم
ركبٌ حجازيّون بين رحالهم ... تسري المنايا أنجدوا أو أتهموا
متقلّدين صوارماً هنديّة ... من عزمهم طُبعت فليس تَكَهَّم[2]
بيض الصفاح كأنّهنّ صحائف ... فيها الحِمام معنوَن ومترجَم
إن أبرقت رعدت فرائص كلّ ذي ... بأس وأمطر من جوانبها الدم
ويقوّمون عواليا خطّيّة ... تتقاعد الأبطال حين تقوّم
نزلوا بحومة كربلا فتطلّبت ... منهم عوائدها النسورُ الحوّم
وتباشر[3] الوحش المثار أمامهم ... أن سوف يكثر شربه والمطعم
طمعت أميّة حين قلّ عديدهم ... لطليقهم[4] في الفتح أن يستسلموا
ورجَوا مذلّتهم فقلن رماحهم ... من دون ذلك أن تنال الأنجم
وقع العذابُ على جيوش أميّة ... من باسلٍ هو في الوقائع معلم
ما راعهم إلاّ تقحّم ضيغمٍ ... غيران يعجُم لفظه ويدمدم
عبست وجوه القوم خوف الموت وال ... عبّاس فيهم ضاحك يتبسّم
قَلَب اليمين على الشمال وغاص في ال ... أوساط يحصد للرؤوس ويحطم
وثنى أبو الفضل الفوارس نُكّصاً ... فرأوا أشدّ ثباتهم أن يُهزموا
صبغ الخيول برمحه حتّى غدا ... سيّان أشقرُ لونها والأدهم
بطل تورّث من أبيه شجاعة ... فيها أنوف بني الضلالة تُرغم
حامي الظعينة أين منه ربيعة ... أم أين من عليا أبيه مكدَّم[5]

---

(١) ترسم الناقة : تمشي مشياً شديداً .
(٢) تكهَّم : تتكهّم السيوف أي : تكلّ .
(٣) تباشروا : بشّر بعضهم بعضاً بقرب توفّر المأكل والمشرب من لحم ودم .
(٤) لطليقهم متعلقة بـ (يستسلموا) .
(٥) هذا البيت إشارة إلى ربيعة بن مكدّم المعروف بـ (حامي الظعن) حيّاً وميتاً ، عرض له فرسان من بني سليم ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده ، وكان شجاعاً مشهوراً ، فأصيب قلبه بسهم ، فنصب رمحه في

في كفّه اليسرى السقاء يقلّه ... وبكفه اليمنى الحسام المخذم[1]
مثل السحابة للفواطم صوبه ... فيصيب حاصبه العدوّ فيرجم
قسماً بصارمه الصقيل وإنني ... في غير صاعقة السما لا أقسم
لولا القضا لمحا الوجود بسيفه ... والله يقضي ما يشاء ويحكم
حسمت يديه المرهفات وإنّه ... وحسامه من حدّهنّ لأحسم
فغدا يهمّ بأن يصول فلم يطق ... كالليث إذ أظفاره تتقلّم
أمن الردى من كان يحذر بطشه ... أمنَ البغاث إذا أصيب القشعم[2]
وهوى بجنب العلقميّ فليته ... للشاربين به يُداف العلقم[3]
فمشى لمصرعه الحسين وطرفه ... بين الخيام وبينه متقسّم
ألفاه محجوب الجمال كأنّه ... بدر بمُنْحطم الوشيج[4] ملثم
فأكبّ منحنياً عليه ودمعه ... صبَغ البسيط كأنما هو عندم[5]
قد رام يلثمه فلم ير موضعاً ... لم يُدْمِهِ عضّ السلاح فيلثم
نادى وقد ملأ البوادي صيحة ... صمّ الصخور لهولها تتألّم
أأخي من يحمي بنات محمّد ... إن صرن يسترحمن من لا يرحم
هذا حسامك من يذلّ به العدى ... ولواك هذا مَن به يتقدّم
هوّنت يا بن أبي مصارع فتيتي ... والجرح يُسكنه الذي هو آلم

من قصيدة له أيضاً

يا لهفتاه لزين العابدين لقيً ... من طول علّته والسقم قد نهكا
كانت عبادته منهم سياطهمُ ... وفي كعوب القنا قالوا البقاء لكا
جرّوه فانتهبوا النطع المعدّ له ... وأوطأوا جنبه السعدان والحسكا

= الأرض واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل، وأشار إلى الظعائن بالرواح فسرن حتى بلغن بيوت الحيّ، وبنو سليم إزاءه لا يقدمون عليه ويظنّونه حيّاً.

(١) المخذم: القاطع من السيوف.

(٢) البغاث: الطير بطيء الطيران، أي الضعيف، والقشعم: النسر المسنّ، أي المجرّب، أو الأسد والمعنى أن ضعاف الطير تأمن الردى، إذا أصيب النسر.

(٣) العلقميّ: اسم رافد من روافد الفرات، يداف العلقم: يُخلط الحنظل المرّ.

(٤) منحطم الوشيج: مشتبك الرماح.

(٥) العندم: خشب البقم يُصبغ به، ويقال له: دم الأخوين.

من قصيدة لبعض السادة الأجلاء (قده)

إن كان عندك عبرة تجريها ... فانزل بأرض الطفّ كي تسقيها
فعسى تبلّ بها مضاجع صفوة ... ما بلّت الأكباد من جاريها[1]
ولقد مررت على منازل عصمة ... ثقل النبوّة كان أُلقي فيها
فبكيت حتى خلتها ستجيبني ... ببكائها حزناً على أهليها
وذكرت إذ وقفت عقيلة حيدر ... مذهولة تصغي لصوت أخيها
بأبي التي ورثت مصائب أمّها ... فغدت تقابلها بصبر أبيها
لم أنس إذ هتكوا حماها فانثنت ... تشكو لواعجها إلى حاميها
تدعو فتحترق القلوب كأنّما ... يرمي حشاها جمرةً من فيها
هذي نساؤك من يكون إذا غدت ... في الأسر سائقها ومن حاديها
أيسوقها زُجَرٌ بضرب متونها ... والشمر يحدوها بسبّ أبيها
عجباً لها بالأمس أنت تصونها ... واليوم آل أميّةٍ تبديها
حسرى وعزّ عليك أن لم يتركوا ... لك من ثيابك ساتراً يكفيها
وسَرَوا برأسك في القنا وقلوبها ... تسمو إليه ووجدها يضنيها
إن أخّروه شجاه رؤية حالها ... أو قدّموه فحاله يشجيها

من قصيدة للشيخ صالح الكواز (قده)

يا راكباً شدقميّاً[2] في قوائمه ... يطوي أديم الفيافي كلّما ذرعا
عج بالمدينة واصرخ في شوارعها ... بصرخة تملأ الدنيا بها جزعا
ناد الذين إذا نادى الصريخ بهم ... لبّوه قبل صدى من صوته رجعا
قل يا بني شيبة الحمد الذين بهم ... قامت دعائم دين الله وارتفعا
قوموا فقد عصفت بالطفّ عاصفة ... مالت بأرجاء طود العزّ فانصدعا
فتملأ الأرض نعياً من صوادمكم ... فإنّ ناعي حسين في السماء نعى
ولتذهل اليوم فيكم كلّ مرضعة ... فطفله من دما أوداجه رضعا
نسيتمُ أم تناسيتم كرائمكم ... بعد الكرام عليها الذلّ قد وقعا
أتهجعون وهم أسرى وجدّهمُ ... لعمّه ليل بدر قطّ ما هجعا

---

(١) مراده الماء الجاري في الفرات.

(٢) الشدقميّ: بعير ينسب إلى النعمان بن المنذر، وكان معروفاً.

فليت شعري مِنَ العبّاس أرّقه ... أنينه ، كيف لو أصواتهم سمعا

من قصيدة للسيد محمد نجل السيد الكاظم القزويني

ومخدرات من عقائل أحمد ... هجمت عليها الخيل في أبياتها
من ثاكل حرّى الفؤاد مروعة ... أضحت تجاذبها العدى حبراتها
ويتيمة فزعت لجسم كفيلها ... حسرى القناع تعجّ في أصواتها
أهوت على جسم الحسين وقلبها الـ ... مصدوع كاد يذوب من حسراتها
وقعت عليه تشمّ موضع نحره ... وعيونها تنهلّ في عبراتها
ترتاع من ضرب السياط فتنثني ... تدعو سرايا قومها وحماتها
أين الحفاظ وفي الطفوف دماؤكم ... سُفكت بسيف أميّة وقناتها
أين الحفاظ وهذه أشلاؤكم ... بقيت ثلاثاً في هجير فلاتها
أين الحفاظ وهذه أطفالكم ... ذبحت عطاشاً في ثرى عرصاتها
أين الحفاظ وهذه فتياتكم ... حُملت على الأقتاب بين عداتها



الفصل الثاني عشر

في بيان أولاد الحسين (عليه السلام) وأزواجه

أولاد الإمام الحسين (عليه السلام)

يقول الشيخ المفيد : كان للحسين (عليه السلام) ستّة أولاد ، منهم أربعة ذكور وهم :

الأول : علي بن الحسين الأكبر ، وكنيته أبو محمّد ، وأمّه شاه زنان بنت كسرى يزد جرد .

الثاني : عليّ بن الحسين الأصغر ، ويعرف بالأكبر ، استشهد مع أبيه في كربلاء كما تقدّم ، وأمّه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفيّة .

الثالث : جعفر بن الحسين ، وأمّه امرأة من قضاعة ، وكانت وفاته في حياة الحسين (عليه السلام) ، ولم يعقب .

الرابع : عبد الله بن الحسين ، قتل في كربلاء أيضاً بسهم وهو في حجر أبيه كما تقدّم .

أمّا البنتان فهما : سكينة ، وأمّها الرباب ابنة امرىء القيس ، وهي كذلك أمّ عبد الله بن الحسين ؛ والبنت الثانية واسمها فاطمة ، أمّها أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيميّة . انتهى .

وقد اختار جماعة آخرون ما اختاره الشيخ المفيد ، لكنّهم دعوا الإمام السجّاد (عليه السلام) بعليّ الأوسط ، ودعوا عليّاً الشهيد بعليّ الأكبر .

وقال ابن الخشّاب وابن شهر اشوب : إنّ عدد أبناء الحسين (عليه السلام) ستّة ، بإضافة محمّد وعليّ الأصغر ، وزادا على ابنتيه زينب ، فيصبح المجموع تسعة .

وعدّ الشيخ علي بن عيسى الإربلي في (كشف الغمّة) نقلاً عن كمال الدين بن طلحة أولاده (عليه السلام) بعشرة ، سمّى تسعة منهم بما سمّاهم ابن شهر اشوب ، وأضاف ابنة رابعة ولم يسمّها .

وعلى أيّ حال فقد تقدّم الحديث عن استشهاد ابني الحسين (عليه السلام) في الطفّ ، وسيأتي الحديث عن أحوال الإمام السجاد (عليه السلام) فيما بعد إن شاء الله .

وأمّا كونه (عليه السلام) أكبر من عليّ الأكبر كما يقول الشيخ المفيد ، أو كونه أصغر كما يقول ابن إدريس وجماعة من أهل التاريخ فنحن قد ذكرنا في كتاب (نفس المهموم) بياناً لهذا الأمر ، فلا نكرّر .

وجاء في الباب الرابع ضمن الحديث عن أولاد الإمام الحسن (عليه السلام) أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) عقد لابنته فاطمة على ابن أخيه الحسن المثنّى ، وأنّها أنجبت منه عبد الله المحض وإبراهيم الغمر والحسين المثلّث ، وقد تقدّم الحديث عنهم .

وكانت فاطمة عديمة النظير في التقوى والكمال والفضل والجمال ، وقد دعيت بـ(الحور العين) .

توفّيت فاطمة في المدينة سنة سبع عشرة ومئة من الهجرة ، كما توفّيت أختها سكينة (عليها السلام) في السنة نفسها أيضاً في المدينة ، واسم سكينة كان آمنة أو أميمة ولقّبتها أمّها بسكينة ، وكانت سكينة سيّدة النساء وعقيلة قريش ، مع حصافة في العقل وإصابة في الرأي ، ويقال إنّها كانت أفصح الناس وأعلمهم بلسان العرب والعلم والشعر والفضل والأدب ، وتروى عنها أمور كثيرة .

فقد روي أنه لمّا توفّيت تلك المخدّرة الفاضلة تأخّر الخروج بجنازتها لأنّ خالد بن عبد الملك (وكان حاكماً على المدينة) أمر أن لا يخرجوا بها حتى يحضر ، ولما حضر متأخراً ابتاعوا كافوراً بثلاثين ديناراً ونثروه على جسدها المبارك .

ويقول أبو الفرج : إنّ جنازتها تأخّرت من الليل حتّى الصباح ، فأعطى محمّد بن عبد الله ، النفس الزكيّة ، عطّاراً أربعمئة دينار ثمناً للعطور والعود الذي أحرقوه في المجامر حول سريرها .

ويروي أبو الفرج أيضاً عن سكينة (عليها السلام) أنّها قالت : قال أبي وعمّي الحسن في حقّي وحقّ أمّي الرباب :

لعمرك إنّني لأحبّ داراً تكون بها السكينة والرباب

أحبّهما وأبذل جلّ ما لي وليس لعاتب عندي عتاب

ويقول السبط بن الجوزي نقلاً عن سفيان الثوريّ : إنّه لمّا عزم علي بن الحسين (عليه السلام) على الخروج إلى الحجّ أو العمرة أعدّت له سكينة (عليها السلام) زاداً ثمنه ألف درم[1] وبعثت به إليه ، فلمّا بلغ (عليه السلام) الحرّة ـ وهي منطقة صخرية معروفة قرب المدينة ـ وزّع هذا الزاد على الفقراء المساكين .

زوجات الإمام الحسين (عليه السلام)

الأولى شهر بانو أو شاه زنان وهي الأمّ الماجدة للإمام زين العابدين (عليه السلام) ، وسيرد الحديث عنها فيها بعد إن شاء الله ، والثانية الرباب بنت امرىء القيس ، أمّ السيدة سكينة (عليها السلام)، وكان الحسين (عليه السلام) شديد التعلّق بها والرعاية لها .

جاء في ينابيع المودّة أنّه كان لامرىء القيس ثلاث بنات ، زوّج إحداهنّ لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، وزوّج الثانية للحسن (عليه السلام) ، والثالثة هي هذه زوجة الحسين (عليه السلام) ، وقد قال فيها أشعاراً معروفة ؛ وكان يخطبها أشراف قريش بعد استشهاده فكانت تردّهم وتقول : « لا يكون لي حمو بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) » ولا زوج بعد الحسين (عليه السلام) .

وفي مجلس ابن زياد لمّا نظرت إلى رأس زوجها ضمّته تقبّله وتقول :

واحسيناه فلا نسيت حسيناً أقصدته أسنّة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً لا سقى الله جانبي كربلاء

وجاء في التواريخ أنّها لم تبق على قيد الحياة بعد واقعة كربلاء أكثر من سنة ، ولم تزل في بكاء وعزاء ، ولم تكن تنزل تحت سقف بعد أن رأت بعينيها جسد زوجها مطروحاً تحت الشمس عارياً ، فآلت على نفسها أن لا ترتاح إلى ظلّ .

ويقول ابن الأثير في (الكامل) : إن الرباب ظلّت سنة قائمة على قبر الحسين (عليه السلام) ، عادت بعدها إلى المدينة ، وتوفّيت من تأثير الحزن والأسى .

أقول : عرفتَ عند الحديث عن أحوال الحسن المثنّى أنّ زوجته فاطمة بنت الحسين أقامت على قبره أيضاً مدة سنة منشغلة بالحزن والعبادة ، عادت بعدها إلى بيتها .

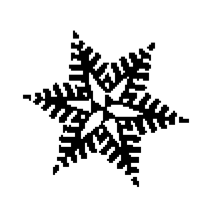
الثالثة من زوجات الإمام الحسين (عليه السلام) ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود

(١) الدرم أو الدراخما : عملة فضّية زنتها اثنا عشر قيراطاً .

الثقفيّة ، وأمّها ميمونة بنت أبي سفيان ، وهي أمّ عليّ الأكبر ؛ وعليّ الأكبر هاشميّ من جهة أبيه ، ثقفيّ أمويّ من جهة أمّه ، وإلى ذلك أشار معاوية إذ سأل ذات يوم : من أحقّ الناس بهذا الأمر (يريد الخلافة) ؟ قالوا : أنت ، قال : لا ، أولى الناس بهذا الأمر عليّ بن الحسين بن عليّ جدّه رسول الله ، وفيه شجاعة بني هاشم ، وسخاء بني أميّة ، وزهو ثقيف .

ولم يرد في كتب المقاتل ذكر لكون ليلى في كربلاء أم في الكوفة أم في الشام ، فلو كانت فلا بدّ أن يرعاها شيعة أبي سفيان وأهل الشام لما يربطها بإمامهم من نسب ، وما يقوله بعض أهل المنبر عن أحوالها وهي في كربلاء لا واقع له .

ومن زوجاته (عليه السلام) امرأة لا يعرف اسمها ، كانت معه في كربلاء ، ثمّ أسرت في من أسر ، وكانت حاملاً . واسقطت حملها في طريق العودة من الكوفة إلى الشام عند جبل الجوشن بالقرب من حلب ، كما تقدّم في الفصل السادس .



خاتمة في فضل إقامة مجالس العزاء

لا يخفى أنّ من المتعارف عليه في أقطار الشيعة بحمد الله إقامة مجالس العزاء والمآتم على سيد الشهداء صلوات الله عليه ، وما يرافق ذلك من نشر الأعلام السوداء ، ونصب الخيام ، وتعطيل الأسواق يوم عاشوراء ، وأداء مراسم الحزن والنواح ، وقراءة المراثي ، والبكاء والإبكاء ، إلى غير ذلك ممّا لم يرد النهيّ عنه في الشرع المطهّر ، وممّا لا محذور فيه ، من عبادات مشروعة راجحة ، فيها الثواب الجليل والأجر الجميل .

وهذا الأمر هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل ؛ ولا يخفى على المتتبّع الخبير والناقد البصير أن أخباراً متواترة وردت في استحباب البكاء على الحسين (عليه السلام) ، وكذلك الإبكاء والتباكي[1] ، وليس المراد بهذا الرياء في البكاء ، ذلك أنّ البكاء عليه (عليه السلام) عبادة ، والرياء في العبادة شأنه شأن القياس في الأدلّة ، والربا في المعاملات ، وهو غير جائز .

وقد وردت أخبار كثيرة في إحياء أمر الأئمّة وفضل المجالس التي تحيي أمرهم ، وأنّ الأئمّة (عليهم السلام) يحبّون هذا النحو من المجالس ، التي يحضرها الملائكة .

كما جاء في الأخبار أنّ : « كلّ الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين (عليه السلام) » ، كما جاء أنّ أيّام عاشوراء هي أيّام مصاب أهل البيت وأيّام حزنهم ، كما روي عنهم القول : احزنوا لحزننا ، وافرحوا لفرحنا ؛ كما وردت أخبار لا تحصى بأنّ الأئمّة (عليهم السلام) كانوا يأمرون الشعراء بإنشاد المراثي ، فيستمعون إليها ويبكون ، ويعطونهم

---

(١) احتمل شيخنا في (اللؤلؤ والمرجان) معنى آخر للتباكي هو أن المؤمنين يُبكي بعضهم بعضاً بما يصدر عنهم من عمل أو قول أو مسلك .

الجوائز ، ويبيّنون فضل هذا العمل ، وقد أوردنا بعضاً من هذه الأقوال في أوائل الباب الخامس .

وجاء في (الكافي) و(التهذيب) عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قوله بأن أباه أبا جعفر (عليه السلام) أمره بأن يوقف له كذا وكذا من أجل النسوة اللواتي يندبنه في « منى أيّام منى » .

وجاء في التهذيب أن خالد بن سدير سأل الصادق (عليه السلام) عن رجل يشقّ الثوب على أب وأمّ وأخ أو قريب ؟ فأجابه بأن لا بأس في شّق الجيوب ، فقد شقّ موسى بن عمران الثوب على أخيه ، وقال في ذيل الحديث : « ولقد شققن الجيوب ، ولطمن الخدود الفاطميّات على الحسين بن عليّ (عليهما السلام) ، وعلى مثله تلطم الخدود وتشقّ الجيوب » .

وقد ورد في مرويّات عدّة أنّه ما اكتحلت هاشميّة ولا اختضبت ، ولا رئي في دار هاشميٍّ دخان إلى خمس حجج ، حتّى قتل عبيد الله بن زياد ، وبعث المختار برأسه إليهم .

البكاء عليه (عليه السلام) عبادة

ينقل ابن الأثير والكثير من علماء العامّة وأهل السير أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعد رجوعه من وقعة أحد إلى المدينة سمع نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال : « لكن حمزة لا بواكي له » ، فلما سمع الأنصار أن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) يحبّ البكاء على عمّه أمروا نساءهم بالبكاء على حمزة قبل البكاء على قتلاهم .

يقول الواقديّ : وجرت هذه مجرى العادة ، فجعل أهل المدينة عند وقوع مصاب يبدأون ندبتهم بالبكاء على الحمزة أوّلاً ، ومعلوم أنّ محبّة رسول الله لعمّه الحمزة لم تكن لتفوق محبّته لسيّد الشهداء (عليه السلام) ولو أنّ البكاء عليه مأمور به ، فبالطبع ، بل من الأولى أنّ البكاء على الحسين (عليه السلام) مأمور به ، ولّما استقرّت سيرة أهل المدينة على أن يبدأوا البكاء على مصائبهم بالبكاء على الحمزة مواساةً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأداء لحقّ قوله (صلّى الله عليه وآله) : « لكنّ حمزة لا بواكي له » ومع أنّ سنين كثيرة مرّت على شهادة الحمزة ولم ينكر أحد على أهل المدينة عادتهم وسيرتهم ، فعلى المخالفين من باب أولى ـ علاوة على أن يكفّوا عن لوم الشيعة على إقامتهم مجالس العزاء على الحسين (عليه السلام) ـ أن يواسوا الشيعة ويشاركوهم مجالسهم .

« فيالله لقلب لا يتصدّع لتذكار تلك الأمور ! ويا عجباً من غفلة أهل الدهور ! وما عذر أهل الإسلام والإيمان في إضاعة أقسام الأحزان ؟ ألم يعلموا أنّ محمّداً (صلّى الله عليه وآله) موتور وجيع ، وحبيبه مقهور صريع ، وقد أصبح لحمه (عليه السلام) مجرّداً على الرمال ،

ودمه الشريف مسفوكاً بسيوف أهل الضلال ؟ فيا ليت لفاطمة وأبيها عيناً تنظر إلى بناتها وبنيهـا وهـم ما بين مسلوب وجريح ، ومسجون وذبيح !

وأمّا ما جاء في الصحيحين من أنّ الميّت يعـذّب ببكاء أهله عليـه ، وفي رواية : ببكـاء الحيّ ، وفي رواية : يعذّب في قبره بما يُناحُ عليه ؛ فإنّه خطأ من الراوي بحكم العقل والنقل .

فعن الفاضل النـووي[1] قال : هـذه المرويّات كلّها من روايـة عمر بن الخطّاب وابنه عبـد الله ، قال : وأنكـرت عايشـة عليهما ونسبتهـما إلى النسيان والاشتباه ، واحتجّت بقـولـه تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ . انتهى .

قال صاحب (المجالس الفاخرة) :

« وأنكر هذه الروايات أيضاً عبد الله بن عبّاس واحتجّ على خطأ راويهـا ، والتفصيل في الصحيحين وشروحهما ؛ وما زالت عايشة وعمر في هذه المسألة على طرفي نقيض ، حتّى أخرج الطبريّ في حوادث سنة ١٣ من تاريخه بالإسناد إلى سعيد بن المسيّب قال :

لمّا توفيّ أبو بكر أقامت عليه عائشة النُّوَّاح (أي النائحـات) ، فأقبل عمر بن الخطاب حتّى قام ببابها فنهاهنّ عن البكاء على أبي بكر ، فأبين أن ينتهين ، فقال عمر لهشام بن الوليد : ادخل فأخرج إليّ ابنة أبي قحافة ، فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك عن عمر : إنّي أُحَرِّج عليك بيتي ، فقال عمر لهشام : ادخل فقد أذنت لك ، فدخـل هشام فـأخرج أمّ فـروة أخت أبي بكر إلى عمر ، فعلاها بالدِّرّة فضربها ضربات ، فتفرّق النَّوح حين سمعوا ذلك .

قلت: كـأنّه لم يعلم تقـرير النبي (صـلّى الله عليه وآلـه) نساء الأنصـار على البكـاء عـلى موتاهنّ، ولم يبلغه قوله (صلّى الله عليـه وآله): «لكنّ حمـزة لا بواكي لـه»! وقولـه: «على مثـل جعفر فلتبك البـواكي»! ولعلّه نسي نهي النّبي(صلّى الله عليه وآله)إيّاه عن ضرب البواكي في يوم وفاة رقيّة.

وفي مقام آخر نتلو خبرها عليك : أخرج الإمام أحمد في مسنده من جملة حديث ذُكر فيه موت رقيّة بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وبكـاء النساء عليهـا ، قال : فجعـل عمر يضربهنّ بسوطه ، فقـال النبيّ (صلّى الله عليـه وآله) : « دعهنّ يبكـين » ، ثمّ قال : « مهـما يكن من القلب والعين فمن الله الرحمة » . وقعد على شفير القبر وفاطمـة (عليها السـلام) إلى

---

(١) النـوويّ : هو محيي الـدين أبو زكريّا يحيى بن شرف الشـافعي ، الفقيـه اللغويّ صـاحب الكتب الكثيرة ، المتوفّى سنة ٦٧٦ ، وينسب إلى نوا ، بليدة قرب دمشق ، قال في (المـراصد) : وهي منـزل أيّوب ، وبهـا قبر سام بن نوح (عليه السلام) .

جنبه تبكي ، قال : فجعل النبيّ (صلّى الله عليه وآله) يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها .

وأخرج أيضاً حديثاً فيه ؛ أنّه مرّ على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) جنازة معها بواكٍ فنهرهنّ عمر ، فقال رسول الله : « دعهنّ فإنّ النفس مصابة ، والعين دامعة » ، إلى غير ذلك » .

في ذمّ الرياء والكذب في المأتم ومفاسد الكذب

وعلى العموم فالأخبار في هذا الباب كثيرة ، وهذا المختصر لا يتّسع لأكثر من ذلك ، ومن الجدير بالشيعة عموماً ، وبالذاكرين خصوصاً الالتفات في مجالس العزاء هذه إلى نوع للسلوك لا يعطي النواصب فرصة لتطويل ألسنتهم ، وأن يكتفوا بالقيام بالواجبات والمستحبات دون المحرّمات من قبيل الغناء الذي لا يخلو منه نواح اللطمة غالباً ، وأنّ يحترزوا من الأكاذيب المفتعلة والحكايات الضعيفة التي يُظنّ بها الكذب ، والتي توجد في جملة من الكتب غير المعتبرة ، بل تؤخذ نقلاً عن كتب صنّفها أناس غير متديّنين ، وليسوا من أهل العلم والحديث ، وأن لا يجعلوا للشيطان سبيلاً إلى هذه العبادة العظيمة التي هي أعظم شعائر الله ، وأن يحذروا المعاصي الكثيرة أن تشوب روح هذه العبادة ، وخصوصاً الرياء والكذب والغناء الذي غدا سارياً جارياً في هذا العمل ، ولا ينجو منه إلّا القليل .

ولتصويب أمثال ذلك نذكر بضعة أخبار في هذا المقام في شدّة عقاب كلّ منها لعلّ من ابتليّ بها يرتدع عنها .

أمّا الرياء : ففي الكتب والسنّة آيات وأخبار كثيرة تذمّ الرياء وتوعد عليه ، وجاء في الحديث النبويّ الشريف : « أدنى الرياء الشرك » .

ويروى عنه (صلّى الله عليه وآله) أيضاً أنّ النار وأهل النار يستغيثان من أهل الرياء ، فقيل : يا رسول الله ، وهل تستغيث النار أيضاً ؟ فقال : أجل ، من شدّة النار التي يعذّب بها المراؤون .[1]

وقال أيضاً بأن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء :

فيقال : يا كافر ، يا فاجر ، يا غادر ، يا خاسر ، لقد ضللت وضلّ سعيك ، فلا أجر لك ، فاطلب أجرك ممّن ترائيه .[2]

وقال أيضاً : إنّ الجنّة تكلّمت فقالت : إنّني محرّمة على البخيل والمرائي[3] .

---

(١)و(٢)و(٣) : الأحاديث أتت مضموناً لا نصاً (المعرّب) .

وقال أيضاً ؛ إنّ أكثر ما أخشاه عليكم الشرك الأصغر ، فقيل : يا رسول الله ، وما هو الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء[1] .

والأحاديث في هذا الصدد كثيرة ، ويكفي في خبثه أنّه ما دخل عملاً إلّا أبطله ، وأنزله عن درجة القبول ، وهذا بفتوى الفقهاء .

وللرياء أقسام خفيّة ذكرها العلماء في مظانّها ، وقد أشرنا في بداية الخاتمة في معنى التباكي إلى الردّ على من يرون - عن عدم إدراك - جواز الرياء في عزاء سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فأزالوا بذلك شرط الإخلاص ؛ ويعدّ هذا من فضائله المخصوصة (عليه السلام) .

سبحان الله ! لقد تحمّل (عليه السلام) كلّ هذه المصائب بهدف إحكام أساس توحيد الذات المقدّسة للباري تعالى ، وإعلاء كلمة الحقّ ، وإتقان مباني الدين المبين ، وحفظه من تطرّق بدع الملحدين ؛ فكيف يحتمل ذو شعور أن يكون (عليه السلام) سبباً لجواز أعظم المعاصي وأكبر الموبقات التي هي الرياء والشرك الأصغر ؟! إن هذا إلّا اختلاق .

وأمّا الكذب فالآيات والأخبار في ذمّه وتبيان مفاسده في الدنيا والآخرة تفوق الحصر ، وجعل الله تعالى لعنته على الكاذبين ، وقال أيضاً :

﴿ إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ .

ولو لم يكن في ذمّ الكذب سوى هذه الآية ، فهي تفي بما اشتملت عليه آيات كثيرة .

روي في (الكافي) عن الإمام محمّد الباقر (عليه السلام) أنّه قال :

« إنّ أوّل من يكذّب الكذّاب ، اللهُ عزّ وجلّ ، ثمّ الملكان اللذان معه ، ثمّ هو يعلم أنّه كاذب » .

جاء في (الكافي) أيضاً وفي كتاب (عقاب الأعمال) عنه (عليه السلام) أنّه قال:

« وإنّ الله عزّ وجلّ جعل للشرّ أقفالاً ، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب ، والكذب شرّ من الشراب » .

وفي (الكافي) أيضاً عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال :

« لا يجد عبدٌ طعم الإيمان حتى يترك الكذب ، هزله وجدّه » .

وفي (جامع الأخبار) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال :

---

(١) هذا الحديث أتى مضموناً لا نصّاً .

« المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك ، وخرج من قلبه نتن حتّى يبلغ العرش ، فيلعنه حملة العرش ، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية ، أهونها كمن يزني مع أمّه » .

وروي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) أنّه قال : جعلت الخبائث كلّها في بيت ، وجعل مفتاحها الكذب » .

ويروى عن الصادق (عليه السلام) قوله : لا تنظروا إلى طول ركوع المرء وطول سجوده ، فهو شيء اعتاد عليه لو تركه لاستوحش ، بل انظروا إلى صدق قوله ، وإعادته ما اؤتمن عليه .(١)

ونقل عن دعوات الراوندي أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال :

رأيت الليلة في نومي أنّ شخصين أتياني وذهبا بي إلى الأرض المقدّسة (يظهر أن المراد بها الشام) وذكر جملة من العجائب رآها هناك ، ومنها هذه :

قال : رأيت رجلاً مستلقياً على ظهره ، وآخر يقف على رأسه وفي يده ما يشبه العصا الحديدية ، ورأسها معقوف ، فيأتيه من جانب فيضرب به بما كان في يده من طرف فمه حتّى قفاه فيمزّقه قطعة قطعة ، وكذلك يفعل بأنفه وعينه ؛ ثمّ يأتيه من الجانب الآخر ويصنع به ما صنعه في الجانب الأوّل ، فلا يفرغ من جانب حتّى يكون الجانب الآخر قد عاد سليماً ، فيعود إليه ويصنع ما صنعه في المرّة الأولى .

قال : فقلت : ما هذا ؟

والخبر طويل ، وجاء في آخره أن ذينك الشخصين شرحا له (صلّى الله عليه وآله) ما رآه في ليلته من عجائب ، وعن الأشخاص الذين رآهم يعذّبون ، حتى قالا :

أما هذا الرجل الذي كان يمزّق من فمه إلى قفاه ، ومن أنفه إلى قفاه ، ومن عينه إلى قفاه ، فهو رجل كان يخرج من بيته صباحاً ، ليقول كذباً يبلغ الآفاق ، فيصنعون به ما رأيته ، حتى يوم القيامة .

وقد جاء هذا الخبر في بعض الكتب المعتبرة كالآتي :

قال : أتاني رجل فقال لي : قم ، فقمت معه فرأيت رجلين أحدهما واقف والآخر قاعد ، وفي يد الواقف ما يشبه العصا الحديدية ، فيدخلها في جانب من فم الرجل الجالس

---

(١) هذا الحديث أتى مضموناً لا نصّاً (المعرّب) .

حتّى تبلغ كتفه ، ثم يسحبها ويدخلها من الجانب الآخر ، فإذا سحبها عاد الجانب الأوّل كما كان ، فقلت للذي أتى بي : ما هذا ؟ قال : هذا كذّاب يعذّب في قبره حتّى يوم القيامة .

وعلى العموم فالمفاسد والأضرار التي تنتج عن الكذب كثيرة ، والأستاذ الشيخ المحدّث المتبحّر الثقة جليل القدر الحاج ميرزا حسين النوريّ طاب ثراه أورد في كتاب (اللؤلؤ والمرجان) خلاصة للمفاسد والآثار المترتّبة على الكذب ، والمستفادة من الآيات والآثار والأخبار ، وقد لخّص تلك المفاسد والآثار في أربعين مفسدة ، وهي :

١ ـ الكذب فسق : ﴿ **لا رفث ولا فسوق** ﴾فالكاذب فاسق : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ .

٢ ـ الكذب قول للزور، كما ذكر مقروناً بعبادة الأوثان : ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور**﴾.

٣ ـ الكاذب لا إيمان له : ﴿ **إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون** ﴾ .

٤ ـ الكذب يدعى إثماً ، كالخمر والقمار .

٥ ـ الكاذب مبغوض من الله .

٦ ـ وجه الكاذب أسود .

٧ ـ الكذب شرّ من الشراب .

٨ ـ الكاذب ريح فمه متعفّنة ونتنة .

٩ ـ الملَك يبتعد عنه مسافة ميل .

١٠ ـ الكاذب يلعنه الله تعالى : ﴿ **أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين** ﴾ ، ﴿ **فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين** ﴾ .

١١ ـ الريح النتنة لفم الكاذب يبلغ العرش .

١٢ ـ حملة العرش يلعنون الكاذب .

١٣ ـ الكذب يفسد الإيمان .

١٤ ـ الكذب يمنع من تذوّق طعم الإيمان .

١٥ ـ الكاذب يغرس بذور العداوة والبغضاء في الصدور .

١٦ ـ الكاذب أقلّ الخلق مروءة .

١٧ ـ الكاذب يلعنه سبعون ألف ملك بسبب كذبة واحدة .

١٨ ـ الكذب علامة النفاق .

١٩ ـ الكذب مفتاح لبيت يحوي كلّ الخبائث .

٢٠ ـ الكذب فجور ، والكاذب فاجر .

٢١ ـ لا يُقبل للكاذب رأي في مشورة .

٢٢ ـ الكذب أقبح الأمراض النفسيّة .

٢٣ ـ الكذب إصبع الشيطان الملتوية .

٢٤ ـ الكذب أسوأ أشكال الرياء .

٢٥ ـ الكذب يورث الفقر .

٢٦ ـ الكذب يعدّ من الخبائث .

٢٧ ـ الكذب يولّد النسيان .

٢٨ ـ الكذب باب من أبواب النفاق .

٢٩ ـ الكاذب يعذّب في القبر عذاباً مخصوصاً .

٣٠ ـ الكذب يحرم الكاذب من صلاة الليل فيحرمه من الرزق .

٣١ ـ الكذب سبب للخذلان الإلهي .

٣٢ ـ الكذب سبب لسلب الكاذب صورته الإنسانيّة .

٣٣ ـ الكذب أكبر الخبائث .

٣٤ ـ الكذب من الكبائر .

٣٥ ـ الكذب بعيد عن الإيمان ومجانب له .

٣٦ ـ الكاذب من أكبر الآثمين .

٣٧ ـ الكذب يهلك صاحبه .

٣٨ ـ الكذب يفقد صاحبه الحسن والطراوة والبهاء .

٣٩ ـ الكاذب غير مؤهّل للمؤاخاة ، وقد نهي عن مؤاخاته ومرافقته .

٤٠ ـ الله تعالى لا يمنحه الهداية ، ولا يرشده إلى سبيل الحق : ﴿ إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار ﴾ . انتهى .

وبعد أن عرفت مفاسد الكذب فاعلم أنّ جملة من فحول الفقهاء عدّوا مطلق الكذب من الكبائر لما يترتّب عليه من مفسدة، ولأن حالة الكذب لا تكون بلا مفسدة، فإذا ترتّبت عليه المفسدة ـ وخصوصاً المفسدة الدينيّة ، وكانت سبباً لإضعاف العقيدة الإسلاميّة ، أو للافتراء على الإمام ، أو للحطّ من قدر أهل البيت (عليهم السلام) ـ كان بالطبع أسوأ بمئة مرّة ، إثمه أكبر ؛ فإذا كان كذباً على الله ورسوله (صلّى الله عليه وآله) ، وعلى الأئمّة (عليهم السلام) فحاله معلومة ، وهو مبطل للصوم ، وموجب للكفّارة .

وجاء في (عقاب الأعمال) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال :

«من قال عليّ ما لم أقلّ فليتبوّأ مقعده من النار » .

ومقتضى إطلاق هذا الخبر أنّه لو كان القول كلمة واحدة ، فلم تُفِدْ فائدة ، ولم تترتّب عليها مفسدة ، فهي موجبة لدخول النار .

ومن هذه الناحية يروى عن المرحوم الفقيه الزاهد الورع الحاج محمّد إبراهيم الكلباسي نقلاً عمّا جاء في (شفاء الصدور) من أنّ أحد أفاضل أهل المنبر قال في محضره ، في ذيل قصّة يرويها : إنّ الحسين (عليه السلام) قال : يا زينب ، يا زينب ؛ فإذا بهذا الفقيه الورع يردّ عليه ـ بلا محاباة، وعلى مشهد من الملأ، وبصوت مرتفع ـ ويقول: فضّ الله فاك! فالإمام لم يقل : يا زينب مرّتين ، بل قالها مرّة واحدة !! فعلى السلالة الجليلة من أهل المنبر أن يراقبوا أحوالهم في هذا الصدد ، وأن يتبصّروا بمفاسد الكذب بعامّة ، فيتركوا المطالب الكاذبة والمرويّات الموضوعة ، بل يمتنعوا عن نقل كلّ ما رأوه أو سمعوه ، ويقتصروا على الأمور التي يكون ناقلها موثوقاً .

يقول السيّد ابن طاوس في (كشف المحجّة) نقلاً عن رسائل الكليني : إن هذا الرجل الكبير يروي بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) حديثاً من جملة فقراته قوله : « . . ولا تحدّث إلّا عن ثقة فتكون كذّاباً ، والكذب ذلّ » .

وفي نهج البلاغة أن أمير المؤمنين يقول ضمن كتابه إلى الحارث الهمداني : « ولا تحدّث بكلّ ما سمعت ، فكفى بذلك كذباً » .

كما يروى عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال في ذيل حديث ما مضمونه : أما سمعت أنه يكفي في كذب الرجل أنّه ينقل ما سمع ؟

يقول العلّامة المجلسيّ في شرح هذا الحديث : إنّه يدلّ على أنّه لا يجوز نقل كلام عمّن لا

يُطمأنُّ إلى نقله وهناك مرويّات كثيرة بهذه المضامين، وينبغي العلم بأنّه كما أنّ قول الكذب مذموم ومنهيّ عنه، فالإستماع إلى الأخبار الكاذبة والحكايات والقصص الكاذبة مذموم أيضاً، والله تعالى يقول في ذمّ اليهود وبيان صفاتهم الخبيثة : ﴿**سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين**﴾ .

ثم يعقب في الآية التي تليها مباشرة بقوله : ﴿ **سمّاعون للكذب أكّالون للسحت** ﴾ .

وفي تلكما الآيتين الكريمتين تحذير بليغ من سماع الكذب مطلقاً .

ويقول عزّ وجلّ أيضاً : ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾ .

وقد فسّر قول الزور بالكذب أيضاً ، ولا يتحقّق الاجتناب إلاّ بالابتعاد عن الكذب من نواحيه كافّة سواء القول أو الكتابة أو السمع ونحوها ؛ وبناء على أن قول الزور هو الكذب فيمكن الاستشهاد بالآية الكريمة : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ .

كما جعل الحقّ عزّ وجلّ عدم سماع اللغو ولهو الحديث وعدم سماع الكذب من جملة نعم الجنّة ، ويعلم بالمقابل أن سماع الكذب عذاب ، وبخاصة لأهل النار .

ويروي الشيخ الصدّوق (ره) في كتاب (العقائد) أن الإمام الصادق (عليه السلام) سئل عن القُصّاص إن كان يحلّ الاستماع إليهم فأجاب : لا يحلّ ، وقال : من أصغى إلى قائل فقد عبده ، فإن كان قوله من عند الله عزّ وجلّ ، أي الحقّ والصدق ، فسامعه عابد لله ، وإن كان قوله من طرف الشيطان ، أي الكذب والباطل ، فسامعه عابد للشيطان .

وجاء في الكتاب نفسه أنّه (عليه السلام) سئل عن الآية الكريمة : ﴿ **يتّبعهم الغاوون** ﴾ ، فقال : هم القُصّاص ، الذي يقرأون القصص .

وفي تفسير الآية الكريمة : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره** ﴾ :

يروى عن الباقر (عليه السلام) أنّه قال : منهم القُصّاص ، أي هم أيضاً من الذين يجب الإعراض عن مجالسهم ، وعدم الاستماع إلى أقوالهم ، والكلام في هذا يطول ، ولا يتسّع له المقام .

عدم جواز الغناء في المراثي

أمّا الغناء فلا شكّ في حرمة الاستماع إليه مطلقاً أكان في مجلس عزاء ورثاء لسيّد الشهداء (عليه السلام) أم في غيره ، ويناسب في هذا المقام أن نكتفي بما نقله صاحب (شفاء الصدور) من شرح لزيارة عاشوراء إذ يقول بإجماع علماء الإماميّة على حرمة الغناء .

وإجمالاً ففي (الكافي) بسند ينتهي إلى محمد بن مسلم أن الصادق (عليه السلام) قال الغناء توعد الله عزّ وجلّ عليه بالنار ، ثم تلا :

﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ به عن سبيل الله بغير علم ويتّخذها هزواً، أولئك لهم عذاب مهين﴾.

وقالوا : إنّ لهو الحديث هنا بغنى عن التفسير ؛ وهذا المعنى عموماً في أخبار أهل البيت (عليهم السلام) يمكن القول بتواتره ، وفي بعض الأخبار فُسّر قول الزور به .

وحقيقة الغناء هي الصوت المطلوب به اللهو مع الترجيع ، أو الذي يحصل من تقطيع الصوت وتوزينه، كما في اللحن المشهور بالتصنيف، والنواح الموازن له بصبح مشهوراً؛ وقد صرّح بهذا التعميم الشيخ الأفقه الأكبر الشيخ جعفر في (شرح القواعد) ، ولا فرق ـ على المشهور ـ بين مرثية سيّد الشهداء (عليه السلام) وبين غيرها في الحرمة ، ولا يشترط حسن الصوت ، بل الميزان هو الصوت الذي يتلهّى به أهل الفسوق في حال الطرب ، ويقال له في العرف : التغنّي ، فكلّ ما غُنّي وعلى أيّ وجه كان فهو حرام وموجب لدخول جهنّم ؛ وإذا كان نشر الفضائل مستحبّاً فالكذب والغناء حرام وباطل .

ويناسب هنا إيراد ما قاله الشيخ الأجلّ الأعظم ، أستاذ من تأخّر وتقدّم ، حجّة الفرقة الناجية ، وعلاّمة الملّة الزاكية ، شيخنا الأستاذ الأكبر نوّر الله ضريحه المطهّر في (المكاسب) ، في الردّ على من يتوهّم أنّ الغناء في المراثي يوجب المزيد من البكاء والتفجّع ، يقول :

« الاستعانة بالغناء على البكاء والتفجّع ممنوع طالما عرفت أنّ الغناء صوت لهو ، البكاء والتفجّع لا يتناسبان مع اللهو ، بل بناء على ظاهر التعريف المشهور بأن اللهو هو الترجيع المطرب ، فهو كذلك ، ولو أنّ الطرب المطلق حالة مختلفة ، والطرب الناتج عنه ، إذا استبطن السرور ، ينافي التفجّع ، وليس معيناً عليه ، وإذا استبطن الحزن فبسبب ما هو مركوز في النفوس الحيوانية من فقد المشتهيات النفسانية ، لا بسبب أنه متّصل بسادات الزمان وعترة خاتم النبيّين ، وعلى فرض أنه يعين ، فإن توقّف مستحب أو مباح على أمر ليس دليلاً على إباحته ، بل لا بدّ من التحرّي عن دليل الحرمة ، فإذا وجد فبها ، وإلاّ فهو ـ بحكم الأصل ـ سيكون محكوماً بالإباحة .

ولا يجوز ـ بأيّ وجه ـ التمسّك بالإباحة على أنّها مقدّمة لأمر غير حرام . وما يظهر من كلامه إذ قال : لا طرب في المراثي ، النظر إلى أمثال المراثي المتعارفة عند أهل الديانة الذين لا يكون مقصودهم من المرثية سوى التفجّع ليس إلاّ ؛ وظاهراً لم يحدث في عصره مراثٍ كهذه بحيث يكتفي أهل اللهو والسرور من الرجال والنساء بتلك المراثي عن حضور مجالس اللهو

وضرب الأعواد والتغنّي بالقصبة والمزمار كما هو شائع في أيّامنا ، وكما أخبر النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بنظيره حيث قال : « يتّخذون القرآن مزامير » .

كما أنّ السفر لزيارة سيّد الشهداء (عليه السلام) أضحى من أسفار اللهو والنزهة عند كثير من المترفين ، وقد أخبرنا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بنظير ذلك في سفر الحجّ إذ قال : يحجّ أغنياء أمّتي للنزهة ، وأوسطهم للتجارة ، وفقراؤهم للسمعة ؛ وكلامه (صلّى الله عليه وآله) على الأغلب ينطبق على الكتاب العزيز الوارد في مورده . والجاري في نظيره » وتنتهي إلى هنا ترجمة عبارة (المكاسب) للشيخ قدّس الله نفسه ، وروّح رمسه .

وبما أنّ عموم أهل هذه الملّة من عالم وعاميّ يرون كلام هذا الحجّة المقدّم والقدوة المعظّم جارياً مجرى النصوص ، فيستحسن التأمّل في دستور عمله وسلوكه وتصرّفه نموذجاً لانتحظّاه .

إنّ من أعظم مصائب الإسلام أنّ المؤمن الغيور إذا أسلم الروح من شدّة هذا المصاب ، فهو غير ملوم ، فنرى الناس ـ طلباً للهو وعبادة الهوى ـ يزجّون بأسماء أهل بيت الطهارة (عليهم السلام) ، الذين مجّدهم ربّهم بالكرامة والعظمة ، مثل زينب وسكينة (عليهما السلام) ، يزجّون بأسمائهن مع آلات اللهو واللعب ؛ كما يدفعون في الأغاني والمثالث والمثاني بأسماء مثل ليلى وسلمى ويعيدون ويكرّرون ، ويتّخذون من ذكر مصائب الرسول (صلّى الله عليه وآله) بسيرة بني اميّة وبني مروان أساساً للعيش والتنعّم ، ووسيلة للتغنّي والترنّم؛ ولو تأمّل المرء هذا العمل الذي جاوز حدّ الفسق لطاش صوابه من الكفر والإلحاد؛ نعوذ بالله من الخذلان ، وغلبة الهوى ، ومكيدة الشيطان . انتهى .

وقد وردت في مقدّمة كتاب (أربعين الحسينيّة) نصيحة بالغة ، وموعظة جامعة ، من المناسب إيرادها هنا ، قال :

على أهل المذهب من متديّني الاثني عشريّة لزوم الوقوف على أنّه ليس في عصرنا شعار في مذهب الشيعة أكثر شيوعاً من مراسم العزاء والبكاء على المصاب بسيّد المظلومين (عليه السلام) ، بل إنّ أكثر الآثار والسنن والآداب الشرعيّة قد هُجرت عدا التوسّل بسيّد الشهداء (عليه السلام) الذي هو أساس الأمل والرجاء عند الشيعة ، والذي هو في سبيل الترقّي والكمال يوماً بعد يوم .

غير أنّه يجدر أن تضبط حدود هذا العمل بما يطابق قواعد الشرع الأقدس ، وأن لا يكون مورداً للطعن والاعتراض من المذاهب الأخرى ، ونظراً للاتّصال والاختلاط الكاملين بين اهل هذا المذهب مع أهل المذاهب الأخرى ، وأنّ واقعة كربلاء ومصاب سيّد الشهداء

(عليه السلام) مذكوران ومحقّقان في أكثر تواريخ الملل ، فمن اللائق الاحتراز في مجامع العزاء عن الأمور المبتدعة وعن منهيّات الشريعة المقدّسة ، كلّ الاحتراز ، كآلات العزف والتغني المطرب ، وما يكثر وقوعه من تحويل مجامع العزاء إلى مجالس للهو واللعب .

وجاء في حديث يبيّن حال أناس كهؤلاء : « يطلبون الدنيا بأعمال الآخرة » ، وهذه الحركات توجب الحرمان من الثواب العظيم ، والشيطان هو العدوّ لكلّ أنواع الناس ، وكلّما كان العمل أكثر نفعاً ، كان توجّه الشيطان لإفساد هذا العمل أكثر ؛ كالتوسل بسيّد الشهداء (عليه السلام) الذي يوجب ـ بحسب ضرورة الدين وأخبار الأئمّة الأطهار (عليهم السلام) ـ الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة ؛ بينما لا يكون العمل الموجب لنفع دنيويّ أهلاً لتوجّه تامّ ، وهجوم عامّ ، كذكر المصائب الذي أضحى وسيلة من الوسائل المعتبرة للمعاش ، ولوحظ انحسار الناحية التعبّديّة شيئاً فشيئاً حتى بتنا نسمع في مجامع علماء المذهب أكاذيب صريحة تذكر ، والنهي عن هذا المنكر غير متيسّر ، وأضحى جماعة من ذاكري المصائب لا يتورّعون عن اختراع وقائع مبكية ، وكثر اختراع الأقوال منهم ، واعتبروا أنفسهم ممّن يشملهم الحديث : « من أبكى فله الجنّة » ، وشاع هذا الكلام الكاذب مع الأيام حتى صار يظهر في مؤلّفات جديدة ، وإذا حاول محدّث مطّلع أمين منع هذه الأكاذيب ، نسبوها إلى كتاب مطبوع أو كلام مسموع ، أو تمسّكوا بقاعدة التسامح في أدلّة السنن ، وتوسّلوا منقولات ضعيفة توجب اللوم والتوبيخ من الملل الأخرى ، كجملة من الوقائع المعروفة التي ضبطت في الكتب الجديدة ، في حين أنّه لا عين ولا أثر لهذه الوقائع عند أهل العلم والحديث ؛ كعرس القاسم في كربلاء الذي نقل في كتاب (روضة الشهداء) من تأليف الفاضل الكاشفيّ ، وقام الشيخ الطريحيّ ـ وهو من أجلّة العلماء والمعتمدين ـ بنقله عنه ، ولكنّ في كتاب (المنتخب) أموراً كثيرة جرى التساهل والتسامح بها ، وهي لا تخفى على أهل البصيرة والاطّلاع . انتهى .

نصح وتحذير
للسلالة الجليلة من أهل المنبر

كما هو لازم ولائق بالسلالة الجليلة من أهل المنبر والذاكرين لمصاب سيّد الشهداء والمظلومين (عليه السلام) ـ الذين شمّروا عن سواعد الهمّة ، ورفعوا لواء تعظيم شعائر الله فوق أكتافهم ، وبذلوا من أجل تنظيم هذا المشعر العظيم نفوسهم ـ أن يلتفتوا إلى أنّ هذا العمل عبادة كسائر العبادات ، وإذا كان كذلك فينبغي حين أدائه أن لا يُنظر إلى غرض أو مقصد منه سوى رضى الله وسرور رسول الله وأئمّة الهدى صلوت الله عليهم أجمعين ، وأن يحذروا من المفاسد التي طرأت وسرت في هذا العمل العظيم ، لئلاّ يكون في إقدامهم على هذه العبادة العظيمة رغبتهم بكسب مال أو جاه ، أو يبتلوا ـ والعياذ بالله ـ بقول الكذب ، والافتراء على الله تعالى ، وعلى الحجج الطاهرة والعلماء الأعلام ؛ وبالغناء ـ والأطفالُ المرد أمامهم ـ بألحان الفسوق بالتغنيّ والأداء ؛ ودخول بيوت الناس دون إذن ، بل مع النهي الصريح ؛ وصعود المنبر وإيذاء الحاضرين ـ إذا لم يبكوا ـ بكلمات بليغة ، وترويج الباطل وقت الدعاء وقبل الحضور ، ومدح أناس لا يستحقّون المدح ، وإنزال الإهانة بأكابر الدين ، وإفشاء أسرار آل محمّد (عليهم السلام) ، وبثّ الفتن وإعانة الظَّلَمة ، وزرع الغرور في نفوس المجرمين ، وتجرئة الفاسقين ، والتقليل في الأنظار من شأن المعاصي ، وخلط حديث بحديث آخر على نحو التدليس ، وتفسير الآيات الشريفة بآراء كاسدة ، ونقل الأخبار بمعاني باطلة فاسدة ، والإفتاء مع فقدان الأهلية له ، أكان بحقّ أم بخلافه ، والحطّ من شأن الأنبياء العظام والأوصياء الكرام (عليهم السلام) بسبب تعظيم وإعلاء مقامات الأئمّة (عليهم السلام) ، والتوسّل ـ لتزيين الكلام وتزويق المجلس ـ بأقوال الكَفَرة ، الحكايات المضحكة ، وأشعار الفَجَرة الفَسَقة في أمور منكرة ، وتصحيح أشعار المراثي الكاذبة بعنوان لسان الحال ، وذكر الشبهات في مسائل أصول الدين دون بيان رفعها أو عدم توفّر قوّتها ، وإفساد أسس الدين عند ضعفاء المسلمين ، وذكر ما يتنافى مع عصمة أهل بيت النبوّة وطهارتهم (عليهم السلام)، وإطالة

الكلام بسبب أغراض كثيرة فاسدة ، وحرمان الحاضرين من فضيلة الصلاة ، إلى غير ذلك من أمثال هذه المفاسد التي لا تعدّ ولا تحصى .

وأن يحذروا أن يدخلوا ـ والعياذ بالله ـ في زمرة أولئك الذين يستبقون مقدّمات الوعظ ، فيذكرون حيناً الخطب البليغة لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، ومواعظه الشافية ، ومسلكه وعمله ، ويخوفون الناس من محنة الدنيا وآفاتها ومهلكاتها ، ويحثّونهم ويحرّضونهم على بغض الدنيا والزهد فيها ، ويستشهدون بأحوال قادة الدين وخواصّ الأصحاب والعلماء الراشدين ، ويتحدّثون حيناً عن أحوال النفس وصفاتها من خوف ورجاء وتوكّل ورضى ، وعن الرذائل الخبيثة والصفات القبيحة وغيرها ؛ ويبيّنون ما حفظوه من كتاب الغزاليّ وغيره بغاية الفصاحة والبلاغة ، وبلا توقّف ولُكنة ، ويزيّنون كلامهم بالآيات والأخبار المناسبة للمقام بترتيب وتنظيم ، ولا ينسون ذكر الكلمات التي يمتزج فيها السجع بالقافية .

يتوهّم أولئك المساكين أنهم بأقوالهم هذه إنّما يتّصفون بها أنفسهم ، في حال أنّهم ـ في تلك الصفات ـ لم يرقوا عن درجة أدنى عاميّ ، ومثل الوالِه بجيفة الدنيا وقد لوّثته خبائث الرذائل كمثل صاحب مجلس غفل عنه الناس حين دخوله أو خروجه ، ولم يقوموا بلوازم تكريمه وتوقيره التي كان يتوقّعها ، أو أنه لم يكن الذي يختم هذا المجلس ، فيضطرب بعضه في بعضه ، فيشكو ويتعلّل بأمور تافهة ، ويثير الفضائح ، ويخيّل إليه أنّه ـ في تلك الحال ـ من أهل الله وأهل الآخرة ، ومن الداخلين في زمرة خدم سيد الشهداء (عليه السلام) روحي فداه ، ويتوهّم أنّه بسبب حفنة من المحفوظات المنبريّة قد تطهّر من الرذائل والخباثات كلّها ، وبرىء من أخلاق الرذيلة عند عوامّ الناس والمستمعين في المجلس .

ولا يخفى على البصير وعلى من يتحرّى عيوب النفس أن شخصاً كهذا حاله كحال سراج يحرق نفسه ويضيء للآخرين ، وهو من الداخلين في زمرة الغاوين بنصّ الآية الكريمة : ﴿ **فكُبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾ ، وممّن تشملهم الآية الشريفة : ﴿ **ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله** ﴾ ، والآية المباركة : ﴿ **أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم** ﴾ ؟ والآية الكريمة : ﴿ **لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾ ؟ وغيرها .

ولقد أجاد الحافظ الشيرازيّ إذ قال :

يا واعظاً عظة المُناصح إذ علوت المنبرا ... ما بال فعلك عكس قولك إذ تركت المنبرا ؟

تدعو تلحّ على المتابة سامعيك وإنّما ... قد كنت فيهم للمتابة والإنابة أفقرا

أفهل نسيت بأنّ يوم البعث آتٍ وبه ... عند الحساب الواعظُ المرتابُ لن ، لن يعذرا؟

قال تعالى :

﴿ قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّوا سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ﴾ .

كان ما تقدّم بيانه شرحاً لتكاليف أهل المنبر ومن نحا نحوهم ، أمّا تكاليف الآخرين ، تلك التكاليف التي يفيدون منها ويصلون بالتزامها إلى فيوضات لا تحدّ ولا تحصى ، سواء في ذلك صاحب المجلس أو غيره من الحضور والمستمعين ، فأن يقوموا باعانته ورعايته ، وتوقيره وإكرامه، والإحسان إليه، والإنعام عليه بالمال واللسان وسائر الجوارح بقدر ما بِهِ من قوة، وبقدر ما تحدّث به ممّا هو معهود به إليه، وليس ما يقومون به نحوه قطّ وفاء بحق ما عاد به عليهم من هذا العمل ، إذ ان ما فعلوه له وما أعطوه ـ بالغاً ما بلغ ـ إنما هو من متاع الدنيا الذي لا يعدل خيطاً واحداً من بُرد من أبراد الجنّة التي سينالون الآلاف منها بواسطة هذا المجلس الروضة ، فهم مهما أعطوا فقليل عطاؤهم ، ومهما صنعوا فقليل صنعهم .

عطايا الأئمّة الأطهار وحكاية الكميت الشاعر

وتلك كانت السيرة المرضيّة للائمّة الأطهار (عليهم السلام) مع هذه الجماعة وأمثالها ، ارجع فقط إلى الأحاديث والآثار وانظر كيف هي العطايا التي أمر بها الإمام زين العابدين (عليه السلام) للفرزدق الشاعر بعد أن أنشده القصيدة المعروفة ، ولاحظ عطايا الصادق (عليه السلام) لأشجع السلمي بعدما جاءه عائداً وأنشدهم بيتين مطلعها : ألبسك الله منه عافية . . الخ .

وكان لديه (عليه السلام) أربعمئة درهم أعطاها لأشجع الذي أخذها شاكراً ومضى ، فدعاه وأعطاه خاتمه وقيمته عشرة آلاف درهم ، وقصّة عطاء الإمام الرضا (عليه السلام) لدعبل الخزاعي معروفة فقد أعطاه (عليه السلام) مالاً كثيراً وجبّة ، وفي رواية أنّه أعطاه خاتم عقيق وقميصاً من خزّ أخضر كان قد صلّى فيه ألف ليلة في كلّ ليلة ألف ركعة ختم فيها القرآن الكريم ألف مرّة .

وجاء نقلاً عن (الغرر والدرر) للسيّد أنّ دعبل بن عليّ وإبراهيم بن العبّاس وكانا صديقين حميمين ، قدما إلى ثامن الأئمّة (عليهم السلام) بعد أن أصبح وليّاً للعهد ، فأنشد دعبل :

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزل وحي مقفر العرصات

وأنشد إبراهيم قصيدة مطلعها :

أزالت عزاء القلب بعد التجلّد مصارعُ أولاد النبيّ محمد

فمنحهما (عليه السلام) عشرين ألف درهم وفيها الدراهم التي صكّ المأمون اسمه المبارك عليها ، فجاء دعبل بحصّته إلى قمّ حيث اشتراها أهلها منه درهماً بعشرة دراهم فبلغت حصّته مئة ألف درهم ، أمّا إبراهيم فقد احتفظ بها حتّى وفاته .

ولمّا تعلّم أحد أبناء الحسين (عليه السلام) سورة الحمد أعطاه (عليه السلام) ألف أشرفي[1] وألف ثوب ، وملأ فمه لؤلؤاً ، وقال : كيف يفي هذا العطاء بعطائه ؟!

وقد تقدّم في فصل مكارم أخلاقه (عليه السلام) أنه أعطى عربيّاً أربعة آلاف درهم بعد أن أنشده :

لن يخيب الآن مَن رجاك ومن حرّك من دون بابك الحلقة

ومع هذا العطاء كلّه فقد خجل منه . سأله العذر بقوله : « خذها فإنّي إليك معتذر . . » .

وسيأتي عند الحديث عن أحوال موسى بن جعفر (عليهما السلام) ـ إن شاء الله ـ أنه جلس مكان المنصور في عيد نوروز بأمر من المنصور نفسه ، وجاء الناس للسلام عليه ومع كلّ منهم هديّة بقدر وسعه ، وكان آخرهم شيخاً فقيراً جاءه فقال : ليس معي من هديّة إلّا ثلاثة أبيات قالها جدّي في رثاء جدّك الحسين (عليه السلام) ، فقال أنشدنيها ، فلما أنشدها قال له : قبلت هديّتك ، اجلس ، فجلس الرجل ، وبعث (عليه السلام) إلى المنصور يسأله في شأن الأموال التي اجتمعت من الهدايا ، فأجابه المنصور بأنّها بكاملها هديّة له ، فقدّمها (عليه السلام) بدوره هديّة للشيخ لقاء المرثية التي أنشدها .

وينقل المؤرّخ أمين المسعوديّ رحمه الله في (مروج الذهب) في بيان سبب العصبيّة القبليّة بين النزاريّة واليمانيّة ، والتي كانت المقدمة لوصول العبّاسيين إلى السلطة والقضاء على الأمويّين أنّ الكميت بعد أن قال قصيدته « الهاشميّات » قدم البصرة فلقي الفرزدق وقرأ عليه القصيدة ، ومطلعها :

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً منّي ، وذو الشيب يَلْعَبُ ؟

فلمّا سمعها الفرزدق استحسنها وأشار عليه بنشرها ، فأتى الكميت المدينة فلقي الباقر (عليه السلام) ذات ليلة وأنشده قصيدته الميميّة ، فلما بلغ قوله :

وقتيل بالطفّ غودرَ منهم بين غوغاء أمّة وطغام

(١) الأشرفيّ : عملة ذهبيّة كانت رائجة في إيران أيام الملك أشرف القاجاري .

بكى الإمام (عليه السلام) وقال : يا كميت ، لو كان عندي مال لوصلتك ، لكنّي أقول لك ما قاله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لحسّان بن ثابت :

« لا زلت مؤيّداً بروح القدس ما ذببت عنّا » .

ثمّ إن الكميت غادره وأتى عبد الله بن الحسن وأنشده أشعاره ، فقال عبد الله : لقد اشتريت ضيعة ذات أرض وماء بأربعة آلاف درهم ، وهذا صكّ ملكيّتها ، ثم أعطاه الصكّ ومنحه تلك الضيعة ؛ فقال الكميت : بأبي أنت وأمّي ، لو قلت شعري لغيركم فللمال والدنيا أقوله ، ووالله ما رجوت من أجلكم أهل البيت إلاّ الله عزّ وجلّ ، وما كان لله فلا آخذ له ثمناً ، فأصرّ عبدالله إصراراً شديداً فقبل الكميت عطاءه ومضى عنه .

وبعد أيام أتى الكميت إلى عبد الله وقال : إنّ لي إليك حاجة ، قال : حاجتك مجابة فقل ما هي ، قال : أريد أن تستردّ مني الصكّ والضيعة ، فقبل ، عبد الله .

في ذلك الوقت جاء عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بثوب من جلد ، ودعا أربعة من أطفاله ، فأخذ كلّ منهم بطرف من أطرافه الأربعة ، ثم أمرهم بالاختلاف إلى دور بني هاشم ، ونادى بهم يقول :

يا بني هاشم ، هذا الكميت يقول الشعر فيكم حين سكت الناس ، وها هو يتحدّث عن دمائكم التي سفكها بنو أميّة ، فليصله كلّ منكم بما يقدر عليه ، فجعل كلّ منهم يلقي في هذا الثواب بما قدر عليه من درهم ودينار ، كما دعا نساء بني هاشم للمشاركة ، فرحن ينزعن ما عليهنّ من حليّ وزينة ويقدّمنها من أجل الكميت ، حتى اجتمع له ما قيمته مئة ألف درهم .

جاء عبد الله بما جمعه إلى الكميت وقال له : يا أبا المستهلّ ، أتيناك بجهد المقلّ ، ونعتذر إليك أننا في زمان دولة عدوّنا ، وجمعنا لك هذا وفيه كما ترى حلي النساء ، فاستعن بها على أيّامك .

قال الكميت : أبي وأمّي لكم الفداء ، لقد أكثرتم العطاء ، وليس لي من غرض من مدحكم سوى الله تعالى ورسوله (صلّى الله عليه وآله) ، فلا آخذ منكم شيئاً ، ولتردّوها إلى أصحابها ، ولم يفلح عبد الله في ثني الكميت عن قراره .

وجاء في روايات السنّة أن صاعداً مولى الكميت قال : أتينا الإمام الباقر (عليه السلام) وأنشده الكميت قصيدة مطلعها : من لقلب متيّم مستهام . . . فقال (عليه السلام) : « اللهمّ اغفر للكميت ، اللهمّ اغفر للكميت » .

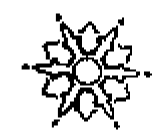
وقال صاعد : أتى الكميت الباقر (عليه السلام) ذات يوم فأعطاه (عليه السلام) ألف دينار وكسوة ، فأبى الكميت أخذ المال ، وقبل بالكسوة تبركاً بها وتيمناً .

وقال : تشرّفنا مرّة بالحضور لدى فاطمة بنت الحسين (عليهما السلام) ، فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، وقدّمت له قدح سويق فشرب منه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً وراحلة ، فبكى الكميت وقال : والله لا أقبلها ، إنّي لا أصنع ما أصنعه معكم حبّاً بالدنيا . الخ .

هذا إلى قضايا كثيرة من هذا القبيل ، وما كانت هذه الإطالة إلاّ لتنبيه بعض أصحاب النفوس الضعيفة من أصحاب مجالس العزاء إلى أنّهم عندما يقيمون مجلس تعزية كم يحطّون من قدر السلالة الجليلة لأهل الذكر والمراثي ، ويحسبون بسبب ذلك الكسب الجزئيّ أنهم بعد مدة مديدة قد اشتروا بهذا الإيلام ناصية المنبر ووضعوا طوق العبوديّة في عنقه ، وما أكثر ما يصدرونه من الأوامر والنواهي ، وما أكثر ما لديهم من توقّعات وآمال زائفة ، علاوة على الأضرار والمفاسد الأخرى الكثيرة والتي لا يمكن إصلاحها بهذه الجزئيّات ؛ وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر ؟ لكنّ للعالِم أن يظهر علمه .

نبّهنا الله وإيّاكم من رقدة الغفلة ، والسلام على من اتّبع الهدى .

تمّ بحمد الله المجلّد الأول من كتاب (منتهى الآمال في ذكر تواريخ النبيّ والآل) بيد مؤلّفه عبّاس بن محمّد رضا القمّيّ ، وسيتلوه الشروع ببيان أحوال الإمام زين العابدين (عليه السلام) في المجلد الثاني إن شاء الله تعالى ، والله هو الموفّق .



محتويات الكتاب

الباب الأول
في تاريخ خاتم الأنبياء محمد (ص)

الباب الثاني
في تاريخ فاطمة الزهراء سلام الله عليها

الباب الثالث
في تاريخ سيد الأوصياء عليّ بن أبي طالب (ع)

الباب الرابع
في تاريخ الإمام الحسن المجتبى (ع)

الباب الخامس
في تاريخ الإمام الحسين عليه السلام

المقصد الأول
في ولادة الإمام الحسين عليه السلام
وذكر طرف من فضائله

المقصد الثاني
في بيان ما جرى على الإمام الحسين (ع)
منذ تحرّكه من المدينة حتّى نزوله في كربلاء

المقصد الثالث

في قدوم الإمام الحسين (ع) إلى كربلاء

المقصد الرابع
في الوقائع المتأخرة عن استشهاد الإمام الحسين (ع)

